تأليف
رانيا
عمارة
أم الديب
الجزء الثالث

رواية أم الديب الجزء الثالث

المقدمة

تهرب باحثة عن ملاذٍ في السفر، ساعية وراء راحة بعيدة عن عائلتها التي تظن أنها جذر معاناتها، بينما الحقيقة أنها هي منبع كل أزمة في حياتها. تحمل في عودتها مشروعًا لجني الأموال، وكأنها تقود طائرًا جريحًا إلى قمة برج الثراء. لكن رحلتها تصطدم بواقع جديد: مرحلة إعداد العروس التي تستعد لمواجهة معركة أخرى في الحياة، معركة الزواج. وهناك الكثير من الأمور الأخرى التي تبدو وكأنها تحمل أهمية لا تقل عن هذه.

<u>رواية بنكهة مسلسل</u>

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لصاحب هذا العمل، ولا يجوز نسخ أو إعادة إنتاج أي جزء منه بأي وسيلة كانت، سواء إلكترونية أو مطبوعة، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

© رانيا عمارة ٢٠٢٤

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الأول

بعد مرور ليلة ثقيلة الظلال، متخمة بالتحديات والمحن التي كانت تنهمر على تلك الأسرة المنعزلة، التي، رغم وحدتها، كانت تتعرض لأزمات متجددة متلاحقة، كأن الحياة قد اختارتها لتكون ساحة لصراعات لا تنتهي، على عكس كل العائلات الأخرى التي تحيط بها سكينة الحياة وسلامها النفسي، حيث الهدوء يسود في كل جوانبها؛ في إحدى ليالي تلك الحقبة العصيبة، وبينما الأفكار تتصارع في ذهن أم الديب، خطرت لها فكرة جريئة وغير متوقعة، وكأنها ومضة برقٍ فرَّت من بين الغيوم الثقيلة، قررت أن تقضي إجازة في بلاد الخارج تستعيد فيها بعضًا من هدوئها النفسي الضائع، مرافقةً في ذلك أم قمر الدين، صديقتها التي أغرتها بفكرة مبنية على أوهام خاطئة لم تقم بإدراك أبعادها المستقبلية، ولا ما قد يترتب عليها من عواقب، لكن رغم ذلك، استقرت الفكرة في ميناء أفكار أم الديب، وأصرت بعنادٍ شديد على تنفيذها، وكأنها تريد أن تطوي صفحة حياتها السابقة وتنسى معالم وجه عائلتها، محوهم من ذاكرتها إلى أجل غير مسمى، وبعدما جمعت أمتعتها في حقيبة، واندفعت هاربة نحو منزل صديقتها الثرية، تاركة وراءها كل شيء، وصل الخبر إلى المعلم حنفي، الذي كان في تلك اللحظة في متجره، المتواضع في ظاهره والغني بطموحه، متجر المشروبات الذي أسسه بهدف جني الأموال وتحقيق أحلامه، وحين علم بخروج أم الديب المفاجئ دون سابق إنذار، صرخ بصوت جلجل أرجاء المكان، وكأن الكلمات خرجت منه كطلقات نارية، ممتلئة بالحنق، وهو يتساءل بامتعاض عارم :

_راحت فين اللي ربنا ياخدها ويريحنا من همها خرجت راحت فين يا هايدي؟

أجابت هايدي بصوت يرتجف تحت وطأة الخوف الذي سيطر على ملامحها، وقد شاب كلماتها شعور بالعجز المتجذر، بعدما بذلت كل ما في وسعها في محاولة يائسة لإصلاح الأمور؛ هرعت خلف والدتها تناديها بأعلى صوتها، آملةً أن تلقى صدى نداءاتها، لكن دون جدوى:

=معرفش، أنا جريت وراها علشان ألحقها بس مردتش عليا.

قال المعلم حنفي بصياحٍ مدوٍ كالرعد في ليلةٍ عاصفة:

_أقفلي يا هايدي أما نشوف آخرتها معاها إيه، سلام.

أنهى المعلم حنفي المكالمة الهاتفية مع هايدي وقد بدت على ملامحه جهابذ التوتر الذي حاول كتمانه، ثم التقط الهاتف مجددًا واتصل على أم قمر الدين، ولكن هذه المرة كان صوته مغايرًا؛ خرجت كلماته بنبرة هادئة، كهدوء ما قبل العاصفة، قائلًا لها :

_السلامو عليكو يا ست بسملة.

ردت أم قمر الدين بابتسامة هادئة ترتسم على شفتيها، غير مُدركة أن تلك الابتسامة الوادعة كانت في الحقيقة استراحة قصيرة قبل أن تنقض عليها الكارثة التي تتقدم نحوها بخطى ثقيلة:

=هاي يا معلم حنفي، أخبارك إيه؟

تحدث المعلم حنفي بنبرة هادئة رغم أن في أعماقه كان بركانٌ مشتعلٌ بالحنق، ينبجس بصمت ويكاد ينفجر:

أم الديب الجزء الثالث

_الحمدلله، هو سعادتك اتفقتي مع الولية إنكوا مسافرين النهارده؟
أجابت أم قمر الدين بنبرة واضحة، خالية من التردد، وكأنها تقطع الشك باليقين دون أن تدرك حجم ما تخفيه الأحداث وراء ستار الغموض:
=لا خالص، بس أنا كنت وعدتها إننا هنسافر سوا، ده حتى قولتلها شوفي عايزة نسافر امتى ونسافر في الوقت اللي يعجبك!

قال المعلم حنفي بامتعاضٍ واضح، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الإحباط:
_يبقى جاتلك، هايدي دخلت على أمها لقيتها مجهزة الشنطة ونزلت بيها، جرت وراها تلحقها، معبرتهاش!

ردت أم قمر الدين بصدمة عارمة، وكأن كلمات المعلم حنفي قد صفعتها بقوة لم تكن تتوقعها. تلاشت الابتسامة التي كانت ترتسم على شفتيها، وامتلأت عيناها بالذهول وهي تستوعب ما سمعته للتو، غير مستوعبة أن أم الديب، تلك التي كانت تظنها بعيدة، في طريقها نحوها الآن، تحمل معها فوضى لم تكن أم قمر الدين مستعدة لمواجهتها. قالت بصوت متقطع:
=مش معقول، أم الديب جاية دلوقتي حالًا؟ المفروض كانت تعرفني علشان نجهز إجراءات السفر!
تلفظ المعلم حنفي بسخط عارم، والكلمات تتفجر من بين شفتيه كالصخور المتهشمة:
_وهي اللي زي دي ليها ظابط ولا رابط؟ دي ماشية على حل شعرها وأهو لا حد يقدر يقولها تلت التلاتة كام.

نطقت أم قمر الدين بابتسامة:
=أوكي يا معلم حنفي، متقلقش أنا هتصرف!
جلس المعلم حنفي على الكرسي مجددًا، وكأن عبءًا ثقيلًا قد زال عن كاهله، وقال بفرح خفي، يتلذذ بغياب المتسلطة عن حياته، كأنه يكتشف لذة الحرية التي لطالما افتقدها، رغم أن هذا الشعور كان يتعارض تمامًا مع ردة فعله في بداية الأمر:
_الله يخليكي، أوعي تفكري يا ست بسملة إن آني زعلان، لا ده آني طاير من الفرحة إنها غارت... ياريت تخليها عندك شهرين تلاتة نكون ارتاحنا منها شوية!
ضحكت أم قمر الدين بخفة، وكأن نغمة ضحكتها كانت بمثابة نسيم بارد في يوم حار، وقالت بنبرة مرحة تعكس سعادتها المفاجئة:
=مش معقول، للدرجة دي زهقت منها؟

تلفظ المعلم حنفي باختناق، وكأنما تصرفات أم الديب كانت كيد حديدية تطوق حول عنقه، تدفعه نحو حافة الانهيار، وهو يحاول جاهدًا التماسك:
_أمال إيه؟ ده مش آني لواحدي اللي زهقت، ده كلنا.
بثت أم قمر الدين الطمأنينة في قلب المسكين، وقد كانت كلماتها بمثابة البلسم الذي يخفف الجروح، بعدما وعدته بتحمل الأمر، حتى وإن كان عسيرًا. قالت برفق:

أم الديب الجزء الثالث

=خلاص متقلقش سيب الموضوع ده عليا.

رد المعلم حنفي بسكينة تغلف كلماته، وكأن عبءًا خفيفًا قد انزاح عن كاهله:
_الله يخليكي، هشيلهالك جِميل فوق راسي.
تفوهت أم قمر الدين بثقة:
=أوكي يا معلم حنفي، أنا هقدر أتعامل معاها بطريقتي، باي.
قال المعلم حنفي بانشراح يتخلل صميم قلبه، وكأن نسمات الأمل قد بدأت تداعب روحه:
_الله يسترك، سلامو عليكو، سلام.
عند ليالي في شقتها، كانت نعمة متواجدة معها، تتبادل الأحاديث والمشاعر في جوٍ من الألفة، حينما بادرت ليالي بالإفصاح عن ما حدث للوالدة، وقد بدا على وجه نعمة قلقٌ عميق حيال حالتها، خاصةً في هذا السن الذي يفرض تحدياتٍ صحية ويمنعها من التحمل أو مواجهة متاعب الحياة؛ إذ إن نعمة كانت تعي تمامًا المخاطر التي تتربص بالوالدة، كالجري في الشوارع المزدحمة بالسيارات، ومواجهة غبار الأجواء الذي يثقل على الصدر ويجعل التنفس أمرًا عسيرًا، ما زاد من توترها بينما جلست مع ليالي قالت لها:
=ألا يجرالها حاجة، دي ست كبيرة، ومش حِمل بهدلة على السكك يا ليالي.

لكن ليالي لم تبالي بما حدث لحماتها، بل كانت مشاعرها مرتبطة بشعور المعلم حنفي الذي كان ينبض في قلبها، كأنما كانت تلك الروح القوية، التي اعتادت على مواجهة الصعاب، قد غمرت كيانها بالكامل، وكأنها، عند مغادرة أم الديب، قد نزعت معها كل الطاقات السلبية التي أثقلت كاهلها لفترة طويلة، تاركة خلفها عبءًا ثقيلًا كان يجرها نحو الأسفل، مما جعلها تشعر وكأنها قد انطلقت نحو فضاءٍ جديد، مليء بالأمل:
_أهو هايدي نزلت وراها معرفش إيه اللي حصل تاني.
تفوهت نعمة بخوف، وكأن كلماتها تتسرب من بين شفتيها كنسمة باردة في ليلة مظلمة:
=طب والله ماحنا ناقصين ده احنا اللي فينا مكفينا، ده ربنا العالم.
ردت ليالي بهدوء، وكأن الهدوء الذي يلفها كان درعًا يحميها من ضغوط الحياة، بينما كانت تنفض ثيابها من الأتربة، تعبر عن رغبتها في التخلص من كل ما يثقل كاهلها:
_هنعمل إيه طيب يا نعمة؟ أمك ماشية بدماغها ومحدش يقدر يتكلم معاها نص كلمة، دي تبلعه!

قالت نعمة باستياء، وقد ارتسمت على ملامحها علامات الإحباط:
=يارب أسترها، خشي ارتاحي يا ليالي وأنا هكلم أبويا أحكيله.
نهضت ليالي، وقد تملكها شعور من العزم، وألتفتت إلى نعمة، بينما كانت نظراتها تحمل مزيجًا من الحزم، قالت:
_ماشي يا نعمة.
نهضت نعمة هي الأخرى، ونشبت بيد طفلها بإحكام، وكأنها تستمد منه القوة لتواجه الموقف، ثم تحدثت إلى محمد وليالي، بينما كانت كلماتها تتدفق بحب:

أم الديب الجزء الثالث

=يلا يا محمد، سلام يا ليالي.
ردت ليالي، وقد بدا على وجهها مزيج من الهدوء:
_سلام.
خرجت نعمة وابنها من شقة ليالي، متوجهين إلى شقة الوالدة، وعندما دخلت، وجدت هايدي جالسة على الأريكة في الصالة، بدت وكأنها غير متأثرة بغياب الوالدة، حيث كانت مشغولة تمامًا بهاتفها، تتجول بين مواقع التواصل الاجتماعي وكأن العالم من حولها قد توقف، وبمجرد أن دخلت نعمة، سألت هايدي بفضول واضح، وكأنها تسعى للحصول على تفاصيل جديدة:
=إيه اللي حصل يا هايدي؟
أجابت هايدي بسكينة، وكأنها لم تكن في قلب الحدث، بل كانت تعيش في عالم آخر بعيد عن المشاعر المتأججة، قائلة إن كل شيء يبدو هادئًا:
_مشيت بشنطة السفر، دي حتى خدت نضارة الشمس بتاعتي... فضلت أجري وراها ولا كأنها سامعاني، كأني بنده هوا.

استخرجت نعمة هاتفها من حقيبتها الصغيرة، وألقت نظرة سريعة عليه، ثم قالت بمعالم وجه قلقة، تعكس ترددها، وشعورها بالضيق:
=أنا هكلم أبويا أحكيله.
نطقت هايدي بهدوء، وكلماتها تتدفق كنسمة لطيفة في يوم حار، مفعمة باللامبالاة:
_لا مانا كلمته وحكيتله، متتصليش بيه!
قالت نعمة بخور شديد لا يخفى، ونبراتها كانت تعكس عمق قلقها المتزايد:
=طب والعمل إيه بس يا هايدي؟
لم تنظر هايدي لأختها وهي تحدثها، بل ظلت ناشبة هاتفها بين يديها باهتمام كبير، وكأن العالم من حولها قد تلاشى، ثم قالت بهدوء عجيب، يخلو من أي انفعال، مما زاد من إحباط نعمة:
_عادي، صدقيني مش فارقة هي كده كده هتريحنا منها شوية، ده أنا كان نفسي اليوم ده يجي من زمان!

بعد كل ما تعرضت له نعمة من تحت يد أم الديب، وكأن شيئًا لم يحدث في عالمها، كان حنينها للوالدة يزداد كل دقيقة عن الأخرى، يشتعل في قلبها كاللهب المتأجج، تخشى عليها الأذى من الآخرين، رغم أنها كانت تدرك في أعماق نفسها أن والدتها هي سبب الكثير من المشكلات وليس الناس، مما جعلها تتعجب من القسوة التي تكنها أختها نحو والدتها، كأنها تنفي عنها كل مشاعر الحب التي تستحقها، لذلك قالت بشجن، معبرة عن مشاعرها المتناقضة:
=حرام عليكي يا هايدي، دي أمك مهما كان، ده احنا من غيرها منسواش جنيه... هي بركتنا اللي منورة حياتنا.
ضحكت هايدي، وقالت بسخرية، وكأنها لا تعير حديث نعمة أي اهتمام، مما زاد من شعور الأخيرة بالإحباط:

أم الديب الجزء الثالث

_ضحكتيني بجد، لا بجد ضحكتيني أوي يا نعمة، انتي واعية بتقولي إيه أصلًا؟ هو يا بنتي مفيش فايدة فيكي؟ مهما تعمل معاكي هتفضلي حاطة فردة جزمة في بوقك وساكتة؟ لأ ولسه بتشكري فيها؟
تفوهت نعمة بصياح:
=انتي عبيطة يا هايدي؟ دي أمنا، هو انتي بتتكلمي عن حد غريب؟ دي أمك، واللي مالوش خير في أهله مالوش خير في حد!
نظرت هايدي إلى نعمة باشمئزاز، غير مقتنعة بما تقوله، وكأنها ترى في كلماتها شيئًا من السذاجة، ثم نهضت من على الأريكة وسط الأجواء الساكنة التي كانت تثقل الأجواء بحضورها الثقيل، ودخلت غرفتها، مشيرة بحركات يديها التي تدل على الاستخفاف، مما جعل نعمة تشعر بأن تلك الإيماءات كانت بمثابة طعنة في قلبها، فقالت بجلبة حارة:
_طب والله انتي ما ليكي خير في الشبشب اللي انتي لابساه ده، هيبقى ليكي خير في أمك؟ بنات عجب.
عند أم قمر الدين، كانت جالسة على الكرسي في حديقة القصر الجميل، محاطة بألوان الأزهار الزاهية، ورائحة الندى العطرة، منتظرة أم الديب بفارغ الصبر، تعكس ملامح وجهها الترقب، حتى جاءت الخادمة لها بخطوات متوازنة، وكأنها تحمل في تلك اللحظة الأخبار التي قد تغيّر مجرى الأحداث، وأخبرتها قائلة :
_أم الديب برا في إنتظار حضرتك ست هانم!
قالت أم قمر الدين بابتسامة حيث بدت وكأنها تستعد لاستقبال زيارة قد تحمل معها تغيرات جديدة:
=أوكي دخليها.

ردت الخادمة بتبجيل، وكأنما كانت كلماتها تحمل طابع الولاء، مشيرةً بذلك إلى استعدادها الكامل لتنفيذ أي أوامر أو رغبات:
_أوامرك ست هانم.

دخلت الخادمة تنادي أم الديب، التي كانت تنتظر بحقيبتها أمام بوابة القصر، وعيناها تتراقصان إزاء جمال الثراء ونزاهته، وكأنها تأمل في عالم جديد يفتح أمامها، فحدثتها باحترام، تحمل في نبرتها كل علامات التقدير، قائلة:
_اتفضلي أم الديب.
دخلت أم الديب القصر، تتلفت حولها بإعجاب، وسألت باهتمام، وقد بدت على وجهها علامات الفضول الممزوج بالتوقع:
=انشالله يخليكي، انتي اسمك إيه؟
أجابت الخادمة بابتسامة خافتة، وكأنها تحاول إخفاء بعض الأمور عن أم الديب، بينما كانت عيناها تحملان بقايا القلق:
_اسمي تولين‍از.
في أثناء دخولهم سويًا للقصر، اندهشت أم الديب من اسم الخادمة الذي لم يمر عليها طيلة حياتها، مبدية استغرابها، حيث بدا الاسم غريبًا على مسامعها، وكأنها تتساءل في نفسها عن أصل هذا الاسم وما يحمله من قصص وتجارب، مما جعلها تتطلع إلى الخادمة برغبة في فهم المزيد عن هويتها:

أم الديب الجزء الثالث

=إيه الاسم الغريب دهو؟ انتي منين يا بت؟ شكلك مش مصرية.
تفوهت الخادمة بابتسامة، وهي تحاول التحدث بطلاقة كالمصريين، لكن كل مرة كانت تفشل، ويغلبها لهجتها المنحنية التي تحمل نبرة من نشأتها:
_لا أنا مش مصرية أم الديب.
نطقت أم الديب بدهشة، وكأن الكلمات تخرج منها باندفاع، تعكس استغرابها:
=أمال منين؟
أجابت الخادمة بوضوح:
_من تنزانيا.
سألت أم الديب بتفكير، وكأنها تحاول استكشاف أبعاد جديدة في هذا الحوار:
=عمري ما سمعت عنها، مش دهي اللي بيبيعوا فيها كحك بعجوة؟

في تلك الأثناء، اقتربت أم قمر الدين من أم الديب وعانقتها بحنان، كأنما كانت تلك اللحظة تعيد ربط خيوط العلاقة بينهما، قائلة بحب، تعبر عن مشاعرها الدافئة:
_ازيك يا أم الديب؟ وحشاني موت!
بادلتها أم الديب العناق، مفعمةً بحنوٍ عميق كحكايات العشق الأزلية، حيث كانت كل لمسة تجسد ذكريات مفعمة بالشوق:
=وانتي كمان يا ست بسملة.
أشارت أم قمر الدين لأم الديب نحو الكرسي بيدها، في لفتةٍ تحمل في طياتها تواضعًا يعبّر عن عمق الأخوة، قائلةً بعبارات ملؤها الاحترام:
_أقعدي ارتاحي يا أم الديب!
جلست أم الديب فوق الكرسي الزاهي، تستكن إلى راحته بعدما أرهقتها مشقة الطريق، تلك المسافات الطويلة التي قطعها قلبها شوقًا للوصول إلى صديقتها المقربة، وقد انزلق التعب من شفتيها في كلماتٍ تنم عن إنهاكٍ عميق:
=الله يستر عرضك.

جلست أم قمر الدين على الكرسي الذي يليها، وقد غمرها شعور بالدهشة، كأنما استوقفتها مفاجأة الحياة عند عتبة الوعي، فأنطلقت كلماتها تتردد في أجواء المكان:
_قوليلي بقى مستعجلة ليه كده؟ احنا مش اتفقنا نظبط أمورنا الأول قبل السفر؟
حملت الخادمة حقيبة أم الديب وصعدت بها لأعلى، تاركةً للصديقتين مساحةً من الحرية تعبر فيها الكلمات عن أحلامهما. ثم أجابت أم الديب، متفجرةً بشجنٍ وهي تصف معاناتها مع ملل الحياة بين أهل القرية، حيث كانت كل لحظة تمر كعمرٍ من الانتظار بلا أمل:
=آني زهقانة من الدار وهمه، محدش فيهم عاتقني لوجه الله... آني عاوزة أفصل دماغي عنهم، وأشوف الدنيا.
لكن أم قمر الدين كانت تواجه صعوبة بالغة في رحلة السفر، إذ تعثرت أمام تعقيدات حجز الطائرة، فما كان لها أن تجد فرصتها في الحصول على مقعد في الرحلة نفسها، بل كانت مضطرة لتحمل عبء

أم الديب الجزء الثالث

الانتظار لمدة يومين على الأقل لتعيد حساباتها بدقة، وتستعد للخطوة الكبيرة التي تتطلب منها الكثير من التخطيط، مما زاد من وطأة القلق في قلبها، وقالت:

_ماهو يا أم الديب مش هينفع نسافر خالص النهارده؛ لأن احنا معملناش أوراق السفر! بس مش مشكلة خليكي قاعدة عندي كام يوم لحد ما نجهز أمورنا.

ردت أم الديب بإحراج، حيث تلاشت ابتسامتها تحت وطأة الموقف، وكأن خيوط الكرامة قد تشابكت في أعماقها، فاندلقت كلماتها الخجولة:

=لا يا ست بسملة آني مش عاوزة أتقل عليكي.

قالت أم قمر الدين بإحسان، كأنما تحنو على روح صديقتها بكلماتها الدافئة، مستحضرةً كل معاني العطف:

_لا لا بليز متقوليش كده يا أم الديب، احنا مفيش فرق بينا، وبعدين الڤيلا واسعة عليا... ده انتي هتنوريني!

تفوهت أم الديب بسعادة، حيث انطلقت كلماتها كزقزوقة عصفور في صباح مشمس، مفعمةً بالامتنان:

=الله يخليكي، ده ربنا العالم غلاوتك عندي عاملة ازاي.

ردت أم قمر الدين بابتسامة:

_أنا عارفة يا أم الديب من غير ما تتكلمي، اطلعي ارتاحي أكيد تعبتي من المشوار!

نهضت أم قمر الدين مع أم الديب، لتصعدا سويًا إلى الطابق العلوي، حيث كانت أم الديب تراقب بدهشةٍ روعة المنزل، متأملةً التفاصيل الدقيقة والأثاث الفاخر، وكأنها تستشعر أنها داخل إحدى تلك المباني الفخمة التي كانت تراها فقط في المسلسلات التليفزيونية. وقد أبدت إعجابها بكلماتٍ تفيض بالدهشة، تعكس شغفها بجمال ما حولها:

=اسم الله عليكي، الدار بتاعك واسع وحلو، وهواه يرد الروح.

قالت أم قمر الدين بابتسامةٍ تنبض بالحياة، وكأنها تسكب في كلماتها عبق الألفة:

_ميرسي يا أم الديب عقبال ما تجيبي بيت أحسن منه بمليون مرة.

تلفظت أم الديب بتمني، وأمنياتها تتراقص في فضاء المكان، محملةً بشغفٍ عميق ورغبة في تحقيق ما يبدو بعيد المنال:

=يارب يا ست بسملة يارب.

بعد دقيقة من السير، وصلوا إلى غرفة أم الديب التي خصصتها أم قمر الدين لضيوفها القادمين، حيث كانت غرفة ماستر تتسم بالفخامة ووجود مرحاض خاص بها، وعندما دلفت إليها، لفت انتباهها الثلاجة الصغيرة التي احتوت على تشكيلة متنوعة من الشوكولاتة الفاخرة والعصائر المنعشة، بينما كانت النافذة تطل على منظر الحديقة الواسعة التي زينتها الألوان الزاهية، مما جعلها تشعر بذهول، وكأنها دخلت عالمًا من الخيال لم يكن لتخيل وجوده في حياتها اليومية:

_يا حلاوة يا ولاد، دهي الأوضة اللي هقعد فيها؟

ردت أم قمر الدين بحنو، وكانت تعبر عن مشاعر الألفة التي تربطهما:

أم الديب الجزء الثالث

=أه طبعًا، وعايزة أقولك خدي راحتك جدًا، عايزة تنزلي البول مفيش مشكلة، وأه صحيح خلاص ميعاد الغدا قرب، هبعتلك أي واحدة من الخادمات اللي عندي تبلغك.

وصلت المعلومة إلى رأس أم الديب بشكل خاطئ، حيث اعتقدت بخطأ فادح أن الحديث يدور حول قذروات الإنسان، وكأن غمامة من الجهل قد حامت فوق عينيها، مما جعلها تتفاعل مع الموقف بصدمةٍ عميقة، تنم عن استغرابها من هذا التصور البعيد عن الواقع، وقالت:

_هو انتوا عدم اللا مؤاخذة بتسبحوا في الـ*؟ ده بيقولك فيه مواد ضارة بتعمل تسمم، أمال إيه؟**

ردت أم قمر الدين باستغراب، وهي تتأمل تلك الفكرة الغريبة بعينٍ مشوبة بالدهشة:

=مش فاهمة يا أم الديب!

قالت أم الديب بصدمة كبيرة، وكلماتها كانت تحمل عبءًا ثقيلًا من الدهشة، تعكس عدم تصديقها لما سمعته:

_الحمام اللي لا مؤاخذة يعني اللي هو، انتوا بتنزلوا فيه ازاي؟ أوعي يا ست بسملة لا يعملك أمراض انتي مش قدها.

وبعد تفكير، تلاشى الغموض أخيرًا عن عقل أم قمر الدين، فتفجرت ضحكتها الكبيرة، كأنما أطلقت سراح كل التوتر الذي كان يعتصر قلبها، وعبّرت بدهشةٍ حقيقية عن انكشاف الأمر، قائلة:ً

=أوه مش معقول يا أم الديب، انتي فاكرة إننا بنعوم في القرف ده؟ بول يعني حمام سباحة!

قالت أم الديب بإحراج، وخجلها يتجلى في ملامح وجهها، حيث تدفقت كلماتها بتوترٍ يعكس مدى ارتباكها:

_ايهي يقطعني، آني مبفهمش الكلام دهو، اعذريني آني ست جاهلة.

قهقهت أم قمر الدين، وقد انبعثت ضحكتها كأنها لحنٌ مُبهج في الأجواء، وقالت بابتسامة دافئة بينما كانت تشير إلى الهاتف الموجود فوق السرير، مما أضفى على اللحظة روح الطمأنينة:

=لا خالص يا أم الديب أديكي عرفتي، لو احتاجتي أي حاجة كلميني من الموبايل ده!

ردت أم الديب بسكينة، وكأنها استلهمت من اللحظة شعورًا بالهدوء:

_وماله انشالله يخليكي، ويكرمك، ومنتحرمش منك.

خرجت أم قمر الدين من الغرفة، وأوصدت الباب خلفها لتعود إلى حديقتها الرحيبة، بينما جلست أم الديب على السرير، مفتحةً الثلاجة لاستخراج الشوكولاتات المتنوعة، حيث راحت تأكل بشغف، حتى اتسخ الفرش والوسادات من الشوكولاتات المتناثرة حولها، ولم تترك قطعة واحدة حتى استقرت في معدتها، وكأنها في احتفال خاص بمذاق الحياة. وفي اليوم التالي، ومع وجود جلال في المستشفى بعد أن افتعل مشكلة كبيرة مع الشاب الذي غازل أخته في السوق، مما أدى به، ولأول مرة، إلى التعرض للوطأة بالسكاكين على يد الأشرار، وقد انتهى به المطاف طريح الفراش في المستشفى، حيث جاءت ليالي ومعها أطفالها، ونعمة وزوجها، ليكونوا بجانبه في محنته، وعندما بدأ جلال يفوق من غيبوبته، وقفت نعمة إزاءه، قائلةً بسرورٍ يغمر قلبها:

=سلامتك يا جلال ياخويا.

فاق جلال من علته، وذهبت عنه آثار الألم، ليجد نفسه محاطًا بأحبائه، ناسيًا ما حدث ليلة المشكلة، فتدفق صوته بعبارات مفعمة بالدهشة، وكأنه يخرج من كابوسٍ إلى نورٍ جديد، وقال:

أم الديب الجزء الثالث

_هو إيه اللي حصل يا نعمة؟
قالت نعمة بأسف، وهي تحني رأسها للأسفل في لفتة تعكس مشاعرها المضطربة، حيث انساب صوتها بنبرة حزينة كنسيمٍ خفيف يلامس الوجدان:
=خناقة وعدت على خير، قوم بالسلامة وارجع وسطنا تاني.
سأل جلال بإرهاق، وكأن التعب قد ترك بصماته على ملامح وجهه، حيث تخللت نبرته نغمات من الضعف:
_هتروحوني امتى؟
أجاب حامد، مُتجاوزًا أجواء القلق التي تحيط بهم:
=الداكتور قال النهارده، شد حيلك معانا.
ليالي، وقد ارتسم على ملامحها عبق من حزن دفين، انسابت كلماتها بترح هادئ كنسيم الليل البارد، وكأن صوتها يحمل أثقالًا من ذكريات عابرة:
_والنبي يا حامد تروح تسأل الداكتور وتشوف إيه آخر الأخبار.
حامد، وقد انعكس في عينيه بريق التأثر، تردد صوته كأنما يعبر عن إحساس خفي يتصارع في صدره، ليخرج الكلام مشوبًا بحرارة مشاعره المتدفقة:
=ماشي.

خرج حامد من الغرفة بخطوات مثقلة بالقلق، متوجهًا لمقابلة الطبيب ليتقصى آخر المستجدات حول الحالة الصحية المتدهورة لجلال، الذي كان يمر بأيام عصيبة تترك آثارها على الجميع. وفي تلك اللحظة المفعمة بالألم، استدارت نعمة نحو نافذة الغرفة، وقد ارتسم على وجهها شبح من الترح، لتقول بضيق واضح وكأنما تبوح بأثقال قلبها المثقل بالهموم:
_يرضيك اللي أمك عملته ده؟

جلال، وقد بدت علامات الإرهاق جلية على وجهه الشاحب، رفع عينيه المثقلتين بالتعب بصعوبة، وسأل بصوت خافت متهدج، وكأن كلماته تخرج من عمق الألم الذي يعانيه:
=عملت إيه؟
أجابت نعمة بامتعاض:
_أمك لمت هدومها ومشيت.
لكن ليالي، وكأن جبالًا من الهموم قد انزاحت عن كاهلها، انتابها شعور ارتياح عميق، ذلك النوع من الراحة الذي لا يُقدّر بثروات العالم ولا يمكن تعويضه بملايين الكون، حينما اختفت أم الديب من حياتهم بمشاكلها التي بدت كأنها لا تعرف نهاية، وفي تلك اللحظة التي شعرت فيها بالتحرر من عبء ثقيل، ارتسمت على وجهها ابتسامة مشرقة، وقالت بفرحة غامرة تنبض في أعماقها:
=أسكتي والنبي، ده أرحملنا مليون مرة من قعدتها وسطنا، ده كفاية بس البيت هيكون فاضي ورايق.
من الواضح أن نعمة كانت تغلي في داخلها، تتأجج بداخلها رغبة خفية في الاشتباك مع ليالي، دفاعًا عن والدتها التي كانت بالنسبة لها خطًا أحمر لا يُمكن المساس به، ومع تراكم الضغوطات وانفجار المشاعر التي لم تعد قادرة على كتمانها، قالت بضيق مكبوت:

أم الديب الجزء الثالث

_ماهي لو أمك يا ليالي اللي عملت كده كان زمانك بتلفي حوالين نفسك.

ليالي، وقد ارتسم على شفتيها ابتسامة ساخرة تحمل في طياتها برودة التحدي، أجابت باستهزاء واضح:
=وأنا أمي عمرها ما تعمل العبط اللي أمك بتعمله ده! أنا أمي عاقلة وراسية، لكن أمك ماشية بدماغها ومنين ما مزاجها يقولها اعملي وخلي في ساعتها بتعمل ومبتتأخرش دي حتى مبتعملش حساب عيالها ولا بتفكر إيه اللي ممكن يحصلهم!
نعمة، وقد تجمدت ملامحها للحظة تحت وطأة المفاجأة، تلفظت بكلماتها بصدمة واضحة، وكأنها لم تصدق ما سمعت للتو. صوتها خرج متقطعًا، يحمل في طياته مزيجًا من الذهول، وعيناها اتسعتا كأنهما تبحثان عن تفسير لما يحدث أمامها، عاجزة عن استيعاب الرد الذي واجهها بحِدة غير متوقعة، وقالت:
_قصدك يا ليالي إن أنا أمي عبيطة ومخها تعبان؟
لم تعر ليالي أدنى اهتمام لما قد تكون نعمة تشعر به في تلك اللحظة، وكأنها قد أغلقت قلبها عن أي إدراك لما تسببت فيه من ألم يتسلل بهدوء إلى صدر نعمة، الذي ضاق فجأة تحت وطأة المشاعر المتشابكة. ليالي لم تكن تدرك عمق الجرح الذي خلّفته كلماتها، وكأنها كانت تلقي بكل حرف بعناية، تحمل كل كلمة قصدًا محددًا، كسهم مصوب بعناية نحو هدف واضح، وقالت:
=كل واحد عارف اللي فيها كويس يا نعمة.
نهضت نعمة بسرعة، وقد تملّكها شعور الغضب الذي أضفى على وجهها لمسة من الحدة، وقالت بوعيد يحمل في طياته تحديًا صريحًا:
_احترمي نفسك يا ليالي، ومالكيش دعوة بأمي!
ردت ليالي بصخب، وكأن صوتها يتردد في أرجاء الغرفة مثل رعد قوي يقتحم سكون اللحظة:
=أنا محترمة نفسي غصب عن أي حد، محموقة علشان أمك ليه؟ ولا نسيتي كل اللي عملته فينا زمان ودلوقتي؟
تفجرت كلمات نعمة من شفتيها كعاصفةٍ هوجاء، حاملةً في طياتها ضجيجًا كأنه الرعد في ليلة عاصفة، يملأ الأجواء بصوتها الذي يعكس اضطرابًا لا يمكن تجاهله، قائلة:
_لا منسيتش، بس دي في الأول والآخر أمي وأنا عالطول ساكتة وبعديلك ومباخدش على كلامك، لكن انتي بتدبي كلام زي السكاكين وناسية إن دي أمي اللي خلفتني وجابتني للدنيا!
خرجت الكلمات من فم ليالي محمّلة بامتعاضٍ خفيّ، كأنّها سكاكين حادة تتسلل في الهواء، تعبّر عن نفورٍ دفين يتسرّب من أعماقها دون قدرة على إخفائه، قائلة:
=أمك هي السبب في كل حاجة، لو كانت كويسة ولامة نفسها مكنش كل ده حصل!

ردت نعمة بصدمة:
_أنا أمي مش كويسة يا ليالي؟
بدت الأمور وكأن الاثنين قد استغلا مرض جلال الذي لم يكن في الحسبان كذريعةٍ خفية للاشتباك والاندفاع في مواجهةٍ مباشرة لأول مرة منذ فترة طويلة، وذلك بعد أن كانت علاقتهما مثالًا يحتذى به في الود والتفاهم، حتى أن الجميع كانوا ينظرون إليهما بإعجاب ويغارون من مدى الانسجام الذي كان يربط بينهما. لكنّ مجرّد إصابة جلال بعلته تلك قلبت المعادلات رأسًا على عقب. وسط كل هذا، أطلق

أم الديب الجزء الثالث

جلال كلماته بنبرةٍ قاسية، تعكس ما يعصف به من ألمٍ وسخط، مشيرًا إلى أنه رغم كل شيء، فإن الموقف لا يرحم:

=وربنا لو كنت سليم كنت قومت كسرت عضمكم انتوا الإتنين، آه، آه.

وصل حامد أخيرًا برفقة الطبيب بعد جدالٍ طويل امتد بينهما على طول طرقات الوحدة الصحية، حيث أجاب الطبيب:

_أه تقدروا تمشوا دلوقتي، بس أهم حاجة الإلتزام بالعلاج!

جاء رد حامد محمّلًا بنبرة ارتياح، وكأنّ ثقلًا كبيرًا قد أزيح عن كاهله، فتسربت كلماته بهدوءٍ لافت بعد أن كانت متوترة قبل لحظات:

=شكرًا يا داكتور، يلا همتكم معايا نقوم جلال.

اجتمع الثلاثة بعد جهدٍ كبير، وقد تملّكهم شعور بالمسؤولية المشتركة، ليحملوا جلال بحذر، متعاونين في كل خطوة، حتى وصلوا أخيرًا إلى سيارتهم التي كانت متوقفة في الخارج. هناك، قاموا بوضعه في المقعد الخلفي بحرصٍ شديد، وكأنّهم يضعون أثمن ما يملكون، فيما كانت الأنفاس تتردد ثقيلة من شدّة التعب. رغم علم الجميع بأن حامد لم يكن على دراية كافية بفنون القيادة، وأن محاولاته السابقة باءت بفشلٍ ذريع، إلا أنه قرر في تلك اللحظة تحمّل المسؤولية كاملةً، جالسًا خلف عجلة القيادة بعزيمة مشوبة بالارتباك، عاقدًا العزم على أن ينجح هذه المرة. في تلك اللحظات الحرجة، جلست نعمة في المقعد المجاور، بينما كانت عيناها متعلقتين بأخيها، وقد امتلأت نظراتها بشجنٍ عميق لا يمكن وصفه، تذكرت فيه كل لحظات طفولتهما المشتركة، وقالت بتأثرٍ بالغ يعكس ما يعتمل في قلبها من شجن:

=سلامتك يا جلال انشالله اللي يكرهك.

اشتعلت النيران في أعماق ليالي، وقد اجتاحت مشاعر الغضب روحها بشراسة، وكأنها تحولت إلى مفترسٍ يتربص بفريسته، يرغب في نهش أعداء زوجها بفظاظة لا حدود لها. كانت تتمنى لو أن بإمكانها أن تقتص منهم بيدها، محوّلةً الألم الذي تشعر به إلى قوة دافعة، تُشعل نيران الانتقام في قلبها. ومع كل تلك المشاعر المتلاطمة، انطلقت كلماتها من أعماقها، محملةً بغلٍ يفيض من حنجرتها كأنه صرخة كبتت لفترة طويلة:

_آه لو أطولهم بس، هقطعهم بإيدي وسناني!

مدّ حامد يده بتأنٍ نحو تارة القيادة، محاول أن يمسك بزمام الأمور في لحظة فارقة، مترددة بين الفشل والنجاح. وفي تلك الأثناء، انعكست على وجهه المسؤولية الثقيلة التي ألقتها الظروف على كاهله. كانت نظراته ثابتة إلى الأمام، مفعمةً بتصميمٍ هادئ رغم كل المخاوف التي كانت تحوم حوله، ثم نطق بصوتٍ مليء بالواقعية:

=كان جوزك عملها... يلا بسم الله.

أدار حامد محرك السيارة بعزيمة، لتبدأ المركبة في التحرك ببطء نحو الأمام، لكن الطريق لم يكن سهلًا كما توقع. بدأت السيارة تنحني يمينًا ثم يسارًا، وكأنّها تتخبط في مواجهة العراقيل التي كانت تعترض طريقهم، مما أظهر بوضوح فشله في القيادة، وكأنّ كل تلك الأزمات كانت تعكس القلق الذي يعتري قلبه. كانت رأسه ملتصقة بزجاج النافذة، حتى بدا وكأنهما قطعة واحدة، دون أي مجال للهواء بينهما، في مشهد يعبّر عن توتره الشديد ورغبته في السيطرة على الوضع. حينما لاحظت نعمة أن السيارة بدأت

أم الديب الجزء الثالث

في التعطل، تسرب الخوف إلى عينيها، ليحجب كل شعور بالأمان، فخرجت منها كلماتها في لهجة مضطربة، قائلة:

_مالك يا حامد في إيه؟ انت مش عارف تسوق؟

أجاب حامد بكلماتٍ ملؤها الزيف، محاولة منه لإخفاء قلقه الحقيقي، لكن كذبته كانت واضحة كالشمس في يوم صاف:ٍ

=لا ده أنا بعرف، لعلمكم أنا وارث حوار السواقة ده من جدي الله يرحمه، كان معلم في السواقة ميختلفش عليه اتنين.

تدخلت ليالي في الحوار، وقد ارتسمت على وجهها ملامح السخرية الحادة:

_ماهو باين.

ظل يتخبط بين السيارات، وكأن القدر يلعب به، حتى اصطدم بقوة في الشجرة، مما أدى إلى انهيار وجه السيارة بشكل دراماتيكي، وسقوط أجزاء منها كأنها قطع متبعثرة من حلم تحطم. سرعان ما خرج من السيارة ليقوم بفحص الأضرار، بينما تبعته نعمة وليالي، وقد غمرهما الخوف، حيث كانت أجسادهما ترتعد من وقع الصدمة وعمق الموقف، وفي تلك اللحظة، حاول حامد أن يخفف من حدة الموقف بتعليقٍ يحمل طابعًا فكاهيًا غير مقصود، قائلًا:

=الشجرة دي مزروعة في حتة غلط يا نعمة!

أحنت نعمة فمها، وكان على وجهها تعبير ساخر يبرز قدرتها على مواجهة الموقف بروح ساخرة:

_الشجرة برضة؟

قالت ليالي باستهزاء، وهي تركز عيناها على حامد بنظرات تحمل الكثير من السخرية:

_قاعد تقولنا وارث السواقة من جدك وفي الآخر لبستنا في شجرة، ما قولنالك بلاش ونرجع مواصلات أحسنلنا.

صاحت نعمة فيها في الحال، وقد انفجرت كلماتها بعجيجٍ يفيض بالطاقة، كأنها تجسد كل ما يكمن في قلبها من مشاعر مختلطة، قائلة:

=مالكيش دعوة بجوزي يا ليالي، ومن النهارده لسانك ميخاطبش لسانا!

ردت ليالي بصياح:

_أحسن برضة، خليكي فاكرة الكلام ده يا نعمة علشان لما تيجي تكلميني ومعبركيش متبقيش تزعلي!

قال حامد بفزع، وقد برزت على وجهه ملامح الارتباك، وكأن الأحداث تتسارع من حوله بشكل يفوق قدرته على الاستيعاب:

=استهدوا بالله.

امتدت يدا جلال فوق جرحه، محاولًا التخفيف من الآلام التي كانت تعصف به، بينما كانت ملامح وجهه تعكس معاناةً عميقة، ومع كل حركة، كانت عذابات جسده تتصاعد، ليخرج منه صوتٌ منهك، يحمل بين طياته استغاثةً تعبر عن حالته:

_آه آه.

أم الديب الجزء الثالث

فرت ليالي على وقع صدح زوجها العليل، وقد غمرتها مشاعر الخوف، وكأن صوت معاناته كان ينبهها إلى خطرٍ يحيط بهم. اندفعت نحو جلال، يعتريها شعورٌ قوي بالقلق، بينما كانت تحاول استيعاب حجم الألم الذي يعاني منه. وعندما نطقت بكلماتها، كانت كالآتي:

=مالك يا جلال؟

بينما عند أم الديب، استيقظت من النوم محاطة بأوراق الشوكولاتة المتناثرة في كل مكان، مما أضفى على الغرفة فوضى غير مألوفة. في تلك اللحظة، دخلت أم قمر الدين، وفوجئت برؤية هذا المنظر المروع، حيث بدا وكأن الحياة قد توقفت في تلك الزاوية. كان وجهها يعكس الصدمة، وانطلقت منها كلمات تحمل في طياتها باشمئزاز، قائلة:

_انتي بترمي على السرير ليه؟

اعتدلت أم الديب في جلستها، واستقامت بابتسامة واسعة تعكس روحها المرحة، وكأن الفوضى من حولها لم تؤثر على مزاجها. كانت تلك الابتسامة تحمل طابعًا من الود، وكأنها تريد أن تحول الموقف المحرج إلى فرصة للضحك، وقالت:

=صباح الفل يا ست بسملة.

ردت أم قمر الدين باستغراب، غير قادرة على استيعاب كيف أن أم الديب استطاعت التهام كل تلك الحلوى بمفردها، كأنها كانت تتساءل عن قدرة الإنسان على الاستمتاع بكل تلك الكميات في وقتٍ واحد:

_صباح النور، انتي أكلتي كميات كبيرة من الشوكولاتة؟! انتي بجد مش خايفة على صحتك؟

ضحكت أم الديب لتخفي إحراجها، وكانت تلك الضحكة مليئة بالحيوية، وقالت:

=الجوع كافر، ده آني كنت جعانة من صباحية ربنا.

ردت أم قمر الدين بجدية، وقد عادت ملامحها إلى حالة من التركيز، وكأنها تحاول أن تعيد الأمور إلى نصابها. كانت كلماتها تُعبر عن قلقها من الفوضى، مُظهرةً أن هناك حدودًا لا ينبغي تجاوزها حتى في أوقات المرح. بينما كانت تنظر إلى أم الديب بعينين تملؤهما الحذر، قالت بوضوح:

_ماهو يا أم الديب أنا بعتلك البنات وقت الغداء وانتي كنتي نايمة حتى مرضتيش تصحي!

بسطت أم الديب ذراعيها على الفرش الحريري، وكأنها تستمتع بلحظة هدوء تحتضنها، ثم نظرت إلى نافذة القصر المطلة على الحديقة البديعة، حيث تلاقت ألوان الزهور المتنوعة مع خضرة الأشجار بشكل رائع. بدت عيناها تتأملان المشهد، مُعبرتين عن انسجامٍ عميق مع الطبيعة من حولها، وكأنها تجد في ذلك جمالًا يعيد لها توازنها الداخلي. ثم قالت بانسجام:

=أصل السرير دهو اسم الله عليه طري طراوة، اللي ينام عليه يروح دنيا تانية، مش زي الطوب اللي عندي في الدار تنامي عليه من هناهو، يجيكي نصيبة من هناهو.

اقتربت أم قمر الدين من السرير، وملامحها تعكس تواضعًا عميقًا، كأنها تسعى لتهدئة الأجواء بعد لحظات من الجدال. كان صوتها هادئًا ومليئًا بالمودة، بينما قالت بتواضع، مُعبرةً عن رغبتها في فهم ما يجول في خاطر أم الديب:

_ولا يهمك يا أم الديب، أنا هبعتلك أحسن ماتريس في الدنيا كلها.

تفوهت أم الديب بدهشة:

=يعني إيه عدم اللا مؤاخذة؟

أم الديب الجزء الثالث

أجابت أم قمر الدين بوضوح:
_مرتبة يعني!

قالت أم الديب بضيق:
=مآني قولتلك مبفهمش الكلام دهو، آني ست على قدي!
ردت أم قمر الدين بأسف، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الندم، كأنها تدرك أن جدالها السابق قد أساء إلى روح الألفة التي كانت تسعى لبنائها:
_سوري يا أم الديب، أنا بجد بنسى!
ضحكت أم الديب، وكأن تلك الضحكة كانت بداية لتغيير الأجواء نحو الأفضل. سألت بفضول، مُشيرةً إلى حماسة لا تُخفيها:
=خلاص يا ست بسملة، أمال منابي فين؟
لكن أم قمر الدين لم تفهم مقصدها، إذ كانت طبيعة معيشتها كسيدة ثرية بين الأثرياء قد جعلتها بعيدة عن بعض تفاصيل الحياة البسيطة، فارتسمت على وجهها ملامح التعجب. سألت بتعجب، وكأنها تسعى لفهم ما وراء تلك الضحكة وفضول أم الديب:
_مش فاهمة!
أعادت أم الديب سؤالها بطريقة أبسط، مُحاولةً أن تُقرب المعنى لتفهمه أم قمر الدين بشكل أوضح، فقالت بدون تعقيد:
=نصيبي في الأكل فين؟ أوعي تكونوا كلتوا الأكل بتاعي... ده آني هفتانة ودايخة وحالتي ما يعلم بيها إلا ربنا.

لم تقتنع أم قمر الدين بكون أم الديب راغبة في تناول الغداء بدلًا من الفطور، فقد كان ذلك يبدو لها غير منطقي، وكأن القواعد الاجتماعية قد تم خرقها. فقالت بصدمة:
_لا طبعًا يا أم الديب، انتي عايزة تاكلي أكل إمبارح في فطار النهارده؟
نهضت أم الديب من السرير وهي تقاوم آلامها، وقد تجلّت على ملامحها الإرادة القوية للتغلب على الصعوبات، فقالت بتفسير واضح، عازمةً على توضيح وجهة نظرها:
=مآني هقولك.
أنصتت أم قمر الدين لحديثها بعدما قالته، وقد تبدلت ملامح وجهها من الدهشة إلى اهتمام واضح، كأنها بدأت تتفهم المنطق وراء خيارات أم الديب. كانت تستمع بتركيز، محاولةً أن تستوعب كل كلمة، وقالت:
_قولي.

ثم خرجوا من الغرفة ونزلوا على الدرج وهما يتحدثان، حيث شرحت أم الديب لأم قمر الدين طبيعة معيشتها في الريف، مُعبرةً عن حرية عيشها التي لا تعوقها قيود الزمان أو المكان. كانت كلماتها تنبض بالحيوية، مُستعرضةً تفاصيل حياتها اليومية، حيث يمكنها تناول أي شيء في أي وقت دون الالتزام بروتين معين. نطقت بوضوح، مُبينةً كيف أن تلك الحياة قد أثرت على رؤيتها للأمور، وأكدت أن العادات ليست قاعدة صارمة، بل يمكن أن تكون مرنة تُعبر عن شخصية الفرد، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

=احنا عندنا بنفطر رز وطبيخ وفراخ ولحمة معندناش حاجة اسمها لا، ده حتى ساعات بنتغدا فول وطعمية.

ردت أم قمر الدين باشمئزاز، وقد ارتسمت على وجهها تعبيرات عدم الفهم، كأنها تجد صعوبة في تقبل هذا النمط من الحياة الذي يفتقر إلى القواعد التي اعتادت عليها:
_سوري، بس ده كده عك أوي!
تفوهت أم الديب بصراحة دون تزييف حقيقتها، وكانت كلماتها تتدفق بكل جرأة، مُعبرةً عن آرائها ومشاعرها دون خوف من ردود الفعل:
=احنا نفسنا حلوة أوي أوي، طب ده آني مجهزالك أكلة فول وطعمية إنما إيه، هتاكلي صوابعك وراها.
اشتهت أم قمر الدين في هذه اللحظة طعام الفقراء، وابتسمت بشهية واسعة، كأنها تسترجع ذكريات خاصة تربطها بأطباق بسيطة لكن مليئة بالنكهة والدفء. قالت، مُعبرةً عن رغبتها في تذوق تلك الأطعمة التي تحمل قصصًا وحكايات من الحياة اليومية:
_بجد؟ تعرفي إن أنا نفسي أوي أجرب الفول والطعمية؟
أكدت أم الديب على لذاذة طعام الفقراء بالرغم من بساطته، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الحماس، وهي تقول إن هذه الأطباق البسيطة تحمل في طياتها طعم الأرض، وجوهر الحياة:
=دي أكلة حلوة حلاوة، هو دهو الأكل اللي يشبع.
ازداد الحماس لدى أم قمر الدين، وهي تنوي كتابة طلباتها في ورقة للخادمة، متخيلةً صباحًا ممتعًا مليئًا بالنكهات البسيطة والمحببة. قالت بحماسة، مُعبرةً عن شغفها لتذوق تلك الأطباق التي تحدثت عنها أم الديب، وكأنها ترى فيها فرصة للابتعاد عن روتين الحياة الفاخر:
_خلاص أنا هنده توليناز تكتب طلباتنا، بجد نفسي أجرب الأكل ده أوي!
فرحت أم الديب أن صديقتها قررت الهبوط بمظلة على سطح الفقراء لتعيش معيشتهم، وقد تجلى الفرح على ملامح وجهها، كأنها ترى في ذلك بداية مغامرة جديدة ومليئة بالاكتشافات. نطقت بسرور، مُعبرةً عن حماسها:
=وماله يا ست بسملة، ده هيعجبك أوي.

ابتسمت أم قمر الدين لأم الديب، وعندما وصلوا للطابق السفلي، اتجهت مباشرة نحو المطبخ، حيث نادت الخادمة بحماس، وسردت لها مطلبها بكل وضوح، ومع انشغال الخادمة بتدوين الطلبات، اتجهت تولیناز نحو أم الديب، حاملةً الورقة والقلم، وحدثتها بكل تبجيل، مُعبرةً عن احترامها لرغباتها، قائلة:
_أؤمريني أم الديب.
نظرت أم الديب للسقف، وقد تملّكتها ذكريات الأطعمة التي تعيش برأسها، وكأنها تسترجع تفاصيل كل طبق بتأنٍ، وقالت بتفكير، مُستعرضةً تلك النكهات التي ارتبطت بحياتها، حيث كانت كل وجبة تحمل معها قصصًا:
=اكتبي عندك فول، طعمية، بتنجان، بصل، مخلل، بطاطس مهروسة، بطاطس صوابع، مسقعة، عجة.
قالت تولیناز:

أم الديب الجزء الثالث

_أوكي أم الديب.

دونت الخادمة كل ما طلبته أم الديب، ثم انطلقت مع السائق نحو أجود متاجر بيع الفول والفلافل في حي الأثرياء، حيث أضاف التجار بصمتهم إلى الطعمية بإدخال جبن الشيدر، والموزاريلا، والكيري، وعندما قررت النزول بمستواها، لم تتنازل عن اختيار أفضل الأماكن المتاحة، وحينما أنهت الخادمة مهمتها، عادت محملة بالأطعمة، التي وضعتها هي وزميلتها على فراشٍ في أرضية الحديقة وسط الزرع الأخضر المتلألئ، وقبل أن تجلس أم الديب وصديقتها، أخبرتها بوضوح، مُعبرةً عن رغبتها في مشاركة تلك اللحظة المميزة، مُشجعةً على الاستمتاع بكل لقمة، قائلة:

=بصي بقى يا ست بسملة، الأكلة دهي متنفعش غير على الأرض، لو هتجربي أكل الغلابة يبقى تجربيه بكل حاجة فيه!

نظرت أم قمر الدين باستمتاع رهيب نحو الأطعمة التي كانت تناديها بالاقتراب، وكأنها ترى أمامها لوحة فنية مليئة بالألوان والنكهات. وقالت باشتهاء، مُعبرةً عن شغفها لتجربة تلك الأطباق:

_معنديش مشكلة يا أم الديب، بجد نفسي أجرب العيشة دي أوي!

جلست أم الديب على الأرض، وقد بدت ملامحها مشحونة بالاستعداد، وكأنها تتهيأ لخوض تجربة جديدة، وقالت مُعبرة عن رغبتها في الانغماس في تلك اللحظة:

=يبقى بسم الله.

جلست أم قمر الدين هي الأخرى، ولامست الفلافل المحشوة جبن كيري لتتذوقها، مُستندةً إلى أساليب الاتيكيت التي اعتادت عليها. بينما كانت أم الديب تتناول الطعام بسرعة كبيرة، وكأنها في سباق، تبتلع اللقم دون مضغ، مما أضفى على المشهد طابعًا مقززًا. وفجأة، دخل باسم بهيبته المرموقة، ليجد أم الديب تلتهم البصل الأخضر بشراهة. سرعان ما توقفت أم قمر الدين عن الطعام، وقد بدت على وجهها علامات الإحراج، فقالت لزوجها بصوتٍ خافت، محاولةً استعادة بعض من توازن الموقف، مُعبرةً عن استيائها من الفوضى التي أحدثتها صديقتها:

_بليز يا باسم متفهمناش غلط!

قال باسم بصدمة:

=إيه اللي انتي بتاكليه ده يا بسملة؟

أجابت أم قمر الدين بإحراج، وقد ارتسمت على وجهها علامات الاستياء، مُحاولةً أن تخفف من حدة الموقف:

_سوري يا باسم، أنا كان نفسي أجرب الأكل ده أوي!

سأل باسم باشمئزاز:

=ازيك يا حاجة عاملة إيه؟

ردت أم الديب بعفوية، دون اختيار الكلمات الملائمة، مُعبرةً عن فرحتها بالطعام الذي أمامها، كأنها لم تُدرك الموقف المحرج. قالت بلهجة مفعمة بالحماسة:

_يا أهلًا وسهلًا يا حاج، تعالى خدلك فحل بصل، ده الأكل هيعجبك أوي.

تفوه باسم بتقزز، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الاستنكار، كأن ما رآه كان بعيدًا عن توقعاته:

أم الديب الجزء الثالث

=لا شكرًا، بعد ما تخلصي أكل يا بسملة أبقي تعالي عايزك.
قالت أم قمر الدين بإحراج:
_أوكي يا باسم.
غادر باسم وهو مشمئز مما رآه، في حين استكملت أم الديب طعامها بشغف، غير مُبالٍ بالنظرات من حولها. بينما كانت أم قمر الدين تشعر بالإحراج، غير قادرة على مواصلة تناول الطعام. قالت أم الديب ببراءة:
=كُلي يا ست بسملة، كُلي... خدي بصل هيبلع الأكل.
ردت أم قمر الدين باشمئزاز:
_لا مش للدرجة دي يعني!
عند وصول جلال وليالي إلى المنزل، صعدوا به إلى شقته ووضعوه فوق السرير، مُتجاوزين تعب الرحلة ومشقة الوضع، وبعد انتهاء المهمة، صعدت نعمة وزوجها إلى شقتهم، بينما دخلت ليالي المطبخ لتُحضّر المياه، مُفكرةً في كيفية تقديم العون لجلال في هذه اللحظة العصيبة، وبينما كانت مشغولة، سأل حمود عن وضع والده بصدمة، وقد ظهر على وجهه القلق:
=أبويا ماله؟
ردت ليالي بقهر ينهش روحها، وكل كلمة تخرج منها تحمل ثقل المعاناة. كان صوتها مرتعشًا، مُعبرًا عن الاضطراب الذي كانت تشعر به، وهي تتحدث عن حالة جلال:
_آخرة الشر وحشة، ياريت أبوك يتعلم من عَمْلته السودة دي، ويبطل جري على المشاكل.
فجأة، دون مقدمات، صدم حمود والدته برده الصادم، حيث أعلن بكل ثقة أنه ينوي أن يُكمل مسيرة والده في المستقبل كصانع مشكلات. كان صوته يحمل مزيجًا من التحدي. صدمته هذه كانت كالعاصفة في لحظة هدوء، حيث قال:
=أنا عاوز أبقى زي أبويا لما أكبر.

يتبع ....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الثاني

لم تستطع ليالي أن تستوعب كيف يمكن لعقل ذلك الطفل البريء أن ينحرف بتلك السرعة، ليحلم بمستقبلٍ غارقٍ في الظلام، حيث يريد أن يكون صورة ممسوخة عن والده، يتلبس عباءة الشر ويغدو أحد أولئك الخارجين عن القانون. كانت نظرتها إليه محملة بالدهشة، وهي تراه يحتضن وسادته كمن يبحث عن أمانٍ زائف وسط ركام من الفوضى، وفي قلبها، كان الرفض عارمًا، فقالت بصوت مملوء بالمرارة:

_يا نهارك أسود، تبقى زيه؟ هو أنا قادرة على واحد لما يبقوا اتنين؟

ضم حمود ذراعيه إلى صدره كمن يحاول احتضان كل ما يتوق إليه قلبه، تلك الأحلام التي لا تكف عن التحليق في سماء خياله، وكأنها نجوم بعيدة يظن أنها ستكون يومًا ما في متناول يديه. كان يردد بكلمات مليئة بالعزيمة، صوتها يشبه ضربات الطبول في ساحات المعارك، قائلًا:

=ماليش فيه.

أبعدت ليالي طفلها بعنفٍ لم يكن من طبيعتها، وكأنها تحاول أن تزيح عنه عبء الألم الذي يتكاثر في قلبها. في تلك اللحظة، غلبتها مشاعرها المتأججة، وخرج صوتها صارخًا كالعاصفة التي تحطم هدوء الليل، وهي تصيح فيه بحزنٍ مغلف بالضيق، محاولةً أن تجعله يدرك حجم الخطأ الذي يقترب منه، قائلة:

_وسع من قدامي، قال تبقى زيه قال، ما ده اللي احنا ناقصينه!

بعدما دفعت ليالي طفلها بعيدًا، خطت خطواتها الثقيلة نحو المطبخ. كانت حركتها كمن يحاول الهروب من شعورٍ لا يقوى على تحمله، لكنها كانت تدرك أن هناك واجبًا عليها أن تؤديه. أخذت كوب الماء، والعبوة الصغيرة التي تحوي الدواء، ثم عادت إلى غرفة النوم، حيث يرقد جلال في هدوء مريضٍ ينتظر العلاج. جلست بجواره برفق، وكأنها تخشى أن تؤذي تلك اللحظة الهشة بينهما. كانت عيناها تفيض بالحب الذي لم تخمده الصعاب، وهي تعطيه العلاج بيدين دافئتين، ثم مدت كوب الماء نحو شفتيه بحنو، وقالت بصوتٍ رقيق يحمل بين طياته طمأنينة الأمس وأمل الغد:

_خد يا جلال بسم الله.

بعدما ارتشف جلال الماء وأخذ علاجه بصمتٍ يشوبه الألم، وضعت ليالي الكوب على الطاولة بجانبها بحركة هادئة لكنها مثقلة بالهم، وفي لحظة سكون عابرة، امتدت يد جلال المرتجفة نحو الجرح الذي كان يغرس في جسده سيوفًا خفية من الألم، ثم قال بصوتٍ مهزوز، كأن كلماته تحمل معها ثقل سنوات من العذاب، مشيرًا إلى ألمٍ يتجاوز الجسد ليصل إلى الروح:

=آه، الجرح شادد عليا أوي يا ليالي.

نظرت ليالي إلى جلال بعينين مفعمتين بالشفقة، وكأن كلماته قد حركت شيئًا عميقًا في قلبها، عجزت عن إخفائه. ثم، بصوتٍ مليء بالتأثر، خرجت منها الكلمات ببطء، كأن كل حرف يحمل معه حزنًا دفينًا:

_سلامتك يا جلال ألف سلامة... بطل تجري ورا المشاكل بقى، المرة دي ربنا عداها على خير، المرة الجاية الله أعلم هيحصل إيه.

أم الديب الجزء الثالث

رغم الألم الذي كان يعصف بجسده المنهك، ورغم أن أيامه باتت تنقضي بين أسِرّة المستشفى الباردة، ظل جلال متمسكًا بأفكاره السوداوية، متشبثًا برغباته المدمرة في الانتقام من أولئك الذين مزقوا حياته وجعلوا من جسده ميدانًا للمعاناة. كان كبرياؤه المكسور يرفض الاعتراف بالهزيمة، وبدلًا من أن يتأمل في أخطائه ويتعلم منها ليتفادى المزيد من الانهيار، ظل كالسيف الذي يبحث عن معركته القادمة. بعينين مليئتين بتصميمٍ لا يتزعزع، قال بصوتٍ هادئ ولكنه مليء بالنار التي تشتعل داخله:

=وربنا مانا ساكت على حقي، وشوية الأوساخ دول أنا حطيتهم في دماغي ومش ساكت إلا لما أجيب أجلهم!

صرخت ليالي بأعلى صوتها، بعدما فاضت بها مشاعر القهر التي كانت تخنقها منذ زمن. لم تعد تستطيع تحمّل تلك التصرفات الطائشة التي يقوم بها جلال، تلك التصرفات التي تتحدى كل منطقٍ وتجعل حياته على حافة الموت مع كل خطوة يخطوها. صاحت فيه بحدةٍ لم يعرفها منها من قبل، وكلماتها محاولة أخيرة لإنقاذه من نفسه قبل أن يفوت الأوان:

_ارحم نفسك يا جلال وارحمنا معاك، انت بتجري على الشر ليه؟ ويفرض جرالك حاجة مين هيربي العيال؟

رد جلال بحُب:

=ليه يا بت بتخافي عليا ولا إيه؟

أجابت ليالي بصوتٍ مفعم بالحنان الذي لا يزال ينبض في قلبها، رغم كل ما مرت به من ألم. نظرت إلى جلال بعينين تملؤهما الشفقة، وكأنها ترى فيه ذلك الرجل الذي كان يومًا ما مصدر أمانها، وليس فقط الجسد المنهك والروح الضائعة أمامها الآن:

_طبعًا، أنا لو مخافش عليك هخاف على مين؟ ده انت جوزي وسندي وأبو عيالي، أمانة عليك ياخويا تمشي جنب الحيط.

استقرت رأس جلال في الناحية الأخرى، وكأنه يحاول الهروب من نظرة ليالي، تلك النظرة التي كانت تُغلفه بمزيج من الخوف. كان التعب قد استقر في ملامحه، وكأن ثقل العالم قد تكامل على كاهله، مما جعله يشعر بالعجز. بإنهاكٍ عميق يتسرب إلى صوته، قال كلمات تخرج من أعماق روحه المتعبة:

=لا أصيلة يا ليالي.

شعرت ليالي بضيق يتسرب إلى أعماق قلبها، بعدما فاجأها زوجها بردوده القاسية التي بدت كأنها شظايا من زجاج تحطمت على جدران مشاعرها الرقيقة. كانت كلماته تحمل في طياتها تجاهلًا صارخًا لما يختلج في صدرها من مشاعر فياضة، لذا حاولت أن تتماسك أمام زوبعة المشاعر، ثم قالت بانزعاج واضح:

_ماهو ده آخرك، أصيلة يا ليالي.

لكن جلال كان يرى أن الرومانسية بين الأزواج ليست سوى علامة على ضعفٍ مستتر، ورجولة ساقطة تحت الأقدام المتسخة بالواقع المرير. في نظره، كانت تلك المشاعر نوعًا من الاستسلام، واعتبر أن من يستند إلى هذه الطرق يجب أن يشطب كلمة "ذكر" من بطاقة هويته، كأنه ينزع عن نفسه أي صفة تدل على القوة أو الشجاعة. لذا، بنبرة حادة تعكس قسوته الداخلية، قال:

=ما بقولك إيه أنا ماليش في جو النحنحة ده، ده أنا راجل أوي أوي، أمال إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

ردت ليالي بضيق عارم، وكأن كلماته كانت كالصاعقة التي تخلخلت في أعماقها، تفجر فيها مشاعر الإحباط:
_يارب صبرني، الرومانسية بقيت عدم رجولة؟ يا سبحان الله، طب اتعلم من خطيب أختك وشوفه بيعمل إيه!

أجاب جلال بغلاظة، رغم المرض الذي كان يجثم على صدره، وكأن قوته المتبقية كانت تندفع من روحٍ معذبة ترفض الاستسلام:
=ده عيل طري مش شايل مسئولية زيي.
لم يُعجب كلام جلال ليالي، فتجلى الاشمئزاز في عينيها، وأدارت نظرها إلى الجهة الأخرى، وكأنها تحاول الهروب من عبء الكلمات القاسية التي ألقاها عليها. في تلك الأثناء، كانت هايدي جالسة في المنزل بمفردها، بعد فترة طويلة من المشكلات مع أم الديب، وقد أسدل الصمت أستاره حول غرفتها، لكن سرعان ما ملأتها فرحة غامرة. كانت أجنحة السعادة تُرفرف حولها بقوة، مشعلةً أجواء الغرفة بحيوية لا توصف. هنا، ظهرت جمال ملامحها، وهي ترتدي بيجامتها المريحة، جالسةً على سريرها، تتحدث مع خطيبها زياد في الهاتف. كانت كلماتها تتدفق بلهفة، تشرح له سعادتها وكأن كل حرف يخرج منها يحمل معه الفرحة، وقالت بحماس:
_متتصورش أنا فرحانة ازاي! دي عمرها ما حصلت، ماما أخيرًا مشيت من هنا، يعني البيت هيبقى هدوء!

لكن زياد كان فضوليًا، إذ تخلل عقله العديد من التساؤلات، فأراد أن يستقصي عن تلك الزيارة الغامضة التي قام بها أم الديب لأم قمر الدين. ولما شعر بأن حديث هايدي يحمل في طياته أسرارًا دفينة، قال بشغف يبرز في نبرته:
=وإيه اللي ودى مرات عمي عند حماة أخوكي؟
أجابت هايدي بوضوح:
_ما هي طنط بسملة يوم خطوبتنا قالتلها يبقوا يسافروا سوا ومنين ما ماما تحب تسافر تعرفها، قامت ماما استغلتها فرصة ولمت حاجتها ومشيت حتى من غير ما تعرفها.
رد زياد بتفكير، وكأن كلماته تتشكل من بين أنفاسه ببطء، معبرًا عن مشاعر الحيرة التي كانت تتلاعب في ذهنه:
=من الواضح إن مرات عمي مزعلة ناس كتير منها.
ظهرت كراهية هايدي لأم الديب في تلك اللحظة كأنها شعلة تتقد في قلبها، كانت تدرك تمامًا أن مشاعرها السلبية لن تترك لها مجالًا لصون مكارم الأخلاق مع الآخرين، بسبب شدة تسلط أم الديب وقوة شخصيتها التي لا تُحتمل. شعرت أن تلك القوة كانت كالسد الذي يمنعها من التعبير عن نفسها بحرية، لذا، قالت بوضوح:
_الكلمة الطيبة صدقة، وهي ماشاء الله عليها لسانها وحش أوي مع كل الناس وبتستخسر فيهم كلمة حلوة لحد ما كل الناس كرهتها وبما فيهم احنا.

أم الديب الجزء الثالث

فاجأها زياد برده المفاجئ، حيث قطع حديثها بسؤالٍ غير مُتوقع عن الجدة، وكأنه يفتح بابًا قديمًا من الذكريات. كانت نبرته تحمل بين طياتها استغرابًا، ثم سأل:

=هي جدتك كانت كده يا هايدي؟

لكن هايدي لم تفهم مقصده، فشعرت بالتعجب يسيطر على ملامح وجهها، وكأن سؤال زياد قد ألقى بظلاله على أفكارها. كانت تريد أن تفهم مغزى حديثه، لذا احتفظت بنبرة متسائلة، وقالت بدهشة:

_كده ازاي يعني؟

بسط زياد سؤاله مجددًا بطريقة أكثر وضوح، وكأنه أراد أن ينزع الغموض عن أفكاره، فعبّر عن استفساره بحذرٍ واضح. لذا قال بنبرة جادة، تبرز رغبةً في فهم أعمق:

=يعني مامتها كانت صعبة كده؟

أجابت هايدي بشجاعة، حيث قررت أن تكشف الحقيقة حول شخصية الجدة ووالدتها المتسلطة، وكأن كل كلمة تنطق بها كانت تنطلق من أعماق روحها المثقلة بالألم. بدأت في سرد قصتها، مشيرةً إلى كيف كانت الجدة رمزًا للهيمنة في العائلة، بينما والدتها كانت تسير على نفس النهج، تحاول فرض سيطرتها دون هوادة، وبوضوح، قالت:

_أه طبعًا، تيتة الله يرحمها كان لسانها طويل أوي، هي وماما شبه بعض في كل حاجة، ماما كانت بتتعلم منها.

كانت وجهة نظر زياد تدور حول فكرة عميقة، مفادها أنه طالما أن الأهل يعيرون صفات معينة لأبنائهم، فمن المؤكد أن هؤلاء الأبناء سيسيرون على نفس النهج، كأنما تسري في عروقهم تلك الصفات دون أي تغيير. كانت نظرة زياد تعكس فهمًا نفسيًا للأجيال، لذا قال بجدية، مستندًا إلى آرائه:

=علشان كده، بصي للي قدامك هتعرفي أهله عاملين ازاي، مادام هما كده يبقى الأهل كده برضة.

لكن وجهة نظر هايدي كانت مختلفة تمامًا، حيث شعرت بأنها لا تشابه والدتها في أي صفة من الصفات التي كانت تميزها، وكأن كل ما تراه من حولها ينفي تلك الفكرة. كانت عازمة على إثبات أن الفرد قادر على تشكيل هويته بعيدًا عن تأثيرات عائلته، لذا، وقفت أمام رأي زياد بثقة، وقالت:

_مش دايمًا، ساعات بيكون في إختلاف... يعني مثلًا أنا مش شبه ماما في أي حاجة وعمري ما حبيت أكون زيها.

ضحك زياد بخفة، وكأن ضحكته كانت تنقل شعورًا من الألفة بينهما، ثم استند إلى نبرة رومانسية تدل على إعجابه بوجهة نظر هايدي وجرأتها. في تلك اللحظة، بدت عينيه مشعتين كأنهما يحويان حكايات حبٍ لا تنتهي، فقال بلهجة رقيقة:

=وانتي لو زيها يا هايدي كنت حبيتك؟ ده الله يكون في عون عمي مستحمل كتير منها.

ضحكت هايدي هي الأخرى، وكأن ضحكها مليئًا بالحيوية، كأنما كان بمثابة ردٍ غير مباشر على جاذبية زياد. في تلك اللحظة، شعرت بأن كل التوتر الذي كان يسيطر على المحادثة قد انفرج، لذا، بابتسامة تعكس إشراقة روحها، قالت:

_فعلًا بابا صعبان عليا أوي، ربنا يصبره عليها.

أم الديب الجزء الثالث

عند أم قمر الدين، وبعد أن أنهت تناول الوجبة الدسمة بمساعدة أم الديب، توجهت إلى زوجها في مكتبه، حيث كانت تسعى لتونس وحدته وتكتشف ما يخبئه من أفكار. أمرت الخادمات بإحضار الفاكهة الطازجة، والمكسرات، والحلويات بمختلف أنواعها لأم الديب، لتضفي جوًا من البهجة على أجواء القصر، وبعدما جلست مقابل زوجها، لاحظت أنه كان مترددًا نوعًا ما في البداية، وكأن صراعات داخلية تعتمل في نفسه، إذ كان يرفض بشدة تلك التصرفات داخل قصره. لذا، بعد فترة من الصمت الذي ملأ المكان، قرر أن يكسر حواجز التردد، فقال باعتراض، وكل كلمة تخرج بصعوبة:
=أنا مش عارف أقول إيه يا بسملة، لولا إنها حماة جميلة كان هيبقى ليا كلام تاني.

لكن أم قمر الدين كانت تعاملها بروح الأمومة، رغم أن كليهما في نفس السن تقريبًا، حيث كانت تنظر إلى أم الديب كابنة لها، ترغب في توجيهها واحتضانها بكل حنان. لذا، بابتسامة دافئة، قالت:
_معلش يا باسم دي ست غلبانة، خلينا نجبر بخاطرها هي طيبة بجد وتستاهل كل خير.
جلس باسم متنهدًا بعدما أتم تجهيز تأشيرة السفر لأم قمر الدين وصديقتها، مظهرًا أن لا شيء يقف أمام عائلتهم. استقبلت أم قمر الدين الخبر بفرح وسارعت لإخبار صديقتها أم الديب. بينما كانت أم الديب مشغولة بتناول المكسرات، أبلغتها أم قمر الدين بأنهم سيسافرون غدًا. امتلأت أم الديب بالسعادة، وأطلقت الزغاريد تعبيرًا عن فرحتها. أظهرت الصديقتان حماسًا لهذه الرحلة التي طال انتظارها، حيث شعرتا بأن الرحلة ستكون مميزة. انطلقت أم الديب، كعادتها المفعمة بالحيوية، لتلتقط بيدها حبات التفاح، والموز كمن تستمد قوتها من الطبيعة ذاتها، ثم قفزت بهما في حمام السباحة، والماء يحيط بها كأنه يحتضن فرحتها الغامرة. كانت تطلق الزغاريد بصوت يشق الهواء، كعروس من زمن قديم لا يعرف التكلّف ولا التعقيد، زمن العفوية. فكانت أم قمر الدين، وهي تراقب مشهد صديقتها، تشعر وكأن أم الديب قادمة من عصر مضى، عصر لا يعرف كل هذه الحداثة، حيث البراءة تنبعث في كل حركة وكل همسة. انتهى اليوم بسلام، واستعدتا مع شروق الشمس ليوم جديد. حملتا حقائبهما المليئة بالأمتعة، واتجهتا إلى مطار القاهرة. هناك، في صالة الانتظار، كان الوقت يمر بطيئًا مع اقتراب موعد الطائرة. لكن أم الديب، التي اعتادت أن تتصرف بتلقائية، مررت يدها على بطنها التي بدأت تؤلمها، والجوع ينهش أحشاءها ببطء. بتنهيدة مملوءة بالمسغبة، قالت بأسى متصاعد من أعماقها:
=بقولك إيه يا ست بسملة آني جعانة أوي اوي.
قالت أم قمر الدين بذهول:
_معقول يا أم الديب؟ انتي أربعة وعشرين ساعة جعانة؟ بجد لازم تكشفي أكيد عندك مشاكل!
أم الديب، برغم ألم الجوع الذي بدأ يسيطر عليها، ألقت نظرة نحو مطعم يقدم الدجاج المقرمش، وأظهرت رغبتها الملحة في تناول وجبة تشبع معدتها. رغم أن أم قمر الدين استغربت طلبها بعد أن تناولا الطعام قبل الوصول للمطار، إلا أن أم الديب أصرت على إشباع جوعها. بينما كانت أم قمر الدين مشغولة بالحديث مع ابنتها على الهاتف، انتهزت أم الديب الفرصة واتجهت إلى المطعم. هناك، وجدت رجلًا يؤدي عمله أمام الحاسوب بزيه الخاص، فقررت سؤاله عن الطعام الذي يشبع شهيتها المتزايدة:
=بقولك إيه ياخويا، انتوا بتعملوا أكل إيه؟
أجاب البائع:
_فرايد تشيكن يا فندم.

أم الديب الجزء الثالث

نطقت أم الديب الكلمات بتلعثم واضح، ولسانها يتعثر أمام تلك الكلمات الصعبة، فهي امرأة بسيطة، لم تتعلم القراءة والكتابة، فسألته بعفوية، دون تكلف:

=إيه الفرندوشك، الفرندش... فراندش دهو!

نظر البائع إليها بنظرة مشوبة بالاشمئزاز، ورغم نفوره الداخلي ورغبته العارمة في تجنب التعامل معها، كان مجبرًا من الخارج على التزام واجبه المهني، فهو يدرك تمامًا أن عليه التعامل مع جميع الفئات المجتمعية، حتى لا يخسر وظيفته التي كافح لأجلها سنوات، فقال لها بنظرة يعلوها الاحتقار المكبوت:

_الفرايد تشيكن هي الفراخ الكريسبي المتحمرة يا فندم.

قالت أم الديب بعجيج:

=ايهي ما تقول فراخ محمرة! لازمتها إيه عوجة اللسان دهي؟ ويا ترى الفراخ اللي عندكم بيتي ولا مزارع؟

سأل البائع باهتمام:

_حضرتك تحبي تطلبي أي عرض في دول؟

أجابت أم الديب وهي تلمح بعينيها الباب المفتوح على المطبخ، تراقب بفضول حركة العاملين وهم ينهمكون في إعداد الدجاج المقرمش، والبطاطا المقلية، وكأنها تستشعر روائح الطعام الشهية قبل أن تصل إليها:

=آني مبقراش، آني باكل وبس... هاتلي وركين بلاش الصدر بيبقى ناشف ومالوش طعم، أصل أختي الله يباركلها بتربي فراخ في الدار بس زي العسل و....

بينما كانت أم قمر الدين في منتصف مكالمتها مع ابنتها سامية، التقطت عيناها مشهدًا أثار قلقها الشديد؛ رأت أم الديب وهي تتحدث مع البائع بنبرة غير مألوفة. شعرت بأن كارثة وشيكة قد تقع، فسارعت بإغلاق هاتفها، وانطلقت نحوها بخطوات مُتسارعة، والذعر يتسرب من ملامح وجهها وكأنه ينبض في كل حركة، ثم سألتها بلهفة مُرتعشة:

_انتي بتعملي إيه هنا يا أم الديب؟

أم الديب، بدافع من الجوع الشديد الذي لم يعد يحتمل التأخير، عبرت عن استيائها من حديث البائع، فيما حاولت أم قمر الدين تهدئة الموقف بابتسامة خجولة واعتذار للبائع. بعد ذلك، جذبت أم قمر الدين صديقتها بلُطف وأعادتها إلى مكانها، محاولتين تهدئة الأمور مع اقتراب موعد الطائرة، بينما كانت أم الديب لا تزال متضايقة. كانت نعمة وزوجها حامد يجلسان معًا حول الطاولة الخشبية الصغيرة في صالة منزلهما، حيث تملأ رائحة البطاطا المقلية مع الجبن القريش، والطماطم الجو. كانت الأضواء تتلألأ من شاشة التلفاز، لكن حديثهما كان يأخذهم بعيدًا عن أي شيء آخر. كان حامد يتناول البطاطا بشغف، حين استوقفته فكرة جعلته يعبر عن دهشته من مشاجرة سابقة جرت بين نعمة وصديقتها ليالي. أجابت نعمة بينما كانت تأخذ قضمة من الخبز المغموس بالجبن والطماطم، مشيرة إلى انزعاجها من حديث ليالي الذي طال والدتها. فقد كانت تعاني من الضغوط الكثيرة التي تحملها، وكل تلك الأحاديث كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. لقد تحمّلت الكثير من التعليقات والتجريح، ولكن هذه المرة كانت مختلفة، فقد تعلقت مشاعرها بالأمر.

أم الديب الجزء الثالث

استمر حامد في تناول الطعام، محاولًا فهم الموقف، لكن تقييمه لوضع والدتها جعل نعمة تشعر بالاستياء. لم يكن يعي تمامًا مشاعرها، ولم يكن يدرك مدى ما تعانيه من مشاعر مُتضاربة تجاه والدتها، التي كانت صعبة الطبع ولكنها في ذات الوقت طيبة القلب. ظلت نعمة تبرر موقف والدتها، مشيرة إلى أنها لم تستطع التعبير عن مشاعرها بطريقة صحيحة، مما جعل حامد يتساءل كيف يمكن أن تكون والدتها شريرة وحنونة في آنٍ واحد. كانت نعمة تحاول بكل جهدها الدفاع عن والدتها، وعيونها تلمع بالشجن وهي تتذكر اللحظات التي قضتها معها. بينما كان حامد يستمر في تناول الطعام، كان واضحًا أن الأمر يثير استياء نعمة. فهي لم تكن تريد أن يُساء فهم مشاعر والدتها أو يُستخفف من أعبائها، ومع مرور الوقت، تصاعدت المشاعر، وتوقفت نعمة عن تناول الطعام، متجهة إلى غرفتها في حالة من السخط. في تلك اللحظة، شعر حامد بأنه قد تجاوز الحدود، لكن تهكماته لم تتوقف. خرجت نعمة من غرفتها، وعيناها تعكسان الوعيد، إذ لم تتقبل تعليقات زوجها الساخرة على والدتها. لم يكن الحديث مجرد حديث عابر، بل كان يمثل صراعًا أعمق يتعلق بالولاء للعائلة. بعدما حان موعد ركوب الطائرة، تجمعت أم قمر الدين مع أم الديب على مدرج المطار، حيث كانت لحظات الارتباك واضحة على وجه أم الديب. بمجرد أن بدأت الطائرة في الإقلاع، انتابتها حالة من الذعر، فتشبثت بثياب صديقتها.

كانت صرخاتها مغمورة بالقلق، مما جعل الركاب الآخرين ينظرون إليها باستنكار، مما زاد من حدة توترها. رغم محاولات أم قمر الدين لتهدئتها، إلا أن الفوضى كانت تسيطر على الموقف. حاولت أم قمر الدين أن تبدي اللامبالاة، لكنها كانت تشعر بالخجل من تصرفات أم الديب، وانتهت رحلة القلق، ليأتي دور المضيفة لتوزيع الغداء. كان الطعام عبارة عن مزيج متنوع من الأرز البسمتي، والخضار السوتيه، إلى جانب شريحة لحم مشوية، مما أعطى شعورًا بالفخامة في تلك اللحظة، وعندما اقتربت المضيفة، أعربت أم قمر الدين عن شكرها بابتسامة، مما أسهم في تغيير الأجواء قليلًا. لكن أم الديب كانت لا تزال تتأمل الطعام بذهول، وكان واضحًا أنها لم تكن راضية عن الخيارات المتاحة. فقد انتابتها رغبة قوية في تناول دجاج بلدي، ولكن المضيفة أبدت أسفها لعدم توفره. تعالت أصوات استغرابها، وعبّرت عن استيائها من الخضار الموجودة، ومع تلك المواقف المحرجة، شعرت أم قمر الدين بالقلق من نظرات الركاب حولها، فحاولت إقناع أم الديب بالاستمتاع بما هو متاح، ثم قالت لها بانزعاج:
_أم الديب بلاش الحركات دي بليز، وياريت تاكلي من الأكل الموجود، مش عايزين كلام كتير!
ردت أم الديب بضيق، حيث ارتسمت على وجهها تجاعيد الغضب، وعينيها اللتين تتقدان بالاستنكار، كأنها تحمل على عاتقها أثقال العالم بأسره:
=وهو دهو يشبع؟ دي حاطالك عينات، ده ميرمش عضم حد، هي بتقطع من لحمها؟
تلفظت أم قمر الدين بانزعاج، حيث كان صوتها يرتجف قليلًا من حدة السخط المتراكم، وبدت ملامح وجهها مشدودة كأنها تحمل في قلبها عاصفة من الانزعاج:
_طيب معلش يا أم الديب حقك عليا، كلي ولما نوصل هنجيب أكل أكتر من كده.
بدأت أم الديب في تناول الطعام بالملعقة، وبدت كأنها تستمتع بكل قضمة تأخذها، بينما كانت تركز على النكهات المتنوعة التي تتراقص على لسانها. ثم نظرت حولها بعيون مليئة بالرضا، وأفصحت:
=وماله أهي حاجة تصبيرة.

أم الديب الجزء الثالث

في تلك اللحظة، كان التوتر يسود الأجواء داخل المنزل. جلس جلال على السرير متظاهرًا باللامبالاة، لكن آلامه كانت واضحة في ملامحه. بينما كانت ليالي بجواره، تحمل اللزق والشاش لتغيير ضماده، عازمة على مساعدته رغم عناده الذي يمنعه من الاعتراف بضعفه. اقتربت منه بنظرات مليئة بالقلق، لكنه واجهها بسخرية، مستمرًا في تجسيد برودته، قائلًا:

_متغيريش عليه هو كان لسه استوى؟

تلك العبارة التي نطقها وهو ينظر إلى الجرح كأنه قطعة لحم أحرقت بفعل أخطائه المتكررة. قد بدا على ليالي الاندهاش، وردت بجديةٍ لا تخلو من الاستياء:

=استوى إيه يا جلال هو حتة لحمة؟ الدكتور قال كل يومين نغيرلك على الجرح.

لكن جلال لم يكن مستعدًا للاستماع لأي نصيحة. كان الألم يزداد، ليس فقط بفعل الجرح، بل ربما لأن عناده أصبح يلتهمه من الداخل. قال بصوت مكتوم يعكس إحساسه بالعذاب:

_مش قادر الجرح فيه ولعه.

ردت ليالي بهدوء ممزوج بنبرة اللوم:

=علشان تبطل جري على الشر، شوفت إيه اللي جرالك من تحت الشر؟

لكن جلال، المتشبث بعاداته، لم يكن ليتحمل سماع تلك الكلمات مرة أخرى. بنفاد صبره، قطع حديثها قائلًا:

_ما بقولك إيه يا بت، انتي كل ما هتشوفي وشي هتسمعيني نفس الجملتين؟ جلال هيفضل جلال مش هيتغير.

لكن ليالي لم تعد تقوى على تكرار النصائح التي ضاعت في مهب الريح، وأجابته ببرود:

=أنا نصحتك وعملت اللي عليا وزيادة.

ومع كل كلمة تتحدثها، كان الصراع يتأجج بينهما، حتى انتهى الحوار بجملة جلال الجافة:

_لا كتر خيرك وفري نصايحك لنفسك.

لكن ليالي لم ترد، بل اكتفت بالهمس لنفسها:

=أنا غلطانة.

بينما كان هذا الجدال يدور، قطع صوت طرقات الباب ذلك المشهد المتوتر. هرع حمود، نحو الباب، وعندما فتحه، ظهر المعلم حنفي، بوجهه المألوف المليء بالحكمة، وبابتسامة رقيقة، قال بصوت هادئ:

_ازيك يا حمود؟

رد الطفل بفرح:

=الحمدلله يا جدي.

دخل المعلم حنفي بخطوات بطيئة إلى المنزل، مستفسرًا عن ابنه، وزوجته، وهو يقول:

_أمال أبوك وأمك فين؟

ليجيبه حمود بإشارة نحو الغرفة الداخلية:

=في الأوضة جوا.

أم الديب الجزء الثالث

اعتدلت ليالي في جلستها، وقالت لحماها بإحسان:
_تعالى يا حمايا خُش.
دخل المعلم حنفي الغرفة بخطوات متثاقلة، وعيناه تفيض بالقلق، وسأل عن أحوال ابنه العليل، وقلبه ينبض بالخوف كطبول قلق لا تهدأ، وكأن كل نبضة تحمل في طياتها رجاءً بالشفاء:
=إيه ياض عامل إيه دلوقتي؟

بسط جلال يديه المرتعشتين فوق جرحه، وكأنما يحاول احتواء الألم المتدفق منه، ثم قال بصوت يملؤه التوجع:
_تعبان يابا، الجرح واجعني أوي.
تلفظ المعلم حنفي بفرح، معبر عن مشاعر السعادة التي اجتاحته في غياب أم الديب عنهم:
=سلامتك، رغم اللي جرالنا بس آني فرحان.
ردت ليالي بدهشة:
_ليه يا حمايا؟

قال المعلم حنفي بسكينة، وكأن الهدوء الذي يعكسه صوته هو ملاذه من زوبعة القلق في قلبه:
=البيت هوس هوس، روقان وراحة بال.
تلفظت ليالي بسرور:
_طبعًا يا حمايا، ماهو مصدر الهم غايب، ده كلنا مبسوطين مش انت بس!
قال المعلم حنفي بكراهية، وكلماتُه تنفثُ الغضب كبركانٍ ثائر:
=يلا ربنا ياخدها ويريحنا منها.
نهضت ليالي من السرير بخطوات هادئة، وسألت حماها باهتمام، وعينيها تتألقان بفضول صادق:
_تشرب إيه يا حمايا؟
أجاب المعلم حنفي:
=شاي بالنعناع ومتزوديش السكر يا دوبك معلقة.
ردت ليالي ببشاشة:
_من عينيا أحلى كوباية شاي.
بعدما انتهت من مجادلتها مع جلال، والمعلم حنفي، قررت ليالي أن تضفي بعض الدفء على المنزل وتنسى ولو للحظات همومها التي أثقلت كاهلها حينما وضعت براد المياه على الموقد. كانت تعرف أن غياب حماتها، أم الديب، هو أفضل وقت لالتقاط الأنفاس دون مشاحنات يومية. فتحت الهاتف واتصلت بوالدتها، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة، وقالت بنبرة مفعمة بالحماسة:
_ألو ياما، بقولك أنا عازماكم عندي بكرا.
لكن تباهي لم تكن متفاجئة فحسب، بل ردت بنبرة مصدومة:
=تاني يا ليالي؟ انتي نسيتي حماتك بتهبب معانا إيه كل ما تشوف وشنا؟
أخذت ليالي نفسًا عميقًا وكأنها تريد طمأنة والدتها إلى أن الأمر هذه المرة مختلف:

أم الديب الجزء الثالث

_لا من الناحية دي ارتاحي خالص، وحطي في بطنك بطيخة صيفي... حماتي سافرت مع الولية اللي اسمها بسملة.
شعرت تباهي بشيء من الدهشة، فسألت مستغربة:
=سافرت ازاي يا بتي؟

أجابت ليالي بنبرة من الغموض المغلف بالضحك:
_هحكيلك.
في تلك الأثناء، كانت أم قمر الدين وأم الديب في رحلتهما الطويلة التي أخذتهما أخيرًا إلى فندق فاخر، بعد ساعات من السفر، والبحث عن الراحة التي طال انتظارها. عندما وصلا إلى مكتب الاستقبال، اقتربت أم قمر الدين بثقة وتحدثت إلى الموظف:
_Yes, my name is Basmala, I am 51 years old, I have a bachelor's degree in media with a press company in Egypt.
ابتسم الموظف مجاملًا، وقال وهو يقدم لها المفتاح:
=Nice to meet you, you can now take the room key.
لكن أم الديب، التي كانت تقف بجانبها، لم تكن مرتاحة لما يجري. فبعيون متسائلة، ولهجة قلقة همست:
=هما بيقولوا إيه؟ تكونش ست بسملة بتشتمني إكمني مش فاهمة عنجليزي؟ ولا بتتفق عليا هي والراجل دهو؟
أم قمر الدين، التي كانت معتادة على تعليقات أم الديب الطريفة، اكتفت بالقول:
_يلا يا أم الديب!
بينما دخلتا الفندق، كانت أم الديب مذهولة من الفخامة المحيطة بها. نظرت حولها، وقالت بدهشة:
=المكان دهو فخم أوي أوي ده آني فكرته قاعة أفراح.
ضحكت أم قمر الدين، وقالت لها:
_لا مش قاعة أفراح، ده أوتيل.

لكن الفضول لم يفارق أم الديب، وسألت بنبرة متلهفة:
=ويا ترى إيه نظام الأكل هناهو؟
بينما كانت أم قمر الدين تعرف هوس أم الديب بالطعام، ضحكت، وهي تحاول تغيير الموضوع قائلة:
_هو كل حاجة أكل أكل؟ برضة مفيش فايدة؟ ارحمي نفسك شوية.
فجأة، تحولت أم الديب إلى دور الضحية، ممثلة ببراعة، وقالت:
=جوزي مجوعني يا ست بسملة، دهو راجل كافر معندوش قلب، سايبني طول السنين دهي محرومة وجعانة مش هاين عليه يفك إيده ويصرف.
شعرت أم قمر الدين بصدق أم الديب وتأثرت بكلماتها، فقالت بنبرة حانية:
_أنا هعوضك عن جوزك يا أم الديب، بجد هو ميستاهلكيش خالص، انتي طيبة أوي مشوفتش حد في حنيتك دي.
قالت أم الديب، التي بدت متأثرة بكلماتها، وهي تبكي:

أم الديب الجزء الثالث

=أه والله يا ست بسملة، ده آني غلبانة غُلب.
حاولت أم قمر الدين تهدئة أم الديب بلُطف، واعدةً إياها بوجبة في أفضل مطعم بعد تغيير ملابسها. فابتسمت أم الديب بفرح، عند وصولهما إلى الغرفة، ألقت أم الديب نفسها على السرير بتعب، بينما انفجرت أم قمر الدين في الضحك من المشهد. وضعت أم قمر الدين حقيبتها على السرير، مرتبة محتوياتها، واختلعت نعليها لتشعر بالراحة بعد يوم طويل. كانت عازمة على أخذ قسط من الراحة، فدخلت المرحاض لتستحم وتجدد نشاطها. في منزل ليالي، كانت الأجواء مفعمة بالحماس رغم تدهور حالة جلال الصحية. كانت ليالي تتحدث مع والدتها عبر الهاتف، معبرة عن سعادتها بدعوة عائلتها، وهي بهجة نادرة غابت عنها بسبب تدخلات حماتها في حياتها. اليوم، شعرت أنها ستستمتع بلحظات من السلام بعيدًا عن ضغوط أم الديب، التي سافرت مع صديقتها، وبعد انتهاء المكالمة، دخلت ليالي غرفة جلال حاملةً صينية الشاي. كان المعلم حنفي جالسًا بجوار جلال، يراقبه بقلق ويحاول تشجيعه على التحمل من أجل عائلته. تجسد التوتر بين القلق، والراحة في لحظة دخولها، حيث كانت تطمح إلى خلق لحظات جميلة تنتظرها، وقد قال جلال لوالده:
_ماشي يابا، ربنا يسهل.

كان جلال يشعر بأن جسده لم يعد يستجيب كما يجب، لكن عناده المعتاد كان يمنعه من إظهار ذلك بشكل واضح. وضعت ليالي صينية الشاي إزاء حماها بلُطف قائلة:
=خُد يا حمايا !
أجابها المعلم حنفي بامتنان:
_تسلم إيديكي يا ليالي.

ابتسمت ليالي ابتسامة رقيقة، وأجابت:
=الله يخليك يا حمايا.
ثم تذكرت أمر الدعوة، فتقدمت نحو جلال بخطوات ثابتة، وقالت بنبرة هادئة، محاولًة أن تكون ودودة قدر الإمكان:
=أما بقولك يا جلال صحيح، أهلي جايين بكرا أصل أنا عزمتهم.
فجأة تغيرت ملامح جلال، وبدون تردد، أجابها بسخط مكتوم:
_اتصلي بأبوكي وأمك وقوليلهم ميجوش.
في لحظة، تفجرت مشاعر الاستياء عند ليالي، حيث ارتفعت نبرة صوتها بشكل مفاجئ، قائلة:
=يعني إيه أتصل بيهم وأقولهم ميجوش؟
لم تكن ليالي تتحمل رفض جلال لدعوة والديها بعد كل ما تحمله من تدخلات حماتها طوال تلك السنوات. لم يستطع جلال السكوت أكثر، رغم تعبه، فتحدث بصعوبة:
_هي البعيدة معندهاش دم؟ بقى جوزك تعبان وعامل عملية وانتي بتعزمي أبوكي وأمك؟
كانت كلماته قاسية، لكن آلامه الجسدية، والنفسية جعلته يتحدث بهذا الحدة. ردت ليالي بنبرة أكثر حدة، وهي تدافع عن قرارها:

أم الديب الجزء الثالث

=دي فرصة متتعوضش، أمك لأول مرة تسافر وتريحنا منها حبة حلوين، وأنا من ساعة ما اتجوزتك وكل ما أهلي يجوا يشوفوني تيجي أمك تبوظ الدنيا بلسانها اللي عايز قطعه.
كان المعلم حنفي يستمع بصمت في البداية، لكنه قرر التدخل بنبرة حكيمة، محاولًا تهدئة الوضع:
_ماتسيبها ياض، عندك حق يا ليالي، دي فرصة متتعوضش، ده آني بكرا هفضي نفسي علشان أقعد مع أبوكي وأمك ده آني بقالي زمن مقعدتش معاهم في روقان!

ابتسمت ليالي، مستبشرة بتدخل حماها الذي كان دائمًا ملاذًا للتهدئة بينهما:
=أه والله يا حمايا ده انتوا مقعدتوش مع بعض من زمان، بس خلاص هتتعوض بكرا... يا دوب ألحق اشتري شوية طلبات، عايزة أعملهم عزومة من اللي القلب يحبها.
لكن جلال، الذي بدا مستسلمًا للتعب، تذكر نصائح الطبيب فأضاف بصوت خافت:
_اعملي حسابي في شوربة خضار... الداكتور قالي كل مسلوق لحد ما الجرح يخف.
ردت ليالي بابتسامة رقيقة وهي تضع يدها على كتفه بحنان:
=لا متقلقش، هظبطك... ده أنا الفرحة مش سيعاني أخيرًا أبويا وأمي هيجوا وحماتي مسافرة؟ يادي الهنا والفرح.
ثم أخذت ملابسها من الخزانة استعدادًا للخروج إلى السوق، وبدأت ترتدي عباءتها وهي تخطط لما ستشتريه من مكونات لتلك الوليمة الفاخرة التي كانت تتوق لتحضيرها. لكن المعلم حنفي، الذي كان يراقب كل شيء بعين متفهمة، قال لجلال بابتسامة خفيفة:
_مراتك بتحب أهلها أوي.
أجاب جلال، وهو يسترق النظر إلى زوجته، التي كانت تلقي عليه نظرات دعم. كان التعب يسيطر على جسده، ولكن تلك اللحظات العائلية جعلته يشعر ببعض الراحة. أضاف المعلم حنفي، بجديّة الأب المحب، كلمات تحمل في طياتها تمنيات الخير والمحبة لعائلته.

في هذه الأثناء، كانت أم قمر الدين قد انتهت من الاستحمام، حيث خرجت من الحمام مرتدية رداءها الأبيض النظيف، وقد انتعشت برائحة عطرها الذي يحمل نفحات الياسمين. عندما ألقت نظرة على الغرفة، تفاجأت لرؤية أم الديب مستلقية على السرير، غارقة في نوم عميق. تعجبت من المشهد، واقتربت منها ببطء، وقد تساءلت في نفسها عن سبب نومها في هذا الوقت. بينما كانت تأمل في أن تظل أم الديب نائمة، لاحظت أنها كانت تراقبها من طرف عينيها. وفجأة، استيقظت أم الديب وكأنها كانت تنتظر اللحظة المناسبة، حيث نهضت بسرعة، مفعمة بالحماس، راغبة في استئناف الأنشطة التي كانت تخطط لها. لم تستطع أم قمر الدين منع نفسها من الابتسام، فقد كانت هذه اللحظة تحمل في طياتها خفة ظل، وبهجة، حيث بدت الأجواء ملآنة بالطاقة الإيجابية، مما أعاد للأذهان تفاصيل اللحظات السعيدة التي كانت تأمل في عيشها، قائلة:
_خلاص بقى مش هننزل النهارده مادام انتي نايمة.
ولكن كأن أم الديب كانت تترقب هذا الكلام، فتحت عينيها فجأة ونهضت بسرعة، وقالت بصوت مليء بالحماس:
=آني صاحية، يلا بينا ننزل!

أم الديب الجزء الثالث

لم تستطع أم قمر الدين منع نفسها من الابتسام، وهي تنظر إليها، ثم قالت ممازحة:
_انتي مش كنتي نايمة؟
أجابت أم الديب، وهي تتحرك من على السرير:
=لا صحيت أهو، يلا بينا.
ضحكت أم قمر الدين، التي تعرف جيدًا حُب أم الديب للطعام، وقالت بنبرة من المزاح:
_أوكي يا أم الديب، أنا عارفة إنك هتموتي على الأكل، بجد مستغرباكي بتودي كل ده فين؟
نظرت إليها أم الديب بنظرة جادة، وأجابت بعبثية:
=هيكون فين يعني، في الحمام!
تفاجأت أم قمر الدين من الرد المُنفر، وردت وهي تشعر ببعض الاشمئزاز:
_شئ قذر.

لكن أم الديب لم تهتم، وأردفت بلهجة ملحة:
=يلا يا ست بسملة خلصي بسرعة!
ردت أم قمر الدين، التي اعتادت على طريقة أم الديب في استعجال الأمور، وهي تضع لمساتها الأخيرة على شعرها:
_لا سوري أنا مبحبش السرعة نهائي! بحب أعمل كل حاجة بهدوء.
بدا الضيق واضحًا على وجه أم الديب، لكنها لم تجد حيلة سوى الانتظار. فجعلت تتجول في الغرفة ذهابًا وإيابًا، تنظر تارة إلى النافذة، وتارة إلى المرآة، كأنها تبحث عن شيء لتفعله حتى يمضي الوقت. ساعة كاملة مضت وأم قمر الدين لم تنتهِ بعد. أخيرًا، جلست أم الديب على كرسي صغير في الغرفة، متأففة بتعب واضح:
_آني رجلي وجعتني أوي.

نظرت إليها أم قمر الدين من خلف المرآة، وقالت وهي تضحك قليلًا:
=حد قالك تتحركي كتير يا أم الديب؟
ردت أم الديب بنبرة ساخطة:
_مانتي بقالك ساعة واقفة قدام المرايا بتحطي الأحمر والأخضر وآني مليش خلق للكلام دهو.
أم قمر الدين، كانت تعلم أن الانتقاد لم يكن جادًا تمامًا، حيث قالت وهي تضع آخر لمساتها بواسطة أحمر الشفاه:
=أنا خلصت خلاص، يلا بينا.
نهضت أم الديب بسرعة، مستعيدة حيويتها فجأة، ثم قالت بشيء من الامتنان المختلط بالذكريات:
_الحمدلله أخيرًا... الله يرحمك ياما.
توقفت أم قمر الدين قليلًا وهي تستعد للخروج من الغرفة، ونظرت إلى أم الديب، وقالت بتعجب:
=هي ماتت تاني؟
أجابت أم الديب بنبرة حزينة عميقة، وكأنها تتذكر وجعًا قديمًا:

أم الديب الجزء الثالث

_وهو في حد بيموت مرتين يا ست بسملة؟ ده فراقها وجعلي قلبي أوي أوي أمال إيه؟ دي كانت حنية الدنيا فيها.

تأثرت أم قمر الدين بالكلمات، وبدت على وجهها علامات الترح، وهي تهمس بتعاطف:

=ربنا يصبرك يا أم الديب بجد، فراق الأم صعب أوي محدش يستحمله.

قالت أم الديب، مستعيدة ذكرياتها مع والدتها:

_إيوا، دهي كانت كل حاجة ليا، كانت الصدر الحنين.

توقفت قليلًا، ثم أضافت بلهجة لا تخلو من الجوع المفاجئ:

_تصدقي آني نفسي في صدر فرخة؟

نظرت إليها أم قمر الدين بدهشة، وقد شعرت بتغير الأجواء سريعًا، وقالت بنبرة مستنكرة:

=لا مش معقول قلبتي حالًا كده؟

أجابت أم الديب، التي كانت متأثرة بذكرياتها، فلم تكن ترى تناقضًا في الأمر:

_الكلام جاب بعضه، أما صحيح، هتأكلينا إيه؟

لكن أم قمر الدين، التي تعرف شغف أم الديب بالطعام، ابتسمت، وقالت برضا:

=شوفي انتي عايزة تاكلي إيه وأنا معاكي.

لم تضيع أم الديب الوقت، وأجابت على الفور:

_آني عاوزة شوربة كوارع، ولحمة راس.

حين خرجتا من الغرفة واتجهتا نحو مطعم الفندق، كانت أم قمر الدين تفكر في التناقض الغريب في شخصية أم الديب؛ تلك المرأة التي تنتقل من الحزن إلى الفرح، ومن الذكريات المؤلمة إلى الرغبة في الطعام، وكأنها تسير على خط دقيق بين الألم واللذة. ولكن رغم كل ذلك، لم تستطع إلا أن تشعر بالدفء تجاهها، ذلك الدفء الذي جعلها تتقبل كل تناقضاتها بحب. لكنها في النهاية قالت بتقزز:

=لا لا انتي بتاكلي القرف ده بجد؟ مش معقول أنا مش قادرة أستحمل، بجد بطني خلاص.

عندما وصلتا إلى مطعم الفندق، كانت أضواء القاعة الخافتة تعكس أناقة المكان، وزخارف الطاولات الفاخرة تضفي عليه طابعًا من الفخامة المميزة. أم قمر الدين تقدمت بخطوات رصينة نحو البوفيه الفسيح، تراقب بتأنٍ الأطباق المعروضة بعناية. الأطباق كانت مزيجًا من أكلات عالمية متنوعة، ملونة، ومنظمة بشكل يلفت النظر، لكن أم قمر الدين كانت تركز على الأطباق الخفيفة والنكهات التي تناسب ذوقها. بدأت بتناول طبق صغير وشرعت في انتقاء بضع قطع من السمك المشوي، والخضار المسلوق. أما خلفها، فقد كانت أم الديب تسير وكأنها في مهمة خاصة، ممسكة بطبق ضخم فارغ كأنها مستعدة لحرب الطعام الكبرى. بدأت جولتها أمام البوفية بتفحص عينيها لأصناف الطعام المتنوعة وكأنها قائدة تختار جنودها. لم تتردد لحظة، وبدأت في ملء طبقها بكل شيء يمكن وضعه عليه؛ قطع اللحم المشوي، قطع الدجاج المقلية، المعكرونة، البطاطا المهروسة، وحتى السلطات ذات الصلصات الكريمية. لم تكتفِ بملء الطبق فحسب، بل استمرت بإضافة مزيد من الطعام حتى بات الطبق يبدو وكأنه بناء هرمي ضخم، يوشك على الانهيار، قالت بصدمة:

_أم الديب انتي بتعملي إيه؟ انتي خلصتي أكل البوفية كله على طبقك؟ **يتبع...**

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الثالث

خيم الصمت قبل أن تكسره الأصوات العالية لأم الديب أثناء تناولها الطعام بعشوائية. حاولت أم قمر الدين تجاهل تلك الأصوات، لكن اشمئزازها زاد مع الفوضى، مما دفعها للتعبير عن عدم رضاها عن تصرفات أم الديب. ومع ذلك، استمرت أم الديب في تناول الطعام دون اكتراث، مما جعل أم قمر الدين تشعر بالقلق من نظرات الناس. أثناء ذلك، تساءلت أم الديب عن الأطباق المقدمة، وأشارت أم قمر الدين إلى الأطباق الفاخرة، معبرة عن استيائها من سلوك أم الديب:

_دي فرايز بالمودزاريلا، ودي باستا وايت صوص مع قطع فراخ كريسبي.

توقفت أم الديب عن الأكل للحظة، وهي تحاول فهم الكلمات التي خرجت من فم أم قمر الدين. كان التعبير على وجهها يشير إلى حالة من الاستغراب التام، ثم قالت بصوت عالٍ:

=آني مفهمتش حاجة غير كلمة فراخ دهي، هو انتوا ليه كلكم عاوجين لسانكم؟ هو احنا مش مصريين، ولا شايفنا مولودين في أونجلتررا؟

ضحكت أم قمر الدين بصوت خافت وهي تضع يدها على جبينها، ثم صححت لأم الديب بابتسامة ساخرة:

_أونجلتررا يا أم الديب؟ اسمها إنجلترا، إنجلترا، انطقي معايا يلا إنجلترا!

حاولت أم الديب تكرار الكلمات، لكن بلهجة ثقيلة، ومضحكة:

=انجلوتر، انجلاتررا، انجلاتروا.

لكن أم الديب، لم تبالِ بتهكم أم قمر الدين، وقررت إنهاء المحادثة بطريقة تناسب شخصيتها غير المبالية، فقالت بنبرة لا تخلو من الضيق:

=بقولك إيه آني اللي ليا أطفح وبس... هو المكان دهو مفيهوش تحلية؟ هو الراجل اللي بيقف على عربية الزلابيا مجاش النهارده ليه؟

توسعت عينا أم قمر الدين في صدمة واضحة من طلب أم الديب غير المنطقي، وقالت بصوت غير مصدق:

_عربية زلابيا ويجي هنا؟ انتي بتقولي إيه يا أم الديب؟ احنا سافرنا يا حبيبتي مش في مصر!

هزت أم الديب رأسها في استسلام، ثم قالت بلا مبالاة:

=خلاص هاتيلي مشبك دمياطي بلاش زلابيا.

تفاقم امتعاض أم قمر الدين وهي تحاول السيطرة على أعصابها، وكأن أعصابها خيوط مشدودة على وشك الانفجار. كانت تشعر بلهيب الغضب يتأجج في صدرها، محاصرًا أفكارها بين جدران الإحباط. تجسد الحزن في عينيها، حيث أدركت أن توقعاتها للوجبة التي كانت تأمل أن تكون فرصة للتقرب قد تبخرت في أجواء الفوضى. كانت تتمنى أن تُمحى تلك اللحظات المليئة بالضجيج، لتسود أجواء من الهدوء، لكن الواقع كان يصر على إفساد تلك الأمنية. حتى قالت بندم:

_كُلي يا أم الديب، كُلي!

أم الديب الجزء الثالث

في زاوية صغيرة من غرفة جميلة، تملؤها ألوان المكياج، وأدوات التجميل المبعثرة، جلست تتحدث في الهاتف مع أختها سامية. كان صوت سامية يحمل الكثير من التساؤلات الممزوجة بالدهشة، كأنها تحاول استيعاب تفاصيل سفر والدتهم مع أم الديب. كانت تعبر عن فضولها بوضوح، وتبحث عن إجابات ترضي عقلها المتعطش للمعرفة. حيث انشغلت أفكارها بما تقوله أختها، متسائلة عن ردود الفعل التي قد تترتب على ما جرى، قائلة:

=أنا آخر حاجة كنت أتوقعها إن ماما تسافر مع البني أدمة دي، ماما مش شبهها في أي حاجة، أنا نفسي أفهم سافرت معاها ليه؟

تأوهت جميلة، وهي تفتح نافذتها الكبيرة لتجديد الهواء في غرفتها، ثم قالت بهدوء:

_يوم خطوبة هايدي مامي كانت بتهزر مع طنط وبتكلمها على موضوع السفر بس طنط ماصدقت إنها تسافر معاها ومامي اتفاجئت بيها جايالها بشنطة السفر.

كان التوتر يتصاعد في صوت سامية، التي لم تعد تستطيع إخفاء استيائها، وكأن نبراتها بدأت تتخللها اهتزازات تعكس ضيق مشاعرها. كانت الكلمات تتدفق منها بحدة، تحمل في طياتها استغرابًا، قائلة:

=ماما أكيد اتجننت علشان تسافر مع واحدة زي دي! كانت قالتلها أي حاجة وحاولت تتهرب، إنما المشكلة إنها سافرت معاها فعلًا.

في زاوية الغرفة، كانت جميلة جالسة على حافة سريرها، ناشبة الهاتف في يدها، وتبحث بعينيها عن تفسير لكل ما يحدث. كانت أفكارها تتشابك مع كلمات سامية التي لم تتوقف عن التساؤل بنبرة غضب مشوبة بالاستغراب. التفتت جميلة نحو النافذة المفتوحة، وهي تقول بحدة:

_خلاص يا سامية هما كلهم يومين بالظبط وهيرجعوا تاني وأكيد مش هتتكرر مرة تانية يعني.

كان صوت سامية لا يزال حادًا، حيث لم تستطع تجاوز فكرة أن والدتهما سافرت مع شخص مثل أم الديب. ردت بحزم متزايد:

_ده أكيد لأن؛ أنا مش هسمح لماما إنها تسافر مع الأشكال دي، ماما نزلت بمستواها أوي بعد ما سافرت معاها.

لكن جميلة، رغم كل شيء، لم تكن مقتنعة تمامًا بأن الوضع سيكون سيئًا لهذه الدرجة، فقالت بنبرة هادئة:

=معتقدش إن مامي بعد ما هترجع، هتفكر إنها تسافر معاها مرة تانية، أكيد هترجع وهي مغيرة رأيها.

في مكان آخر، حيث كان الجو في بيت نعمة مشحونًا بتوترات قديمة، جلس حامد على السرير، محاولًا تهدئة الأجواء التي كانت تبدو على وشك الانفجار بينه ونعمة، وبنبرة مليئة بالسلام، قال:

_خلاص يا نعومي متبقيش واخدة الأمور قفش كده!

لكن نعمة، التي كانت تقف حياله بعينين مليئتين بالعتاب، لم تكن في حالة تسمح لها بالاستسلام بسهولة. كان التضايق يسيطر عليها تمامًا، كأنه سحابة مظلمة تكتنف سماءها، فكان ردها يأتي بنبرة لاذعة تحمل في طياتها سخرية مريرة:

=مش فاهمة مالكم ومال أمي حاطينها في دماغكم ليه؟ وكله مصتقصدها سواء انت ولا ليالي.

أم الديب الجزء الثالث

ابتسم حامد بخفة، محاولًا أن يمسك زمام الأمور، لكنه كان يعلم أن الموضوع حساس جدًا بالنسبة لنعمة، فقال بنبرة هادئة:

_ماحنا قولنا أمك مش سهلة يا نعمة، ولا هنقعد نعيد ونزيد في نفس الكلام كل يوم؟ خليكي مع الحق ده أنا طول عمري بقول عليكي قلبك أبيض وطيبة.

لكن نعمة لم تستطع تجاهل تلك الكلمات، فهي تعرف أن طيبتها هي السبب الذي جعل الجميع يستغلها، فردت بعينين ممتلئتين بالمرارة:

_وعلشان أنا قلبي أبيض وطيبة بقيتوا كلكم تستغلوا الحتة دي فيا، ومحدش راحمني ولا عاتقني.

رد حامد، الذي كان يحاول تهدئة الأمور باستغراب:

=وهو حد جه ناحيتك يا نعمة؟ مالك بقيتي بلمسة كده ليه؟ ده انتي مبقتيش طايقالي نص كلمة!

ثم بعد لحظة صمت ثقيل، أكملت نعمة بصوت خافت، ولكن ملؤه الاشتياق:

_سيبوني في حالي، ربنا يرجعك لينا بالسلامة ياما.

ترك حامد حديثها يمر، لكنه وقف في مكانه، يضرب كف على كف بتعجب. كان يعرف أن نعمة كانت الشخص الأكثر انتقادًا لوالدتها، فكيف يمكن لها الآن أن تتحدث بتلك العاطفة عنها؟ تساءل في داخله عن التحول الذي حدث. أما ليالي، فقد كانت في مطبخها، تحضر كل شيء استعدادًا لعزومة الغد. كانت تخرج الخضار، والفواكه من الأكياس، عندما سمعت صوت جلال يناديها من الغرفة المجاورة. صوته كان مليئًا بالألم، قائلًا:

=بت يا ليالي تعالي اديني العلاج، الجرح رجع يشد عليا!

أسرعت ليالي نحو الغرفة، وبيدها قطعة قماش صغيرة، محاولة تخفيف ألم جلال. وصلت إليه وهي تحاول المزاح قليلًا لتخفف من توتره:

_حاضر ياخويا جيت أهو، هو انت لحقت؟

هزت ليالي كتفيها، كأنها تحاول التخلص من الفشل الذي يثقل كاهلها، ثم قالت:

_مانا مبعرفش أدي حقن وبصراحة بخاف، الأحسن هبعتلك ابن عمتي يديهالك، ده إيده خفيفة أوي أوي.

توقفت يد جلال عن الحركة فجأة، وارتفع حاجباه بصرامة ملحوظة، وقال بصوت مليء بالشك:

=وانتي عرفتي منين يا بت إن إيده خفيفة؟

شعرت ليالي بارتباك مفاجئ، وتراجعت خطوة إلى الخلف، وهي تحاول تبرير كلامها بسرعة، قائلة:

_هكون عرفت منين يعني؟ مانت... مانت عارف إنه ممرض وكل الناس بتشكر فيه.

لكن جلال، الذي لم يكن مقتنعًا تمامًا بردها، ازداد امتعاضه، وقال بصوت مهدد:

=وربنا أدفنه حي لو طلع اللي في دماغي صح!

ابتسمت ليالي بحذر، محاولة أن تخفف التوتر بضحكة خفيفة:

_يخيبك، انت طلعت بتغير؟

لم تكن تلك المزحة تلق أي تجاوب من جلال، الذي تابع بعصبية:

=إداكي حقن قبل كده ولا لا؟ ما تنطقي يا بت!

أم الديب الجزء الثالث

أسرعت ليالي لترد بصدق، وهي ترفع يديها في محاولة لتهدئة الموقف، كأنها تسعى لاحتواء العواصف المتحاربة، قائلة:

_وربنا ما حصل، ده إدى لكل رجالة العيلة... طب ده حتى أبويا بيشكر فيه وبيقول إن إيديه خفيفة.

لكن جلال لم يكن مستعدًا لقبول أي أعذار بعد الآن، فقال بصرامة:

=طب إيه رأيك إن ابن عمتك ده مش داخلنا البيت؟احنا نجيب ممرضة أحسن.

صدمت ليالي من رده، وردت بعصبية:

_ممرضة؟ طب والله ولا يحصل، قال إيه عاوز ممرضة تخش بيتنا تديك الحقنة، جاها خشونة في مفاصلها.

حاول جلال أن ينهي النقاش بطريقة حاسمة، وقد بدا على وجهه مزيج من التعب، كأنه يتأمل في فوضى الحياة التي تحيط به. ثم قال:

=يبقى مش هخف في سنتي.

لكن ليالي لم تستسلم، وقالت بنبرة كامدة:

_مانا قولتلك نجيبلك ابن عمتي، انت اللي عملتلنا حوار.

أصر جلال على رأيه، ثم قال بحزم:

=محدش جاي يا ليالي، هعيش على المسكنات لحد ما ربنا يسهل والجرح يخف... هاتي العلاج وروحي شوفي وراكي إيه!

استسلمت ليالي في النهاية، ممددة يديها بالعلاج لجلال، بينما كانت عيناها مليئتين بالحيرة، تعكس انشغال ذهنها بالأفكار المتضاربة. وقفت في المطبخ، تغمرها تلك الأفكار بعد النقاش الحاد الذي دار بينها وجلال، غير مستوعبة كيف تحولت الأمور بهذه السرعة. كانت تقطع الخضار بعصبية، محاولةً نسيان كل ما حدث. في الجهة الأخرى، كانت أم قمر الدين تجلس وسط معرض التحف الأثرية، منبهرة بما تراه أمامها. كانت الأضواء تنعكس على القطع الفنية الفريدة، مما جعلها تشعر وكأنها في حلم.
بجوارها، كانت أم الديب، وتعبير القرف على وجهها كان واضحًا، مما زاد من حالة الإحباط لدى أم قمر الدين، التي كانت تحاول مشاركة الحماس. بينما كانت أم قمر الدين تستعرض قطعة فنية، شعرت بسعادة غامرة، ولكن تلك المشاعر سرعان ما تلاشت أمام ردود فعل أم الديب التي لم تكن تقدر قيمة التحف. انكسرت فرحتها بعد أن واجهت استهزاء أم الديب، مما جعلها تشعر باليأس. وضعت القطعة الفنية في مكانها، وشكرت صاحب المعرض بابتسامة مكسورة، بينما كان صاحب المعرض يبدي علامات السعادة في وجهه.

حاولت أم قمر الدين الحفاظ على توازنها النفسي، رغم سخرية أم الديب، التي كانت تتصرف بجدية وكأنها تؤمن بما تقوله. كانت أجواء المعرض تعكس تناقضًا بين الحماس والانزعاج، مما جعل أم قمر الدين تشعر بأن مشاعرها قد ضاعت وسط ذلك الجدل المتواصل، حيث أجابت أم الديب على حديثها:

=أخرتها خير وبركة، لأن آني ست بركة وكل الناس بتتبارك بيا.

أم الديب الجزء الثالث

لم تستطع أم قمر الدين كبح ضحكتها الصغيرة، التي خرجت مثل همسات رقيقة تتراقص في الهواء، فقالت وهي تفتح الطريق أمامها:

_ما شاء الله بجد ربنا يحفظك، اتفضلي!

استمروا في المشي، حتى بدأت أم الديب تشعر بتعب في رجليها، وكأن كل خطوة تأخذ منها جزءًا من طاقتها. توقفت فجأة، وأنينها الخافت يشكل همسات تخرج من بين شفتيها، كأنها تعبر عن شوقها للراحة. كانت ملامح وجهها تحمل آثار الإرهاق، مما جعل عينيها تتجولان في المكان بحثًا عن أي علامة تدل على قرب انتهاء جولتهم. شعرت كما لو كانت قد نُسجت من خيوط الإرهاق، تفتقد إلى الحيوية التي كانت تعتريها في بداية الرحلة، مما جعلها تئن بألم، وكأن الألم يتسرب إلى روحها مع كل لحظة تمر، قائلة:

_آه يا رجلي آه، أقفي يا ست بسملة، وقفيلنا توكتوك ولا تمناية ترجعنا الفندق اللي احنا فيه.

كانت أم قمر الدين متفاجئة من سرعة تعب أم الديب، وكأنها تشهد عرضًا غير متوقع في مسرح الحياة. فنظرت إليها بنبرة مدهوشة، وقالت:

=هو احنا لحقنا يا أم الديب؟

ردت أم الديب، ومعاناتها تتجلى في ملامح وجهها، وكأن كل كلمة تخرج من شفتيها تحمل وزن العالم على عاتقها. كان صوتها مرتجفًا، مفعمًا بالألم:

_ايهي ده بقالنا نص ساعة عمالين نلف ولا أجدعها نحلة، أقفي خلينا نرتاح، لعلمك آني مليش في المشي بس علشان خاطرك مشيت ولو إني معملش كدهو أبدًا.

كانت أم قمر الدين على وشك فقدان صبرها، حاولت جاهدة أن تحافظ على نبرة دبلوماسية، رغم أن السخرية تسللت إلى كلماتها بخفة، وبابتسامة مصطنعة قليلًا، قالت:

=ميرسي يا أم الديب إنك عملتي حاجة مش متعودة تعمليها علشاني، هنركب تاكسي يرجعنا الأوتيل.

لكن أم الديب، التي كانت دائمًا تميل إلى التخوف المبالغ فيه، قالت بخوف:

_أوعي تكوني مش حافظة المكان ألا نتوه وكلاب السكك تنهش في لحمنا إكمننا ولايا لواحدينا!

لم تستطع أم قمر الدين تحمل هذه التخوفات الغريبة، وكأنها قد استنزفت كل طاقتها في محاولة تفهم لعقليتها. فردت بنبرة اشمئزاز واضحة، تخرج من أعماق نفسها كعاصفة مفاجئة:

=لا متقلقيش محدش يقدر.

أشارت لسيارة تاكسي، وكانت حركتها تعكس شغفها للهروب من تلك اللحظة المزعجة، وما إن حاولت أم الديب الركوب حتى وجدت نفسها عالقة في الباب، وكأن القدر قد قرر أن يجعل من هذه الرحلة محطّة من الضحك والتوتر في آن واحد. كانت تحاول الدخول، لكن جاذبية الباب كانت أقوى من إرادتها، مما جعلها تبدو كفراشة محاصرة في شبكة من الخيوط، وفي تلك الأثناء، عرض السائق مساعدته بلُطف، وكأن تعابيره تحمل نوعًا من التعاطف تجاه وضعها الغريب قائلًا:

_Need help?

شعرت أم قمر الدين بإحراج شديد، وحاولت مساعدة أم الديب التي كانت عالقة في باب التاكسي. لكن الموقف كان محرجًا ومعقدًا، حيث بدأت أم قمر الدين تدفعها بكل قوتها، معبرة عن استيائها من زيادة

أم الديب الجزء الثالث

وزن أم الديب بسبب الإفراط في الأكل. بينما كانت أم الديب تستمر في الصراخ، استمرت أم قمر الدين في المحاولة، حتى جاء الوقت الذي تمكنت فيه من سحبها أخيرًا إلى داخل السيارة. عندما وصلوا إلى الفندق، حدثت مواقف مماثلة، حيث سحبت أم الديب أم قمر الدين معها إلى الأرض أثناء محاولتها الخروج من التاكسي، مما جعل الموقف أكثر إحراجًا أمام المارة. على الرغم من ذلك، استمرت أم الديب في تصرفاتها الغريبة، متجاهلة إحراج صديقتها بعد الدخول إلى الغرفة، اندفعت أم الديب نحو السرير لتنام دون أدنى اكتراث، بينما وقفت أم قمر الدين مذهولة من سلوكها. عندما حاولت أم قمر الدين إقناعها بالاستحمام بعد يوم طويل، أظهرت أم الديب عدم اهتمام، مما زاد من انزعاج أم قمر الدين، وأخيرًا، أخذت أم الديب قرار الاستحمام، تاركة أم قمر الدين لتتأمل في غرابة هذا اليوم وتجربتها مع صديقتها، قائلة بندم:

_بجد إنسانة غريبة جدًا، أنا إيه خلاني أسافر معاها؟

كان المعلم حنفي جالسًا في صالة البيت، مستريحًا تمامًا أمام التلفاز وهو يحتسي كوبًا من الشاي الدافئ، يشعر براحة لم يختبرها منذ فترة طويلة. أم الديب ليست هنا اليوم، وهذا يعني أن الحياة ستبدو أقل تعقيدًا لبضع ساعات على الأقل. في تلك الأثناء، كانت ابنته هايدي في المطبخ، تُجهّز الغداء بروح مرحة، متحمسة لأن هذه هي الفرصة النادرة التي ستتذوق فيها طعامًا لذيذًا دون قيود أمها. حيث سألت هايدي من داخل المطبخ بصوت ودي:

_أعملك إيه مع الفراخ يا بابا؟

ابتسم المعلم حنفي ورد بمرح:

=حطي بطاطس وطماطم، بس خلي بالك متعمليش الفرخة كلها، خليها على يومين... ده لو كانت أمك هنا كانت قسمتها علينا شهرين قدام.

ضحكت هايدي، وقالت بإصرار:

_لا طبعًا يا بابا، دي فرصة متتعوضش، إحنا هناكل الفرخة كلها النهارده، يا عالم الفرصة دي هتيجي تاني ولا لا.

قال المعلم حنفي، وهو مستمتع بفكرة الاستفادة القصوى من غياب أم الديب:

=على رأيك، طب اعمليها كلها، وآني هتصل بعمك حسين يجي يتغدا معانا هو وزياد.

قالت هايدي، وهي تضيف البطاطا إلى الصينية مع حلقات البصل، والطماطم، وكأنها ترسم لوحة فنية تنبض بالألوان، والنكهات:

_ماشي يا بابا.

بينما كانت هايدي تواصل تحضير الطعام، مغمورة في عالم النكهات، اتصل المعلم حنفي بأخيه حسين. رفع السماعة، وصوته يحمل نغمة حانية مختلطة بأصداء الحنين:

=ألو، يا حسين ياخويا، عامل إيه؟

في هذه الأثناء، وفي مكان آخر بعيد، كانت أم الديب تحاول التعامل مع كابينة الاستحمام في الفندق، ولكنها لم تكن تعرف كيف تفتح الباب، وفي لحظة جهل، كسرت الزجاج بزهرية كانت بجانبها. لكن أم

أم الديب الجزء الثالث

قمر الدين وقتما كانت تنعم ببعض الراحة في غرفتها، سمعت صوت الكسر وهرعت إلى المرحاض بفزع، وبصوت مليء بالغضب، سألت:

_أوه ماي جاد، انتي كسرتي الإزاز يا أم الديب؟

ردت أم الديب بتمثيل معتاد، وهي تتظاهر بالبراءة:

=آني مظلومة يا ست بسملة، آني معملتش حاجة.

صرخت أم قمر الدين، فلم تعد تحتمل المزيد من التفسيرات غير المعقولة، وكأن صوتها كان صرخة استغاثة تعبر عن احتقان المشاعر التي تفجرت بداخلها:

_لما انتي مظلومة ومعملتيش حاجة أمال مين اللي عمل كده؟

ردت أم الديب ببرود، كما لو كانت تعبر عن لا مبالاة تجاه العاصفة التي تثيرها:

=بصي، آني هقولك... الإزاز دهو شكله ضعيف أوي، أول ما لمسته راح مكسور وواقع.

قالت أم قمر الدين، التي فقدت صبرها، وهي تشير إلى الزهرية المكسورة، كأنها تشير إلى رمز لإخفاقات عديدة تراكمت:

_وبالنسبة للفازة المكسورة دي؟ هتألفيلها إيه بقى؟

قالت أم الديب، التي كانت بارعة في التهرب، بأسلوب خفيف وكأنها تُبدد أي توتر في الأجواء:

=بصي يا ست بسملة آني هفهمك.

قاطعتها أم قمر الدين بحدة:

_لا، لا متفهمنيش، لمي الإزاز المكسور ده بليز، مش عايزة أشوف منه قطعة واحدة على الأرض!

ردت أم الديب بنبرة هادئة، تحمل في طياتها سكون البحر بعد انتهاء العاصفة:

=وماله يا ست بسملة، روحي نامي انتي وريحي جتتك.

بعدما خرجت أم قمر الدين من المرحاض، تركت أم الديب تجمع قطع الزجاج المكسور بنفسها، وهي تسعى لإنهاء الفوضى التي تسببت فيها، لكنها لم تكن حذرة كفاية. فجأة، انزلق أحد الأجزاء الحادة بين أصابعها، فأسفر عن إصابتها بشظية في إصبعها. صرخت بألم، وصرختها كانت صدى للمعاناة المكبوتة بداخلها:

=يا لهوي، صوباعي يا خلق، حد يلحقني!

رغم أن أم قمر الدين كانت تحاول الاسترخاء، إلا أن إعوال أم الديب دفعها للقيام مجددًا، متذمرة وهي تقول:

_يا ربي مش هعرف أنام النهارده خالص.

عندما وصلت إلى المرحاض ورأت يد أم الديب المجروحة، تجمدت في مكانها وكأن الزمن توقف للحظة. شعرت بالصدمة تتسلل إلى أعماقها كبرودة شتاء قارس، بينما بدأ شعور الندم يغمر قلبها كمدٍ لا يُمكن مقاومته. كانت يدا أم الديب، اللتان اعتادت أن ترى فيهما القوة، الآن مشوهتين بجرح ينزف، فسألت:

_أم الديب، انتي كويسة؟

هكذا سألتها بخوف. لكن أم الديب، التي كانت تتألم، أجابت بصوت مُنهك:

=لا يا ست بسملة، آني إيديا اتجرحت، آه يا صوبعي.

أم الديب الجزء الثالث

شعرت أم قمر الدين بتأنيب الضمير، وأسرعت لتبحث عن صندوق الإسعافات الأولية، وبعد أن وجدت الشاش واللصقة، بدأت تضمّد يد أم الديب، وهي تقول بأسف:

_سوري يا أم الديب، أنا السبب في كل ده، لو مكنتش قولتلك لمي الإزاز مكنش ده حصل.

بينما أم الديب كانت تتظاهر بالقوة، حاولت أن تحافظ على رباطة جأشها رغم الألم الذي يعتصرها، فرفعت رأسها، وابتسمت ابتسامة مزيفة تشبه ضوء القمر في ليلة غائمة، وقالت:

=ولا يهمك كله فداكي يا ست بسملة، المهم ميحصلكيش حاجة.

بينما كانت أم قمر الدين تتأثر بكلمات أم الديب، بدأت دموعها تسقط، وهي تردد:

_انتي طيبة أوي بجد يا أم الديب، مش عارفة ليه كل الناس مدايقة منك، لو بصوا لحقيقتك هيحبوكي جدًا.

بينما كانت أم الديب تتأثر بكلماتها، بدأت دموعها تتساقط، معبرة عن مشاعر التعاطف التي تغمرها تجاهها. شعرت بعمق الروابط الإنسانية رغم كل التوترات. أم الديب، في محاولتها للتلاعب بمشاعر الآخرين، اتخذت من الحزن المصطنع درعًا لتحمي نفسها، معلنة أنها طيبة القلب، وكأن هذه الكلمات يمكن أن تقنع من حولها بتصديق صورتها. في تلك الأثناء، كان المعلم حنفي يستقبل أخيه حسين وابنه زياد بحفاوة في المنزل. بعد أن أنهت هايدي تحضير الغداء، كانت مشغولة بتقديم الطعام على الطاولة، بينما كان حسين يسخر من أجواء البيت، مازحًا بأن النحس قد زال. ضحك المعلم حنفي، لكنه كان يدرك جيدًا الأثر السلبي لعودة أم الديب، فأصبح حديثه مختلطًا بين الخوف من عودتها، والأمل في حياة أكثر هدوءًا، لكن زياد، الذي كان يسعى لإثارة إعجاب خطيبته هايدي، حاول لفت انتباهها أثناء تناولهم الطعام، ومع تزايد الأحاديث الضاحكة، بدأ الحديث يتحول نحو الخطط المستقبلية، حيث اقترح زياد فكرة الانتقال إلى شقة قريبة من والديهما بعد الزواج، لكن المعلم حنفي، العارف بطبيعة أم الديب، كان متوجسًا، مدركًا أن مشاكلهم قد تعود مع عودتها، فقال:

_آني مش شايف ده حل، الولية دي هتوصل لأي مكان.

ثم دعا بنبرة حزينة:

_يارب ريحني منها.

كانت ليالي في المطبخ، تفوح رائحة الأطعمة الشهية التي كانت تعدّها بيدها استعدادًا لاستقبال أهلها الذين كانوا على وشك الوصول. وسط ضجيج الأدوات المنزلية وصوت الخلاط العالي، شعرت فجأة بحركة خلفها، فالتفتت برأسها سريعًا لتجد جلال، زوجها، يدخل المطبخ متثاقل الخطوات، فظهر عليه التعب رغم كل التحذيرات التي تلقاها من الطبيب. فارتسم على وجهها القلق عندما صاحت ليالي، وقد قالت:

_إنت قومت ليه؟ مش الدكتور قالك متتحركش لحد ما تخف؟

اقترب جلال بخطوات بطيئة، وقد امتلأت عيناه بالانزعاج، ورد بحدة، بصوت أجش:

=محصور يا بت، وعمال أنده عليكي لحد ما لساني اتدلدل وانتي ولا هنا!

حاولت ليالي أن تبرر موقفها وهي تشير بيدها إلى الخلاط الذي يصدر صوتًا مزعجًا، قائلة:

_يقطعني يا جلال، إنت مش سامع صوت الخلاط؟ ماهو لازم مسمعش ده صوته عالي أوي.

أم الديب الجزء الثالث

زفر جلال بقوة، كأنما كان يحاول إخراج كل الضغوط المتراكمة من صدره، ثم أضاف بامتعاض وهو يهز رأسه في حركة تعكس استياءه:

=وهو كان لازم عزومة في أم الوقت ده؟ سايبة أيام ربنا كلها وضاقت عليكي وأنا تعبان؟

ردت ليالي بابتسامة حذرة، وكأنها تحاول أن تخفف بها الأجواء المشحونة التي كانت تملأ المكان كغيمة داكنة:

_ماهي ياخويا الأيام اللي فاتت كانت أمك لازقة في البيت زي اللازقة بغِرا، والحمد لله إنها سافرت خلينا نشم نفسنا شوية!

ضحك جلال ضحكة متعبة وهو يجلس على الكرسي القريب منه، وكأنه يحاول تخفيف حدة النقاش، ثم قال:

=أنا الوحيد فيكم اللي مش عارف أستمتع، لو كنت سليم وربنا كنت وزعت شربات على الشارع كله.

نظرت ليالي إليه بحنان، عينيها تفتش في تفاصيل وجهه الشاحب كمن يبحث عن نور في ظلام حالك، ثم همست بكلمات تحمل كل العطف:

_بكرا تخف وتقف على حيلك، المهم خد العلاج زي ما الدكتور قال.

رفع جلال حاجبه بابتسامة مريرة وهو ينادي على ابنهما بصوت عالٍ، متجاهلًا حديثها:

=ربك يسهلها، واد يا حمود.

أطل حمود من الغرفة المجاورة، وهو يتساءل بصوت طفولي مشوب بالاهتمام:

_إيه يابا؟

نظر جلال إليه بجدية، وأمره:

=انزل هاتلي علبة سجاير من الكشك.

عادت ليالي إلى المطبخ، حيث أبدت استياءها من تصرفات جلال، وهي ترفع يدها لتعبّر عن اعتراضها. كان حديثها يتسم بنبرة توبيخ ناعم، محملة بقلقها عليه. جلال، رغم حالته الصحية، كان مصممًا على تحدي أي نصيحة، مؤكدًا على قراره بشرب السجائر كوسيلة لتحسين مزاجه. لم يكن يبدو أن كلام ليالي يؤثر عليه، فقد اعتادت أن ترى إصراره على فعل ما يراه مناسبًا له، رغم تحذيراتها. لحظة فارقة تخللت الحوار عندما رنّ هاتف ليالي، مما جعلها تقطع الحديث بسرعة. حين أجابت على المكالمة، كان صوت والدتها من الجانب الآخر يعبّر عن بعض الإرهاق، لكن ليالي تفاعلت معها بحماس، داعية لها بالسلامة. بعد انتهاء المكالمة، عادت لتنظر إلى جلال، الذي بدا متضايقًا من الضجيج حوله، وسألها عن مكان وصول عائلتها، حيث أجابت:

_جايين في الطريق أهو.

نظر جلال إلى المطبخ المكتظ بالأطباق المتنوعة، مشيرًا إلى استنكاره لوجود هذا الكم الهائل من الطعام، متسائلًا عن السبب وراء ذلك. ليالي، التي شعرت بالاستفزاز من تعبيره، أوضحت له أن الأطباق مُعدة لأهلها، مدافعةً عن أهمية إكرامهم. بينما كان جلال يتكئ على الحائط، عبّر عن انزعاجه من التكاليف المرتبطة بالوليمة بدلًا من العلاج. تصاعد السخط في داخل ليالي، فحاولت تهدئة الأمور، مؤكدةً أنها ستفعل أي شيء لإرضاء والديها. جلال رد بسخرية، مشيرًا إلى مسؤولياته المالية. تدخلت ابنتهما تقى ببراءتها، مشيرة إلى أن والدها شحيح. بينما كان جلال يتصرف بخفة، حاولت ليالي إبعاد

النقاش عن الأجواء المتوترة ودعته للراحة. دفعت جلال برفق إلى الداخل، وعادت لاستكمال التحضيرات. في منزل نعمة، كان حامد يتأملها بحُب، حاثًا إياها على مقابلة سلفتها هبة، لترد نعمة ببراءة، مما جعل حامد يسترجع ذكريات جميلة عن علاقتها بليالي، قائلًا:

_بصراحة، انتوا اتحسدتوا. ده انتوا كنتوا زي السمنة على العسل... كل نسوان المنطقة كانوا بيغيروا من علاقتكم ببعض. أصل عمرهم ما شافوا واحدة بتحب مرات أخوها، دايمًا تلاقيهم ناقر ونقير.

أضاءت عينا نعمة، وهي ترد بفخر:

=علشان تعرف إن أنا قلبي أبيض وبحب الخير لكل الناس.

عقب حامد بابتسامة دافئة، تتلألأ في عينيه أشعة الأمل، مُعبرًا عن مشاعر الود التي يحملها في قلبه:

_وهو انتي في حد زيك يا نعومي؟ ياريت كل الناس زيك، بس اللي زيك قليلين في الزمن ده.

أحست نعمة بغبطة كبيرة من كلماته، حيث كان لها وقع خاص في قلبها، وكأنها ضوء ينير أركان روحها المتعبة. كان حديث حامد بمثابة عناق دافئ يعيد إليها شعور الراحة، مما جعلها تشعر بأن حياتها مليئة بالألوان الزاهية. انطلقت نحو حامد، وابتسامة عريضة تضيء وجهها، لتعبر عن امتنانها، وهي تفكر في كيفية استغلال هذه اللحظة السعيدة لتقوية الروابط العائلية، قائلة:

=تسلملي يا حمو، ربنا ما يحرمني منك، وعلشان الكلمتين دول أنا هنزل أصالح ليالي.

ابتسم حامد وهو يغمز بعينه، مما أضفى على الموقف جوًا من المرح، وكأن اللحظة بأكملها توقفت لتحتفل بهذه البساطة، وقال:

_ربنا يجعلني محضر خير يا نعومي.

نزلت نعمة بخطوات مليئة بالحيوية نحو شقة ليالي، وفور وصولها، سمعت صوت تقى يناديها بفرحة. احتضنت نعمة تقى بحرارة، معبرة عن محبتها، في حين ردت تقى بابتسامة عريضة، مبدية سعادتها. توجهت نعمة بعد ذلك إلى المطبخ، حيث كانت ليالي مشغولة بالأطباق، لكنها شعرت بالتوتر الذي اجتاح المكان عند رؤية نعمة، مما جعل الأجواء تتوتر قليلًا، وقد بادرت نعمة بالحديث قائلة:

_يا باي عليكي، بقى أنا وانتي نتخانق يا ليالي؟ طب ده كل المنطقة بتحسدنا على علاقتنا ببعض.

ردت ليالي بحدة:

=وهو حد كان قالك تزوديها معايا يا نعمة؟

فاجأتها نعمة عندما احتضنتها، وقالت بصدق:

_حقك عليا، يا خايبة، ده مصارين البطن بتتخانق. لو معديش عليكي كل يوم وأحكيلك عن اللي مضايقني، دي تبقى عيشة؟ يا عبيطة، أنا وانتي أخوات وهنفضل أخوات بغض النظر عن عمايل أمي، بس انتي عارفة غلاوتك في قلبي عاملة إزاي!

ردت ليالي بتصميم:

=لا يا نعمة، أنا كرامتي فوق كل شئ ومش هعدي اللي عملتيه معايا ده بالساهل.

ابتسمت نعمة، وعينيها تتلألأن بالإخاء، مما أضفى على المطبخ شعورًا بالدفء. كانت نبرتها تحمل لمسة من الألفة، موضحة مشاعرها دون الحاجة للكلمات، ونطقت بندم:

_حقك عليا، ده أنا بحبك ربنا العالم. وبعدين أنا قاعدة على قلبك غصب عنك، إيه رأيك بقى؟

لكن ليالي لم تستطع مقاومة المشاعر، فقالت:

=ماشي يا نعمة، شوفي انتي عايزة إيه واعمليه!
سألت نعمة بقلق، وهي تلاحظ تجاعيد الهموم على وجه ليالي، مما جعل قلبها ينقبض في صدرها:
_عاوزة نرجع كويسين مع بعض، وبعدين انتي ازاي تعملي أكل ومتندهنيش أساعدك؟ أكلي مش عاجبك ولا إيه؟
ردت ليالي ضاحكة:
=لا ازاي، هو أنا أقدر؟ ده انتي اسم الله عليكي، بقيتي أحسن مني في الطبيخ.
قالت نعمة بسخرية:
_أمي ربنا يديها الصحة، معلمتنيش أي حاجة. هي ذات نفسها أكلها كله عك في عك... طب دي كانت بتجيب مصاريين الفراخ وتسلقها، والنعمة دي يا ليالي، ريحتها كانت بتبقى قالبة ريحة البيت.
أظهرت نعمة سخرية ملحوظة وهي تتحدث عن والدتها، معبرة عن خفة دمها بطريقة جعلت ليالي تضحك بصدق. لكن جلال، من الغرفة المجاورة، دخل في الحوار بدعوة فضولية عن حالتهما، معبرًا عن حيرته من تقلبات مزاجهما. ردت نعمة بابتسامة، مؤكدة على أملها في تجنب أي مشاحنات مستقبلية، بينما اختتم جلال بتعجب من الوضع، مما أضفى طابعًا خفيفًا على الأجواء. فعادت المياه لمجراها الطبيعي بعد فترة من الخلاف بين الصديقتين، إذ كان الأمر الذي اختلفتا حوله يبدو بوضوح شديد ولا يحتمل أي نقاش، مما جعل نعمة تشعر بضرورة مد يد العون إلى ليالي، فتوجهت نحوها بجدية، وبدأت في مساعدتها في تحضير الطعام، استعدادًا لاستقبال عائلة ليالي التي ستصل في القريب العاجل، وكأنهما بذلك تستعيدان روح الألفة التي لطالما ميزت صداقتهما، مع العلم بأن تلك اللحظات ستظل محفورة في ذاكرتهما كعلامة فارقة في مسيرة حياتهما المشتركة.

يتبع...

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الرابع

عند أم قمر الدين وأم الديب، انتهي دوامهما في الفندق، وقررتا الخروج في مقهى ينبلج على البحر، حيث يتخالط صوت الأمواج برائحة المشروبات الشهية. كانت أم قمر الدين مشغولة بالتقاط الصور، بينما كانت أم الديب غارقة في استمتاعها بالمشروبات، تتذوق كل قضمة وكأنها اكتشفت كنزًا جديدًا. في الجهة المقابلة، كان هناك شاب مع حبيبته، محاطين بلحظات رومانسية تنبض بالعواطف، مما ألهب حفيظة أم الديب بشكل لا يقبل الشك. فجأة، تفجرت ثورة أم الديب، وهي تنظر إلى الثنائي الغارق في حبه، وصرخت بصوت عالٍ، عينيها تتقدان بشيء من الامتعاض، قائلة:

_انت يا راجل، ما تحترم نفسك انت والولية اللي معاك! انتوا فاكرين نفسكم في مسلسل ولا فيلم حب؟ ايهي ماله دهو؟

أجابها الشاب بنبرة استهزاء:

=What Do You Mean?

تفوهت أم الديب بحدّة، غير آبهة بكلامه:

_ايهي مين إيه؟ آني أم الديب، إسأل في أي حتة وهيقولولك تطلع مين أم الديب دهي!

لم يعبأ الشاب بكلامها، ورد ببرود:

=You Seem To Be Mentally Retarded.

استغربت أم الديب من ردّه، فصرخت:

_انت بتقول إيه؟ عاوجة لسان مش عاوزة، يلا غور انت والولية أم شعر أصفر دهي... يا ترى صابغاه عند كوافير أم سماح ولا أم محمد؟

ازدادت الأمور سوءًا، وشعرت أم الديب بأن تلك اللحظة تتطلب تصرفًا حازمًا، فاندفعت نحو الأجنبيّة وأمسكت بشعرها، وقلبتها على الأرض، لتبدأ في وطأها بشكل غير متوقع، بينما كانت أم قمر الدين مشغولة بالتقاط الصور، لم تدرك ما يحدث حولها حيث تلفظت بانشغال:

=واو، تجنن الصورة دي بجد! لا، اللي بعدها أحلى!

هكذا كانت تتحدث أم قمر الدين بحماس، لكن فجأة توقفت، وشعرت بشيء غير عادي، فعندما نظرت حولها، لم تجد أم الديب. أدركت أن شيئًا ما قد حدث، فركضت باتجاه الصوت المرتفع، وعندما وصلت، كانت قد شهدت المنظر المذهل، أم الديب تضرب الأجنبيّة، التي كانت تبكي وتشتكي، بينما كان زوجها يراقب الموقف بسخط واضح على وجهه. صاحت الأجنبيّة، وهي تتلوى من الألم:

_You Hit Me Hard. My Body Hurts!

قالت أم قمر الدين بصوت عالٍ، وبحيرة في عينيها:

=إيه اللي انتي عملتيه ده؟ انتي عارفة عملتي إيه؟ انتي ودتينا في داهية!

ردت أم الديب بلا مبالاة، وهي تعبر عن استنكارها:

_الراجل والولية قال إيه، فاكرين نفسهم قاعدين على النيل ومش عاملين إحترام لحد فينا.

أجابتها أم قمر الدين بعجيج:

أم الديب الجزء الثالث

=وانتي مالك؟ انتي مالك؟
اقتربت أم قمر الدين من الأجنبيّة، محاولة تهدئتها، قائلة بلُطف:
_I'm So Sorry. This Woman Is Mentally Ill.
صرخت المرأة الأجنبية بصوتٍ متقطع، وكأن الألم يغرز أنيابه في جسدها الهش، فتلوّت وكأنها تحاول الإفلات من قبضته القاسية، فيما كانت عيناها تنطقان برعبٍ صامت يعكس عجزها أمام موجات الألم التي اجتاحت كيانها، صاحت:
=If Lose My Right, I'm Going To Jail Her!
بصوتٍ مرتفعٍ تردد صداه في الأرجاء، ونظرة حائرة ارتسمت في عينيها وكأنها تبحث عن إجابة بين سطور الغيب، قالت أم قمر الدين، محملة بكلماتها شعورًا يضج بالتساؤل، والقلق الذي لا يهدأ:
_شوفتي وصلتينا لإيه؟

جاء رد أم الديب مشوبًا بلا مبالاة، وكأنها لا تعير الأمر اهتمامًا يُذكر، بينما ارتسم على ملامحها تعبير خفي عن الاستنكار:
=آني عملت حاجة؟ مآني ساكتة من ساعتها أهو.
جاءت إجابة أم قمر الدين مشتعلة بالاحتدام، وكأن الكلمات تتوهج من بين شفتيها كجمراتٍ حارقة، تعكس في حدتها الانفعال الذي لم تستطع كبحه، فاندفعت ترد وكأنها تقتص بحديثها من ظلمٍ طال صبرها عليه:
_أسكتي بقى، خلينا نتصرف!
ثم خطت بخطواتٍ متأنية نحو الأجنبية، وقد انعكس في حركتها مزيجٌ من الحنو والحذر، كأنها تقترب من روحٍ هشة توشك على الانهيار، عازمةً على أن تكون ملاذًا في عاصفة من المشاعر المتلاطمة.
مدت يدها برفق، محاولة تهدئة ما يعصف بالمرأة من ألم، بينما كانت الألفاظ تُحاكي مشاعرها في مكالمة هاتفية، كأنها تخيط خيوط الأمل بين القلوب المتألمة، وعندما انتهت من الحديث، شعرت بارتياحٍ يتخلل قلبها، كما لو أنها أزاحت عن كاهلها عبئًا ثقيلًا، ونطقت بكلماتٍ نابعة من أعماق نفسها:
_طيب الحمدلله، متشكرة جدًا لحضرتك، باي.
أنهت المكالمة ببطء، وكأنها تودّع ثقلًا أرهق كاهلها طويلًا. شعرت بإحساسٍ عارم من الراحة يغمرها، كما لو أنها تخلّصت من عبءٍ كان يجثم على صدرها. وبهدوءٍ ملحوظ، قالت كلماتها الأخيرة، وقد تسللت نبرة الارتياح إلى صوتها:
_الحمدلله حلينا المشكلة، بليز بقى متعمليش مشاكل تاني، خلينا نستمتع بالأجازة!
أجابت أم الديب ببرودٍ قاتم، وكلماتها كانت مُشيدة بأسوارٍ من الجليد تحجب عنها أي شعورٍ بالانفعال:
=وماله.
لكن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد، إذ ما إن دارت أم قمر الدين وجهها في محاولة لاستيعاب الموقف المتشابك، حتى اندفعت أم الديب نحو اثنين آخرين، وكأنها تتلمس طريقها في عاصفة من الكمد. وجهت إليهما ضربة أخرى، وفي لحظة اشتعلت فيها أعصابها، صرخت أم الديب بعصبية، والكلمات تنفلت من حنجرتها كالرصاص، قائلة بحقد:
_مش هتبطلوا مُحن يا ولاد الكلـ*؟

أم الديب الجزء الثالث

سألت أم قمر الدين، وهي تتراجع في دهشة، وكأنما شعاع من الصدمة اخترق كيانها. ارتعشت ملامحها، وتراجعت خطواتها إلى الوراء كما لو أن كلماتهما كانت تطاردها، لم تصدق ما يحدث أمام عينيها:

=تاني يا أم الديب؟

ردت أم الديب، وهي تتفجر غضبًا، وكأن ثورة بركانية قد انفجرت في داخلها:

_دول شوية ناس مشافوش تربية.

أخذت أم قمر الدين تهتف بحدة، وكأن صوتها كان بمثابة صفارة إنذار تعلن عن حالة طوارئ في كيانها، قائلة بانزعاج:

=وانتي مالك؟

قالت أم الديب، وقد برز على وجهها العزم:

_يعني إيه يا ست هانم، أمال أسيبهم كده؟ هو الكلام دهو يصح؟

أثارت كلماتها استغراب أم قمر الدين، حيث فتحت عينيها على اتساعهما قائلة:

=مش معقول يا أم الديب، انتي مش طبيعية، بجد أنا خلاص اتأكدت إن عقلك ده فيه مشكلة.

استمر الشجار المتبادل بينهما حتى تمكّنت أم قمر الدين من سحب أم الديب بعيدًا عن الموقف المتفجر، وقررت أن يأخذوا استراحة في مقهى آخر قريب. حملت أم قمر الدين قائمة الطعام بيدها، وهي تتصفح ما يعرضه المقهى من أصناف، بينما أم الديب كانت تراقب المنيو بشغف، لكن سرعان ما زادت تساؤلاتها. سألت أم الديب، مشيرة إلى القائمة:

_هو إيه البتاع دهو؟

أجابت أم قمر الدين، وهي تمسك بها بحزم:

=ده كابتشينو بالكوكو نات.

قالت أم الديب بجدية، وقد اتخذت من عينيها مرآةً تعكس صرامتها:

_نط فين؟ لا يكون مات ولا جراله حاجة!

بدأت تفاصيل اليوم المليء بالمفاجآت تتلاشى ببطء، تاركةً خلفها شعورًا معقدًا من الضحك، والغضب، والإحراج. قالت أم قمر الدين بدهشة:

_هو مين؟

أجابت أم الديب، وهي تتحدث بثقة:ٍ

=الراجل اللي بتتكلمي عليه دهو.

ردت أم قمر الدين بسخرية، وكلماتها كانت تجسيدًا لحالة من الاستهزاء بموقف أم الديب. ارتسمت على وجهها ابتسامة مُرّة، مُعبرةً عن عدم تصديقها لما يُقال:

=يارب، يارب ارحمني منها، حبيبتي يا أم الديب كوكو نات يعني جوز الهند.

رفعت أم الديب عينيها ببطء، وكأنها تستجمع شجاعتها من أعماقها، وبدا على وجهها تعبير الحيرة الذي يشي بعواصفٍ داخلية تتصارع. ثم، وسط تلك اللحظة المشحونة بالتوتر، ردت بصوتها الريفي:

_مآني قولتلك بلاش عوجة اللسان دهي، آني ست جاهلة ومبفهمش غير الكلام بتاعنا دهو.

أم الديب الجزء الثالث

كانت أم قمر الدين تحاول تهدئة الأمور، فأومأت بخضوع مصطنع وأجابت وهي تحاول الحفاظ على رباطة جأشها:
=أوكي يا أم الديب حاضر، لو سمحت.

بعد أن هدأ الموقف قليلًا، توجهت أم قمر الدين للنادل بصوت مهذب، وكأنها تحاول العودة للهدوء:
_Two Cappuccino With Hazelnuts.
بينما كان النادل ينصرف بالطلب، أخذت أم الديب تحدق في المكان بفضول لم تعهده من قبل، حتى استوقفتها صورة لقطة ترتدي بدلة على الحائط، فتجمدت نظرتها عليها لبرهة طويلة قبل أن تقطع الصمت باندهاش صادق، وقالت:
=إيهي هما بيلبسوا القطط زينا؟

ضحكت أم قمر الدين برفق، كأنما كان ضحكها نغمة خفيفة تُلامس الأجواء المحيطة، قبل أن تجيبها بصوتٍ ناعم، مليء بالإعجاب الذي ينطلق من أعماق قلبها تجاه الحيوانات. تخللت كلماتها روح الحنان، وكأنها تتحدث عن أصدقاء قدامى تربطها بهم عواطفٌ عميقة، مُعبّرةً عن ارتباطها بعالمٍ يجسد البراءة، قائلة:
_طبعًا يا أم الديب، القطط دي كائنات جميلة جدًا، وواجب علينا نحترمها ونقدر قيمتها.
لكن أم الديب لم تقتنع بهذا الحديث الغريب بالنسبة لها، فرفعت حاجبيها باستنكار وسألت بنبرة حازمة تعبر عن استغرابها:
=قطة إيه يا ست هانم اللي نحترمها ونقدر قيمتها؟ ده احنا عندنا بنضربها بالرجل بنطوحها بعيد.

اهتزت أم قمر الدين في مكانها، وكأن الأرض انشقت تحت قدميها، ملامح وجهها تحولت إلى مزيج من الصدمة، والذهول:
_أوه ماي جاد، انتوا بتضربوا القطط يا أم الديب؟ لا مش معقول انتوا ناس معندكمش رحمة!
في تلك اللحظة، وبينما كانت أم قمر الدين تنهض من مكانها، وجهها مغطى بالصدمة، بدا الأمر وكأنها غير قادرة على تحمل الحديث، وفي تلك الأثناء، كانت أم الديب تحدق فيها باستغراب شديد، وكأنها لم تدرك أن ما قالته عن القطط كان سببًا في كل هذا الانزعاج. بنبرة هادئة، ولكن متسائلة، قالت أم الديب، وهي ترفع حاجبيها في دهشة جسيمة:
=وبعدين قطة إيه؟ اسمها بِسة.

لكن أم قمر الدين، التي كانت تتصارع مع مشاعرها الغاضبة، التفتت نحو أم الديب بعينين مشتعلتين بالسخط. نبرة صوتها جاءت حادة، وكأنها تحاول استعادة السيطرة على الموقف، قائلة:
_بِسة دي عندكم انتوا، لكن عندي أنا اسمها قطة. ولعلمك أنا بحب القطط جدًا وكل الحيوانات، وإياكي تجيبي سيرتهم بالطريقة دي مرة تانية، مفهوم؟
نهضت أم الديب في مكانها، تحاول تهدئة الموقف بنبرة هادئة تعكس عدم فهمها لسبب كل هذا الانهيار:
=أقعدي بس يا ست بسملة، مالك اتعصبتي كدهو ليه؟

أم الديب الجزء الثالث

لكن أم قمر الدين لم تستجب بسهولة، ما زالت متمسكة بغضبها. نظرت إلى أم الديب بعينين حادتين، وكأنها لن تتنازل، قائلة بعناد:

_مش هقعد غير لما تقولي أنا أسفة لكل القطط!

شعرت أم الديب بالارتباك، فأخفضت صوتها وتحدثت بصوت شبه هامس لنفسها، وكأنها لا تزال غير مستوعبة ما يجري:

=هي الولية اتعبطت ولا إيه؟ قطط إيه اللي عاوزاني أتأسفلهم؟

التفتت أم قمر الدين نحوها، وكأن نظراتها كانت تشع بصرامة تفرض على من حولها التزام الصمت والتفكير في حديثها. كان وجهها يتسم بالتحدي، وكأنها تنتظر اعتذارًا واضحًا ومباشرًا يعكس اعترافًا بالخطأ، فقالت كلماتها:

_ها، قولتي إيه؟

بابتسامة مرتبكة، وكأنها تحاول إنهاء الموقف بأسرع وقت، قالت أم الديب بنبرة استسلام ساخر:

=آني أسفة لكل البسس بِسة بِسة.

لم تكن نبرة الاعتذار تلك مرضية تمامًا لأم قمر الدين، لكنها قررت أن تنهي النقاش بطريقتها. نظرت إليها باستهجان واضح، وقالت بصوت مليء بالاشمئزاز:

_أوكي يا أم الديب، أول وآخر مرة تعملي كده!

ثم جلست مجددًا، تحاول استعادة هدوئها، بينما أم الديب تابعت الحديث بنبرة أخف، وكأنها تحاول تغيير الموضوع تمامًا:

=أما قوليلي يا ست بسملة، انتي طلبتيلنا إيه؟

أجابت أم قمر الدين بابتسامة مصطنعة، محاولة إخفاء نفورها:

_طلبتلك مشروب هيعجبك جدًا، معتقدش إنك شربتيه قبل كده... صحيح قوليلي إيه أكتر مشروب بتحبيه؟

ردت أم الديب بسرعة ودون تردد، وكأن كلماتها تنطلق من قلبٍ ينبض بالشغف تجاه ما تتحدث عنه. بدا حديثها وكأنه انسيابٌ طبيعي لأفكار كانت مخزونة في أعماقها، كما لو كانت تستعرض شيئًا عزيزًا على قلبها:

=البرسيم.

كان وقع الكلمة صادمًا على أذني أم قمر الدين، فحدقت فيها بذهول وكأنها تعتقد أن أم الديب تمزح، قائلة:

_انتي بتهزري؟

لكن أم الديب كانت جادة تمامًا، فردت بكل براءة، وكأن الأمر لا يستدعي كل هذا الذهول:

=وآني ههزر ليه؟ هتجيبي البرسيم يا ست بسملة وتحطيله السكر وترزعيهم على النار وهاتك يا تقليب لحد ما يدبل، تقومي واخداه وحاطاه في الخلاط مع شوية ماية وليمونة وهاتك يا ضرب.

نظرت إليها أم قمر الدين بتقزز، ثم قالت بصوت ملآن بالاشمئزاز:

_بس، بس! إيه القرف ده؟ مش البرسيم ده اللي الحيوانات بتاكله؟

أم الديب الجزء الثالث

لكن أم الديب لم ترَ في الأمر شيئًا غريبًا، فأجابت بجدية تامة:
=ومين قالك إنه للحيوانات وبس؟ طب لعلمك يا ست بسملة انتي لازم تجربيه من إيديا، دهو هيعجبك أوي.
تراجعت أم قمر الدين إلى الخلف، محاولة الابتعاد عن الفكرة التي أثارت مشاعر الاضطراب لديها. وضعت يدها على بطنها وكأنها تشعر بالغثيان، ثم نهضت مُسرعة من على الطاولة، منادية الجرسون بلهفة. أشار الجرسون بسرعة إلى المرحاض، مما جعلها تنطلق بسرعة، وكأنها تهرب من الكارثة التي وقعت عليها، بينما ظلت أم الديب جالسة في مكانها، تتساءل بحيرة عن سبب انفعال أم قمر الدين. بينما في منزل ليالي، كانت نعمة منهمكة في ترتيب الأغراض وتحضير الأطعمة، بينما كان الجو يغمره الحماس لقدوم أهل ليالي. كان كل شيء يسير على ما يرام حتى رن الهاتف، حيث جاء صوت تباهي، مُعبرًا عن حنان الأم المعتاد. خرجت ليالي إلى الشرفة وألقت المفتاح إلى والدتها، التي كانت تحمل الحلوى، والفواكه، والعصائر. وقفت ليالي على الدرج تنتظرهم بابتسامة مليئة بالشوق، وعندما رأتها والدتها، تقدمت إليها بسرعة واحتضنتها بحرارة، مما زاد من شعورها بالشوق. التفتت ليالي إلى أختها هبة، التي كانت تقف بابتسامة صغيرة تعبر عن السعادة في أجواء اللقاء، وقالت:
_ازيك يا هبة ياختي؟

ردت هبة وهي تعانقها أيضًا:
=الحمدلله يا ليالي، انتي عاملة إيه؟
بينما كانوا يدخلون إلى المنزل، التفت عم سلامة نحو ليالي، وسألها بلهجة أبوية:
_جلال جوا؟

أجابته ليالي، وهي تفتح الباب لهم وتسمح لهم بالدخول:
=أه يابا، خشوا، صارفين ومكلفين ليه ياما؟ هو احنا بينا الكلام ده؟
نظرت تباهي إليها بعينين مليئتين بالمحبة، وكأن عواطفها تتلألأ كنجوم في سماءٍ حالكة، قائلة بكلمات تتدفق من قلبها كعذب الأنهار، تعبر عن مشاعرها الصادقة، واعتزازها بتلك العلاقة التي تربطهما:
_كل واحد بيدخل بمقامه يا بتي... سلامة جوزك ربنا يشفيهولك ويقومه بالسلامة.
ابتسمت ليالي بتقدير، ثم أجابت بخفة:
=الله يخليكي ياما.
في تلك الأثناء، كانت نعمة تحتضن والدة ليالي بحُب، كأنها تحتضن ذكريات الأوقات الجميلة التي عاشتاها معًا، قائلة بكلمات تنبض بالعاطفة، تعبر عن مدى قربهما:
_منورة الدنيا يا أم ليالي.
ردت تباهي بنفس المحبة، وكأن كلماتها كانت تجسيدًا لروح الفرح التي تتبادلها مع نعمة. كانت نبرتها تنضح بالحنان:
=منور بيكي يا نعمة.

أم الديب الجزء الثالث

دخل الجميع إلى المنزل، وكل فرد بدأ يأخذ مكانه. ليالي ونعمة توجهتا إلى المطبخ، بينما انضمت إليهما هبة للمساعدة. أما عم سلامة، وأشرف، وحامد، فقد دخلوا إلى غرفة جلال ليطمئنوا عليه. عم سلامة اقترب منه قائلًا بصوت حنون:

_سلامتك يا جلال.

رد جلال، الذي كان لا يزال في فترة نقاهته:

=الله يسلمك يا حمايا.

أما أشرف، فوقف للحظة، مُتأملًا ما يجري حوله، وكأن كل تفصيلة في المشهد تُحفز أفكاره وتدعوه للتفكير بعمق. ثم، وبصوتٍ مُحمل بالتفكير، قال كلماته التي خرجت منه كشرارة في الظلام:

_عايز أدخل الحمام.

أشار جلال إلى المرحاض، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الهدوء. ثم قال:

=الحمام قصادك أهو، خش.

أجاب أشرف بسرعة، وكأن الكلمات تنفلت من لسانه كالسهم:

_بالإذن.

رد عم سلامة بابتسامة:

=اتفضل يا أشرف.

بينما كان الجميع في أماكنهم، قامت ليالي بفرش مشمع على الأرض في الصالة، وبدأت بوضع الطعام الذي أعدته بعناية. جلسوا جميعًا حول الأكل، وكانت أصناف الطعام متنوعة وغنية كطواجن المعكرونة باللحم المفروم، والكفتة والدجاج المشويين بالفرن، وصواني البطاطا بالبصل، وكل ما تشتهيه الأنفس. حيث أن والدة ليالي، التي كانت تشعر بالدهشة من كثرة الطعام، سألت ابنتها بتعجب:

_إيه يا بتي كل ده؟

لكن ليالي ردت بفخر، مُعبرة عن رغبتها في تقديم المزيد من الأطباق الشهية. على الجانب الآخر، في المقهى، كانت أم قمر الدين تجلس مع أم الديب، التي كانت تستمتع بشرب الكابتشينو، حتى امتلأ وجهها بالرغوة. جعل هذا المشهد أم قمر الدين تشعر بالاشمئزاز، حيث طلبت من أم الديب أن تمسح وجهها، لكنها لم تهتم، بل استمرت في الشرب. ثم انتبهت أم الديب إلى الكعكة الحمراء أمامها، مُعبرة عن دهشتها، واستفسرت عن مكوناتها. أجابت أم قمر الدين مُشيرةً إلى طعمها اللذيذ، مما جعلها تؤكد وجود كريمة الجبنة فيها. ثم تحدثت أم الديب بحماس عن كعكة تُباع في بلدتها، مُقارنةً بين طعمها وطعم الكعكة في المدينة، مما أثار استهجان أم قمر الدين. كما تحدثت عن ذكرياتها مع الحلويات وتفضيلها للاحتفاظ بأموالها. أظهرت أم قمر الدين تقديرها لطريقة أم الديب في الحياة، مما جعل الأخيرة تشعر بالفخر. استقامت أم الديب بفخر ظاهر على وجهها، مُعبرة عن اعتزازها بنفسها وبأسلوب حياتها. لكن في زاوية أخرى من القرية، كانت ليالي منهمكة في تقديم وليمة عائلية جمعت حولها أفراد العائلة، أصناف من الطعام تفوح رائحتها الطيبة ملأت المكان. بعد الانتهاء من الوجبة، بادرت نعمة، وهبة إلى

أم الديب الجزء الثالث

مساعدة ليالي في المطبخ، حيث كانت الأصوات تتداخل مع أصوات الملاعق والأطباق، فيما تكسو الوجوه ابتسامات ممتنة. قالت ليالي، بابتسامة دافئة وهي تمسح جبينها من أثر التعب:

=كتر خيركم مكنتش عايزة أتعبكم والله.

ردت هبة، وهي تضع طبقًا بعناية في المغسلة وتتفحص يدها التي بدأت تكتسب خشونة من أعمال المطبخ:

_ولا تعب ولا حاجة، مش كفاية واقفة في المطبخ من صباحية ربنا؟ ده تسلم ايديكي الأكل عشرة على عشرة.

قالت ليالي، وهي تلقي نظرة فخورة على الطعام الذي حظي بالمديح:

=بالهنا والشفا يا هبة ياختي .

ثم نادت طفلها بنبرة عالية:

=واد يا حمود.

رفع حمود، الذي كان مستغرقًا في اللعب، رأسه متسائلًا بفضول، وكأن تساؤلاته تتدفق من عقله كجداول ماء، مُعبرًا عن استغرابه من شيء ما لم يفهمه تمامًا:

_إيه ياما؟

أجابت ليالي، بنبرة حازمة، وكأن كلماتها كانت تتسلل عبر الأجواء كصوت الرعد في سماء عاصفة:

=خد الطبقين دول نزلهم لجدك وعمتك هايدي، وخد بالك ألا يقعوا من ايدك!

قالت نعمة، وهي تسحب الطبقين من يد ليالي قبل أن يتورط حمود في إسقاطهما:

_لا بلاش ألا يقعوا من إيده، هاتيهم أنزلهم أنا.

تلفظت ليالي، وهي تتنهد من الإرهاق، وكأن أنفاسها تحمل معها ثقل اليوم الذي مر عليها، مُعبرة عن شعورها بالإعياء الذي بدأ ينال منها:

=ماشي يا نعمة خدي.

نزلت نعمة بخفة، وسرعة بالطبقين إلى الشقة السفلية، حيث كان المعلم حنفي مستلقيًا في نوم عميق بعد مغادرة حسين وزياد المنزل، بينما كانت هايدي منشغلة بمكالمة هاتفية مع خطيبها. طرقت نعمة باب الشقة بنعومة، كأنها تحاول ألا تزعج السكون الذي يملأ المكان، مُناديةً بصوتها الرقيق الذي يحمل بين طياته قلقًا خفيفًا، حيث كانت تأمل في أن تجد استجابة سريعة تُعيدها إلى جو العائلة الدافئ الذي تفتقده:

_يا هايدي، يابا.

خرجت هايدي من غرفتها ببطء، وعلامات الاستغراب ترتسم على وجهها قائلة:

=إيه يا نعمة؟

سألت نعمة باهتمام عن مكان والدها، فأشارت هايدي إلى الغرفة الأخرى حيث كان المعلم حنفي نائمًا. قدمت نعمة لها الطبقين، واحد لها والآخر لوالدها، مشددة على ضرورة إيقاظه وإخباره بأن عم سلامة هنا. بينما كانت هايدي تتفحص الطبقين بلامبالاة، شعرت نعمة بنبرة وداع خفيفة، مُعبرة عن نيتها في مغادرة المكان. دخلت هايدي بهدوء إلى غرفة والدها، الذي كان لا يزال غارقًا في نومه العميق. اقتربت منه وهمست مناديةً إياه. استجاب المعلم حنفي بتقلب ببطء، وكأن الكسل يسيطر على جسده. وعندما

أم الديب الجزء الثالث

أدركت هايدي أنه يجب عليها أن تُسرعه، أكدت له أن عم سلامة فوق. فتح المعلم حنفي عينيه بصعوبة، طالبًا منها أن تُحضر له ملعقة من المطبخ. دخلت هايدي لتجلب الملعقة، وعندما عادت، قدمتها له. بدأ المعلم حنفي يأكل ببطء، مستمتعًا برائحة الطعام، مُظهرًا رضاه عن الوجبة التي أُعدت لهم قائلًا:

_يا سلام على ده أكل، أهو كده الواحد ياكل بروقان.

قالت هايدي بابتسامة فخر:

=الأكل ريحته حلوة أوي، أكيد ليالي اللي عاملاه.

نطق المعلم حنفي وهو يهز رأسه إعجابًا:

_مرات أخوكي شاطرة، ياريت نعمة تتعلم منها وتنسى العك اللي أمك علمتهولها.

تلفظت هايدي، وهي تضحك على ذكرى قديمة:

=نعمة بتتعلم من ليالي فعلًا بس لسه بدري عليها علشان توصل لنفس المستوى ده.

تفوه المعلم حنفي، وهو يستذكر أيامًا مضت، يطلق ضحكة خفيفة:

_فاكرة يا بت يا هايدي لما أمك سلقت الفرخة بريشها؟

أجابت هايدي، وهي تضحك بصوت عال:ٍ

=طبعًا وده يوم يتنسي؟ ووقتها اتخانقت معانا خناقة كبيرة واللي مش هياكل هيتنفخ.

فلاش باك منذ سبعة عشر عامًا، حيث كان جلال في الصف الثالث الإعدادي، وأحمد في الصف السادس الابتدائي، ونعمة في الصف الثاني الإعدادي، وهايدي في الصف الثالث الابتدائي، وبعد أن عادوا من المدرسة، كانت أقدامهم متثاقلة، وأرواحهم تتوق إلى الطعام، حيث وجدوا أم الديب تسلق الدجاجة بريشها، وكأنها تحضر وليمة عظيمة لم تُفتح بعد ولا نُظفت. لم تكن لها نية في التحضير كما يعتادون، بل أخذتها كما هي على النار، وكأنها تعبر عن قناعة راسخة بأن البساطة قد تكون ألذ من التعقيد. تبادلت نظراتهم المُتعجبة، وعلت على شفاههم ابتسامة تحمل في طياتها روح الدعابة، في حين كان الجوع يعصر بطونهم، مما جعل نعمة تفتح عينيها على مصراعيها، وتقول بتعجب:

_ياما احنا جعانين خلصتي ولا لسه؟

كانت الأجواء في المنزل مشحونة بتوقعات الجميع للطعام الذي طال انتظاره، فقد جلسوا جميعًا حول المائدة، مستعدين لتناول ما ستقدمه أم الديب. المعلم حنفي، بأعينه التي كانت تلمع من الجوع، والأبناء الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر. فجأة دخلت أم الديب وهي تحمل القدر، ومع الخطوات التي اقتربت بها من الطاولة، كانت الأنفاس محتبسة، حتى وضعت القدر في منتصف المائدة ورفعت الغطاء، ولكن ما ظهر تحت الغطاء كان صادمًا للجميع، وبالكاد استطاع المعلم حنفي أن يتفوه بجملته وهو ينظر للطبق بذهول:

=إيه ده يا ولية؟

نظرت أم الديب إليه بنظرة تجمع بين الاستياء، والعناد، قائلة بصوتها المعتاد:

_الفرخة.

لم يستطع المعلم حنفي أن يستوعب ما يراه، فنظر مجددًا إلى القدر وكأن عيناه قد خدعته، ثم قال بلهجة استنكارية:

=دي شوربة ريش ولا شوربة فراخ؟

أم الديب الجزء الثالث

كان الموقف كله مثيرًا للسخرية، حيث بدت الدجاجة وكأنها لم تخضع لأي عملية تحضير حقيقية، وكأنها ألقيت في القدر كما هي. أم الديب لم تهتم بالتفاصيل التي كانت واضحة للجميع، فردت بعفوية تغلب عليها النبرة الساخطة:

_إيه هي وآني لسه هنضف وأعمل؟ هجيب وقت منين لكل دهو؟

هنا، بدأت الأصوات تتعالى من حول المائدة. جلال، الذي كانت ملامحه تعبر عن الاشمئزاز، قال بصوت خافت، ولكن مسموع:

=شكلها معفن أوي.

أضاف أحمد بتنهيدة:

=وحشة أوي يا ماما.

أما نعمة، فقد كانت أكثر صراحة، وقالت دون أي تردد:

=شكلها نتن أوي ياما.

هايدي، الصغرى في العائلة، أظهرت جوعها بوضوح، لكن لم تستطع أن تمنع نفسها من التعليق بتقزز، كأن كلماتها خرجت من قلبها الذي لا يتقبل المنظر:

=أنا جعانة بس مش هاكل من الأكل ده.

عند هذه النقطة، انفجرت أم الديب بالسخط. لم يكن هناك شيء يمكنه إيقافها الآن. رفعت النعل بسرعة خيالية، وبدأت تجري عقب الأبناء الذين هربوا مذعورين من شدة الفزع الذي أشعلته هذه التعليقات.

بعدما تفرقت العائلة وأصبحت أم الديب وحدها مع المعلم حنفي، الذي لم يكن أمامه سوى محاولة البقاء على قيد الحياة وسط هذه الفوضى، أمسكت أم الديب بعنق زوجها بقوة، وصرخت فيه بنبرة لا تعرف الرحمة، قائلة:

_افتح بوقك!

حاول المعلم حنفي أن يتفادى يديها، وكأنه يحاول الابتعاد عن مصير لا يُحمد عقباه، وقال بتوسل:

=لا يا ولية أبوس إيديكي بلاش!

لكن أم الديب لم تكن في حالة تسمح بالتفاهم، فصرخت مجددًا:

_بقولك افتح بوقك!

أمام هذا الامتعاض الجارف، لم يكن لدى المعلم حنفي أي خيار، فتنهّد بعمق، وقال بصوت يائس:

=أسترها علينا يا رب.

فتح المعلم حنفي فمه على مضض، فأخذت أم الديب دبوس الدجاجة بحزم وأدخلته في فمه بالقوة. كان يتعين عليه أن يبلعها، وهو يشعر وكأنها آخر وجبة سيتناولها في حياته. كانت أم الديب تقف فوقه تنتظر بفارغ الصبر أن يبتلع، بينما هو يكافح للبقاء واعيًا، ولكن الأمر كان أقوى منه، فانهار على الأرض مغشيًا عليه من شدة الاختناق. مرت لحظات ثقيلة، ثم ضحكت هايدي بصوت عالٍ وهي تتذكر الموقف:

_ياه يا بابا، دي كانت أيام سودة.

قال المعلم حنفي، الذي تعافى أخيرًا من ذكرى تلك الأيام اللصبة:

=ده أنا انكتب لي عمر جديد بعد اللي حصل!

أم الديب الجزء الثالث

بينما كانتا تسيران في الطريق الطويل المليء بالغبار الذي يقود إلى وجهة غير معروفة بعد، كانت "أم الديب" تسير خلف "أم قمر الدين" بخطوات متثاقلة ومليئة بالقلق. لم يكن القلق غريبًا على أم الديب، فقد كان جزءًا لا يتجزأ من حياتها اليومية، وكأن العالم كله مليء بالمفاجآت التي تخبئ لها الأسوأ دائمًا.
صوت أم الديب لم يتوقف، وهو يغمر الأجواء بوابل من الأسئلة التي لا تنتهي. تسأل مرة بعد مرة بنبرة تجمع بين الفضول والخوف من المجهول. بينما كانت أم قمر الدين تسير بخطوات ثابتة محاطة بنسائم الصحراء الجافة، كانت أم الديب تلاحقها بخطوات متعثرة، وكأنها تخشى أن يبتلعها المجهول في أي لحظة. كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب، تاركة وراءها ظلالًا طويلة تمتد على الرمال، ولكن أم الديب لم تهدأ، إذ لم تتوقف عن سرد تساؤلاتها التي زادت من توتر الموقف، قائلة:
_السفاري دهي تكلفتها كام؟

تحدثت أم قمر الدين بصوت مُنهك، وقد فقدت صبرها بعد موجة لا تنتهي من الأسئلة:
=مش عارفة لسه!
لكن أم الديب، بتلقائية مطلقة، لم تنتبه للإرهاق الذي أصاب صديقتها، واستمرت في طرح المزيد من الأسئلة التي بدت وكأنها لا تنتهي، تعكس مخاوفها غير المنطقية، قائلة:
_وهناكل إيه هناك؟ وهناخد الشنط معانا ولا لأ؟
أجابت أم قمر الدين، وقد بدأ صوتها يتخلله الغضب من السؤال الأخير بنبرة حادة بعض الشيء:
=أكيد طبعًا.
وفي لحظة كان الحوار يبدو وكأنه لن يتوقف أبدًا، وقع ما لم يكن في الحسبان. بينما كانت أم الديب تركز في طرح أسئلتها المحملة بالقلق، غابت عن ملاحظة حفرة كبيرة كانت تعترض طريقها. لم تكد تتقدم خطوة أخرى حتى زلّت قدمها وسقطت بداخلها بسرعة مفاجئة، وأطلقت صرخة قوية:
_يا لهوتي!

أم قمر الدين، وقد صدمها ما حدث أمام عينيها، توقفت فجأة كما لو أن الزمن قد تجمد في تلك اللحظة، والتفتت بذهول، وكأن صدى الصدمة قد ارتد في أذنيها. اتسعت عيناها بقدر ما اتسعت مساحتها من الدهشة، وامتدت شفتاها في تعبير عن استنكار عميق، بينما خفقات قلبها تُعبر عن الارتباك الذي يعصف بها، وقالت بصراخ:
=أم الديب!
تجمعت الرمال حول قدمي أم الديب، وهي تحاول الخروج من الحفرة بجهد مضنٍ، ولكنها وجدت نفسها عالقة، تتأرجح بين الفزع والدهشة، وصوتها لا يزال يملأ الهواء المليء بالغبار، قائلة:
_يا مصيبتي! يا لهوي يا ولية!

يتبع...

الفصل الخامس

تحت أشعة الشمس الحارقة، حيث كانت السماء بلا رحمة ترسل أشعتها وكأنها سهام تلفح كل ما تلمسه، وقفت أم قمر الدين في مكانها وكأن الأرض جمدت تحت قدميها، تائهة بين أفكارها. كانت مشاعرها تتصارع بين الخوف والذهول، وقلبها يطرق أبواب صدرها بعنف، كأنه يحاول الفرار من هول الموقف الذي لم يكن له في الحسبان. سقوط أم الديب في تلك الحفرة الكبيرة أمامها، جاء كالصفعة التي أيقظتها من وهم الأمان، ولم تعرف في تلك اللحظة من أين تبدأ. عيناها المرتبكتان تجولان في الأرجاء بلا وجهة محددة، تبحثان عبثًا عن مخرج أو نجدة، لكنها كانت غارقة في دوامة الحيرة. تحدثت أم قمر الدين، ولكن كلماتها بدت كما لو كانت تضيع بين زوايا المكان، قائلة:

_أوه ماي جاد أعمل إيه دلوقتي؟ انتي وقعتي ازاي؟

في تلك اللحظة العصيبة، كانت أم الديب محاصرة في ظلمات الحفرة الغائرة، وكأن الأرض قد انشقت لتبتلعها في لحظة غادرة. جسدها المُتعب كان يغرق في دوامات الألم، وعيناها المتقدتان بمزيج من الجَزَع والامتعاض كانت ترويان قصة معاناة خفية. حاولت أن تلتقط أنفاسها المقطعة وكأن كل نفس يحتاج منها إلى جهد لا يوصف، لكن الألم الذي بدأ يتسلل ببطء إلى رجليها كان أشبه بسكاكين حادة تخترق لحمها. ووسط هذا العذاب، لم يكن لها من خيار سوى أن تصرخ بأعلى صوتها، كأن صرختها كانت محاولة يائسة للتشبث بخيط من الأمل الذي كان يتلاشى أمامها. أطلقت أم الديب صوتًا ممزقًا بالاستغاثة، قائلة:

_الحقيني يا ست بسملة أمانة عليكي، حد يطلعني من هناهو، رجلي اتلوحت... الحقيني!

شعرت أم قمر الدين في تلك اللحظة وكأن تيارًا جارفًا من الرعب قد اجتاح قلبها بلا رحمة، فأصبحت مشاعرها كأمواج متلاطمة في بحر من الخوف العميق. كان صدرها يضيق، وريقها يتجمد في حلقها كحجر ثقيل، تحاول جاهدة أن تبتلعه ولكن الخوف كان أكبر من قدرتها على التَصَبُّر. بدأت ترتعش، وكأن جسدها يعلن استسلامه أمام قوة هذا الذعر الذي تمكن منها بالكامل، حتى باتت غير بالية على التفكير بشكل جَلِيّ، ومع ذلك، بَغَت أن تستجمع شجاعتها، وتمسك بزمام نفسها ولو للحظة، فقالت بصوت مختنق:

_استني أنا هتصرف، ربنا يستر.

بسرعة غريزية، وكأن قلبها يدفعها للتحرك قبل أن يغرقها الخوف تمامًا، أخرجت أم قمر الدين هاتفها المحمول بيد مرتعشة، يكاد الهاتف ينزلق من بين أصابعها التي أثقلها الارتجاف. كانت أصابعها تتراقص بلا انتظام على الشاشة وهي تَتَحَّرى بلهفة عن رقم الطوارئ، وكأنها تتشبث بخيط رفيع من الأمل، وكل ثانية تمر كانت تزيد من وطأة القلق الذي يلتف حولها كحبل ضيق، وعندما جاء الرد أخيرًا من الطرف الآخر، حاولت أن تجمع شتات نفسها، أن تبدو متماسكة ولو شكليًا، لكن صوتها خانها، فقد حملت كلماتها ذبذبات الهاجس واضحة، تنبض في كل حرف. ابتسمت أم قمر الدين ابتسامة هشة، مشوبة بالفزع، وقالت:

_Please, There's A fallen Woman In A Big Hole.

أم الديب الجزء الثالث

عندما جاء صوت الشرطة عبر الهاتف، كان حازمًا، كأن الكلمات نفسها تعنت صلابة الموقف وتزيد من ثقله على قلب أم قمر الدين. حيث سأل الشرطي:

_Where Is The Place؟

كانت الكلمات تتدفق من فم أم قمر الدين وكأنها تسابق عقارب الزمن، حتى أصبحت صرخات أم الديب مثل ناقوس خطر يتردد في الأجواء، يجذب المارة الذين بدأوا يتجمعون حول المشهد، ووجوههم تنصب مزيجًا من الفضول والقلق، مترقبين النهاية التي لم تتضح بعد، وفي تلك الأثناء، استمرت أم الديب في النواح كأنها تسكب كل مشاعر الرهبة في صوتها، وما إن وصفت أم قمر الدين المكان بدقة، حتى وصلت سيارات الشرطة أخيرًا إلى الموقع، بأضوائها الوامضة التي أضافت جوًا من الانتظار في عيون الجميع. صرخت أم الديب بأعلى صوتها قائلة:

_الحقني يا راجل انت، ايهي هو مابيردش عليا ليه؟

أصبحت صرخات أم الديب المتواصلة كالسكاكين التي تخترق روح أم قمر الدين، تعمق إحساسها بالعجز وعدم القدرة على التحمل. حيث حاولت أن تجمع شتات نفسها، مستعيدة زمام الأمور، ثم رفعت صوتها عاليًا، محطمة جدار الخوف الذي كان يقيدها. صرخت أم قمر الديب بقوة قائلة:

_اهدي بقى خلينا نتصرف!

وقف رجل الشرطة، متقدمًا بخطوات ثابتة نحو الحفرة العميقة، وعيناه تجولان في الأرجاء بحذر. كان يحاول تقييم الموقف بسرعة، يدرس عمق الحفرة، والتضاريس المحيطة، كأن عينيه تحللان كل تفصيلة قد تساعد في إنقاذ أم الديب. بدا وجهه مشدودًا، ملامحه صارمة تشير إلى أنه يدرك تمامًا خطورة الوضع، وأن كل خطوة يجب أن تُحسب بدقة. وقف أمام الحفرة، ناظرًا إلى أعماقها، وكأن عينيه تغوصان في الظلام حيث تكمن أم الديب. ثم قال بصوت ثابت:

_We'll Need A Loader.

وقفت أم قمر الدين بوجه غارق في التوتر، وملامحها تعكس كل ما يختلج في صدرها من قلق على صديقتها العزيزة. كانت عيناها تنبضان بتوسل، وكأنهما تترجمان صرخات قلبها الخائف، لكنها شعرت أن التضرع هو السبيل الوحيد الباقي لإنقاذ أم الديب. وبصوت متقطع يملؤه الخوف والأمل معًا، قالت أم قمر الدين:

_Okay, Save Her, Please.

بعد عشر دقائق من الانتظار الذي بدا كالأبدية، وصلت آلة اللودر الضخمة محملة بالأمل، مرفوقة برجال الإنقاذ الذين جاءوا للتعامل مع هذه الأزمة الطاحنة. كانت الأجواء مشحونة بالتوتر، وكأن كل نفس يتم استنشاقه يحمل معه الرهبة، وكل حركة تنبثق عن المنقذين كانت كالعواصف توغر الخور في قلوب المتجمهرين. اقترب أحد المنقذين من أم الديب بحذر، محاولًا تقديم العون في ظل هذه الفوضى، ولكن رد فعلها كان غير متوقع. فقد قامت بصفعه بقوة، وكأنها كانت تحاول طرد شبح الخوف الذي استحوذ عليها، وفي لحظة ساخطة، تفلتت كلماتها من فمها كالرصاص، حيث تلفظت أم الديب بصخب مدوي:

أم الديب الجزء الثالث

_ايهي أما انت معدتش عليك تربية، بقى بتستغل ست كبيرة قد أمك؟ خد بالك آني ابني الكبير لو شافكم هيفرمكم فرم كدهو، يا ترى عامل إيه دلوقتي يا جلال؟

أمام تلك اللحظة الحرجة، لم تعد أم قمر الدين تحتمل المزيد من التعقيدات التي تعصف بالموقف وتزيد من فوضاه، فكان عليها أن تتحلى بالشجاعة في خضم هذا الاضطراب، فرفعت صوتها عاليًا كأنها تطمح لاستعادة السيطرة على الموقف الذي كان يكاد يخرج عن نطاق تحكمها، وقالت بصوت يجمع بين البر، والرثاء:

_خلصي يا أم الديب خليه يساعدك!

كانت أم الديب في خضم حالة من الارتباك، حيث بدا كل شيء من حولها ضبابيًا وكأنها محاصرة في عالم غريب، وعندما اقترب منها المنقذون، فطنت بأنهم كالأشباح الذين يطفون في ظلمة حياتها، لذا كان لابد لها من أن تعبر عن امتعاضها الذي بدأ يتفاقم، وبصوت ينم عن الارتباك، سألت أم الديب بحنق:

_هو مين دهو؟

أجابت أم قمر الدين بدوي:ّ

_الراجل اللي نزل عندك!

كانت أم الديب تتكبد من الألم الذي يتسلل إلى رجليها كالسُم، يكاد يثنيها عن التفكير بانجلاء. وسط دوامة من المشاعر المُتضاربة، حيث كان الألم يتضخم في جسدها، غير مدركة تمامًا أن كل هذا الجهد المبذول حولها كان موجهًا لإنقاذها، وأن هناك من يسعى جاهدًا لتحريرها من هذا الكابوس. صرخت أم الديب بصياح يخرج من أعماقها، قائلة:

_ارفعوني لفوق، بس براحة ألا رجليا اتلوحت... آه يا رجلي يآني يا خرابي.

بعد محاولات شاقة استغرقت ربع ساعة من العمل المضني، والتنسيق الدقيق بين رجال الإنقاذ، أخيرًا نجحوا في إنقاذ أم الديب وإخراجها من تلك الحفرة القاصية، وكأنهم أخرجوا قطعة من روحهم من ظلمات المعاناة. جلبوا لها الماء لتشرب، ولكنها كانت في حالة من التعب الجسيم، فقد ترك وزن جسدها ووقع المشكلة التي مرت بها آثارًا واضحة على ملامحها، وكأن كل جزء منها كان يطارح بالمعاناة.
كانت أم قمر الدين تنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر، شعرت بأن أنفاسها تعود تدريجيًا إلى طبيعتها، فارتسمت على وجهها ملامح الفرح المختلط بالقلق. نظرت إلى أم الديب، وعينيها تلمعان بشعاع من الحبور الذي كان يغلب على كل ما عانته، ثم قالت بلهجة ملآنة بالحنان:

_حمدالله على السلامة يا أم الديب بجد أنا مش مصدقة إنهم خرجوكي!

كانت أم الديب لا تزال غارقة في حالة من الإرهاق، وكأن كل ما حدث من حولها قد فقد معناه، حيث حدقت إلى أم قمر الدين بعيون مُترعة بالاستياء، وكأنها تبحث عن إجابات على أسئلتها المعلقة، وبدأت بطرح تساؤلاتها كأنها تحاول فك طلاسم هذا الحديث الغريب، قائلة بحدة:

_قصدك إيه يا ست بسملة بالكلام دهو؟ قصدك إنها كانت معجزة؟ بقى بتغلطي فيا يا ست بسملة بعد كل العيش والملح اللي ما بينا؟

قالت أم قمر الدين، التي شعرت بأن الأمور قد أخذت منعطفًا غير متوقع، حاولت أن تهدئ الموقف بسرعة:

_مستحيل يكون ده قصدي، انتي مش عارفة إنك غالية عندي أوي؟

أم الديب الجزء الثالث

تفوهت أم الديب بعدما دَشَّنت تهدأ قليلًا، وتمتمت وهي تتأهب للمغادرة:
_الله يسترك يا ست بسملة، يلا بينا نرجع عاوزة أنام.
أجابت أم قمر الدين، وهي تسير بجانب أم الديب بحذر، عازمةً على تهدئة مشاعرها المتأججة، وكأنها تحاول أن تكون طوق النجاة لصديقتها في تلك اللحظة العصيبة:
_حاضر يا أم الديب.
بعد انتهاء الحديث، وقفت أم قمر الدين حيال الضابط الذي كان قد بذل جهودًا مضنية لإنقاذ صديقتها، وابتسمت له ابتسامة مليئة بالامتنان. كان قلبها مليئًا بالشكر، وقد استنبطت تمامًا أن بدون شجاعته، لربما كانت الأمور ستسير في اتجاه أسوأ بكثير، وقالت بصوت عاطفي:
_Thank You For Your Help To Us.
أجاب الضابط، الذي بدا متواضعًا، ومهنيًا:
_The Most Important Thing Is To Save You.
ابتسمت أم قمر الدين بلُطف، وكأن ابتسامتها كانت شعاع أمل ينقلب على ظلال القلق الذي لف المكان. عيناها، التي كانت تعكس مشاعر الارتياح، أعطت انطباعًا بأنها تتطلع إلى غدٍ أفضل، بعيدًا عن مآسي المشكلة الماضية، وقالت، بنبرة دافئة:
_Thank You So Much.

رد الضابط، بابتسامة حثيثة:
_You're Welcome.
بعد انتهاء كل شيء، مع انطلاق سيارات الشرطة، ورجال الإنقاذ بعيدًا عن مكان الحادث، عادت أم قمر الدين وأم الديب إلى الفندق، حيث كان السكون قد بدأ يعم المكان، كأنه كان يخفف من وطأة ما مروا به. عندما دخلتا الفندق، توقفت أم قمر الدين قليلًا، ونظرت إلى أم الديب بعينين مليئتين بالتعاطف، ثم قالت:
_حمدالله على السلامة.
لكن سرعان ما انتبهت أم قمر الدين إلى أن هناك شيئًا ما يلوح في الأفق. وعندما سألت أم الديب عن حالتها، كانت الإجابة تحمل نبرة جائعة، مما جعل أم قمر الدين تدرك أن رغبة الطعام قد حطت أخيرًا بعد تلك الأهوال. كانت الأمارات على وجه أم الديب تُظهر مدى شغفها للطعام، وكأن الجوع قد أصبح جزءًا من معاناتها. تجاذبت السيدتان أطراف الحديث، وحينما اقترحت أم قمر الدين أن تطلبا وجبة، انطلقت أم الديب تطلب من كل قلبها خمسة عشر ساندوتشًا، وهو ما ترك أم قمر الدين مذهولة من حجم الطلب. أم الديب كانت مصممة، حتى أن نبرة صوتها كانت تعكس عزمها على تحقيق رغبتها في الطعام، مما أضفى جوًا من المرح. عندما بدأت تتحدث مع البائع في الهاتف، كانت تحاول تنظيم الطلب بدقة. كان الأمر يبدو كرحلة صغيرة إلى عالم الطعام، حيث طلبت خمسة عشر ساندوتشًا لكن بحجم أصغر، كأنها كانت تحاول التوفيق بين رغبات صديقتها، وجوانبها العملية. بينما أضافت طلبها للمعكرونة بالدجاج، وبعد مرور فترة، عندما وصل الطلب أخيرًا إلى الفندق نزلت أم قمر الدين لاستلامه ثم عادت، فقد كان هناك شعور بالترقب. لكن عندما فتحت أم الديب العلبة، سرعان ما تبدد الحماس، وتحول إلى خيبة أمل شديدة. وجدت أن السندوتشات الصغيرة لم تكن كما توقعت، بل كانت أصغر حتى من المتوقع، مما جعلها تشعر بالاستياء. نظرت أم قمر الدين إلى أم الديب، التي كانت

أم الديب الجزء الثالث

بانتظار الطعام بشغف، ولاحظت في عينيها مزيجًا من الدهشة والسخط المكتوم. سألت أم الديب بامتعاض جارف:

_إيه دهو يا ست بسملة؟

ردت أم قمر الدين، غير متفهمة تمامًا لما يزعج صديقتها، فرفعت حاجبيها باستغراب، وكانت ملامح وجهها تنم عن حالة من التعجب:

_إيه يا أم الديب في مشكلة معاكي؟

صعد غضب أم الديب درجة، وهي تشير إلى السندوتشات الصغيرة بيدها وكأنها تحمل بين أصابعها قصاصات من الخبز، لتقول بنبرة أكثر حدة:

_هي مشكلة واحدة؟ دهي مشاكل! إيه دهو؟ آني قايلالك ١٥ ساندوتش مش ١٥ حتة من الساندوتش!

ضحكت أم قمر الدين بطريقة خفيفة تحاول بها تهدئة أم الديب، متحدثة بروح مرحة:

_لا، ما هو كل واحد من دول ساندوتش مش حتة من الساندوتش!

لكن هذا التعليق لم يكن ليهدئ من ضيق أم الديب، بل زاد استياءها، فتابعت بحدة:

_بقولك إيه دهو ميرضيش ربنا، آني جعانة من بدري وفي الآخر يحصل معايا كدهو؟ أرميهم للبط والفراخ ولا أشحتهم للعيال الصغيرة؟

هنا، حاولت أم قمر الدين أن تغير مجرى الحديث، مشيرة إلى أن أم الديب قد تحتاج إلى التخفيف من تناول الطعام. كانت أم قمر الدين تتحدث بلطف، ولكن رد أم الديب جاء سريعًا، حيث بدت متفاجئة من الاقتراح، مما جعلها تسأل بجدية عن مفهوم الدايت. شرحت أم قمر الدين الأمر ببساطة، مشيرة إلى ضرورة اتباع نظام غذائي صحي. لكن أم الديب لم تكن مستعدة لتقبل فكرة التخفيف من الطعام، معتبرة أن الطعام هو حاجة أساسية لا تقبل التفاوض. بينما كانت أم قمر الدين تحاول الحفاظ على التوازن بين المرح والجدية، جاء هاتفها فجأة، ليقلب الأجواء من حديث جدي إلى لحظة دافئة، وعندما رأت اسم ابنتها سامية، شعرت بسعادة غامرة، وكأن تلك اللحظة أعادت إليها بعض من بهجة الحياة. عندما أجابت أم قمر الدين، كانت نبرة صوتها مليئة بالحنان، فقد اشتاقت لابنتها كثيرًا. جاء رد سامية سريعًا، معبرة عن شوقها الكبير لأمها، مما زاد من شعور أم قمر الدين بالاطمئنان. تحدثت عن أحوال أسرتها، محاولة أن تخفف من قلق ابنتها، لتظهر لها أن كل شيء على ما يرام. ردت سامية بسرعة، معبرة عن محبتها الكبيرة، وسألت عن موعد عودة والدتها إلى المنزل. بينما تأخذ أم قمر الدين نفسًا عميقًا، شعرت بأن الحديث مع ابنتها قد جلب لها بعض الراحة، وبدأت تفكر في العودة إلى عائلتها، واحتضانهم بعد فترة الغياب، قائلة:

_خلال أسبوع.

قالت سامية، متوقعة عودة أمها، بنبرة مليئة بالحب، وكأن كلماتها كانت تنسج خيوط الشوق في قلبها:

_متتأخريش يا ماما، كفاية كده، احنا مفتقدين وجودك وسطنا.

أجابت أم قمر الدين، التي شعرت بالدفء العائلي يتسلل إلى قلبها مع كلمات ابنتها، بابتسامة خفيفة تضيء وجهها:

_أنا عارفة إن أنا وحشتكم أوي زي ما انتم كمان وحشتوني، بس خلاص قريب أوي هرجع.

أم الديب الجزء الثالث

أردفت سامية، وهي لم تستطع إخفاء فرحتها التي كانت تتلألأ في عينيها كما لو كانت نجومًا تتراقص في سماء حالمة:

_أوكي يا ماما، احكيلي بقى عملتي إيه؟

بعد أن انتهى المعلم حنفي من تناول طعامه، قرر أن يتوجه إلى الطابق العلوي ليجلس مع عم سلامة ويستأنس برفقته. كانت الأجواء في شقة ليالي مفعمة بالدفء العائلي، الكل مجتمع حول المائدة، والأحاديث تتنقل بين الضيوف بسلاسة، تحمل نكهة من الود. بمجرد وصول المعلم حنفي، استقبله عم سلامة بابتسامة واسعة ونهض ليحضنه بقوة، وكأنما كان ينتظره طوال الوقت. قال عم سلامة بصوت مفعم بالحنان، وهو يحتضن المعلم حنفي:

_إيه يا راجل؟ حمدالله على السلامة!

رد المعلم حنفي عليه بالمثل، معربًا عن سعادته بلقاءه قائلًا:

_الله يسلمك، نمت ومحسيتش بنفسي غير وهايدي بتصحيني.

كانت هايدي تجلس بجوارهم على الأرض، تشعر بالراحة بعد وجبة مُشبعة، فابتسمت ابتسامة دافئة تنبع من عمق رضاها، وقالت:

_أه صحيح تسلم إيديكي يا ليالي، الأكل كان تحفة.

أجابت ليالي، التي اعتادت على تلقي مثل هذه الإطراءات بصدر رحب، وكأنها نسمات عطرة تهب عليها، ببساطة، وابتسامة خفيفة:

_بالهنا والشفا يا هايدي.

لكن هبة كانت تجلس بهدوء حتى تلك اللحظة، قررت أن تضيف لمسة من الفضول إلى الحديث، فسألت بلهجة خبيثة:

_أمال هتتجوزي إمتى يا هايدي؟

نظرت هايدي إليها بابتسامة خفيفة، وأجابت بثقة:

_لسه سنة ونص أو أكتر على حسب هنقدر نخلص كل حاجة إمتى.

لكن هبة لم تترك الموضوع يمر بسهولة، فأردفت بسخرية خفية:

_بس غريبة إنك اتخطبتي وانتي كنتي رافضة الجواز.

لم يكن في نبرة هايدي أي مكر، فردت بجدية:

_أنا كنت رافضاه فعلًا ولأسباب معينة، بس لما الأسباب دي اتحلت خلاص بقى هرفض ليه؟

قالت نعمة، وهي تشعر بالسعادة تتراقص في قلبها لحديثهم عن الزواج، فدخلت بمرح وكأنها شعلة من الأمل:

_أصل زياد اسم الله عليه النبي حارسه وصاينه، واد ابن حلال وهو وهايدي فيهم حاجات كتير زي بعض.

لكن هبة، وكعادتها، كانت تبحث عن فرصة لتوجيه ضربة إضافية، فقالت بخبث يعكس حيلتها وكأنها ترسم كلماتها بألوان ساخرة:

أم الديب الجزء الثالث

_كنتي بتكلميه يعني.
شعرت هايدي بالانزعاج من هذا التعليق، ورغم ذلك حاولت الحفاظ على هدوئها وكأنها توازن بين الأمواج المتلاطمة في داخلها، فردت ببرود مفعم بالحكمة:
_لا مكنتش بكلمه، بس هو كان بيحبني من زمان وأنا لما لقيته متمسك بيا أوي وشاريني وافقت.
لكن هبة لم تتوقف عند هذا الحد، فأضافت بتعنت:
_أصلها عيبة أوي في حقك لو كنتي بتكلميه.
قد نفد صبر هايدي، فانتفضت مشاعرها وكأنها شرارة كهربائية، وردت بسخرية حادة تعكس انزعاجها:
_ده على أساس إنك مكنتيش بتكلمي جوزك؟
ردت هبة، وهي غير متوقعة لهذه المواجهة، ورفعت حاجبيها بتعجرف، وكأنها تتحدى العالم من حولها:
_خالص، ده كان بيجري ورايا جري وكلم أبويا كذا مرة بس أنا مكنتش موافقة، وبعدين وافقت لما لقيته بيجري ورايا.

ردت هايدي، فهي لم تستطع أن تقاوم السخرية، وهي تضحك بحرارة، وكأن ضحكتها تعكس ضوء الشمس في يوم غائم:
_ليه كورة؟
قالت نعمة، محاولة الحفاظ على جو المرح، وضحكت هي الأخرى، كما لو كانت تشتعل بفرحٍ معد:ٍ
_يلا ربنا يتم لهايدي على خير، ده احنا نفسنا نفرح بيها والله، دي كانت مغلبانا معاها.
أضافت ليالي، التي كانت تستمع بصمت، بتهذيب يكاد يكون أشبه بنسمات هواء لطيفة في يوم صيفي حار:
_إن شاء الله على خير يا نعمة.

لكن كان من الواضح للجميع أن العلاقة بين هبة، وهايدي لم تكن على ما يرام. لم يكن هناك قبول متبادل بينهما، فالاختلافات بين شخصياتهما كانت جلية: هبة لم تكن سهلة كليالي، وهايدي كانت ترى نفسها فوق الآخرين. في هذه الأثناء، قرر عم سلامة أن يغير الموضوع، فسأل المعلم حنفي بنبرة هادئة:
_انت مش ناوي ترجع للِجزارة يا حنفي؟
أجابه المعلم حنفي بتنهيدة سحيقة، وكأنه يستنشق عبق الذكريات، وهو يشرب العصير البارد، ثم قال:
_كان على عيني، بس آني ارتاحت في دكانة العصاير.
صابر، الذي كان مهتمًا بالموضوع وكأن فضوله يتلألأ كنجوم في سماء صافية، طرح سؤالًا آخر بجدية واضحة تعكس شغفه:
_طب ليه معملتهاش معصرة أحسن يا حاج؟
أجاب المعلم حنفي بحكمة، وكأن كلماته تتدفق كالنهر العذب في يوم حار:
_لا كده أحسن، التانية بهدلة وهم وشغلها كتير.
ولكن صابر، رغم كل ما سمعه، لم يقتنع تمامًا، فانطلق لسانه يتحدث قائلًا:
_وانت بتفهم في العصاير على كده؟
أجابه المعلم حنفي، بشعور من الخفارة، قائلًا:

_مش أوي، بس أهو.

عرض صابر عليه فكرة مُستطرفة تتألق في ذهنه، قائلًا بحَمِيَّة، وهو يحتسي المشروب المثلج:

_أنا ممكن أشاركك يا حاج حنفي، ونعملها معصرة.

انطلق المعلم حنفي بالضحك، مستمتعًا بلحظة البِشر، قائلًا:

_الولية لو عرفت هتدبحني، أصلها بتعزكم أوي.

قال أشرف، الذي كان يترصد المحادثة في وُجوم، انبرى للتعليق بروح مرحة، ممازحًا:

_لا ده انت كده هتجيب وجع الدماغ لنفسك، أصل مادام هي مابتحبكمش يبقى مش هتسكت لو عرفت إن الموضوع فيه شراكة.

أومأ المعلم حنفي برأسه بتفهم، ثم أضاف قائلًا:

_ماهو ده اللي آني بقوله يا أشرف.

جلال، الذي كان يستمع باكتراث، شعر بحاجة ملحة لإضفاء لمسة من الواقعية على الحديث، فقال:

_كبر دماغك يابا وخليك زي ما انت، ده لسه لما أمي ترجع من السفر هتورينا العذاب ألوان.

انتاب عم سلامة إحساس الاستغراب من حديثهم، وسأل بنبرة زاخرة بالاستفسار:

_وهي إيه اللي سفرها يا جلال؟

كان جلال، مستجيبًا لاستفساره، وأجابه باستبانة:

_أهو عمالة تجري ورا ست بسملة وتتمسح فيها وأنا قولتلها مليون مرة متصغرناش قدامها... الولية دي وجوزها وعيالها شوية عالم نفخ.

علق عم سلامة بتهكم:

_أمال إيه يا جلال؟ مش عندهم ملايين لازم يشوفوا نفسهم عليكم.

كان جلال يشعر ببركان من الحفيظة تعتمل في داخله بسبب مكانة تلك العائلة، حيث رد بقوة:

_ملايين إيه يا عم سلامة بس؟ قول مليارات، ولو في أكتر من المليارات هنقول... دول عندهم عربيات، وشركات، ومصانع، وبيوت في كل حتة بعدد شعر راسهم.

كانت ملامح وجه عم سلامة تعكس استغرابًا واضحًا، وإعجابًا بما سمع، سأله بنبرة متعجبة مليئة بالدهشة، مستنكرًا ما يبدو له غير قابل للتصديق، قائلًا:

_طب لا مؤاخذة يا جلال في سؤالي، إيش جاب لجاب، وافقوا عليكم إزاي؟

انبعثت من صدر جلال تنهيدة عميقة تحمل في طياتها عبء أسرارهم الدفينة، ورد بلهجة تعكس الحيرة قائلًا:

_ومين قالك إنهم وافقوا؟ ده حصل مشاكل مالهاش آخر يا عم سلامة، ده لولا البت لقوها مقطعة شراايينها مكنوش وافقوا.

قال عم سلامة بصوت منخفض، وملئ بالتفكير:

_يا ستار يارب.

لم يرغب المعلم حنفي في استرجاع الذكريات المؤلمة التي ظلت عالقة في ذهنه كالأشباح التي لا تفارق الظلام، قال بتوتر في صوته، محاولًا السيطرة على مشاعره المتأججة:

أم الديب الجزء الثالث

_متفكرناش يا جلال باللي جرا، متقلبش علينا المواجع.

شعر أشرف بأن النقاش بدأ يبزغ عن نطاق السيطرة، ويحتاج إلى تدخل يعيد الأمور إلى نصابها، تدخل بوصل، قائلًا:

_أما قولي يا حمايا، قولت إيه في الحوار بتاعنا؟

أجابه عم سلامة بطريقة غامضة:

_هقولك بعدين.

ابتسم المعلم حنفي في لحظة من الود، معبرًا عن سعادته بوجود عم سلامة، حيث أضفت ابتسامته لمسة من الدفء على الأجواء المحيطة. وبساطة عفوية، رد عم سلامة عليه بصدق، معبرًا عن فرحته بلقاء صديقه. بعد مرور ثلاث ساعات من الراحة، بدأت أم الديب تشعر بتحسن طفيف في قدميها، مما دفعها لاتخاذ قرار الخروج في مغامرة صحراوية مع صديقتها أم قمر الدين. كانت الأجواء مليئة بالحماس، فقد جهزت الصديقتان كل ما يحتاجانه لرحلة السفاري، حيث جمعتا أغراضهما في حقائب صغيرة بحرص، ووقفتا في انتظار إلمام الحافلة التي ستنقلهما إلى وجهتهما الجديدة. بينما كانت أم الديب تتأمل حولها، غمرها شعور من عدم الأناة، فسألت بصوت متلهف عن سبب تأخر الحافلة. في تلك اللحظة، بدت أم قمر الدين مستغربة من سؤالها، مما جعلها تطرح استفسارًا يعود إلى طبيعة الحديث عن وسائل النقل. لكن أم الديب، في ردها، أضافت لمسة من السخرية، مما أعطى انطباعًا عن حبها للمرح، وهي تقول:

_الميكروباص اللي هياخدنا يودينا لأبو رجل مسلوخة هيجي امتى؟ مش هو قاعد مستنينا هناك علشان يبلعنا ويخلص علينا؟

أجابت أم قمر الدين، وهي تشعر بتأفف من هذه المزحة التي لم تتمكن من تحملها، قائلة بعبارات تحمل في طياتها شحنة من الانزعاج:

_انتي بتقولي إيه؟ ميكروباص إيه؟ وأبو رجل مسلوخة إيه؟ إيه الأسامي المقرفة دي؟

شرحت أم الديب ضاحكة، حيث تناثرت ضحكاتها في الأجواء كأشعة الشمس التي تتخلل الغيوم، مشيرة بوضوح إلى المعنى الحقيقي وراء كلماتها، قائلة:

_أصل البت هايدي في مرة ورتني فيلم رعب لجماعة زينا كانوا مسافرين، وطلع عليهم الراجل السفاح قتلهم.

زفرت أم قمر الدين بضيق، وكأن هموم العالم قد انضغطت في صدرها، ثم قالت بلهجة تنم عن استياءها:

_مفيش الكلام ده، ده كله في الأفلام وبس!

تلفظت أم الديب، وهي تضحك بأهكومة:

_يعني مش هيطلع علينا يا ست بسملة؟

ردت أم قمر الدين بنبرة حازمة، تحمل في طياتها قوة الإرادة، كأنها تصدر أوامرها من موقع السلطة:

_لا، متخافيش، ويلا بينا علشان الباص وصل.

ركبت أم الديب، وأم قمر الدين الحافلة مع مجموعة من الناس الآخرين، وانطلقوا في رحلة مثيرة نحو الصحراء، حيث كان المنظر الطبيعي المهيب يحفّ بهم من كل جانب، محاطًا بجمال الرمال الذهبية،

أم الديب الجزء الثالث

والسماء الصافية. وما إن وصلوا إلى وجهتهم، حتى شرعوا في نصب الخيام، حيث قررت أم الديب، وأم قمر الدين أن تشتركا في خيمة واحدة. كانت أم قمر الدين متعبة للغاية وترغب في النوم، مما دفعها للتعبير عن رغبتها في الاستراحة. عندما خنعت أم قمر الدين للنوم، وجدت أم الديب الفرصة سانحة لاستكشاف المخيم، فبدأت ترتحل حول الخيام، تنظر إلى تفاصيل المكان بشغف، وبينما كانت تتجول، وصلت إلى رجل يشوي خروفًا، فأبدت اهتمامًا بما يفعله، واستفسرت عن طبيعة الطعام. لكن الرجل، الذي لم يحصف كلماتها جيدًا، رد عليها بلغة مكسورة، مما جعلها تشعر بالغَرَث الشديد وتعبّر عن حاجتها للطعام بشغف. أشار الرجل إلى الطعام، وفهم أنه يجب أن ينفح لها شيئًا، فوضع لها طبقًا مليئًا بالأرز بالخلطة وقطعة كبيرة من اللحم. أخذت أم الديب الطبق وعادت إلى خيمتها، حيث جلست تأكل بشهية، مما أيقظ أم قمر الدين من نومها. ومع تصاعد أصوات تناول الطعام، شعرت أم قمر الدين بالانزعاج من صوت صديقتها، بينما استمرت أم الديب في الاستمتاع بوجبتها، معبرة عن سعادتها بالطعام الشهي الذي حصلت عليه.

بعد أن طلبت أم قمر الدين من أم الديب الهدوء، عادت إلى نومها، لكن أم الديب لم تتمكن من مقاومة الرغبة في الاستكشاف مرة أخرى، فخرجت مرة أخرى إلى الخارج، حيث طلبت شايًا من الرجل، الذي قدم لها علبة مشروب غازي، ومع إحساسها بالامتنان، شعرت بأن هذا الرجل كان كريمًا بشكل استثنائي، ثم عادت الخيمة وجلست متسائلة عن حال نعمة، وأخواتها، معبرة عن مشاعرها تجاههم. وبينما تفكر في أولادها، بدأت الدموع تنهمر من عينيها. كانت تشرب العصير وتنتحب في نفس الوقت، مما جعل أم قمر الدين تستيقظ مجددًا مستغربة.سألت أم قمر الدين بدهشة:
_انتي بتشربي العصير وبتعيطي في نفس الوقت؟

أجابت أم الديب، وهي تمسح دموعها:
_عيالي وحشوني أوي يا ست بسملة، آني مش عارفة كان عقلي فين وآني مسافرة وسايباهم؟
تملكت أم قمر الدين مشاعر من الاشتياق، وقالت بصوت يحمل نبرة من التأثر:
_هنرجعلهم قريب أوي يا أم الديب، متقلقيش. المهم خلصي العصير ونامي شوية بليز، علشان ورانا حاجات كتير أوي بالليل!
تلفظت أم الديب، بنبرة فضولية:
_ورانا إيه يا ست بسملة؟
أجابت أم قمر الدين، بزهزقة:
_هنسافر في أماكن جديدة ونشوف الدنيا.

نطقت أم الديب، وقد غمرها شعور من الغرابة، قائلة:
_إيهي أمال إحنا هناهو بنعمل إيه؟
شرحت أم قمر الدين باهتمام بالغ، حيث كانت عينيها تتألقان بحنو، قائلة:
_احنا بناخد ريست، قصدي راحة يعني، وبعد كده هنروح أماكن جديدة أحلى بكتير من هنا.

أم الديب الجزء الثالث

تساءلت أم الديب بفضول، وبحثت عن مكان يحقق حاجتها، وعبّرت عن تعجبها عندما سمعت أن المرحاض موجود. قادتها أم قمر الدين إلى مكان صغير بدا وكأنه مرحاض مؤقت، مجرد "بوكس" في وسط الصحراء، مما جعل أم الديب تشعر بالدهشة من مظهره. عندما أدركت أم الديب أنها في قلب الصحراء، كانت استجابتها مليئة بالتقبل، معتبرةً أن أي مكان يمكن أن يفي بالغرض سيكون كافيًا. ومع ذلك، عندما دخلت المرحاض، واجهت صعوبة في فهم كيفية استخدامه، مما أدى إلى شعورها بالشجب. فقد بدأت تعبر عن مشاعر الاحباط، متسائلة عن وجود صعوبات تجعل تجربة السفر أكثر تعقيدًا. لكن أم قمر الدين، من خارج المرحاض، حاولت توجيهها إلى الحل، لكنها لم تتردد في رفع صوتها لتسهيل التواصل، وفي خضم هذه الأحداث، أظهرت أم الديب مزيدًا من التذمر، مما جعل الموقف يبدو أكثر تَأَزُّمًا في تلك اللحظة، ردت أم قمر الدين بصدمة على حديثها:

_قاعدة بلدي إيه؟ التويلت موجود قدامك أهو، بجد ربنا يصبرني... أكيد أولادها هينتحروا منها ومن تصرفاتها دي، ده يومين بس وجننتني أمال هما يعملوا إيه؟

بعد انقضاء ساعات قليلة داخل منزل ليالي، ومع اقتراب الليل وتمدده في السماء، كان الجميع يتهيأ للرحيل، وكأن اللحظة نفسها كانت تودعهم. امتلأ الجو بمشاعر مختلطة، حيث اندمجت حرارة الوداع بشيء من الحنين، وكل فرد، وكأنه يسلم جزءًا من قلبه للآخر، ودّعوا بعضهم بحرارة تشعر وكأنها تصطلى المسافات. ثم، بنبرة مفعمة بالحنان، احتضنت ليالي والدتها، وكأن ذراعيها كانت تحتضن العالم بأسره، وتفوهت كلماتها كقطرات من الحب تنساب من قلبها، قائلة:

_خدي بالك من نفسك ياما!

قالت تباهي، وهي تحتضنها كأنما تحاول أن تلملم شتات روحها في هذا العناق:

_وانتي كمان يا بتي.

تلفظت نعمة، وهي تودع هبة بابتسامة تحمل بين ثناياها مزيجًا من الجوى، وكأن تلك الابتسامة كانت مرآة لما يختلج في صدرها من مشاعر لا تُحكى:

_مع ألف سلامة يا هبة.

هبة، وهي تعانقها برفق وكأنها تحاول أن تنقل عبر هذا العناق كل مشاعر الود، ردت بكلمات مغمورة بالتهذيب:

_الله يسلمك يا نعمة.

قال المعلم حنفي، وهو يصافح عم سلامة بيد ثابتة تعكس الوقار، فيما نظراته كانت تحمل في طياتها ما لا يفصح:

_ليكوا زيارة تانية عندنا.

عم سلامة، وهو يرد بابتسامة دافئة تشع منها ملامح الرضا، وكأنها تحمل بين طياتها حكايات من العشرة الطويلة، والمواقف التي لا تُنسى، اكتفى بابتسامة كانت أبلغ من أي حديث، قائلًا:

_إن شاء الله يا معلم حنفي.

نطق أشرف، وهو يصافح جلال بحركة تعكس سطحية العلاقة بينهما، وكأن أصابعهما المتشابكة كانت تتحدث بلغة غير مرئية، تنقل كل ما يختلج في الصدور من مودة لا تناله الكلمات:

أم الديب الجزء الثالث

_شد حيلك يا جلال وقوم بالسلامة.
رد جلال بهدوء يعكس سكينة داخله:
_الله يسلمك.

نطقت هبة، وهي تودع هايدي بشحناء ملحوظة:
_سلام يا هايدي.
تفوهت هايدي، بنبرة مشوبة بالبغضاء وكأن كلماتها كانت تتسلل من بين شفتيها ببطء:
_سلام.
قالت ليالي، وهي توجه الكلام لوالدها بحنان يفيض من عينيها:
_خدوا بالكم من نفسكم يابا وطمنوني لما توصلوا.

رد عم سلامة، بابتسامة ودية تنم عن حكمة سنين، وكأن ابتسامته كانت جسرًا يربط بين الأجيال:
_حاضر يا بتي، سلام يا حمود.
قال حمود، وهو يرد بسعادة تجلّت في عينيه وكلمات خفيفة تتراقص على لسانه:
_سلام يا جدي.

بعد أن أتمت ليالي، ونعمة وداعهما، نزلتا مع أولادهما لتطمئنا على أسرتها، في رحلة قصيرة لكنها محملة بالمشاعر، حتى صعدوا إلى السيارة، حيث امتزجت مشاعر القلق بانتظار سفرهم بسلام، وعندما عادوا إلى المنزل، محاطين بإحساس الاطمئنان الذي يلازمهم بعد رؤية الأهل، فوجئوا برؤية هايدي واقفة تنتظرهم عند الباب، وعلامات السخط بارزة بوضوح على وجهها، وكأنها كانت تمسك بزمام حنقها منذ فترة طويلة. بمجرد أن بصرتها نعمة، التي لاحظت باتضاح ذلك الغضب المتأجج في عيني هايدي. سألت:
_مالك يا هايدي مكشرة جامد كده ليه؟
أجابت هايدي، وقد بدا عليها الانفعال واضحًا في كل حرف تنطقه، وكأن كلماتها كانت تتفجر من أعماقها كبركان يثور:
_هي أختك يا ليالي فاكراني عبيطة ومش فاهمة هي قصدها إيه؟

ردت ليالي، وقد بدت مصدومة من رد فعل هايدي، وكأن صدمة الكلمات التي انطلقت من هايدي قد أصابت قلبها كصاعقة من العواصف، فلم تستطع في البداية استيعاب حدة الانفعال الذي بدا صارخًا على وجه هايدي، فشعرت بتيار من الارتباك يجتاحها:
_إيه الكلام اللي بتقوليه ده يا هايدي؟

تلفظت هايدي، بنبرة حادة تخترق أجواء المكان كحد السيف، وكأن كل كلمة كانت ترمي باتهام مباشر، تعكس بوضوح الاحتقان الذي يتدفق من وجدانها:
_أختك نازلة تلقيح بالكلام، بس مش عليا الحركات البلدي بتاعتها دي. **يتبع...**

الفصل السادس

في أجواء مليئة بالهرج، حيث كانت الأعين تعترب بين الوجوه، استشعرت ليالي أن الوضع قد بلغ حده. فقد ظهر على ملامحها الشجب، وهي تستجمع أفكارها عن تلك التوترات التي لا تبدو لها مبررة، وقالت:

_حركات بلدي؟ مالك ومال أختي؟

كانت نعمة تحاول دراية الموقف، تبدو مَبهوتة، وكأن كل ما ينَكَسَ حولها قد خلط أفكارها، مُستعلمة:

_في إيه يا هايدي؟ إيه اللي جرا؟

أما هايدي، التي كانت تجلس على حافة الضَغْن، فقد أعتقت كلماتها ببرود، وكأنها تحاول أن تضع حدودًا، قائلة:

_ولا أي حاجة يا نعمة، بس فهمي أختك كويس يا ليالي إن مش أنا اللي يتعمل معايا كده!

بتلك الكلمات التي بزغت من شفتي هايدي كمن يثَلّبَ ظلالًا من الغموض، استدارت بخطواتها الواثقة، وعبرت عتبة الشقة لتترك وراءها ساحةً فِطَحْلة بتياراتٍ متفاوتة من الحيرة، والارتباك. لقد اكتسى موقفها بلونٍ درامي ناء في عقول نعمة وليالي، وكأن كل تفصيلة صغيرة غَدَت إلى لغزٍ محير، وفي تلك اللحظة، وجدت ليالي نفسها مُثقلةً بدوامة من التساؤلات التي لا تكاد تلتقط لها طرف خيط، فسألت، وكأنها تنَقَر عن خيط يُعيد التوازن إلى أفكارها:

_في إيه يا نعمة؟ ما تفهميني!

لم يكن لدى نعمة إجابة، فقد كانت مشاعرها مختلطة، مما جعلها تشعر بأن كل ما يختلق أكبر منها، فقالت:

_أفهمك إيه؟ أنا ذات نفسي مش فاهمة حاجة.

وأخيرًا، انكفأت ليالي بخطوات هادئة إلى أهواء حالتها المعتادة، تلك الهدنة التي تجد فيها نفسها عندما تتمنى أن تنقشع الغيوم وتشرق الحياة بنور أفضل. كانت تتمنى في سرها أن تصفو الأمور كما تتمنى الأرض ماء المطر بعد طول جفاف، فقالت بصوت يرغم معه بقايا الأمل:

_ربنا يهدي، مش هاخد على كلام العيال.

بينما كان ضوء القمر يتسلل بخجل من بين ستائر النوافذ، لترسم على الأرض ظلالًا دافئةً تُعانق الأشياء، خرج المعلم حنفي من شقة جلال بخطوات ثقيلة، وعلى وجهه ملامح الانشغال التي لا تُخطئها العين. كانت هموم العمل تتشبث به كما يتشبث الظل بصاحبه، لا تفارقه أينما مضى، وفي لحظة من التفكير، رفعت ليالي عينيها وسألت:

_رايح فين يا حمايا؟

استدار المعلم حنفي برأسه، وأجاب بصوت هادئ، كأنه يطمئنها على حاله:

_كده جبرت، هنزل الدكان أشوف أشغالي.

حين استذكرت نعمة حجم المسؤوليات التي يرزح تحتها المعلم حنفي، أشاحت بوجهها برفق، وكأنها بذلك تحاول إضمار ما يعتمل في قلبها من قلقٍ عميق، يحمل بين طياته خوفًا من أن تكون تلك الأعباء قد أثقلت كاهله، ومع هذه الإشاحة الهادئة أنبأت:

أم الديب الجزء الثالث

_خد بالك من نفسك يابا!

نزل المعلم حنفي بخطواته الواثقة، متوجهًا إلى متجر المشروبات الذي يُدير تفاصيله بمهارة، وكأن كل خطوة يخطوها تحمل جزءًا من حياته اليومية المُرهقة، وفي تلك اللحظة، اندفعت نعمة بخفة، وجلست إلى جانب ليالي على الأريكة، وكأنها تنبش في الجلوس عن ملاذ يلاطف من ثقل الأفكار التي تعتريها.

ارتسم على وجهها مزيجٌ معقد من القلق، والحنان، وقالت في نبرة يحَجَبَ الحنان:

_والنبي ما تاخدي على كلام هايدي، مانتي عارفة إنها عصبية وبتقول أي كلام بس قلبها أبيض.

ردت ليالي بطمأنينة، وكأنها تريد أن تأوَّل أنها بإمكانها التعامل مع المواقف اللصبة:

_لا يا نعمة متخافيش مانا قولتلك مباخدش على كلام العيال.

لكن نعمة، رغم محاولاتها لتهدئة الوضع، لم تستطع منع نفسها من الدعاء بعافية عقل ليالي، قائلة:

_ربنا يكملك بعقلك يا ليالي.

ابتسمت ليالي ببرود، وكأن تلك الابتسامة تحمل في طياتها القوة، ثم قامت لتجلب العلاج لجلال، بينما كان الأطفال يلهون مع محمد في الخلفية. عندما لمحت نعمة حمود متشبث بالمسدس، لم تتمالك نفسها وطلبت منه بلهجة أمومية أن يريها ما في يده، وقالت:

_انت يا ولا وريني إيه اللي في إيديك ده!

نظر حمود إليها بفخر، وكأنه يستعرض شيئًا خاصًا، وقال:

_ده مسدس خرز يا عمتي.

فجأة، تجلى القلق في ملامح نعمة، وأعادت تأكيد توبيخها، قائلة:

_مش قولنا بلاش المسدس ده بدل ما يخش في عين حد فيكم يإذيها؟ واحنا مش ناقصين جري على الدكاترة!

رد حمود بتمرد طفولي، والعناد يتعارض مع تعليمات الكبار:

_مالكيش دعوة.

تدخلت نعمة بحزمٍ لم يخلُ من دفء العاطفة، فقد تجلى على ملامحها ذلك الإصرار الذي ينبع من قلبٍ يتسع بالحب. كانت، في تلك اللحظة، تستعيد مكانتها كعمة، مسلحة بحبها الجذري وحرصها الذي لا يتزعزع، قائلة بحزمٍ لم يتيح بالتراجع:

_عيب متقولش كده أنا عمتك ميصحش، ما تربي ابنك يا ليالي بدل ما هو مطلوق علينا كده!

لم تستطع ليالي أن تخفي انزعاجها، وردت بحدة، مستنكرة تلك الانتقادات:

_غلبت معاه وحياتك.

ثم، وقفت نعمة بتلك الهيبة التي تُرافقها دائمًا حينما تشعر أن الأمور تستدعي وقفة جادة، متربعة على عرش دورها الحازم، بينما دائر بها الضجيج الذي كان يُشكل خلفية غير مرحب بها لتلك اللحظة. كانت الأجواء من حولها تموج بالأصوات المتداخلة، لكنها ظلت راسخة، ورفعت صوتها وأكملت حديثها، ممتعضة من ذلك الجيل العجيب الذي بدا لها وكأنه لا يُشبه الأجيال التي اعتادت عليها:

_عيال آخر زمن.

في صباح اليوم التالي، استيقظت أم الديب من نومها وكأنها استردت كل طاقتها المفقودة، بعد أن أكلت الأخضر واليابس في ليلتها السابقة، فتملكتها موجة من الحيوية، كما لو أن الحياة جددت نفسها داخلها.

أم الديب الجزء الثالث

شعرت أن هذا اليوم يحمل في طياته مغامرات جديدة، وقد سارت عيناها تجولان في المكان بلهفة، وكأنهما تبحثان عن وجه مألوف لتبدأ به يومها الصاخب، وحين لم تجد صديقتها على الفور، رفعت صوتها إلى أقصى حد، تنادي بحماس:

_يا ست بسملة، يا ست بسملة، انتي فين؟

بينما كانت الأجواء مشحونة بالحديث، دخلت أم قمر الدين من الخارج، وقد كانت تحمل في يديها أنبوب الروج، الذي كان يعبر عن بريقًا يخطف الأنظار. ملامحها كانت تعبر عن انتصار شخصي، وكأنها تحمل سرًا صغيرًا من عالم الجمال، قائلة:

_إيه يا أم الديب انتي صحيتي؟

ردت أم الديب بسخرية:

_لا لسه شوية، انتي فطرتي ولا لسه؟

أجابت أم قمر الدين بصراحة مُطلقة، لا تخلو من نبرة مؤمنة، بينما كانت تحرك إصبع الروج برفقٍ على شفتيها، في حركة متمهلة كأنها معانقة رومانسية بين اللون الأحمر اللامع، وجمال شفتيها:

_لا طبعًا لسه... أنا مستنياكي نفطر سوا.

نهضت أم الديب من مكانها بخطوات حماسية، وكأنها غنية بالطاقة الإيجابية، وسألت بفضولٍ جارف، ينبض بالحماس لرؤية ما يخفيه لها اليوم:

_هناكل إيه؟

ردت أم قمر الدين بدلالٍ، وكانت كلماتها تتراقص على لسانها كأنها تنسج خيوطًا من السحر:

_اللي تحبيه، البوفية فيه كل حاجة.

سألت أم الديب بدهشة، وكأنها تتفاجأ بعبقرية المفاجأة التي تتجلى أمامها، إذ ارتسمت على وجهها ملامح استنكار صريح:

_يعني إيه؟

قالت أم قمر الدين بنبرة يختلط فيها الاختناق بالتوتر، فقد بدأت تدرك بأن أسئلة أم الديب المتلاحقة تلتف حولها كخيوط ضيقة تعيق تنفسها:

_مش مهم، أخرجي وانتي تعرفي!

في خيمة تحتفظ بعبق الذكريات وأصداء الأحاديث، تفوهت أم الديب، تلك المرأة التي تحمل على عاتقها تجارب الحياة المتنوعة، كأن كل تجربة مرت بها أصبحت جزءًا من نسيج شخصيتها:

_كانت نومة ما يعلم بيها إلا ربنا، أديني ماشية وراكي للآخر وعلى رأي المثل امشي ورا الكداب لحد باب الدار.

عبرت أم قمر الدين عن دهشتها، فبدت ملامحها تحمل تساؤلات غير مفهومة، كأنما كانت تُشعل في داخلها نار الفضول المشتعل. كانت عينيها تتجولان في الأفق، تبحثان عن شيء جلي، قائلة:

_مش فاهمة!

ردت أم الديب بصوتها المستقر، موضحة أن هناك شيء أعمق يجمع بينهما رغم التباينات:

_عارفة يا ست بسملة الحاجة المشتركة ما بينا إننا مش فاهمين كلام بعض، لا آني فاهمة عوجة لسانك دهي ولا انتي فاهمة كلامي، بس في الآخر إيه؟ ربنا عالم بمعزتك عندي.

أم الديب الجزء الثالث

ابتسمت أم قمر الدين برقة، تلك الابتسامة التي كانت بمثابة جسر يوصل بين قلوبهما، لتظهر مدى كثافة العلاقة التي تجمعهما على الرغم من الاختلافات التي قد تبدو ظاهرة. ثم نطقت بسلاسة، تحمل في نبرتها العطف:

_ميرسي يا أم الديب، انتي اللي غالية عندي أوي وبجد نفسي أفرحك لإنك طيبة وتستاهلي كل خير.

قالت أم الديب بصوت يحمل نبرة من الألفة، كأنما تُظهر مشاعرها الجياشة تجاه تلك العلاقة التي تحتضنها بينهما:

_الله يخليكي ويستر عرضك.

كانت أم قمر الدين تشعر بالامتنان، وكأن الكلمات التي تتبادلها مع أم الديب تعيد لها الأمل، قائلة:

_ميرسي يا حياتي.

خرجت أم الديب، وأم قمر الدين من الخيمة، متوجهتين نحو البوفية، حيث بدأت الأجواء تتبدل تدريجيًا مع دخول رائحة الأطعمة الشهية في أنوفهما، تُغريهما بمذاقاتها المختلفة. كان النسيم العليل يحمل معه لمحات من البهارات، والأعشاب العطرة، مما جعل قلب كل منهما يرفرف حماسًا. بينما كانتا تجهزان الأطباق، تمعنت أم الديب في المائدة، وعينيها تتجولان بين الأطباق المتنوعة. وفجأة، لفت نظرها طبقٌ كبيرٌ مليء باللذائذ، متنوع الألوان والأشكال، كأنه لوحة فنية تُعبر عن تنوع المذاقات. ارتقت نحوه بخطوات حذرة، وملامحها تعكس الدهشة، وكأنها اكتشفت كنزًا ثمينًا، ووضعت يدها على حافة الطبق، مستشعرة دفء الطعام، وأخذت تتفحص المكونات بعناية، بينما كانت أم قمر الدين تتجاذب أطراف الحديث معها، مُشجعةً إياها على اختيار ما تفضله. شعرت أم الديب بإثارة لا تُضاهى، وكأنها تتأهب لخوض مغامرة جديدة من الطعم واللون، قائلة:

_وهما لحقوا يعملوا الأكل دهو كله امتى؟

أشارت أم قمر الدين بإصبعها نحو السيارة التي كانت تحمل الأطعمة، في حركة تفيض بالحرص، وهي تحاول أن تشرح لرفيقتها ما يجري. بدت عينيها متلألئتين كأنما تحملان سرًا مثيرًا، وقالت:

_شايفة العربية اللي هناك دي؟

تفوهت أم الديب، وقد ارتسمت على وجهها ملامح من الإعجاب:

_أه.

نطقت أم قمر الدين:

_بيجهزوا فيها كل حاجة.

تساءلت أم الديب بفضول، وقد بدا على ملامحها حماس مختلط بالقلق، متقصيةً عن طريقة فعالة لخسارة الوزن، كأنها تبحث عن ضوء ينير لها طريقًا جديدًا. كان فضولها يخفق في عينيها، حيث قالت:

_بس حلو أوي، أما قوليلي يا ست بسملة تفتكري إن آني عاوزة أفش شوية؟

تساؤلات أم قمر الدين أظهرت مدى حيرتها، وكأن كل كلمة تنطق بها تحتاج إلى بيان حينما تلفظت:

_سوري مش فاهمة، يعني إيه؟

أجابت أم الديب بوضوح، مشيرة إلى معنى معين:

_أخس يعني، يوه يا ست بسملة هتفضلي عالطول كدهو مش فاهمة كلامي؟

تدخلت أم قمر الدين بصرامة، موضحة أن الحياة بينهما متباينة بشكل شاسع. حيث قالت بيقين:

أم الديب الجزء الثالث

_أم الديب لازم تعرفي إن ظروف حياتنا مختلفة عن بعض، أوكي؟
تلفظت أم الديب بفضول، وقد ارتسم على وجهها الترقب، تستفسر عن الجهة القادمة في الرحلة، كأنما كانت تسعى لتحديد ملامح المغامرة التي تنتظرها. فقالت بنبرة مُوسرة بالتساؤلات:
_من غير ما تقولي يا ست بسملة آني عارفة الكلام دهو كويس... أما قوليلي هنروح فين بعد كده؟
أجابت أم قمر الدين، بتَوَلُّة، واستعرضت لها خططها المستقبلية:
_هنتسلق الجبال، بجد متعرفيش قد إيه الرياضة دي بتريح نفسيتي أوي وبتغيرلي المود تمامًا، بجد لازم تجربي التسلق!
صمتت أم الديب للحظة، وكأن الفكرة كانت مُترامة عن اهتماماتها، تتأمل في المعاني الخفية لتلك الرحلة، ثم نظرت إلى أم قمر الدين وكأنها تُعيد ترتيب أفكارها، فقالت بحذر:
_لا يا ست بسملة الله يسترك، ابعديني عن الكلام دهو، آني مش حِمل مصايب بدل ما الحبل يقع بيا وأموت، أوعي تكوني عاوزة تخلصي مني!
تجلى التعجب على وجه أم قمر الدين، حيث ارتسمت ملامحها لتظهر دَرَك مشاعرها تجاه تلك الصداقة، مدافعةً عنها بكل وفاء. قالت، وعينيها تشعان بالولاء:
_مستحيل يا أم الديب، مش أنا اللي أعمل كده أبدًا!

سألت أم الديب بضيق، وهمومها قد طغت على روح التفاؤل التي حاولت أم قمر الدين غرسها، قائلة بنبرة مُتثاقلة:
_طيب قوليلي هنقعد في الموال دهو كام يوم؟
أجابت أم قمر الدين باِتقاد، محاولًة أن تُضيء ظلمات القلق التي تحيط بأم الديب، مؤكدة أن الرحلة ليست سوى زيارة قصيرة:
_النهارده وبس وهنرجع الأوتيل تاني!

لكن أم الديب كانت تعاني من تحديات المعيشة داخل خيمة صغيرة، حيث ضاقت بها أحلامها بين حواجز ضيق المساحة، وقيود الطعام. فاستدارت إلى أم قمر الدين، وقد انصرم وجهها عن عدم الارتياح، وقالت ببلبلة:
_طب كويس ألا الصراحة النومة دهي منيلة بستين نيلة مش زي السراير اللي في الفندق اللي روحناه، ده التاني دهو تنامي عليه تنسي نفسك، وعيالك، وعيلتك كلهم.

تنهدت أم قمر الدين، حاملة جفاء مشاعر أم الديب على عاتقها، ثم قالت ببطء:
_خلاص يا أم الديب مش هنقعد هنا تاني ده آخر يوم، وزي ما قولتلك هنرجع الأوتيل... بجد عايزة أعمل شوبينج كتير أوي.
قالت أم الديب بتَيَمُّن، وقد بدأت تشرق عيناها بحماسة ماضية:
_لعلمك الشوبونج دهو لعبتي، أمال إيه؟ آني كنت بروح السوق وألم الفاكهة والخضار من البياعين بأقل الأسعار.

أم الديب الجزء الثالث

أصاب قلب أم قمر الدين صدمة عارمة كلما نطقت أم الديب الكلمات بشكل جارم، إذ كانت كل هفوة تشعرها بحيرةٍ، فقررت تدريبها على نطق الكلمات بشكل صحيح. فقالت:

_الشوبينج، قولي ورايا الشوبينج!

لكن أم الديب تفوهت بتَوَغُّر، والكلمات كانت تتعثر على لسانها، قائلة:

_الكلمة تقيلة أوي أوي على لساني، وبعدين سيبيني على طبيعتي بلاش منه الشغل دهو... قال يعني لما أرجع بلدنا هتكلم زيك ده آني لو قعدت طول حياتي أتعلم كلمتين من بتوعك مش هعرف.

قالت أم قمر الدين، برحمة، ووافقت على حرية التعبير بينهما:

_خلاص أنا هسيبك براحتك، كل واحد يعمل الحاجة اللي بتريحه.

بينما كانت أم قمر الدين تنهي حديثها، تلقت مكالمة من ابنتها نرمين، مما جعل البهجة تتلألأ في عينيها. أمسكت بهاتفها الفاخر، الذي كان يضيء بشغف، وقالت بشوق:

_هالو يا روح مامي، أخبارك إيه؟

في قلب أم الديب، تألمت لحقيقة حياتها، حيث شعرت بالشِقاق والحرمان يُثقلان كاهلها. كانت أفكارها تتجول في الماضي، تستحضر ذكريات مؤلمة عن تجاهل أسرتها لها، فتفوهت بحسرة، قائلة:

_هي الولية دهي كل يوم بت من بناتها تتصل بيها وآني محدش من عيالي معبرني ولا سائل فيا؟ زمان حنفي بيخوني إكمنه راجل واطي وميملاش عينه إلا التراب، ده زمان ليالي المخفية مبرطعة في الدار ولا كأنه دار أبوها، أصبروا عليا لما أرجع بس!

كانت هايدي في غرفتها، تُطبق ماسك الخيار بالزبادي على بشرتها بعناية، بينما تستمع إلى بعض الأغاني العربية على هاتفها. كانت تعيش لحظات رومانسية تُذكرها بمحبوبها زياد، الذي احتل مكانة خاصة في قلبها. وفجأة، انقضت عليها نعمة، تحمل ابنها محمد، حيث أخبرته بمصافحة خالته. مدت هايدي ذراعها نحو محمد، مُرحبةً به بحنو، بينما جلست نعمة على السرير، تسألها بفضول عن أحداث ليلة أمس. تنهدت هايدي بضيق، مُتذكرة ما حدث، حيث شعرت بأن هبة كانت تُثير الكلام حولها، مُعتبرةً أنها تستخف بذكائها. لكن نعمة، التي كانت حاضرة في تلك الليلة، لم تُلاحظ أي شيء يُثير النزاع، مما كبحها للتعجب. تحدثت هايدي بعصبية، مُعبرة عن عدم ارتياحها تجاه هبة، مشيرةً إلى ضرورة أن تترك زياد من أفكارها.

بدأت نعمة تُعبّر عن دهشتها، مُستفسرة عن علاقة هبة بزياد، مُؤكدةً أن على هايدي أن تكون صريحة في تعبيرها عن مشاعرها. نزعت هايدي المنشفة، وجلست بجوار أختها، تمسح القناع من أصابعها، وبدأت تُفسر لها الوضع منذ بدايته، مُعبرةً عن استيائها مما جرى. كان الأمر يتعلق بمسألة زياد، حيث أشارت إلى محاولات هبة للتدخل في حياتها، مُبديةً عدم رضاها عن ذلك. أكدت نعمة على حقيقة هبة، مُذعنة أنها ليست على ما يُرام، لكنها حذرتها من الانغماس في كلامها، وأوضحت أن هبة قد تكبر الأمور بشكل خاطئ. لكن هايدي كانت مُصممة على عدم الصمت، عازمةً على الدفاع عن نفسها ضد تدخلات هبة، وقد سألت نعمة بدهشة:

_وهي كانت شتمتك ولا غلطت فيكي؟

أجابت هايدي ببلية، وقد تملَّكها شعور بالإحباط، كأن ثقل الكلمات يثقل كاهلها، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_ليه وأنا هستنى لما تشتمني وتغلط فيا؟ يعني قاعدة في بيتنا وكمان جايبة الجرأة والبجاحة دي كلها كأنه بيت أبوها.

تفوّهت نعمة بروح التسامح، وكأن قلبها ينضح بقشدة من نقاء لا يمحى، فيض من صفاء روحها العذب الذي يعلو على كل مظاهر الغلّ والبغضاء التي تعتمل في نفوس البشر، فتجعلها كنجمٍ ساطع في سماء حالكة، يشع بالمحبة:

_خلاص يا هايدي ميبقاش قلبك أسود، خلي قلبك صافي متتعوديش على كده.

تجولت أفكار هايدي بين مشاعر الندم، والتتعتع، حيث أدركت أنها قد تجاوزت الحدود بمشاركتها ما حدث لنعمة، قائلة:

_أنا غلطانة إن أنا حكيتلك أصلًا.

نظرت نعمة إليها بعبوسٍ يعكس انزعاجًا عميقًا يسري في جوانب روحها، كأن قلبها تمزقه مشاعر متضاربة، ثم نهضت بخطوات حازمة، مفعمة بعزيمة قوية، وهي تقول بصوتٍ يفيض بالحماسة:

_براحتك يا هايدي نامي على الجنب اللي يريحك... يلا يا محمد!

أخذت نعمة ابنها بيدها، تستعد للخروج كما لو كانت تُحضر لمغامرة جديدة، ولكن نظراتها تلاقت مع هايدي التي كانت تشير إليها بحركات متوسلة، داعيةً إياها لتبقى، بينما تردد على شفتيها كلماتٍ مليئة بالشغف:

_انتي هتمشي؟

ردت نعمة بإيجاز، معبرة عن عدم رغبتها في البقاء في مكان غير مُريح:

_هقعد أعمل إيه؟

كان اقتراح هايدي بمشاركة الفطور معها يتردد في الهواء، كأنما تتراقص كلماتها برقة بين الأرجاء، وتنسج مشاعر الألفة، وهي تقول بلهجة تحمل بين طياتها دفء الأخوة:

_طب ما تخليكي شوية، نفطر سوا حتى!

اجتاحت الابتسامة الساخرة وجه نعمة وكأنها غيمة رعدية تفجر سحابة من السخرية عندما تذكرت حال المنزل المتردي، فتداعت أمام عينيها مشاهد الإملاق التي تعم المكان، وقالت بمرارة:

_وهو البيت المخروب ده فيه حاجة تتاكل؟ اطلعي معايا نفطر في شقتي.

تساءلت هايدي عما إذا كان زوج نعمة يتواجد في المنزل، متخوفة من الوقوع في موقف محرج قد يشيع ما لا تود أن يُعرف:

_طب جوزك موجود ولا مشى؟

أجابت نعمة وهي تبث الطمأنينة في قلبها، كأنما كانت تسكب زهور الأمل في وعاءٍ من قلق:

_لا راح الشغل متقلقيش، تعالي يلا.

انطلقت نعمة مع أختها هايدي، وفي غرفة جلال، كانت ليالي مشغولة بتغيير ضماد جرحه، حيث كانت الأجواء تنبض بالتَوْق. قال جلال:

_تسلم إيديكي يا بت.

نظرت إليه ليالي برضا، مؤكدة على مدى اهتمامها به. قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_لو احنا مناخدش بالنا منك أمال مين اللي هياخد؟
أجاب جلال مبتسمًا، وكأن ابتسامته كانت شعاع شمس يشرق في صباحٍ مشمس، مدركًا تمامًا لمدى تعلق ليالي به، ذلك التعلق الذي يشبه خيوطًا صلدة تربط بين قلوبهما، مما جعله يشعر بوزن هذا الحب كأنه كنز ثمين في قلبه:
_أصيلة يا ليالي.
لكنها انزعجت من كلماته، كأنما استشعرت غيمة حزن تخيم على مشاعرها، فقد كانت تأمل أن يعبر لها عن مشاعر أعمق، تتجاوز سطح الكلمات، فتركت أدوات التعقيم جانبًا، وكأنها تتخلى عن كل ما هو مادي في تلك اللحظة، لتقول بعصبية متأججة كالنار:
_كرهتها يا جلال متقولهاش تاني، انت إيه ياخويا معندكش غير الكلمة دي؟ ما تغير شوية وتقول كلمتين حلوين.
رد جلال بشيء من الدعابة، معبرًا عن طبعه الصريح:
_لما أخف أبقى أتعلم الكلام الحلو عشانك ولو إني مبحبش الجو ده، لما يبقى معاكي راجل أحسن ما يبقى معاكي عيل من العيال التوتو.
قالت ليالي بكمد، وكأن كل حرف يتسرب من شفتيها يفسر الكآبة، وهي تنهض منزعجة من شح مشاعره الذي جعل قلبها يرتجف من خيبة الأمل، مُحملةً في عينيها بقايا الأمل الذي بدأ يتلاشى، ثم أضافت بنبرةٍ تحمل في طياتها جرحًا كبيرًا:
_برضة يا جلال؟ مش عاوز تغير طريقة تفكيرك دي؟

أجابها جلال بثقة، وكل كلمة تنبض من فمه تحمل في طياتها يقينًا راسخًا، مؤمنًا تمامًا بما يقول:
_وأغيرها ليه؟ أنا عاجبني كده ومزاجي كده واللي مش عاجبه يشرب من البحر.
تنهدت ليالي، كأن أنفاسها تحمل في طياتها ثقل همومها، طالبةً حقوقها النفسية في مواجهة واقعٍ قاسٍ فرض عليها، ثم قالت بندمٍ يقطر من كلماتها كالشهد، يعكس ما في داخلها من مشاعر مُحتبسة:
_أستغفر الله العظيم يارب، سلامتك يا جلال.

قال جلال بلا مبالاة:
_الله يسلمك.
بينما كانت ليالي تعتني بجروحه، انتقلت إلى المطبخ لتبدأ في إعداد الطعام، في الأثناء، كانت أم قمر الدين وأم الديب في مغامرة جديدة، يتسلقان الجبل وسط مجموعة من المتسلقين الذين كانوا مؤمنين برباطات الأمان. الأجواء كانت مشحونة بالإثارة. حيث قالت أم قمر الدين:
_مُستعدة يا أم الديب؟

تململت أم الديب، شاعرة بالخوف الذي يتسلل إلى كيانها كخيوط العنكبوت، وكأن قلبها يتسارع من قلقٍ متزايد يتردد صداه في أذنيها، ونطقت بصوتٍ مفعم بالتوتر:
_ربنا يستر، آني قلبي مقبوض من البتاعة دهي.

أم الديب الجزء الثالث

شجعت أم قمر الدين رفيقتها، مُشدة على متعة التجربة كأنها تُبشر بأيام ملؤها الفرح، قائلةً بحماسٍ يتدفق من قلبها كنسيم ربيعي عليل:

_لا متخافيش أنا جربتها مليون مرة قبل كده بس حقيقي ممتعة جدًا.

أخذت أم الديب نفسًا عميقًا، ثم قررت الانطلاق، قائلة:

_على بركة الله.

بدأت كل واحدة منهما تنزل بحذر، تحسبان كل خطوة تقترب بهما من الأرض، لكن مع تزايد وزن أم الديب، بدأ الحبل يتقلص بشكل ملحوظ، وكأنهما تُسحبان نحو مصير غير معلوم، فوجدتا نفسيهما عالقين في الهواء، يواجهان عواقب اختياراتهما بلا حولٍ ولا قوة، ما جعل ضربات قلب أم قمر الدين تتسارع كعاصفةٍ تهب في صدريهما، وهي تدرك تمامًا أنها في موقف غير مألوف، مليء بالمخاطر والمفاجآت التي قد تغير مسار حياتهما، فقالت أم قمر الدين بخوفٍ واضح يختلج في صوتها:

_لا دي أول مرة تحصل، عمرها ما حصلت!

وضعت أم الديب يدها على صدرها، محاولة تهدئة قلبها المُضطرب الذي كان يعاني من صراعٍ داخلي، وهي تعول كأنها تُعبر عن آلامها وآمالها في آنٍ واحد، فتفجر عواطفها كبركانٍ خامد، يوشك على الانفجار في أي لحظة، معبرةً عن معاناتها وكأن كل كلمة تنطلق من شفتيها تحمل في طياتها هموم العالم بأسره:

_يا لهوي.

تشبثت أم قمر الدين بأم الديب، وكأنهما في آخر دقيقة من حياتهما، حيث كان الخوف يتملك قلوبهما، ولكن الأمل لا يزال يتألق كفجر جديد. في تلك اللحظة الحرجة، بدأت أم قمر الدين تنادي الناس مستنجدة بهم، صرخاتها تتعالى في الليل المظلم، تعبّر عن القلق الذي يعتصر قلبها.

أحد الرجال الذي كان ينظر لأعلى، أطلق التعليمات اللازمة لمساعدتهما، بينما كانت أم قمر الدين تشعر بالذعر، تكتشف أن الخطر يقترب منها، ويدفعها للإحساس بالعجز. ومع تواصلها مع الرجل، كان صوت الخوف يتسلل إلى أعماقها، ويظهر في ارتباكها. بينما كانت تجارب النهار المثيرة تتلاشى في ظلام الليل، كان الخوف لا يزال يقبع في قلوبهما. فقد كان ذلك الموقف غريبًا عليها، وظهر التوتر في نبرتها، ومع ذلك، لم تفقد أم الديب الأمل، بل ترافقت صلواتها بالدعاء، وكأن كلماتها هي ما تبقيهما على قيد الحياة. بعد محاولات عدة، ظهرت يد الإنقاذ كأنها رحمة من القدر، وعندما هبطتا على الأرض، كانت أم قمر الدين مُضطربة الأعصاب، بينما بدت أم الديب كأنها تخلت عن كل شيء، تنظر بدهشة إلى المشهد حولها، متوجهة بالشكر إلى من أنقذهما. بينما كانت تتجه نحو أم قمر الدين، كانت كلماتها تعكس رغبتها في الهروب من المكان المرعب الذي عاشتا فيه، ومع تأكيد أم قمر الدين على شعورها بالخوف، بدأت كل واحدة منهما في تجهيز حاجياتها، عائدتين إلى الفندق الذي كان بمثابة ملاذ لهما. عند دخول أم الديب إلى الغرفة، كان السرير يمثل وجهتها الآمنة، فاندفعت نحوه، وسرعان ما غطت في نوم عميق. أما أم قمر الدين، فقد غيرت ملابسها، وأزالت مكياجها قبل أن تنام بجانبها، حيث كانت شعلة القلق لا

أم الديب الجزء الثالث

تزال تضيء في قلبها، وبعد لحظات من السكون، رن هاتفها، وكأن صدى يوم مضطرب يعود ليذكّرها بالعالم الخارجي، حيث كانت ابنتها جميلة تتصل بها. حيث تفوهت أم قمر الدين:
_ألو يا جميلة يا حبيبتي، عاملة إيه؟

جلست جميلة برقة أمام شاشة التلفاز، محاطة بأجواء دافئة وأضواء خافتة. كانت عيناها تتلألأان بفضول وهي تتابع البرنامج بشغف، يظهر على وجهها الضحك. وكأن الشاشة تأخذها إلى عالم آخر مليء بالخيال، قائلة:
_وحشتيني أوي يا مامي، فينك كل ده؟

تفوهت أم قمر الدين بحنانٍ، وكلماتها تتسلل من قلبٍ مُحب، تحمل في طياتها عذوبة المشاعر، لتُعبر عن مشاعرها بعباراتٍ تفيض بالحب:
_أنا موجودة يا روحي بس مرهقة شوية، المهم انتي عاملة إيه؟
أجابت جميلة بدلالٍ يتلألأ في صوتها، كأن نبراتها كانت تتراقص مع نسيم الربيع، تحمل بين طياتها لمسات من الأنوثة:
_الحمدلله كله تمام، طيب يا مامي شكلك بتنامي هكلمك وقت تاني تكوني مركزة.
تلفظت أم قمر الدين بإرهاق في صوتها، بينما كانت عيونها تتمايل بين اليقظة والنوم، وتكشف عن استسلامها لسلطان النعاس الذي يسيطر على كيانها:
_طيب يا حبيبتي لما أصحى، وأخد شاور، وأفوق هكلمك.
ردت جميلة بابتسامة مشرقة:
_أوكي يا حبيبتي، باي.
قالت أم قمر الدين بحُب:
_باي.

بعد انتهاء المحادثة، كانت أفكار أم قمر الدين تتلاشى ببطء في عالم الأحلام، كأنها تنغمس في بحر من الألوان المتناغمة، حيث تصبح كل فكرة مجرد ذكرى بعيدة، وعندما استيقظت في منتصف الليل، قررت الدخول إلى المرحاض لتلبس البكيني، وهي تشعر بانتعاش منعش يجتاح جسدها .
في تلك الأثناء، كانت أم الديب جالسة على السرير، تشاهد التلفاز بتركيزٍ، تستمتع ببرامجها المفضلة التي تأخذها بعيدًا عن هموم الحياة، مرتاحةً بعد يوم طويل من الترحال، حيث استقر جسدها على الوسادة كأنها تضع أعباء اليوم خلفها، وحينما خرجت أم قمر الدين من المرحاض، صرخت بها بصدمة، كأنها استيقظت من حلم مفاجئ، مما أضفى على اللحظة طابعًا من الدهشة، وكأن الزمن توقف لبرهة أمام تعبيرات وجهها، وهي تتلفظ:
_يا لهوي إيه اللي انتي لابساه دهو يا ست بسملة؟
تفوهت أم قمر الدين بتعجب، مستغربة من دهشة أم الديب نحو ارتداء البكيني:
_بكيني، في مشكلة ولا إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

قالت أم الديب بصدمة عارمة:
_الدنيا ليل، انتي عاوزانا نروح البحر دلوقتي عشان نتلبس من العفاريت اللي في الماية؟
ردت أم قمر الدين بعقلانية، وكأن كل كلمة تنطق بها تحمل في طياتها عمق التفكير:
_لا طبعًا احنا هنطلع في الروف وفوق في pool وفي جو يجنن معتقدش إنك شوفتيه قبل كده!
تفوهت أم الديب بحماس، مشوقةً نفسها لرؤية مكان وصفته أم قمر الدين كأنه عالم من الأحلام، حيث كانت نبرتها تعبر عن رغبتها الجارفة في استكشاف الجديد. ازدادت أم قمر الدين حماسة، مُعبرة عن جمال المكان بشكل يجعل الخيال يزدهر، مؤكدة أن جماله يفوق الوصف. بينما كانت أم الديب تتردد، مُعبرة عن قلقها من ارتداء المايوه، شعرت أم قمر الدين بأنها تحتاج إلى طمأنتها، فتحدثت ببساطة عن نوع من المايوه الإسلامي يسمى "بوركيني"، وذكرتها بأنها قد اشتريت واحدًا لها، واصفةً قماشه بأنه مذهل. لكن أم الديب كانت تُختنق من كثرة الكلمات الإنجليزية التي تتسلل إلى حديث أم قمر الدين، مما جعلها تشعر بالإرهاق. بعد لحظات، أخذت أم الديب البوركيني ودخلت لتلبسه، وعندما خرجت، كان مظهرها يثير إعجاب أم قمر الدين، التي لم تستطع كتم انبهارها بجمالها. نظرت أم الديب إلى نفسها في المرآة، وبدأت تشعر بالاقتناع بما قالته صديقتها، مُعبرة عن دهشتها من جمال البوركيني، وتساؤلها عن مكان شرائه. مع حماسها المتزايد، أبدت أم الديب استعدادها لرؤية المكان الخلاب، مما جعل أم قمر الدين تبتسم موافقة على الفكرة. عندما خرجتا، كان شعور الرهبة يحيط بهما، يرافقهما في خطواتهما نحو المصعد الفاخر. كانت البنايات الشاهقة تُثير في نفس أم الديب شعورًا بالخوف غير المعلن، لكن لم تكن تجرؤ على الإفصاح عن مشاعرها أمام صديقتها. ما إن دخلتا المصعد، حتى انغلق الباب خلفهما بإحكام، وبدأ يرفعهم بهدوء نحو الطابق الخامس والثمانين. مع كل ارتفاع، كانت أم الديب تتشبث بذراع أم قمر الدين، وكأن المصعد يحمل معه الخوف المتراكم في قلبها. بينما كانت أم قمر الدين تتألم وتتململ تحت القبضة المشدودة، قالت بعجيج:
_آه رقبتي، أوعي إيدك!

استدارت أم الديب نحو صديقتها، وعيناها تجحظان من الذعر الذي تسلل إلى دخيلتها، مستشعرةً أن شيئًا ما قد يحدث. كان قلبها ينبض بسرعة، وكأنها تُشعر بأن الأحداث ستنقلب نحو الأسوأ، مما جعلها تبدأ بالتشهد بصوت مرتعش، وكأنها تُعبر عن مخاوفها بعبارات روحية، وكلما تصاعد قلقها، ازدادت تشبثًا بعنق أم قمر الدين، وكأنها تبحث عن نقطة أمان في تلك اللحظة العصيبة.

حاولت أم قمر الدين تحريك عنقها بحذر، ولكن الألم الناتج عن قبضة أم الديب كان غير محتمل، مما دفعها إلى الانفعال. إلا أن أم الديب كانت غارقة في دعائها، وكأن كلمات أم قمر الدين لم تجد طريقها إلى مسامعها، مُغلفة بتلك الهالة من القلق. ازدادت قبضتها على ذراع صديقتها، وكأنها تتوسل لله، عيونها تعكس الرهبة المتزايدة. كان صوتها يفيض بالتضرع، مُعبرًا عن حالتهما كأنهما ضحيتان في مواجهة مصير غامض. فجأة، وكأن المصعد نفسه قد استشعر تلك المخاوف، توقفت الحركة وغرقت المقصورة في ظلام دامس. انقطعت الكهرباء، وتلاشت الأضواء، مما تركهما في صمتٍ مطبق، لا يكسره سوى صوت اللهاث المتسارع لأم الديب. وهي تصرخ قائلة:
_يا خراشي! **يتبع ....**

أم الديب الجزء الثالث

الفصل السابع

اقتربت أم الديب من باب المصعد الكهربائي بخطوات ثاقلة، وكأنها تحمل على عاتقها أوزار السنين. راحت يدها تتخبط بوجهها، كأن الألم ينَبَطَ منها مع كل ارتطام، وهي تعول بصوت يائس، تتوهم أن النهاية باتت وشيكة في هذا المكان الشَارِسَ الذي بدا لها أشبه بصفائح السمن المتكدسة، لا بمصعد كهربائي يحملها نحو وجهتها، وقالت:

_يا لهوي، افتحولنا، حد يفتحلنا المخروب دهو!

فجأة، وبدون أي مقدمات، بدأت أم قمر الدين تكرر أسماء أبنائها واحدًا تلو الآخر، وكأنها في حصة تسميع تقف حيال معلم قاسٍ يختبرها بلا رِفْق. كانت دموعها تتساقط بحرارة من عينيها وهي تبكي بكاءً مريرًا، قائلة:

_سامية، نرمين، جميلة، منى، نالا، قمر الدين، علاء الدين، باسم هتوحشوني أوي!

التفتت أم الديب نحوها بحدة، وكأن شيئًا قد أوقد نيران حنقها. صرخت في وجهها بصوت مزلزل، تخترق أصداؤه الجدران، وقالت بنواحٍ يفيض بالمرارة، وكأنها تجر خلفها شظايا عمرها المُنهك:

_انتي بتسمعيهم؟ هو احنا في الكُتاب؟ يا لهوي على آخر الزمن هتموتي يا أم الديب في الصفيحة دهي؟ افتح يا راجل انت...حد يفتحلنا ألا هكسر نفوخكم!

بدأ المصعد الكهربائي يتحرك بهما يمنة ويسرة، وكأنه وحش كاسر يلهو بهما كدمية صغيرة بين قبضتيه العاتيتين. تصاعد الذعر في قلوبهما، وتحول الجُبن إلى خيوط غير مرئية تشبكت بهما، فتشبثت كل واحدة بالأخرى وكأنهما طوق نجاة وسط بحر متلاطم الأمواج. أعادت أم قمر الدين حديثها بنحيب مفجوع، قائلة:

_أم الديب بليز قوليلهم إنهم هيوحشوني أوي!

صرخت أم الديب بصوت يغمره الغضب، كأن كلماتها كانت تحاول أن تشق طريقها عبر ضجيج المصعد المتمايل، فقالت بحدة، وكأنها تتحدى الحظ نفسه:

_أقولهم فين؟ مآني معاكي أهو، لو وقع هيقع بينا احنا الإتنين، هنتبطط يا عيال.

ثم فجأة أطلقت أم الديب زغاريد قوية، كأنها تواجه المصير بالاحتفال بدلًا من الاستسلام. اهتز المكان بصوتها، فتوقفت أم قمر الدين عن نشيجها، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الذهول، وقالت لها بدهشة:

_انتي بتزغردي ليه؟ احنا في فرح؟

مدت أم الديب ذراعيها في الهواء، تعول، وتزغرد، وتطلق صوتها في موجات متواصلة من العَوِيل، تلعن الحظ، وتلقي باللوم على زوجها، بالرغم من أنه كان بعيدًا، يعيش في دولة أخرى سالمًا من شُؤمها. كانت تصرخ بأن ما يحدث لها هو بسبب المعلم حنفي، الذي ألقى بها في دوامة الأحداث، في حين أن المصعد لم يتوقف عن الاهتزاز تحت أقدامهما.

بينما كانت أم قمر الدين تغرق في دموعها، متوسلة أن تنجو من هذا المصير الذي بدا محتمًا، كان الخرع يسيطر على كيانها، ولكن زغاريد أم الديب المتكررة جعلتها تتحكم بأعصابها. دَوَّت أم قمر الدين

أم الديب الجزء الثالث

باحتدام، غير مُستوعبة كيف يمكن لأم الديب أن تطلق زغاريدها في موقف بهذه الخطورة، وكأنها تحتفل بالموت الوشيك. ولكن أم الديب، بملامح مرتعبة، أوضحت أن لسانها يرقص في فمها كلما سيطر عليها الخوف. في لحظات مليئة بالتوتر، استمر دعاء أم قمر الدين وهي تتوسل إلى الله أن يخرجهن من هذا المأزق. وكانت دعواتها كصاروخ انطلق نحو السماء، ليأتي الجواب سريعًا؛ فقد تحرك المصعد فجأة نحو الطابق المطلوب، وانفتح الباب أمامهما، ليخرج كلاهما دون أن يُصابا بأذى. نظرتا لبعضهما البعض بدهشة، وكأنهما لا تصدقان أنهن نجون من هذا الكابوس، بينما كان صدى الأغاني يتردد بعيدًا في الخلفية، يشير إلى أن الحياة استمرت خارج هذه اللحظة المثيرة، قالت أم قمر الدين:

_الحمدلله، بجد مش مصدقة خالص، دي معجزة إننا وصلنا بخير!

تفوهت أم الديب بارتياح، وكأن الكلمات خرجت من فمها لتزيل عن كاهلها آلام اللحظات الحَرِجة، تاركة وراءها شعورًا بالسكينة:

_عشان تعرفي إن احنا ناس طيبة ونيتنا سالكة، دي لو واحدة تانية زي ليالي، وأمها، وأختها العقارب كان زمانهم اتحشروا ووقع بيهم وماتوا كان زمانا خلصنا منهم.

أعربت أم قمر الدين عن شَجْبها، وكأن كلماتها كانت تحمل في طياتها عاصفة من الاعتراضات، قائلة:

_بليز يا أم الديب احنا جايين هنا نعمل مود حلو مش عايزين نجيب سيرة حد خالص، أوكي؟

ردت أم الديب بإحراج، وقد ارتسم على وجهها الارتباك، غير ساعية لشرح موقفها بينما تتلاشى الكلمات في زحام الأفكار التي تشتت ذهنها:

_وماله يا ست بسملة؟ اللي تشوفيه.

بعد أن دخلوا السطح المزين بالأضواء، والألوان المُتمايزة، حيث كان الناس يسيرون هنا وهناك، بدا وكأن العالم بأسره مفتوح أمام أعينهم، يتراقص تحت أضواء الليل، وبمجرد أن لمحت أم الديب السطح الذي بدا وكأنه يناديها للترفيه، انطلقت نحوه بسرعة، وكأن قلبها يدفعها نحو الحرية. قفزت في حمام السباحة المضيء، لكن المفاجأة كانت في انتظارها، إذ أصابها الغرق فجأة. انطلقت أم قمر الدين نحوها، كالسهم، وهي تصرخ بفزع، تسابق الزمن لإنقاذ صديقتها من براثن الماء، قائلة بنواح:

_أم الديب!

وثبت أم قمر الدين لإنقاذ صديقتها في الحال، وقلبها يحملها على أجنحة الفزع، وبعدما نجحت في انتشال أم الديب، وبزغت رأسها من الماء، ظهر على وجه أم قمر الدين ملامح الاضطراب. نظرت حولها، تتفحص المكان بعيون مُنفرجة، ثم قالت أم الديب لها بلهجة مشوبة بالاستغراب:

_أه أه، هي فين العوامة يا ست بسملة؟

أجابت أم قمر الدين، وكلماتها تحمل معها عبء الموقف الذي عاشته للتو، فبدت كنجمة تتلألأ في ظلام الليل، قائلة:

_مفيش Float هنا، احنا مش في البحر!

قالت أم الديب بتمني:

أم الديب الجزء الثالث

_وميجيبوش ليه؟ يفرض حد عاوز يعوم زي حالاتي يعملها ازاي دهي؟ يغرق علشان هما يفرحوا ويرتاحوا؟

نطقت أم قمر الدين بحصافة، مُجسدة الحكمة في أحلك اللحظات، مُحملة كلماتها بمعاني نائية:

_لا محدش بيغرق لأن؛ ببساطة مفيش حد مبيعرفش يعوم غيرك انتي.

ردت أم الديب بدهاء، حاملة في طيات كلماتها حيلة مدبرة، حيث كانت عيناها تتلألأ بلمعة حاذقة:

_عيب عليكي يا ست بسملة الكلام دهو، احنا قصاد بيتنا ترعة كنا كل يوم ننط فيها نبلبط لحد قبل المغرب، أصل الجن والأعوذ بالله يعني بيسكنوا المايه أول ما الدنيا تليل.

قالت أم قمر الدين باشمئزاز، حيث تعكس ملامح وجهها مشاعر الانزعاج، مما جعل صوتها يتردد كصدى يعبر عن استياء سحيق:

_انتي هتقارني المايه المقرفة دي بماية الـpool ؟

ردت أم الديب بفخر، وكلماتها كانت بمثابة درع يحميها من سهام الانتقادات، حيث ارتفعت عيناها نحو السماء وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيها، لتظهر مدى اعتزازها بما تفعله في القرية:

_لا مالكيش حق ده المايه بتبقى نضيفة نضافة لدرجة إن ساعات كنت بشطف العيال فيها آني وأهل المنطقة من كتر نضافتها.

قالت أم قمر الدين بسخرية، وكأن نبرتها كانت تحمل سخرية لاذعة، مما جعل كلماتها تتسلل إلى الأذن كسهام جِلفة:

_ماهو واضح إنها نضيفة فعلًا.

قفزت أم قمر الدين من المياه بحركة رائعة تعكس رشاقتها وجسدها اللين الذي لا يعرف العجز، على الرغم من أن سنها قد تجاوز الخمسين عامًا. كانت كسمكة تتراقص في أعماق البحر، عازفة عن قيود الزمن. وبدهشة جسيمة، سألتها أم الديب:

_رايحة فين يا ست بسملة؟

ردت أم قمر الدين بابتسامة، ووجهها أضاء بنور التفاؤل:

_هروح أجيب Drinks لينا، صحيح قوليلي تشربي إيه؟

قالت أم الديب بعفوية، وحروفها خرجت من قلبها دون تردد، تفسر صفاء نيتها وبساطتها:

_حلبة حصا الله يسترك.

ردت أم قمر الدين باشمئزاز، حيث نقش على وجهها الرفض، مما جعل نبرتها تحمل ردًا قاسيًا:

_حلبة حصا؟ أوه ماي جاد.

ثم غادرت لتنفيذ طلبها، بينما نظرت أم الديب إليها بدهشة، متعجبة من ليونة جسدها وقفزتها الرشيقة في الهواء، تلك الحركة التي تبدو وكأنها محجوزة للفتيات في العشرينات من عمرهن، في حين أنهن لم يستطعن تحقيق ما أنجزته، وداخل أعماق نفسها، شعرت بحسد يعتمل في قلبها، وهي تقول في ذاتها بنبرة مليئة بالاستنكار:

_يا لهوي يآني الولية نطت من المايه ولا كأنها بت في العشرينات، ده اللي يشوف جسمها ميقولش إنها جدة وعندها أحفاد، آني لازم أروح للداكتور اللي بتروحله وأقهر حنفي... أمال يبص للنسوان التانية؟ هما أحسن مني ولا إيه؟ لا انتي مفيش حد أحسن منك يا أم الديب.

أم الديب الجزء الثالث

طلبت أم قمر الدين من الرجل بعض الطلبات البسيطة، وبدت وكأنها تسعى إلى الاستمتاع بلحظات منعشة في هذا الجو الحار. بينما كان البرتندر يقطع الليمون بحركة احترافية، كانت أم قمر الدين تراقب بإعجاب كيف كانت الأيادي تتلاعب بالمكونات، مما زاد من حماسها. بعد أن صنع البرتندر المشروبات المثلجة بنكهة الليمون، تسلمت أم قمر الدين الكأس وعادت إلى حوض السباحة، حيث كانت تنتظر أم الديب. عندما سلمتها المشروب، نظرت أم الديب بدهشة، متسائلة عن نوع المشروب الجديد. بينما كانت أم قمر الدين تحتسي مشروبها المفضل، شرحت لأم الديب أنه "موخيتو ليمون"، وأكدت لها أنه سيعجبها. في تلك الأثناء، أرادت أم الديب أن تُظهر براعة ابنتها في صنع عصير الليمون اللذيذ، مشيرة بفخر إلى مهارتها في إعداد المشروبات والطهي، قائلة:

_عصير الليمون دهو حلو، نعمة بتي أجدع واحدة تعمل عصير ليمون، احنا عندنا الليمون بنعصره على المايه ونحطله السكر عالطول بيبقي طِعم طعامة.

لكن أم قمر الدين لم تقتنع بحديثها، بل اشمئزت منه، حيث اتضح على وجهها التقزز، وكأن كلمات أم الديب كانت كالحصى في حذائها، فقالت بحدة تعكس استيائها:

_ده كده عك سوري يعني، بليز يا أم الديب افصلي حياتك عن حياتي، أنا لا يمكن يعجبني نظامك سوري دي مفيهاش زعل!

تفوهت أم الديب بارتياح، وكأنها قد استنشقت عبير الانتعاش، مما جعل كلماتها تخرج كأصداء تنقل إحساسًا باللذة:

_وماله يا ست بسملة؟ اللي تشوفيه، هو حد يقدر يتكلم معاكي ولا يقولك حاجة؟ انتي تقولي اللي انتي عاوزاه.

جلست أم قمر الدين على الأرض، باحثة عن الراحة في لحظة من الاسترخاء، ثم نطقت بكلماتها الرقيقة:

_ميرسي.

كانت الأشواق تتصاعد يومًا بعد يوم، لا سيما بعد غياب أم قمر الدين عن حياة زوجها، الذي اعتاد على وجودها معه في كل لحظة، دون أن يبتعد أحدهما عن الآخر. كان جالسًا على مكتبه في شركته الشهيرة، محاطًا بمئات الموظفين، ينظر إلى صورتها بشغفٍ وحنين، فتملكه شعور قوي بالافتقاد. أخذ هاتفه، وأجرى اتصالًا بها، وعندما استجابت له، بدت كلماته مشبعة بالشوق الذي يغمر الكون بحرارته. بدا واضحًا أن الحياة من دونها لم تعد كما كانت، وأن النُزُوع يعتريه. ردت أم قمر الدين بكلمات ملآنة بالصبوة، محاولةً طمأنته. أكدت له أن عودتها ستكون قريبًا، لكن همسات الشوق لا تزال تتراقص بينهما. لكن قبل أن تكمل أم قمر الدين كلمتها، انقطعت عن الحديث بفعل الصوت المنفر الذي أحدثته أم الديب أثناء ابتلاعها العصير، مما أثار استغرابها. شعرت بضرورة إيقاف الحديث مع زوجها، فطلبت منه الانتظار ثواني، ووجهت نظراتها نحو أم الديب بمَوجدة، معبرة عن انزعاجها من التصرف الذي قطع خيوط حديثها الحميم، قائلة:

_إيه الصوت المستفز ده يا أم الديب؟ مش قولتلك مليون مرة متاكليش وتشربي بصوت؟

ردت أم الديب باستهتار، متجاهلة الأجواء المحيطة، مما جعل كلماتها تنساب بلا مبالاة، وتضفي على الموقف لمسة من الاستهزاء:

أم الديب الجزء الثالث

_وآني عملت حاجة؟ مآني بشرب من غير صوت أهو.
قالت أم قمر الدين بنفور، مما جعل صوتها يحوي نغمة من الاستنكار، كأنها تحاول رسم حدودٍ واضحة لما يمكن أن يُحتمل في هذه اللحظة:
_باين أوي، بليز اسمعي الكلام!
ثم عادت لتتحدث مع زوجها من جديد، وكأنها توازن بين مشاعرها المختلفة، فقالت بنبرة هادئة تعكس رغبتها في طمأنته، بينما كانت تحاول أن تعيد الأمور إلى مجراها الطبيعي، لتزرع الأمل من جديد في قلب حديثهما:
_ألو يا باسم كنا بنقول إيه؟

كانت أم الديب تجلس في حالة من القهر النفسي، تشعر بالحسد تجاه أم قمر الدين التي تواصلت مع زوجها وأبنائها الذين يهتمون بها في غيابها. بينما كان دموعها تتلألأ في عينيها، كان يبدو وكأنها نجمة على وشك السقوط من سماء القهر. انطلقت من قلبها كلمات تحمل مشاعر الألم، والخيبة، حيث اعتبرت أبناءها بعيدين عنها وكأنهم ينتظرون لحظة غيابها ليبتعدوا عن مشكلاتها المتجددة. في تلك اللحظة، تلقت أم الديب مكالمة هاتفية من ابنها أحمد، الذي كان يتكئ على ذراعيه فوق الأريكة في الصالة، وعندما حاولت الرد، بدت مرتبكة، حيث كان الجهل يسيطر عليها وتساءلت كيف تفتح الهاتف، لكن بعد عدة محاولات، نجحت أخيرًا في التواصل.

عندما ردت عليه، تبادل معها كلمات بسيطة، لكنه شعر أن هناك شيئًا غير عادي. تذكرت أم الديب فجأة أنها بالفعل لديها أبناء، لكن كلمتها خرجت بسخرية، كما لو كانت تُعبّر عن عدم اكتراثها بمشاعرهم، وسأل أحمد باستغراب إن كانت نسيت من هو، مما جعلها تتعجب من صدمته، ثم، بدت أم الديب فظة في ردها، وكأنها تسدد ضربات بكلماتها، حيث عبّرت عن استيائها من عدم اهتمام عائلتها بها منذ سفرها. كان سخطها متأججًا، حيث شعرت بوطأة الخذلان، حتى من والد أحمد الذي لم يتصل بها.
لكن أحمد، الذي شعر بالحفيظة، حاول تهدئة الأمور بسؤاله عن موعد عودتها، لكنه تعرض لموجة من التهكم، حيث استخدمت أم الديب عبارات لاذعة، آملة في وجودهم في المطار بانتظار عودتها. على الرغم من محاولاته المستمرة للتواصل، بدا الندم على أحمد، مما جعله يعبّر عن أسفه لاتصاله بها. لكن ذلك أثار حنق أم الديب، حيث لم تتقبل كلماته بسهولة، كأنها تصرخ لتقطع أي تواصل محتمل. انتهت المكالمة بشكل سريع، مُتجنبة المزيد من النقاشات، مُحذرة ابنها بعبارات مُختصرة. رن الهاتف مجددًا، وكان اسم جلال، ابنها الآخر، يظهر على الشاشة، مما زاد من ريبها حيال المكالمات المتكررة، فقالت بتعجب:
_ايهي هما سمعوني ولا إيه؟ ألو ألو.
قال جلال بهدوء وكأن النوايا الطيبة تتخلل كلماته:
_السلامو عليكو يا ست الحبايب، عاملة إيه ياما؟

أم الديب الجزء الثالث

لكن أم الديب لم تستطع كبح جماح امتعاضها، فتدفقت الكلمات من شفتيها كالنهر الجارف، يحمل في طياته حرارة الغضب المخزون بعمق. كانت عباراتها تتساقط كالرصاص، مشبعة بالخذلان، كأنها تبحث عن متنفس لتفريغ آلامها، قائلة:

_ازيك يا كلب يا واطي ياللي مطمرش فيك التربية؟

تلفظ جلال، وقد فاجأه الهجوم المباشر من والدته، فرفع صوته محاولًا الدفاع عن نفسه، وكأنما يسعى للبحث عن سبل للتهدئة وسط العاصفة:

_ما جرا إيه ياما؟ بدل ما تقوليلي كلمتين عدلين داخلة بشتيمة وغلط؟ ما جرا إيه شغله ده ياما؟

لكن أم الديب كانت في حالة لا تسمح لها بالحديث اللين، فاستمرت في صراخها، وكأنها تحاول تفريغ كل ما في قلبها من هموم. كانت كلماتها تتدفق كالسيل الجارف، ساعية لكسر القيود التي كبلتها، مُعبرَة عن مشاعرها بكل صدق، دون أن تبالي بالعواقب، قائلة:

_يلا يابن الكلـ* يا واطي، مانتوا مبيطمرش فيكوا، يا بختك المايل يا أم الديب في عيالك.

وفي تلك اللحظة، تدخلت ليالي، وسحبت الهاتف من يده بخبث ظاهر، لتتحدث إلى أم الديب بنبرة تتسم بالدهاء:

_ألو يا حماتي، عاملة إيه؟ ليكي واحشة.

استشاطت أم الديب غضبًا، وردت عليها بعنف صريح:

_يلا يا بت الكلـ* الولية ماشية هناك قال إيه قالعة فاكرة نفسها قاعدة في بيتهم.

قالت ليالي، التي لم تتراجع، زادت من حدّة كلماتها وكأنها تسدد ضربة غير مباشرة:

_والله بقى جايباها في واحدة تانية على أساس إنها مش عليا أنا؟ طيب يا حماتي أهو كل واحد بيعمل بأصله وأنا عملت بأصلي معاكي... ده انتي تربية زبالة يا تقى.

تلفظت أم الديب، وقد شعرت بالإهانة، انفجرت في صراخها وكأنها لا تصدق ما تسمع:

_ايهي انتي بتشتمي حماتك يا بت؟

ردت ليالي بخبث، وهدوء، مُستمتعة بإثارة غَيظ أم الديب:

_أبدًا ده أنا بكلم تقى، إيه مش عاوزة تسلمي على أحفادك؟ ولا محدش وحشك غير سيليا وأسيل؟

قالت أم الديب بصوت متهدج بالعاطفة أنها لم تفتقد أحدًا، ثم استدعت سيرة ابنتها نعمة، وهي تُظهر شوقها لها بكلمات مؤثرة تنبعث من سَفح قلبها، حيث اعترتها مشاعر الفراق، ومع انهمار الدموع، بدأت تنتحب بحرقة، وكأن الفراق الطويل أثقل قلبها، مما دفع ليالي إلى التعليق بسخرية خفيفة. تدخل جلال في تلك اللحظة، محاولًا تخفيف حدة الاشتياق، وسحب الهاتف من ليالي وكأنه يسعى لإنهاء المشهد المشدود. حيث سأل والدته عن موعد عودتها، فأجابت أم الديب بصوت مختنق بين البكاء والحديث، وكل كلمة تجلأ منها تحمل وزرًا من الشوق. أجاب جلال ببرود، معبّرًا عن عدم معرفته بمكان نعمة، ليكمل بتمنياته لها بالعودة بالسلامة. بدا أن أم الديب قد استنزفت من المحادثة، فأنهت المكالمة بصوت مبحوح، غير قادرة على إخفاء مشاعر الخيبة التي تعتريها. جلال، بنبرة منخفضة، ودعها، بينما شعرت أم الديب بتغير الجو حولها بعد انتهاء المكالمة.

أم الديب الجزء الثالث

التفتت أم قمر الدين لتجد أم الديب جالسة بجانبها، تفيض عيونها بالدموع، مما أثار في نفسها حيرة واسعة. نظرت أم قمر الدين إلى صديقتها التي كانت دائمًا قوية، وكأنها تبحث عن تفسير لمشاعرها المتضاربة، وسألتها عن سبب نشيجها، فرفعت أم الديب رأسها، والعواطف تتسرب من عينيها، لتقول إن ابنتها نعمة تفتقدها بشدة. تأثرت أم قمر الدين بحزن صديقتها، واقتربت منها محاولة التخفيف عنها، حيث وضعت يدها على كتفها بلُطف. لكن أم الديب لم تكن قادرة على تجاوز حزنها، وعندما طلبت كوبًا آخر من المشروب، شعرت أم قمر الدين أن ذلك مجرد محاولة للتغلب على التبرم، فنهضت بهدوء لتلبية رغبتها. أمضت أم قمر الدين بعض الوقت في جلب المشروب، بينما استمرت أم الديب في النحيب بصمت، مسترجعة ذكريات الفراق. عند عودة أم قمر الدين، قدمت العصير بابتسامة حنونة، فتناولت أم الديب الكوب بيد مرتجفة، محاولَة أن تجد فيه سلوى لروحها المتعبة. في اليوم التالي، استعدت أم الديب، وأم قمر الدين للخروج، حيث قررتا الذهاب للتسوق في مول كبير، على أمل أن يساعد ذلك في تخفيف جوى أم الديب. لكن القلق اجتاح أم الديب عندما وقفتا أمام السلم الكهربائي، الذي كان يمثل لها تحديًا كبيرًا، وكأنها تواجه معركة داخلية يصعب عليها كسبها، وقالت بتردد:

_هو مفيش مكان تاني نطلع منه؟ السلم ده آني مش هعرف أطلع عليه يا ست بسملة.

نظرت إليها أم قمر الدين بدهشة، وكأنها لا تفهم سبب خوفها، فهي تجد السلالم الكهربائية شيئًا بسيطًا جدًا ولا يستدعي كل هذا التوتر، وتلفظت:

_ليه يا أم الديب؟ ده سهل جدًا.

لكن أم الديب لم تكن تشاركها الرأي، فهي تشعر أن مجرد فكرة الصعود على هذا السلم تعني الدخول في تجربة مُرعبة، قائلة:

_لا مش هعرف.

كانت أم قمر الدين تدرك تمامًا أن الاستمرار في الوقوف في نفس المكان لن يؤدي إلى أي حل، حاولت أن تستعيد زمام المبادرة، فاتخذت خطوة نحو صديقتها بتصميم، حاملة عبء التشجيع، وقد قالت بصوت حنون:

_شوفي أنا هعمل إيه، واعملي زيي!

تملكت أم الديب مشاعر مختلطة من التشوش، والتِبَاس، ونطقت بصوت يكمن وراءه أصداء الخوف الذي يعتري قلبها:

_طيب وريني.

صعدت أم قمر الدين على السلم الكهربائي كما لو كانت تقوم بشيء اعتيادي تمامًا، وهي تتحرك بخفة. بينما وقفت أم الديب تراقبها، حاولت تقليدها، لكن حينما مدت قدمها لتخطو على السلم، شعرت وكأن الأرض تهتز تحت قدميها، مما زاد من تلجلجها. كررت المحاولة مرة واثنتين وثلاثة، ولكن في كل مرة كانت الرهبة تتفاقم، فكانت يدها التي تمتد نحو السلم تتراجع بعنف خوفًا من السقوط.
بدا على وجه أم قمر الدين الضيق وهي تشعر بالعجز، فصرخت بقلق، تساءلت عما إذا كانت ستظلان واقفتين هناك طيلة الوقت. عندها، شعرت أم الديب بأنها قد وصلت إلى قمة خوفها، فرفضت بشدة أن تستمر في المحاولة، مصممة على البقاء في مكانها. لكن أم قمر الدين، العازمة على عدم ترك صديقتها

أم الديب الجزء الثالث

خلفها، أدركت أن التغلب على هذا الجَزَع يتطلب شجاعة، لذلك نزلت مجددًا، وأمسكت بيد أم الديب بثبات، ثم سحبتها بلُطف.

ببطء، وبخطوات مترددة، بدأتا تصعدان معًا على السلم الكهربائي. كانت أم الديب ترتجف، ولكن وجود صديقتها بجانبها منحها بعض الطمأنينة، ومع وصولهما إلى الأعلى، شعرت أم الديب بأنها قد اجتازت تحديًا كبيرًا، رغم أن قلبها كان لا يزال يخفق بسرعة. دخلتا معًا إلى متجر ملابس فَارِه، حيث بدأت أم قمر الدين تتجول بين الرفوف، تفحص الملابس الأنيقة المعروضة. أما أم الديب، فقد كانت تتحرك بلا هدف، تتطلع حولها دون أن تجد ما يجذب انتباهها. وفجأة، اقتربت منهن فتاة تعمل في المتجر، مُبتسمة، وسألت عما إذا كن يبحثن عن شيء محدد. نظرت أم الديب إليها بعينين محتارتين، ولم تفهم كلمة واحدة مما قالته الفتاة، مما زاد من شعورها بالارتباك. لكن عندما حاولت الفتاة تكرار السؤال بطريقة مختلفة، لم يكن لذلك أي تأثير على أم الديب، التي ظلت في حالة من التشوش، تبحث عن شيء تألفه أو يمكن أن يجذب انتباهها وسط هذه الأجواء الطريفة. لكن أم الديب شعرت بأن اللغة تشكل جدارًا بينها وبين هذه الفتاة، فصرخت بنبرة تملؤها الإحباط:
_مش فاهمة حاجة منك يا ولية، يا ست بسملة، يا ست بسملة... الله ما تردي عليا وتشوفي الولية دهي عاوزة إيه!

عندما سمعت أم قمر الدين نداء أم الديب، جاءت بسرعة لتقف بجانبها، محاولةً فهم ما يحدث. كانت أم الديب تعاني من الضيق، مما جعلها تترك المهمة لصديقتها في التعامل مع الفتاة التي كانت تتحدث بلغة غريبة لا تفهمها، ومع إدراك أم الديب أنها عاجزة عن فهم ما تقوله الفتاة، بدأ شعور الاستياء يتسلل إليها، حيث لم يكن الأمر مجرد عائق لغوي، بل كان أيضًا تذكيرًا بجهلها أمام موقف بسيط، وهو ما لم يكن سهلًا عليها الاعتراف به. أما أم قمر الدين، التي كانت أكثر تعودًا على التعامل مع مثل هذه المواقف، فقد نظرت إلى الفتاة بابتسامة، وتواصلت معها، وسألتها عما تريد قوله لأم الديب، فشرحت لها الفتاة بلُطف أنها تسأل إذا كانت تبحث عن شيء معين. عندما ابتعدت الفتاة، استغلت أم قمر الدين الفرصة لتبحث عن شيء يناسب ذوق أم الديب، فبدأت تتجول بين الرفوف، حتى وجدت قميصًا أنيقًا وبنطلونًا مثاليين. عرضت الأمر على صديقتها، لكن أم الديب نظرت إلى الملابس، وأشاحت بوجهها قليلًا، معبرة عن عدم رضاها، رغم إعجابها بالاختيار. عندما أكدت أم قمر الدين أن البناطيل ليست حكرًا على الرجال، بدا أن أم الديب لم تكن مقتنعة بذلك، مشيرة إلى أن الناس سيتحدثون عنها بسلبية. لكن أم قمر الدين، التي كانت تفهم تمامًا مشاعر صديقتها، ابتسمت برفق وهزت رأسها، مشيرة إلى أنها لن تجبرها على شيء. لاحقًا، اختارت لها فستانًا أنيقًا ذا لون جذاب وتفاصيل رقيقة، وقدمتُه لها بابتسامة عذبة. لكن أم الديب نظرت إلى الفستان بدهشة وكأنها غير مصدقة أنه موجه لها، فسألت:
_دهو ليا؟
ردت أم قمر الدين، بابتسامة تنم عن الثقة العميقة:
_أه طبعًا ليكي انتي.
قالت أم الديب، وقد تخللت مشاعر الامتنان دهشة عظيمة في صوتها:
_انشالله تنجبري، دهو كتير عليا أوي كل ده!

أم الديب الجزء الثالث

تفوهت أم قمر الدين، بنبرة حانية وكأنما تعتبر ما تقدمه هدية بسيطة تعبر عن قوة صداقتهما:
_ولا كتير ولا حاجة، مفيش حاجة كتير عليكي، يلا خدي قيسيه في البروفا.
قد ارتسمت على وجه أم الديب تعبيرات الاستفسار، وتفوهت متسائلة وهي تشير بيدها نحو غرفة القياس:
_الصندوق اللي هناك دهو؟
قالت أم قمر الدين، وقد اندلعت ضحكتها بخفة كنسيم ربيعي، استغربت من وصف أم الديب لغرفة القياس:
_صندوق؟ هناك يا أم الديب اتفضلي!
دخلت أم الديب إلى غرفة القياس، وما إن بدأت في ارتداء الفستان، حتى شعرت بأن الأمور لا تسير كما ينبغي. كان الفستان ضيقًا بعض الشيء، ومع محاولاتها الشرسة لارتدائه بسرعة، سمعت فجأة صوت تمزق. نظرت في المرآة برعب عندما رأت الفستان ممزقًا في منطقة الصدر، وتملكتها مشاعر من الفزع، فتسارعت الكلمات إلى لسانها، تعبر عن صدمتها، ثم خرجت من غرفة القياس محملة بالإحباط، وكانت خطواتها نحو أم قمر الدين وكأنها تحمل اعتذارًا صامتًا دون الحاجة إلى كلمات. نظرت إليها أم قمر الدين بقلق وسألتها عن حالها، لتجيب أم الديب بأسى وهي تشير إلى الفستان الممزق، مما أدى إلى صدمة في وجه أم قمر الدين التي استفسرت عن كيفية حدوث ذلك، وبينما كانت أم الديب تحاول تبرير ما حدث، مبدية عدم رضاها عن الفستان، كانت أم قمر الدين تشعر بالضيق، إذ كانت هذه ليست المرة الأولى التي تتورط فيها أم الديب بمشكلة صغيرة بسبب تصرفاتها العفوية، وغير المتوقعة، وما لبثت أن خاطبتها بحسرة، معبرة عن مخاوفها بشأن ما قد يحدث. بعد ذلك، أخذت أم قمر الدين الفستان وعادت به إلى مكانه، متجنبة أي نقاش مع العاملين في المتجر، محملة بمزيج من الإحباط، والاضطراب، وبعد مرور ساعة ونصف من التجول في المتاجر وشراء الكثير من الملابس لكلتيهما، شعرتا بالتعب المنين، مما دفعهما للتوقف لتناول الطعام في أحد المطاعم الفاخرة. جلست أم قمر الدين أولًا، وقد بدا عليها الإرهاق بعد يوم طويل من التسوق.

بينما أم الديب، التي كانت تنظر إلى اليوم كمغامرة لم تبدأ بعد، تساءلت عن سبب الشكوى، مما أدى إلى توتر في الجو، إذ كان لديها تصورات مختلفة تمامًا عن مجريات اليوم، ومع ذلك، أضأت أم قمر الدين بأفكار جديدة حول مغامرات مستقبلية، مما جعلها تبتسم بإصرار وهي تخطط للمزيد من التجارب، ومعها كانت أم الديب تحمل أسئلة وأفكار جديدة لمغامرة لم تعشها بعد، حيث أجابت أم قمر الدين:
_المهم قوليلي بقى عايزة تاكلي إيه؟

قالت أم الديب، التي كانت دائمًا متعلّقة بالأطعمة التقليدية، لم تستطع إخفاء استيائها من الوصفات الدخيلة التي تناولتها في الأيام الماضية:
_والنبي يا ست بسملة، نفسي مرة ألاقي حاجة عارفاها، نفسي في أكل مصري... تعبت من الأكل بتاعكوا دهو أوي، أصل معدتي مش واخدة عليه.
تنهدت أم قمر الدين بخفة، وعرفت أنها ستواجه تحديًا جديدًا في إقناعها بتجربة شيء مختلف، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_للأسف يا أم الديب، ده مطعم ياباني مفيهوش خالص اللي انتي عايزاه... إيه رأيك تجربي السوشي؟
سألت أم الديب، وقد برزت على وجهها الدهشة:
_إيه الشوشي دهو؟
أجابت أم قمر الدين، وقد تخللت نبرة صوتها ثقة واضحة:
_هتعرفي،!Please Come On
استدعت أم قمر الدين النادل بحماسة، وبدأت في وصف طلبها، متطلعة إلى تجربة جديدة في عالم المأكولات. بعد عشر دقائق من الانتظار، وصل الطعام، ووقفت أم الديب في حالة من الذهول التام. أمامها كان طبق صغير يحتوي على قطع من السوشي، ولكنها لم تستطع رؤية تلك القطع كمكون غذائي، بل اعتبرتها أشبه بحلوى غريبة لا تمت بصلة لما تأمل أن تتناوله. بدت غير مرتاحة، وعبّرت عن عدم رغبتها في تناول ما يشبه الحلوى، مؤكدة أنها تريد أن تأكل مثل بقية الناس. كان الجو قد بدأ يتحول مع اقتراب المساء، حيث تغمرت السماء بظلال خفيفة، بينما كانت أم قمر الدين تحاول إقناع صديقتها بتجربة السوشي، متمسكة بفكرة أنه يجب أن تُجرب الطعام قبل أن تحكم عليه. لكن تلك المحاولات لم تثمر، وبدلًا من ذلك، انتهت بتجربة فاشلة لم تكن متوقعة. بعدما بصقت أم الديب السوشي في طبقها بكل وقاحة، شعرت أم قمر الدين بالحنق يتصاعد داخلها، محاولةً التماسك في مواجهة هذا الموقف المحرج. كانت قد وضعت آمالًا كبيرة على هذه الرحلة لتكون يومًا ممتعًا وخفيفًا، إلا أن الأمور أخذت منحىً غير متوقع، وبالرغم من إحباطها، كانت أم الديب، كما هو الحال دائمًا، غير مُدركة لأي خطأ فيما فعلته، بل راحت تُلقي اللوم على الطعام النيء. قالت أم قمر الدين بعجيج:
_انتي متخلفة؟ إيه اللي انتي عملتيه ده؟

نطقت أم الديب، وهي لم تتأثر بالصوت العالي، بل اكتفت بإبداء تعابير الاشمئزاز:
_طعمه عِكر أوي، هما حاطين عليه إيه؟
لكن أم قمر الدين لم تصدق أن ما يحدث أمامها حقيقي. كيف يمكن لأم الديب، التي اعتادت على شرب مشروبات غير قابلة للاستساغة كالبرسيم في قريتها، أن ترفض مذاق السوشي؟ كان هذا الأمر يبدو لها بعيدًا عن المنطق، مما دفعها إلى التعليق على حالة صديقتها. لكن أم الديب، التي كانت غير مكترثة بردود فعل أم قمر الدين، أجابت ببساطة، متساءلة عن سبب تقززها من الطعام، وأعربت عن استغرابها من كون السوشي غير مطبوخ. في تلك اللحظة، وصلت أم قمر الدين إلى نقطة الانهيار. فقد كانت الأيام الطويلة من التحمل والمغامرات تسحب شيئًا فشيئًا صبرها، وجاءت تلك اللحظة لتكون القشة الأخيرة التي دفعتها للتفكير في العودة إلى مصر، معبرة عن استحالة الاستمرار في هذا الوضع.

اقترب النادل منهما، قلقًا من الوضع الذي آل إليه الأمر، وبدت أم قمر الدين مصممة على إنهاء الموقف بأسرع ما يمكن، حيث طلبت الفاتورة بشكل مباشر، ودفعت المبلغ بسرعة، متجاهلة الأجواء المحيطة بها. غادرت أم قمر الدين المطعم وهي تحمل استياءً لا يوصف في قلبها، فقد تحول اليوم إلى كابوس بالنسبة لها. لكن على الرغم من الإحباط الذي عانت منه، لم تكن على استعداد للتخلي عن بقية خططها. كانت في ذهنها فكرة أخذ أم الديب في جولة مثيرة إلى الملاهي، عسى أن يعيد ذلك شيئًا من البهجة التي فقدتها بعد تلك التجربة الكارثية مع السوشي. وصلتا إلى الملاهي الكبيرة، حيث كانت الألوان الزاهية،

والأصوات الصاخبة تعكس أجواء من الحماس. بدا واضحًا أن هذه الملاهي ليست مجرد مكان ترفيهي عادي، بل كانت تحتوي على ألعاب تتحدى قدرات البشر على التحمل، مع أضواء لامعة في كل مكان توحي بأن هذه ليست رحلة للأطفال. كانت أم قمر الدين تشعر بنبض الحياة في أجواء الملاهي، متطلعة إلى استعادة لحظات من البهجة والسعادة مع صديقتها، وبعد تفكير مديد قالت:

_أوكي، هنركب.Death Train

قالت أم الديب، وهي لم تكن على دراية بالمصطلحات الإنجليزية، توقفت برهة وكأنها تحاول فهم ما قالته صديقتها:

_يعني إيه؟

أجابت أم قمر الدين، وقد بدت عليها بساطة العفوية في التعبير:

_قطر الموت، يلا بينا.

كانت ردة الفعل متوقعة. أم الديب، التي لم تتخيل يومًا أنها قد تخوض مثل هذه المغامرات، شعرت بالخَوَر يسري في عروقها، مما جعلها تعبر عن مشاعرها قائلة بارتياع:

_إيه، عاوزة تموتيني يا ست بسملة؟ طب لو عاوزة تموتي، موتي لواحدك، إنما تموتيني معاكي ليه؟

قالت أم قمر الدين، وقد برزت على شفتيها ضحكة دَمِثة:

_مش هنموت، هو اسمه كده عادي... يلا بس عايزين نلحق نعمل كل حاجة قبل ما نسافر.

رغم التردد الذي كان يسيطر على أم الديب، إلا أنها اتخذت قرارًا شجاعًا بترك الأمر لأم قمر الدين، مثمنة ثقتها في صديقتها. دخلتا القطار، ودفعت أم قمر الدين ثمن التذاكر بسرعة، قبل أن تستلم المقاعد في أحد العربات الأمامية. كان المكان مزدحمًا بالناس، حيث كانت الأصوات المرتفعة تملأ الأرجاء، مما جعل قلب أم الديب ينبض بسرعة.

صعدت اللعبة، وبينما كانت السماء المفتوحة فوقهما تمنحهما شعورًا بالخفة، تملكتها لحظة من الإحساس بالحرية. لكن هذا الإحساس لم يدم طويلًا. بدأت أم الديب تشعر بالخوف يتسلل إلى أعماقها، ومرتجفًا، تساءلت عن ارتفاعهما المبالغ فيه. أما أم قمر الدين، التي كانت غارقة في الاستمتاع بالمشهد، حاولت تشجيع صديقتها وطمأنتها بأن عليها أن تستمتع باللحظة. لكن على الرغم من محاولاتها، لم تتمكن أم الديب من السيطرة على مشاعرها. بدأت تتخيل أنها ستنزلق من المقعد، مما جعلها تشعر بضغط شديد في صدرها، فازدادت مشاعر القلق لديها، مما أدى إلى تفاقم توترها، وقد صرخت قائلة:

_يا خرابي، ضهري بيتزحلق، امسكيني!

تحدثت أم قمر الدين، وبرزت على وجهها ضحكة خفيفة من تلك العبارة، أدركت تمامًا أن أم الديب لم تعيش تلك اللحظة بصدق:

_متخافيش، مش هتقعي، بجد مُتعة، كان نفسي البنات يجوا معايا، أكيد كنا هنستمتع أكتر من كده.

لم تستطع أم الديب الارتداع عن الإعوال، بينما بدأ القطار يتحرك بسرعة مذهلة. كان الهواء يدوّي في أذنيها، مما زاد من نواحها، فوجدت نفسها تتشبث بعنق أم قمر الدين بطريقة عنيفة، وكأنها تحاول النجاة من السقوط. تعالت صرخاتها المليئة بالذعر، حيث كان قلبها ينبض بسرعة غير مسبوقة، معبرة عن

أم الديب الجزء الثالث

إحساسها بالخطر المحدق. في تلك الأثناء، حاولت أم قمر الدين التخلص من قبضتها، مشددة على أنها لا تستطيع التنفس بسبب الشد القوي الذي تفرضه أم الديب. كانت تلك اللحظة مغمورة بالمغامرة، حيث اختلطت الصرخات بالضحكات، مما خلق حالة من الفوضى الممتعة بينهما.

يتبع....

الفصل الثامن

استغاثت أمّ الديب بقلقٍ ينهش قلبها، مناديةً ابنتها البعيدة، كمن يطلق صرخةً أخيرة في وادٍ موحش، تقول بصوتٍ تخنقه العبرات:

_الحقيني يا نعمة، الحقي أمك !

صرخت أم قمر الدين بدهشةٍ غلبتها، وكأن الدنيا قد انقلبت رأسًا على عقب، قائلةً بصوتٍ ممزوج بالذهول:

_تلحقك فين بس؟ إيه اللي هيجيبها هنا؟ آه يارب.

تلفظت أم الديب بنواحٍ، كأنّها تحمل جبالًا من الألم في صدرها، وهي تتشبث بعنفوانٍ مستميت بعنق أم قمر الدين، وكأنّ الحياة بأسرها معلّقة بتلك القبضة المتشنّجة، قائلةً بحزنٍ يملأ الأفق:

_ركبي سابت يا ولية !

أطلقت أم قمر الدين صوتها بعجيجٍ هادر، كأنّه زئير عاصفةٍ تمزّق السكون، قائلةً بحزنٍ متلاطم:

_احترمي نفسك والزمي حدودك بليز، أنا ليا اسم، إيه ولية دي؟ انتي أكيد اتجننتي ومش عارفة بتكلمي مين، آه.

ما زالت أم الديب متشبثة بعنق صديقتها بكل ما أوتيت من قوّة، وكأنّها تظن أن تلك القبضة اليائسة قادرة على صدّ مخاطر قطار الموت الذي يندفع نحوها بلا هوادة. صرخت بجنون وهي تلطم وجهها بعنف، تعبيرًا عن رعبٍ لا يُحتمل، وكأن كل صفعةٍ تعيد إليها إدراك الخطر الذي يحيط بها، في مشهدٍ تغمره الهستيريا، قائلة:

_ايهي هو دهو وقته؟ يا خرابي.

بعد سبع دقائقٍ من دورانٍ متواصل، خرجت أم الديب، وأم قمر الدين من قطار الموت كأنّما فارقتهما العقول، تترنحان وتترنّح بهما الدنيا حتى ارتطمتا ببعضهما البعض وسقطتا أرضًا. استفاقتا على أصوات الناس من حولهما، وقد قدّموا لهما المشروبات ليعيدوا إليهما بعضًا من الوعي المفقود. وما إن استجمعت أم الديب أنفاسها حتى رمت عبوتها بعيدًا، لتأخذ عبوة أم قمر الدين وتشرب منها بنهمٍ، وكأنّها تبحث عن شيء أكثر من مجرد الانتعاش، قائلة:

_آه يآني، هو العصير دهو بإيه ياخويا؟

اقترب منها أحد الرجال، وقد ملأه القلق، وهو يمدّ يده ليقدّم لها العون، وسألها بنبرةٍ يكسوها التعجب:

_You Okay?

ردّت أم الديب بانتحابٍ مكتوم، وكأنّ كلماتها قد غرقت في بحرٍ من الدموع، قائلةً بصوتٍ متقطع يحمل في طياته أثقالًا من الألم:

_رجعوني لداري وولادي، كان مالي ومال السفر؟ يا بختك المايل يا أم الديب.

وضعت أم قمر الدين يدها المُرتجفة على فمها، محاولةً كتم زفرةٍ عُتُلة خرجت من هاويتها، وقالت بإرهاقٍ عارم يكاد ينال من جسدها وروحها معًا:

_ياريتني ما سمعت كلامك، كان يوم بلاك يوم ما سافرت معاكي في حتة!

أم الديب الجزء الثالث

في مكان آخر نهضت ليالي مستقبلة نعمة بخفةٍ تتمايل، وكأنّها نسمةٌ عليلة تسللت بين أنفاس اليوم الحار، وقالت بابتسامةٍ مشرقة تحمل في طياتها مزيجًا من الفضول والغبطة:

_حمدالله على السلامة يا نعمة.

ابتسمت نعمة، وهي تحاول ضبط أنفاسها المرهقة، وكأن الابتسامة هي الوسيلة الوحيدة لرفع وطأة الوَهْن الذي اجتاح جسدها. تأملّت وجه ليالي المتفائل، فشعرت كأنّ لمسةً من الأمل قد تسللت إلى قلبها، لتخفف من ثقل يومها الطويل. تذكّرت حامد الذي ما زال يسحب الحقيبة، وقالت:

_الله يسلمك.

نظرت ليالي نحو حامد، الذي بدا عليه الجُهد بوضوح، ثم وجهت كلامها لنعمة بطريقة مازحة، كأنّها تحاول تخفيف حدة الحرارة بلمسة من الدعابة. اتسعت ابتسامتها، وتلفظت:

_مش تقولي إنك رايحة السوق؟ كنت جيت معاكي بدل مانتي مبهدلة جوزك كده.

اِنخرط حامد في الحوار، وهو يحاول تهوية نفسه بمروحة ورقية صنعها من إيصال السوق، بينما كان يمسح جبينه المليء بالعرق. كانت ملامح وجهه تحمل آثار الإرهاق، لكن عزيمته على المشاركة لم تخبُ. استعاد شيئًا من نشاطه، وابتسم بتفاؤل ليقول:

_أه والله، ده الجو نار ولفينا كتير... قولتلها اشتري من السوق اللي جنب البيت قالتلي حاجته وحشة ووديتنا آخر الدنيا.

ابتسمت نعمة بخفة، وهي تميل برأسها نحو ليالي، وكأنها تبحث عن التعاطف في عينيها. تجسدت في ابتسامتها لمسة من الراحة، وقالت:

_عاوزة أغير نظام أكلي يا ليالي، أصل الراجل اللي جنب البيت حاجته بايظة ومدودة. وأمي مبتنفعش حد غيره، والأكل دايمًا ماسخ مالوش طعم. قولت أغير المكان ونجرب من مكان تاني، يمكن الأكل يتعدل.

رفعت ليالي حاجبيها، مُحتشدة لإلقاء درسٍ قصير في الحياة، حيث تجلّت على وجهها الحكمة التي اكتسبتها من تجاربها في الطهي. حيث تسللت ابتسامة مشوبة بالتحدي إلى شفتيها، وتلفظت:

_الرك على النفس يا نعمة.

ضحكت نعمة ضحكة خافتة، وكأنها تعترف ضمنيًا بمعاناتها، وقد تداخلت نغماتها مع همسات الرياح الخفيفة، قائلة:

_علميني يا ليالي، نفسي أنسى طبيخ أمي اللي بيقلب البطن ده.

أجابت ليالي بحماس، وكأنها قد وجدت فرصة للعب دور المُعلِمَة، حيث تألقت عيناها بشغفٍ، وبدأت تتحدث وكأنّ كل كلمة تنبعث من شفتيها تحمل دروسًا ثمينة، تتراقص بين أروقة الذاكرة، والتجربة:

_من عينيا، شوفي انتي عايزة تتعلمي إيه وأنا أعلمك. أه صحيح، اتصلنا بأمك وردت علينا.

تجمدت نعمة للحظة، وكأنّ الزمن قد توقف من حولها، ثم نظرت إلى ليالي بدهشةٍ عكست في عينيها مزيجًا من الاستغراب، وتفوهت:

_غريبة إنها ردت، ده أنا كنت كل يوم يتصل بيها مابتردش.

أومأت ليالي برأسها بابتسامة هادئة، تائقة أن تطمئن نعمة، وهي تتحدث:

_ردت المرة دي وبتقول إنك وحشتيها.

أم الديب الجزء الثالث

شعرت نعمة بشيء من التَوْق يتسلل إلى قلبها، وابتسمت ابتسامة تعيسة، وكأن ذكرياتٍ بعيدة عادت لتغمرها في لحظة من الشجن. بينما استحضرت في ذاكرتها لحظاتٍ عزيزة كانت تجمعها بوالدتها، التي غاب وجهها عن حياتها. كانت تلك الابتسامة تعبيرًا عن محبةٍ غير منتهية، قائلة:

_وهي كمان وحشتني أوي يا ليالي. وحشني أعدي على الشقة وألاقيها، دلوقتي بقى البيت مضلم من غيرها، ده هي اللي كانت منورة علينا حياتنا.

رفعت ليالي عينيها بنظرة تفاؤل خفيفة، وتفوهت:

_خلاص أمك هتنورنا بعد بكرا.

لكن نعمة، بعيون مثقلة بالشجن، بدأت تهز رأسها ببطء وكأنها غير مقتنعة تمامًا أو ربما لا تزال تتألم لفراقها، قائلة:

_ربنا يرجعهالنا بألف سلامة، وحشتيني ياما والله.

وفي النهاية، شعرت نعمة بأن هذا الحديث قد استنفذ طاقتها العاطفية، فصعدت هي وزوجها إلى شقتهم، تاركة وراءها ليالي التي ما زالت تراقبهم بابتسامة مقتضبة. نطق حامد محاولًا التخفيف عن نعمة:

_خلاص يا نعمة، كلها يومين وهتشوفيها.

أما ليالي غمرتها مشاعر مختلطة، نظرت إلى الأرض وهمست بصوت خافت، كما لو أنها لم تكن تريد أن يسمعها أحد، قائلة:

_ياكش ما توعى توصل.

في هذا الوقت، توجهت أم قمر الدين وأم الديب نحو مطعم مصري تقليدي، مشهور بتقديم أشهى الأطباق التي تعيدك إلى أجواء المنزل. الجو داخل المطعم كان مليئًا برائحة الأكل الطازج، تتناغم مع صوت ضحكات الزبائن وتبادلهم الأحاديث. جلست المرأتان إلى طاولة في الزاوية، حيث كانت أم قمر الدين تستعرض قائمة الطعام بعناية، بينما كانت أم الديب تفكر في شيء آخر، عينها تلمع بخبث خفيف قبل أن تقطع الصمت. قالت أم قمر الدين، وهي تنظر بحزم نحو أم الديب:

_دي آخر حاجة وبعد كده هنروح الأوتيل!

ردت أم الديب مستغلة اللحظة لتبدأ حديثًا بدا أنه غير مُتوقع:

_طب بقولك يا ست بسملة.

تجمدت ملامح أم قمر الدين للحظة، ثم تنهدت قليلًا كما لو أنها توقعت الأسوأ، وقالت:

_أنا بجد بقيت أخاف أوي من الجملة دي، بقى يجي بعدها كوارث.

ضحكت أم الديب بخفة وكأنها مُهيأة لشيء ما، وتحدثت:

_اسمعي بس، هقولك!

ردت أم قمر الدين بعدما وضعت القائمة جانبًا ورفعت حاجبها متسائلة:

_نعم، عايزة تقولي إيه؟

ابتسمت أم الديب ابتسامة مُراوغة، مائلة برأسها نحو أم قمر الدين، وكأنها تعد لحيلةٍ ما في خلدها، تتلألأ عيناها بوميضٍ من الخبث. كانت تلك الابتسامة تبوح بشيء من الدهاء، بينما أخذت تُفكر في كيفية استخدام موقفها الحالي لصالحها. بدا وكأنها تستعد لإطلاق سؤالٍ غير متوقع، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_اسم الله عليكي يعني جسمك حلو ولا كأنك متجوزة ومخلفة وعندك أحفاد، أما قوليلي بتروحي عند مين؟

نظرت أم قمر الدين لها بعيون ضيقة، كأنها تحاول قراءة أفكارها، ثم أطلقت ضحكة صغيرة، تملأها الدهشة. حيث ارتسمت على شفتيها ابتسامة مُشوقة، بينما كانت تتساءل عن الحيلة التي تدور في ذهن أم الديب، وكأنها تتوق لاستكشاف هذا المخطط الجديد، وأجابت:

_لا لا، دي رشاقة طبيعية، مفيش دكتور مد إيده في سنتي واحد من جسمي... الحمدلله وراثة من جدتي.

كانت أم الديب تحاول الوُلُوج في التفاصيل، وكأنها متهيأة لفتح موضوعٍ أكبر، حيث أخذت تتحدث بنبرةٍ مثيرة، محاطةً بهالة من الغموض، مُتسائلة:

_ليه؟ كنتوا كلكم عيلة رشيقة؟

أجابت أم قمر الدين ووضعت يدها على كتفها بفخر، وكأنّها تعلن عن انتصارٍ صغيرٍ حققته في حياتها، مظهرةً ثقتها بنفسها. ارتقش على وجهها التحدي، بينما شعرت بأنها قادرة على مواجهة أي شيء يطرحه عليها فضول أم الديب:

_طبعًا! جدتي لحد سن التمانين اللي يشوفها مكنش يقول عليها عندها تمانين سنة خالص، بالعكس كان يقول إنها في سن الأربعين.

تحركت أم الديب في مقعدها بحركة حثيثة تعكس خبثها المُعتاد، وكأنها تحاول الوصول إلى الهدف المنشود. استقرت نظراتها على أم قمر الدين، وكأنها تخطط لاستقبال قنبلة من المعلومات ستغير مجرى الحديث. ارتفعت حواجبها قليلًا، بينما كانت شفتاها ترتسمان بابتسامةٍ تشي بأنها تحمل في جعبتها شيئًا مثيرًا، قائلة:

_طيب ماهو اللي زيك له معارف في كل حتة، ما تشوفيلي داكتور شاطر يظبطني. أصل حنفي جوزي اللي ربنا ياخده، راجل عينه زايغة ميملهاش غير التراب.

هزت أم قمر الدين رأسها بفهمٍ، مستقصية تمامًا ما يدور في ذهن أم الديب، ثم اتخذت نبرة جادة تعكس تصميمًا أكيدًا، وأجابت:

_أم الديب، دي مشكلة نفسية مش جسدية خالص. لأن ببساطة كل ده لأنك مش مالية عينه، يعني لو مالية عينيه عمره ما هيبص لأي واحدة تانية!

ضحكت أم الديب ضحكة ساخرة ملآنة بالتثبيط، وكأنها لم تستطع كبح مشاعرها، ثم تلفظت بكلماتٍ تُعبر عن استيائها:

_ده لو معاه ملكة جمال العالم هيخونها برضة، أمال انتي فكرك إيه؟

ابتسمت أم قمر الدين بحذر، وداهمتها معرفة كبيرة بأن أم الديب لن تترك الموضوع بسهولة، ناطقةً بكلماتٍ تحمل في طياتها مزيجًا من الإجارة:

_أوكي يا أم الديب، أنا أعرف دكتور شاطر هنا، بعد ما نخلص أكل نروح نشوفه. إيه رأيك؟

نظرت أم الديب نحوها بنظرة ممتنة، وكأنها وجدت أخيرًا الحل لمشكلتها، وقالت بصوتٍ يحمل نبرة من العزم:

_وماله، آني واقعة في عرضك يا ست هانم، انجديني!

أم الديب الجزء الثالث

تجلّت الأجواء بين أم الديب وأم قمر الدين بالتوتر الخفي، حيث كانت كل واحدة منهما تعبر عن شخصيتها بطريقة مختلفة. كانت أم قمر الدين تُظهر حرصها على الأناقة والهدوء، بينما كانت أم الديب تعيش اللحظة بكل شغف، مستمتعةً بوجبتها وكأنها تعودت على تناول الطعام في سباقٍ مع الزمن.
بينما استغرقت أم قمر الدين في محادثتها مع ابنتها نالا في الهاتف، ارتسمت على وجهها ابتسامة دافئة تفشى حنانها، ونهضت بعيدًا مما جعلها تنسى كل ما حولها. ومع ذلك، كانت أم الديب، كعادتها، تستغل كل فرصة، حيث انطلقت نحو الأطباق، مبتلعةً الطعام بشغفٍ غير مُبالٍ، وعيناها تتجولان بخوفٍ حول المطبخ، متوجسةً من أن تُكتشف وهي تُخالف القواعد التي وضعتها أم قمر الدين. تبدت الفوضى في طريقة أكل أم الديب، بينما كانت أم قمر الدين تستعيد الذكريات الجميلة مع ابنتها، وكأن الحظ لم يكن في صفها، لكن هذه اللحظة كانت تشكل تباينًا واضحًا بين أنماط حياتهن المختلفة، وقد تحدثت أم قمر الدين وهي تبتسم بلُطف على الهاتف:
_هالو يا روح قلبي، وحشتيني موت!
ردت نالا بصوت مليء بالشوق:
_وحضرتك أكتر يا مامي.
بينما استمرت أم قمر الدين في المكالمة، كانت أم الديب تلتهم الطعام بسرعة مذهلة، وكأنها تحاول أن تفرغ الأطباق قبل عودة أم قمر الدين إلى مقعدها. نظرت حولها بقلق، وخشية أن تنكشف لعبتها، وأخيرًا، عندما انتهت أم قمر الدين من المكالمة وأغلقت الهاتف، كانت أم الديب قد أتمت مهمتها السريعة. رفعت يدها نحو فمها وهي تتنهد بخفة، وتمتمت بصوت خافت يكاد لا يُسمع:
_يارب ما تاخد بالها، آني هاخد نفسي وأخلع قبل ما الولية تتخانق معايا.
كان الليل قد أرخى سدوله على المدينة، وهدأت الحركة في الشوارع، بينما كانت الأنوار الخافتة تلقي بظلالها على مداخل المباني الراقية. في تلك اللحظة، دخلت أم قمر الدين إلى المرحاض، غارقة في أفكارها المتشابكة حول هذا اليوم الطويل، الذي بدأ بزيارة المطعم وانتهى بمغامرة غير متوقعة في عيادة طبيب الأسنان. أما أم الديب، فقد انتهزت الفرصة لتترك مقعدها، متجهة بسرعة نحو باب المرحاض الذي أغلق خلف أم قمر الدين، وبعد لحظات من غيابها، عادت أم قمر الدين إلى الطاولة وهي تبحث بعينيها عن أم الديب، لتكتشف أن الطعام قد تلاشى بالكامل، وكأن عاصفة مرت على المكان. قالت أم قمر الدين وهي ترفع يديها إلى رأسها في صدمة غير مصدقة:
_أوه ماي جاد! الأكل خلص ازاي؟ ياريتني ما قومت! بجد أنا مش عارفة آخد راحتي نهائي. لا عارفة أستمتع بالأكل ولا بالنوم... دي عيشة صعبة جدًا، هي ازاي بتعمل كل ده؟ أنا دلوقتي اتأكدت إن ولادها عندهم حق.

ثم نظرت حولها في قلق، وفجأة استقامت بسرعة، تاركة الطاولة وراءها، لتبحث عن أم الديب في أرجاء المطعم. كانت خطواتها سريعة وعيناها تلمع بالحنق كأنّها نجمة تتلألأ في سماء دامسة، حتى وجدتها أخيرًا تخرج من المرحاض، وكأنها تعيش في عالمٍ آخر لا يعرف شيئًا عما حدث. اقتربت منها أم قمر الدين، واحتدّت نبرتها بحزم، وكأنّها تدقّ ناقوس الخطر، وقالت:
_أم الديب!

أم الديب الجزء الثالث

نظرت أم الديب إليها بتساؤلٍ بريء، وكأنها لا تفهم سبب الانزعاج الذي يسيطر على الموقف، حيث تجلّت في عينيها لمحات من الدهشة. سألت ببراءةٍ مُشوبة بالاستغراب:

_في حاجة ولا إيه يا ست بسملة؟

قالت أم قمر الدين وهي تضغط على أسنانها من الغيظ، وكأن الاحتدام يتصاعد في داخلها كبركان على وشك الانفجار. كانت كلماتها تخرج ببطء، بينما عيناها تومضان بنارٍ مكتومة:

_أنا خلاص خدت القرار، احنا راجعين مصر بكرا.

تجمدت ملامح أم الديب للحظة، مُتلقية صدمة غير مُرتقبة، ثم نظرت إليها بدهشة تتخللها لمحات من عدم الأناة، وتلفظت بكلماتٍ تخرج من بين شفتيها كنسيمٍ حائر:

_انتي مش قولتي بعد بكرا؟

قالت أم قمر الدين وهي تخرج هاتفها المحمول بسرعة، ساعية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لتحجز رحلة العودة بحركات وَشِيكة تظهر اضطرابها:

_غيرت رأيي.

شعرت أم الديب أن هناك شيئًا ما وراء هذا القرار المفاجئ، وكأنها تستشعر ريح التغيير في الأجواء. حاولت استدراجها لمعرفة السبب، فقالت بصوتٍ مفعم بالفضول:

_إيه اللي خلاكي غيرتي رأيك يا ست بسملة؟

أجابت أم قمر الدين بنبرة لا تقبل الجدل، وكأنما كانت تحصن نفسها ضد أي اعتراض:

_متناقشنيش في حاجة يا أم الديب، خلاص أنا خدت القرار ومفيش حاجة هتتغير!

رفعت أم الديب حاجبيها في استغراب، ثم تمتمت بصوت منخفض:

_طب والداكتور؟

ردت أم قمر الدين وهي تتنهد بإحباط، وكأن ثقل العالم برمته قد استقر على كاهلها:

_مستحيل نلحق نعمل كل حاجة في يوم، أنا عندي حل أفضل لو عايزة تعجبي جوزك.

نظرت أم الديب إليها بفضول متصاعد، وكأنّها تفتح بابًا لأفكار جديدة، وسألت بلُطف:

_إيه هو؟

تفوهت أم قمر الدين بابتسامة خفيفة، محاولة تخفيف سخطها المتفاقم، وهي تشير لها أن تتبعها:

_تعالي ورايا.

وبسرعة تحركتا نحو المتاجر المجاورة. دخلتا متجر تجميل فاخر، حيث اشترت أم قمر الدين لأم الديب مجموعة من أدوات التجميل، وشعر مستعار، وأخذتها إلى الصالون من أجل تنظيف بشرتها وتركيب الأظافر الأكريليك. كان المكان مفعمًا برائحة العطور، والمستحضرات الفاخرة، فيما كانت أم الديب تشعر بالإرهاق يسيطر على جسدها، وبعد ساعات طويلة من التحضير، جلسوا أخيرًا في عيادة طبيب الأسنان، بانتظار دورهم، فيما كانت العيادة هادئة إلا من صوت طنين الآلات. تلفظت أم الديب وهي تتحسس وجهها المُنهك:

_آني تعبت أوي أوي يا ست بسملة، ما بقتش قادرة.

ردت أم قمر الدين وهي تفرك جبهتها بإرهاق، وهموم العالم قد تراكمت فوق كتفيها:

أم الديب الجزء الثالث

_أنا كمان تعبت أوي، بس خلاص، آخر حاجة وبعد كده هنرجع الأوتيل لأن بجد؛ اليوم كان صعب جدًا عليا.

نظرت أم الديب إلى الساعة مُتعجبة من طول اليوم، وكأن الوقت قد اختار أن يتباطأ ليزيد من معاناتها، ثم نطقت:

_ده الدنيا ليلت والناس نامت واحنا لسه في الشارع.

قالت أم قمر الدين بابتسامة نصف مرهقة لإيجاد ضوء في نفق مُظلم:

_آخر حاجة خلاص!

بدأت أم الديب تشعر بالاضطراب، فحركت أصابعها بقلق معبرة عن ضياع الأفكار في عقلها، وسألت بارتباك :

_طب هو الداكتور دهو هيعمل إيه؟ آني خايفة أوي.

أجابت أم قمر الدين وهي تهدئها، ساعية لخلق جزيرة من الهدوء في بحر من العواصف:

_متخافيش، هيعملك فينير.

نظرت أم الديب بسَهو، وهي متلقية صدمة غير مُتوقعة، واستفسرت قائلة:

_يعني إيه؟

نطقت أم قمر الدين وهي تضحك بخفة:

_طقم أسنان يعني.

صرخت أم الديب بصوت عالٍ، وملامحها ممتلئة بالخوف كمن يواجه كابوسًا حقيقيًا، وقالت بعويل:

_يا خرابي، هيخلع سناني وهيركبلي غيرهم؟ يا مصيبتك السودة يا أم الديب، جايبينك هناهو علشان يعذبوكي؟ انتي كنتي شغالة مع السفاح اللي بيطلع في أفلام الرعب؟ قولي يمكن مخبية علينا!

تأففت أم قمر الدين بسُخط، مُفصحة عن استيائها من عدم قدرة صديقتها على رؤية النور في الظلام، وأشارت بيدها نحو أم الديب قائلة:

_انتي شبه الاسطوانة اللي مش بتفصل بالظبط، انتي بجد مش بتتعبي من الكلام الكتير؟

قالت أم الديب بتوسل، وهي تلمس أسنانها بخوف فاحصة عن طمأنينة مفقودة:

_والنبي، أحب على إيدك تسيبوا سناني زي ما هي ومتعملوش فيها حاجة، وحياة أغلى حاجة عندك!

نطقت أم قمر الدين بصوت هادئ، كأنها عازمة أن تكون مرساة لأم الديب في عواصفها:

_ومين قال أصلًا إننا هنعمل كده؟ يا حبيبتي افهمي، احنا هناخد مقاسات أسنانك وهنعملك طقم هتلبسيه وتخلعيه وقت ما تحبي.

أطلقت أم الديب زفيرًا طويلًا يجثم على صدرها، وقالت:

_إذا كان كده، ماشي، على بركة الله.

بعد لحظات، جاءت السكرتيرة وأشارت لهما بالدخول. وقفوا قبال الطبيب، وكان الجو زاخرًا بالتوتر. دخلت أم الديب وجلست على الكرسي الطبي، لكنها لم تكن مطمئنة. كلما اقترب الطبيب منها لقياس حجم أسنانها، كانت تغلق فمها على أصابعه بشكل مبالغ فيه، مما أثار تأوهه. حيث قال الطبيب وهو يشعر بالألم:

_Rabid Woman!

أم الديب الجزء الثالث

تلفظت أم الديب بنبرة دفاعية، وهي تمسك بفمها:
_إنت دكتور إنت؟ ده انت طور ولا فاهم حاجة!
نظرت أم قمر الدين إليها بصدمة، وكلمات أم الديب قد أثارت فيها مشاعر لم تكن تتوقعها، وسألت:
_انتي عملتي إيه؟
ردت أم الديب ببراءة مُصطنعة، خافية مخاوفها وراء قناع من اللامبالاة:
_ولا حاجة يا ست بسملة، الدكتور دهو إيده ناشفة أوي، هو فاكر نفسه بيفرط درة؟ دهي سناني، حد يلحقني!
بعد جهد جهيد، حاول الطبيب مجددًا أن يقيس أسنان أم الديب، لكن تصرفاتها كانت غير متوقعة؛ فقد عاودت العض بشدة جعلته ينحدر على الأرض من شدة الألم، بينما انطلقت صرخاته تعبر عن معاناته. في تلك اللحظة، أصاب الذهول أم قمر الدين، التي تحركت بسرعة لتطمئن على الطبيب، ولكن بعدما أدركت أن لا فائدة من المحاولة، أمسكت بيد أم الديب وهرعت بها خارج العيادة، وعندما وصلتا إلى الفندق، كانت أم قمر الدين قد استنزفت تمامًا من تلك الأحداث المُرهقة. دخلت المرحاض لتأخذ حمام سريعًا، بينما ألقت أم الديب بنفسها على السرير أمام التلفاز، تبحث عن شيء تأكله لتخفف من ضيقها. نظرت حولها بتعجب، متسائلة عن مكان الفاكهة التي وعدت بها، وشعرت بالراحة عندما عثرت عليها. كانت تجلس أمام التلفاز، تمضغ بهدوء قطع الفاكهة الشهية التي أخرجتها من الثلاجة، مع الحلويات والمشروبات، بينما أضواء الشاشة تومض في الغرفة المُظلمة. كانت أصوات المسلسل تتردد في الأرجاء، مما منحها شعورًا مُريحًا وسط أجواء الفخامة التي لم تتعود عليها.

استمتعت أم الديب بأجواء الغرفة، وكأنها تغمر نفسها في عالم آخر بعيد عن الصخب. تنهدت برغبة في الاسترخاء، بينما كانت تتذكر حديث أم قمر الدين عن العودة المفاجئة إلى مصر، مما جعلها تتساءل عن ما ينتظرها في الأيام القادمة، حيث كانت تأمل في أن تجد السعادة حتى في هذه الأوقات اللصبة، قائلة:
_أهو نستنفعلنا بأي حاجة قبل ما نسافر، هو احنا لحقنا نقعد هناهو؟ هي الولية دهي مالها متسربعة عاوزة ترجع دارها كدهو ليه؟ هو احنا هنلاقي العيشة دي تاني فين؟ سراير طرية بشكل، ولا الجهاز اللي في الحيطة اللي بيطلع هوا ساقع دهو نسيت اسمه، ولا الأكل والحلويات... بقى آني بعد كل دهو أرجع الدار وأقعد في وش حنفي وأصطبح على خلقة ليالي اللي ما تتسمى؟ دهم يصبروا عليا لما أرجعلهم بس.

في تلك اللحظة، رن هاتف أم الديب فجأة، فالتقطته لتجد أن المتصلة هي ابنتها نعمة. ظهرت على وجهها ابتسامة واسعة وهي ترد على المكالمة، فتتدفق الكلمات من قلبها المشتاق، مُعبرة عن لهفتها لرؤية ابنتها. كان صوت نعمة يأتي من الجهة الأخرى، مفعمًا بالحماس، تسأل عن أحوال الوالدة، مما جعل أم الديب تضحك قليلًا وهي تمد يدها إلى طبق الفاكهة إزاءها، مُستمتعة بتفاصيل حياتها الطارفة. حيث أنها تحدثت بفخر عن حياتها في الفندق، مُبينةً كيف أن السرير مُريح والهواء بارد. كان الفرح يتدفق من حديثها، وهي تتحدث عن الحياة الفاخرة التي تعيشها، بينما تتسلل السعادة إلى قلب نعمة، التي كانت تنتظر بفارغ الصبر عودة والدتها. تأكدت نعمة من قرار والدتها المفاجئ بتغيير الحجز والعودة

أم الديب الجزء الثالث

إلى مصر في اليوم التالي، مما جعلها تشعر بفرحة لا تُوصف. بينما تتلذذ أم الديب بشرب العصير، كانت نعمة تعبر عن فرحتها بألفاظ مُبهجة، مُظهرة حماسها لرؤية والدتها تارة أخرى. بعد المكالمة، أغلقت أم الديب الهاتف وهي تشعر بالارتياح، بينما هرعت نعمة إلى الخارج فرحة، تزغرد بصوت عالٍ، وتدفق حماسها يدفعها للركض عبر السلالم. في تلك الأثناء، كانت ليالي تجلس في شقتها، مشغولة بهاتفها، حين سمعت صدح الزغاريد. استدارت مُتعجبة، مُدركة أن شيئًا ما قد حدث، وسألت زوجها جلال، مُعبرًة عن شكها بموعد زفاف هايدي. في تلك اللحظة، بدأ الفضول يتفشى داخلها، فنهضت مُسرعة نحو نعمة، التي كانت تغمرها السعادة الغامرة، واستفسرت قائلة:

_في إيه يا نعمة؟ فرحيني معاكي!

تفوهت نعمة وهي تكاد لا تستطيع التوقف عن الابتسام، بينما كانت تنزل على درج المنزل بسرعة:

_أمي راجعة بكرا.

تجمدت ملامح ليالي للحظة، وشعرت بشيء من القلق يتسلل إلى قلبها. فتحت عينيها بدهشة وقالت بصوت ساخط:

_يا مصيبتي! إيه اللي هيرجعها دلوقتي بس؟ مش قولتوا لسه قدامها يومين كمان؟

شرعت نعمة في توضيح الموقف بلهجة مفعمة بالتشويق كما لو كانت تروي قصة مثيرة. تحدثت عن قرار والدتها الصاعق بالعودة، وعبّرت عن مشاعر الفرح التي تختلج داخلها، قائلة:

_لا، ما هي الخطة اتغيرت وأمي راجعة بكرا، الحمدلله أخيرًا هشوف أمي، ياه ياما وحشتيني أوي.

شعرت ليالي بالضيق يتسلل إلى نفسها، لكنها أخفت مشاعرها خلف ابتسامة متكلفة، وقالت بصوت كامد:

_أخبار حلوة ما شاء الله، ترجعلكم بالسلامة يا نعمة.

لم تلاحظ نعمة التوتر في صوت ليالي، واستمرت في فرحتها وهي تنادي أختها بصوت عالٍ، قائلة:

_يارب يا ليالي يارب، بت يا هايدي! هايدي!

ركضت نعمة مُسرعة إلى شقة أم الديب لتخبر أختها هايدي بالخبر السار، وهي تنادي قائلة بصوت عالي:

_هايدي!

بينما كان ضي مطبخ ليالي بالأعلى يتتسلل بخجل عبر ستائر غرفة هايدي، شعرت بارتباك غامض وهي تسمع نداء أختها يتردد في الأرجاء. بدت ملامح وجهها متسائلة، وشعورها بالفضول لم يمنحها فرصة للانتظار طويلًا. خرجت بخطى خِطريفة من غرفتها، متجهة نحو الصوت الذي أيقظ فيها شعورًا بأن هناك أمرًا هامًا في الأفق. فقالت بفضول يتملكها وهي ترفع حاجبيها:

_إيه في إيه؟

على بعد خطوات، كانت نعمة تنتظرها بابتسامة غامضة، نظرة عينها مشعة بمَسَرة لم تستطع إخفاءها، وكأنها تحمل مفاجأة لطالما انتظرتها هايدي. نعمة، بصوت مطمئن، أجابت:

_عندي خبر ليكي هيفرحك أوي.

أم الديب الجزء الثالث

توقف قلب هايدي لثوانٍ قبل أن تنطق وكأنها تحاول إيقاف الزمن، خوفًا من أن يتحقق ما في ذهنها. كانت تعلم تمامًا ما يمكن أن يكون هذا الخبر، وعيناها الواسعتان كشفتا عن مزيج من الحذر والفضول. قالت وهي تحاول رسم ابتسامة:

_أوعي تقولي، ماما هتقعد شهر كمان هناك، صح؟

ضحكت نعمة بخفة، وهي تهز رأسها في استنكار، وتبدو وكأنها تتعجب من توقع أختها الذي يبدو غير واقعي بالنسبة لها. ردت نعمة، باستخفاف مع لمحة من العتاب:

_حرام عليكي، هو احنا قادرين على بعادها الكام يوم اللي فاتوا دول علشان تقعد شهر مرة واحدة؟

لكن هايدي لم تتمكن من السيطرة على اضطرابها المتزايد. كان لديها شعور غامض بأن الأمور تسير عكس ما تتمنى، وأن ما ستسمعه الآن لن يكون خبرًا سعيدًا. تفوهت هايدي، بعينين مغمورتين بالترقب:

_لا متقوليش يا نعمة، أوعي يكون اللي في بالي صح!

نظرت نعمة إليها بجدية أكبر، محاولة كسر التوتر السائد بينهما. رفعت صوتها قليلًا وكأنها تعلن خبرًا طال انتظاره، ولكن لم يكن الأمر بالنسبة لهايدي سوى بداية أزمة، وقد أجابت نعمة، بحزم:

_أمك راجعة بكرا يا هايدي.

في مكان آخر من المنزل، كان المعلم حنفي مستلقي على سريره بارتياح نادر، وهو يحاول استجماع أنفاسه بعد أيام من الهدوء الذي غمر المنزل بشُغُور أم الديب. لكن تلك اللحظة لم تدم طويلًا، فبمجرد سماعه كلمات نعمة تتردد في الأرجاء، تساقط من على السرير في حالة من الذعر، وكأن الخبر قد أطاح به من عرشه الهادئ. تفوه المعلم حنفي، بعد أن سقط أرضًا، وتمتم لنفسه بذهول:

_يا ساتر يا رب، يارب أكون بحلم.

تسارعت خطوات نعمة نحو غرفة والدها، لتجده ممددًا على الأرض والغطاء ملتف حوله كأنه كان في معركة شرسة. أسرعت إليه برعب، محاولة رفعه من الأرض، بينما قلبها ينبض بشدة، لا تفهم تمامًا ما الذي أصابه. حيث قالت بصوت متقطع من القلق:

_مالك يا بابا، إيه اللي نزلك على الأرض كده؟

كانت أنفاسه مُتسارعة وهو يحاول رفع يده، مشيرًا إليها لتساعده على النهوض. وجهه الشاحب وملامحه المتعبة أوضحت كم كان هذا الخبر بمثابة صدمة له. حيث رد:

_قوميني يا نعمة!

مدت نعمة يدها بإحسان إليه، وهي تحاول فهم ما يدور في ذهنه، لكنها كانت تعلم أن هناك شيئًا ألهب استياءه. حيث قالت، بإصرار وهي ترفعه من الأرض:

_حاضر يا بابا، سلامتك. مالك في إيه؟

بعدما أعادته إلى السرير، جلسوا معًا في صمت لبرهة، قبل أن ينظر إليها بعينين تحملان أكثر من مجرد استياء، وكأن هناك سرًا كبيرًا يحمله في قلبه منذ زمن طويل. قال المعلم حنفي، بلهجة غير راضية:

_هي مين اللي راجعة بكرا يا نعمة؟

تنهدت نعمة وهي تجيبه بهدوء، محاولة تقليل التوتر بينهما، وقالت، بابتسامة صغيرة:

_أمي.

أم الديب الجزء الثالث

لكن وجهه لم يتغير، بل ازداد عبوسًا. نظر بعيدًا وكأنه يحاول المناص من الحقيقة التي تواجهه. نطق بتذمر واضح:
_أهي دي الأخبار اللي تغم وتقفل الواحد. إيه اللي هيرجعها بس؟ ما كان زمانها متنيلة هناك شهرين تلاتة. هو احنا لحقنا نرتاح منها؟

ارتسمت الحيرة على وجه نعمة، غير قادرة على استيعاب لماذا يواجه والدها كل هذا الاعتراض على عودة والدتها؟. اقتربت منه أكثر، محاولِة فهم ما يزعجه بهذا القدر، لكنها لم تحظ بردٍ يشفي فضولها. كان المعلم حنفي حنفي قد أدار وجهه عنها بإشارة صامتة، معبرًا عن رفضه لمزيد من النقاش، متمنيًا لو أن الأيام تعود للخلف قليلًا ليحتفظ بتلك اللحظات الهادئة التي عاشها مؤخرًا.

عبرت نبرة صوت المعلم حنفي عن الإرهاق، وكأن هموم الحياة قد أثقلت كاهله. انبعثت منه كلمات يملؤها الإحباط، تصف حالته المشتتة بين ماضيه وحاضره، بينما كانت نعمة تنظر إليه بقلق. كانت مشاعر والدها المتناقضة تثير حيرتها، إذ يبدو أنها لا تفهم هذا الاضطراب الذي يسيطر على العائلة في كل مرة تحدث فيها عن عودة والدتها. رفعت حاجبيها بتعجب، محاولة فك شفرة تلك الأحاسيس المعقدة التي تعبر وجهه، وقالت:
_مش فاهمة مالكم بيركبكم مية عفريت ليه لما بتعرفوا إنها راجعة؟ طب والله دي زي البلسم، حبيبتي ياما.

مع كل هذا الجدل، كان هناك شعور مشترك بين الجميع، أن الغد سيحمل تغييرات كثيرة، بعضها متوقع، والبعض الآخر قد يفاجئهم جميعًا. في إحدى الليالي الحارة داخل غرفة الفندق يتصاعد منها برودة المكيف، كانت أم قمر الدين قد خرجت لتوها من المرحاض، بينما رائحة البخار ما زالت تملأ الأجواء. شعرها المبلل يتساقط على كتفيها وهي تلف نفسها بمنشفة ناعمة. بخطوات هادئة توجهت نحو الغرفة لتجد أم الديب جالسة على السرير، وقد حولته إلى مائدة فوضوية مليئة بأطباق الطعام، والعلب المفتوحة التي تبدو وكأنها خرجت للتو من حرب مع يدها المتلهفة. كان الأكل يتساقط من يديها على الأرض بلا اهتمام، وكأن المكان لا يعنيها. نظرت أم قمر الدين إلى المشهد بحسرة، وتملكها شعور بعدم الارتياح. كانت تراقب بصمت للحظات، محاولِة أن تسيطر على رغبتها في التوبيخ. وأخيرًا، لم تستطع الصمت أكثر. فتحت فمها مترددة، ثم قالت بنبرة تحمل بعض اللطف، لكن بامتعاض مكتوم:
_بليز، ممكن مترميش على الأرض؟

رفعت أم الديب عينيها بكسل، وكأنها تتساءل لماذا كل هذا الانزعاج. نظرت إلى بقايا الطعام المبعثرة حولها ثم عادت لتنظر إلى أم قمر الدين بنظرة ساخرة وكأن الموقف لا يعنيها أبدًا، وقالت بلا اكتراث:
_ليه؟ هو انتي اللي هتنضفي ولا إيه يا ست بسملة؟
شعرت أم قمر الدين بوخزة في قلبها عند سماع تلك الكلمات. لم تكن من النوع الذي يحب الفوضى، وكانت تؤمن بأن النظافة جزء أساسي من الحياة اليومية. أجابت بصوت مشوب بالاستياء ولكنها ما زالت تحاول أن تكون دبلوماسية، وقد نطقت بعتاب راقي:

أم الديب الجزء الثالث

_لا طبعًا مستحيل، بس يا حبيبتي دي قذارة، سوري يعني، مفيش حد نضيف بيعمل كده. في حاجة اسمها باسكت!

لكن أم الديب، التي لم تكن يومًا من محبي القواعد الصارمة، رفعت كتفيها بلا مبالاة، واستمرت في تناول طعامها وكأن شيئًا لم يحدث، وتلفظت، بابتسامة ساخرة:
_احنا عندنا بنرمي على الأرض وبعدين نبقى نلمه تاني، بلاش تكبري المواضيع يا ست بسملة.
كان الصبر على وشك النفاد لدى أم قمر الدين. لم تستطع تحمل الفوضى أكثر من ذلك، وشعرت أن سمعتها على المحك أمام نفسها على الأقل. توقفت عن لف المنشفة حول شعرها ونظرت إلى أم الديب بنظرة صارمة تحمل في طياتها الكثير من الاستياء، وقالت، بحدة غير معتادة منها:
_انتي كده هتخلي شكلي وحش بسببك، لمي كل اللي على الأرض ده دلوقتي حالًا!

لم تكن أم الديب تتوقع هذا الانفجار، حيث توقفت عن الأكل للحظة، ثم رفعت عينيها بدهشة. ولكن، لم تكن في مزاج للمزيد من الجدال، فقررت إنهاء النقاش بطريقة لا تثير مزيدًا من البلبلة. قالت، بتململ وهي تنحني لتلتقط ما رمي على الأرض:
_خلاص يا ست بسملة، متحرقيش في دمك، هنلمهولك أهو.

بينما كانت أم الديب تجمع بقايا الطعام المتناثرة على الأرض، التفتت أم قمر الدين نحو المرآة الكبيرة في الغرفة، وبدأت تجفف شعرها باستخدام السشوار. ملأ صوت السشوار أجواء الغرفة، بينما كانت أم الديب تنظر إليها بحيرة، محاولًة استيعاب سبب اهتمامها بمظهرها في هذا الوقت المتأخر من الليل. أطفأت أم قمر الدين السشوار للحظة، ونظرت إلى أم الديب بنظرة متسائلة، في حين كانت الأخيرة تزرع الشك في قلبها بسؤالها، ومع كل محاولة لتوضيح نفسها، كانت أم الديب تواصل النظر إليها بتلك النظرة المشبوهة، متعجبة من اهتمامها بالمظاهر. تنهدت أم قمر الدين بعمق، كأنما تسعى لشرح أمر بديهي. لكن قبل أن تتمكن من مواصلة حديثها، قاطعتها أم قمر الدين، وكأنها تستشعر محاولات أم الديب للتمسك بتفاصيل الحياة اليومية. في لحظة، قررت أم الديب أن تكتفي بابتسامة صغيرة، معترفة بهزيمتها في تلك النقاشات المتكررة. ساد الهدوء في الغرفة، وكل واحدة منهما انغمست في عالمها الخاص، لكن كان واضحًا أن هذا الهدوء لا يعني انتهاء الاختلافات التي تغمر حياتهما المشتركة، بل كان بمثابة استراحة مؤقتة قبل أن تعود تلك الاختلافات لتطفو على السطح من جديد.

يتبع.....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل التاسع

في اليوم التالي، استيقظت نعمة مبكرًا بعد ليلة هادئة نسبيًا، وهي تتطلع بشوق إلى لقاء عائلتها. بسرعةٍ ارتدت ملابسها، وأيقظت زوجها وابنها الصغير، بينما كانت الشمس تسطع في السماء بنعومة تلامس بداية اليوم الجديد. بعد أن تأكدت من استعداد الجميع، خرجوا جميعًا من الشقة متوجهين إلى شقة ليالي وجلال، حيث كان المشهد حولهم مفعمًا بحيوية الصباح المبكر. قالت نعمة:

_صباح الخير يا ليالي.

ابتسمت ليالي وهي تفتح الباب، حيث كان الهدوء يغمر المنزل رغم أن يومهم سيبدأ بانشغال لا يخلو من الضيق، وقالت:

=صباح النور يا نعمة، تعالوا أدخلوا.

دخلت العائلة إلى المنزل ببطء، وهم يتبادلون نظرات الترقب. حامد، الذي كان دائمًا يتسم بالاهتمام، لاحظ غياب جلال عن الحضور. تلفظ:

_جلال مش هيجي معانا ولا إيه؟

ردت ليالي وهي تحاول إخفاء القلق الذي يظهر في نبرة صوتها:

=لا مش جاي، مانت عارف إنه تعبان.

شعر حامد بلمحة من الاستياء، لكنه لم يرغب في إثقال الجو بهذه المشاعر. ابتسم بحنان وقال:

_سلامته ألف سلامة، عامل إيه يا جلال؟

ابتعد عنهم قليلًا ودخل ليطمئن على جلال في الغرفة المجاورة، بينما بقت نعمة مع ليالي التي بدت منشغلة قليلًا قائلة بدهشة:

=انتي ملبستيش ليه؟

ردت ليالي بنبرة ملؤها الاعتذار، وهي تسرع نحو الداخل كأنها تلاحق ظل الوقت الهارب:

_هلبس أهو.

تفوهت نعمة بلهفة مستعجلة، وهي تجلس على الأريكة وكأنها تحمل على كاهلها وِقر كلماتها:

=طب خُشي أنا مستنياكي.

تسللت ليالي إلى الغرفة واستخرجت ثيابها من الخزانة لتبدأ ارتداء العباءة لكن في هذه الأثناء، كان أحمد وجميلة مستعدان للذهاب إلى المطار، ينتظرون بفارغ الصبر لحظة استقبال أم الديب وأم قمر الدين. الجو كان مليئًا بالتوقعات، إذ أن هذا اللقاء سيجمع جميع أفراد العائلة. كانوا يعرفون أن الرحلة الطويلة ستنتهي بلقاء عزيز على قلوبهم، فقد كان كل منهم ينتظر بشغف رؤية أحبائه. قالت جميلة باشتياق:

_مامي وحشتني أوي.

ابتسم أحمد بمودة، متفهمًا شوقها الذي يتأجج في عينيها، لكنه كان يتطلع بلهفة لتلك اللحظة التي ستجمعهم مرة أخرى، وقال:

=طنط وحشتنا كلنا، بس خلاص أهو كلها ساعات ونشوفهم.

أم الديب الجزء الثالث

بينما كانت ابنتهما سيليا تجلس بفضول، نظرت إلى والدتها مُتسائلة عن موعد وصول جدتها:
_نانا بسمة ونانا بسملة هيرجعوا امتى يا مامي؟
ابتسمت جميلة بدُعابة، مُشعة بحنانها، وهي تلمس وجه ابنتها برفق، وقالت:
=كمان شوية يا حبيبتي، خالتو سامية بتتصل أهو .
بينما كانت جميلة تتحدث مع سامية على الهاتف، استقبلت المكالمة بابتسامة هادئة، فيما كان أحمد يتفقد الشوارع بعين مليئة بالترقب. كانت الأجواء حولهم تمتلئ بالحركة والنشاط، إذ أن اليوم كان مغمورًا بالتحضيرات. وضعت جميلة الهاتف على أذنها وهي تحاول أن تستبق الأمور برؤية التفاصيل، لتتحدث بصوتٍ معتاد. حيث قالت:
=ألو يا سامية.
على الطرف الآخر من الخط، كانت سامية تقود سيارتها بحذر بين زحام السيارات، فيما جلس والدها بجانبها بصمتٍ تام، ووجهه يعكس مَشيجًا من الوقار، والهدوء. كانت سامية تقود بحذر لكن مشاعرها كانت مُتضاربة بين القلق، والعجلة، وقد قالت:
_احنا في الطريق وبابا معانا، مرضاش يروح بعربيته وجه معانا... احنا قربنا من المطار، انتوا فين؟
أجابت جميلة بسرعة، وعينيها تلمحان أحمد بلهفة:
=احنا لسه متحركين، إن شاء الله مش هناخد وقت.
ردت سامية بتركيز قَصِيّ، مُستغرقة في قيادتها للسيارة، وكأن كل تفصيل في الطريق يستدعي انتباهها:
_أوكي يا حبيبتي، نتقابل هناك.

تلفظت جميلة برقة:
=أوكي يا روحي.
في تلك الأثناء، كان المشهد مختلفًا تمامًا عند هايدي والمعلم حنفي. الجو في منزلهم كان طافحًا بالبَلِيَّة، بينما كانت هايدي تتنفس بضيق وتتفوه بكلمات حانقة، تتأرجح بين الشكوى، واليأس. كانت تجلس في الصالة، وقد غمرها شعور بالاختناق، وكأن كل شيء حولها أصبح ثقيلًا على صدرها. حيث قالت بانزعاج:
_أنا مش طايقة نفسي بجد، أوف.
قال المعلم حنفي، الذي كان دائمًا يحاول التخفيف من وقع الأمور بروح فكاهية رغم سنّه المتقدم، جلس بجانبها وهو يحرك رأسه باستسلام:
=أختك جاية إمبارح بالخبر اللي يغم، مكنتش تيجيلنا بخبر حلو بدل الأخبار المهببة دي؟

رفعت هايدي حاجبيها بتخييب وهي تشعر بأن الأمور خرجت عن سيطرتها، وقالت:
_مش عارفة، لأ وبتحسسني إن أنا اللي وحشة وفيا عيوب الدنيا كلها علشان مش مبسوطة برجوعها، أعمل إيه طيب؟ ما هي مخلية عيشتنا سواد، يبقى هفرح ليه؟
تلفظ المعلم حنفي، وهو يضع يده على كتفها بحنان:
=مفيش قدامنا غير إننا نعتبر إنها مسافرتش من أصله، وإلا هنفضل ناكل في نفسنا لحد ما نطب ساكتين، وآني راجل عجوز وصحتي على قدي.

أم الديب الجزء الثالث

ردت هايدي، رغم كل ضيقها، لم تستطع إلا أن تظهر بعض الحدب تجاه والدها، وردت بنبرة مشفقة:
_لا يا بابا ربنا يديك الصحة.
قال المعلم حنفي بامتعاض:
=يارب ياختي.
وبينما كانا يتحدثان، سُمعت طرقات على الباب. تقدمت هايدي نحو الباب بخطى متثاقلة وفتحته لترى نعمة واقفة بانتظارهم، مفعمة بالحيوية والاستعداد مع أسرتها فقد كانت مرتدية عباءتها هي الأخرى، مع لمسات الروج الأحمر الخفيف، فقالت هايدي باستغراب:
_في إيه؟
أجابت نعمة باستعداد، عازمة على مواجهة ما ينتظرها بروح متقدة:
=يلا احنا جهزنا.
قال المعلم حنفي، وهو ينهض بصعوبة استعدادًا للتحرك، تمتم بكلمات تعكس ثقله الداخلي، وحيرته تجاه اليوم:
_يلا ياختي منك ليها، ربنا يستر علينا، ماهو يوم باين من أوله.
في تلك اللحظة، ليالي التي كانت تقف بجانب نعمة، لم تستطع إلا أن تشارك في الحديث بنبرة موافقة تمامًا على ما قاله حماها:
=أه والله يا حمايا، عندك حق.
بعد لحظات، نزل الجميع نحو السيارة "التمناية" التي كان المعلم حنفي هو من يقودها، وهو يشعر أن كل خطوة تشكل عبئًا أكبر. أما جلال، فقد بقي في المنزل وحده، إذ لم يكن قادرًا على المشاركة في هذا اليوم المكدس بالأحداث، وفي أثناء ركوبهم السيارة، رن هاتف ليالي، وكانت المكالمة من أختها هبة. حيث رفعت ليالي الهاتف بسرعة وأجابت بنبرة ودودة، على الرغم من الضيق الذي كان يتسلل إلى وجدانها، وقالت:
_ألو يا هبة ياختي.

على الطرف الآخر، ردت هبة بلهجة ساخرة، وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة لتفصح عن كل ما بداخلها:
=الحرباية رجعت ولا لسه؟
خفضت ليالي صوتها وهي تنظر إلى حماها الذي بدا وكأنه يتنصت بغير قصد، وردت بهدوء عارم:
_لسه أدينا رايحين نجيبها، ده حمايا يا عيني مش طايق نفسه، وكأنه جاي معانا متغصب.
كانت هبة تدرك تمامًا مشاعر أختها، وحماها، فردت بنبرة خفيفة تنبض بالتفهم، وتعكس إدراكها للوضع:
=عنده حق، ده ربنا يعينكم عليها لما ترجع.

أطلقت ليالي تنهيدة خفيفة، ثم قالت بنبرة متعبة:
_أُسكتي ياختي والنبي متفكرنيش!
تنهد المعلم حنفي وهو ينظر للطريق، ويقول بحسرة بينما كان يقود السيارة:

أم الديب الجزء الثالث

_يا مُعين أعينا.

كان حامد يجلس بهدوء بجانبهم، نظر إلى ليالي بابتسامة تحمل مزيجًا من السخرية والتوقع لما سيحدث عندما تعود أم الديب إلى حياتهم، وكأن تلك العودة ستقلب الأمور رأسًا على عقب. قال بلهجة مازحة ولكنها تحمل نوعًا من الشماتة الخفية:

_ترجعيلنا بألف سلامة يا حماتي.

تلفظت نعمة، التي كانت تستشعر قلقًا داخليًا تجاه هذا اليوم، تمتمت بدعاء سريع وهي تحاول كتم مشاعرها:

_يارب.

كانت ليالي تراقب الأجواء من بعيد بنظرات مليئة بالتحفظ، حيث همست بصوتٍ منخفض في الهاتف، وكأنها لا ترغب في أن يسمعها الآخرون:

=نعمة هتموت على أمها، مش عارفة هي عقلها فين؟

قالت هبة، التي كانت تتبع الحوار عن بُعد عبر الهاتف، لم تستطع إلا أن تشارك بنبرة توافقها فيها:

_أديكي قولتي أمها، يعني لازم تكون في صفها دايمًا.

ردت ليالي بتنهيدة مُحبطة، وكأنها تشعر بأنها مجبرة على التعايش مع الواقع الذي لا تستطيع تغييره:

=على رأيك يا هبة ياختي، بس الصراحة مش طايقة أشوف خلقتها قدامي، بس هعمل إيه؟ مضطرة.

مرت أربع ساعات طويلة في الطريق، حيث كانوا جميعًا محصورين بين الحديث المترقب الذي كان يخيم على الجميع. أخيرًا وصلوا إلى المطار، نزلوا من السيارة بخطوات متثاقلة، وكأنهم يحملون ثقلًا معنويًا على أكتافهم. عندما دخلوا إلى المطار، كان هناك مشهد مألوف ينتظرهم؛ كل أبناء أم قمر الدين موجودين بانتظار وصولها. تلفظت ليالي، التي لم تستطع مقاومة حس السخرية بداخلها، ناظرة إلى الجميع بتهكم:

_السنيورة واقفة هناك مع أخواتها، ماهو طبعًا جاية علشان أمها مش علشان حماتها.

قالت نعمة، التي كانت دائمًا تحاول تلطيف الأجواء، لم تتمالك نفسها من التعليق بنبرة توبيخية خفيفة:

=والنبي ما تقولي كده يا ليالي، دي مهما كان سلفتك.

ردت ليالي بسرعة، مسددةً جهودها لإبعاد التهمة عن نفسها، وكأنها تسعى لإضاءة مسار الحقيقة:

_وأنا كنت اتكلمت ولا فتحت بوقي يا نعمة؟

بينما كان الجميع منشغلًا بانتظار اللحظة الكبيرة، وصلت هايدي عند أحمد وجميلة، وكانت أول ما فعلته هو أن هرعت لتحضن جميلة بلهفة واضحة، وقالت:

_وحشاني أوي.

لم تكن جميلة قد التقت بها منذ فترة طويلة، فردت عليها بنفس المشاعر، تحتضنها بحرارة تعكس شوقًا متجذرًا في القلب:

=وانتي أكتر يا هايدي، طمنيني عليكي؟

ردت هايدي، بابتسامة هادئة تعكس حالها المستقر:

أم الديب الجزء الثالث

_الحمدلله بخير، ازيك يا حبيبي عامل إيه؟
بعدما انتهت من حضن جميلة، تقدمت لتحضن أخاها أحمد، وتبادلت التحية مع أخوات جميلة، حيث كان اللقاء مشبعًا بالتحيات الروتينية، فسألت:
_ازيك يا سامية؟
لكن غرور سامية كان يحول دون تقديم الإجابة الملائمة، تلك ابنة الأثرياء التي لطالما وضعت لنفسها منزلة خاصة فوق الآخرين، قالت برد مختصر، دون أن ترتسم على وجهها حتى ابتسامة طفيفة، وكأن الكلمات تخرج منها ببرود محكوم:
=تمام.
أما ليالي لم تفوت فرصة توجيه تعليق لاذع، فتمتمت لنفسها بتهكم، وهي تراقب سامية من بعيد، قائلة:
_يا باي على تُقل دم أختها الكبيرة، كتلة غرور وتناكة ماشية على الأرض.
كانت نعمة تحاول دائمًا التماس الأعذار للجميع، فردت عليها بواقعية مبررة سلوك سامية، وكأنها تسعى لإضاءة جوانب إنسانية في شخصيتها المعقدة:
=حقها، مش مذيعة كبيرة وليها جمهورها؟ ده غير إنها بنت أكبر رجل أعمال في البلد.
ردت ليالي، دون أن تظهر أي تغيير في موقفها، بجفاف كأنها تحيط نفسها بجدار من الكبرياء:
_على نفسها مش علينا يا حبيبتي.
مع مرور الوقت، تجمع الجميع في مكان تجمع جميلة وإخوتها، حيث كانت ليالي تشعر بأن مجرد النظر إلى جميلة عبء ثقيل على كاهلها، فاختارت عدم الاقتراب منها، واكتفت بالإشارة لها من بعيد بابتسامة خبيثة تنم عن مشاعر الكراهية، وكأنها تفضل البقاء على مسافة آمنة. ثم قالت:
_يا أهلًا يا جميلة، عاملة إيه ياختي؟

ردت جميلة بلُطف، رغم شعورها بأن هناك شيئًا مكنونًا خلف كلمات ليالي، كما لو كانت تتنبه لظلال الغموض الذي يلوح في الأفق:
=الحمدلله، انتي أخبارك إيه؟
أجابت ليالي بدهاء، وكأنها تُخبئ في عينيها أسرارًا تتراقص بين الظلال، قائلة:
_كويسة.
في تلك اللحظة، كان المعلم حنفي يتفحص الساعة بتأنٍ، يهز رأسه بخفة كأنما يحاول استيعاب مرور الزمن الطويل الذي انقضى في كابوس الانتظار، فتوجه إلى أحمد بكلمات مشوبة بالاختناق النفسي:
_أمك زمانها وصلت.
تأرجح أحمد بين مشاعر الحنين والندم، نطق بكلمات ثقيلة، كأنها أحجار مرصوصة على قلبه، قائلًا بصوت يعبّر عن مدى ما يختلج في صدره:
=أيوه، ده خلاص أهو تلاقي الطيارة وصلت، بس بجد أنا بندم كل ما بكلمها.
انفجرت ضحكة المعلم حنفي المريرة، كأنها صدى لمآسي الروح، حيث بدت كلماته كأنها مرآة تعكس مشاعر الجميع، ثم قال ببغضاء تفصح عن عنف داخلي:
_مش انت لوحدك ياض، كلنا بنضرب نفسنا مية فردة شبشب كل ما نكلمها، ولية لسانها عايز قطعه.
نطق أحمد، الذي يجاهد للحفاظ على شعلة الأمل تتألق في داخله، بكلمات تحمل عبق التفاؤل في طياتها:

=ربنا يهديها يا بابا.
رغم تهكم المعلم حنفي المعتاد الذي يميز حديثه، رد بنبرة صادقة تنبع من عمق قلبه:
_يارب ياخويا.
في تلك الزاوية المخصصة للانتظار، كان باسم يقف بجوار ابنه قمر الدين، وكأنهما على أحر من الجمر، ينتظران عودة بسملة، أم قمر الدين، تلك المرأة التي تشبه قطعة الحلوى، تضفي على حياتهما حلاوة تنزع الآلام وتشفي الجراح وكأنها مرهم سحري يعيد الحياة إلى النفوس. كانت اللحظات تمر ببطء عارم على باسم، الذي كان يتوق لرؤية زوجته، لتلك القلوب التي تقوى بوجودها بجانبهم. بعبارة متقطعة، وكأن الصبابة أثقلت لسانه، توجه باسم إلى ابنه قائلًا:
=بسملة وحشتني جدًا، متعودتش أنام لواحدي!
ابتسم قمر الدين وهو ينظر إلى والده بحنو، ثم ضحك ضحكة طفيفة ليخفف من وطأة الشوق، وقال:
_ليه بتخاف تنام لواحدك ولا إيه؟
ضحك باسم بدوره، لكنه سرعان ما أضاف بجدية، وهو يحاول أن يخفي مشاعره الجياشة خلف هذا المزاح، قائل:
=عيب عليك يا قمر الدين، بجد أنا مفتقد والدتك، أتمنى أشوفها في أقرب وقت.
هز قمر الدين رأسه بتفاؤل وكأنه يحاول طمأنة قلب والده المتلهف، وتلفظ بحب:
_هتشوفها يا حبيبي، ماما هترجع لحضننا من تاني.
ابتسم باسم ابتسامة مشبعة بإيمان كبير، كما لو أن روحًا جديدة قد بعثت فيه، مؤكدًا أن اللقاء بات وشيكًا، ثم قال:
=على خير إن شاء الله.

في تلك الأثناء، وعلى الجانب الآخر من المطار، كانت هايدي وجميلة تتحدثان وتترقبان وصول أم الديب وأم قمر الدين. فجأة، اقترب علاء الدين من بعيد، كانت خطواته مثقلة بالمشاعر، ولمح هايدي من مسافة، لكنها كانت برفقة زياد، خطيبها الجديد. ما إن رأى علاء الدين خطيبها حتى قرر أن يدير وجهه إلى الجهة الأخرى، متجنبًا المواجهة. هايدي لاحظته بالطبع، لكنها اختارت أن ترفع رأسها بفخر أمام زياد، محاولة إظهار قوة موقفها. قال زياد، الذي كان يتابع نظرات هايدي نحو علاء الدين، بنبرة هادئة:
_مرات عمي جات ولا لسه؟

ردت هايدي باختصار، مفعمة بالعزم، محاولةً إخفاء أي انطباع قد يشير إلى توترها:
=تقريبًا وصلوا.
في تلك اللحظة، كانت سامية تعاني من إحساس مرير بأن الوقت يمر ببطء، كأن عقارب الساعة تتعمد إبطاء دقاتها، فألقت نظرة سريعة على الحشد المتنامي، ثم توجهت نحو جميلة بلهفة تكاد تُحس بها، وقالت:
_جميلة، في ناس جات، أكيد ماما وصلت!
كانت جميلة تراقب الموقف بعينين متقدتين، وردت بنبرة تحمل في طياتها الكثير من التوقعات:
=أيوه فعلًا.

أم الديب الجزء الثالث

بينما كانت نرمين تقف بجوارهم كأنها عصفورة محبوسة، شعرت بمزيج متشابك من التوتر والسرور، فتمتمت دعاءً قصيرًا ينساب من شفتيها كهمسات نسيم رقيق:

_يارب خير!

استمر الحشد في التحرك على مدار ربع ساعة، وكان الجميع مترقبون لحظة وصول أم الديب وأم قمر الدين. فجأة، ظهر وجه مألوف وسط الحشود، إنها أم قمر الدين! في اللحظة التي أدرك فيها أبناؤها ذلك، اندفعوا نحوها، وكأنهم كانوا يعانون من غيابها طويلًا، يهرعون إليها بقلوب مليئة بالحنين. سامية، التي كانت أول من وصل إليها، ألقت بنفسها في حضن والدتها، ودموع الفرح تلمع في عينيها، قائلة:

=وحشتيني أوي يا ماما، عاملة إيه؟ طمنيني عليكي!

ضمتها أم قمر الدين بقوة، كأنها تسعى لتعويض كل لحظة غياب سابقة، واحتضنتها بحنان يفيض كأمواج البحر، قائلة:

_وانتي كمان يا حياتي، كلكم وحشتوني أوي!

بعدها، تقدمت نرمين بخطوات مُتسارعة، وكأن قلبها يدفعها نحو الفرح، وانخرطت في حضن والدتها أيضًا، لم تصدق أن تلك اللحظة قد جاءت أخيرًا، فاستجمعت شجاعتها، ونطقت بعبارات من السعادة:

=حمدالله على السلامة يا مامي، أنا مش مصدقة إنك رجعتيلنا بألف سلامة.

ابتسمت أم قمر الدين برضا، كأنها تلامس السلام الداخلي بعد طول غياب، فشعرت بأن قلبها قد استعاد عافيته، ثم قالت:

_رجعت وسطكم تاني يا روح قلبي.

ثم جاءت جميلة، التي طالما كانت ترتقب هذه اللحظة بشغف، وضمت والدتها بحرارة، وكأنها تتمنى أن تعوض كل لحظة فراق، قائلة باشتياق:

_حمدالله على السلامة يا مامي.

ردت أم قمر الدين وهي تحتضنها برفق، وكأنها تحتضن جزءًا من قلبها الذي اشتاق إلى هذا الشعور:

=الله يسلمك يا جميلة يا حبيبتي.

بعدها جاء قمر الدين، الذي كان مشبعًا بمشاعر نائية تجاه والدته، وقال لها معاتبًا بمزيج من الحب والشوق:

_كل دي غيبة؟ مش حرام تبعدي عننا؟

ضحكت أم قمر الدين بفرح وهي تضمه، كأن ضحكتها تجسد كل معاني الألفة، قائلة بحنان الأم:

=خلاص يا حبيبي، أنا معاكم أهو.

أخيرًا، اقترب علاء الدين بخطوات عُثُلة، وكأن عبء العالم يثقل كاهله، وألقى بنفسه في حضن والدته، متوسلًا إلى تلك اللحظة التي تمثل كل ما كان يحتاجه، كأنها الملاذ الآمن الذي طال انتظاره، قائلًا:

_وحشتيني يا.Mom

ضمته أم قمر الدين بحدب، كأنها تحاول أن تمحو كل الآلام التي مر بها، ثم قالت:

=وانت كمان يا علاء الدين.

أم الديب الجزء الثالث

كان باسم يقف على مسافة قريبة، يراقب أبنائه واحدًا تلو الآخر وهم يعانقون أمهم بشوق كبير، وكأن كل عناق يحمل في طياته ذكريات الفراق وآلام الغياب، لكنه كان يتلهف بشغف إلى اللحظة التي يستطيع فيها هو أيضًا أن يلقي بأشواقه المتناثرة بين ذراعيها الدافئتين، مستشعرًا في قلبه نبض الفرح الذي يتجدد مع كل همسة من الهمسات العائلية، وحين اقتربت تلك اللحظة السعيدة، ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه، قائلًا بلهجة مرحة تتناغم مع فرحة اللقاء:

_دوري أنا كمان، أنا سايبكم تعملوا اللي انتوا عايزينه كله، لو سمحتوا محدش له دعوة بيا، تعالي يا بسملة!

ابتسمت أم قمر الدين وهي تحتضنه بحنان كبير، كأنها كانت تنتظر تلك اللحظة بقدر ما كان ينتظرها، وقالت:

=عامل إيه يا باسم طمني عليك؟

رد باسم وهو يحتضنها باشتداد، وكأن هذا العناق يجمع في طياته كل ما مر به من شوق، وحنين، كأن الزمن قد توقف للحظة ليعيد له ذكريات الفراق، والانتظار، ثم قال بصوت يفيض بالمشاعر:

_بخير يا بسملة، حمدالله على السلامة.

ابتسمت أم قمر الدين برضا، وصوت باسم يعيد لها الراحة التي افتقدتها كأنها تلامس نسيمًا عليلًا بعد عاصفة، ثم قالت بصوت يحمل في طياته حبًا عميقًا:

=الله يسلمك.

في تلك اللحظة، انفجرت منى بالانتحاب، كأن كل الدموع المحتبسة قد وجدت أخيرًا طريقها للخروج، ولم تستطع أن تكتم مشاعرها أكثر، فاختلج صوتها المتهدج بين أنفاسها المرتجفة، وقالت:

_غيبتي علينا كتير أوي يا مامي.

أم قمر الدين، بحنان الأم الذي لا يعرف حدودًا، ضمت منى إلى صدرها محاولة تهدئتها، كأنها تريد أن تمسح كل آلامها بلمسة دافئة، ثم قالت:

=لا يا روحي، أنا معاكم أهو متزعلوش، خلاص بجد هعيط!

ابتسم أحمد وهو يقترب منها بخطوات مفعمة بالمشاعر، عاقدًا العزم على التعبير عن اشتياقه بطريقة هادئة، قائلًا:

_حمدالله على السلامة يا طنط.

ردت عليه أم قمر الدين بابتسامة دافئة:

=الله يسلمك.

أما هايدي فقد اقتربت هي الأخرى، تحاول جاهدة أن تخفي توترها الذي يكاد ينكشف في ملامح وجهها، قائلة بخجل يلون كلماتها:

_نورتي مصر من تاني يا طنط.

نظرت أم قمر الدين إليها بمحبة، وكأن قلبها ينضح بفيض من العاطفة، ثم أجابت بحماس يضفي على كلماتها لمسة من الحياة:

=منورة بيكي يا روحي .

وأردفت لنعمة باهتمام، ساعية لتجديد المعرفة في قلبها:

أم الديب الجزء الثالث

_هاي يا نعمة، ازيك؟
نظرت نعمة نحوها بابتسامة كبيرة، معبرة عن كل الفرح الذي يعتمل في صدرها، ثم قالت:
=الحمدلله يا ست بسملة، أمال أمي فين؟
سأل أحمد بدوره وهو يلتفت حوله، وكأن الحيرة بدأت تتسلل إلى عقله كظلال الليل، قائلًا:
_آه صحيح، ماما فين؟
بينما كانوا يلتفتون يمنة ويسرة في محاولة للعثور على أم الديب، لمحوا من بعيد شخصًا قادمًا، وكانت هي، لكن مظهرها كان مختلفًا تمامًا عما اعتادوا عليه، حيث كانت ترتدي باروكة شعر غير طبيعية تعكس ألوانًا زاهية تتألق تحت ضوء الشمس، ومكياج صارخ يغطي وجهها بظلال جريئة وألوان متضاربة، مع أظافر طويلة اصطناعية ترسم أشكالًا غير تقليدية، وحذاء بكعب عالٍ يبدو أنه يعيق خطواتها، لدرجة أنها لم تستطع السير به بشكل طبيعي، بل كانت تمضغ علكة بلا مبالاة، متمايلة بخطواتها كأنها على خشبة المسرح، ثم نظرت إليهم بترقب، تنتظر ردود الأفعال التي قد تعكس صدمتهم، قائلة:
_ازيكوا يا ولاد؟
وقفت نعمة مشدوهة، وكأنها لم تصدق عينيها، فازدادت دهشتها مع كل خطوة تخطوها تلك الشخصية الغريبة، وهمست بدهشة تعكس ما يجول في خاطرها، وسألت:
_مين دي؟
حتى هايدي لم تستطع كتم دهشتها، فاجتاحت ملامحها استغراب شديد، وارتفعت نبرة صوتها، مما جعلها تسأل بصوت مرتفع يكاد يتردد في الأفق:
_مين دي؟

ابتسمت أم قمر الدين بخجل، ساعية إلى تلطيف الصدمة التي اجتاحت الأجواء، وقالت بنبرة معتادة تحمل لمسة من الموضة:
=مامتكم!
لكن الصدمة لم تفارق وجه نعمة، فقد كانت تراقب والدتها وكأنها ترى شخصًا غريبًا، في حين اقتربت أم الديب بخطواتها المتمايلة، مليئة بالسخرية. سحبت نعمة بقوة إلى صدرها، وهي تحتضنها بحب، بينما كانت نعمة لا تزال في حالة من الذهول التام، تتأمل التغييرات الجذرية التي طرأت على مظهر والدتها. بينما كانت نعمة تحتضن أمها، كانت كلماتها تخرج بصوت متقطع، محملة بمشاعر الدهشة. ضحكت أم الديب، مظهرةً ابتسامة مليئة بالخداع، تجسد روح المُراهقة المتجددة في قلبها، بينما كانت نظراتها تحمل شيئًا من التألق. كانت المعلم حنفي يقف على مسافة قصيرة، يراقب هذا المشهد الذي أذهله تمامًا، مشاعر الاشمئزاز تتدفق في عروقه، إذ لم يستطع إخفاء استيائه من تحول أم الديب، التي أصبحت بالنسبة له بهلوانة غير ملائمة لعمرها أو مكانتها كأم وجدة. كانت تلك الملامح المصطنعة والمظهر الصارخ بالنسبة له كافية لتعبر عن استيائه، مما جعله ينفث كلماته الحادة في نفسه، قائلًا:
_زي الزفت حتى وانتي مغيرة شكلك.

أم الديب الجزء الثالث

لم تترك أم الديب الكلمات تمر مرور الكرام، وانفجرت كمدًا، ممسكة عنق المعلم حنفي بجبروت، ووجهها قد احتقن من الحنق، قائلة:

=بتقول إيه يا راجل، انت؟

جلجل المعلم حنفي محاولًا التخلص من قبضتها المتينة، وقد بدا عليه الانزعاج العارم من الوضع الذي آل إليه المشهد. سارع أحمد، الذي كان يقف قريبًا، لفض الاشتباك، وجذب والدته بعيدًا عن المعلم حنفي، في محاولة لإنقاذ الموقف الذي بدا غير محتمل. من بعيد، كانت جميلة وأخواتها يراقبون المشهد بضحكات مكتومة، غير قادرين على استيعاب ما يحدث أمام أعينهم. في هذه الأثناء، كانت هايدي تشعر بذعر، ولم تستطع كتم تساؤلاتها التي لم تفارق ذهنها، فواجهت أم الديب بصوت مرتفع تعبر عن استنكارها. أما أم الديب، فلم تكن لتظهر أي علامات على الندم، بل أجابت بعناد لا يتزعزع، مُعتمدة على نبرتها الساخرة التي اعتادت استخدامها لتبرير تصرفاتها الغريبة. لكن أحمد نظر إليها بجدية أكبر، محاولًا إقناعها بعقلانية، مشيرًا إلى ما يبدو أنه عدم ملاءمة سلوكها. ومع ذلك، لم تكن أم الديب على استعداد للاستماع، بل رفعت حاجبها بتحدٍ وأخذت تنظر إلى من حولها بعيون تحمل الكثير من التحدي. ليالي، التي كانت تراقب بصمت حتى الآن، قررت أن تشارك في الحوار، فتكلمت بنبرة هادئة ولكنها لا تخلو من الحدة، محاولًة تهدئة الأمور. لكن أم الديب، وكأنها تتعمد استفزاز الجميع، واصلت الحديث بنبرة لاذعة، مما أثار ليالي لترد بقسوة. تزداد الأمور سوءًا، بينما أم الديب تبتسم بخبث، وتثير مزيدًا من التعليقات المتحدية.

بينما كانت أم قمر الدين ترصد الموقف بهدوء، قررت أن تتدخل لتخفيف حدة التوتر، مدافعة عن حق النساء في الاعتناء بأنفسهن، ومع ذلك، كان نعمة تشعر بالإحراج مما يجري، وحاولت أن توضح وجهة نظرها، مُستشهدة بواقعهم كفلاحين. بينما كانت أم قمر الدين تدافع عن اختيارها الشخصي، مستعرضةً حقها في الحياة بحرية، كان قمر الدين يشعر بأن الأمور بدأت تخرج عن السيطرة. فقرر أن يختصر النقاش، محاولًا تهدئة الأجواء واستعادة السلام، مما جعل أم قمر الدين تبتسم عند رؤية ابنها. عانق باسم وقمر الدين بسملة بشغف، فقد كانت عودتها بالنسبة لهما مصدر سعادة كبيرة، ولاحظت جميلة هذه اللحظة الدافئة بين أفراد عائلتها، مما جعلها تشعر بالارتياح. سرعان ما غادرت العائلة بأكملها، حيث صعد كل واحد منهم إلى سيارته متجهين إلى القصر، بينما وقفت أسرة أم الديب، تنظر إلى مظهرها الجديد بدهشة. لكن حامد كان يقف بعيدًا، ينظر إلى أم الديب نظرات عجيبة وهو يضحك بقوة على شكلها المتغير، مما جعله ينفجر بالضحك أكثر من مرة، فقال أحمد، الذي لم يستطع تحمل رؤية والدته بهذا الشكل وهو معترض على اختيارات ثيابها:

_يلا يا ماما، وياريت تغيري اللي انتي لابساه ده قبل ما ترجعي البيت متخليش الناس تاكل وشنا!

ردت أم الديب على حديثه بكل استهزاء، حيث كان عدم اكتراثها بالمظهر الخارجي واضحًا:

=تولع الناس، يا عيني يا جلال يابني متلقح في الدار محدش معبرك.

لم تتمكن ليالي من كتم تعبيراتها، حيث ردت بغيظ:

_ومين قالك يا حماتي؟ ده قاعد معزز مكرم، واكل وشارب وواخد علاجه... ده حتى قاعد بيأزأز لب.

أم الديب الجزء الثالث

نظرت أم الديب إلى ليالي بتقزز وكأنها غير معنية بآرائها، بينما حامد حاول تقليص التوتر بعبارة لطيفة، وهو يقول:

_حمدالله على السلامة يا حماتي.

ردت أم الديب بنبرة غير مبالية، وهي تعبث بشعيراتها الاصطناعية وكأنما تحاول أن تتجاهل كل ما حولها، مما جعلها تبدو كأنها تعيش في عالم آخر، بعيدًا عن الأحاديث المتزاحمة:

=الله يسلمك يا ولا يا حمو.

ركبوا جميعًا السيارة وعادوا إلى المنزل، وعندما وصلوا، صعدت أم الديب إلى شقة جلال لتطمئن عليه، وحين دخلت، نظر إليها جلال باستغراب، تتجلى في عينيه ملامح الدهشة، وكأنما كان يرى شخصًا لم يعرفه من قبل، قائلًا:

_انتي مين؟

أجابت أم الديب متفاجئة بسؤاله دون تردد، متجاهلة الغرابة التي ارتسمت على ملامحه، قائلة:

=أمك يا ولا، أمال هكون مين؟

سأل جلال مستفسرًا:

_وإيه اللي انتي عاملاه في نفسك ده ياما؟

ردت أم الديب بتحدٍ، وكأنها تدافع عن خياراتها:

_عاملة إيه يا ولا؟ إيه بلاش أهتم بنفسي زي باقية النسوان؟ ولا هو أهتم بنفسي مش عاجب، وأهمل في نفسي مش عاجب، ما ترسوا على حل!

قالت نعمة، مستشعرة بشوق كبير لوالدتها، تدخلت لتخفف من قوة التوتر المتصاعد في الأجواء، مضفيةً لمسة من الدفء على الموقف:

=طيب انزلي تحت ياما، عايزين نقعد معاكي ده انتي وحشانا أوي.

لكن أم الديب كانت متمسكة بما تفعله، حيث أكدت:

_آني كنت طالعة أطمن على جلال، وأهو طلع زي الحصان، ده آني سايباه من كام يوم قالب بطة بلدي، لحق يقوم من تعبه؟

لكن أم الديب كانت متمسكة بما تفعله، حيث أكدت عزمها على الاهتمام بجلال، مشيرة إلى حالته الجيدة، بينما كان جلال يعاني من ألم الجرح الذي يعذبه. كانت ليالي تراقب الوضع بحذر، وتبدو على وجهها علامات القلق، إذ تأثرت بما يحدث من حولها، مما جعل المشهد مليئًا بالمشاعر المتباينة. ظلّت ليالي تجري بسرعة إلى المطبخ لتجلب المسكن لجلال، بينما انتقلت أم الديب إلى شقتها، حيث كانت تشعر بالحيوية بعد عودتها.

دخلت إلى الصالة حيث كانت نعمة وهايدي جالستين على الأرض، تتأملان النافذة المفتوحة التي كانت تحمل رائحة الزرع العطرة القادمة من الأراضي الزراعية. أخرجت أم الديب حقائبها بحماس، وعندما فتحتها، بدأت تُظهر لبناتها الملابس التي اشترتها. حيث قالت لنعمة بحنان:

=دهي ليكي يا بت يا نعمة.

أم الديب الجزء الثالث

احتضنتها نعمة بشغف، قائلة:
_انشالله تنجبري ياما.
ثم التفتت إلى هايدي وأخرجت لها فستانًا آخر، وقالت:
=ودهو ليكي يا بت يا هايدي.
نظرت هايدي إلى الفستان بعينين واسعتين، وكأنها تتأمل لوحة فنية تتجلى فيها ألوان الحلم، مستفسرة:
_مين اللي جايب الفستان ده؟
أجابت أم الديب بوضوح:
=آني طبعًا.
ردت هايدي باستهزاء، وكأنها تضع كل مشاعرها تحت مجهر السخرية:
_أنا قولت كده برضة، مش بطال.
عادت أم الديب إلى الحقائب لتستخرج المزيد من الملابس، بينما بدت مشاعر الفخر تضيء عينيها.
وقفت نعمة تفحص الفستان الجديد بعيون متألقة، حيث انبثقت سعادتها من بين ثنايا الأقمشة الجميلة.
كانت أم الديب تستخرج باقية الثياب، وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيها، تعبر عن سعادتها بكونها قادرة على تقديم ما يبهج قلب ابنتها. بينما كانت الفتيات تتجولن في الحقائب، اكتشفن فجأة رزمًا من الدولارات، فتجمدت اللحظة في أعينهن، وصدمتا مما رأيناه، مما جعلهما تتراجعتا خطوة إلى الوراء، غير مصدقتين أن ما أمامهما حقيقي. كان يبدو أن أم الديب كانت تعيش في عالم من المفاجآت، حيث ظهرت الفكرة وكأنها خرجت من رأسها فجأة، قائلة:
_بس آني لاقيتها!
سألت نعمة بفضول، وكأنها تبحث عن إجابة تُغذي خيالها:
=هي إيه ياما؟
ابتسمت أم الديب بفخر وهي تخبرهما:
_هفتح مشروع يا بت وهنلعب بالفلوس.
سألت هايدي مستغربة، وكأنها تحاول استيعاب ما يجري من حولها:
=مشروع إيه ده؟
ردت أم الديب بثبات، وعيناها مصوبتان في الجدار بتركيز، كأنها تتأمل تفاصيله وتبحث عن شيء خفي فيه، مما أعطى صوتها عمقًا يحمل ثقة غير متزعزعة:
_محل حلويات.

نظرت الفتاتان إلى بعضهما البعض بتعجب وهما ترددان معًا:
=محل حلويات؟
أكدت أم الديب، التي كانت متحمسة قائلة:
_أيون محل حلويات يا بت منك ليها.

كان في عينيها بريق من الحماس، وكانت الفتيات يشعرن بالقلق تجاه هذا المشروع الجديد. تأملن معًا في المستقبل وما يمكن أن يجلبه لهم هذا المتجر من فرص ومغامرات جديدة، متمنيات أن يحققن

أم الديب الجزء الثالث

أحلامهن. بعد أيام تفاجأ جلال أن والدته تعبر عن رغبتها في فتح مشروع جديد، وكأنما استقرت طيور الأماني على فرع قلبها المتلألئ، ورغم أنها لا تمتلك أي فهم في مجال الطبخ وتُعتبر من الطباخين الفاشلين بكل تأكيد، إلا أنها لا تزال تصر على ذلك، كما لو كانت تستعيد بريق الأحلام في كلماتها، وبينما كانت تتحدث، شعر جلال بالدهشة، وتلاطمت مشاعره كموج البحر الذي لا يتوقف عن الاقتراب من الشاطئ، إلا أنه في النهاية، امتنع عن التعبير عن رفضه بكلمات صريحة، قائلًا:

_يعني إيه ياما هتفتحي مشروع؟ لأ والمصيبة الأكبر محل حلويات وعصاير، هو انتي ياما عارفة تسلقي فرخة لما تفتحي مشروع مرة واحدة؟

قالت أم الديب بانفعال، وهي تستشعر الانتقادات الموجهة إليها:

=انت بتقلل من أمك ولا إيه يا ولا؟ تقصد إني مبعرفش أطبخ؟ ده أهل المنطقة كلهم واحد واحد بيشكروا في عمايل إيديا... ده كفاية ريحة طبيخي اللي بتقلب الشارع.

لكن ليالي لم تفوت الفرصة لسخرية جديدة، وهي تتلفظ:

_هي فعلًا يا حماتي بتقلب ريحة الشارع... أول مرة تقولي حاجة صح.

نظرت نعمة بدهشة إلى أمها، مستفسرة:

=ياما انتي مابتعرفيش تطبخي هتعمليها ازاي دي؟

لكن أم الديب ردت بنبرة حادة، وكأنها تتحدى:

_أتعلم يا بت، هما منعوا العلام ولا إيه؟

جلال، الذي كان يجلس في الزاوية، تدخل بحصافة، قائلًا:

=طب وربنا شكلك مرقدة على مبلغ وقدره، وعمالة تشتكيلنا بالفقر ليل نهار.

ردت أم الديب بجلبة، تتظاهر بالإفلاس:

_ايهي منين يا حسرة؟ ده آني غلبانة...لو معاكوا فلوس متبخلوش عليا يا عيال.

المعلم حنفي، الذي كان يستمع بذكاء، أضاف:

=ولما انتي يا ولية محيلتكيش اللضا عاوزة تفتحي مشروع ازاي؟

كأنها تحولت إلى عاصفة من الموجدة، حيث أجابت أم الديب بالضغينة:

_وانت مالك ياخويا؟ ربنا بيكرم، حطوا انتوا إيديكم في إيدي وهتلاقوا ربنا سهل الحال.

قالت نعمة باختناق، تحاول أن تفهم ما يجري:

=ياه ياما دماغك ناشفة بشكل.

بينما أم الديب كانت تُصدر ضجيجًا، مدافعة عن أفكارها قائلة:

_آني أعمل اللي عاوزاه محدش فيكم يفتح بوقه معايا بنص كلمة، فاهمين ولا لا؟

أبدى جلال رأيه بشكل غير متوقع، قائل:

=انتي وكيفك ياما، بس يوم ما تغرقي متبقيش تصوتي وتقولي الحقوني، ماهو أصل أنا عارفك!

ردت أم الديب بسخرية، غير مكترثة بمخاوف جلال:

_ليه ياخويا وآني يوم ما أغرق هستنجد بيك انت؟

أم الديب الجزء الثالث

تلفظ جلال، ونظر إليها مشدوه:

=ليه ياما مش ابنك ولا إيه؟

لكن أم الديب ردت بفظاظة قائلة:

_آني هناهو الراس الكبيرة واللي أقوله يتسمع.

لم يوافق أحد من أفراد عائلة أم الديب على هذه الفكرة، وذلك لأنهم كانوا يدركون جيدًا عدم مهارة أم الديب في فن الطبخ، وكذلك لأن الأطباق التي تعدها لا تحظى بقبول عام بينهم، بالإضافة إلى النقص في الموارد المالية المتاحة لها، وفي اليوم التالي، بعد أن انتهى الجميع من تناول وجباتهم، وخرج كل فرد من شقته، كان جلال مستلقٍ في التوكتوك، وهو يتحدث بحماس في هاتفه المحمول مع زوجته، حيث قال:

=طماطم وخيار إيه يا ليالي؟ أنا مبعرفش أنقي وبعدين لا مؤاخذة هتوقفيني وسط الحريم، وأنا راجل أوي... ميجيش حتة عيل يرمي كلمة كده ولا كده.. وربنا أقطعه وأدفنه مكانه !

قالت ليالي، وهي تشعر بالإحباط من أبناءها الذين لا يتوقفون عن الشجار، مما يمنعها من ممارسة حياتها بشكل طبيعي:

_يادي النيلة وأنا لسه هنزل يا جلال؟ عيالك مطلعين عيني ومش عارفة أشوف شغلي منهم.

جلال، الذي كان قد عزم على مساعدتها، أجاب بحزم:

=خلاص هبقى أتصرف... استني كده!

بينما وهو ينظر حوله، لاحظ أم الديب جالسة بين مجموعة من النساء في السوق، وقد وضعت إزاءها زجاجات عصير غريبة الشكل، غير واضحة المعالم. اقترب منها مباشرة، محاولًا فهم ما يحدث، قائلًا:

_إيه ده ياما؟ هو ده المشروع اللي بتحكي وتتحاكي عنه؟

قالت أم الديب بملامح مسكينة:

=تشتري مني يا جلال؟ الإزازة بخمسة جنيه.

نظر جلال إلى الزجاجات بقلق، وسأل:

_شكلها يقلب البطن ياما، أما قوليلي إيه الأزايز دي؟

ردت أم الديب بفخر:

=دهو عصير يا ولا بس حلو أوي، ده آني لسه بايعة منه إزازتين.

ومع ذلك، كان جلال مشككًا في قدرة والدته على إعداد شيء جيد، فقال:

_ميجليش قلب أثق فيكي ياما، ماهو أصلك مالكيش أمان.

لم تستطع أم الديب تحمل هذه الكلمات، هاجمت بحدة:

=ايهي احترم نفسك بدل ما أقوم أربيك! مانت عيل واطي، دهو بدل ما تقف جنب أمك؟

لكن جلال، وهو يحاول أن يثبت موقفه، قال:

_طب وريني كده يمكن أنا غلطان.

فتح جلال زجاجة العصير، واستنشقها بعمق، ليجد أن رائحتها جذابة للغاية. قرر أن يتذوقها، وعندما تذوقها تفاجأ بمذاقها الجيد، فقال مستغربًا:

أم الديب الجزء الثالث

_غريبة ياما، العصير ده حلو، وأنا متعودتش منك على كده، انتي حاطة فيه إيه؟ ولا مين اللي عامله ولا إيه النظام؟

أجابت أم الديب بافتخار:

=آني اللي عاملاه بإيديا الإتنين دول... هو انت فاكر أمك يوم ما تفتح مشروع هتعمل حاجات أي كلام ولا إيه؟

رغم إعجاب جلال كان لا يزال مشككًا، قال:

_ماهو باين الصنعة، شكلها متكلفة... بس شكلك بتحوري ومش انتي اللي عاملاه، أنا واثق إن لو انتي اللي عاملاه كان زماني في طريقي للمستشفى دلوقتي.

انفجرت أم الديب بامتعاض، وقالت بعجيج:

=هقلع اللي في رجلي وأنزل بيه على نفوخك، يلا يا ولا من هنا روح شوف وراك إيه، وقبل ما تمشي ادفعلي حق اللي شربته! انت شايفني قاعدالك على بنك فلوس؟

التفتت جميع الأنظار في السوق على الفور صوب الصوت الصاخب الذي اخترق هدير محركات السيارات وضجيج الزحام، فغلب على كل ضوضاء الحياة في الشارع، مما دفع كل فرد إلى التوقف عن عمله، وتثبيت نظره بفضول مستفسر، باحثًا عن سر هذا الشجار الذي أشعل المكان.

يتبع....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل العاشر

تنعمت حاسة التذوق لدى جلال بينما احتسى ببطء ذلك المشروب الغامض الذي لطالما شكك في مصدره، غير مقتنع بأن الأيدي التي صنعت تلك اللذة هي ذات الأيدي التي تعودت لسنوات الغوص في مخلفات الأبقار، تسوّي أبسط الوصفات وأكثرها بؤسًا، ليأتي اليوم الذي تفاجئه ببراعة لم يكن يتوقعها، فيرتبك وهو يمسح بقايا المشروب العالقة على حافة شفتيه بكم قميصه، مستخرجًا من جيبه ثلاث جنيهات ليعطيها لصاحبة الصنعة، إلا أنها نهضت بخفة تملأ حركتها، متسائلة بدهشة لا تخطئها العين، والصدمة تطوف بعينيها المتسعتين، كأنما تصارع بين الرفض والاندهاش:

_إيه دهو ياللي تتشك في جنابك؟

جلال بصخب:بعد الشر عليا ياما... يارب اللي يكرهني.

أم الديب بصياح:انطق يا ولا إيه دهو؟

حضرت "جارة العمل" الجديد بجلبابها الذي تلطخت أطرافه بآثار حليب الجاموس والقشدة المتجمعة من يدها الخبيرة، وجعلت دلاية قديمة ذات بريق خافت تتدلى من عنقها كخزانة صغيرة تخفي فيها نقودها كما تخفي الأسرار، واقتربت بخطواتها المترددة، وهي تسأل بصوت يفيض بالاهتمام الذي لا يخفى، عيناها تحملان نظرة فضول لا تنقطع:

_إيه يا أم الديب معاكي مشكلة ولا إيه؟

نهضت "أم الديب" من مكانها بسرعة تحمل في طياتها التحدي، وقالت بسخرية لاذعة تعلو نبرات صوتها، كأنها تعلن الحرب دون أدنى تردد، مُستعدة لإشعال فتيل مشاكل كبيرة لا حصر لها مع جلال، نظرتها تشتعل بحنق مكبوت وتحفّز ينبئ بعاصفة لا تهدأ:

=ايهي مشكلة واحدة؟ دهي مشاكل، اطلع بالفلوس اللي معاك يا جلال، متخليش صوتي يعلى!

جلال بتعجب:ده على أساس إنك بتوشوشيني دلوقتي ياما؟ ده انتي سمعتي السوق كله، وبعدين فلوس إيه؟ مش جلال اللي يتعمل معاه كده! مش علشان بؤ العصير اللي شربته هتدفعيني كل اللي في جيبي، ما تقوليلي ياما سارقاهم من مين؟

كان صوتها الغليظ يرتفع كالبركان الهائج، يتفوق على كل أصداح السوق وضوضائه، متغلبة على نهيق الحمير وجدال المتجولين المتناثرين بين البضائع. الفلاحون، رجالًا ونساءً، يتجولون بجلابيبهم المتربة، يدورون في أرجاء السوق كالنمل الباحث عن فتات الطعام، محاولين العثور على ما يلائم حاجاتهم، بينما كان هناك رجلٌ يسير بخطى وئيدة، يحمل فوق رأسه صينية الشاي وهو ينادي بصوت متهدج: "شاي، شاي"، فيما تقف بائعة السمك المجمد على عتبة فرشها، تصرخ بأعلى صوتها: "سمك بوري، قرب اشتري"، وفي نهاية السوق، حيث الطريق يخلو من الباعة ويبدو كأنه الحد الفاصل بين الصخب والسكينة، يسير راعي الأغنام بخطواته البطيئة، يتبعه قطيع أغنامه، بعضها كبير بقرون متشابكة، وبعضها صغير يمشي متعثرًا بين أقدام الأكبر منه. وسط كل هذا المشهد المزدحم، كان الجميع منهمكًا

أم الديب الجزء الثالث

في أعماله اليومية دون اكتراث لما حوله، لكن فجأةً، قطعت "أم الديب" المشهد بصوتها المزمجر واقتربت من جلال خطوة بعد خطوة، كأنها تلتف حوله كالأفعى، تصيح به بعزم يقطع الهواء من حوله، مصممة على استرجاع حقها من بين قبضتيه المُخاتلة التي طالما برعت في الخداع، وقد التفتت في لحظة احتدام إلى عم سلامة، الرجل الذي يقضي يومه في الكد والشقاء بين أسواق بيع الحمير، لتلقي بسخريتها القاسية عليه، هازئةً به كأنه رمز لعالم بائس لا يعرف غير التعب:
_هيكون من مين؟ من سلامة دباح الحمير.

جلال بعصبية:وإيه اللي جاب سيرة حمايا للكلام دلوقتي ياما؟
أم الديب بعجيج:اطلع باللي في جيبك يا ولا، هطين عيشتك وعيشة اللي جابوك!

"جارة العمل" التي تخلت عن أشغالها اليومية لابنتها الصغيرة، تلك الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا التي بالكاد تعرف كيف تدير الأمور، كل ذلك لتتمكن من كسب ود أم الديب، محاولة احتلال مكانة في قلبها المتحجر، وقد كانت تنفحها عرضها للمساعدة بكل تَحَمُّس، لكن فضولها الذي لا يفطن حدًا أكبر بكثير من أي مصلحة أخرى، يدفعها للتقرب بتلهف قُحاف، وهي تتلفظ بكلماتها باندفاع، كأنها تنبش عن سر دفين خلف تلك القشرة الصلبة، قائلة:
_انتي كويسة يا أم الديب؟

أم الديب بانزعاج:اركحي يا ولية على جنب مش وقتك!

قبل أن تمتد يدا أم الديب القاسيتان نحو عنق "جلال" لتقبض عليه بكل استفحال وكأنها توشك على كسره، وتحطم جسده المتين بين قبضتيها اللتين لا تعرفان الرأفة، انقطع ذلك المشهد القاس فجأة برنين هاتفه، كانت مكالمة من زوجته التي جاءت كالمُنقذ، وكأنها خيط رفيع يجره من حافة الهاوية. بيدين مرتجفتين، باعد جلال يدَي والدته عنه، محاولًا الإفلات من قبضة السُخط التي تحكمت في جسده، وصاح بصوت مبحوح لكنه يحمل إصرارًا، بينما عينيه تعتربان بين الهاتف وشبح المواجهة الداهم، قائلًا:
_أوعي ياما أما نشوف في إيه! ألو.

لم تكن زوجته كما توقع، بل كان "حمود"، ابنه، مستغيثًا بوالده في لحظة حرجة، يخبره بأن والدته تعرضت لوعكة صحية مفاجئة، والهلع يسيطر على صوته الخائر، كأنه يحمل عبء الدنيا على كتفيه الصغيرتين. تخللت الكلمات هاتف جلال مثل سهم يخترق صدره، فشعر بتسارع أنفاسه، وتغيرت ملامح وجهه فجأة من الغضب إلى الرعب، ثم أمسك الطفل يد ليالي بخَرَع لا يمكن إخفاؤه، وصاح وكأنما فقد السيطرة على لسانه، يهز يدها بارتباك:
=أمي تعبانة يابا.

جلال بقلق:ليالي مالها جرالها إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

أجاب "حمود" بصوت يرتجف من الذعر، وكأنما الكلمات تتساقط منه تحت وطأة الخوف، بينما عينيه تراقبان ليالي وهي تجثو على ركبتيها أمام المرحاض، تتقيأ دون توقف، كأن جسدها قد استسلم لفيروسات شرسة التقطتها من الجو، فتسللت إليها بلا رحمة. كان المشهد يزرع الرعب في قلب حمود الصغير، وهو يحاول استيعاب الموقف، مستشعرًا أن الأمر أكبر مما يتخيله. همس بخوف، قائلًا:
_بترجع.

ما أشد قسوة أن تخونك صحتك في لحظة مباغتة، بين ثانية وأخرى، فتكون في تمام عافيتك، تنبض بالحياة، مطمئنًا لما لديك من قوة، لكن المرض، كضيف غير مدعو، له رأي آخر، يتلبس بك كجان يقتحم جسدك بلا استئذان، يزرع الداء في خلاياك كأنها أرضه الخاصة، هكذا كانت "ليالي" قبل أن يحل بها ذلك التحول المفاجئ، كانت تقف في المطبخ، مأمونة، تطبخ لأبنائها بحُب، تضع في كل وصفة نكهة من قلبها، ثم فجأة، كأنما سلبتها قوة غامضة صحتها، تحولت إلى كيان هش، تئن تحت وطأة الألم.
مع كل نوبة من التقيؤ، كان الألم يزداد حدة في أحشائها، وكأن سكاكين خفية تعبث بها، وكلما حاولت أن تجد لنفسها مخرجًا من ذلك العذاب، لم تجد إلا صوتًا ضعيفًا بالكاد يسمعه أحد، تستغيث به الجيران في محاولة يائسة لطلب المساعدة، كلماتها تخرج متقطعة، وكأنها تتصارع مع الأنفاس المتبقية في صدرها، قائلة:
_آه يا بطني، مش قادرة !
تأكد "جلال" من علة زوجته حينما سمع صوتها الهزيل يتصاعد من داخل المرحاض، أنينها كان كنداء استغاثة يطرق أبواب قلبه، فارتجف جسده من الفزع وكأن رياح الكارثة تعصف به. عينا جلال اتسعتا في لحظة إدراك مريرة، ولم يملك سوى أن يصرخ، صوته يرتجف بين الخوف والاضطراب، كأنما يحاول إيقاظ العالم من حوله، قائلًا:
=يادي المصيبة، أقفل ياض أنا راجعلكم تاني، أما نشوف في إيه.
انتهت المكالمة التي كان لها تأثير غائر في تغيير ملامح جلال، حيث غزت مشاعر القلق كيانه وكأنها عاصفة تحطم كل ثوابت الحياة في داخله، لكن في خضم ذلك الاضطراب، كانت "أم الديب" تقف في مكانها، تراقب المشهد بعيون ملؤها الشماتة، فرحة بسماع كوارثهم، وكأن الأخبار كانت تعزف على أوتار سعادتها، فاقتربت منه بخطوات متثاقلة، تسأله بفضول استعراضي:
_إيه يا ولا، مراتك مالها؟

جلال بقلق:تعبانة ياما... ادعيلها.
أم الديب بفرح:ربنا ياخدها ويريحها يارب.
كانت ترفع يديها نحو السماء، تطلب من الرحمن موت ليالي، عدوتها اللدود، وكأن الدعاء قد أصبح سلاحها الخفي، فتنطلق كلماتها في فضاء السماء كغيمات سوداء تتربص برحمة الله. سعادتها لا تكتمل إلا بسماع مشكلاتها، فلم تكن قد تمكنت يومًا من وضع ليالي في مكانة الابنة التي تستحقها، بل كانت قاسية المشاعر، كأنما تجمدت في جبل لا يعرف الرحمة، تراقبها من بعيد بعين الغيظ والكراهية. خطى جلال بسرعة نحو التوك توك، متجاهلًا كل شيء حوله، بينما كان هاتفه ينزلق إلى عمق جيب بنطاله،

أم الديب الجزء الثالث

حاملًا همًّا كبيرًا في قلبه، راغبًا في الوصول بأقصى سرعة لإنقاذ زوجته، فهو البطل الوحيد القادر على انتشالها من آهات الألم التي كانت تعصف بها. في تلك الأثناء، جلست أم الديب على فرشتها من جديد، تُلمع الزجاجة بطرف جلبابها وكأنها تفتش عن ضوء يُسلي ظلام حياتها، وقريبًا كانت "الجارة" المتطفلة قد اقتربت، تتوق بكل ما أوتيت من قوة لسماع الخبر، فسألت بلهفة تُخفي خلفها ضحكة ماكرة:
_مقولتيش يا أم الديب في إيه؟

أم الديب بتعجب:إيه يا ولية مالك؟ ما تهدي، ده آني مش لاحقة أتنفس منك... اجري يا ولية شوفي الزباين بتوعك!
الجارة:راجعالك تاني يا أم الديب.

عادت الجارة إلى أعمالها بجد ونشاط، حيث جلست مع ابنتها في السوق يبيعون الخضروات الطازجة للزبائن، حينما اقتربت منهن ثلاث نساء، إحداهن تنظر إلى الألوان الزاهية للطماطم وترغب في شراء كيلو واحد منها، بينما الأخرى كانت تنادي بصوتٍ حازم تطلب ثلاث كيلو من البطاطا، أما الأخيرة فكانت ترغب في شراء المزيد من كل شيء، كأنما تريد أن تملأ سلالتها بألوان الحياة المتنوعة. لكن أم الديب، رغم انشغالها بأفكارها السلبية، لم تكن تدرك تمامًا أن سبّها للمارة الرافضين الشراء منها قد ينعكس سلبًا على تجارتها، حيث ستنتشر أخبار أنها امرأة متسلطة لا تحترم مبادئ العمل ولا تقدر الآخرين، مما قد يُجلب لها المزيد من الأعداء بدلًا من الأصدقاء. وفي تلك الأثناء، خرج جلال من التوك توك بعدما وصل إلى المنزل، وهو يسير بسرعة كأنما يسابق الزمن، مصممًا على صعود الدرجات بخطوات مُتسارعة، حتى دخل شقته ليجد أطفاله الاثنين محاطين بوالدتهم، يطمئنون على أحوالها البائسة، لكن ليالي كانت في حالة تدهور تثير القلق، جسدها يُعاني من آلام غائرة كأنها عاصفة تجتاح جسدها. كانوا جالسين على الأريكة في دائرة من القلق، بينما كانت يديها تتلمس بطنها المصاب بالألم، كأنها تحاول أن تخفف من وطأة المعاناة. اقترب "جلال" منهم بقلق، وقد سكن في قلبه خوف نَاء، وسأل ابنه بصوت يحمل في طياته الأنين:
_في إيه ياض؟ أمك مالها؟

حمود:معرفش كانت كويسة وفجأة تعبت.

في تلك اللحظة، استجمع "جلال" شجاعته، ووجه نظره نحو زوجته، مُستشعرًا بقلق يجتاح أعصابه، ففتح فمه ليطرح السؤال الذي كان يثقل على قلبه، قائلًا بنبرة تحمل مزيجًا من التَوَجُّس والشَفَقَة:
_مالك يا بت في إيه؟

ليالي بتعب:مش عارفة ياخويا، كنت كويسة لحد ما كلمتك، وبعد ما قفلت معاك التعب مسكني.
جلال بحنو:طب قومي البسي نروح للداكتور.
ليالي بتعب:ماشي ياخويا، اسندوني يا ولاد!

أم الديب الجزء الثالث

ساند جلال زوجته بلُطف، مدخلًا إياها إلى الغرفة حيث كان الهواء يحمل أريج الأمل المتردد، وخلفهما، اقتربت ابنتهما "تقى"، تعكس في عينيها قلقًا عميقًا وتأثرًا واضحًا، فقالت لوالدتها بصوتٍ يخنقه الشجن، كأنما تحاول أن تهدئ من ألمها:
_سلامتك يا ماما.

ليالي:الله يسلمك يا تقى.

ساعد جلال زوجته بكل ما أوتي من حب ورعاية، وانبثق هواه لها كنسيم رقيق حينما فتح الخزانة باحثًا عن ثيابها، حيث كانت أطفاله، حمود وتقى، يجلسون على حافة السرير، عيونهم تراقب كل حركة في صمت، كأنهم ينتظرون المعجزة في مشهد درامي يحمل مشاعر القلق. بعد أن استخرجوا الثياب، بدأت ليالي في ارتدائها بصعوبة، تقاوم الألم المفاجئ الذي يتسلل إلى جسدها كعاصفة صاعقة، عازمة على أن ترتدي عباءتها وتذهب للطبيب، رغم كل ما تمر به من آلام؛ إذ كانت أسئلة مثيرة تدور في أذهان الجميع حول سبب مرضها، كأنها أفكار تتجول بحرية في فضاء الإلغاز. بمجرد أن ارتدت عباءتها، خرج بها جلال مسندًا إياها، وكأنها زهرة في عاصفة، ثم ركبوا جميعًا التوك توك، مُتجهين نحو عيادة الطبيب، وعندما دخلوا، انطلقت ليالي لتدوين اسمها مع السكرتيرة، بينما جلسوا في انتظار دورهم بين المرضى الآخرين، وكل منهم يتسابق مع أفكاره، مما أضفى على المكان جوًا من القلق المشترك. في منزل نعمة، كانت تستعد بكل شكيمة لطهي الطعام بعدما غادر حامد لعمله، ساعيًا وراء الاجتهاد وكسب لقمة العيش، أما محمد، فكان يغفو بأحضان النوم، بعيدًا عن كل تلك الهموم. استخرجت "نعمة" الخضروات من الخزانة بعيون متأملة، لكن حينما اتجهت نحو صنبور المياه لتجد أنها خالية، أصابها الإحباط كفاجعة غير متوقعة، فقررت أن تتصل بأخيها جلال، حيث سألته في لهجة ملآنة بالقلق:
_بقولك يا جلال شوف الماتور مش شغال ليه، أصل بتصل على ليالي وهايدي محدش فيهم بيرد.

جلال:أنا برا يا نعمة عند الداكتور في العيادة.
نعمة بصدمة:يا ساتر يارب، في إيه يا جلال طمني؟ حد من العيال حصله حاجة؟
جلال:لا العيال كويسين وزي الفل...ليالي هي اللي تعبت.
نعمة بقلق:مالها؟
جلال:معرفش كلت إيه تعبها، يلا ادينا مستنيين.
نعمة بتأثر:سلامتها، لما ترجعوا هبقى أنزل أشوفها، ربنا ما يجيب حاجة وحشة أبدًا.

جلال:يارب... أما بقولك.
نعمة:قول ياخويا.
جلال:خلي جوزك يرجع التلاتين جنيه اللي عليه، الظروف منيلة وأنا محتاجهم... ده أنا دفعت كشف ليالي بالعافية ولسه مش عارف هعمل إيه في الأدوية اللي الداكتور هيطلبها.
نعمة:حاضر من عينيا أول ما يجيله فلوس هيرجعهملك، أبقى بس طمني على ليالي بالله عليك.
جلال:ماشي يا نعمة، سلام دلوقتي علشان دورنا جه.

أم الديب الجزء الثالث

نعمة:ماشي يا جلال مع ألف سلامة.

انتهت المكالمة بقلق يعتصر قلب نعمة، التي ارتعد بدنها على صديقتها الحبيبة ليالي، فبدلًا من أن تساقيها روح الحماسة التي كانت تتنقل حولها كنسيم ربيعي، ركدت من التفكير المقلق في شأنها، كأن هموم الدنيا قد اجتمعت في لحظة واحدة. وفي خضم تلك الأفكار، أحضرت دلاية المفاتيح من مكانها، ونزلت بنفسها لتفحص الماتور الموجود في منور المنزل، تاركةً ابنها في سبات وديع، كأنما تحميه من عالم لا يرحم. دخلت المكان متمعنة في التفاصيل، ويداها تتحركان بحذر، خوفًا من أن تصطدم بماس كهربائي قد ينهي حياتها، ويُحرم طفلها من وجودها في هذه الحياة التعيسة، وبعد أن تأكدت من المشكلة، صعدت لتطهو كما خططت، لكن روحها كانت مثقلة بالحزن، وكأن كل مكون من مكونات الوجبة يعكس آلامها الداخلية، وبعدما حان دور ليالي، تقدمت السكرتيرة نحوهم وهي تقف أمام غرفة الطبيب، لتناديهم بصوت يقطعه التوتر، وتخبرهم بأن الوقت قد حان. دخلت ليالي متكئة على يد زوجها، الذي كان أشبه بجدار صلب يحميها من كل المخاوف، وجلسوا على المقاعد المخصصة، بينما حمل جلال طفلته تقى على ساقيه، كأنما يحاول أن يخلق عالمًا صغيرًا من الأمان وسط بحر من القلق، أما حمود، فقد اكتفى بالوقوف بجانبهم، ينظر إلى الطبيب بعينين مليئتين بالتساؤلات. سأل "الطبيب" ليالي بجدية متناهية:
_بتشتكي من إيه؟

في منزل أم الديب، حيث اجتمع المعلم حنفي، وحسين، وهايدي، وزياد في الصالة، كانوا جالسين على الأريكة والكراسي البلاستيكية، يحتسون مشروب المانجو الذي أعدته هايدي دون علم أم الديب، في جو من المرح يتغلب على هموم الحياة. اقترح "زياد" بفكرة جريئة تعجل موعد الزفاف، متمنيًا اللحظة التي سيُوصد فيها الباب عليهم، ليصبحوا بمفردهم في عالمهم الخاص، حيث تتلاشى ذكريات أم الديب السيئة من رؤوسهم، ويختفي ظلالها الذي لطالما ابتكر لهم مشكلات لا حصر لها. لكن هايدي لم توافق على تلك الفكرة، إذ كانت تعتقد أن الوقت لم يكن كافيًا لكل تلك التحضيرات المعقدة، قائلًا:
_أنا من رأيي نبدأ في تجهيزات الفرح.

هايدي برفض:لا طبعًا ده لسه بدري أوي، هنبدأ بدري أوي كده ليه؟

لكن "حسين"، الذي كان يتطلع إلى بداية جديدة خالية من التعقيدات، كان مؤيدًا لتلك الفكرة، فاستند إلى ركبتيه ونظر إلى هايدي بحَمِيَّة، قائلًا:
_لا يا هايدي يا بنتي، انتوا قدامكم سنة ونص والوقت بيعدي، وتجهيزات الفرح دي موالها موال... يا دوب الوقت يكفي.
"المعلم حنفي"، الذي لطالما تحمل هموم الحياة وعبء الظروف اللصبة التي مرت بها ابنته، انضم بدوره إلى صوت حسين، وهو يبتسم برفق ويقول بحماسة :
_عندك حق يا حسين، بس انت يا زياد مش هتقعد في شقتك اللي هنا؟

أم الديب الجزء الثالث

زياد:مش عايز يا عمي، أنا زي ما قولت لحضرتك قبل كده عايز أعوض هايدي عن حاجات كتير فاتت.
المعلم حنفي:ابن حلال مصفي طالع لأبوك.

ابتسم "حسين" ابتسامة مُشبعة بدفء الذكريات، معبرًا عن العلاقة الأبدية الوثيقة التي تربطه بأخيه، تلك الرابطة التي لا يمكن أن تتسلل إليها الأخصام كما تتسلل ظلال الشك إلى قلوب الضعفاء. فقد حاولت أم الديب، بكل ما أوتيت من قوة، أن تقطع حبل المودة بسكين البغضاء، إلا أن محبتهم كانت أقوى من أي مقص. ثم قال:
_الله يخليك يا حنفي.
قالت "هايدي" لزياد، وقد غلبها الكسل المرهق، عاجزة عن إنهاء قائمة طلبات الزواج التي تتراكم أمامها في هذا التوقيت العصيب. من وجهة نظرها، بدا أن شراء الأجهزة الكهربائية، وتأثيث المنزل، أو حتى البحث عن شقة قد بات أمرًا مستحيلًا، مما يبرز تلك المشكلة الكبرى التي تؤرق تفكيرها، وتثقل كاهل أحلامها:
_بصراحة أنا مكسلة أوي نبدأ من دلوقتي.

زياد:يا بنتي بطلي كسل، صدقيني خلاص مفيش وقت، وأول خطوة عايزين نشوف شقة حلوة.
هايدي:خلاص أنا هكلم أحمد يشوفلنا شقة جنبه.

ارتفعت ضحكات "المعلم حنفي" في الهواء، متغلغلة في الأجواء كأصوات موسيقية تعزف أنغام الغبطة، وهو على يقين بأن هايدي لن تتمكن من الفكاك من قبضة فكرة الابتعاد عن أحمد، مهما كانت التضحيات التي يتطلبها الأمر. كان يدرك هذا منذ زمن، لكنه أضفى على يقينه طابعًا أكثر رسوخًا بعد حديثها، حيث عبرت بوضوح عن رغبتها في العيش بجانبه حتى بعد الزواج. ثم قال:
_مش عايزة تفارق أخوها لا قبل الجواز ولا بعده.

هايدي:لا يا بابا هو كان قايلنا كده، وكمان لما نكون جنب بعض هيكون أأمن، ولا انت إيه رأيك يا زياد؟
لم يكن هناك أفضل من أن يأتي أحدهم إليك، موافقًا على كل ما ترغبه نفسك دون أدنى اعتراض، ينفذ لك رغباتك بكل ود، فتكون سعادتك بالنسبة له بمثابة شريان يتجدد به روحه، ويعيد له نبض الحياة. وافق "زياد" على هذه الفكرة، إذ كان يدرك تمامًا أنه لن يجد أفضل من أحمد وجميلة ليكونا جيرانه، حيث يستيقظ كل يوم ملتقيًا بوجوههم الحسنة، وينعم بالاستقرار بجوارهم، وكأن الحياة قد نسجت له لوحة من السعادة. ثم قال:
_أنا معنديش أي مشكلة، شوفي انتي عايزة إيه يا هايدي وأنا معاكي فيه المهم تكوني مرتاحة!

هايدي بعشق:ربنا يخليك ليا يا زياد .
زياد بلُطف:حبيبتي يا هايدي.

أم الديب الجزء الثالث

كانا يبتسمان لبعضهما بهوى، والمشاعر تحلق حولهما كطائر عاشق يرفرف بجناحيه في السماء، ليضفي على الأجواء لمسة من الجمال. عيونهما تتبادل النظرات كأنهما يتناغمان في سيمفونية من المشاعر، متمنيين أن يمر الوقت بسرعة الضوء، ولكن وسط تلك اللحظات الرومانسية الحالمة، نظر "المعلم حنفي" إليهما بصدمة، مستغربًا من تلك الأفعال المفعمة بالتَتَيُّم في وجوده ووجود أخيه. كان خائفًا من أن تُقدم زوجته على ارتكاب جنايات بمجرد أن تنبعث من فم زياد كلمة واحدة تجاه هايدي، حيث قال باحتراس:

_جرا إيه ياض انت مش عامل اعتبار لعمك اللي قاعد؟

زياد بخجل:معلش يا عمي مش قصدي أنا آسف.
المعلم حنفي:اعملوا اللي تعملوه بس بعد ما يتكتب كتابكم بدل ما أمها تسمع الكلمتين دول وتطين عيشتنا، دي ولية مخها تعبان وممكن تلبسنا مصيبة.

هكذا كان رده، وهو يشعر بالذعر من احتمال قدوم أم الديب في أي لحظة، مدركًا أنها ستتهمه بأنه يلمع قرونه كالثور الهَلِع، وتخبره أنه ذو رجولة مبتورة، لا تقوى على مواجهة الحمقى. بينما قهقه "حسين" على حديثه، وتبدت في عينيه لمحات من التفهم، وقال متمنيًا الخيرات للعروسين:

_على بركة الله يا حنفي.

عند "أم الديب" في السوق، كانت تسعى بكل جهدها لجعل كل من يمر بجانبها يشتري منها بأي شكل من الأشكال، كأنما ترسم على وجهها ابتسامة تجذب الزبائن. أما من لا يستجيب لنداءاتها، فكانت تلاحقه بالطوب، متبادلة معه المشاجرات بصوت عالٍ، ناطقة بصياح يتردد صداه في أرجاء السوق، كأنما تصرخ في وجه العالم، قائلة:

_انتي يا ولية ياللي ماشية هناك، انتي يا ولية تعالي اشتري مني، الإزازه بعشرة جنيه، انتي يا ولية يا بت الكلـ*، هو آني مش بكلمك؟ ايهي دي مشيت! اللي يجيلها مشش في ركبها البعيدة بت البعدا.

عادت "أم الديب" إلى صمتها، وكأنما استجمعت أنفاسها في انتظار الفريسة التالية، وبمجرد أن مرت امرأة أخرى بجوارها، نادتها بصوت عالٍ، كأنما تعلن في ساحة معركة، قائلة:

_يا ولية، يا ولية انتي يا بعيدة ما تردي ردت المايه في زورك... هو آني هفضل أنده عليكم ومحدش هيرد؟ ليه بكلم نفسي ولا إيه؟

بدأت المرأة بالمغادرة، واقتربت منها امرأة أخرى برفقة ابنها، الذي كان طويلًا وضخمًا كالجبل، مما أضفى على المشهد طابعًا مهيبًا، ومع اقترابهما من "أم الديب" ، كان قلبها ينبض بالتفاؤل كأنما يُعزف له لحن من الآمال. فتنبّهت لهما، ونظرت إليهما بابتسامة مُصطنعة كزهرة تفتحت رغم قسوة الظروف، ثم قالت:

_يا أهلًا وسهلًا. الإزازة بعشرة جنيه بس إيه زي العسل هتشربيها وتاكلي البلاستيك من حلاوتها.
السيدة بفضول:دي أزايز إيه يا حاجة؟

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بخداع:دهي خلطة سرية مقولهاش لحد، إكمن العدويين ما بيصدقوا ينكشوا ورايا، ولو عرفوا السر يبقى شغلي ضاع، وآني ست غلبانة وعاوزة أسترزق.
السيدة باستغراب:يعني إيه؟ هشرب حاجة معرفش أصلها وفصلها؟

قد أمسك ابن السيدة بزجاجة مفتوحة، وشرع في شرب ما فيها دفعة واحدة، كأنه يبتغي إرواء عطشًا لا يُروى، كما لو كان يتسلق قمة جبل من اليأس. نظرت "أم الديب" إليه، واحتد وجهها بتعبير من الاستنكار، كأنما عصف بها رياح الشح، ثم قالت:
_بالهنا والشفا مطرح ما يسري يهري، يمري قصدي.

بعد أن أنهى شربه، مسح فمه بعنف، كأنه يريد محو أي أثر لتلك الشراهة البائسة، ثم انطلق نحو الزجاجة التالية بشغف، كأنه قد عثر على مفتاح سعادته المفقودة في زوايا العتمة. نظرت "أم الديب" إلى السيدة بجانبه، واختلج صوتها بتهكم ممزوج بالاستنكار، فقالت:
_ايهي هو انت واخد السوق جري ولا إيه؟ ابنك ماله يا ولية؟

السيدة:بيشوفلك جودة العصير.
أم الديب بدهشة:وهو مشافهاش من أول بوق جاي يشوفها من تاني إزازة؟

وبعد أن أنهى الزجاجة الثانية، انطلق نحو التي تليها بلا تردد، كأنه يسابق الزمن في سباق مجنون. لكن السيدة وابنها، بعد أن اطمأنوا إلى غنيمتهم، ابتعدوا عنها بهدوء، حتى أخذت الأم بيد ابنها وابتعدت عن المكان، وعندما رأت "أم الديب" ذلك، تسارعت نبضات قلبها كأنها شعرت بومضات ضيق تأجج داخلها، فاندفعت نحوهم مُسرعة، تعول بأعلى صوتها، قائلة:
_انتي يا ولية فاكرة إنك هتنصبي عليا ولا إيه؟ لا أم الديب ميتعملش معاها كدهو، ده آني هطلع القديم والجديد كله فوق دماغكم... انتي يا ولية آني بكلمك!

استدارت لها السيدة مع ابنها الضخم، وبدت نظراته كوميض برق يحمل بين طياته الشر والتهديد، وكأنما يعكس ظلال عواصف قادمة. ذهبت أم الديب لتنشب بالطوبة، وتفتح بها رأسه بكل عنف، فوقع على الأرض يصرخ كأنما يستغيث بأرواح الشهداء، بينما اجتمع الناس حولهم، يتفجر فضولهم كينبوع لا ينضب. أما "أم الديب" ، فقد هربت كفراشة مدهوشة وعادت إلى الدار، حيث وجدت زياد وحسين يجلسان مع هايدي، والمعلم حنفي. جلست على الأريكة، ووجهها يحمل آثار الغضب، ثم قالت للمعلم حنفي:
_انتوا هناهو؟ وآني أقول الجو ماله زفت كدهو ليه؟

المعلم حنفي بانفعال:احترمي نفسك يا ولية، ده بدل ما تسلمي على حسين أخويا وابنه؟
أم الديب بتهكم:وهو حسين أخوك غريب؟ دهو صاحب الدار.

أم الديب الجزء الثالث

كان حديثها يشوبه مكر ظاهر، ونية خبيثة مضمورة في أعماق وجدانها، وكأنما تخفي بين طيات كلماتها أسرارًا مظلمة لا تجرؤ على الإفصاح عنها. لم يصدق أحد حديثها، إذ كانوا على دراية بالحقيقة جيدًا، غير أن ذلك لم يمنعها من محاولة التلاعب بمشاعرهم. وبعد أن استراحت لتستجمع أنفاسها بعد حرب عويصة في السوق، طلبت من هايدي بصوت عالٍ، يقطع صمت المنزل:

_بت يا هايدي خُشي اعمليلهم عصير واتوصي بيهم.

نظروا جميعًا إلى بعضهم في صدمة من كلام "أم الديب" ، كأنما عصف بهم إعصار من الدهشة يعبث بعقولهم، ولم يعودوا يفهمون ما تعنيه من تلك الكلمات الغامضة. حتى استجابت أم الديب لدهشتهم، وعادت لتخاطبهم مرة أخرى، فقالت لهايدي، مُحملة بتلك المعاني المُلتبسة:

_متنحة كدهو ليه يا بت؟

هايدي بحيرة:ها؟ لا مش متنحة ولا حاجة.
أم الديب بحزم:قومي اعملي اللي قولتلك عليه!
هايدي بتردد:بس هما لسه شاربين!
أم الديب:ايهي يشربوا تاني وتالت لحد ما يطرشقوا!
هايدي بخوف:حاضر.

نهضت هايدي ودخلت المطبخ بهدوء، تاركة "أم الديب" في مشهد يضج بالخديعة. أم الديب أمسكت بالكؤوس التي شربوا منها، وكأنها تمارس طقوس قراءة الفنجان بخبرة مُحتال بارع، ساعية إلى نسج كذبة تُثير اهتمامهم. لمست الكوب بطرف أصابعها برفق، كأنها تستنطق رماد المشروبات، وتمعنت فيه بتركيز مُصطنع. نظرتها كانت مليئة بالدهاء، وكأنها ترى ما لا يُرى. ثم رفعت عينيها نحو حسين وزياد، اللذين كانا منصتين لها بشغف، وقالت بصوت مغمور بالثقة الزائفة:

_اسمع يا حسين انت وابنك زياد!

حسين بترقب:نسمع إيه؟
أم الديب:اللي هقوله، ما تركزوا معايا كدهو... قدامكم طريق طويل مالوش آخر... لا تصدق إنه له آخر، وفي آخر الطريق واقفلك بومة.
حسين:عارفها.
أم الديب بغلاظة:هي مين؟
حسين:البومة اللي واقفة.
أم الديب:لو ابنك اتجوز بتي مش هيخلفوا، ولو خلفوا هيجيبوا عيل براس حصان.

كان الجميع يضحكون بشدة، لكنهم حاولوا جاهدين كبح جماح ضحكاتهم التي كادت تنفجر كالمفرقعات في سماء صيفية. تماسك "حسين"، محاولًا أن يبدو جادًا رغم تعابير وجهه المرحة، فقال بصوت متماسك، لكن مفعم بخفة ظل:

_أه وبعدين؟

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب:الواد هيكبر وهيقتلهم، وبعد ما يقتلهم هيجيب أكياس زبالة من السودة دهي، عارفها؟
حسين بسخرية:أه طبعًا دي حوالينا في كل حتة.
أم الديب:لكن لو متجوزش بتي مش هيجراله حاجة وهيبقى صاج سليم وزي الفل مفيش حاجة هتهوب ناحيته.

تدخل "زياد" في الحديث ليخبرها عن حرمانية قراءة الفنجان، كأن نداءً من شيخه الداخلي يستدعيه نحو المباحات، فأشعلت عينيه شعلات من الجدية، وبصوتٍ مفعم بالتقوى، قال لها:

_خلصتي يا مرات عمي؟ أساسًا انتي بتقري من كوباية الشاي، والفال بيبقى من فنجان القهوة، وخدي الكبيرة حرام!

لا يعلم الغيب إلا الله، فهو صاحب مفاتيح الغيب التي لا يملكها سواه، وقد أيد "حسين" حديث زياد، وهو يشعر بالفخر بتلك الكلمات التي تجسد عمق الإيمان. لم تضع تربية السنوات الماضية سدى، وكأنما استثمرت فيه الأخلاق النبيلة وثمارها. فرفع رأسه بعزة وقال هو الآخر:

_طبعًا دي دجل وخرافات، وأعوذ بالله.

نهضت "أم الديب" بسرعة من مكانها، وألقت بالكوب بقوة جبارة على الحصير، كأنما أرادت أن تُفجر ضغوطات سُخطها في تلك اللحظة. شعرت بأنهما يستخفان بمجهوداتها في قراءة الفال، ولا يحترمان مكانتها، فاشتعلت نبرة صوتها لتصبح عنيفة، لا تختلف في شراستها عن صوت الرجل. ثم قالت بشكل مُريب:

=انت بتتمسخر عليا انت وابنك يا حسين؟

جلأت هايدي من المطبخ، حيث كان عجيج أم الديب العالي يتردد في أرجاء المنزل كعاصفة تهز الأركان، مستشعرة أن لحظة طرد عمها حسين وزياد قد باتت وشيكة. اقترب "حسين" من المعلم حنفي، همسًا بأفكاره المقلقة، يتساءل في أعماق نفسه عن غلاظة صوت أم الديب، الذي كان يعلو ويختلج كصدى الرعد في السماء ليتحدثا سويًا بصوت غير مسموع لها، كأنهم يتناجيان في عالمٍ بعيد:

_مراتك صوتها ماله يا حنفي؟
المعلم حنفي بهلع:هي كده لما بتتعصب صوتها بيتخن جامد ولا كأنها بالعة راجل.
حسين بخور:ده انت ربنا يعينك عليها، ده صوتها لواحده يفزع.
المعلم حنفي:علشان تعرف إن آني مستحمل كتير.

الفضول يقود "أم الديب" نحو معرفة ما يقولانه، حيث تسود عواطفها كالتيار الجارف، وتأخذها تساؤلاتها نحو عوالم مظلمة من الشكوك. كانت تنظر إليهما بعينين مليئتين بالتوجس، قائلة بصخب:

_بتتوشوشوا في إيه يا راجل منك له؟
المعلم حنفي بتلعثم:لا يا ولية ده بيسألني في... في...
أم الديب بحدة:بيسألك في إيه؟
المعلم حنفي:حاجة مالهاش دعوة بيكي.

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بضجيج:بحسب، سُكي على المشاريب يا هايدي !

عند دخول جلال وليالي إلى العيادة، كان جلال يجسد عبء الحياة على كتفيه. كان لديه طفلان يسرحان في خياله، يبتسمان ببراءة في أحلامه. كان لا يزال يتذكر كيف احتفظ بآخر قرشٍ في جيبه ليشتري لهم بعض الحلوى، بينما كان هو نفسه يكتفي بنظرته إليهم، محاولًا إخفاء مشاعر الضياع التي تسللت إلى روحه. جلست ليالي على مقعد الانتظار، تطالع "جلال" بنظرات متفهمة، وكأنها تشعر بما يعتمل في صدره، وعندما نظر إليها، قال باضطراب:

_فلوس كشف، وفلوس تحليل، ولسه فلوس أدوية... أسرق ولا أعمل إيه بس يا ليالي؟

ليالي:معلش يا جلال هنقوله يكتبلنا أرخص علاج.

جلال:يلا بقى هنعمل إيه طب؟

حينما قدما دورهم، دخلوا إلى غرفة الطبيب، حامليْن معهما نتيجة التحاليل التي أعدوها في معمل قريب من العيادة. بمجرد أن استقروا على الكرسيين أمام المكتب، تسلّم الطبيب النتيجة، وبدأ ينظر إليها بتمعن وكأنه يقرأ سطورًا من رواية معقدة. كانت أنفاس جلال تتسارع، مختلطةً بمزيج من القلق والترقب، فهو يعرف أن هذه اللحظة قد تغيّر كل شيء في حياتهم. اختلس نظرة إلى ليالي، فرأى في عينيها بريق الأمل المشوب بالقلق. فجأة، كسر "جلال" صمت الغرفة، وسأل بفضول:

_إيه يا دَكترة، طمنا التلوث جاي من إيه؟

الطبيب:تلوث إيه بس يا أستاذ؟ مبروك المدام حامل.

جلال بصدمة:هار أسود!

بينما علم "جلال" أن زوجته حامل، اجتاحت مشاعر مختلطة في قلبه، وبدأت تشتعل في داخله نيران الانهيار. أخذ يلتقط أنفاسه بعمق، لكنه لم يستطع السيطرة على تلك العواطف المتلاطمة. اتجه نحو الطبيب بخطوات مُنفعلة، محاصرًا إياه بنظرات غير مرتاحة. بينما أخرج المطوى من جيبه، ارتفعت حدة صوته بشكل غير متوقع، وهو يصيح:

_يعني إيه يا معلم الكلام ده؟

الطبيب بفزع:أنا مالي؟ أنا مالي؟

جلال بشر:هقتلك يا جدع مش هتاخد في إيدي غلوتين!

الطبيب بصياح:أنا ذنبي إيه يا أستاذ؟ كلمها هي، أنا مالي؟

حينما استفاق جلال من حالة الهياج التي عاشها، تراجع خطوة إلى الوراء، وترك الطبيب، وكأن الجدران قد صكت عليه فجأة، فخرج من الغرفة بخطوات متعجلة. كانت قدماه تدفعانه للخروج كما لو كان يحاول الهرب من واقعه، بينما تتبعته ليالي مع طفليهما. نظرت إليه، وعيناها مليئتان بالهلع. كان قلبها ينبض بسرعة، تخشى أن يتركها في تلك اللحظة الحرجة. حاولت أن تلحق به، بينما صرخ الأطفال في خلفية المشهد، يمسكون بأطراف ملابسه ووجوههم تعكس براءة لا تنتهي.

أم الديب الجزء الثالث

كان جلال يخطو بخفة نحو المخرج، بينما أخذ يطارد الأفكار السامة في رأسه. كانت أنفاسه تتصاعد في صدره. عندما وصلوا إلى الممر، تباطأ قليلًا، ليلتفت نحو "ليالي"، فتلاقت نظراتهما، وكأنهما يبحثان عن إجابة مشتركة بينهما. وقفت ليالي في تلك اللحظة، تحاول جمع شتات نفسها، قائلة:
_الله، استنى يا جلال في إيه؟

جلال بانزعاج:جرا إيه ياما؟ هو أنا ملاحق على عيلين لما يبقوا تلاتة؟ ولما أمشي شمال تتقمصوا... لو عاوزانى أسرق علشان أأكلكم يا ليالي عرفيني!
ليالي بقلق:براحة يا جلال، هي دى حاجة بمزاجي يعني؟
جلال بشك:يعني البورشام اللي بتاخديه طلع مغشوش؟
ليالي:لا ياخويا، بس ده أمر ربنا، وبعدين العيل بيجي برزقه.
جلال بوعيد:العيل ده ينزل ألا ويني، هقتلكم قتيل!
ليالي بنواح:يا مصيبتي!

عند "أم الديب"، وبعدما غادر حسين وزياد، جلست على السرير في غرفتها الصغيرة. كانت تتأمل الأموال التي كسبتها، تلك الأوراق التي تُعدّ بمثابة ثمار تعبها وجهودها، تتلألأ في ضوء الغرفة الخافت كأنها جواهر مكنونة. أخذت تمسك بالأوراق بين أصابعها، وتعدّها ببطء، كمن يعدّ اللحظات الثمينة التي مرّت، وفي قلبها، كانت تتصاعد مشاعر مختلطة من الفخر، فهي تعرف أن هذه الأموال قد تُحدث فارقًا في حياتهم، ولكنها أيضًا تعي أنها لن تكفي لتغيير الواقع الذي تعيشه. نظرت حولها، ثم قالت في نفسها بصوتٍ خافتٍ، كأنها تخاطب شبح الأمل:
_كده عشرين، أربعين، ستين، خير وبركة... أما نشيلهم على جنب، بكرا الفلوس تزيد وتبقى كومة فلوس قد كدهو وتفتحيلك المشروع يا أم الديب وتكسبي دهب.
انقضت "نعمة" نحوها فجأة، فأصاب أم الديب الفزع من رؤيته، وكأنها واجهت طيفًا غير متوقع في ظلمة الليل. جلست نعمة حيالها، محاطة بهالة من الفضول، وكأنها تعبر عن رغبتها في اكتشاف أسرار عالم أم الديب المغلق، مُتسائلة:
_انتي بتعدي إيه ياما؟
عندما لمحت "أم الديب" نعمة، تسارعت نبضات قلبها في خفية، ويداها لم تتردد لحظة في إخفاء الثروة تحت الوسادة، فاندفعت نحوها قائلة بفزع:
=دهي فلوس الجمعية، أصل مرات خالك هتبعت حد ياخدهم كمان شوية.

نعمة باهتمام:جمعية؟ جمعية إيه دي ياما؟ أنا أول مرة أعرف إنك في جمعية!
أم الديب بكذب:لا يا بت مش آني اللي في الجمعية... ده... ده آني داخلة بدال خالتك أصلها مش فاضية الأيام دهي.
نعمة بريبة:مش مصدقاكي ياما، قلبي حاسس إنك بتكدبي.
أم الديب بتمثيل:ده آني طيبة وعمري ما أكدب ولا عمرها حصلت مني.
نعمة:طب ما تخليكي دوغري ياما، وبلاش لف ودوران الفلوس دي بذمتك مش بتاعتك؟

أم الديب الجزء الثالث

لم تكن نعمة تستطيع تصديق ما تلوكه شفاه "أم الديب"، إذ كانت تشعر بشيء من الريبة ينخر في أعماقها، وفجأة، وكأنّ عاصفة قد هبت، ارتفعت نبرة صوت أم الديب، وصاحت بغضب موجه إليها، قائلة:
_بقى يا نعمة بتكدبي أمك؟

نعمة:لا ياما مش القصد.
أم الديب بنحيب:يا عيني على بختك في عيالك يا أم الديب.

بكت أم الديب بصمت مؤلم، وكأنّ عواطفها تحولت إلى سحابٍ يحمل غيومًا دون مطر، فتراجعت "نعمة" في حديثها، تتلمس كلماتها بحذر، وقالت:
_خلاص ياما، ماهي كل مرة بتبدأ بالحتة دي ومن بعدها الدنيا بتقوم ما بتقعدش.

أم الديب بحدة:يبقى اتعدلي يا بت!
نعمة:حاضر ياما، أمال أبويا راح فين؟ مش شايفاه يعني.
أم الديب:تلاقيه متلقح في الحمام.

مرت "هايدي" أمامهم كنسمةٍ خفيفة، تتحدث مع خطيبها، وقد انشغلت بالهاتف، متجهة نحو المطبخ، وهي تنطق بكلمات تنساب كالماء، قائلة:
_لا مش دلوقتي، أصل مفيش مزاج.
لكنّ فزعًا قد اجتاحها حينما صاحت "أم الديب" بها، معترضةً على حديثها مع خطيبها قبل الزواج، مُخافةً على سمعتهم في أعين الناس، قائلة باندفاعٍ مشحون:
_بطلي كلام مع المخفي دهو، لما يتنيل على عينِه ويبقى جوزك ابقي كلميه، متخليش الناس تاكل وشنا!

نعمة:سيبك منها ياما، أما قوليلي ألا بحق ليالي تعبانة؟
أم الديب ببغضاء:ياكش تتعب ولا تولع، جاتها ستين مصيبة تاخدها، احنا هنديها أكبر من حجمها ولا إيه يا بت؟
نعمة:حرام عليكي ياما متقوليش كده دي مهما كان مرات ابنك!
أم الديب بصياح:افتحيلنا سيرة عدله ياختي، سايبة كل حاجة وملقتيش غير ليالي اللي تتكلمي عنها؟ من جمالها يا بت؟
نعمة بندم:ياريتني ما فتحت بوقي.

بعد نصف ساعة من تبادل الأحاديث العميقة بين الأم وابنتها، استنفدوا ما في جعبتهم من أفكار حول كل تفاصيل الحياة، بينما كانت هايدي قد خرجت إلى الشرفة، تغوص في أجواء رومانسية مع زياد عبر

أم الديب الجزء الثالث

الهاتف. وفجأة، صعد "جلال" وأولاده الدرج، ملامح السخط تُعطر وجهه، وهو يحادث زوجته بامتعاض، قائلًا:

_وأنا مش هصرف على تلات عيال يا ليالي!

ليالي:ومتصرفش ليه يا جلال هو العيل اللي جاي ده مش ابنك برضة؟

حتى بلغوا شقة أم الديب، حيث خرجت نعمة وأم الديب على صدى صياحه الذي جلجل أرجاء المنزل برمته، وسألت "نعمة" بفضولٍ مشوب بالقلق:

_مالك يا جلال في إيه؟

جلال بسُخط:باركيلها ياختي، باركيلها، حامل !

يا للهول! خبر الحمل، الذي يسعى الكثيرون إلى سماعه مستعدين لدفع الآلاف لدى الأطباء، لم يكن له وقع السعادة على مسامع جلال عندما استمع إليه، إذ نطق بكلامه السابق وهو كامد، وكلما تذكر حجم المسؤولية التي باتت تثقل كاهله، شعر وكأن فيضانًا من الحنق قد اجتاح رأسه. ولكن، في المقابل، كان هذا الخبر بمثابة شعاع من الفرح سطع في قلب نعمة، مملوءًا بالأمل والتوقعات الجديدة.

يتبع....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الحادي عشر

غمرت السعادة العارمة حياة "نعمة" بعد أن تدفقت إلى مسامعها كلمات جلال الموحية بحمل ليالي، وكان الفرح كالنور المتوهج يفيض من حولهم ويغمر الأجواء بحسٍّ من البهجة. نعمة، بقلبها الأبيض الذي ينبض بالحب الخالص للناس، لم تعرف للضغينة طريقًا، على عكس والدتها التي كانت تخفي في سريرتها نوايا سوداوية تجاه الجميع، تقتات على مرارة الحقد. أما أم الديب، فلم يكن للخبر وقع السرور في قلبها؛ بل زادها حنقًا، إذ بدا لها وكأن ليالي حملت بخبث مقصود لتُقيد جلال إلى جوارها وتضيف ثقلًا جديدًا على كاهل الرجل المرهق بالمصاريف. اقتربت نعمة بخطوات تحمل دفء المحبة نحو صديقتها العزيزة، واحتضنتها بحرارة، وهي تقول بفرحة صادقة تنساب من قلبها:

_بجد والله يا ليالي؟

ليالي بتَجَهُّم:أيوه يا نعمة.
نعمة بسرور: مبروك يا ليالي يا حبيبتي.
ليالي بعُبُوس: الله يبارك فيكي يا نعمة.

وسط سيل التهاني التي كانت تنهمر من شفاه نعمة على مسامع ليالي، اخترقت أجواء الفرح صرخة حادة من "أم الديب" ، معبرة عن اعتراضها الشديد على حملها بطفل ثالث بعد أن رزقت بطفلين. بدت وكأنها تتعمد البحث عن الذرائع والمشكلات من العدم، لتثير الزوابع بدلًا من أن تشارك في تهنئتها.
دارت الكلمات بينها وبين ليالي في حوار أشبه بمواجهة مُحملة بنبرة ساخطة:

_ايهي مبروك على إيه يا بت منك ليها؟ مانتي خسرانة إيه يا ليالي؟ مانتي مش راحمة ابني، ونازلة مصاريف عمال على بطال وكمان مش عاجبك رايحة تحبلي، هيصرف على تلات عيال ازاي يا مخفية؟ مانتي كل اللي يهمك نفسك، بدل ما تنزلي تشتغلي وتتمرمطي عشان تساعديه في البيت... لا شغالة زي المكنة، مانتي موراكيش غير الخلفة، كل كام سنة جايبالنا عيل، يا عيني عليك يابني بختك مايل هتلاحقها على مين ولا مين؟

ليالي بسُخط: ليه هي دى حاجة بمزاجي ولا إيه؟ ده أمر ربنا مفيهوش نقاش، وإن كان على الخلفة فالمفروض تفرحي إن مرات ابنك أرض خصبة، أنا عمري ما شوفت كده، إيه ده؟
أم الديب بصياح: اسمعي يا بت، من بكرا تنزلي تخدميني مادام انتي فالحة أوي كدهو في الخلفة، اتشمللي وانزلي ساعدي حماتك الغلبانة اللي مش لاقية حد يساعدها.
ليالي ببرود:عيالك أولى بيكي.

أم الديب كانت لا تريد سوى تعقيد حياة ليالي، واعتقدت بكل قناعة أن ليالي تتمتع بصحة حديدية وقدرة لا تنضب، تستطيع من خلالها الحمل تكرارًا دون كلل، وتتحمل مشقة تنظيف الدار مرارًا وتكرارًا بلا انقطاع. في عيني أم الديب، لم تكن ليالي سوى خادمة وضيعة، تزوجها ابنها لا لشيء إلا لتلبية رغباتها وتخفيف عبء الحياة عنها. ولكن بعد أن غمر الصمت أرجاء المكان ووقف "جلال" متأملًا للحظة، ما

أم الديب الجزء الثالث

لبث أن انفجر سخطه المكتوم. بدا وكأن شيطانًا جبارًا قد استولى عليه، فتحول من زوج هادئ إلى وحش كاسر، وراح يصرخ بأعلى صوته، قائلًا بنبرة تقطر بالرفض:

_اطلعي يا ليالي، لو هتعملوا حوارات تاني أنا ههد الدنيا فوق دماغكم ومش هيهمني حد!

حانت اللحظة لتتقدم "نعمة" بخطوات مترددة ولكنها حاسمة، تُسارع للتدخل قبل أن يتفاقم النزاع كعاصفة لا تهدأ. بنبرة تجمع بين الرقة والرجاء، التمعت كلماتها وكأنها تسعى لتبريد قلوبٍ ملتهبة، قائلة:

=استهدوا بالله، ده في ناس مش طايلة ضوفر عيل، ده بدل ما نحمد ربنا على الرزق اللي جالنا؟

أجابتها "ليالي"، وقد خيّم الاستياء على وجهها وظهر جليًا في نبرتها المتهدجة:

_قوليلهم يا نعمة.

وقف جلال في منتصف الصالة، وقد علت ملامحه الجدية الصارمة، معيدًا كلماته بحدة لا تقبل النقاش، مشددًا على ضرورة الامتثال لما قاله، فيما صوته الجهوري يتسلل كعاصفة إلى كل ركنٍ في الحي، كأنما يرغب في أن يسمعه الجميع، ليحسم الأمر بلا رجعة. وفي تلك اللحظة، انتبهت هايدي إلى ارتفاع الأصوات المُتصاعدة من الداخل، فأسرعت بالدخول من البلكونة، لتجد نفسها وسط شجارٍ حامٍ رباعي، كأن كل زاوية في المنزل كانت تشتعل بنار الكلمات الملتهبة. وقف "جلال" كالرعد الهادر، وقال بصوتٍ ارتجف له جدران المنزل:

=اطلعي أنا مش هعيد كلامي مرتين، يلا ياض انت وأختك اطلعوا فوق !

بعد أن هدرت الصرخات في المكان، وتصاعد النزاع العنيف بين أفراد العائلة، حيث تهاوت الآراء المعارضة لحمل ليالي بطفل آخر، والسبب في ذلك كان واضحًا؛ الدخل المادي الذي يوشك أن يصبح سرابًا. بينما كان الجميع غارقين في موجة من الاعتراضات، كانت "تقى" الصغيرة تعيش في عالمٍ موازٍ، تحلق فيه بأحلامها البريئة. كانت تأمل بصدق أن تحمل والدتها بتوأم. تسللت كلماتها من بين شفتيها الصغيرتين ببراءة الطفولة الخالصة، لتنطق بحديث بسيط لكنه كفيل بإشعال المزيد من المشاعر في جلال، وقالت بعينين مشرقتين كالنور:

_يارب يا ماما تخلفي توأم.

صدم "جلال" يده بقوة في الحائط، وكأن امتعاضه قد بلغ ذروته، حتى اهتزت الجدران بعنف ارتجاف يده. بدا وكأنه فقد السيطرة على نفسه في اللحظة التي وصلت إليه كلمات تقى البريئة. تحولت ملامحه إلى شيء أشبه بالجنون، وكأن النيران اشتعلت في داخله، ليصرخ بصوت هدَّ أرجاء المكان، وهو يقول:

=إيه؟

ارتعب الجميع من الانفجار الحانق الذي اجتاح المكان، كأنما كان بركانًا ثائرًا يتفجر في وجههم. فهربوا مُسرعين، متجنبين طريق جلال، وصعدوا للأعلى في محاولة لتفادي غضبه الذي لا يُحتمل. وفي تلك اللحظة، بقيت "نعمة" وأم الديب فقط، وقررتا مواجهة جلال. جلستا إلى جواره على الأريكة التي بدا وكأنها تئن تحت وطأة التوتر. تنهدت نعمة، مُحاولة تهدئة الوضع، وقالت له بصوتها الحنون الذي يمزج بين الهدوء، والرجاء:

أم الديب الجزء الثالث

_استهدى بالله ياخويا متحرقش في دمك كده، روق بس، ده رزق وجالك لحد عندك هنقوله لا؟ ده العيل بيجي من هنا ورزقه بينزل معاه، متعكرش دمك بس.

جلال بضيق: وأنا كنت اتكلمت يا نعمة؟ الحوار كله على المصاريف والزفت... أسرق ولا أقتل ولا أعمل إيه؟ أنا هشوف خالي ضايع يشغلني معاه ده له سكك في كل حتة.

في خضم فوران دماء جلال الذي بات يشتعل بسبب الضغوطات المتزايدة فوق رأسه، كان كأنما محاصرًا في دوامة من الهموم التي لا تنتهي. لم يكن يعلم كيف سيلبي احتياجات أسرته الصغيرة من مشرب ومأكل وملبس وتعليم، حتى كاد عقله أن يجن تحت وطأة هذا العبء. وسط هذه الفوضى، كانت نعمة، بحصافة شخصيتها، تحاول جاهدة تهدئة أخيها، مستعينةً بكل ما لديها من حكمة ورحابة صدر، ولكن "أم الديب"، التي كانت تقصد تحريضه على الشر، كانت تراقب الموقف بعيونٍ تُجيد اللعب على أوتار القلوب. تمالكت نفسها، ثم تحدثت بكيد الحموات:
_ايهي ده انت عبيط يا ولا، بقى تروح تشتغل علشان تزود فلوسك وتبقى ليالي بت سلامة الواطي، ضربتنا على قفانا؟ ده بدل ما تديها بالقلم؟ خليها تنزل اللي في بطنها... تسرق علشان تصرف عليهم ولا إيه يا ولا؟

جلال ببؤس:ربك يحلها ياما.

تعجبت "نعمة" من حديث والدتها، وكأنما كلماتها جاءت من عالم غريب لا ينسجم مع واقعها. نظرت إليها باندهاش، ثم قالت لها باستغراب:
_إيه ياما ده؟ انتي بتسخنيه على مراته بدل ما تقوليله كلمتين يهدوه؟

أم الديب بمكر: مانتي عارفاني يا نعمة بحب أقول الحقيقة، مبحبش الكدب، وآني لو ضحكت على ابني هيغرق من تحت وش ليالي العقربة... لكن واجب عليا أنصحه، أمال إيه؟

تجاهلت "نعمة" حديث والدتها الذي لم ينل إعجابها، وكأن الكلمات لم تكن سوى هواءٍ يمر بجوارها دون أن يترك أثرًا. ثم نطقت، وهي توجه حديثها لجلال بقلب طيب، وعينين تحملان الأمل:
_سيبك من كلام أمك، خليك معايا أنا... اهدى كده ياخويا واطلع قول لمراتك مبروك، وسيبها على ربنا، ده ربنا مخلقش حد ونسيه! لأن ربنا مبينساش حد...
نهض "جلال" بسرعة قبل أن تواصل نعمة حديثها، متجاهلًا إياها عن عمد، وكأنما أراد أن يفصل نفسه عن هذا الحوار الذي يثقل كاهله. وهو يخطو خارج باب الشقة، قال لها بنبرة حادة تنم عن استيائه:
=طيب أنا طالع، سلامو عليكو.

نعمة بصخب: يوه ده أنا لسه بتكلم!

أم الديب الجزء الثالث

تضايقت نعمة من هذه الحركة الوضيعة التي تجسد الكثير من اللا مبالاة وعدم التقدير، فكان حديثها ساخطًا تجاه تصرف أخيها، رغم أنها كانت تنصحه بقلب الأخت المحبة الذي يسعى دائمًا للخير.
صعد جلال إلى شقته، وفتح الباب ثم دخل غرفته في صمت مُطبق، دون أن يتبادل حديثًا مع ليالي الجالسة على الأريكة برفقة ابنتها تقى. كانت ليالي تشعر بتأنيب الضمير، وكأنها قد صبّت البنزين على النيران بدلًا من إخمادها، فيما كانت تتساءل عن مدى قدرتهما على تحمّل هذا العبء الجديد. بينما في الأسفل كانت "أم الديب" تراقب المشهد، فتوجهت إلى ابنتها نعمة بسخرية لاذعة، قائلة:
=مش عاجبه كلامك يا بت، انتي عبيطة وخايبة عايزة أخوكي يتضرب على قفاه بدل ما تنصحيه وتقفي جنبه؟

نعمة بهدوء: لا أنا مش عبيطة وخايبة ياما، أنا محضر خير وسطكم، أحسن ما أولع الدنيا حريق ويتجنن في مخه ويمد إيده عليها.
أم الديب بعصبية: ياختي اولعوا كلكم.

دخلت أم الديب غرفتها، وصكت الباب في وجه نعمة، لتتركها وحيدة غارقة في بحر من التفكير حول أخيها وزوجته، حتى انقطع حبل أخبارها وهي تصعد الدرج متجهة إلى شقتها. وعندما دخلت، غيرت ثيابها واستسلمت لقيلولة الظهيرة، كأنما تبحث عن مهرب من هموم الحياة. بينما في شقة جلال، كان ذهنه يدور كعجلة محمومة، يتقلب بين الأفكار، ساعيًا للنقب عن فكرة يمكن أن تنشلهم من براثن الفقر، وفجأة، ظهر له بصيص من الأمل، فابتسم وجهه وكأنما أزال حجرًا ثقيلًا من فوق كاهليه. كانت الفكرة تتسم بمشاركة أم الديب في هذا المشروع، لكنه كان عازمًا على البقاء حذرًا حتى لا تتمكن الماكرة منهم، ولا يقعوا في بئر خداعها. في اليوم التالي، بعد أن عاد "جلال" من عمله، دخل شقة والدته ليجدها جالسة على الحصير كعادتها، تتناول الجرجير أمام شاشة التلفاز، وكأنها تعيش في عالمٍ منفصل. فجلس إزاءها، وأشعل الحوار بسؤال يحمل في طياته الكثير من الأهمية، قائلًا:
_أما قوليلي ياما، مش عاوزة حد معاكي في المشروع ده؟

أم الديب بابتسامة: لو تعرف حد عرفني أصل بالصلاة على النبي بكرا المشروع دهو يكبر يكبر يكبر لحد ما يجيبلنا ملايين.
جلال بتفكير:بس ياما انتي كده محتاجة عِمالة عندك!
أم الديب باستفسار:يعني إيه ياخويا؟
جلال بتوضيح:ناس تشتغل معاكي.
أم الديب:آني مش هشغل حد معايا، مش عاوزة غير نفر واحد، ونبوس إيدينا وش وضهر على كِده.
جلال:طب ولو قولتلك هدخل معاكي؟

أم الديب:يبقى خير وبركة ياخويا، اللي مني أحسن من الغريب اللي هيطمع فيا وفي فلوسي.
جلال:هو لسه ياما بقى في فلوس؟

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب:بكرا يبقى في يا ولا، وبعدين المخفية مراتك خلينا نستفيد منها بدل ماهي قاعدة زي قِلتها كدهو.
جلال بتعجب:ازاي ياما؟ مش فاهم!
أم الديب:يعني مراتك انت بتقول يعني إنها بتعرف تطبخ ولو إني أشك، تجيبها معاك وتعملنا وصفات نبيعها، بس خد بالك آني اللي همسك العصاير وهي مش هتمد إيديها في حاجة!
جلال بارتياب:اشمعنا العصاير؟ انتي مشكوك في أمرك، حاسك بتلعبي بديلك ياما !
أم الديب بدهاء:ده آني غلبانة يا ولا، ها قولت إيه؟
جلال:وماله ياما؟ هقولها واللي فيه الخير يكتبه ربنا.
أم الديب ببشاشة:وماله ياخويا؟ على بركة الله.

كأنما كانت أم الديب تقول "افعل كل شيء عدا المشروبات"، لكن هذه الجزئية بالتحديد أثارت الشك في نفس جلال، حيث تساءل في داخله: لماذا تُمنع المشروبات من التدخل في المشروع، بينما لا بأس في الحلويات الشرقية؟ كان كأنهما ثعلبان يتحدثان معًا، ولا أحد منهما يستطيع تصديق الآخر. كان جلال دائمًا يشعر بأن هناك مكيدة تُدبر له في الخفاء. جلال وأم الديب ثنائي لا يجتمع أو يتوافق، فكيف سيتفقان على مشروع واحد، بموافقة الطرفين؟ رغم كل التعارضات بينهما، قررا في النهاية إطلاق الفكرة والبدء في مشروع سيحوي كل أنواع المشروبات والحلويات، سواء كانت مألوفة أو طريفة. بعد جدال مرير، صعد جلال إلى شقته حيث كانت ليالي تنتظره. جلسا معًا أمام الطاولة الريفية، يواجهان التلفاز الذي يعرض المسلسلات، يتناولان البقسماط ويشربان الشاي بالحليب. حكى جلال لزوجته عن المشروع، مفصلًا الفكرة والآمال المرتبطة بها. ولم تُمانع "ليالي"، بل على العكس، وافقت بشغف، قائلة:

_فكرة برضة، بس إيه ضمنا إن أمك هتدينا حقنا مش هتلهف الفلوس في جيبها ومحدش هيطول منها حاجة؟

صاح "جلال" فيها، وترك تناول الطعام، فتغيرت معالم وجهه من الهدوء إلى الاحتدام، مما أثار الذعر في نفس ليالي. كأنما تحولت الأجواء حولهما إلى غيمة داكنة، وقد صدح قائلًا بصوت يعبّر عن الضغط:

=ليه يا بت شايفة جوزك بياخد على قفاه ولا إيه؟ ده أنا راجل وسيد الرجالة، ومحدش يقدر يضحك عليا، انتي نسيتي أنا مين ولا إيه؟ ده أنا جلال اللي بنيم الشارع من المغرب!

ليالي بتراجع:خلاص ياخويا مكنتش كلمة، هو أنا أقصد يعني؟ أنا كل اللي أقصده إن أمك ضلالية وتاكل مال النبي.
جلال بحدة:على أي حد تاني مش عليا، ها قولتي إيه؟ موافقة ولا لأ؟
ليالي بموافقة:موافقة، مقدامناش حل غير كده.
جلال:أنا هتصل على خالي ضايع يسلفنا فلوس نفتح بيها المشروع ده، ولما ربنا يرزق نبقى نردهاله.
ليالي:اللي تشوفه يا جلال المهم مصلحتنا في الأول والآخر.

أم الديب الجزء الثالث

جلال:ماشي.

نهض جلال، وجلس على الأريكة، ونشب هاتفها بين قبضتيه، وكانت ذراعيه المكدسة بالعروق البارزة تعكس رجولته الطاغية وشراسة شخصيته. ابتلع بقايا الطعام في فمه، بينما كان يبحث في الشاشة عن جهة الاتصال "المَعلمة كلها". أما ليالي، فكانت تراقبه بقلق، تستأنف تناول البقسماط وشرب الشاي بالحليب، عيناها تتنقلان بينه وبين الشاشة التي تعرض مشاهد من التلفاز، في أجواء تتسم بالهدوء، حيث كان أطفالها نيامًا. في تلك الأثناء، خرج "ضايع" من المرحاض في المبنى المُريب ذي الإضاءات الحمراء والخضراء، وكل شيء في تلك الصالة الواسعة كان يعكس كآبة الجو؛ السرير، والخزانة، والمطبخ، حتى الأريكة والطاولة، وكل منها يحمل طابعًا سوداويًا، كأنه مرآة تعكس ما يعتمل في قلبه. جلس على الأريكة في تلك الأجواء المرعبة، وعضلاته تتلألأ من بعيد رغم خفوت الضوء، ثم قال بنبرة وضيعة تحمل في طياتها كلمات مُروعة:

_ألو يابن أختي.

جلال بابتسامة:ازيك يا خالي عامل إيه؟
ضايع بود:تمام يابن أختي.
جلال بتردد:بقولك يا خالي كنت عاوزك في مصلحة كده.
ضايع:قول، أنا رقبتي سدادة!
جلال:عاوز فلوس سلف أفتح مشروع.
ضايع بابتسامة:من العين دي قبل العين دي، بس قولي مشروع إيه؟ حشيش، ومخدرات، ولا بيرة؟
جلال:لا يا خالي مش كده، أصل هحكيلك.

شرع جلال في سرد مشكلته لخاله، عازمًا على إقناعه بمساعدته بالأموال أو حتى أن يجد له وظيفة غير شرعية، على الرغم من معرفته التامة بأن خاله لا يسير سوى في الطرقات المشبوهة، حيث تتشابك الأقدار في عالم مليء بالمعضلات. كان جلال يعلم في أعماق نفسه أن خاله، رغم كل ما يحيط به من فوضى، كان بمثابة مرآة له، توأم لا يفترق، يتعلم منه كل شيء، حتى وإن كان هذا الشيء مفعمًا بالفساد. في الجهة الأخرى، كانت أم الديب جالسة على الفرشة في السوق، تتأمل الزبائن بينما تبيع العصائر التي أعدتها بعناية، حيث كانت الزجاجات مرصوصة أمامها بتناسقٍ يثير الإعجاب، وكأنها تحاول أن تصنع جنة من الفوضى، وفي تلك اللحظة، ظهرت نعمة، مرتدية عباءة زاهية بحيوية، تحمل حقيبة السوق التي امتلأت بالخضروات والفواكه الطازجة بعد جولتها في السوق. اقتربت من والدتها، وبفضول يشع من عيني "أم الديب" سألتها بلُطف:

_إيه يا بت كنتي فين؟

نعمة بإرهاق:كنت بشتري شوية طلبات للبيت ياما، ده أنا لفيت لف خلاص مابقتش قادرة.
أم الديب:طب أقعدي يا بت ارتاحي !

أم الديب الجزء الثالث

دلالات الإرهاق كانت واضحة على وجه نعمة، أشبه بمن يجري في سباق ماراثوني لا نهاية له، حيث كان العرق يسيل على جبينها تحت أشعة الشمس الحارقة التي تلطخ الجو بالحرارة المتصاعدة. أفسحت أم الديب لابنتها مكانًا لتجاورها على الفرشة، فجلست نعمة منهكة، تحمل حقيبة التسوق وكأنها ثقل العالم على كاهلها، وبدأت تنضح مياه الزجاجة على وجهها، محاولة تخفيف أعباء الجو الحار الذي يحيط بها. بعد قليل، ظهرت "سيدة ريفية" في عمر الخمسين، تحمل بين قبضتيها كيسًا يحوي البطاطا الحلوة، ونظرت إلى نعمة بإعجاب، كأنما رأت فيها ملامح النعومة، وكانت تلك السيدة راغبة في تقديم نعمة كعروس لابنها الثلاثيني الذي يبحث عن زوجة منذ سنة ماضية، فسألت أم الديب بابتسامة فسيحة، تضيء وجهها المُرهق:

_دي بتك ولا إيه يا أم الديب؟

أم الديب بصياح:ايهي هو مش باين من الشبه اللي بينا ولا إيه يا ولية؟ هي البعيدة عامية؟
السيدة بحَيْرَة:أصلها طويلة أوي وانتي يعني...

المقصد كان واضحًا، فالفارق بين أم الديب ونعمة شاسع في الطول والشكل، حيث كانت نعمة، البالغة مائة وسبع وسبعين سنتيمترًا، تُظهر قامةً طويلة تُشبه الزهور في ربيعها، بينما والدتها، التي لا تتجاوز مائة وخمس وخمسين سنتيمترًا، كانت تمثل قامةً أقصر، مما جعل ذلك أشبه بالتنمر بالنسبة لأم الديب، التي شعرت وكأنها تُقارن بمكانتها المنخفضة. نهضت "أم الديب"، وغلظت نبرتها، وكانت تلك الحركة بمثابة إشعار بالتحذير، فهذا هو أقوى دليل على مشكلة وافدة من منبع الأزمات التي لطالما كانت تخنق روحها. نطقت بعجيج، وكأن الكلمات تتسابق لتخرج من بين شفتيها، بينما كانت السيدة أمامها ترتجف فزعًا:

_كملي يا ولية بدل ما أدب ايدي أطلع بزورك أموتك!

استقامت "نعمة" بسرعة، لتباعد والدتها عن السيدة، وكأنها تسعى لحماية الجميع من شرارة قد تشتعل في لحظة. حيث قالت بخرع يترنح بين صوتها:

=خلاص ياما براحة مش كده، أه أنا بنتها يا حاجة.

نظرت "السيدة" إلى نعمة بإعجاب، وكأنها ترى فيها مزيجًا من الجمال والبراءة، ثم سألت أم الديب باحتراس، كما لو كانت تحاول قياس كلماتها بعناية:

_ماشاء الله عليها، هي مخطوبة؟

أم الديب بفظاظة:ايهي انتي مش شايفة الدبلة في ايديها الشمال ولا إيه؟ دهي متجوزة ومعاها عيل.
السيدة بفضول:ميبانش عليها خالص، ربنا يخليهالك... انتي عندك عيال تاني يا أم الديب؟
أم الديب بفخر:أمال إيه؟ عندي تلاتة تانيين.
السيدة:ربنا يباركلك فيهم.
أم الديب بنفور:يارب ياختي.

أم الديب الجزء الثالث

تلاشت أصداء المشكلة وتبددت سحبها الكئيبة بفضل الجهود الحثيثة التي بذلتها نعمة، تلك الشخصية التي كانت بمثابة المنقذة في عتمة الأزمة. فجلس الاثنان مجددًا، كأنما أعيدت إليهما الحياة بعد مغادرة السيدة التي اتجهت لتغمر نفسها في عالم التسوق البعيد. وبينما كانت "أم الديب" وابنتها تواصلان حديثهما، ارتفعت أصواتهما لتجسد عناق الأفكار، وبدأت الأم تخاطب ابنتها بعبارات تحمل بين طياتها الحكمة، قائلة:

_شايفة يا بت؟ مرات أخوكي هتجيب العيل التالت، وانتي ممعاكيش غير حتة عيل واحد.

نعمة:مش دلوقتي ياما، ده أنا اتعذبت في محمد، ده طلع عيني.

أم الديب:أما انتي بت كداية صحيح، اتعذبتي فيه فين؟ دهو مولود شبه البرص، ده الولا حمود كان مولود شبه العِجل، حتى كانت أمه اللي ما تتسمى بطنها خابطة في الحيطة واللي يشوفها يقول حبلة في توأم.

نعمة باهتمام:مش كل الناس زي بعضها ياما، المهم قوليلي هي الأزايز دي فيها إيه؟

أم الديب بحدة:وانتي مالك؟ اشربوا وانتوا ساكتين!

كيف يمكن لنعمة، التي عانت من معاناة قاسية في حملها الأول بطفلها محمد، أن تتطلع إلى الأمل في إنجاب آخر؟ فلطالما عاش قلبها في دوامة من المعاناة، حيث ارتبطت حياتها بجرعات المحاليل الطبية، وخرائط الوحدة الصحية التي كانت تزورها كل ثلاثة أيام بسبب فقر الدم الذي أصابها. كانت لحظات حياتها تمر ببطء، وأسيرةً للسرير، لم تستطع الخروج من عزلتها، مما حرمها من الانغماس في تفاصيل الحياة بصورة طبيعية. أما عن السر الخفي الكامن وراء زجاجات المشروبات، فسيظل طي الكتمان في أعماق أم الديب، تلك المرأة التي لن تفصح عنه مهما كانت التهديدات، حتى لو استُدعيت إلى حافة الموت. فقد مدت نعمة يدها برغبة محمومة، وتجرعت من ذلك المشروب الذي أطفأ لهيب الأجواء القاسية في قلبها. وفي شقة ليالي، جلست على سريرها، بينما كانت خصلات شعرها تتطاير بفعل الهواء العابر من نافذة الغرفة المفتوحة، حاملة معها عبق الزرع القادم من الأراضي الزراعية. كانت تتحدث مع تباهي في مكالمة هاتفية، وفجأة، لم تستطع "تباهي" أن تتمالك أعصابها عندما علمت بخبر حمل ابنتها. كانت ترغب في توزيع الحلويات على أهل القرية من شدة غبطتها، وفي صالتها، متكئة على الوسادة البرتقالية، قالت لها بفرح، محاولة أن تواسيها عن الأحزان التي غمرتها بسبب زوجها:

_ألف ألف مبروك يا بتي.

ليالي بحسرة:الله يبارك فيكي ياما وياريته عاجب.

تباهي بغبطة:مالكيش دعوة بكلام جوزك وحماتك، المهم انتي، وبعدين ده انتي تربطيه جنبك بالعيال الكتير... ده غير يا ليالي يا بتي العيال دول عِزوة هينفعوكي لما تكبري.

ليالي باستياء:عارفة كل الكلام ده والله ياما، المشكلة إن مفيش حاجة عاجبه، قايدة صوابعي العشرة شمع وبرضة بيحصل كده... أمال لو كان عندي مشكلة كانت حماتي عملت إيه؟

تباهي بابتسامة:ولا تفكري فيها من الأساس وافرحي، ولو تعبانة يا بتي تعالي أقعدي عندنا، نشيلك في عينينا لحد ما ربنا ينتعك بالسلامة.

أم الديب الجزء الثالث

ليالي باعتراض:لا ياما انتي مش هتقدري على خدمتي أنا والعيال، السن له حكمه برضة.
تباهي:خلي العيال عند ستهم وتعالي انتي!
ليالي برفض:أسيبهم عندها علشان تعملي فيهم مصيبة؟ ده لا هياكلوا أكلة عدلة ولا هيناموا نومة حلوة وهيطلع عينهم، انتي بتقولي إيه بس؟
تباهي:خلاص هاتيهم وتعالوا كلكم، على الأقل أكون مطمنة عليكم.
ليالي:مش هينفع ياما، مانا زي ما قولتلك كده، المهم بس طمنيني على أبويا! عامل إيه؟

كان اعتراض ليالي على الإقامة عند والديها عارمًا، ينم عن خوف غائر في قلبها أن تُترك أطفالها برعاية أم الديب، فيعودوا إليها كأنما أُعيدوا من مجاعة. كانت تدرك تمام الإدراك حجم المعاناة التي سيقضونها تحت جناحها، فحتى وإن كانوا في كنفها، لن تكون تباهي قادرة على تلبية احتياجات خمسة أفراد بفضل أعوام من الإرهاق. في السوق، أطلقت "أم الديب" نداءً مدويًا يجسد قسوة الألفاظ، وهي تتنقل بين المارة، كأنها محاربة في ساحة معركة. لم تتوان عن مواجهتهم، تتنازع معهم بعبارات بذيئة وتوجيه أسوأ المسبات إليهم إذا ما ترددوا في شراء بضاعتها. فكانت تنادي كل واحد منهم بصوت عالٍ، قائلة بصرخة تجلجل في الأجواء:
_انتي يا ولية ياللي هناك قربي اشتري مني مش هتندمي... العصير هيعجبك أوي ماهو أصل آني اللي عاملاه... يلا يا نسوان قربوا قربوا، انت يا راجل ياللي هناك تعالى نفعني ده آني على باب الله.
اقترب "رجل ستيني" منها، مرتديًا جلبابًا ريفيًا يحمل في طياته عبق الأرض وذكريات الأجيال، حاملًا بيديه حقائب التسوق المليئة بما جادت به الأسواق. وبنبرة تتسم بالفضول، سألت عينيه عن السعر، قائلًا:
_بكام يا حاجة؟

أم الديب بترقب: بعشرين جنيه.
الرجل باكتراث: ده عصير إيه؟
أم الديب بعجيج:وانت مالك؟ اشتري وانت ساكت !

غادر الرجل مكانه متجاهلًا حديثها، مما أثار ثورة "أم الديب" ، التي لم تتوانَ عن الاعتراض بشدة على مغادرته، وبصوتها الذي كان يتردد في أرجاء السوق كالرعد، أطلقت صرخة اعتراضية تعبر عن استنكارها، قائلة:
_في ستين داهية ياكش تقع تتكعبل وانت ماشي في طريقك، مآني اللي بيجي عليا مبيكسبش!
اعترضت "نعمة" بشجاعة على طريقة تعامل أم الديب مع الزبائن، وارتفعت نبرتها لتملأ الفضاء من حولها، قائلة:
=إيه ياما الطريقة دي؟ انتي كده هتطفشي الناس!

أم الديب بصخب:اللي يشتري مني وينفعني أشيله على راسي إنما اللي ميشتريش هياخد بأوسخ جزمة عندي.

أم الديب الجزء الثالث

نعمة بصدمة:لا حول ولا قوة إلا بالله، مش كده ياما... متخليش الناس تاخد عنك فكرة وحشة !

نهضت نعمة لتغادر المكان، ورمت نظرة أخيرة على الفوضى التي أثارها النقاش، ثم رفعت الحقيبة لتثبتها على كتفها، كأنها تحمل عبءًا ثقيلًا من الأحزان، وفي لحظة من الفضول الممزوج بالقلق، سألتها "أم الديب" ، محاولَة استجلاء ما يختلج في صدرها:
_ايهي رايحة فين يا بت؟

نعمة:هرجع البيت بقى، يلا عاوزة حاجة؟
أم الديب:مع السلامة ياختي.

غادرت نعمة، مُتجهة إلى منزلها. لكن عند جلال ارتدى أفضل ثيابه، تلك التي تجسد اعتنائه بمظهره واهتمامه بالتفاصيل، وخرج متوجهًا إلى اللقاء بخاله ضايع في ذلك المكان السري المريب الذي يُخفي بين جدرانه الكثير من الأسرار، حيث تحوم حوله هالة من الشكوك، وعندما وصل، استقبله "ضايع" بحرارة مفعمة بالشوق، ضامًا إياه بين أحضانه بقوة وكأنما يريد أن يعوض كل لحظة فرقت بينهما، معبرًا عن مشاعر الافتقاد العميق التي كانت تتراكم في قلبه طوال فترة غيابهما عن بعضهما البعض، قائلًا:
=منور الدنيا يابن أختي !

جلال بابتسامة:منورة بيك يا خالي، جهزت المصلحة؟
ضايع بزهزقة:أمال إيه؟ في الحفظ والصون... أقعد ارتاح انت بس.
جلال باطمئنان:ماشي يا خالي.

بعد أن دخل ضايع الغرفة، انفتح باب الشقة فجأة ليُفاجَأ جلال بوجود شخص غير متوقع يتخطى عتبة الباب، فكانت الدهشة تعلو ملامحه. حيث وقفت أمامه "الراقصة"، تلك التي كانت ترتدي ملابس خليعة تعكس جاذبيتها في مشهد يفيض بالإغراء، بينما كان المكياج الثقيل يضفي على وجهها مسحة من الغموض، وكأنها قد خرجت من عالم خيالي. كانت ترتدي كعبًا عاليًا يُزيد من أنوثتها، ويمنحها قامة رشيقة، في حين تزينت بأكسسوارات مبالغ فيها، تتلألأ كالجواهر تحت وهج الضوء، منادية ضايع بأعلى صوت، قائلة:
_يا ضايع، يوه هو راح فين بس؟
تفاجأت "الراقصة" بجلال، وكأنما لم تتوقع وجوده، فسالت نظراتها عن الحيرة، ثم تمالكت نفسها، وسألت بدلال يعبق بالإغراء:
_إيه ده؟ انت مين يا عينيا؟

جلال بصخب:جرا إيه يا بت؟ انتي اللي مين وإيه اللي جابك هنا؟
الراقصة بدلال:هكون مين يعني؟ مراته حبيبته.

أم الديب الجزء الثالث

ثم نادت ضايع مرة أخرى، وهي تتمايل برشاقة وكأنها ترقص على أنغام موسيقى خفية، قائلة بنبرة مفعمة بالأنوثة:
=يا ضايع، يوه، هو راح فين بس؟ يا ضايع!

دخلت الراقصة إلى غرفة ضايع، بينما بقي جلال في الانتظار، دقائق بدت كأنها أبدية، حيث انقضت ربع ساعة دون أن يخرج أحد. ثم دفعه فضوله إلى دخول الغرفة، فوجد ما كان يتخيله مستحيلًا. كان مشهدًا صادمًا؛ خاله ضايع يقف إزاء جسد الراقصة المُلقى، ملامح وجهه تتخللها بقايا الصدمة، بينما كان يمسح آثار الدماء التي لطخت يديه، مما جعل جلال يشعر كما لو أنه وُضع في قلب كابوس لا ينتهي. فوجئ جلال بما رآه، وكأن الأرض قد سقطت من تحت قدميه، فكر في عواقب هذا الفعل الذي لا يُغتفر. استنفر خاله ليُبدد قلقه بكلمات مطمئنة، لكن جلال كان في دوامة من الخوف. كانت تلك اللحظات ثقيلة على صدره، تدور حوله كدوامة من الأفكار المروعة. لم يحتمل فكرة أن يتورط في هذه الفوضى، فقرر أن يخرج، متجاهلًا كل ما يربطه بخاله الذي غاص في عتمة المخاطر. وعندما همّ "جلال" بالمغادرة وفتح الباب، صُدم برؤية الشرطة أمامه، فارتجف قلبه، وأوصد الباب بسرعة، محاولًا الهروب من مصير لا يُحتمل. كانت قدماه تسابقان عقله، وهو يركض بعيدًا عن مكان الخسارة، قائلًا بارتياع:
_الحق يا خالي الحكومة واقفة برا!

ضايع بشجاعة:متخافش ياض هو ده اللي أنا علمتهولك ولا ايه؟ احنا في الحالات اللي زي دي بنخلع، اخلع يابن أختي !

ركض جلال بكل قواه، قافزًا من نافذة المنور كأنه يحاول الهروب من كابوس حقيقي، محاولًا الابتعاد عن تلك اللحظة المروعة التي سيطرت على عقله. بينما كانت أصوات خبط الأقدام تتعالى خلفه، وكسر الباب، دخلت الشرطة المكان بشكل مهيب، لتقع أعينهم على الجثة الملقاة للراقصة. ألقوا القبض على ضايع، الذي حاول أن يبدو هادئًا، إلا أن توتره كان واضحًا في حركاته. قال "الضابط"، بلغة عجيجة تنم عن الجدية:
_عاملي فيها فاندام يا روح أمك؟

ضايع باستنكار:معملتش حاجة يا باشا، أنا دخلت لقيتها كده.
الضابط بجلجلة:بتستغفلنا يا روح أمك؟
ضايع بنشيج:كله إلا أمي، دي كانت ست طاهرة، الله يرحمك ياما، يا ست الحبايب يا حبيبة، آه ياما.

بينما كان ضايع في حالة من الارتباك، فاجأهم بتصرف غير متوقع، حيث بدأ يترقص ويغني بشكل هزلي، وكأنما يتحدى الموقف الذي يواجهه. كانت حركاته غريبة، تفتقر إلى الوعي بالمأزق الذي أوقع

نفسه فيه. فاجأ هذا التصرف "الضابط"، الذي لم يستطع كبح جماح حنقه، فرفع صوته عاليًا ليُعبر عن استيائه، قائلًا:

_فاكرنا في فرح بروح أمك؟ خدوه على البوكس، يلا!

عاد جلال إلى منزله، ودقات قلبه تتفاقم في نغمة مُتسارعة، كأنما تعزف سيمفونية من الخوف. كان ذهنه مشغولًا بالأحداث المروعة التي شهدها، وكأنها تتراقص أمام عينيه، فتجعل كل شيء حوله يبدو مشوشًا. عندما رأته زوجته "ليالي"، لاحظت التغير الواضح في ملامحه، فاقتربت منه بقلق، وسألت بصوت خافت:

_مالك يا جلال في إيه؟

جلال بصدمة:خالي ضايع....

ليالي بترقب:ماله؟

جلال بفزع:خالي قتل الرقاصة، ده قاتل اتنين قبل منها، والحكومة طبت علينا.

ليالي بنواح:يا لهوي هتروح في داهية يا جلال، هتتسجن وعيالك هيتشردوا، مين هيربي عيالك من بعدك؟ يا لهوي.

جلال بصياح:أسكتي يا بت بدل ما أمي تسمع وتطلع تجرصنا وسط أهل المنطقة! وأنا مالي أنا لقيتها داخلة سألتها انتي مين قالتلي مراته وبتاع، وشوية ودخلتله الأوضة وفضلوا كاتمين نفس بتاع ربع ساعة ولما روحت لقيته قاتلها، أنا ذنب أمي إيه؟

على الرغم من صياح جلال الذي كان يطلب منها أن تصمت ولا تفضحه أمام الناس، إلا أن "ليالي" لم تتمكن من كبح مشاعرها، فلطمت وجهها بيدها في حالة من الاضطراب الجسيم، وصاحت بقوة، مُعبّرة عن ألمها:

_يا لهوي يا لهوي يا لهوي.

جلال بضجيج:اكتمي يا بت متفضحيناش، الناس هتسمع!

ليالي بإعوال:زمانه جر رجليك في الموضوع وهتدبس معاه في المصيبة اللي عملها !

جلال بصياح:وأنا كنت لمستها ولا جيت ناحيتها ولا هو رمي بلا وخلاص؟

ليالي بنحيب:كان قلبي حاسس إن في مصيبة هتحصل مانت خالك ضايع ده مبيجيش من وراه غير المشاكل.

جلال بصياح:اكتمي يا بت بقولك، أنا مش عاوز أمد إيدي عليكي! عديها على خير يا ليالي ألا وربنا هتجنن عليكوا!

كلما صرخ جلال فيها، كان إعوالها يزداد، وكأن الذعر قد استقر في قلبها مثل ضيف غير مُرحب به، يخشى من أن تلقي السلطات القبض عليه، ومع فقدانه للأمل في تهدئة الوضع، جذبها بعنف ودخل بها إلى الغرفة، موصدًا الباب خلفه بقوة كأنه يحاول حبس العالم الخارجي بعيدًا عن مشاعره المضطربة،

أم الديب الجزء الثالث

وبينما كانت لا تزال تنوح، ويداها لا تتوقفان عن صفع وجهها في تعبير عن الألم، صرخت بعبارات مملوءة باليأس:

_يا لهوي يآتي يا لهوي.

كانت "أم الديب" جالسة على الفرشة في السوق، مستندة إلى الجدران القريبة، محاطة بأصوات الباعة والمشترين الذين يملأون الفضاء. وفجأة، اقترب منها رجل عجوز، بدا على وجهه التعب، وكانت زوجته تسير بجانبه، تحمل سلة من الخضروات. رحبت أم الديب بهما قائلة:

_يا أهلًا وسهلًا، يا مرحب.

سأل "الرجل العجوز"، وعلامات الاستفسار تضيء ملامح وجهه:

=بكام الإزازة يا حاجة؟

أم الديب:بتلاتين جنيه بس زي السكر.

الرجل بفضول:هو إيه اللي فيها ده؟

أم الديب بتلعثم:بو...بو...معمولة من بذور التفاح والجزر.

الرجل بتركيز:مالك يا حاجة في إيه؟

تدخلت "زوجته" في الحوار، وهي تنظر إلى الزجاجات المُبعثرة حول أم الديب باشمئزاز، قائلة بصوتٍ عالٍ يتسم بالنفور:

_سيبك منها دي ست عكاكة، تعالى نروح نشتري البطاطس.

أم الديب بصياح:يلا يا بت الكلـ* من هناهو، ناس ناقصة رباية صحيح.

كانت أم الديب تصب جام غضبها عليه، تتفوه بشتمٍ قاسٍ يتجاوز حدود الأدب، فكان لسانها الطويل يتلظى بالكلمات الجارحة التي لا يمكن أن تُقال، وفي لحظة من الانفعال، ألقت حجرًا في اتجاههما، وكأنما تريد أن تُخرج ما في قلبها من استياء، وقالت بصخب يغمره الغيظ:

_ماشي ياخويا لما أشوف وشك تاني بس.

تأملت أم الديب الهاتف وهو يضيء برقم أم قمر الدين، فقررت أن ترد، وعلى وجهها ابتسامة تعكس مشاعر الألفة. كان صوتها مفعمًا بالحنان عندما نطقت بكلمات الترحيب، وعبّرت عن فرحتها بحديث صديقتها. بينما كانت أم قمر الدين تستمع لصوت أم الديب، شعرت بقلق يخيم على حديثها، إذ كان هناك شيء غير مألوف في نبرة صوتها. أدركت أم قمر الدين أن الأمور ليست على ما يرام، مما زاد من حرصها على معرفة الأخبار. بدا أن هموم الحياة وضغوطها قد تركت أثرًا كبيرًا في قلب أم الديب، وبعد ما سألت عن الأسباب، أجابت "أم الديب:"

_المخفية اللي اسمها ليالي مصعبة العيشة على ابني، كل يومين ياختي نلاقي راجل جاي بحاجات من على البتاع دهو اللي اسمه الأنتورنت، وابني يدفع دم قلبه، تسكت بقى وتحس على دمها ودم اللي خلفوها؟ لا متحسش، بت دباح الحمير حبلة وهتجيبلنا العيل التالت.

أم الديب الجزء الثالث

تركت الهاتف من يديها، وكأنها تُحس بثقل هموم العالم يثقل كاهلها، ثم أطلقت نداءً مدويًا، صوتها يتردد في أرجاء السوق كصدى جرس يُنبه الأرواح. صرخت قائلة:
_يا لهوتي، صوتي يا ولية منك ليها!

النساء بصراخ:يا لهوي.

هكذا رفعت النساء أيديهن يصرخون، فانتابت أم قمر الدين مشاعر الدهشة عندما علمت بمشكلة أم الديب، وهي التي كانت تحمل همومها في صميم قلبها. تصاعد القلق في أعماقها عندما تذكرت الظروف الصعبة التي تعيشها أم الديب، وما تحمله من أعباء متزايدة. عزمها على مساعدتها كان لا يُقهر، فرغم كل التحديات، كانت تأمل في أن تُبدد هموم صديقتها بكرمها الوفير. وبينما كانت تُخطط لإرسال المساعدة، كانت أم الديب ترفرف فرحًا كالعصفور الطائر، تملؤها البهجة بعدما علمت بمساعدتها السخية. لم يكن الأمر مجرد مبلغ من المال، بل كان تعبيرًا عن الصداقة، ومع وصول الحرس، جاء بمبلغ مئة ألف جنيه، كهدية ثمينة من أم قمر الدين، مما أضفى على الأجواء لمسة من الفرح.
استقبلت أم الديب المبلغ بفرحة غامرة، مُطلقَّة زغاريد تعبر عن امتنانها العميق، وقد كانت تلك اللحظة بمثابة شعاع من الأمل يضيء دروبها المعتمة، فتوجهت نحو منزلها، مُغلقة نفسها بتلك الأنباء السعيدة.
بينما كانت "أم قمر الدين" تتواصل مع الحرس في الهاتف لتطمئن على وصول المساعدة، سألته:
_ها، عملت إيه؟
يتبع....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الثاني عشر

كانت تلك اللحظة أشبه بريشة الزمن التي تخط بمدادها مصيرًا مجهولًا، حينما وقفت أم قمر الدين على عتبة السؤال الذي يثقل القلب، تساءلت عن مصير المائة ألف جنيه التي أرسلتها، وقلبها يترنح بين شُرفات القلق وفزع الإجابة. كانت خشيةُ سماعِ أيّ نبأٍ مزلزل، كريحٍ عاتيةٍ تهبُ على سكونها الداخلي، لكن طمأنينة دافئة انسابت إلى أعماقها، كماءٍ يروي عطش الأرض، حين نطق "السائق"، وهو ما زال في سيارته، مُستعدًا للانطلاق، قائلًا:

_وصلوا يا فندم.

أم قمر الدين:أوكي باي.

انتهت المكالمة بين أم قمر الدين والسائق كطيّ صفحة في كتاب من الحذر. انطلق كل منهما في مساره، فالسائق عاد أدراجه نحو المدينة، بينما نهضت أم قمر الدين من فوق كرسيها المزخرف، كرمزٍ صامت لثرائها، واتجهت نحو الحديقة المترامية الأطراف، حيث ارتفعت يدها برفق لتضغط على زر الاتصال بأم الديب، تلك المرأة التي يختفي خلف ملامحها شيء من الغموض، للتأكد مما إذا كانت كلمات السائق تحمل الحقيقة، وفي تلك اللحظة، كانت أم الديب تجلس على حصير متواضع قبال التلفاز، حياتها تمضي في عبث لا ينقطع، لا تجد لذة سوى في اللهو الساذج وأكل الجزر الذي يملأ وقتها بمتعة عابرة. لكن تحت هذا القناع البسيط، كانت تخبئ فكرة ماكرة تراقصت في ذهنها منذ زمن بعيد؛ فكرة تآمرية، لا تعترف فيها بوصول المبلغ، حتى تضمن لنفسها طلبًا جديدًا بمائة ألف جنيه أخرى، تمتصها كمن يستغل الفرصة بشراسة، لتراكم ثروة تلبي بها طموحاتها، وتُجهز بها ابنتها هايدي للعالم الذي تنتظره. جاء صوت "أم قمر الدين" عبر الهاتف، يحمل في طياته قلقًا يتصاعد كسحابةٍ سوداء على شفا عاصفة، مُتسائلة:

_الفلوس وصلت يا أم الديب؟

أم الديب ببُهتان:فلوس إيه يا ست بسملة؟
أم قمر الدين بقلق:الفلوس اللي بعتهالك مع الحرس!
أم الديب بخداع:ايهي محدش جه ولا شوفته، يطلع مين دهو؟
أم قمر الدين بصدمة:انتي بتتكلمي بجد؟ يعني مفيش فلوس وصلت؟
أم الديب:لا يا ست هانم وآني هكدب ليه؟
أم قمر الدين بتضايق:أوكي هكلمك بعدين.

بعد انتهاء المكالمة، اجتاحت عروق أم قمر الدين موجات من المرارة، كماء يغلي في عمق بحر هائج، شعرت بأن السائق، ذاك الذي عهدته بالولاء والتفاني عبر سنوات مديدة، قد خان ثقتها وخدعها بمهارةٍ خفية. لم تتجرأ أفكارها حتى على توجيه الاتهام نحو أم الديب، بل ألقت بثقل شكوكها كاملًا على ذلك الرجل الذي لطالما كان رمزًا للإخلاص في أعينها. مرّت ثلاث ساعات ثقيلة، حتى وصل السائق إلى

أم الديب الجزء الثالث

بوابة القصر الفخمة، ترجل من سيارته ووقف بين الحراس يتبادل الحديث معهم ببراءة لا تعي ما يختبئ في الأفق. كان يظن أن اليوم سيمضي كما اعتاد، غير مُدرك أن الغيوم المتجمعة فوق رأسه تحمل عاصفة من الاتهام. وما إن انفتح باب القصر حتى خرجت "أم قمر الدين" بخطوات واثقة نحو السائق، وعلامات الانزعاج ترتسم على وجهها بوضوح لا لبس فيه، كلوحة تتحدث بلغة الصمت الصارخ.
وقفت قبالته، وعيناها تفيضان بعتاب لا يرحم، قبل أن تقول بصوتٍ مشحونٍ بالتوبيخ اللاذع، قائلة:
_يعني إيه الفلوس أديهالك في إيديك وأأكد عليك الموضوع وفي الآخر مفيش حاجة توصل؟

السائق:محصلش يا فندم، أنا روحت واتأكدت إنها هي نفس الست اللي حضرتك عايزة توصلي الفلوس ليها، سألتها انتي أم الديب؟ قالتلي أيوه واديتلها الفلوس، وأول ما خدتها مشيت حتى ملحقتش أتكلم معاها في أي حاجة تاني.
أم قمر الدين:وهي هتكدب ليه؟ لعلمك أم الديب ست محترمة جدًا ولا يمكن تكدب، انت هتعرفها أكتر مني؟
السائق:يا فندم أنا مقولتش حاجة غير اللي حصل، هي فعلًا خدت الفلوس مني!
أم قمر الدين:برضة مصمم تكدب؟
السائق:يا فندم أنا مبكدبش، أنا مستعد أحلف على المصحف!

أمام سيل الاتهامات الذي انصب على رأسه كالمطر الغزير، كان السائق يحاول بجهدٍ بالغ أن يحمي نفسه من تلك التهم القاسية. صوته كان يتلوى بين تبريرات وتوسلات، يدافع عن نزاهته وكأن لسانه هو الدرع الأخير الذي يحميه من تلك النظرات التي تحفر في عمق روحه. كان يدرك أن كلمات أم قمر الدين لم تكن مجرد غضب عابر، بل هي سهم مسموم أصاب صميم ولائه الذي بناه على مدار سنوات طويلة. وفي خضم هذا التوتر المشتعل، خرج "قمر الدين" من باب القصر، متجهًا إلى سيارته الفارهة التي تنتظره كعادتها لتنقله إلى عمله، وقبل أن يمد يده ليفتح باب السيارة، توقف فجأة حينما لاحظ ذلك التغير الحاد في ملامح والدته. لم تكن تلك الوجهة التي اعتاد أن يراها مشعة بالابتسامة، بل كانت ملامح مشحونة بالانزعاج. بخطوات حذرة اتجه نحوهم، وهو يطوي المسافة التي تفصله عن المشهد المتوتر.
نظر إلى والدته بعينين تملؤهما الاهتمام، وسألها بصوت يحمل في طياته رغبة كبيرة في فهم ما يحدث:
_في إيه يا ماما؟

أم قمر الدين بحنق:البيه اديتله مية ألف جنيه يوصلهم لأم الديب وفي الآخر مفيش حاجة وصلت!
قمر الدين بصدمة:مية ألف جنيه مرة واحدة؟ وده ليه؟
أم قمر الدين باستياء:طبعًا علشان هي محتاجاهم أوي وبجد صعبت عليا وهي بتحكي عن نفسها وزعلانة!
قمر الدين بانزعاج:اللي يتبرع يدي ألف ألفين، لكن مية ألف مرة واحدة يا ماما؟
أم قمر الدين:هعمل إيه طيب؟ أهو اللي حصل .

أم الديب الجزء الثالث

كان قمر الدين في حالة من الصدمة، كأنما انقلب عليه إدراكه فجأة حين رأى والدته توزع أموالهم بسلاسة لا تحتمل أي تردد. كانوا من أغنى العائلات في مصر والوطن العربي، تتدفق ثرواتهم كأنهار لا تنضب، تفوق المليارات بشكل هائل. ومع ذلك، رغم أن مائة ألف جنيه لا تعني شيئًا أمام جبال ثروتهم، كأنها خمسون جنيهًا لإنسان فقير، إلا أن قمر الدين رفض بشدة هذا التبديد للأموال بهذه السهولة، خاصة عندما تكون الوجهة نحو أم الديب التي لطالما نظر إليها بعين الريبة. كان يعلم في قرارة نفسه أنها امرأة متدنية، لا تستحق الثقة أبدًا، بل يتوقع منها كل أنواع الخديعة.
وبعد حديث مطول مع والدته، حيث حاول بكل ما يملك من منطق أن يثنيها عن موقفها، ظلّت "أم قمر الدين" ثابتة على رأيها، وبعد أن أنهت حديثها مع ابنها، وجهت أنظارها نحو السائق، وقد اشتدت ملامحها بحزم صارم، وأصرت بلهجة لا تقبل الجدال أن ترفده من عمله، وقالت بصوتٍ مليء بالقوة:
_المهم اسمع كويس انت ملكش مكان بينا تاني وتلم حاجتك وتتفضل تمشي، مفهوم؟

السائق:يا فندم في سوء فهم، أنا وصلتلها الفلوس لحد عندها إلا بقى لو حد تاني كان عارف إن في فلوس هتوصل للست دي وانتحل شخصيتها!

تدخل "قمر الدين" مرة أخرى، وكأن شيئًا في داخله لا يزال يلح عليه بالشكوك. نظر إلى والدته نظرة ممتزجة بالريبة، وقال بصوتٍ يعكس اضطرابه الداخلي:
_وانتي واثقة أوي كده ليه إنها مش كدابة؟ انتي مشوفتيهاش عاملة ازاي؟ مستحيل دي تكون ست صادقة وشخصيتها كويسة!

أم قمر الدين:حبيبي انت مش هتعرف أم الديب أكتر مني!

لم يستطع "قمر الدين" تنفيذ قرار والدته الحازم برفد السائق، فوقف أمامه بخطواتٍ ثابتة وإصرارٍ جلي على ملامحه، وقال له بلهجة قاطعة تتسم بالثبات:
_طيب اتفضل انت شوف شغلك !

السائق:أوامرك يا فندم.

خرج السائق من بوابة القصر متجهًا إلى وجهة أخرى، بينما بقي الحراس على الحياد، متجمدين في صمتهم، كما لو كانوا تماثيل لا تتحرك، فطالما لم يصدر إليهم أمر من أصحاب القصر، لا مجال للتدخل. وفي تلك اللحظة، استدار "قمر الدين" نحو والدته، ملامحه مشدودة بانزعاج جلي كأنه يحاول كبح بركان من الحنق في صدره. نظر إليها بعينين تضيقان بتوتر لا تخطئه العين، وقال بصوت منخفض لكنه مشحون بالعصبية:
_كان لازم يعني تديلها المبلغ الكبير ده؟

أم قمر الدين بضيق:خلاص يا قمر الدين متدايقنيش أكتر من كده!

أم الديب الجزء الثالث

نظرت أم قمر الدين إلى ابنها الأكبر بصمتٍ طويل، وكأنها تقيس عمق كلماته، ثم استدارت بهدوء ودخلت القصر مجددًا. خطت بخطوات بطيئة نحو الطابق العلوي، وحينما وصلت إلى غرفتها، صكت الباب خلفها بصمت، تاركة خلفها موجة من التفكير الثقيل الذي يملأ الأجواء. في الوقت نفسه، ركب قمر الدين سيارته الفارهة، وضغط على زر الكاسيت لتنطلق منه أنغام أغنية صباحية، تتسلل برفق إلى روحه كنسيمٍ يهدئ ما تبقى من توتر الصباح. استمع للأغنية بكل حب، محاولًا دفن الضيق الذي ارتطم به مع أولى لحظات يومه، وهو يتجه نحو شركة والده "باسم" ليباشر عمله. أما في منزل أم الديب، كان الهدوء المزعوم يخيّم على المكان، حتى نادت على ابنتها "نعمة"، التي كانت تجلس في الصالة مع طفلها محمد يشاهدان التلفاز بانسجام. كان صوت النداء يحمل بين طياته شيئًا غريبًا، كأنه تلميح لسر يوشك على البوح. نهضت نعمة من مكانها، وهي مرتدية بيجامتها البسيطة، وخرجت من الصالة متجهة نحو والدتها. وقفت إزاءها بعيون تتساءل، وقالت باهتمام ظاهر:

_إيه ياما في إيه؟

أم الديب:أقعدي يا بت!

جلست "نعمة" أمام والدتها، مربعة ساقيها على السرير، وكأنها تستعد لسماع أمرٍ جلل. نظرت إلى والدتها بعينين فضوليتين، وكأنهما تبحثان عن خيوط الحقيقة في وجهها الماكر. فأوصدت الباب، وبصوت خافت لكنه يحمل فضولًا حارقًا، سألت:

_أهو ياما، في إيه بقى؟ احكيلي!

أم الديب بوعيد:قبل أي كلام هتسمعي الكلام ده من هناهو وتحطيه في خزنة وتقفلي عليه بالضبة والمفتاح وإلا هطين عيشتك !
نعمة بترقب:سرك في بير ياما، المهم اتكلمي متخوفنيش!
أم الديب بخوف:ليه يا بت آني عبيطة أحكيلك كدهو عالطول؟ هاتي المصحف اللي على التسريحة وتعاليلي.
نعمة:حاضر ياما، أما نشوف آخرتها إيه.

نهضت نعمة بخطوات هادئة نحو التسريحة، وكأنها تشعر بعبء اللحظة يثقل كاهلها. مدت يدها برفق وأمسكت بالمصحف، كأنما تلتمس منه بركة وصدقًا يعصمانها من الزلل. عادت لتجلس أمام والدتها بهدوء، تضع المصحف بين يديها وكأنها تستعد لتلقي اعتراف كبير. نظرت إليها أم الديب، وعينيها تلمعان ببريق من الجدية التي لا تقبل المزاح. اقتربت قليلًا وهمست لها بصوتٍ يحمل ثقلًا غائرًا، وكأن كل حرف ينبع من بئرٍ من الأسرار، وقالت:

_احلفيلي على المصحف إن مفيش حرف من اللي هقوله دهو هيطلع برا!

أم الديب الجزء الثالث

رفعت "نعمة" المصحف بكلتا يديها، وعيناها تشعان بتصميم، وكأنها تحمل بين يديها عهدًا مقدسًا. نظرت إلى والدتها بجدية لا تحتمل المزاح، ثم نطقت بكلمات حازمة، وكأنها تقطع على نفسها وعدًا لا رجعة فيه:

_وحياة المصحف ده ياما مانا مطلعة حرف من اللي هتقوليه، بس اتكلمي متوترنيش بقى!

أم الديب:ست بسملة بعتتلي مية ألف جنيه.
نعمة بصراخ:مية ألف جنيه مرة واحدة؟
أم الديب بصخب:وطي صوتك هتفضحينا!، أيوه يا بت مية ألف جنيه لجهاز أختك هايدي، هناخد منهم عشرين ألف للمشروع دهو، والباقي هنشيله في البوسطة.
نعمة:بوسطة إيه ياما اللي هتشيلي فيها تمانين ألف جنيه؟قولي بنك بقى، ده انتي قديمة أوي ياما.
أم الديب:مش مهم يا بت، المهم بكرا الصبح هنروح آني وانتي البنك وتتفقي مع اللي هناك يعملولنا الكارت دهو.
نعمة بتركيز:الفيزا كارد ياما.

أم الديب:أيًا كان اسمها إيه، أصل يا بت بيني وبينك خوفت أروح لواحدي يتنصب عليا إكمني مبعرفش أقرا ولا أكتب، ولو قولت لأخوكي جلال ودانه هتلعب وهيقشني إكمنه حرامي وإيده طويلة، ولو قولت لأخوكي أحمد هيرفض لو عرف إنها من ست بسملة وكرامته هتنقح عليه، ولو قولت لأختك هايدي هتطمع وهتقول إن الفلوس جاية ليها ومش هترضى تدينا منها قرش ساغ، ولو قولت لأبوكي هيسرقهم ويروح يتجوز عليا بعد ما يخسس كرشه عند الداكتور وأهو كله بفلوسي في الآخر، فمفيش غيرك يا بت اللي ينفع تيجي معايا، فهمتي ولا لا؟

نعمة:أيوه ياما، بس مانتي كنتي تقدري تقولي لهايدي إن ست بسملة باعتة تمانين ألف بدل مية.
أم الديب بحصافة:يا عبيطة ماهي هتروح تكلمها وتشكرها وهنتكشف ولو اتفقت مع ست بسملة هتقول عليا ضلالية، وبضحك على عيالي!
نعمة بتفهم:أيوه ياما عندك حق، ده انتي مخططة ومظبطة كل حاجة من بدري على كده.
أم الديب بتأكيد:أمال إيه؟ على الله حرف يطلع برا لحد!
نعمة بابتسامة:لا ياما متخافيش.

كانت "ليالي" تقف في الخارج، أذناها منتبهتان لكل همسة تدور بين أم الديب ونعمة، وكأنها تنصت على سرٍ خطير يهمس به القدر بينهما. رغم أن أصواتهما كانت متخافتة، إلا أن آذانها المرهفة التقطت كل كلمة. وما كان الأمر ليصل إليها لولا المصادفة العجيبة؛ حين سقط بنطال حمود، ابنها الصغير، من شرفتها إلى شرفة أم الديب. أصابتها الصدمة كضربة صاعقة، أطبقت على قلبها وهي تحاول استيعاب ما سمعته. لم تصدق أن ما دار بينهما يمكن أن يكون حقيقة. كيف لأم الديب أن تملك مائة ألف جنيه وتدعي الفقر دائمًا؟ كيف تخفي ثروة كهذه بينما لا تقدم لهم أي مساعدات مادية، بل تشتكي دائمًا من

أم الديب الجزء الثالث

الحاجة وضيق الحال؟!. وضعت يدها على صدرها، وقد امتلأت عيناها بالذهول، وهمست لنفسها بدهشة لا تكاد تصدق:

_يا نهار أسود، بقى حماتي معاها مية ألف جنيه ولسه بخلانة علينا؟

بينما كانت ليالي تواصل إلصاق أذنيها بالباب، متلهفة لسماع المزيد من الأسرار التي تتكشف ببطء، خرجت هايدي من غرفتها كعادتها، عيناها متشبثة بشاشة هاتفها، غارقة في عالمها الرقمي دون أن تنتبه إلى ما يدور حولها. رأت ليالي الفرصة أمامها تتلاشى، فأسرعت في تغيير وضعيتها بسرعة، لتستخدم عقبها وكأنها تطرق الباب، مُمثّلة أنها جاءت فقط من أجل البنطال الذي سقط في شرفة أم الديب.

وبصوت مرتفع ومسموع، حتى تغطي على شكوك هايدي أو أي شخص قد يكون بالجوار، نادت "ليالي" بصوت ملؤه الادعاء:

_يا حماتي يا حماتي، افتحي، أما بقولك مشوفتيش بنطلون واقع عندك في البلاكونة؟

فتحت "أم الديب" باب الغرفة بحدة ووراءها نعمة، لتجد ليالي أمامها، تحدق بها بنظراتٍ لا تخلو من الحذر. تألقت في عيني أم الديب نظرة كراهية عميقة، وكأنها تفرس في وجه ليالي تلك الغريزة التي تحذرها من الخطر. صوتها كان مشحونًا بالسخط حين نطقت:

=وإيه اللي هيجيبه عندنا يا بت؟

ليالي:المشبك اتكسر والبنطلون وقع من الهوا .

قالت "نعمة" لليالي بوجهٍ مبتسم:

_استني هشوفهولك يا ليالي.

ليالي بتبسم:ماشي يا نعمة تسلميلي.

خرجت نعمة إلى البلكونة بخطوات سريعة لتحضر البنطال، في حين عادت أم الديب إلى الأريكة وجلست بعداء ظاهر، وكأنها تسعى إلى استعادة السيطرة على العائلة. نظرت إلى ليالي بنظرة مليئة بالعبوس العارم، وبنبرة جافة لا تخلو من الحدة، سألتها "أم الديب" بوجهٍ يكسوه المكر:

_أما مقولتيش العيل اللي جاي واد ولا بت؟

ليالي:وأنا إيه عرفني يا حماتي؟ لسه بدري على ما نعرف.
أم الديب:ياختي نزليه، بلا عيال بلا وجع دماغ.
ليالي بدهاء:وهي لو بتك اللي كانت مكاني كان هيبقى ده كلامك برضة؟
أم الديب بسخرية:آني بتي نعمة ممعهاش غير حتة واد واحد، الدور والباقي على الأرنبة اللي كل كام سنة تحمل وتولد عيل.
ليالي باستهزاء:سبحان الله يا حماتي كنت فاكراها بتولد قطط وكلاب.
أم الديب بعجيج:جرا إيه يا بت في إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

كان حديث ليالي يغلفه طابع السخرية، كأنها ترد على كلام أم الديب وتدخلاتها بمزيج من التهكم واللامبالاة، وكأنها تتحداها بصمت. واقفة بثبات، ونظرتها مائلة للسخرية. في تلك الأثناء، كانت "هايدي" لا تزال في المطبخ، تفتش كل زاوية بعناية بحثًا عن شيء يسد جوعها الذي اشتد منذ الليلة الماضية. فتشت الأدراج والخزائن بلا جدوى، وأمعاؤها تكاد تصرخ من الجوع. وأخيرًا، خرجت بتردد من المطبخ، وقد بدا عليها التعب. وقفت في الصالة وقالت بصوت هزيل:
_ماما أنا جعانة!

أم الديب:طلعي طبق الفول وكلي.
هايدي:انتي عارفة إن أنا مبحبش الفول!
أم الديب:خلاص سِفي تراب يا بت، ده اللي بياكل على ضرسه بينفع نفسه... أبقي خلي الأنعرة الكدابة دهي تنفعك.

نظرت هايدي إلى أم الديب باشمئزاز، وكانت ملامح وجهها تعبر عن عدم إعجابها بالكلام المتبادل، وكأنها تشعر بأن الأمور تأخذ منحى غير مريح. لكن بعد لحظات، عادت "نعمة" حاملة البنطال، ووجهها يعكس شعورًا بالارتياح لنجاحها في مهمتها. وقفت أمام ليالي ومدت يدها بالبنطال، وقالت بابتسامة مُتكلّفة تحاول من خلالها تخفيف شدة الموقف:
_أهو يا ليالي لقيتهولك.

ليالى بابتسامة:تسلميلي يا نعمة متحرمش منك، يلا عاوزين حاجة؟
نعمة ببشاشة:سلامتك، هبقى أعدي عليكي نسهر سوا شوية.
ليالي بابتسامة:ماشي يا نعمة تنوريني.

صعدت ليالي إلى الطابق العلوي، وكان جلال جالسًا على الأرضية، يستمتع بالنرجيلة، وكأن الوقت توقف حوله. لكن أفكار الشياطين بدأت تدور في رأسها، تلاعب بخيالها وتحرك في عمق قلبها. حينما توجهت السيارة إلى قسم الشرطة، شعر ضايع بنشوة غريبة تغمره، فباعد بين يديه حتى انكسر الكلبش بقبضة يده القاسية، وكأن الحديد لم يكن ليصمد أمام قوته. ثم تشبث بالعساكر ووطأهم بشراسة، بينما تحول إلى مصارع محترف؛ يداه تصطدم بوجوههم، وساقاه تتخبطان في بطونهم، عارفًا تمام المعرفة بنقاط ضعف أجسادهم التي تمكن من استغلالها. وفي لحظة غير متوقعة، كسر الباب، وقفز من السيارة، هاربًا إلى أماكن يصعب الوصول إليها، تاركًا خلفه حالة من الفوضى. نظر الضابط في المرآة الخلفية، وفوجئ بمنازلة لم يتوقعها، وسرعان ما أخبر السائق بالتوقف. نزلوا بسرعة من السيارة ليجدوا العساكر منهمكين في محاولة لالتقاط أنفاسهم على أرضية ملطخة بالدماء، بينما ضايع لم يكن له وجود. عبر "الضابط" عن دهشته، وهو يقول بصدمة:
_يابن اللعيبة، ده هرب!

أم الديب الجزء الثالث

بعد أن هرب "ضايع"، كانت الشرطة تطارده في كل الأماكن، لكن سرعته الفائقة جعلتهم يترنحون خلفه، حتى اختفى عن الأنظار تمامًا! بينما كان يركض في الشوارع الضيقة، يلهث من التعب، قال لنفسه بصوت منخفض مشبع بالإرادة:

_مش ضايع اللي يتمسك على آخر الزمن، ده في أحلامهم إن شاء الله.

بعدما فقد الضباط الأمل في إيجاد ضايع، تبادلوا نظرات تعكس خيبة أملهم. ثم قال "أحدهم" للآخر بنبرة مشوبة بالإحباط:

_هنعمل إيه؟ ده اختفى ابن اللذينة.

الضابط الآخر:هيروح مننا فين؟ احنا وراه والزمن طويل!

عند ليالي، كانت أفكارها تدور كعاصفة داخل رأسها، تقاوم بشدة رغبتها في إخبار جلال بكل ما سمعته، ولكنها كانت مترددة، تخشى أن يؤدي ذلك إلى شجار مع أم الديب، مما قد يكشف سر تصنتها عليهما. ومع ذلك، لم تستطع مقاومة الحاجة إلى مشاركة هذه المعلومات معه. في نهاية المطاف، اجتمعت معه في جلسة واحدة على الأريكة في صالتهما، حيث تسلل الضوء الأبيض الخافت ليضفي على الأجواء لمسة من الحميمية. شرحت له بوضوح، بينما تتلألأ في عينيها مشاعر القلق، أن أم الديب ثرية في الخفاء، بينما تظهر في العلن كشخصية شحاذة لا تملك شيئًا. تجمدت ملامح "جلال" للحظة، وأخذت المفاجأة تعبر عن نفسها بوضوح على وجهه، وكأنه غير قادر على استيعاب ما سمعه. قال بوجهٍ مذهل:

_يا نهار أسود بقى أمي خدت من الولية مية ألف جنيه مرة واحدة؟

ليالي:أمال إيه؟ أنا سامعاهم بوداني الاتنين دول، أنا زيي زيك مصدومة... بقى يبقى معاها كل الفلوس دي ومش هاين عليها تساعد ابنها؟

جلال بفضول:متعرفيش يا بت حاطة الفلوس فين؟

ليالي:لا معرفش، هتلاقي أختك نعمة عارفة كل حاجة، إكمن أمك كانت عمالة توشوشها في الأوضة... نعمة الوحيدة اللي أمك بتديها سرها.

جلال بحماس:خلاص أنا هتصرف في الحوار ده.

ليالي بتأكيد:أهم حاجة بلاش تجيب سيرتي في الحوار ده خالص.

جلال بابتسامة:لا يا بت متخافيش، عيب عليكي.

هذا هو السر الذي اتفقت فيه ليالي وجلال على أن يبقيا في ظلاله، دون أن تدرك أم الديب أن ابنها قد اكتشف حقيقتها. في صباح اليوم التالي، حيث أشرقت الشمس لتجدد يومًا جديدًا بحوادثه المختلفة، ارتدت أم الديب جلبابها الريفي، وخرجت برفقة ابنتها نعمة. انطلقتا معًا إلى البنك في البلدة المجاورة بواسطة توكتوك، حيث قامت نعمة بدفع الحساب، وتوجها إلى الداخل. كان مبنى البنك متوسط الحجم، لا يتسم بالكبرياء، لكنه يضم عشرات الموظفين والعملاء، كل منهم يخطو بخطى ثابتة، حاملًا حقيبة مليئة بالأموال. كان دخول أم الديب ونعمة إلى البنك بمثابة تجربة جديدة، حيث دارت أعينهما يمينًا ويسارًا، تكتشفان هذا المكان الذي طالما بقي بعيدًا عن عالمهما. فجأة، دون أي مقدمات، جلجل صوت "أم الديب" الغليظ في أرجاء البنك، ينادي الموظف الذي يعمل خلف النافذة بالحاسوب، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_انت يا راجل انت، تعالى هناهو عايزينك!

شعرت "نعمة" بالإحراج العارم، إذ كان الفضول يملأ عيون الناس من حولهما، فتأملتها نظراتهم بدهشة، وكأنما يراقبون عرضًا مسرحيًا غير متوقع. خفضت صوتها وأقبلت على أم الديب بنبرة خافتة، محملة بالقلق:

_يجيلنا فين بس ياما؟ احنا اللي المفروض نروحله!

أم الديب بتهازؤ:وميجيش ليه يا بت؟ كان على رجليه نقش الحنة؟

نعمة بلين:تعالي بس ياما أما نشوف !

تحركت أم الديب ونعمة نحو نافذة الموظف، الذي بدا غارقًا في عمله على جهاز الحاسوب، يدون البيانات دون أن يلاحظ وصولهما. ثم قالت "نعمة" بنبرة هادئة:

_السلام عليكم.

الموظف:وعليكم السلام .

نعمة:أما بقولك يا أستاذ كنا عاوزين نعمل حساب بنكي بمبلغ مية ألف جنيه.

أطلقت أم الديب الصفير بفمها، وقامت بحركة غير مألوفة، مدعيةً أنها ترش الملح على "الموظف" لتفادي الحسد. وفجأة، قفز من مكانه كأنما أصابته صاعقة. حيث قال الموظف بصوت عالٍ، مفعمًا بالدهشة:

_إيه يا حاجة اللي بتعمليه ده؟

أم الديب:علشان الحسد ياخويا.

جزت "نعمة" على أسنانها، وقد ارتسمت على وجهها معالم الخجل الشديد، ثم قالت بصوت متهدج:

_أُسكتي ياما اللهي سترك بلاش فضايح، وهو هيحسدك ليه؟ ده كل يوم بيعدي عليهم ملايين، يعني هيسيبهم ويبص للمية ألف بتوعنا دول؟

أم الديب:ليه يا بت حد قالك إنهم عشرة جنيه؟ دول اسم الله عليهم مية ألف مرة واحدة، الله أكبر، ربنا يستر علينا يارب.

نعمة بإحراج:طب علشان خاطري ياما اسكتي بس خليني أتصرف أنا !

نظف "الموظف" الملح من فوق ثيابه، ثم جلس على كرسيه وعيناه مشتعلة بانزعاج، وسأل نعمة بلهجة حادة:

_ها يا أستاذة هتملوا البيانات ولا إيه نظامكم؟

أم الديب الجزء الثالث

نعمة:أه يا أستاذ هات.

استلمت "نعمة" الورقة لتملأ البيانات، بينما كانت أم الديب قريبة جدًا منها، تحاول قراءة ما فيها بشكل مستفز. نظرت إليها نعمة بضيق، وبدت على وجهها علامات الانزعاج، فقالت بحزم:
_ابعدي وشك ياما مش كده، براحة شوية!

أم الديب بصخب:وآني يا بت كنت عملت حاجة؟
كان صوت أم الديب يجلب الأنظار نحوها، إذ كانت الوحيدة التي تعلو بصوتها بينما ساد صمت مُطبق حولهم. شعرت "نعمة" بوطأة الموقف، فقرأت ما هو مكتوب على الورقة بصوتٍ منخفض، ثم نظرت إلى والدتها، وقالت بتوتر:
_الإسم كامل والرقم القومي ياما، هاتي بطاقتك !

أم الديب:مجيبتهاش.
نعمة بعصبية:يعني إيه؟ أنا مش قولتلك تجيبيها معاكي؟
أم الديب بجهل:هنعمل بيها إيه يا نعمة؟
نعمة بصياح:يادي النيلة عليا، مليني اسمك بالكامل!
أم الديب:أم الديب.

كانت "نعمة" تتحدث بعصبية في كل كلمة تنطق بها، بينما بدا على أم الديب عدم المبالاة، وكأن ما يحدث حولهما لا يعنيها. تنهدت نعمة بعمق، محاولة تمالك أعصابها التي كادت أن تنفجر بسبب تصرفات والدتها، ثم قالت لها بصوتٍ مرتجف:
_ياما أنا عاوزة اسمك الحقيقي مش اسم الشهرة، أبوس إيديكي ده أنا سايبة بيتي، وابني، وجاية معاكي مخصوص فخليها تعدي!

أم الديب بصياح:ايهي ولو معملتش اللي انتي عاوزاه مش هتعدي ولا إيه يا بت؟
نعمة بخور:خلاص ياما أنا غلطانة.

استخرجت نعمة من حقيبتها هاتفها الصغير، ثم اتصلت بهايدي لتطلب منها بطاقة أم الديب أو حتى لتقرأ لها ما هو مكتوب. في تلك اللحظة، كانت "هايدي" تتحدث مع زياد عبر الهاتف، وعندما ظهر اسم نعمة على شاشة الهاتف، قالت له برقة:
_طيب هكلمك بعدين، نعمة بتتصل دلوقتي سلام.

زياد:سلام.

أم الديب الجزء الثالث

ردت "هايدي" على نعمة، متأملةً في عمق المعاني التي ستنطق بها، قائلة:
_ألو يا نعمة.

نعمة:بقولك والنبي شوفي بطاقة أمك فين ومليني اللي فيها.

جذبت "أم الديب" نعمة، مشدودةً إليها بقبضة من الحزم، وجزّت على أسنانها في تجلٍّ من الغضب، ثم صاحت بصوتٍ يختزل كل معاني الرفض:
_يا خرابي، أختك كدهو هتعرف يا بت الحمار!
باعدت "نعمة" يد أم الديب عنها، قائلةً بلهجةٍ تتخللها موجات من الانزعاج:
_أوعي ياما، اسكتي!
وواصلت حديثها مع هايدي، متجاوزةً قلقها، قائلة:
_ألو يا هايدي.

هايدي:ألو، انتي عايزاها في إيه؟
نعمة بكذب:عايزينها للتموين.
هايدي:طيب استني هشوفها فين .
نعمة بقلق:طيب.

ظلت "هايدي" تنقب عن بطاقة والدتها في كل زاوية من المنزل، تنتقل بين الخزانات والأدراج بلا كلل، ترفع الوسائد وتنظر تحت الأريكة، حتى في المطبخ لم تدع ركنًا دون تفتيش. ولكن النهاية جاءت عبثًا، فاستدارت نحو نعمة وقد لفّها الإحباط، قائلة بصوت يكسوه اليأس:
_بقولك يا نعمة، أنا ملقتش البطاقة.

نعمة:ازاي طيب؟

ثم التفتت "نعمة" نحو والدتها، وعيناها تنطقان بالاستفهام قبل أن يخرج صوتها، قائلة:
_انتي شايلاها فين ياما؟

أم الديب:البطاقة وقعت في الترعة يا بت.
نعمة بصراخ:ولما هي وقعت في الزفت، سايبة هايدي تدور ليه؟
أم الديب:خليها تتحرك شوية علشان تخس يا مقصوفة الرقبة.

تعالى صوتهما في المكان، حيث كانت "نعمة" تتحدث بعصبية تكسو ملامحها، فيما كانت أم الديب تصيح بلا هوادة، مما جذب الأنظار نحوهما، وفي خضم هذا الاحتدام، التفتت نعمة إلى أختها، وقد ازدادت نبرتها حدةً وانفعالًا، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_طيب يا هايدي خلاص، هكلمك بعدين.

أنهت "نعمة" حديثها مع أختها، لتجد أم الديب تسير خارجةً من البنك كمن يغادر معركة. ركضت نحوها بسرعة، وقد تسربت إليها مشاعر الصدمة، لتسألها بلهفة غارقة في الحيرة، قائلة:

_ياما، ياما انتي رايحة فين؟

أم الديب بجدية:رايحة أدور على البطاقة في الترعة.

نعمة بضجيج:يا نهار أسود عليا وعلى سنيني السودة، رايحة تدوري عليها إيه بس؟ استني ياما!

بعد ساعتين من الجدال الحاد بين نعمة وأم الديب، انتهت أخيرًا الإجراءات التي بدت كأنها لا نهاية لها.

وعندما عادوا إلى المنزل، وصعدوا الدرج بخطى مثقلة بالتعب، التفتت "نعمة" وقد ارتسمت على ملامحها علامات الضيق المستمر، قائلة بنبرةٍ ملؤها الضجر:

_توبة إن روحت معاكي في حتة تاني ياما.

أم الديب بصياح:ليه يا بت الكلـ*؟ مش عاجباكي ولا إيه؟ هو انتي كنتي تطولي تيجي معايا؟

غمر الندم قلب نعمة، التي كانت تتآكل من الداخل بسبب قرارها الذهاب مع أم الديب، حتى أن أفكارًا مظلمة من شدة إحباطها بدأت تهمس في عقلها، فتقترب من حافة الانهيار النفسي، إذ تصرفات "أم الديب" أثقلت كاهلها، ومع ذلك، مضت نعمة صامتة، ورافقَت والدتها حتى دخلا الشقة بصمتٍ يشوبه التوتر، وعندما فتحتا الباب، إذا بهما تجدا المعلم حنفي جالسًا على الأريكة بجوار جلال، وكلاهما يحتسي الشاي بالنعناع في مشهد غير متوقع، مما جعل أم الديب تتوقف في مكانها للحظة، وقد غمرتها الدهشة، لتسألهم قائلة:

_انت قاعد هناهو ياخويا انت وأبوك؟

جلال:حمدالله على السلامة ياما .

ثم نادى هايدي بنبرةٍ يكسوها الخبث، وكأنه يحاول أن يزرع بذور الشك في قلب أم الديب، في محاولة خفية لإيصال رسالة مضمرة، مفادها أنه يعلم كل أسرارها وخباياها التي تظن أنها محجوبة عن الأعين.

وما إن لفت انتباهها بنظرة مكر خفية، حتى أردف قائلًا:

_بت يا هايدي هاتي كرسي لأمك ترتاح أصل وقفة البنوك توجع الرجل برضة.

سألت "أم الديب" بصدمة تفترس ملامح وجهها، وقد تسللت إليها موجة من الاضطراب، قائلة:

_ايهي بنوك إيه؟

جلال بحصافة:البنك اللي روحتيه انتي ونعمة.

أم الديب الجزء الثالث

نظرت أم الديب إلى "نعمة" بعينين تفيضان بالارتياب، معتقدة أن نعمة قد خانت الوعد وأفشت أسرارها التي أقسمت على حمايتها. اشتدت نظراتها، حتى باتت كالسكاكين تخترق صمت المكان، فما كان من نعمة إلا أن صرخت بقوة، وقد اهتز صوتها بالدفاع عن نفسها، قائلة بارتياع يخالطه الظُلم:

_وحياة النعمة دي ما فتحت بوقي بكلمة!

سألت "أم الديب" جلال بعجيج يملأ المكان، كأن صوتها يحطم هدوء الشقة مثل عاصفة تقتلع السكون، قائلة:

_انت جيبت الكلام دهو منين يا ولا؟

تحدث "المعلم حنفي" مع جلال مستفسرًا بلُطف، وكأن كل كلمة ينطق بها تحمل عبءًا من الفضول الممزوج بالحرص، قائلًا:

_بنك إيه يا جلال؟ ما تفهمنا!

جلال بابتسامة:أصل أمي ربنا يزيدها من فضله خدت مية ألف جنيه من الولية اللي اسمها بسملة، وكانت واخدة نعمة معاها علشان يحطوا الفلوس في البنك وأهو لا من شاف ولا من دري بس على مين؟ مش على جلال.

ثم وجه حديثه إلى أم الديب، مُصطنعًا نبرةً تتسم بالجدية، قائلًا:

_بقى ياما يبقى معاكي فلوس ومستخسرة في ابنك؟

سألت "أم الديب" نعمة بصراخ يزلزل الأجواء، ويداها مشدودتان نحوها كأنهما تستعدان لوطأتها، قائلة:

_انتي اتكلمتي يا بت في حاجة؟

نعمة بارتجاف:وربنا ما اتكلمت في حاجة!

وجهت "أم الديب" حديثها إلى جلال، وقد عكست عينيها ظلال الشك، والريبة، قائلة:

=انت جايب الكلام دهو منين؟

جلال:سمعتكم إمبارح وانتوا بتتفقوا وبتخططوا سوا.

أم الديب:انت ولا العقربة بت سلامة؟

جلال بصياح:بقولك إيه ياما، مراتي خط أحمر، مالكيش دعوة بيها !

أم الديب بصراخ:بلا خط أحمر بلا خط أزرق فوق دماغك انت وهي، آني هطين عيشتكم... ده آني هخليكم تاخدوا الشارع جري وانتوا حافيين، أصبروا عليا بس!

نهض "المعلم حنفي"، عازمًا على تهدئة المشكلة التي بدأت تتصاعد، وقال بصوتٍ يحاول أن يكون مهدئًا، يفيض بالحكمة:

_ما جرا إيه يا ولية؟ الموضوع مش مستاهل ده كله!

لكن "أم الديب" صدمته بقوة على صدره، مما جعله يسقط على الأريكة مرة أخرى، بينما كانت تصرخ به، مستهزئةً، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_أقعد انت متوجعليش نفوخي!

المعلم حنفي بخرع:حاضر يا ولية اللي تشوفيه.

تجمعت الأجواء حول أم الديب وجلال، حيث كان السخط والشك يتلاعبان بأفكارهم. نادت أم الديب جلال بصوت عالٍ، بينما كان جلال على وشك مغادرة شقتها، حيث كانت الأمور تتعقد بشكل متسارع. توجهت أم الديب بالحديث إليه، متسائلة عن سبب صمته إزاء ما حدث، لتبدي استغرابها من كونه الوحيد الذي سمع كل شيء. وأمرت جلال بأن يعود إلى زوجته ليطلب منها الاستعداد، مهددةً بأنها ستأخذهم جميعًا وتجلسهم على "البشعة" بطريقة توحي بأنها لا تقبل الرفض. تساءل جلال باندهاش عن ماهية هذه البشعة، بينما كانت نعمة تعبر عن قلقها بشكل غير مباشر. أصرّت أم الديب على أنها ستنفذ تهديداتها دون تردد، معلنة أنها لن تتردد في طردهم من المنزل، مما جعل جلال يعبر عن استيائه من عدم جدية حديثها. بينما كانت الأمور تتصاعد، حاول المعلم حنفي التدخل لتهدئة الأجواء، داعيًا الجميع إلى التحلي بالصبر. لكن أم الديب كانت مصرّة على موقفها، وطلبت منه الصمت. بعد سلسلة من المشادات والمشاكل التي عصفت بأجواء النقاش، ترك جلال الشقة متجهم الوجه، بينما وصل الخبر إلى "ليالي"، زوجته، مما أثار مشاعر القلق في قلبها حول ما قد حدث، قائلة بنواح:
_يا لهوتي، بِشعة إيه يا جلال؟ يا خبر أسود، هي أمك بتطلع جهلها وتخلفها فوق دماغنا احنا؟ يا لهوي يا لهوي.

جلال:وربنا اتخانقت معاها خناقة كبيرة، وهي وراسها وألف سيف نروح كلنا معاها!
ليالي بهلع:وانت بتتسحب من لسانك ليه وبتتكلم؟ عاجبك اللي احنا فيه دلوقتي؟
جلال بتوتر:بقولك إيه البسي وخلصينا من الهم ده، وإلا هتطلعلنا وهنقعد طول اليوم بنتخانق، وأنا لما بتعصب الدم بيضرب في نفوخي وبصدع!
ليالي بنواح:وأنا مش هعمل كده واللي يحصل يحصل!

كان اعتراض ليالي على استخدام "البشعة" واضحًا، إذ اعتبرتها تقليدًا جاهلًا لا يُقدم عليه إلا السفهاء. بينما كانت نعمة تشعر بالحاجة الملحة للذهاب هناك، طلبت من زوجها أن يذهب معهم لإجراء "البشعة"، معتبرة أن هذا هو السبيل لكشف الصادق من الكاذب. بعد أن استفسرت أم الديب من جلال حول من سمع حديثها معها، أجاب بأنه هو وليس ليالي، مما جعل أم الديب ترى ضرورة الذهاب جميعًا لاكتشاف ما يجري. لكن "حامد"، الذي كان يجلس في زاوية محملة بالقلق، أبدى رفضه القاطع لاقتراح نعمة، تمامًا كما فعلت ليالي. نظر إليها بجدية، معبرًا عن اعتراضه بقوة، وقال لها:
_الله طب وأنا مالي يا نعومي بحواراتكم دي؟ تدخلوني فيها ليه؟ أنا راجل على باب الله وشغال اليوم بيومه، ووقتها مكنتش موجود، يبقى أنا مالي؟

نعمة برهبة:والنبي يا حمو علشان خاطري ده هي عشر دقايق بس، هنخلص من الموال اللي أمي عاملاه ده!

أم الديب الجزء الثالث

حامد بشك:وأنا إيه ضمني إن البتاعة دي مش هتحرقني؟
نعمة:بيقولك إنها ما بتحرقش الصادق لكن بتحرق الكداب .
حامد بسخرية:وهي حتة الحديدة اللي هي جماد، هتعرف منين الصادق من الكداب؟ والنبي يا نعمة تخرجينا من الحوار ده.
نعمة:معلش يا حمو مش هنطول، علشان خاطري !

أخيرًا، بعد نصف ساعة من الإلحاح، وافق حامد على اقتراح نعمة، فاجتمعت العائلة في السيارة، مُتجهين إلى رجل جاهل في القرية، معروف باستخدام "البشعة". كانت الغرفة صغيرة، تحتوي على حصير مُتهالك، ونافذة تطل على جدار مُغلق، تصدر منه روائح كريهة تنفر الأنفاس. في الداخل، كانت الإضاءة برتقالية خافتة، بينما كانت أصوات الفلاحين تتعالى في الخارج، تضيف إلى المكان جوًا من الضجيج. استعد الرجل، الذي بدا وكأنه ينتمي إلى عصور غابرة، وهو يحمل عصاه، حيث قام بتسخينها على أعلى درجة حرارة فوق "الوابور". كان الجميع يجلسون في صفوف متساوية، الأطفال بجانب آبائهم، ترتعد أجسادهم من الخوف، بينما كانت أم الديب تتوجه إليه، وقد أبدت استعدادها لتقديم ما يلزم، قائلة:
_يلا يا راجل انت ابدأ!
قال "جلال" لأم الديب بخوف، وقد تملّكته مشاعر القلق:
=علفكرة ياما البتاعة دي غلط على ليالي!

أم الديب بتهكم:ايهي ليه هو هيعملهالها على بطنها ولا لسانها؟
جلال بقلق:أنا بعرفك ياما عشان لو جرالها حاجة، ذنبها هيبقى في رقبتك!
أم الديب:لا ياخويا متخافش، مراتك زي الفرسة مبيجرالهاش حاجة.

تلفظت "ليالي" بخوف، عينيها تجوبان المكان بحثًا عن أي نظرة حاسدة قد تصيبها منها، قائلة:
=الله أكبر من عينك.
قالت "هايدي" لأم الديب بارتياع، وقد ارتسمت على ملامحها علامات القلق:
_أنا مليش دعوة يا ماما!

أم الديب:اطلعي منها انتي يا بت، خلينا في أخواتك!
هايدي بفرح:الحمدلله يارب.

طلبت "أم الديب" من الرجل أن يبدأ، وهي تتحدث بنبرة تعكس تصميمها، قائلة:
=يلا ابدأ يا راجل!

اقترب الرجل منهم، متوجهًا نحو نعمة وزوجها، لكن تأثيره عليهم كان ضئيلًا، وعندما جاء دور جلال، كانت الصدمة قوية، حيث لسعته العصا، مما جعله يصرخ بألم شديد. صرخ بصوت عالٍ، مشيرًا إلى

أم الديب الجزء الثالث

شدة ما يعانيه من آلام. في تلك اللحظة، صاحت أم الديب بحدة، متهمةً جلال بالكذب، مُطالبةً إياه بأن يخبرهم من الذي أبلغه عن حديثها، وعندما أتى دور ليالي، أكدت بحذر أنها هي من أخبرته، وهو ما أدي إلى تصاعد الأمور، حيث طلبت أم الديب من الرجل أن يجرب عليها. لكن عندما اقترب الرجل من ليالي، لم يحصل على أي نتيجة، مما جعل أم الديب تصرخ مستنكرةً تصرفاتها، مُعبرةً عن استيائها من تصرف ليالي، فاتهمتها بالتنصت، وبينما كانت الأجواء تتأزم، كان الرجل قد صمت، ولم تفد محاولاته مع ليالي. استمرت أم الديب في الحديث، مُبينةً أنها لن تدفع لهم أي أموال إذا استمروا في تصرفاتهم.
بينما كان "جلال" يعاني من آلام الحرق، ويتألم بصمت، مما أثار قلق ليالي، التي بدأت تسأله عن حالته، مشددةً على ضرورة الاطمئنان عليه. بعد أن عادوا إلى المنزل، كانت ليالي مشغولة بتقديم المسكنات لجلال، محاولةً تخفيف آلامه. كان يواجه معاناته بصمت، بينما كانت الأجواء محملة بالقلق، قال بتألم:
_مش قادر.

ليالي باستياء:معلش يا جلال كلها كام يوم ولسانك يخف، ياريتنا ما كنا روحنا معاها، أهو كان أرحملنا من اللي حصل ده.

وسط تلك الأحداث المتوترة، لم يتأثر "حمود" بما حدث لوالده بل على العكس، دخل إلى الغرفة ضاحكًا بوضوح على المنظر المأساوي الذي كان والده يعاني منه جراء حروق لسانه. كانت ضحكاته تتردد في أرجاء المكان، وكأنها تعكس اللامبالاة التي يشعر بها، بينما قال بتهكم:
_أبويا اتلسع في لسانه.
صاحت "ليالي" فيه بوعيد، وقد تجلّت على ملامحها علامات الانزعاج، قائلة:
_أسكت ولم نفسك بدل ما أضربك بالشبشب!
تلفظ "جلال" بكلمات غير مفهومة، وقد كانت تتسرب من بين شفتيه بصعوبة، كأن الألم الذي يعاني منه قد جعل لسانه يلتف حول نفسه، مما أعاقه عن التعبير:
=لما أخف ياض هبقى أربيك!

في نفس اليوم ليلًا، كانت أم الديب تسير بخطوات مُتسارعة في ظلام الليل، وقد غطت وجهها جيدًا، بينما كانت تحمل تحت ذراعها كيسًا مليئًا بالأموال. كانت هايدي، ابنتها، ترافقها، تسير بجانبها بصمت، وكأن كل منهما تحمل همومها الخاصة. أخيرًا، وصلوا إلى "مالك المحل"، الذي كان ينتظرهم في مكانه. عُقدت الجلسة بينهما حينما استقبلهم بابتسامة تجذب الانتباه، وقال:
_يا أهلًا اتفضلوا.

أم الديب:ماشي ياخويا.

جلست أم الديب وهايدي على كراسي بيضاء بلاستيكية حيال المحل، حيث بدا المكان بسيطًا لكنه يحمل لمسة من الأناقة. سألهم "المالك" بتبجيل، مُظهرًا اهتمامه للاستماع إليهم، قائلًا:
_تشربوا إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

أجابت "أم الديب" بطمع:
=أربعة حاجة ساقعة.

اقتربت "هايدي" من أذن أم الديب، وسألتها بصوت خافت يكاد يُسمع:
_لمين الأربعة؟

أم الديب:تلاتة ليا وواحدة ليكي يا بت علشان أعمل مزاج ونتكلم على رواقة.

قال "المالك" بابتسامة:
_اللي تؤمروه.
قدم مالك المحل المشروبات لهم، حيث بدأت أم الديب تشرب الثلاث علب التي أمامها بشغف. كانت تشعر بالعطش بعد يوم طويل، وعندما انتهت من الشرب، مسحت فمها بكف يدها، مستعدةً للحديث. وبينما كانت تلتقط أنفاسها، نظر إليها المالك بابتسامة دافئة، مُتمنيًا لها الراحة بعد ذلك الانتعاش. ثم بدأت أم الديب تتحدث معه بحزم، معبرة عن رغبتها في استئجار المحل. استمع إليها صاحب المحل باهتمام، مُظهرًا استعداده للتفاوض. فهل ستكون قادرة على تحمل هذا العبء المالي الجديد؟ كانت تفكر في الخيارات المتاحة أمامها، متسائلة عما إذا كانت ستتمكن من دفع هذا المبلغ، أو إن كانت ستوافق على الشروط المفروضة.
يتبع....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الثالث عشر

كانت صدمة هائلة كصاعقة نزلت من السماء حينما واجهت أم الديب مالك المحل بسؤالها عن الإيجار الشهري. إذ كيف لغرفة لا تتجاوز مساحتها عشرة أمتار، تتناثر فيها ثلاث نوافذ، إحداها ترنو إلى بيوت عتيقة، والأخرى تفتح ذراعيها على الأرض الزراعية كأنها صفحة من الطبيعة الحية، والثالثة ترقب حركة الطريق كعين ساهرة، ومع ذلك تظل في قلبها غرفة أخرى ضئيلة لا تتعدى خمسة أمتار، نافذتها الصغيرة بالكاد تسمح للضوء بالدخول. كيف لهذا المكان المتواضع أن يُطالب بمبلغ يفوق حجمه بآلاف المرات من منظورها؟ جاء رد "المالك"صريحًا:

_ألف جنيه في الشهر .

أم الديب:لا ياخويا دهو كتير أوي، اعمل الواجب معانا شوية عن كده.
المالك:خلاص علشان خاطرك هخليه بـ ٨٠٠، أي خدمة.
أم الديب بدهشة:وانت كدهو نزلتلنا فيه إيه؟ ما تنزلها شوية كمان عن كِده!
المالك بابتسامة:طيب يا ست الكل هخليهولك بـ ٧٠٠ وكده آخر كلام.
أم الديب برفض:لا ياخويا كتير أوي عليه، دهو ميستاهلش مية جنيه حتى.
المالك بحسم:والله ده اللي عندي، قُولك إيه؟
أم الديب بترهيب:خلاص هجيبلك أخويا ضايع يتفق معاك ونشوف هتنزل فيه ولا لا.

تحترف أم الديب حل الأزمات بسلاح سيرة ضايع، الاسم الذي يسبقه الرعب وتتبعه الحيرة. فكل من يطرق سمعه يتراجع عن قراره بخطوات مُسرعة، كمن يهرب من وادٍ يعج بالأفاعي السامة، خشيةً من بطشه وشره الذي لا حدود له. فما إن أنهت حديثها حتى تغيرت ملامح "المالك" كليًا، وكأنه تحول في لحظة من جبروت التاجر إلى هيبة الرجل المذعور. ارتعش جسده كما لو أن الريح الباردة اجتاحت كيانه، وانخفض صوته حينما نطق مجددًا، قائلًا بحذر بالغ:

_لا طبعًا يا حاجة ده لو عايزة تاخديه بـ ٤٠٠ جنيه أنا معنديش مشكلة، شوفي عايزة إيه واحنا معاكي فيه!

أم الديب: ٣٠٠ جنيه حلو أوي ياخويا.
المالك:خلاص اللي تشوفيه يا حاجة.
أم الديب:على بركة الله، طلع العقد.
المالك:من عينيا، دقايق ويكون عندك.

قفز المالك من مكانه كمن لدغته أفعى، وانطلق بسرعة نحو منزله القريب لجلب عقد الإيجار. وفيما كانت أم الديب ترتشف ما تبقى في آخر زجاجة مشروب بيدها، لم تكتفِ بإفراغها، بل أطاحت بها بعنف على الأرض، فانشطر الزجاج إلى نصفين، وكأنها أرادت من تلك الحركة أن تفرض حضورها وهيبتها حتى في صمتها. بعد دقائق عاد الرجل حاملًا العقد، وجلس أمامهما وقد بدت عليه ملامح التوتر. تناولت

أم الديب الجزء الثالث

"أم الديب" العقد بين يديها بعزم، لكن نظراتها للرجل كانت مليئة بالريبة، خشية أن يكون في الأمر خدعة أو احتيال قد يوقعهما في فخ الجهل. لم تجد ملاذًا سوى أن تلجأ لابنتها هايدي، خريجة كلية التربية قسم اللغة العربية، لتفك لها رموز المكتوب. اقتربت منها، وهمست لها بصوت بالكاد لا يُسمع، وكأنها تتوجس من أن يسمع المالك ما يجول في خاطرها، قائلة:
_اقري المكتوب يا بت ألا الراجل يضحك عليا !

هايدي:طيب.

تناولت "هايدي" العقد بيد ثابتة، وأطلقت العنان لعلمها الذي نضج طيلة ستة عشر عامًا من دراسة اللغة وإتقانها، فغاصت في سطور الأوراق كمن يغوص في بحر من المعاني والتفاصيل. تقلبت بين الكلمات والعبارات، تحلل وتفكك، حتى تأكدت بكل يقين أن جميع البنود قد كُتبت لصالحهما، دون مواربة.
مضت عشر دقائق من التدقيق الصامت، قبل أن ترفع رأسها نحو والدتها، بعينين ملؤهما الثقة، لتقول لها بنبرة تملؤها الحسم:
_كده تمام.

أم الديب:يلا يا بت اكتبي!

وقعت هايدي على الأوراق نيابة عن أم الديب، بينما كانت أم الديب ترقب كل حركة وكل تفصيل بعينٍ ثاقبة، وكأنها عين ساهرة في منتصف رأسها، تحصي كل ما يجري حولها بدقة لا تغفل عنها شاردة ولا واردة. وبعدما انتهت الإجراءات، سلَّم "المالك" المفتاح بيده المرتجفة، وكأن تلك اللحظة طوت صفحة من الصراع، ليقول لها بابتسامة باهتة، تجمع بين الخوف والتودد:
_مبروك عليكي يا حاجة.

أم الديب:الله يباركلك ياخويا.
المالك بفضول:أما قوليلي يا حاجة، بنتك مخطوبة؟
أم الديب بصياح:أه مخطوبة، وخليك في حالك! فاهم ولا لا؟
المالك بخوف:خلاص زي ما تشوفي.

ندم المالك على سؤاله ندمًا مريرًا، وكأن نصل الندم قد غاص في قلبه، إذ شعر للحظة بأن "أم الديب" لم تكن سوى امرأة قوية يخفي صوتها الغليظ شخصية تلتهم الرجال في لحظات الضعف. حينما أجابته، كاد أن يتراجع عن كل كلمة نطق بها. التفتت أم الديب إلى ابنتها هايدي، وأشارت لها بالنهوض، لتقول لها بكلمات حازمة تليق بشخصيتها المسيطرة:
_يلا يا بت قومي!
نهضت أم الديب بخطوات ثابتة، تتبعها هايدي في صمت، وكلتاهما غارقتان في أفكارهن. كانتا في طريق العودة إلى المنزل، عندما لفت انتباه أم الديب كلبٌ من بعيد، بدا كأنه يتربص بهما من بعيد، ثم ما

أم الديب الجزء الثالث

لبث أن اقترب شيئًا فشيئًا، ولما وصل إليها، أخذ يتمسح بأم الديب وكأنه يبحث عن ملاذ أو أمان بين قدميها. لم يمضِ الكثير من الوقت حتى ابتعد الكلب ببطء، لكن أم الديب، وبدافع غريزي غامض، بدأت تسير خلفه بخطوات متسارعة، كما لو أن نداءً خفيًا يجذبها نحوه.

"هايدي"، وقد بدا عليها القلق، نادت بصوت عالٍ، تحاول منع والدتها من الاستمرار في السير خلف الكلب:

_يا ماما رايحة فين؟ يا ماما!

حينما رأت "هايدي" أم الديب تسير بلا هوادة خلف الكلب، استمرت تناديها بصوت ملؤه القلق، تنادي مرة تلو الأخرى، لكن وكأن صوتها يتلاشى في فضاء لا يُسمع فيه نداء. أم الديب ظلت تسير كأنها مأخوذة بشيء لا يُرى، لا تنظر خلفها ولا تلتفت لكلمات هايدي. ومع مرور الوقت، استبد اليأس بهايدي، وتسلل الضيق إلى صدرها، فبعدما شعرت بالملل من تجاهل والدتها، قالت بصوت يحمل شيئًا من الاستسلام:

_طب والله لأمشي، أنا مالي؟ يلا بقى زي ما تيجي تيجي.

عادت هايدي إلى المنزل بخطواتها المثقلة بالانزعاج، بعد أن تركت أم الديب تائهة خلف الكلب، وما إن دخلت إلى الدار، حتى وجدت "المعلم حنفي" جالسًا على الأرض، ممدًا رجليه أمام التلفاز، يمسك بكوب الشاي في يده، يرشفه بهدوء وكأنه غارق في راحة استثنائية بعد يوم طويل. نظر إليها بفضول، ثم سألها:

_إيه يا هايدي عملتوا إيه؟

هايدي:روحنا واتفقنا وكتبنا العقد، المشكلة إن ماما مشيت معرفش راحت فين وسابتني لواحدي!
المعلم حنفي باستهزاء:وإيه الجديد عليها؟ ماهي ولية مخها لاسع.
هايدي بنعاس:طيب أنا هدخل أنام، عايز حاجة؟
المعلم حنفي:سلامتك يا هايدي.
هايدي بابتسامة:تصبح على خير.
المعلم حنفي ببشاشة:وانتي من أهله.

دخلت هايدي غرفتها وأوصدت الباب بإحكام، كأنما تريد أن تعزل نفسها عن العالم الخارجي وأحداثه، ثم بدأت بتغيير ثيابها ببطء، لتخلع حجابها وتحرر خصلات شعرها. مشطت شعرها بلمسات خفيفة، ثم ربطته بالمشبك كأنها تعيد تشكيل ذاتها. أطفأت النور لتغمر الغرفة في ظلام دامس، واستلقت على سريرها، محاولة الهروب من كل ما حولها في غفوة عميقة. أما "المعلم حنفي"، فقد كان غارقًا في متابعة كليب يبرز فيه امرأة رائعة الجمال، تتراقص برشاقة وجاذبية تأسر الأنظار، كأنها تجسد كل ما هو مثير في عالم الجمال. أخذ قلبه يتحرك نحوها بشغف، وبدا عليه الذهول، وهو يقول لنفسه بصوت خافت مفعم بالدهشة:

_جامدة أوي، لا جامدة إيه؟ دي صاروخ، مكنتش أتجوز واحدة زيها بدل الراجل اللي آني متجوزه ده؟

أم الديب الجزء الثالث

بعد برهة، دوى في أرجاء البيت صوت كلب ينبح بشكل متواصل، كان الصوت يقترب شيئًا فشيئًا، يتسلل إلى مسامع "المعلم حنفي" كأزيز قلق. استدار، مستغربًا من هذا الهرج الذي لا يتناسب مع أجواء المنزل الهادئة، ثم هتف بفضول يتخلله الارتباك:

_إيه الصوت ده؟

نهض "المعلم حنفي" من مكانه، متجهًا نحو مصدر الصوت، وفجأة، وقعت عيناه على أم الديب وهي تخرج من الباب، يرافقها الكلب الذي يبدو وكأنه قد قرر أن يجعل من هذا المنزل ملاذًا له. تجمدت اللحظة في عينيه، واستشعر التساؤل يعتمل داخله، فسألها بلهجة مليئة بالاستغراب:

_إيه يا ولية اللي جاب الكلب ده هنا؟

أم الديب:دهو الكلب بتاعي وهسميه سلامة، أصل ياخويا فكرت بيني وبين نفسي لقيت إن الاسم دهو لايق عليه أوي.

المعلم حنفي بخوف:بس كده عم سلامة يزعل منك!

أم الديب بصخب:ياكش يولع، وسع يا راجل انت !

فجأة، صرخت أم الديب فيه بنبرة تحمل كل الاستنكار، ثم دخلت الغرفة مع الكلب الذي يسير خلفها ببراءة. لم يحتمل "المعلم حنفي" هذا الموقف، فتابعها إلى الداخل، عازمًا على إبلاغها برأيه الحازم بشأن تربية الكلاب في المنزل. فقال لها بنبرة صارمة، مدعومة بالحكمة:

_هو انتي محدش قالك قبل كده إن الكلب بيطرد الملايكة من البيت يا ولية؟

أم الديب بلا مبالاة:لا ياخويا محدش قالي، وإركح على جنب آني مش فاضيالك !

خلعت أم الديب حجابها، ووضعته برفق فوق الفراش، ثم توجهت بالكلب نحو المرحاض، تعامله كطفل صغير يتطلب الرعاية والاهتمام. في تلك اللحظة، فتحت الصنبور، فتدفق الماء كأنه شلال يجلب النقاء والانتعاش. لكن "المعلم حنفي" وقف في الصالة، مذهولًا أمام هذا المشهد، متعجبًا من أنها تعكف على تحميم الكلب بينما تُعاني هي من نقص النظافة الشخصية لعدة أشهر. قال لها بلهجة تحمل الاستغراب:

_ده انتي يا ولية مبتستحميش لما هتحمي الكلب ذات نفسه؟

أم الديب بحبور:أمال إيه؟ لازم يبقى نضيف أصل هو هينام جنب مني النهارده.

المعلم حنفي بدهشة:وآني هانام فين؟

أم الديب بحدة:عندك الكنبة أهي اتخمد عليها.

المعلم حنفي:كتر خيرك يا ولية، مش عارف من غيرك كنت هعمل إيه!

كانت أم الديب تعامل كلبها أفضل بكثير من معاملتها لزوجها، إذ استخرجت صابونة قديمة، متسخة ومهملة، من داخل الكيس البلاستيكي، وبدأت تصنع رغوة بيديها، وهي تدلك أصابعها بالصابونة وتعمل بحرص على فركها فوق جسد الكلب باهتمام بالغ، كأنها تعتني بمخلوقٍ رقيق يحتاج إلى كل العناية. أما

أم الديب الجزء الثالث

المعلم حنفي، فقد استلقى على الأريكة، محاولًا استجماع قواه لنيل قسط من النوم وسط نباح الكلب المتواصل الذي تردد صداه في أرجاء الحي كأنه يتحدى السكون. وفي تلك اللحظة، كان جلال نائمًا في غرفته، بينما كانت زوجته "ليالى" مستلقية أمام التلفاز في الصالة مع أطفالها، يتناولون الفشار بمرح، وفجأة، شد انتباهها نباح الكلب الذي يبدو أنه قادم من داخل المنزل. نظرت إلى أطفالها ثم قالت لحمود أن يخفض الصوت:

_استنى، وطي صوت التليفزيون ده !

بعد أن خفض ابنها صوت التلفاز، بدأت ليالي تركز على صوت الكلب، الذي استمر في النباح بشكل متواصل، مما أثار تساؤلاتها. كانت تتساءل في نفسها عن السبب وراء هذا الصخب، وكأن هناك شيئًا غير معتاد يجري في المنزل. فقالت "ليالي"، مستغربَة:

_حاجة غريبة، هو صوت الكلب ده عندنا احنا ولا عند الجيران؟ أصل الصوت قريب أوي أوي مننا.

قالت "تقى" لوالدتها بتخمين، وهي تتأمل في الوضع الغريب الذي يجري حولهم:

=يا ماما هتلاقيه في الشارع.

ليالي بتخمين:لا شارع إيه؟ ده الصوت قريب.

ثم خرجت "ليالي" من الشقة، متجهة نحو مصدر الصوت، الذي كان يقترب أكثر فأكثر، حتى أخذت تنادي على هايدي، لكن حين لم تجد أي رد، قررت النزول، وعندما دخلت الشقة، صُدمت مما رأته: أم الديب تحمم الكلب بعناية، فقالت ليالي، وقد علت وجهها ملامح الاستغراب:

_كلب؟ إيه ده يا حماتي انتي بتحميه ولا أنا بيتهيئلي؟

أم الديب:لا ياختي مش بيتهيئلك ولا حاجة، أصل الكلب مش نضيف وميتفعش ينام جنب مني وهو كدهو.

ليالي بتعجب:وهو ينام جنب منك ليه من أصله؟

أم الديب بغلاظة:وانتي مالك يا بت؟ ما تخليكي في حالك!

ليالي:ربنا يشفي.

أم الديب:يلا يا سلامة خلص آني بانام على نفسي!

كانت أم الديب قاصدة ذكر اسم عم سلامة أمام ليالي، متعمدة التقليل من شأنه، وكأنها ترغب في استفزازها. فبينما كانت تسمي كلبها على اسمه، تجلّت قلة احترامها وتربيتها الفوضوية، التي لم تعرف شيئًا عن آداب التعامل مع الآخرين، وبمجرد أن استمعت "ليالي" للاسم، ارتفعت صرختها، التي تعبر عن استنكارها لمن حولها، وقالت باهتياج عارم:

_سلامة؟ سلامة إيه؟ هو انتي مـ....

أم الديب:سميته سلامة، دهو أكتر اسم لايق عليه.

أم الديب الجزء الثالث

بمجرد أن نبح الكلب، وهي تدلك رأسه بالصابون، أطلقت أم الديب صيحة له، تعيد ذكر اسمه مجددًا وكأنها تستمتع بمدى تأثير ذلك على ليالي. بينما كانت ليالي تقف أمامها، تحترق نيران الاحتدام في أعماقها، متأملة كيف يمكن لأحد أن يصل إلى هذا المستوى من الاستهتار. فقالت "أم الديب"، وقد ارتعش صوتها من شدة الانفعال:
_هششش يا سلامة متهوهوش لا الجيران يشتكوا مننا!

ليالي بصراخ:طب والله يا حماتي انتي ما شوفتي ريحة الربابة ولا تسمعي عنها..كلب إيه ده اللي مسمياه سلامة على اسم أبويا؟ من قلة الأسامي ملقتيش غير الاسم ده؟

كانت "أم الديب" تحلل سبها للآخرين وكأنها تحكم عليهم من عرش معصوم، بينما تحرم على أي شخص أن يخطئ في حقها. كانت ترغب في سب عم سلامة وليالي، رغم أن كليهما وضعاها وسامًا فوق رؤوسهم، يتعاملون معها بأقصى درجات الاحترام. لكن عندما جلجلت ليالي في نفسها حزنًا على والدها الذي يتحمل الإهانات في غيابه ووجوده، أقدمت أم الديب على ترك الكلب في المرحاض، وخرجت بتصميم عازم لتفجر كلمتها، وكأن لسانها يصبح سلاحًا. وجهت مسبة حارقة لها، وصدحت بصوتٍ عالٍ، يعبّر عن سخطٍ متأصل، قائلة:
_يا ليالي يا بت دباح الحمير يا صايعة يا ضايعة ياللي مش لاقية حد يلمك، جوزك دهو عيل ماهو مش عارف يلمك من علينا يا بت، وسايبك مطلوقة زي الكلبة السعرانة.

ما أسوأ أن تحاول النوم، وفجأة تخرج أسباب إزعاجك من العدم، كأنها شياطين تلاحقك في أعماق الليل. نهض المعلم حنفي من على الأريكة في الحال، متسلحًا بقدرٍ من الانزعاج، فالأصوات المتعالية لم تترك له خيارًا سوى الاستيقاظ. في تلك الأثناء، خرجت "هايدي" من غرفتها بسرعة، مضطربة، تسأل عن أسباب ارتفاع أصداء النقاش المحتدم، قائلة بلهجة تحمل قلقًا حقيقيًا:
_في إيه؟ في إيه؟
قالت "ليالي" لأم الديب بصياح، وكلتاهما تصرخان في وجه الأخرى كأنهما في معركة لا هوادة فيها :
_جوزي ده سيد الرجالة، ده أنا ببوس إيديا وش وضهر إنه مطلعش زيك، دي كانت تبقى مصيبة سودة.

أم الديب بصراخ:يلا يا بت الـ* من هناهو، هنزل بفردة الشبشب على نفوخك!**

صرخت "هايدي" في أم الديب بعدما استيقظت من النوم بسبب ضجيجهما، قائلة بانزعاج:
_أسكتوا بقى أسكتوا! انتوا مابتزهقوش؟

تفوهت "أم الديب" بصراخ في ليالي، مظهرة كراهيتها الشديدة لها ولوالدها سلامة، وكأن كل كلمة تنبعث من فمها تحمل عبء السُخط المتفاقم:
_ماشي يا بت سلامة دباح الحمير آني هعرفك ازاي تعملي معايا كدهو، أصبري عليا بس يا بت!

أم الديب الجزء الثالث

ليالي بثقة:ولا تقدري تعملي معايا أي حاجة، ده أنا أهلي يدفنوكي صاحية.

سحبت هايدي ليالي بسرعة، وشدت يدها بقوة نحو الأعلى، بينما كانت أم الديب ما زالت مشغلة قصيدة الردح والشتائم القاسية، وكأنها تعيش في عالمٍ منفصل لا يعبأ بما يحدث حولها. لم تكن أم الديب راضية عن ليالي، كما لم تكن ليالي أيضًا، وكان الصراع بينهما يتصاعد كأمواج عاتية. عادت أم الديب لتحميم الكلب بمشاعر مضطربة، وعندما وصلت "ليالي" وهايدي إلى الشقة في الطابق العلوي، انهمرت دموع ليالي بصوت خافت فوق الأريكة حتى لا يستيقظ جلال من نومه، وارتفعت نبرة صوتها وهي تبكي، معبرة عن مشاعرها الجياشة، قائلة:
_تعبت منها، دي بقيت عيشة مرار، أنا هلاحقها على بيتي وجوزي وعيالي ولا على العيل اللي جاي ولا عليها؟ دي مبترحمنيش يا هايدي وقاصدة تحرقلي دمي بأي شكل وكل ده غلط عليا وعلى اللي في بطني.

هايدي بمواساة:معلش يا ليالي مانتي طول عمرك مستحملاها، إيه الجديد يعني؟ وعارفة كويس قد إيه هي بتحب المشاكل، وعلفكرة هي معانا كده برضة مش معاكي انتي بس!
ليالي بنحيب:لا يا هايدي أمك بتكرهني كره العما أنا وأهلي ودايمًا بتقلل مننا، حسبنا الله ونعم الوكيل فيها.
هايدي بابتسامة:معلش يا ليالي حقك عليا، هاتيها فيا أنا !

وسط دموع ليالي وشكواها لهايدي من أم الديب، ازدادت الكراهية في قلب "حمود"، الذي قرر أن يقتص من الجدة الشريرة. انطلق نحو الباب، مستشعرًا قوة عزيمته، متحركًا بحماسةٍ ملؤها الانتقام، وكأن ثورته قد بلغت ذروتها. عزم على مواجهة أم الديب، فيسعى لتأديبها على ما بدر منها من إهانات، انتشرت هالة من الغضب حوله، وكأن العالم من حوله قد تحول إلى ساحة حرب، وهو يقول:
_أنا هنزل أضرب ستي!

ليالي بصخب:أسكت بقى انت كمان! هو احنا ناقصين؟

انقضت ليالي بسرعة نحو ابنها، وجذبته قبل خروجه من الشقة، مفعمة بالقلق من مواجهة أم الديب، التي يمكن أن تؤدي إلى مشاجرة تؤثر سلبًا على الجميع. كان في ذهنها شبح العواقب الوخيمة، حيث يمكن أن تصل الأمور إلى حد العنف، كطأطأته بالنعل أو حتى حرقه بالشمعة. خافت ليالي من تلك التبعات المحتملة، فجلست بابنها على الأريكة من جديد، محاولة أن تسيطر على مشاعره. أما جلال، فكان ما زال يغفو في سابع نومه، بعيدًا عن كل تلك التوترات. أطلقت "هايدي" حديثها، محاولة أن تواسي ليالي، قائلة بكلمات ملؤها التعاطف:
_اهدي بس يا ليالي، وانسي اللي حصل!

أم الديب الجزء الثالث

بعدما أتمت "أم الديب" حموم الكلب، نشفته بالمنشفة الخضراء الخاصة بها، وأخذته بجانبها على السرير، كأنها تعتني بطفل صغير. حين دخل المعلم حنفي ليطلب منها غطاء، قابلته برفضٍ قاطع لاستماعه، فارتفعت نبرة صوتها بصياحٍ عالٍ، يعكس استيائها:
_جاي عاوز إيه؟

المعلم حنفي بتعجب:هو انتي يا ولية مفيش مرة تردي على اللي خلفونا براحة؟ كل كلامك زعيق وشخط كده؟
أم الديب بفظاظة:دهو اللي عندي إن كان عاجب.
المعلم حنفي بتردد:طب ناوليني البطانية من عندك!
أم الديب بحدة:مفيش زفت فوق دماغك.
المعلم حنفي بدهشة:أمال هانام ازاي طيب؟
أم الديب:اتخمد على الكنبة !
المعلم حنفي بخوف:طب ماهو كده هيجيلي برد.
أم الديب بلا اكتراث:ما يجيلك ياخويا، إيه المشكلة يعني؟
المعلم حنفي بصياح:ربنا ياخدك.
أم الديب بنواح:ربنا ياخدني؟ انت بتدعي عليا يا راجل يا مخلع؟

غفا الكلب في غمار نومه الغائر، مضطجعًا على فراش المعلم حنفي، بينما نهضت أم الديب، مفعمةً بحنقٍ، لتتشابك معه في نزاعٍ مرير بعد أن أطلق دعاءً سابحًا في سماء الأماني، متمنيًا لها الفناء ليخلص نفسه من شرورها وآلامه التي تتجلى في كل لحظة. عازمت على منع الغطاء عنه بلا وجل، متجاهلةً عناء البرد القارص الذي يشتعل في جوف الليل، مطلقًا عواقبه منذ الساعة الحادية وحتى بزوغ الشمس في الثامنة صباحًا. وكانت حالته أنه فقد الوسادة، إذ تبدلت الأدوار بينه وبين الكلب. لكن هايدي، التي غسلت أدران ليالي المتوترة بدموعها، نزلت من الشقة بعد أن مسحت ليالي وجهها بالمنشفة الورقية، ودخلت لتنام بجانب جلال في ظلامٍ حالكٍ خيم على المكان، بينما اتجه الأطفال إلى غرفهم في استعدادٍ ليومٍ جديدٍ مشرق. قبل أن تستدير "هايدي" نحو غرفتها، لمحت التقارب المشبوه بين أم الديب ووالدها، مما يوحي بشجارٍ وشيك، فدخلت مُسرعةً، وارتسمت على وجهها ملامح الذعر، وأجابت بلهجة متوجسة:
_مش قصده يا ماما، هو قصده يعني ربنا ياخد المشاكل اللي ما بينكم ويهدي الدنيا ده انتوا ملكوش غير بعض.

أم الديب:لا يقصد يا بت، آني سامعاه بوداني دهي!

قال "المعلم حنفي" لها بصياحٍ متفجر، يتردد صداه في أرجاء الغرفة كالرعد الذي يعصف بالسماء:
_حقي يا ولية.

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بصياح:جاك كسر حقك، يلا غور من هناهو!

تشبثت "هايدي" بذراع والدها، وكأنها تسعى للتشبث بأملٍ يتلاشى، وقالت بنبرةٍ خافتة تترنح بين الخوف والرجاء:

_تعالى نام جنبي يا بابا، تعالى!

دخلت هايدي مع والدها إلى الغرفة، لينام بجانبها على سريرها، متدثرًا بغطائها الدافئ، بدلًا من أن يقضي ليله القارص على الأريكة، محتملًا بردًا لا يُطاق. مرت الأيام، ليشهد الأسبوع التالي تحولًا ملحوظًا، تلخص في تنظيف المحل من الأوساخ التي التصقت بالأرضية والجدران، حيث كانت نعمة وليالي تعملان بجدٍ واجتهاد، تسعيان لجعله مشعًا بالنظافة رغم أن البلاط القديم كان مشوبًا بالكسور التي لا تخفى على العين. أما جلال، فقد أضفى على المحل لمسةً جديدة، إذ دهنه بلون بني عميق، وزين السقف بألواحٍ خشبية، فتحول المكان من مجرد بقعة مهملة إلى ركنٍ ملائم للعمل والنشاط. ثم قاد التوكتوك متجهًا لشراء كمياتٍ كبيرة من الزجاجات الفارغة، والأطباق البلاستيكية، استعدادًا لانطلاق مشروعهم الجديد. كانت ليالي متخصصة في إعداد الحلويات بإتقان، بينما انصرفت أم الديب لصنع المشروبات، حيث لكلٍ منهما مجاله المتقن. وفي هذا اليوم بالذات، بدأت ليالي في تحضير البسبوسة، والكنافة المليئة بالمكسرات، والجاتوه بنكهتي الفانيليا والشوكولاته، إلى جانب حلوى البباز وبلح الشام وأصابع زينب، وفطيرة السكر المحلاة بالحليب والسمن. ثم رتبت كل تلك التحف الشهية بعناية داخل باترينة عرض الحلويات، التي ازدانت بألوانها الزاهية والمغرية. أما أم الديب، فقد أبدعت في ابتكار مشروباتٍ غريبة، لم تكن موجودة من قبل، ما أثار الفضول حولها، وفي يوم الافتتاح، كان جلال جالسًا قبال أم الديب على المكتب الخشبي، يختم آخر لمسات كتابة الأسعار في القائمة التي سُتعلق أمام المحل.

حينها، سألته "أم الديب" بفضول:ِ

_كتبت الأسعار يا جلال؟

جلال:أه ياما كتبتها، كله في السليم.

نهضت أم الديب من على الكرسي، متجهةً نحو الباترينة، حيث خرجت "ليالي" من غرفة المطبخ لتتولى المهمة، وحلت محلها بعيونٍ متفحصة، تقرأ القائمة التي خطها جلال. ولما رأت الأصناف المتنوعة، والتي بدت كأنها جلبت من أرجاء الصين البعيدة، تملّكها التقزز، فسألت زوجها بنبرةٍ مفعمة بالاستنكار:

_إيه يا جلال العصاير المقرفة دي؟ عصير بنجر بالبرسيم؟

جلال:فكك يا بت، المهم ناخد نصيبنا علشان دخلنا يتظبط عن كده، وعلشان العيل اللي جاي مع إن ده مكنش أوانه.

ليالي:معلش يا جلال ده نصيبنا، هنعمل إيه طيب؟

أم الديب الجزء الثالث

وقفت "أم الديب" أمام المحل، مشدودةً إلى واجهته، تجذب أنظار المارة في الشارع، عازمةً على استقطاب الزبائن لعل أحدهم يقترب منها ليشتري شيئًا من منتجاتها. برقت عيناها بشغف، فيما تملكتها روح النشاط، فانطلقت تنادي بصوتٍ عالٍ، يملأ الأجواء بأصداء الحماس، قائلة:

_قرب اشتري، عصاير إنما إيه زي العسل، هتشربوا حاجات عمركم ما دوقتوها في حياتكم.

خرج جلال من المحل، ناشبًا في يده اليمنى عصير البنجر بالبرسيم، وفي اليد الأخرى عصير الخيار بالجبن، حيث كان مزيج الألوان يعكس انتعاش المنتجات. بينما كانت "أم الديب" تراقبه بعيونٍ مليئة بالتفاؤل، إذ كانت تشعر بأن هذه المشروبات الجديدة قد تشكل إضافة قيمة إلى قائمة منتجاتهم. في لحظة استبصار، توجهت إليه بنظراتٍ مشحونة بالتشجيع، وقالت:

_قولهم يا جلال عصير البنجر بالبرسيم فوايده إيه!

جلال بصدح:ده فوايده كتير أوي أوي، لو عازب هتتجوز، ولو متجوز هتخلف، ولو مخلف هتتجوز الجوازة التانية، ولو نفسك في سفرية هتسافر، ولو نفسك في أكلة هتاكلها.

أم الديب بتأكيد:أمال إيه؟ ده غير إنه بيصلب الرجل ويخليها زي الصخرة ميجرالهاش حاجة .

وأردفت له:

=خُش يا جلال على عصير الخيار بالجبنة !

جلال بصخب:كل اللي فات كوم وعصير الخيار بالجبنة كوم تاني أمال إيه؟ لو ولية عجوزة زي اللي قاعدة هناك دي هترجع صبية، لو تخينة هتخسي وتبقي شبه عود القصب، ولو قصير هتطول، ولو طويل هتقصر، ده عصير المعجزات يا جدعان... اشتروا ومش هتخسروا حاجة!

أم الديب بفخر:خُش على اللي بعده يا جلال!

كان جلال ينادي الناس بأعلى صوتٍ، تتردد كلماته في الأرجاء، فيما كان يشرح لهم بفخرٍ مفرط فوائد كاذبة للمشروبات التي أعدتها أم الديب. كان صوته يشع بالحماسة، ولكن عبثًا حاول أن يجذب الزبائن إلى تلك الخلطات الجديدة. بينما كانت "ليالي" تجلس مستريحة على الكرسي داخل المحل، تستمع لنداءه، حيث تصاعدت إلى مسامعها تلك الكلمات الفارغة. تملّكها التقزز، وسرت في أعماقها مشاعر الرفض، إذ قالت لنفسها:

_يا لهوي على العك والقرف، وربنا ما قادرة، هرجع!

تلفظ "جلال" بصوتٍ عالٍ وواضح، تتناغم كلماته مع فضول المارة الذين اجتمعوا حولهم، مشدودين لما سيسمعونه. بدأ في شرح تفاصيل مشروبٍ جديد، وصفه بأنه مزيجٌ فريد من المكونات الطبيعية، التي تضمن لهم الانتعاش والطاقة. استمر في حديثه، مؤكدًا أن هذا المشروب يحتوي على فوائد صحية مذهلة، قائلًا:

_ركزوا بقى في اللي جاي ده أصل ده لا أي أي ولا زي زي، عصير البلح بالعنب حاجة آخر فخامة، هتشربه من هنا وهتروح حتة تانية، لو مخنوق هتروق، لو زعلان هتفرح، لو طهقان هتبقى فُل الفُل.

وضعت "ليالي" بدهاءٍ فوق بطنها، مشعرةً بإحساسٍ قاسٍ من التقيؤ يتصاعد في أعماقها، وكأنما تتحدى قدرتها على التحمل. تملكتها نوبة من الألم، فتلفظت بكلماتٍ متقطعة، يتخللها أنينٌ متقزز:

أم الديب الجزء الثالث

_بطني، آه يا مراري منك يا حماتي، هقول إيه وانتي فيكي كل العِبر؟

قالت "أم الديب" للناس المجتمعين حولهم، محاطةً بأجواء من الترقب، بصوتٍ يحمل نبرة من الثقة:
=ده احنا عندنا كل حاجة وهتشربوا العصاير من هناهو وهتروحوا في دنيا تانية .
وتابعت لجلال:
=يلا يا جلال اللي بعده!

جلال بصخب:الكلام بيحلو، ركز يا معلم منك له، عصير العناب بالموز هيخليك تنام نومة مرتاحة، أه أمال إيه؟ لا تقولي كوابيس ولا أحلام ولا بتنجان أزرق، هتحط دماغك على المخدة من هنا وهتحس إنك طاير في السما.

اقتربت "جارة أم الديب" منها، وعانقتها بحبٍ حار، تعبيرًا عن فرحتها بمناسبة افتتاح المشروع الجديد الذي يُبشر بعائداتٍ مبهجة. أطلقت الزغاريد في الهواء، مضيفةً لمسةً من البهجة إلى الأجواء، بينما كانت عيناها تتلألأان بالسعادة قالت بسرور:
_مبروك يا أم الديب على الدكان الجديد.

أم الديب بحبور:الله يبارك فيكي يا أم سعد، هتشتري مني ولا لا؟
أم سعد:أمال إيه؟ ده احنا جايين النهارده علشان ننفعك، بس الله يسترك إديني حاجة حلوة انتي عارفة الحاج مبيشربش أي حاجة فاتوصي بينا وخدي اللي انتي عايزاه.
أم الديب:خلاص هجيبلك حاجة زي السكر، هتحلفي بيها طول حياتك .

نادت "أم الديب" جلال قائلةً بصوتٍ عالٍ، يتردد صداه في أرجاء المحل:
_ولا يا جلال هاتلي العصير المخصوص بتاعنا!

جلال:من عينيا الإتنين ياما.

دخل جلال المطبخ، مستعينًا بحماسه، وفتح الثلاجة ليحضر المشروب المميز الذي ظل غامضًا، إذ لم يعرف عنه أحد أي تفاصيل سوى أنه يُشرب. كانت هذه المهمة بأمر من أم الديب، التي أصرّت على أن يحتفظ هذا المشروب بطابع سري، فتكررت إجابتها عند سؤال أي شخص عنه بأنه "مشروب سري".
في تلك الأثناء، دخلت أم الديب وجارتها المحل، مفعمتين بالحيوية. بينما كانت ليالي تتفاعل مع الزبائن، تبيع الحلويات بشغف، كانت "جارة أم الديب" تتجول في أرجاء المكان، تتفحص الأجواء بابتسامةٍ مشرقة. أبدت اهتمامها بما يدور حولها، مما دفعها إلى الاستفسار عن المشروب الغامض، متسائلةً عن تفاصيله وكأنها تبحث عن سرٍ يُحاك في خفاء، قائلة:
_أما قوليلي يا أم الديب، ده بيتكون من إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب:خلطة سرية مقولهاش لحد أبدًا، وده سر النجاح بعينه، اشربي انتي بس من هنا وادعيلي.

ثم نادت "أم الديب" جلال بصوتٍ عالٍ، تأمره بالسرعة، إذ كانت تعبر عن حاجة ماسة لإنهاء التحضيرات سريعًا، قائلة:
_يلا يا جلال، أم سعد مستعجلة!

جلال:أهو ياما، يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.

بعدما أحضر جلال المشروب، وضعه على جهاز التسعير، حيث انبعثت رائحة المنعشة تملأ المكان. بينما كانت "الجارة" تراقب تلك اللحظة بفضولٍ بالغ، تقدمت نحو أم الديب، وسألتها باهتمام:
_بكام ده؟

أم الديب:الإزازة بأربعين جنيه بس الغالي تمنه فيه، ده هيعجبكم أوي أوي، ولو حاسة إنه كتير دوقي واحكمي انتي بنفسك.
الجارة بحماس:خلاص ندوق ونحكم يا حاجة.

فتحت "الجارة" الزجاجة، وشربت المشروب بشغفٍ، حتى انبهرت بنكهته الفريدة التي أثارت حواسها، واستسلمت لمذاقه الرائع. لم تترك فيه شيئًا، فكان آخر قطرة تعبر عن استمتاعها الخالص. حينما انتهت، نظرت إلى أم الديب بذهولٍ، وكأنها استكشفت كنزًا مكنونًا، لتخبرها بأن هذا المشروب يتجاوز كل توقعاتها، قائلة:
_يا خبر دي حلوة أوي، هي معمولة من إيه؟

أم الديب بحدة:مآني قولتلك دي الخلطة السرية بتاعتي، يلا يا ولية إيدك على الأربعين جنيه !
الجارة:دي حلوة حلاوة مش طبيعية يا حاجة، بقولك آني هشتري منك كمان إزازة .

ثم استخرجت "الجارة" المال من حقيبتها، وسلمته لأم الديب في يدها بحماسٍ، راغبةً في المزيد من ذلك المشروب المذهل الذي أسَرّ حواسها. كانت عينيها تتلألأان بفرحٍ، وكأنما تعبر عن رغبتها في تكرار تلك التجربة الفريدة، متوقعةً أن يظل ذلك المذاق العذب يرافقها في لحظات فرحها، قائلة:
_خدي كده معاكي مية جنيه.
أطلقت "أم الديب" الزغاريد بحرارةٍ، وهي تستلم الأموال، فملأت الأجواء بالبهجة، وكأنما تحتفل بانتصارٍ مبكر. انطلقت تنادي الناس بحماسٍ لا مثيل له، قائلة:
_تعالوا قربوا واشتروا مش هتخسروا حاجة .

ثم توجهت نحو ليالي، بخطواتٍ سريعة، وكأن الفرح يدفعها إلى الأمام. اقتربت منها، ووجهت حديثها بعجيجٍ متفجر بالحماس، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_ما تقومي يا بت أمال انتي لازمتك إيه؟

ليالي بإهاق:مش قادرة يا حماتي، الواقفة الكتير غلط عليا.
أم الديب بتعجب:ولما انتي مش قادرة يا مخفية، إيه اللي جابك؟
ليالي:ماهي الحوجة مُرة يا حماتي، ربنا ما يكتبها على حد.

كأن أم الديب تستخسر في ليالي لحظات راحتها، فلم تكن تتحمل رؤيتها جالسةً دون عمل، فكلما رأتها تستريح للحظات، صاحت فيها بأمرٍ للنهوض، وكأن الراحة أمرٌ غير مسموح به في هذه الأوقات الحاسمة. بعد الجهد الكبير الذي بذلته ليالي، كان من حقها القليل من الارتياح، حتى لو لدقائق معدودة، لكنها ظلت ساعية بجد، تشارك زوجها في جني ثمار الأرباح. في تلك الأثناء، تقدمت "سيدة أربعينية" نحو أم الديب، ببطء، تتذوق المشروب بهدوء، وكأنها تبحث عن سر النكهة. تملكها الإعجاب بما تذوقت، فكانت ملامح وجهها تُظهر رضاها حيث تحدثت:
_بقولك إيه يا حاجة هاتيلي تلات أزايز من العصير ده، طب والله ما يتقاوم ده طِعم أوي.

أم الديب:بألف هنا وشفا ياختي.

وتابعت لجلال:
_إديلها إزازتين كمان يا ولا وشوف حسابها كام.
حسب "جلال" السعر، ورفع رأسه متحمسًا، ثم قال بنبرةٍ مرتفعة:
_حسابها مية وستين.

أم الديب بسرور:هنتغني يا ولا، يا بركة دعاكي ياما.

بزغت الزغاريد من فم أم الديب، وكأنها ترى أمام عينيها لوحةً متألقة من الازدهار، تتخيل فيها امتلاك شلالات من النقود تتدفق نحوها. كانت أحلامها تمتد إلى قصرٍ واسع وسيارات حديثة، حيث الفخامة التي طالما تطلعت إليها. كلما دخل زبون جديد إلى المحل، كانت خطواته تُنقش بهجة مرسومة على فمها، حيث تزداد سعادتها مع كل عملية شراء، فقد بات المحل يعج بالزبائن، يطلبون الحلوى والمشروبات الطريفة التي لم يكن لها مثيل. لكن في خضم هذا النجاح الظاهر، بسطت "ليالي" كفيها فوق بطنها، إذ بدأت علامات الحمل تؤثر على مزاجها. شعرت بالغثيان، وكانت كل دقيقة تمر تزيد من رغبتها في التقيؤ بسبب الوصفات الغريبة التي تبتكرها أم الديب. ألمها الداخلي كان يعبر عن صراعها بين واجبها تجاه العمل، وحاجتها الملحة للراحة، قائلة:
_آه يا بطني، تعبانة أوي مش قادرة .
ونادت جلال، صوتها ضعيف ومثقل بالتعب، تستنجد به في لحظةٍ من الانهيار الجسدي، قائلة:
_يا جلال، يا جلال.

لكن "جلال" لم يكن منصتًا إلى نداء ليالي، إذ كان يصب تركيزه على زبائنه، مغمورًا في حديثٍ حيوي مع أحد الرجال حول تفاصيل العمل، وقد قال له:
_كده حسابك يا عم: اتنين بنجر بالبرسيم، وواحد عناب بالموز، بتاع مية جنيه.

العميل:خد، مبروك على الدكان الجديد.
جلال:الله يبارك فيك.

وضع جلال المال في الدرج بالمكتب، فغادر الزبون محملًا بالمشتريات، تاركًا خلفه انطباعًا إيجابيًا.
بينما كانت هناك العديد من الناس يتعاملون مع "نعمة"، التي كانت تتنقل بين الزبائن، تضع الحلوى لهم في العلبة بحماسٍ ظاهر. لكن ليالي، المُتعبة التي شعرت بالألم ينهش بجسدها، لم تعد قادرة على تحمل الموقف. اقتربت منها نعمة بسرعة، عابرةً أجواء المحل المزدحمة، وسألت بقلقٍ ظاهر في عينيها:
_مالك يا ليالي؟

ليالي بعناء:تعبانة يا نعمة، والله ما قادرة، ده لولا الحوجة ما كنت نزلت.
نعمة بتأثر:ما بصراحة يا ليالي انتي بتظلمي نفسك، بقى في واحدة حامل تنزل تشتغل وتمرمط نفسها علشان القرش؟ ده بدل ما تقعدي في البيت ترتاحي؟
ليالي بتجشُّم:الحوجة مُره يا نعمة، ربنا ما يكتبها عليكي، اندهيلي جلال... مش قادرة أندهه.
نعمة:حاضر يا ليالي.

اتجهت "نعمة" نحو أخيها، مدفوعةً برغبةٍ ملحة في لفت انتباهه وسط الزحام المتزايد. نادت بصوتٍ مرتفع، يعلو فوق ضجيج المحل:
_يا جلال!

جلال باهتمام:إيه يا بت؟
نعمة:شوف مراتك، أصلها تعبانة.

ترك "جلال" أشغاله التي بدت وكأنها جزء لا يتجزأ من يومه المثقل بالهموم، واتجه بخطى مسرعة نحو ليالي، التي كانت ملامحها تنطق بالألم، وكأن روحها تتصارع مع وجع لا يرحم. بدا واضحًا أنها لن تتمكن من مواصلة اليوم معهم، وستعود إلى منزلها بحثًا عن راحة تُطفئ لهيب التعب الذي أثقل كاهلها.
حينما وصل إليها، ترقرق القلق في عينيه، وقال بصوت يغلب عليه الحنو:
_إيه يا ليالي جرالك إيه؟

ليالي بعَنَت:بطني بتتقطع ياخويا مش قادرة، في سكاكين في بطني.

وأردف لنعمة:

أم الديب الجزء الثالث

_طب خديها للداكتور يا نعمة بس استني!
ثم أخرج "جلال" يده بتردد من جيب بنطاله، يستل منها المال كأنه يُخرج حلًا لعقدة في صدره، وأعطاهم مئتي جنيه، وكأن الأوراق النقدية تحمل في طياتها رجاءً خفيًا. نظر إلى نعمة بوجه يشوبه بعض الحزم، وقال لها:
_خدي يا بت وطمنيني لما ترجعوا!

نعمة:ماشي يا جلال.

تشبثت نعمة بذراع ليالي كمن يستمد القوة في لحظة ضعف، وهي تسعى لمعاونتها على النهوض من على الكرسي، في مشهد يفيض بالمودة الصامتة. بينما عاد جلال إلى عمله المعتاد، يبيع المشروبات للزبائن، غير مكترث لثقل الحياة من حوله. وفي تلك اللحظة التي كانت نعمة وليالي تخرجان فيها معًا، اقتربت "هايدي" منهما بخفة، وكأنها تحمل في خطواتها تساؤلًا ملحًا لا يقبل الانتظار، وسألت نعمة بلهفة:
_انتوا رايحين فين؟

نعمة:هنروح للداكتور أصل ليالي تعبت.
هايدي:طيب أنا جاية معاكم، استنوا!

دخلت هايدي المحل بعجلة، وكأنها تحمل على كتفيها حمل الساعة التي لا تنتظر. أخرجت حقيبتها بسرعة، ولفتها حول رأسها بحركة سريعة تحاكي الريح التي تتبع ظلّها، ثم انضمت إليهم، متجهين صوب الطبيب وكأن الطريق يأخذهم بعيدًا عن ثقل الواقع. عند بداية الشارع وقفوا منتظرين وصول التوك توك الذي سيحملهم إلى وجهتهم. وحينما مرَّ أحد التكاتك، لم تتوانَ نعمة في الإشارة له، فركبوا جميعًا، متزاحمين كأنهم أغصان شجرة تتشابك في مهب الريح، وفي المحل، أكمل "جلال" عمله كالمعتاد، نظر إلى الزبون بابتسامة خفيفة بعدما حسب له السعر، وقال:
_كده يا باشا حسابك خمسة وخمسين !
أعطاه "الزبون" المال بيدٍ واثقة، وكأن بينهما اتفاقًا غير منطوق، ثم رفع نظره إلى جلال وسأله بنبرة يكسوها الفضول:
_خد، هتنزلوا عصير الفراولة امتى؟
أجابت "أم الديب" بصوت يفيض بحنكة التجارب:
=بكرا ياخويا أبقى عدي علينا وهتلاقيها.

العميل:على بركة الله، السلامو عليكو.

رد جلال:
=وعليكم السلام .

أم الديب الجزء الثالث

ثم توجّه بالسؤال إلى الوالدة، وكأنه يستنطق بواطن حكمتها، باحثًا عن رأيها في أداء العمل:
=إيه رأيك ياما؟

أم الديب:حلو أوي يا ولا عقبال كل يوم.
جلال بتمني:يارب ياما يارب.

وصلت نعمة وليالي وهايدي إلى العيادة، حيث غلف الصمت المكان إلا من همسات المرضى وحركة العاملين. جلسوا ينتظرون دورهم بصبر مثقل بالقلق، فيما كانت العيون تترقب اللحظة التي ستفتح فيها الأبواب. حينها، قطعت "نعمة" سكون الموقف بنبرة تحمل في طياتها التهدئة، قائلة:
_خلاص يا ليالي استحملي شوية كمان !

ليالي بعذاب:بتقطع يا نعمة، مش قادرة!
نعمة بشفقة:خلاص هانت أهو.

رنَّ موبايل "هايدي" فجأة، فتسللت ضحكة خفيفة من شفتيها، ونهضت لترد على المكالمة، مُبتعدة قليلًا عن نعمة، وليالي وكأنها تبحث عن لحظة من الخصوصية وسط زحام الانتظار، وبابتسامة عريضة تُعبِّر عن حيويتها، قالت هايدي بدلال:
_ألو يا زياد... الحمدلله... وانت أكتر... معقول لحقت أوحشك؟
لكن "نعمة" استمعت بفضول متزايد لدلال هايدي مع خطيبها عبر الهاتف، وكان صوتها ينساب كألحان دافئة تملأ المكان، مما أثار في قلب نعمة شعورًا من الانزعاج. فتحدثت بنبرة تحمل في طياتها غيظًا مكبوتًا، قائلة:
_يارب صبرني !
كان "حامد"، زوج نعمة، واقفًا بجانب أم الديب، وكأن البهجة تملأ جواره، لا يتوقف عن الضحك، مما جعل أم الديب تنظر إليه باستغراب. سألت، وهي تحمل في نبرتها تساؤلًا يعكس فضولها:
_مالك يا ولا فِشتك عايمة كدهو ليه؟

حامد بافترار:أصل كل الحاجات اللي هنا عك في عك، الناس هتشرب من هنا وهتروح المستشفى من هنا.
أم الديب بصياح:اتعدل يا ولا!
حامد بخشية:حاضر يا حماتي.

كان حامد يرتعد من صوت أم الديب الغليظ، فتراجع في ضحكاته حتى تحولت إلى صمت يختلج في صدره، كأنه أدرك حجم امتعاضها، وفي تلك الأثناء، دخلت مجموعة جديدة من الزبائن، مكونة من ثلاث نساء ورجل، جميعهم يبدون متشوقين لتجربة المشروبات المتنوعة. حينها، نظرت "أم الديب" إلى جلال، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الجد، وقالت له:

أم الديب الجزء الثالث

_شوف الزباين اللي هناك عايزين إيه يا جلال!

جلال بهشاشة:يا أهلًا يا حاج، عاوز إيه؟

قالها وهو يقترب من الزبائن، فبدأوا في شرح ما يرغبونه بكل حماسة، لكن في تلك اللحظة، دخلت ليالي ونعمة وهايدي إلى غرفة الطبيب، بعدما حان دورهم. وعندما بدأ الطبيب يكشف على ليالي، تغيرت ملامح وجهه، وكأن عبوسًا خفيًا قد تسلل إليها، مما أثار الشك في قلوب الباقيات. جلست ليالي على مكتبه، صامتة، وكأنها غارقة في أفكارها، لا تنطق بكلمة واحدة. عندئذٍ، لم تتمالك "نعمة" نفسها وسألته بارتياع، وكأنها تخشى أن تكون كلماتها قد تحمل بشائر غير محمودة، مُتسائلة:
_إيه يا داكتور في إيه؟ طمنا !

الطبيب:للأسف ده حمل كاذب .

يتبع....

الفصل الرابع عشر

تغيرت النتيجة في لحظة مفاجئة، وكأن كل الآمال التي علقتها ليالي على شعورها واعتقادها تحولت إلى سراب. تلك الأعراض التي استشعرت بها، والرجاء الذي نما في قلبها، تلاشى تمامًا عندما أخبرها الطبيب أن ما اعتقدته حملًا لم يكن سوى حمل كاذب. كل شيء انقلب رأسًا على عقب. لكن الحقيقة الأكثر غرابة جاءت حينما اكتشفوا أن المعمل أخطأ في نتائج التحاليل، وأن نتيجتها قد تبدلت مع امرأة أخرى كانت بالفعل في شهورها الأولى من الحمل. حينها، لم تستطع "نعمة" تصديق ما سمعته من الطبيب، فملأ التعجب وجهها وسألته بدهشة وكأنها تستفظع ما قاله:
_ازاي بس يا داكتور؟ دي عاملة تحاليل وانت قولتلها النتيجة إيجابية.

الطبيب:عادي يا أستاذة بتحصل، أنا هكتبلها شوية مسكنات.

كتب الطبيب لها المسكنات وكأنما أراد إسكات الألم دون أن يُعنى بالبحث عن العلة الحقيقية التي تختبئ وراءه. كان يحاول إنهاء زيارة المرضى بسرعة، متجاهلًا أن يمنحهم الفرصة لشرح ما يعانونه من أعراض، وكأنهم مجرد أرقام تنسل عبر مكتبه. هذا التصرف أثار شَدَه "هايدي"، التي لم تستطع إخفاء دهشتها، فرفعت حاجبيها وسألت الطبيب باستغراب، وكأنها تستنكر أسلوبه المُتسرع:
_مش المفروض تعرف هي عندها إيه الأول؟

الطبيب:أنا خلاص عرفت، هي عندها أملاح على الكلى، هتاخد العلاج ده مرتين في اليوم لمدة خمس أيام.
هايدي بدهشة ساخرة:أملاح على الكلى؟

دون أن تُعطى ليالي فرصة لشرح آلامها بالتفصيل، سارع الطبيب بتفسير حالتها على أنها نتيجة أملاح في الكلى، وكأنه يعتمد على تخمينات سريعة لا تستند إلى تشخيص دقيق. كانت يداه تكتب العلاج على الورقة بسرعة، وكأن إتمام الوصفة هو غايته الوحيدة. أما هايدي، فكانت مشدوهة من تصرفه وغير مقتنعة تمامًا بقدرة أطباء الريف على تقديم رعاية حقيقية، خاصة وأن هذا الطبيب كان الأكثر شهرة في أمراض النساء والتوليد، يتوافد إليه عشرات النساء يوميًا. بدلًا من أن يحول ليالي إلى طبيب مختص في أمراض الكلى، اختار إنهاء الموقف بسرعة ودون تدقيق. هنا، تبادلت "نعمة" النظرات مع هايدي، وشعرت بالحيرة ذاتها، فمالت نحوها وهمست لها بقلق:
_استني بس يا هايدي لما نشوف!
استلمت نعمة الروشتة من يد الطبيب، وكأنها تحمل في طياتها حلًا مؤقتًا دون يقين، ثم نهضت مع ليالي وهايدي استعدادًا للمغادرة. قبل أن تلتف نحو الباب، التفتت "نعمة" نحو الطبيب بابتسامة طفيفة ترتسم على وجهها، مزيج من الامتنان المجامل، والشكوك المتخفية، وقالت له بهدوء:
_شكرًا يا داكتور.

أم الديب الجزء الثالث

لكن الطبيب لم يرفع رأسه، ولم يكترث بالرد على كلماتها. كان غارقًا في كتابة الأدوية على ورقة أخرى، وكأن المرضى الذين يأتون ليسوا سوى اسم جديد على قائمة الانتظار. حينها، التفتت "نعمة" نحو هايدي وليالي، وقالت لهما بنبرة هادئة ولكن حازمة:
_يلا بينا!
عندما نزلوا على درج العمارة، كانت خطواتهم ثقيلة، وكأن الصمت يضغط على كل نفس يتنفسونه. فجأة، توقفت ليالي، والتفتت إلى نعمة بوجه يعلوه الذهول وعينين واسعتين لا تصدقان ما سمعته من الطبيب، وقالت لها بصدمة، وصوتها يحمل مرارة الحقيقة التي لا تزال تقاوم تصديقها:
_ازاي طيب؟ ازاي؟

نعمة:إحمدي ربنا يا ليالي لو كنتي حامل بجد كنتوا هتتبهدلوا أوي، أصل تلات عيال كتير أوي في الزمن ده.

نطقت هايدي بنبرة واثقة، وقد ارتسم على وجهها تعبير يعكس اقتناعًا تامًا بما دار في ذهنها:
_فعلًا كفاية واحد بس ولا اتنين بالكتير.
قالت ليالي لنعمة بصوت يملؤه الشجن، وهي تكافح لتمنع الدموع التي تجمعت في عينيها من الانزلاق على وجنتيها، وكأن الكلمات ثقيلة تخرج من قلب مثقل بالخيبة:
_ده أنا كنت متعشمة إني أخلف العيل التالت يا نعمة، آه يانا آه.

نعمة:معلش يا ليالي إحمدي ربنا، يمكن لو كنتي خلفتي كان جه عنده مشاكل، المهم ياختي تعالي نروح نجيب العلاج من الأجزخانة.
ليالي بجوى:الحمدلله.

قبل أن يخطوا خارج العمارة، شعرت نعمة بدوار حاد اجتاحها فجأة، فتشبثت برأسها بيد مرتعشة، وكأنها تحاول الحفاظ على توازنها وسط دوامة من الألم غير المفهوم. كانت ملامح وجهها تشي بمعاناة داخلية، غير قادرة على تحديد العلة التي تعتريها، فقالت بصوت متقطع، وكأن الكلمات تكاد تتسرب منها:
_آه يا نفوخي يانا، اسندوني، الدنيا بتلف بيا!
تمايلت نعمة على كتف ليالي، وكأن جسدها قد أثقلته العلة التي استعصت على الفهم، فيما هايدي تشبثت بذراعها بقوة، والاثنتان ترتعش ملامحهما خوفًا وقلقًا على حالتها. وقفوا جانبًا، يترقبون بوجوه شاحبة، تاركين للناس المرور بجانبهم في صعودهم نحو الطبيب الذي غادروا عيادته للتو. نبضات قلب ليالي ازدادت بسرعة، وكأنها تسابق الزمن، وقد اجتاحها الذعر على صديقتها، فحملت نظراتها الحائرة إلى نعمة وسألتها بلهفة:
_مالك يا نعمة حاسة بإيه؟

نعمة:تعبانة ياختي مش قادرة، مانا كنت لسه كويسة من شويه، لحقت أتعب؟

أم الديب الجزء الثالث

قالت هايدي لنعمة بصوت يحمل مزيجًا من القلق والشفقة، وكأن كلماتها تتسلل بين ظلال الخرع الذي يحيط بهن:

=بقولك إيه احنا لسه فيها، اكشفي وشوفي مالك ولو إن يعني الدكتور ده حاساه حمار ولا فاهم حاجة أصلًا، ده شخص حالة ليالي من غير ما يكشف عليها ولا حتى تتكلم!

على الرغم من التكدس في عيادة الطبيب الذي يحظى بشهرة واسعة ونجاح بارز، إلا أن هايدي كانت ترى بوضوح أنه لم يفهم شيئًا في مهنته، أو أنه يستغل جهل الآخرين لتأليف علل غير حقيقية لا صلة لها بالواقع. لكن ليالي كانت متمسكة بقناعتها به، خاصةً أنها كانت تتابع حالتها معه أثناء حملها في حمود، وتقى، حتى نعمة التي وضعت طفلها محمد، وهبة التي أنجبت طفلتها، وكل نساء القرية والقرى المجاورة، توافقت على جدارة هذا الطبيب. عندها، نظرت إلى هايدي بعزم وأكدت لها:

_لا الحق عليكي يا هايدي، الداكتور ده شاطر أوي، وبيلمحها وهي طايرة.

تنهدت هايدي بعمق، وكأن ثقل الأفكار يضغط على صدرها، ثم نظرت إلى أختها نعمة، وقالت بحزم:

=طيب أدخلي اكشفي يا نعمة!

نعمة بإملاق:ممعايش فلوس يا هايدي.

لم يكن في جعبة نعمة من الأموال ما يُذكر، فحالتها كانت تُعبر عن فراغ الجيوب وخلاء اليدين من كل ما يُعينها، ومع ذلك، كان إيثار هايدي فريدًا من نوعه، إذ أخرجت من حقيبتها مرتبها الضئيل كمعلمة في المدرسة، وتوجهت بنظراتها نحو نعمة، مبتسمة بابتسامة دافئة تُشع بالحنان. ثم، وبكل رقة، نطقت بكلمات مفعمة بالنية الطيبة، قائلة لها:

_طيب استني، أنا معايا فلوس من مرتب المدرسة.

نعمة برفض:وانتي اللي هتاخديه هتصرفيه عليا؟

هايدي بسخاء:متقوليش كده يا نعمة، احنا واحد!

نعمة:ربنا يخليكي ليا يا هايدي.

ثم صعدوا للمرة الثانية، حيث خُطِّطَ لاسم نعمة أن يُدوَّن في الكشف، وانطلقوا لدفع الأموال، ليجلسوا بعدها في انتظار دورهم من جديد. وفي تلك الأثناء، كانت ليالي تُواسي نعمة في آلامها، على الرغم من أنها كانت في وقتٍ سابق قد تحملت عبء مواساتها. بينما كانت هايدي تجلس بجانبهم، مُنشغلة بهاتفها النقال، تكتب رسائل لزياد عبر تطبيق الواتساب. بينما في المحل، كانت أم الديب تتجول بين أخواتها، مُوزعةً العصائر عليهن بكرمٍ بلا حدود، وبالأخص على سعاد، التي جاءت خصيصًا لتشهد المشروع الذي افتتحته أم الديب. وفي غمرة من الغبطة، قدمت لها ثلاث زجاجات من كل نوع، مُعبرةً عن سرورها، قائلة:

_خدي ياختي، ده آني جايبالك عصاير مخصوصة ليكي وللعيال.

أم الديب الجزء الثالث

سعاد:الله يخليكي يا بسمة ياختي وميحرمناش منك.
أم الديب:عينيا ليكوا.
ثم قدمت لأبو محمد، الذي كان يجلس على الكرسي البلاستيكي بجانب المعلم حنفي، ثلاث زجاجات، معبرةً عن سعادتها بلمسة من الحفاوة. بابتسامة مُشرقة تعكس فرحتها، قالت له:
_خد يا أبو محمد اشرب، وخد معاك وانت راجع وأبقى سلملي على نساوينك التلاتة.

أبو محمد:ربنا يبارك فيكي يا أختاه، ويرزقك، ويطعمك من طعام الجنة، ويسترها معاكي دنيا وآخرة.
أم الديب:يارب ياخويا.

نادت أم الديب جلال بصوت جهورٍ يحمل في طياته مزيجًا من الحزم والود، وقالت له بنبرة تملؤها العزيمة:
_ولا يا جلال تعالى معايا!

جلال:ماشي ياما.

تقدمت أم الديب بخطوات واثقة نحو المطبخ، يتبعها جلال عن كثب، بينما كانت المساعدتان منهمكتين في إعداد البسبوسة، كما علمتهما ليالى الوصفة بدقة من قبل. وضعت أم الديب الخلاط حيال جلال، وعيناها تلمعان بمكرٍ خفي، تطلب منه بصوت مليء بالتحدي، وصفة جديدة من ابتكارها، وصفة غريبة تخالف كل المألوف، قائلة له:
_اضربلي البتنجان مع اللبن والسكر هناهو في الخلاط.

جلال باستغراب:إيه العك ده ياما؟
أم الديب بجلبة:اسمع الكلام بقولك، فاهم ولا لا؟
جلال بجزع:اللي تشوفيه، مادام هتديني فلوس يبقى خليني وراكي للآخر.
أم الديب بهدوء:اسمع الكلام وانت تاخد أحلى فلوس يا ولا!

لم تجد أفكار أم الديب طريقها إلى عقل جلال بسهولة، فقد شعر بالنفور في بادئ الأمر من تلك الوصفة العجيبة، لكن حاجته الملحة إلى المال جعلته مضطرًا لمجاراة كل ما تطلبه، مهما كان غريبًا أو مقززًا. كانت الرغبة في الربح قوية لدرجة أنه، لو طلبت منه ذبح أبيه، لفعلها دون تردد، فقط ليهرب من دائرة البؤس التي تطوقه. بدأ جلال في البحث عن الخلاط في أرجاء المطبخ، ثم وضعه أمامهم كما طلبت أم الديب. أحضر الباذنجان النيء، قطعه إلى شرائح ووضعه في الخلاط. بعدها، فتح الثلاجة، استخرج الحليب وسكبه فوق الخليط، ثم أضاف السكر. بدأ بضرب المكونات معًا حتى امتزجت، ثم قال بوجه مشمئز وهو يعد تلك الوصفة الطريفة:
_وماله ياما؟ آدي البتنجان، وآدي اللبن، وبالهنا والشفا للي هيشرب، هيطير على المستشفى جري.

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب:ليه يا ولا هو احنا في حد زينا؟
جلال بافتئات:لا ياما وهو ده كلام برضة؟

بدأ جلال في سكب المشروبات داخل جوف الزجاجة، وأوصدها بإحكام، ثم وضعها في الثلاجة، وعندما استدار، وجد أم الديب مُنهمكة في فتح علبة السمن البقري، والتي كانت قديمةً، مغطاة بطبقة من الصدأ في كل زاوية، مما زاد من شعوره بالاشمئزاز. لكن المفاجأة لم تتوقف عند هذا الحد، فقد جلبت أيضًا قطعًا من الخبز اليابس، قاسية كالصلب. أذهلته تلك الخلطة غير المعتادة، ولم يستطع أن يكتم دهشته.
تطلعت عيناه نحو أم الديب وسألها بتعجب عميق، وصوته مفعم بالحيرة:
_إيه ده ياما؟ مش قولنا خليكي في العصاير، وخلي ليالي في الحلويات؟

أم الديب:مانت مراتك عمالة تتمايص وسابتنا وغارت في داهية تاخدها، يبقى محدش فيكم يفتح بوقه!
جلال:وماله؟ أنا غلطان، أنا كنت عاوز أريحك بس.
أم الديب:لا ياخويا متريحنيش.

بدأت أم الديب في طحن قطع الخبز اليابس في المطحنة بيدٍ ثابتة، وكأنها تُبدع في تنفيذ خطتها الغريبة، ثم أضافت إليه قليلًا من السمن، ثم شملت الخليط ببعض الحليب، وشرعت في عجنه بكل ما أوتيت من قوةٍ، غير عابئة بنظرات جلال المليئة بالاشمئزاز. كان يعلم جيدًا أنها، رغم كل ما يحدث، لن تُقر بخطأٍ أو تعترف بأن تلك الوصفة قد تكون أبعد ما يكون عن المعقول. نظر إليها جلال بشيء من الضيق، ثم قال بصوتٍ يحمل في طياته احتقارًا مكتومًا:
_ياما الصفيحة مصدية، كده هيجيلنا تسمم!

أم الديب:الصفايح بتاعة ستك زي الفل، الله يرحمك ياما كان زمانك فرحانة وسطنا دلوقتي، أبقى فكرني يا جلال نروح لستك نزورها.
جلال:بكرا الصبح نكون عندها ياما.
أم الديب:وماله ياخويا.

بعدما أنهت أم الديب عجينتها المثيرة للغرابة، أفرغت الخليط داخل صينية واسعة، ثم أشعلت الفرن بحركةٍ واثقة، ووضعت الصينية بداخله دون تردد. كانت السيدتان اللتان تراقبانها تملؤهما مشاعر التقزز، إلا أن خوفهما من احتدامها منعهما من التعبير عن مشاعرهما بأي شكل. الجميع كان يدرك تمامًا حقيقتها وما تخفيه من طباع لا تقبل النقد، وبينما انشغلت أم الديب في إعداد الشربات، جلس المعلم حنفي بجانب أبو محمد، مظهرا تبرمه الواضح من المشروع الذي أقامته أم الديب، رغم جهلها البارز بفن الطهي. فالتفت نحو أبو محمد وقال له بتهكم خافت:
_أنا مش فاهم يا أبو محمد، إيه اللي خلى الولية اتعبطت في مخها وفتحت مشروع؟ دي زي الهباب والطين في عمايل الأكل.

أم الديب الجزء الثالث

أبو محمد:ازاي يا حاج حنفي؟ أنا شايف يعني إن بسم الله ما شاء الله تبارك الله الدكان مليان حلويات.
المعلم حنفي:ليالي هي اللى عاملة كل ده ونعمة ساعدتها شوية، لكن دي ولية بهيمة مابتفهمش حاجة وأكلها زي الزفت .
أبو محمد:أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم، ربنا يهدي سركم يا حاج حنفي.
المعلم حنفي بنفور:انشالله عن سرنا ما هدى، دي ولية فقر، امتى نرتاح منها؟ ده يبقى يوم الهنا.
أبو محمد:لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كان أبو محمد يدرك تمامًا حجم المعاناة التي يمر بها المعلم حنفي في حياته الزوجية، ومع ذلك، كان يأمل دائمًا أن يتم الحديث عن زوجته بأسلوب يليق، دون أن يطغى العيب أو السب، فهو يسير على نهج النبي صلى الله عليه وسلم في معاملة النساء بالحسنى. ورغم ضيقه من سماع مشاكل أم الديب والمعلم حنفي المتكررة، كان قلبه يتمنى لهما حياة هادئة خالية من تلك النزاعات التي تنغص عيشهما.
في هذه الأثناء، كانت نعمة، وليالي، وهايدي قد توجهن إلى المعمل الطبي، حيث أخذوا عينة دم لنعمة في محاولة لفهم ما يعانيه جسدها الهزيل. فقد كان في ظنهم أن ما تمر به نعمة هو مجرد حالة من الأنيميا، نظرًا لنحافتها الواضحة. وعندما جلسن في مكتب الطبيب، نظر إلى أوراق التحاليل، وبدل أن يبدي قلقًا أو تعاطفًا، انفجر ضاحكًا بشكل غير متوقع. تعجبت هايدي من رد فعله، وسألته بقلق:
_إيه يا دكتور، الأنيميا عندها وصلت كام؟

الطبيب:أمر عجيب بصراحة.

قالت ليالي للطبيب بضيقٍ، وقد ضاقت ملامح وجهها من استهتاره بالموقف:
_هو إيه يا داكتور؟ ما تفهمنا بدل ما احنا زي الأطرش في الزفة!

الطبيب بضحك:مدام نعمة هي اللي حامل.

نهضت نعمة بسرعة، وعيناها متسعتان بالفزع، ثم توجهت إلى الطبيب بخطوات متوترة، وسألته بصوت مُرتعش:
_قول والله؟ ولا هيطلع في الآخر زي ما حصل مع ليالي وتقولنا حمل كاذب؟ انطق الله يسترك بدل ما يجرالي حاجة، أحب على ايدك!
نهضت ليالي بسرعة وأمسكت بيد نعمة بلُطف، محاولة تهدئة فزعها. نظرت إليها بعينيها الهادئتين، وقالت بصوت ناعم مطمئن:
_اهدي يا نعمة مش كده !
أجاب الطبيب بثقة، وهو ينظر إلى نعمة بعينين مليئتين بالثقة، بينما كانت الابتسامة لا تفارق شفتيه:
=لا أنا متأكد لأنك حامل في تلات شهور ونقدر نتأكد دلوقتي من السونار، لكن مدام ليالي كان باين إنها من شهر ونص، تقدروا تتفضلوا معايا نتأكد.

أم الديب الجزء الثالث

تلفظت نعمة بصراخٍ قوي، غير قادرة على استيعاب الخبر الذي ألقاه الطبيب عليها، وكأن واقع حملها الذي عانت منه في السابق يعيد نفسه، لتغمرها الذكريات المؤلمة. شعرت وكأنها ترى مشاهد تلك المعاناة تتكرر أمام عينيها، تُعيد لها تفاصيل الألم، حتى كادت تنفجر من فرط الضغط النفسي، فقالت بلهجة مُحطَّمة:

_يا نهار أسود عليا يا ليالي، ده أنا كنت بموت أيام محمد ابني، يعني كل اللي جرالي ده هيحصل تاني؟

استقامت هايدي، واتجهت نحو نعمة بخطوات هادئة، ثم نظرت إليها بعينين مليئتين بالحنان، وقالت لها بقلب مطمئن:

_أصبري يا نعمة، متسبقيش الأحداث يمكن المرة دي متتعبيش زي المرة اللي فاتت!

نعمة بنشيج:أبوس أيديكم مش عايزة أخلف تاني، ده أنا اتمرمطت يا هايدي، ده ربنا العالم كنت عاملة ازاي!

هايدي:انتي غريبة أوي يا نعمة، ده بدل ما تفرحي؟

نعمة بصدمة:يا خبر أسود فوق دماغي!

ازداد بكاء نعمة أكثر فأكثر، وهي تنتحب بقوة، ويدها تصطدم برأسها، رافضةً الهدية التي أرسلها القدر في رحمها. كانت تشعر أن مشاعرها تتأرجح بين العذاب والخوف، في حين أن الآخرين يدفعون الآلاف من أجل سماع كلمة "والدي" و"والدتي". بدا تصرفها أحمقًا، لكن ليالي، متأثرةً برؤية صديقتها في هذه الحالة، اقتربت منها بحذر، محاولةً تهدئتها، مُدركةً أن الأوقات العصيبة تستدعي دعمًا وتفهمًا أكبر، فاستحضرت كل قوتها لتمتص من حولها هذا الخوف الذي اجتاحها، قائلة:

=خلاص يا نعمة بقى، قومي عايزين نشوف العيل !

بعد بكاء مرير، أمرهم الطبيب بالاتجاه نحو سرير الكشف، فاستلقت نعمة عليه ببطء، بينما وضع لها الجل على بطنها، ثم حرك الجهاز بلطف فوق تلك البقعة الحساسة. كانت هايدي وليالي تجلسان إلى جانبها، تتابعان ما يظهر على الشاشة بشغفٍ، ومع تتابع الصور، بدأ يظهر شكل الجنين، مما أثار شكوكًا حول كونه أنثى، رغم أن نعمة لم تتجاوز الشهر الثالث من الحمل. قال الطبيب بتفكير، مشيرًا إلى الشاشة:

_أنا شاكك إنها بنت ولكن هنتأكد الشهر الجاي.

تفوهت ليالي مع نعمة مُفصحة عن فرحها، وعيناها تلمعان بإشراقة الأمل، وهي تنظر إلى الشاشة بتلهف:

_طب الحمدلله، يارب تطلع بنت بجد علشان يبقى عندك الواد والبت يا خايبة.

نعمة بقهر:اسكتي والنبي يا ليالي، سيبيني في اللي أنا فيه!

أم الديب الجزء الثالث

لم تتخيل هايدي حجم البكاء الذي انهمر من عيني نعمة بسبب خبر حملها، فقد كانت مشاعرها مختلطة. بدت هايدي غير مستشعرة بآلام نعمة، وانزعاجها يتسرب إلى ملامح وجهها، وهي ترى أختها تتألم دون أن تدرك أن تلك الدموع قد تكون تعبيرًا عن معاناة جسيمة:
_إيه الأوفر اللي انتي عاملاه ده؟

نعمة بنحيب:مانتي لسه متجوزتيش ومش حاسة باللي بقوله.

ضحكت ليالي، وعلامات السعادة ترتسم على وجهها، وكأن ضحكتها كانت شرارة تُشعل الأجواء، مما ساهم في تخفيف حدة توتر نعمة:
_بكرا تتجوز ياختي وتحس بينا كلنا، بس أمانة عليكي تهدي شوية.
نهض الطبيب من على الكرسي، متوجهًا إلى كرسي المكتب، معبرًا عن اعتراضه على كثرة الانتحاب التي قد تكون مؤذية للجنين. كانت تعابير وجهه تحمل مزيجًا من الجدية والقلق، حيث أدرك أهمية الحفاظ على هدوء النفس في مثل هذه اللحظات الحرجة:
_غلط الإنفعال على صحة الأم والجنين!
قالت ليالي بابتسامة ملآنة بالأمل:
_قولي الحمدلله يا نعمة.

نعمة:الحمدلله، اللهم لا اعتراض على قضائك.
ليالي بدهشة:شوف البت ولا كأن ميتلها ميت! طب ده ياريتني أنا اللي كنت مكانك كان زماني طايرة من الفرحة.

نهضت نعمة من على سرير الكشف، متسندة على ليالي وهايدي، ووقفت معهما إزاء الطبيب بينما كان يكتب الروشتة بعناية. نظر إليها بجدية، وعيناه تلمحان برفق، ثم توجه إليها قائلًا بنبرة هادئة تحمل نصيحة مهمة للحفاظ على صحتها وصحة جنينها:
_نسبة الأنيميا عندك عالية وهتحتاجي تركبي محاليل .

قالت نعمة لليالي، بقهر يفيض من صوتها، وهي تشعر أن شيئًا ما لا يزال يثقل كاهلها وأن الأمور ليست على ما يرام، رغم محاولات من حولها. كان في كلماتها إحساس بالعجز، وكأنها تقاوم مصيرًا لا مفر منه:
_شوفتي يا ليالي؟ أهو بداية القصيدة كُفر، يا خرابي عليا وعلى بختي، ده أنا هشوف الويل.
لكن الطبيب، بنبرة هادئة مليئة بالطمأنينة، أخبر نعمة بحديث كالبلسم، يلامس مخاوفها برفق ويهدئ من قلقها:
_قولي الحمدلله يا مدام نعمة، غيرك مش لاقي، ده أنا كل يومين تيجيلي حالة بتعيط بدل الدموع دم علشان بس تخلف.

حينما سمعت نعمة كلام الطبيب، شعرت بهدوء يتسلل إلى أعماقها، ورضيت بما كتبه لها القدر، وهمست في داخلها: "الحمد لله". وبعد لحظة من الصمت المُريح، أردف الطبيب حديثه بلُطف، مُضيفًا كلمات توجيهية:

_وطبعًا الحركة عليكي غلط وممكن أي حركة تتسببلك في الإجهاض، فهتنامي على ضهرك لحد الشهر السابع.

بعدما سمعت ليالي حديثه، صدمت من الفترة الطويلة التي يجب أن تلتزم فيها نعمة بالراحة التامة، لكن الطبيب كان واضحًا بضرورة هذا الأمر لضمان استمرار الحمل. استلموا الروشتة وشكروا الطبيب، ثم اصطحبوا نعمة إلى المنزل، حيث كانوا يسندونها بحذر طوال الطريق، حتى وصلوا أخيرًا إلى شقتها. جلست نعمة على السرير، مُستسلمة للتعب. ليالي وهايدي تدارستا الوضع، وتوصلتا إلى خطة لمساندة نعمة في هذه المرحلة الصعبة. هايدي تعهدت بتولي مسؤولية رعاية نعمة يوميًا، خاصة أن ليالي ستكون مشغولة بأمور أخرى. نعمة شعرت بالامتنان العميق تجاه هايدي، التي أكدت أنها تعتبر هذا واجبًا تجاه أختها. ليالي، من جهتها، شعرت بالتوتر حيال إبلاغ جلال بالخبر، غير متأكدة من ردة فعله. لكنها قررت المضي قدمًا، نازلةً من الشقة لتتوجه إليه، في الوقت الذي كان جلال منشغلًا مع والدته في صب المشروبات في الزجاجات، قالت له أم الديب:

_اعمل كمية كمان يا ولا !

جلال:حاضر ياما.

حين رن هاتفه فجأة، توقف جلال عن متابعة صنع المزيد من المشروب داخل الخلاط، ناظرًا نحو الشاشة بعينين مشغولتين. شعر بثقل اللحظة وهو يضع الهاتف على أذنه، ثم التفت إلى والدته أم الديب بنبرة تحمل الانشغال قائلًا:

_استني التلافون بيرن!

أجاب جلال على الهاتف بصوت هادئ، وسأل زوجته ليالي عن أحوالها الصحية، محاولًا إخفاء قلقه. كانت نبرته تضمر اهتمامًا حقيقيًا:

_ألو يا ليالي، طلع مالك؟

ليالي بحسرة:طلع حمل كاذب ياخويا، كان نفسي يكون عندنا تلات عيال بدل اتنين.
جلال بذهول:يعني إيه يا بت؟ آني مش فاهم حاجة!

بينما كانت أم الديب مُنهمكة في تحضير نوع من الحلويات، كانت ترمي أذنها نحو جلال بفضول، تسترق السمع لكل كلمة ينطق بها. شعر جلال أن حديث ليالي لم يكن منطقيًا، وكأن هناك شيء غير مفهوم، مما جعله يتساءل في داخله إذا كانت تخدعه أو تخفي عنه حقيقة ما، قائلًا:

_يعني إيه حمل كاذب يا بت؟ انتي بتشتغليني؟ لا بقولك إيه يا ليالي مش إكمنك فاهمة في الحاجات دي أكتر مني يبقى تشتغليني، أنا ممكن أتصل بقريبتي واسألها، ماهي الحكاية مش سايبة يا بت!

أم الديب الجزء الثالث

ليالي بغيرة:طب أبقى اتصل بيها ياخويا وشوف أنا هعمل إيه!
جلال بأُهكومة:هتعملي إيه يعني؟
ليالي بغيظ:ملكش فيه.
جلال:طب لما أرجعلك يا ليالي نبقى نشوف الحوار ده.
ليالي:طيب، أما بقولك صحيح، أختك نعمة حامل.
جلال بحيرة:هو انتوا بتبدلوا مع بعض ولا إيه حكايتكم؟
ليالي:والله زي ما بقولك، كشفنا عليها وطلعت حامل بس كانت مقهورة لما عرفت وفضلنا نهدي فيها وهي راسها وألف سيف مش عاوزة تخلف تاني.
جلال بسرور:يعني نعمة طلعت حامل؟ طب والله فرحتيني يا بت.
عندما سمعت أم الديب الخبر، اندفعت بشد الهاتف من يد جلال بسرعة غير متوقعة، وكأنها كانت تلهث وراء شيء بالغ الأهمية، ثم بدأت بمخاطبة نعمة بلهفة مشوبة بالسرور، لم تدرك في تلك اللحظة أن من كانت تتحدث إليه ليست نعمة كما ظنت، بل ليالي، مما جعلها بعد لحظة من اكتشاف الخطأ، فألقت الهاتف نحو جلال بامتعاض ظاهر على ملامحها المتشنجة، بينما وقف جلال مذهولًا يحاول استيعاب ما يحدث، غير قادر على فهم سبب تلك الهجمة المفاجئة، ووسط هذه الفوضى، رفعت أم الديب صوتها بنبرة عالية، موجهة أوامر صارمة لجلال بضرورة ترك مشاغل المنزل جانبًا والتركيز على العمل الذي، من وجهة نظرها، هو ما سيجلب لهم الفائدة المرجوة، في حين كانت مشاعر سخطها تجاه ليالي واضحة لا تخفى على أحد. وفي الجهة الأخرى، عند نعمة، كان زوجها حامد قد عاد للتو إلى المنزل، ليجد نعمة جالسة على السرير بوجه مرهق بعض الشيء، وهايدي تجلس إلى جانبها كما لو كانت ترافقها في محنتها، أو ربما تنتظر أن تواسيها في حالتها الصعبة، حيث نادته نعمة قائلة:
_تعالى يا حامد خُش.

حامد:السلام عليكم.

دخل حامد الغرفة، محملًا بأكياس الفاكهة التي تضم الموز والعنب والتفاح، ووضعها بعناية على الأرض أمام التسريحة، فأجابت هايدي بخجل، وقد ظهرت على شفتيها ابتسامة خفيفة:
_وعليكم السلام.
جلس حامد على حافة السرير، ينظر في وجه زوجته بذهول، غير معتاد على رؤيتها ملتصقة بالسرير بهذه الطريقة، وكأن هناك شيئًا غير مألوف يحول بينها وبين نشاطها المعتاد. كانت عينيه تحملان مزيجًا من القلق والاكتراث، فتوجه إليها بسؤال يحمل في طياته رغبة في فهم ما تمر به:
_مالك يا نعومي؟

نعمة بحزن:باركلي يا حمو.
حامد بتعجب:على إيه؟
نعمة بشجن:روحنا نكشف على ليالي مطلعتش حامل، طلعت أنا اللي حامل.

أم الديب الجزء الثالث

حركت نعمة فمها بحركة توحي بعدم الرضا والخيبة، بينما كانت هايدي تراقبها بقلق، ثم انفجرت بسخط، وهي تشعر بالانزعاج من تصرفاتها البائسة في ظل وجود السعادة التي تحيط بهم. كان صوتها يحمل استنكارًا، وكأنها تود أن تُعيد نعمة إلى واقعها، فتقول لها:
_إيه يا بنتي؟ مش قولنا كفاية بقى؟ افرحي، في إيه بجد؟

ضحك حامد بصوت عالٍ، مغمورًا بفرحة غامرة، فقد أدرك أنه سيكون أبًا لطفلين بدلًا من طفل واحد، رغم أن هذه الفرحة جاءت بعد فترة طويلة من رفض نعمة المتكرر لفكرة الإنجاب مرة أخرى. لقد عانت نعمة سابقًا من قوة فقر الدم خلال فترة حملها، مما جعل الأمر يبدو وكأنه صراع مرير. لذا، في محاولة منه لتصديق خبر حملها، قال لها بسعادة:
_بتتكلمي بجد يا نعومي؟ يعني هيبقى عندي عيلين بدل عيل واحد؟
نعمة بنحيب:أه والنبي ياخويا زي ما سمعت كده.
حامد بحبور:يا مانت كريم يارب، ده أنا فقدت الأمل!
نعمة باستغراب:وفقدت الأمل ليه؟ هي أول مرة؟ ماحنا معانا محمد ربنا يباركلنا فيه.
حامد بابتسامة:مش كده يا نعومي، بس أصلك يعني كان كل ما حد يجيبلك سيرة الموضوع ده بتدايقي ومكنتيش عاوزة تخلفي تاني.
نعمة:ماهو من اللي شوفته في ابنك، ده كان مخليني عايشة بالمحاليل طول التسع شهور.

أكدت هايدي على الفترة العصيبة التي عاشتها نعمة أثناء حملها، حيث كانت شاهدة على معاناتها وألمها في تلك الأوقات الصعبة، ثم قالت بنبرة مفعمة بالتعاطف:
_هو بصراحة انتي اتعذبتي فيه أوي، بس خلاص بقى اللي حصل حصل، افرحي متنكديش على نفسك!

نعمة بتبرُّم:يلا الحمدلله.

اقترب حامد من نعمة، وقبل يديها ورأسها برقة، كأن الغرفة لم تسع أجنحته المتناثرة من فرط الغبطة التي تغمر قلبه، وكأنها فضاءٌ واسعٌ يحتضن كل مشاعر الفرح، حيث انطلقت من أعماقه كلمات التهنئة المُباركة، التي تحمل في طياتها أمانيه وأحلامه حول المستقبل، مما جعله يشعر وكأن قلوبه تنبض في كل زاوية من زوايا المكان، كمنبع دائم للمحبة، تجسدت في تلك اللحظات السعيدة التي يعيشها مع زوجته، قائلًا:
_مبروك يا نعومي.

نعمة بجوى: الله يبارك فيك.

شرعت ليالي في إعداد الطعام في شقتها بعدما غيّرت ثيابها، وانطلق أطفالها في أجواء الصالة الضيقة، حيث تراقب عيونهم الصغيرة شغف البرامج الطفولية المتلألئة على شاشة التلفاز. كانت تصنع البامية

أم الديب الجزء الثالث

باللحم، والأرز المعمر في الفرن، وكل حركة في يديها تنبض بمشاعر الحب. حيث غادرت الشمس الأفق، وحلَّ القمر مكانها، انتهى يوم شاق تخللته حركات مُتسارعة وإرهاق أبدان، ولم يبقَ في المحل سوى أم الديب وجلال، في حين توارى الآخرون في سبات الليل، بما فيهم المعلم حنفي الذي انطلق إلى عمله. استخرج جلال المال من الدرج، ثم نادى والدته بصوت يكتنفه العدل قائلًا:

_يلا ياما علشان نصفي حساباتنا قبل ما نمشي!

أم الديب:وماله ياخويا؟

جلال:احنا بالصلاة على النبي دخلنا النهارده ألف جنيه، وزي ما اتفقنا أنا ليا النص وانتي النص، يعني أنا كده ليا ٥٠٠ جنيه.

قبل أن يشرع جلال في توزيع الأموال، انقضت أم الديب نحوه كالنسر الجريح، تتشبث بأصابعه القوية وكأنها تستنجد بحياتها، وتوطئهما بجبروتٍ يعكس قوة عزمها. ثم صرخت في وجهه بنبرةٍ تفيض بالغضب، قائلة:

_استنى عندك، انت هتعمل إيه؟

جلال بصياح:هاخد نصيبي ياما، إيه مالك هنتعبط من أولها ولا إيه؟

أم الديب بتقتير:ملكش عندي غير متين جنيه!

جلال بصخب:متين جنيه إيه ياما؟

صاح جلال في والدته بأعلى صوته، مدفوعًا بحدسه الذي كان مفعمًا بالحقيقة، وهو يدرك تمامًا أنها ستكذب عليه وتسرق الأموال المخبأة في جعبتها. ظل يضغط بيديه على المكتب بعنف، بينما كان الضجيج يعج في المحل وسط سكون الليل الحالك، وصرير صراصير الحقل يصدح من حوله كأنها تراقب المشهد. ثم تباعد عنها، ووقف في منتصف المتجر كأُسدٍ لا يهاب، مستعرضًا شجاعته أمام التحدي. بعدما انشق ظهره نصفين من مشاق العمل منذ الصباح وحتى هذه اللحظة، وكانت النتيجة لا شيء، اتجه بنظره الحار نحوها، وقال بعجيجٍ يملؤه الاحتجاج:

_بقولك إيه أنا ليا النص، ماهو مش كلام عيال، أنا واقف معاكي من صباحية ربنا وطالع عيني وانتي معملتيش نص اللي عملته وفي الآخر عاوزة تسكعيني على قفايا وتديني متين جنيه وتلهفي الباقي في جيبك؟ لا ياما مش جلال اللي يتعمل معاه كده، ده أنا أتغدا بيكوا قبل ما تتعشوا بيا!

صاحت فيه أم الديب، مملوءةً بعنادٍ يزخر بقوة الإرادة:

=ملكش حاجة عندي وبعد الكلمتين دول انت مش طايل قرش ساغ، أبقى خلي قلة أدبك تنفعك يا ولا!

جلال بصراخ:وربنا هقلعلكم ملط هنا وما هيهمني حد، هتتجرصي ياما وسط الخلق خليني ساكت! أنا دماغي ابتدت تتعب منك وجلال لما بيتعب بيعمل حاجات تزعل!

أطلقت أم الديب الصفير للكلب الذي يلازمها، إذ بدا الحيوان الأليف وكأنه يشارك في المعركة الكلامية التي اشتعلت بينهما. كلبها، الذي يمتاز بوفائه ورغبته الدائمة في حماية صديقته، قفز فوق جلال، مُقطِّعًا

أم الديب الجزء الثالث

المسافة بينه وبين جلال بكل اندفاع، وكأنما يُعبّر عن استعداده للدفاع عن حقوقها. لم تكن تلك اللحظة مجرد صراع لفظي، بل أظهرت كيف تتجلى المشاعر الإنسانية حتى في صميم العلاقات بين البشر والحيوانات. فالكلب، الذي كان يحرس المنزل، أصبح الآن يحرس أم الديب من الأوغاد.

يتبع....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الخامس عشر

بعدما سقط جلال أرضًا والكلب المفترس يثب فوق جسده المُتعب، محاولًا بكل ما يمتلك من وحشية أن يغرس أنيابه الحادة في لحمه، كان جلال يجاهد ويتلوى بكل ما تبقى له من قوة، متفاديًا تلك الأنياب المتعطشة للدماء، في حين كانت أم الديب تقف هناك، على مقربة منه، تشاهد المشهد وكأنها تتلذذ بآلامه، غير مكترثة بمعاناته التي كانت كفيلة بأن تثير في قلب أي أمٍ ذرةً من الشفقة، لكن قلبها لم يعرف طريق الرحمة، بل بقي صلدًا لا يتأثر، فيما جلال، وهو في قمة اليأس، يصرخ بها محاولًا إثارة خوفها من الانتقام، مهددًا إياها بالقتل، وهو يقول بصوت يغمره الوعيد، والذعر معًا:

_هقتلهولك ياما، آه، ابعدوه من سكتي، هتجنن عليكم، أوعى يابن الكلب أوعى!

كان يدفع الكلب بكل ما لديه من قوة، ولكن ذلك الحيوان الضار كان ممسكًا به بإحكام، رافضًا أن يتركه أو يخفف من قبضته الفتاكة، فيما كانت أنفاس جلال تتسارع وهو يصارع من أجل الخلاص. بعيدًا عن هذا المشهد المروع، وقفت أم الديب، ترتشف مشروبها ببرود غريب، غير مكترثة بما يحدث أمامها، حيث قالت أم الديب لجلال بصوت لا يخلو من التجاهل المطلق:

=ملكش دعوة بسلامة! سلامة يعمل اللي هو عايزه!

جلال بصياح:ابعديه عن وشي، هقتله، هموتهولك ياما!

أم الديب:ده يبقى كويس لو طلعت من تحت إيده سليم.

جلال بصخب:خليكي فاكراها ياما علشان مصيره يجي اليوم اللي أردلك فيه كل اللي عملتيه معايا .

ثم علا صوته صارخًا في وجه الكلب، وكأنما يعقد معه حوارًا غير منطوق، تحمله صيحات الانهيار، قائلًا:

_آه، أوعى بقولك!

بعد مرور خمس دقائقٍ ثقيلة، كأنها دهور، من هجوم الكلب الشرس على جلال، تمكّن بصعوبة من النهوض من تحت براثنه، جسده منهك وملابسه ممزقة، وكأنه خرج من معركة دامية مع وحش كاسر. كان يخطو بتثاقل، يعرج في مشيته من شدّة الإصابات التي لحقت به، حتى وصل إلى منزله، متكئًا على بقايا قوته. عندما دخل، وجد زوجته ليالي جالسة على الأريكة، مشغولة بخياطة بنطاله القديم الممزق، غارقة في تفاصيل تلك اللحظات اليومية دون علم بما جرى له. ما إن وقع بصرها عليه، ورأت حاله البائس وملابسه المتهتكة ووجهه المتعب، حتى شهقت بذهولٍ مرتفع، وصاحت بصوت مرتجف من الهلع، تاركة كل شيء خلفها وهي تنهض بسرعةٍ نحوه، وقالت بصراخ مرتفع:

_يا خبر أسود، هدومك مقطعة ليه؟ اتعاركت مع الناس تاني يا جلال؟ هو مفيش فايدة فيك؟

جلال بإنهاك:متخانقتش مع حد يا بت، الكلب بتاع أمي هجم عليا زي ما يكون شاف عضمه قدامه، فضلت أديله بالشلاليت ولا حوق فيه.

ليالي بصراخ:وإيه اللي خلاه هجم عليك؟ أوعى يكون عضك، بقولك إيه أنا هلبس ونروح المستشفى تاخدلك المصل قبل ما تتسعر!
جلال بانزعاج:هو إيه؟ لكلوك لكلوك مبتفصليش؟ أمي هي اللي حرضته عليا... بس وربنا مانا ساكتلها، آه!
ليالى بقلق:وريني ياخويا، عضك فين؟
جلال بألم:أسكتي يا ليالي، ده عضني من حتة حساسة أوي، نار، مش عارف هقعد ازاي...شكلي هقضي طول حياتي كلها وأنا واقف.

صاح جلال بألمٍ لا يطاق بعدما انغرست أنياب الكلب في منطقةٍ حساسة للغاية، فكان يتلوى من شدّة الوجع بينما تراقبه ليالي بقلقٍ كبير، راغبة في رؤية مكان الإصابة لتفعل شيئًا يخفف عنه. إلا أنّه عندما أخبرها بموضعها، شهقت من هول ما سمعت، ورفعت يديها إلى السماء وهي تعول وتلطم وجهها، عاجزة عن تصديق ما حدث. تملّكها الحنق والرغبة العارمة في الانتقام من حماتها التي باتت تجسد كل شر في حياتهم، امرأة لا تُقهر، ولا يقدر أحدٌ في هذا الكون على إيقاف أذاها المستمر. بنبرة مليئة بالنواح والمرارة، صرخت ليالي:
_يا مصيبتي السودة، يا بختك المايل في حماتك يا ليالي... طب بتكرهني وقولت ماشي بتحصل ماهو مفيش حما بتحب مرات ابنها، إنما تعمل كل ده مع ابنها ذات نفسه؟ طب ازاي؟ انت متأكد ياخويا إنك ابنها؟

جلال:لا ياختي ابنها، آه مش قادر... ماشي ياما ماشي هفوقلك وأروقك بس أصبري عليا بس!
ليالي بهاجس:خليك عندك، هلبس ونجري على المستشفى، حوسة لا تتسعر وتطلق علينا زي الكلب المسعور بعد كده!
جلال:استني يا بت! أنا ممعايش فلوس علشان أكشف وأجيب أدوية.
ليالى باستغراب:ازاي؟ هي مش أمك اديتك فلوس؟
جلال:أمي تعمل أي حاجة في الدنيا إلا إنها تديني فلوس، أمي يا ليالي داخلها النهارده ألف جنيه، ولما جه وقت الحساب كلت عليا حقي ولما كلامي معجبهاش طلقت عليا الكلب السعران بتاعها.

لم تكن ليالي على دراية بأن هذا الحادث المشؤوم كان نتيجة الشجار العنيف الذي دار بين جلال ووالدته حول الأموال التي استولت عليها دون وجه حق، غافلة عن تفاصيل الصراع الذي أشعل نيران الغضب بينهما. وبينما جلال يقف أمامها، يتألم بشدة، جسده يكاد لا يحتمل حتى مجرد الجلوس، كانت هي يعتصر قلبها بالمرارة، غير قادرة على استيعاب حجم المأساة التي حلّت بهم. رفعت عينيها نحوه، وعيناها مغرورقتان بالدموع، وقالت بنواح يملأه الحزن:
_يا لهوي اتضحك علينا يا جلال؟ مش قولتلك أمك ضلالية وتاكل مال النبي؟ مصدقتنيش وأهو كلامي طلع صح!

جلال:أُصبري بس يا بت! هفوقلها وهقلب الدنيا عاليها واطيها.

أم الديب الجزء الثالث

ليالي:طيب هدخل ألبس، خليك هنا، يارب كان مستخبيلنا كل ده فين؟

دخلت ليالي الغرفة مُسرعة، تتلفّع بعباءتها على عجل، في حين بقي جلال خلفها غير قادر على الجلوس من شدّة الألم، يناديها بفارغ الصبر في كل لحظة، محاولًا حثّها على الإسراع، وكأن الزمن قد صار عدوًا لهم. وبعد خمس دقائق مرت كالدهر، خرجت ليالي من الغرفة وهي تلهث، لتسنده بذراعيها، يدفعها القلق والخوف على حاله، واتجها سويًا نحو المستشفى، يسيران على أقدامهما بصعوبة وكأن الألم قد صار ظلًا ثقيلًا يرافقهما. وحين وصلا، دخلا إلى المستشفى حيث أسرعا بإخبار الطبيب بما حدث، ليتمكن من إعطائه المصل اللازم قبل أن تتفاقم الأمور وتصيبه حالة من السعار، التي كانت ستزيد المعاناة أضعافًا. بعد نجاحهم في تلقي العلاج، عادا إلى المنزل وقد أرهقهما التعب، واستلقى جلال على بطنه طوال الليل، غير قادر على الحراك، بينما الألم يضرب كل جزءٍ من جسده، وفي تلك الأثناء، كانت أم الديب قد عادت إلى منزلها بكلبها الشرس، وكأن شيئًا لم يحدث، غارقة في نومٍ غائر لا يخالطه تأنيب ضمير أو شعور بذنب أنها تسببت في إيذاء ابنها. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت أم الديب كأنها على موعد مع يومٍ عادي، تستعد لمتابعة أعمالها اليومية دون أن يساورها أدنى شعور بالندم. وقفت في محلها أمام واجهة الحلويات، متأملة ترتيب الأطباق، حتى اقتربت منها سيدة ترتدي جلبابًا ريفيًا بسيطًا، وعلى وجهها تظهر علامات الفضول، لتسألها بصوتٍ خافت:
_بكام عصير التفاح بالموز يا حاجة؟

أم الديب:الإزازة بخمسين جنيه يا ست.
السيدة بتعجب:مالها غالية أوي كده ليه؟
أم الديب:الغالي تمنه فيه، دي اتسحبت سحب من ساعة ما نزلت من كُتر حلاوتها.
السيدة:لا خلينا في حاجة أرخص شوية، عندك حلويات إيه يا أم الديب؟
أم الديب:عندي عيش بالسكر، وكنافة بالجرجير.
السيدة باستغراب:كنافة بالجرجير؟ غريبة دي، أنا بسمع عندك حاجات عمري في حياتي ما سمعتها... انتي بتجيبي الوصفات الغريبة دي منين؟

تحملت أم الديب الأسئلة بصبر نفد تدريجيًا، حتى شعرت أن الأمور خرجت عن نطاق سيطرتها، وكأنها تخطت حاجز التحمل المعتاد. كان أمرًا غريبًا أن تنخرط في جدالٍ مثل البشر، فهي لم تكن من النوع الذي يجادل كثيرًا، بل كانت دائمًا تفضل الحلول العنيفة، سريعًا ما تلجأ إلى استخدام يديها القاسية لفرض رأيها. لم تكن تقبل أبدًا أن يناقشها أحد في اختراعاتها أو اختياراتها، وكأن كل ما تفعله هو الحقيقة المطلقة التي لا جدال فيها، ومع تصاعد وتيرة النقاش، لم تستطع كبح جماح غضبها أكثر، وسرعان ما انفجرت في وجه السيدة التي كانت تقف أمامها، صارخة بانفعال جامح:
_وانتي مالك يا ولية؟ هتوجعي نفوخي ليه؟ ياما تشتري ياما تحطي فردة بُلغة في حنكك وتنقطينا بسكاتك!

السيدة بندم:تصدقي بالله آني غلطانة إني جيت أشتري من ست عكاكة زيك!

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بضجيج:يلا يا بت الكلب من هناهو، على الله أشوف وشك هناهو تاني!

خرجت السيدة من المحل وهي تغلي من شدة الاشمئزاز، لم تستطع استيعاب ما رأته من اختراعات أم الديب الغريبة التي لم تمر عليها من قبل، فبينما يرى معظم الناس أن وصفاتها لا تحمل أي قيمة أو فائدة، نجد النصف الآخر يشيد بها وكأنها أعظم ما ذاقوه. ندمت السيدة بمرارة على التعامل مع أم الديب، وقررت ألا تعود إلى هذا المكان مرة أخرى، متجهة إلى متجر حلويات آخر أكثر احترامًا واحترافية. في هذه اللحظة، كانت أم الديب تغلي من الغضب، وفي حركة فجائية متهورة، نزعت نعليها وحدفتهما في اتجاه السيدة المبتعدة، لكن القدر كان له رأي آخر، إذ انحرف النعل عن مساره ليصيب ليالي، زوجة ابنها، التي جاءت في تلك اللحظة عازمة على الشجار معها. صرخت ليالي بأعلى صوتها، ممتلئة بالقهر، وقالت بصراخ يهز المكان:

_آه، مش تاخدي بالك؟

أم الديب بصياح:وطي صوتك يا بت، انتي هناهو ميطلعلكيش صوت، فاهمة ولا لا؟

ليالي بسخرية:ليه؟ ماسكة علينا ذلة ولا ماسكة علينا ذلة؟

نادت أم الديب كلبها بصوتٍ عالٍ، مليئ بالامتعاض، وكأنها تستدعيه ليكون درعها الواقي وسلاحها المهدد في مواجهة ليالي، التي كانت تقترب منها كامدة. صوتها الجهوري ملأ المكان، وهي تشير إلى الكلب بيدها وتقول بتهديد صريح:

_يا سلامة... يا سلامة!

أسرع الكلب فورًا إلى أم الديب، مطيعًا أمرها دون تردد، بينما كانت ليالي تحدق فيه بذهول وحنق شديدين، إذ لم تستطع تحمل أن الكلب يحمل اسم والدها، وكأن ذلك إهانة إضافية إلى ما تشعر به من سخط. برقت عيناها واتسعت ملامحها بالغضب، لتشعر أن الأمور قد تجاوزت كل حدود الصبر، وفي تلك اللحظة، نظرت أم الديب إلى الكلب بنظرة تحدٍ، وكأنها تعزز سيطرتها عليه، وقالت له ببرودٍ مستفز:

_شاطر يا ولا، أما انت كلب مؤدب صحيح.

صرخت ليالي بصوتٍ عالٍ، غير مبالية بوجود الكلب المتربص بينهما، وكأن الغضب الذي في داخلها كان أقوى من كل تهديد، قائلة:

_بقولك إيه يا حماتي الشويتين بتوعك دول لو دخلوا على جلال فمش هيدخلوا عليا أنا! ماحنا مش شوية عيال تضحكي عليهم، أنا عايزة حقي وحق جوزي وإلا هخلي ليلتكم سواد!

أم الديب بتهديد:آني اللي هخلي ليلتك سواد يا بت دباح الحمير .

ثم نظرت أم الديب إلى الكلب بنظرة قاسية، وكأنها تستدعي فيه وحشيته، وأمرته بحدة ودون تردد:

_نُط عليها يا سلامة!

أم الديب الجزء الثالث

قفز الكلب على ليالي بعنف، أسقطها على الأرض بينما أخذ ينبح بصوتٍ مخيف، محاولًا أن يغرس أنيابه فيها. كانت ليالي تصرخ بأعلى صوتها، وكلما حاول الكلب أن يعضها، كانت تغيّر اتجاهها بسرعة، متفادية أنيابه المتوحشة. وأخيرًا، بعد معاناة شديدة، تمكنت من الإفلات من قبضته، ونهضت وهربت، بينما الكلب يركض خلفها وهي تصرخ برعبٍ يتخلله الفزع، قائلة:
=آه الحقوني، يارب.
بعدما استطاعت ليالي الإفلات من قبضة الكلب المتوحش، ركضت بكل ما أوتيت من قوة حتى اختفت عن أنظاره تمامًا، لتتوقف أخيرًا في مكان بعيد، منهكة، غير قادرة على الركض أكثر. وقفت متكئة على جدار قريب، تلهث بصعوبة، محاولةً استعادة أنفاسها المتقطعة بعد هذا الكابوس المرعب الذي عاشته. كانت عيناها تتسعان بذهول، وجسدها يرتجف من الخوف. وبينما كانت تحاول تهدئة نفسها، قالت وهي تلهث، وتتنفس بصعوبة:
_والله مانا ساكتالك يا حماتي، وحياة أبويا وأمي مانا ساكتالك، ماشي!

بعدما عاد الكلب إلى أم الديب في المحل، وقد فشل في الإمساك بليالي، نظرت إليه بعينين مليئتين بالرضا، ثم مررت يديها بحنو فوق رأسه، وكأنها تكافئه على إخلاصه وولائه. بابتسامة خفيفة على شفتيها، قالت له بصوت يشوبه الامتنان:
_جدع يا سلامة، شاطر إنك طفشت اللي جابوها، هو احنا ناقصين ليالي المخفية؟ طب خليها تعتب عتبة الدكان مرة تانية وتشوف هعمل فيها ايه!
ثم دخلت المطبخ بخطى واثقة، تتطلع إلى ابتكار مشروب جديد يحمل بصمتها الغريبة. فتحت الثلاجة وأخرجت الطماطم، ثم الحليب، ومدت يدها نحو خزانة المطبخ لتلتقط السكر. اتجهت نحو الخلاط، عازمة على مزج تلك المكونات غير المتوقعة معًا. وبينما كانت تضع كل شيء في مكانه، نظرت إلى ذاتها بفخرٍ لا يخفى، وقالت بثقة:
_المرة دهي هنعملهم عصير طماطم... يا سلام عليكي يا أم الديب، طب والله بتفهمي، احنا مبنعملش أي حاجة، أهم حاجة رضا الزبون، أمال ايه؟

عند ليالي، كانت الأفكار تتلاحق في رأسها، ولم تهدأ حتى قررت أن تنتقم من أم الديب، وتستعيد حقها وحق زوجها جلال مهما كلفها الأمر. ظلت تفكر في الطريقة المثلى لتحقيق ذلك، حتى تذكرت جارتهما التي كانت قد دخلت في خلافات سابقة مع أم الديب. رأت ليالي في تلك الجارة فرصة سانحة لاستغلال تلك العداوة لصالحها. توجهت إليها بخطة في ذهنها، وعندما وصلت، استقبلتها الجارة بوجه متسائل، وسألتها بفضولٍ مخلوط بالحذر:
_ليالي؟ عاوزة إيه؟

ليالي بمُجازاة:جاية أحط ايدي في ايدك ونرجع حقنا اللي ضاع من حماتي العقربة، أنا سمعت إنك يعني عندك طور في الزريبة.
الجارة بتعجب:وانتي عايزة إيه من الطور اللي حيلتي؟

أم الديب الجزء الثالث

ليالي بوِتر:عاوزة أربي حماتي وأعرفها إن الله حق، عايزة آخد حقي وحقك وحق كل واحد هي جات عليه، قولتي ايه؟
الجارة بتفكير:وإيه ضمني إنك مش هتخطفي الطور مني؟
ليالي بتهكم:ليه يا حبيبتشي حد قالك إنه دكر بط؟ ده طور! يعني يدمر شارعنا كله من أوله لآخره ومحدش يقدر عليه! قال أخطفه قال.
الجارة بشوق:أنا كان نفسي في اليوم ده من زمان يا ليالي!
ليالي بفرحة:طب ومستنية إيه ياختي؟ أهي فرصة وجاتلك، هتقوليلها لا؟
الجارة بابتسامة:وأنا مش عبيطة أضيع فرصة زي دي، جاية معاكي!
ليالي:على بركة الله.

اتفقت ليالي مع الجارة على استخدام ثورها كسلاحٍ خفيٍ في مسعى للانتقام من أم الديب، إذ تشابكت أياديهما في عهدٍ مريبٍ قد تآمرت فيه العقول على تنفيذ مخططٍ ماكرٍ، يعصف بأركان الانتقام في نفوسٍ تملؤها الأحقاد. بخطواتٍ يثقلها الغيظ، دخلت الجارة إلى حظيرتها، وقد عقدت العزم على تنفيذ خطتها الدنيئة. فكت الحبل الذي يقيّد الثور، ذلك المخلوق الضخم الذي سيصبح أداة الانتقام الصامتة، ثم خرجت مع ليالي بخطواتٍ متواطئة، متجهتين نحو المحل حيث أم الديب. وفي تلك اللحظات، كانت أم الديب منهمكةً في إعداد بعض العصائر، وقد وضعت جميع الزجاجات فوق الطاولة دون أن تغطيها، متسليةً برشفاتٍ بين الحين والآخر، تُلهي نفسها عن ضجيج العالم الخارجي الذي تجهل ما يحاك خلفه. إلى جانبها كان كلبها الوفيّ جالسًا، متيقظًا كعادته، ولكن فجأةً، وكأنما استشعر الخطر الذي لا يدركه البشر، انطلق الكلب مُسرعًا من المحل، هاربًا من شيءٍ أكبر وأعظم منه، شيءٍ قادم بسرعة لا تُرى بالعين المجردة، لكن الإحساس به يكاد يكون غريزيًا. خرجت أم الديب من المحل، وقد ارتفع صوتها، تنادي كلبها بقلبٍ يملؤه الحيرة، قائلة:
_انت يا مخفي رايح فين؟ ماهى دهي غلطتي إني مربطكش... مش أم الديب اللي كلبها يهرب منها! يا سلامة!

ظلت أم الديب تطلق الصفير لكلبها، تأمل في عودته وكأن صفيرها قد يرد له الأمان المفقود في قلبه الهارب. ولكن ما لم تحسب له حسابًا كان الثور الهائج الذي اقتحم المكان دون رحمة، كاسرًا صف الزجاجات الذي تهاوى كقطع الدومينو، لتنهمر العصائر وتغرق المكان في فوضى عارمة. أم الديب، التي لم تستوعب المشهد في لحظته، أطلقت صرخة مدوية ملأت أرجاء المكان عندما أبصرت الثور. ركضت على الفور إلى الغرفة الداخلية، أغلقت بابها بإحكام، وجلست في زاويتها ترتعد، بينما أذنيها لا تزال تلتقط صوت الثور وهو يعيث فسادًا في محلها، وكأنه ينثر في كل ركنٍ آثار غضبها المدفون.
تفوهت أم الديب وهي تلطم:
_يا خرابي شقايا وتعبي يا ولاد الكلب، يا خراب بيتك يا أم الديب، يا لهوتي يا لهوي يا لهوي يا لهوي، انجدوني يا عالم، انجدوني يا ناس، الطور دمرلي دكاني، يا لهوتي!
عندما سمع الجيران صدح تكسيرٍ قوي، تجمعوا سريعًا، مُستشعرين خطورة الوضع، وعندما خرجت أم الديب لترى ما حدث بعد فرار الثور، أصابها الذهول من المنظر، فسقطت مغشيًا عليها. تم نقلها إلى

أم الديب الجزء الثالث

المستشفى على وجه السرعة، حيث تدور الأفكار في أذهان الجميع حول حالتها. بينما في المستشفى، كانت نعمة تجلس بجانب والدتها، مفعمة بالقلق، تتساءل عن وضعها الصحي. دخل الطبيب ليعلن الخبر، لكن الفاجعة كانت في حيرة المعلم حنفي الذي بدت عليه مظاهر السرور، غير مُدركٍ لمشاعر نعمة التي تساءلت بقلق، وعندما أكد الطبيب أنها لم تُصب بأذى، وأن ما حدث هو مجرد هبوط، انتابت حنفي حالة من الاستياء، موجهًا كلامه إلى أم الديب بأسلوب فيه استنكار، متسائلًا عن السبب وراء عدم حدوث أي شيء خطير لها. لكن أم الديب، التي كانت تتألم من الصدمة، بدأت تشكو من حالتها وتعبر عن إحباطها بسبب المحل الذي تعرّض للدمار، داعيةً ابنتها نعمة لمساعدتها، وفي خضم كل ذلك، كانت نعمة تحاول تهدئة والدتها المُرهقة، بينما كان المعلم حنفي يتحدث بسخرية مريرة عن مصيرها، مؤكدًا أنها ستبقى دائمًا في دائرة المعاناة، وعلى الرغم من الترح الذي كان يخيّم على المكان، كانت مشاعر الهلع تتداخل مع الأمل في الشفاء، وقد سأل حامد مُستفسرًا:

_هو إيه اللي حصل يا حماتي؟

أم الديب بوَهن:قاعدالك في الدكان ياخويا....

حامد بتركيز:أه.

أم الديب:برٌّص الأزايز ألاقيلك سلامة فص ملح وداب.....

حامد بتفكير:إيه اللي جاب عم سلامة عندك؟

أم الديب بصراخ:الكلب، مش المعتق التاني دهو!

حامد:أه.

أم الديب بألم:أنده عليه مبيردش أتاريه خد ديله في سنانه واختفى وبعدين ألاقيلك الطور داخل عليا ولا كأننا عِشرة تلاتين سنة مع بعض....

وسط ما كانت أم الديب تحاول شرح ما حدث لحامد، كانت نبراتها المتقطعة تفضح حجم الألم الذي يعصف بصدرها. لم تستطع كبح غصّة الحسرة التي تسربت إلى قلبها، فانهمرت دموعها كالسيل وهي تلطم وجهها دون هوادة، وكأنما تحاول بذلك أن تُطفئ نارًا تشتعل في روحها. وبينما كانت في المستشفى، علت أناتها وهي تصرخ بمرارة دفينة قائلة:

_دُكانك يا أم الديب، يا لهوتي!

قالت نعمة لوالدتها بصوت مرتعش يملؤه الخوف، وكأن الكلمات تثقل لسانها، فتخرج متقطعة بين أنفاسها المُضطربة:

_أمانة عليكي تهدي ياما، لا يطقلك عرق وتروحي فيها!

لكن المعلم حنفي، الذي طالما احتضن قلبه ضغائن مُتراكمة، كان يأمل في لحظةٍ تفجّر فيها قلبها، ليجد لنفسه ارتياحًا أبديًا منها، كأنما يتخلص من عبء ثقيل ظلّ يرافقه. فنطق بنبرة باردة، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الاستهانة، قائلًا:

_ياريت!

أم الديب الجزء الثالث

صاحت أم الديب فيه بغضبٍ جارفٍ، لم تعد تستطيع كتمانه، وكأن كل ما في صدرها من حقدٍ انفجر دفعةً واحدة. رفعت صوتها عالياً وهي تسبه بوالده، قائلة:

_يابن الـ*"**

أمسكت أم الديب بالنعل الخاص بها، وصوبته في وجه المعلم حنفي مباشرةً، ليصيبه إصابةً دقيقة أفقدته توازنه للحظة، فاندفع خارج الغرفة يركض مذعورًا، وكأن الأرض نفسها لم تعد تأمن له، وفي تلك اللحظة، كانت نعمة تقف على بُعد، يلفها الخوف كعباءةٍ ثقيلة، فقالت لها بصوت مرتعش، مليء بالذعر:

_طب بقولك ياما ولا تزعلي نفسك، أنا هروح الدكان أظبطهولك ونشوف إيه مكسور ونجيب غيره.

أم الديب:متعمليش حاجة يا بت! انتي حبلة لا يجرالك حاجة، روحي للمخفية خليها هي اللي تصلح وتنضف بدل ماهي قاعدة زي قِلتها وسطينا!

لكن هايدي، بحسٍ عالٍ من المسؤولية والرغبة في حماية أختها نعمة التي كانت ممنوعة من أي حركة أو جهد بسيط، قررت أن تتبرع بالتعاون مع ليالي، لتخفف عنها عبء أي أمر قد يرهقها. بنبرة ملآنة بالحرص، قالت:

_أنا هروح أجيب ليالي ونشوف إيه اللي حصل ونصلحه، بلاش نعمة! الدكتور قالها ترتاح لحد ما تكمل سبع شهور.

قال حامد لنعمة زوجته بنبرة هادئة، وقد امتلأت عيناه بمزيج من الحنان والقلق، وكأنه يحاول أن يخفف عنها همومها بلمسةٍ من الاطمئنان:

=أه أنا عاوز ابني يجي سليم الله يستركم، يلا يا نعومي قدامي على البيت وزي ما الداكتور قالك متتحركيش!

نعمة بإباء:يوه وده ينفع يا حمو؟ يعني أمي تبقى تعبانة وأنا بعيد عنها؟

تلفظت أم الديب بألمٍ عميقٍ، تجلّت فيه عواطفها الأمومية وحرصها على صحة ابنتها، مؤكدةً على ضرورة أن تتمتع نعمة بالراحة التامة خلال فترة حملها، وكأن كل كلمة تنطق بها هي دعوةٌ صادقةٌ للشفاء. فقالت بقلقٍ واضح:

_ارجعي الدار يا نعمة، العقربة، الحرباية مرات أخوكي هي اللي هتعمل لكن انتي يا بت متمديش ايدك في حاجة!

ما زالت أم الديب تفكر في كل ما حدث، حتى اكتشفت شيئًا مفاجئًا أضفى ظلال الشك على أفكارها. ولجأت إلى صوتها، الذي خيم عليه الغلّ، إذ قالت:

_آني افتكرت حاجة!

استرجعت أم الديب شريط ذكرياتها، وتذكرت تلك اللحظات العصيبة التي سبقت كل ما حدث، حيث كانت هي وليالي تتشاجر بشدة، وكأنما تتبادل الكلمات الجارحة كالسيوف، وعندما تملّكها الارتياب، قالت بصوتٍ متعصّب:

=هي بت الحمار هي اللي ورا الحوار دهو، اسنديني يا بت منك ليها، اسندوني!

أم الديب الجزء الثالث

قالت نعمة بخوفٍ يعتري صوتها، كأنما تخشى أن تنفجر الأوضاع حولها، وتدرك عواقب ما قد يجري:
_حاضر ياما .
سألت هايدي أم الديب بفضولٍ جارف، ينمّ عن رغبتها في استكشاف أسرار ما يجري من حولها، قائلة:
_فهميني هتعملي إيه طيب؟
أم الديب بامتعاض:محدش فيكم له دعوة، آني راجعة معاكم على الدار!

تفوهت نعمة بقلقٍ، وكأن الكلمات تتعثر في لسانها بسبب الخور الذي يتملّكها، قائلة:
_زي ما تشوفي ياما، هو حد يقدر يقولك لا؟
عادت أم الديب إلى منزلها، وقد احترق قلبها من مشاعر الانتقام، مستندةً على ذراعي ابنتيها نعمة وهايدي، وزوج ابنتها "حامد". كانت تنوي تنفيذ خطة شرّيرة بعدما اكتشفت أن ليالي هي من دبرت حادث الثور عليها. في تلك الأثناء، كانت ليالي جالسة مع جلال على السرير، يضحكان بحرارةٍ ومرحٍ على ما فعلته ليالي بحماتها، غافلين تمامًا عن الجرعة الثانية من المصل التي كان ينبغي عليهما أخذها، وبالرغم من الألم الذي كان يعصف بجسده، ضحك جلال ضحكةً مدوية، ثم التفت إلى زوجته باندهاشٍ، وقال:
_يخيبك يا بت، بقى عملتي كل ده في أمي؟

ليالي بفزع:يا نهار أسود يا جلال، احنا نسينا نروح المستشفى تاخد الجرعة التانية بتاعة سعار الكلب، يا لهوي، قوم!
جلال:يا لهوي أنا ازاي نسيت حاجة زي دي؟
ليالي بصخب:قوم بسرعة! أنا اتلهيت في حوار أمك ده ونسيت اللي المفروض نعمله.

لما كانت ليالي لا تزال تتحرك ببطء، وقد سمعوا طرقات خافتة تنبعث من الباب، اتجهت نحو الصوت بتردد، وكأنما كانت تتوقع شيئًا مألوف. فتحت ليالي الباب، وارتفعت حواجبها في تعبيرٍ يدل على قلقٍ جسيم، وكأنها كانت تنتظر تطوراتٍ غير محسوبة، وعندما كشفت عن وجه هايدي، قالت هايدي بقلقٍ شديد لها:
_تعالي معايا يا ليالي عايزين ننضف المحل مكان اللي حصل.

ليالي بتمثيل:دكان إيه؟ وإيه اللي حصل؟ أنا مش فاهمة حاجة!
هايدي:أصل في طور دخل المحل وماما شغالة، وكسر الدنيا، وماما لما عرفت اللي حصل وقعت من طولها مستحملتش!
ليالي بشفقة:يا عيني عليكي يا حماتي يا غالية، قلبي عندك، طب صعبتي عليا... ده أنا الدمعة هتفر من عيني، الحقني بالمناديل يا جلال مش قادرة!
هايدي بتعجب:إيه الأوفر ده؟ يلا أنا مستنياكي هناك متتأخريش، ولا هتيجي معايا في السكة؟
ليالي:لا اسبقيني انتي، وأنا هروح المستشفى مع جلال ياخد المصل الأول.
هايدي:طيب متتأخريش!

ليالي:ماشي يا حبيبتي .

كانت تبالغ في رد فعلها، وكأنها متأثرةً حقًا بتعب حماتها، رغم أنها كانت هي السبب وراء كل ما جرى. وبعد انتهاء حديثها مع هايدي، أوصدت ليالي الباب بإحكام، كأنما تريد أن تحبس معها كل مشاعر الفرح. ثم توجهت هايدي نحو شقة أم الديب، حيث قد قررت تنظيف المحل بنفسها، فاستدعت ليالي زوجها بصوتٍ عالٍ، قائلة:

_يلا يا جلال!

ارتدت ليالي وجلال ثيابهما بسرعة، متجهين نحو الوحدة الصحية، بينما كانت أم الديب تجلس على السرير، متفكرة بعناية وتروٍ في خطة محكمة تهدف من خلالها إلى استرجاع حقوقها المسلوبة من ليالي، كأنها إبليس في هيئة امرأة ماكرة تخطط لانتقامٍ مُحكم، فاستعرضت في ذهنها كل الحيل التي يمكن أن تستخدمها، وعبثت بأصابعها في توترٍ، مستغلةً كل لحظة للتأكد من أن خطتها ستؤتي ثمارها، قائلة لنفسها في غمرة أفكارها:

_ماشي يا ليالي آني هعرفك ازاي تعملي معايا كدهو يا بت، ماهو مفيش غيرك اللي يعمل الحركة السودة دهي، بس ماشي صبرك عليا!

دخلت هايدي الغرفة بخطواتٍ مترددة، تحمل في عينيها بريق التضحية، لتخبر أم الديب بأنها ستذهب إلى المحل لتنظيفه وإعادة تنظيمه، قائلة:

_أنا هروح المحل أستنى ليالي.

أم الديب:ماشي يا بت، أما صحيح أختك نعمة طلعت شقتها ولا راحت فين؟
هايدي:مش عارفة.
أم الديب:طيب روحي انتي !

خرجت هايدي من الغرفة، ثم خطت خطواتها بثبات خارج المنزل برمته، مُتجهة نحو المحل حيث كانت عزيمتها تتقد للعمل على تنظيف الفوضى التي تركها الثور. بينما كانت أم الديب، بمزيج من الإصرار، والبغضاء، تتوعد ليالي بعباراتٍ مشحونة بالقصاص، قائلة بصوتٍ حاد:ٍ

_ماشي يا ليالي صبرك عليا!

اتجه جلال وليالي نحو المستشفى، حيث تلقى جلال الجرعة الثانية من المصل، وبعد أن خرجا من المستشفى، نظر جلال إلى زوجته بنظرة فضولية وسألها عما إذا كانت ستعود إلى المحل لمساعدة هايدي في تنظيفه. لكن ليالي كانت تحمل في قلبها ضغينة عميقة تجاه أم الديب، ففكرة أي شيء يتعلق بها تثير في نفسها رغبة في الانتقام، ولم يكن لديها أي نية للمصالحة أو التراجع. بل على العكس، كانت مستعدة لإعلان الحرب ضدها. حينها، شعر جلال بالغموض، فقال لها باستغراب:

_إيه يا بت، مش هتروحي الدكان لهايدي؟

ليالي بسُخط:وأنا مالي أعملها ليه؟ هي مش ضربت الفلوس في كرشها ومحدش فينا طال مليم؟ تبقى تخلي عمايلها السودة دي تشفعلها.

أم الديب الجزء الثالث

جلال:انتي وكيفك بقى.

بمجرد أن عاد جلال وليالي إلى المنزل وصعدا إلى شقتهما، فوجئا بمشهد غريب؛ إذ وجدا الكلب وقد أقفل عليهما باب الشقة، واقفًا عند الباب ينبح بشدة، وكأنه يريد اقتحام المنزل بأمر من أم الديب التي صعدت به إلى شقة جلال، بنية إطلاقه عليهما للمرة الثانية بعد محاولتها الأولى. طرقت أم الديب الباب بعنف، وهي تتوقع أن تفتح لها ليالي أو جلال، ولكن لم تجد سوى الأطفال الذين أصابتهم حالة من الذعر، وبدأوا يصرخون بفزع عند رؤية الكلب في حالة من الهياج. بذكاء وسرعة بديهة، ركض حمود نحو الباب، وأغلقه بإحكام في وجه أم الديب والكلب، مما منعهم من الدخول. ظلت أم الديب تصيح بغضبٍ وإصرارٍ على الانتقام، حتى استسلمت للملل ونزلت إلى شقتها، تاركةً الكلب خلفها عند الباب، مصممًا على إيذائهم، وعيناه تقدحان شرًا. وعندما أحس الأطفال بعودة والديهم إلى المنزل، شعروا ببعض الطمأنينة، وكأن الأمان قد عاد إليهم. وبينما كانت تقى ترتجف من شدة الخوف، صرخت مستنجدةً بوالدتها، قائلة بصوت متهدج من خلف الباب:

_الحقينا يا ماما!

تشبثت ليالي بذراع جلال بقوة، وقد امتلأ قلبها بالهلع عندما رأت الكلب واقفًا قبال باب شقتهم، ينبح بلا هوادة، ظهره موجه إليهم بينما كان منشغلًا بنباحه نحو الأطفال خلف الباب. شعرت ليالي بتصاعد التوتر في كل خلية من جسدها، وهمست لجلال بصوتٍ حذرٍ ومتحفظ، قائلة:

_الحق يا جلال، الكلب هيقطعنا... يا نهار أسود إيه اللي ربطه عندنا؟ هي حماتي اللي عملت كده مفيش غيرها!

جلال بجلبة:ابعدي يا بت ألا يقرمك! ماشي ياما ماشي، قدامي يا ليالي!
ليالي بقلق:قدامك إيه؟ طب والعيال؟
جلال بإصرار:تعالي بس!

جذب جلال زوجته بيده، وقررا النزول على الفور إلى شقة أم الديب، حيث وجداها في المطبخ مشغولة بتحضير طعامها. تقدم جلال نحو والدته بخطواتٍ سريعة، وعيناه تقدحان غضبًا مكبوتًا، ثم وقف أمامها وصرخ فيها بأعلى صوته، قائلًا:

_بقى بتربطي الكلب قصاد شقتي ياما؟ عاوزاه ياكلني أنا ومراتي والعيال؟

أم الديب باستفهام:ايهي، كلب إيه يا ولا؟
جلال بتكهُّن:لا ياما الشويتين دول ميدخلوش عليا، بقى عاملة نفسك طيبة ومسكينة؟ ده انتي إبليس يتعلم منك!
أم الديب بإساءة:ليه فاكرني زي مراتك العقربة اللي طالعة من وسط شوية العقارب دول؟

أم الديب الجزء الثالث

لكن ليالي، التي لم تعد تتحمل سيل الإهانات المتكرر الموجه إليها وإلى أهلها، اشتعلت ملامحها بالغضب، واحتدمت أكثر مما كانت عليه من قبل. فاندفعت بغضبٍ عارم، وصرخت في وجه أم الديب بصوتٍ ملؤه القهر، قائلة:

_أنا أهلي أنضف منك، ده ضوفرهم برقبتك انتي وألف واحد منك!

أم الديب بغِل:بقى كدهو يا ليالي؟ طب تعاليلي!

طارت أم الديب على ليالي كأنها عاصفةٌ من سخطٍ لا يُحتمل، فأسقطتها أرضًا بعنفٍ، ثم انهالت عليها ضربًا بلا رحمة، وكأن كل ضربة منها تحكي عن سنواتٍ من الكراهية المكبوتة. كانت ليالي تحاول جاهدةً أن تفلت من قبضتها، تفاديًا للضربات المتوالية، في حين كانت تشعر بثقل جسد أم الديب يضغط على ذراعها بقوة، وكأنها تحاول أن تحافظ على توازنها بعزمها رغم شدة الألم. أما جلال، فكان يقف في حالةٍ من الحيرة، ممزقًا بين نباح الكلب العنيف في الأعلى وبين مشهد والدته وزوجته المتشابكتين أمامه في عراكٍ لا يعرف له نهاية، وبينما كانت أم الديب تستمر في ضرب ليالي بقسوةٍ، صاحت في وجهها بنبرةٍ مليئة بالحنق، قائلة:

_بقى أهلك ضوفرهم برقبة ألف واحد مني يا بت؟ آني هوريكي الويل، هوريكي اللي عمرك ما شوفتيه يا بت سلامة دباح الحمير...آني هخليكي تمشي حافية في قلب الشارع، هخليكي تشدي في شعرك يا بت!

ليالى بإعوال:سيبيني يا عرة النسوان، دي غلطتي إني دخلت البيت الحقير ده من الأول، من يومه وأنا مشوفتش يوم عدل وسطكم!

كانت ليالي تعول بصوتٍ متقطعٍ، حتى بدأ صوتها يضعف تدريجيًا وانجرحت أحبالها الصوتية من شدة الصراخ والألم، وفي تلك اللحظة، وكأن صدمة جلال قد تلاشت فجأة، خرج عن ذهوله واستعاد وعيه، فتشبث بوالدته محاولًا إبعادها عن ليالي بكل ما أوتي من قوة، مستخدمًا يديه لإيقافها عن الضرب. كان يصرخ في وجهها بامتعاضٍ، قائلًا:

_سيبيها ياما، سيبيها بقولك!

تلفظت أم الديب بكلماتٍ حادةٍ ومليئةٍ بالغلّ، بينما كانت تضغط بقدمها على ليالي بقسوة، وكأنها تحاول أن تنقل عبر كل حركة من حركاتها شعورًا عميقًا بالانتقام المتراكم، وصرخت بنبرةٍ حانقة، مشحونة بالكراهية:

_آني عرة النسوان يا بت؟ آني هخليكي شبه الرجالة بالظبط، وهربطك في الزريبة وسط البهايم لحد ما يبانلك صاحب.

قالت ليالي لجلال بصراخٍ ممزوجٍ بالعذاب والذعر، وكأن كل كلمة تخرج منها تحمل عبء معاناتها:

_الحقني يا جلال الحقني!

كأن قوة عاطفة جلال قد تجلت في تلك اللحظة، مما أخرجته عن وعيه. وقف أمام والدته، وهو يهددها بنبرةٍ مشحونة بالامتعاض، قائلًا:

_قسمًا بالله ياما إن ما سبتيها لأقتلك الكلب بتاعك!

أم الديب الجزء الثالث

دخل جلال إلى المطبخ بسرعةٍ، بحثًا عن السكين الذي يخطط لاستخدامه كوسيلة للدفاع عن زوجته، وعندما أخرجه من المطبخ، سار نحو الباب متوجهًا خارج الشقة، ولكن عندما رأت أم الديب جلال يخرج من الشقة وهو يحمل السكين، ارتفع صوتها في صرخةٍ ملآنة بالذعر، مما دفعها لترك ليالي والتوجه نحوه بسرعة، كأنها عاصفةٌ تسعى لاستعادة السيطرة. وعندما وصلت إليه، جذبت جلال من فوق الدرج بكل قوتها، مما أدى إلى أنه سقط على الأرض، وسقط السكين من يده ليسقط على ساقيها، مما جعلها تصرخ بألمٍ وهي تشعر بالتهديد يقترب منها من كل جهة، فنطقت أم الديب بصوتٍ عالٍ، يعبر عن فزعها وهي تصرخ:
_يا خرابي، رجلي، يا لهوي!

نهضت ليالي من على الأرض، وقد اعتلت أنفاسها، وبدأت تجري نحو زوجها بقلقٍ شديد لتعرف ما به، حيث كان قلبها يتسارع مع كل خطوة، وعندما اقتربت، رأت جلال وهو يتألم، وصرخ بصوتٍ عالٍ، ويده تلمس ساقيه الملوحتين، وكأنه يحاول تخفيف الألم الذي يشعر به، فرفع صوته ليعبر عن ما يعانيه، قائلًا:
_رجلي اتلوحت يا ليالي، آه!

ليالي بمهابة:يا لهوي علينا وعلى بختنا المايل، مالك كل شوية بتتعب كده ليه؟ احنا مبقيناش ملاحقين على الدكاترة، منك لله يا حماتي، أشوف فيكي يوم، أه يا بختك يا ليالي يا لهوي عليكي، قوم معايا براحه!

ثم حاولت ليالي جذبه إليها، وهي تصرخ في منزلٍ مغمور بالفوضى والضجيج من كل اتجاه، حيث كان صوت الإعوال يتردد بين الجدران. لكن جلال باعد يديها عن نفسه، وعيناه مليئتان بالألم، وهو يصيح من شدة الألم الذي يعانيه في ساقيه، قائلًا بصوتٍ متقطع، يتخلله أنينٌ من معاناته:
_رجلي شكلها اتكسرت يا ليالي !

يتبع....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل السادس عشر

رفعت ليالي زوجها بأعجوبة، وكأنها تستمد قوتها من الأعماق، بينما كانت تستنجد بالسماء في تلك اللحظة العصيبة، حيث كادت دموعها تنهمر على وجنتيها. صرخت بإعوالٍ مختلط بالألم والقهر، قائلة:
_يا لهوي يا لهوي، يارب بقى، يارب ارحمنا منها، كان يوم أسود.

في اليوم ذاته، تم نقل جلال وأم الديب إلى الوحدة الصحية في القرية، التي تعكس ضيقها وقلة مرافقها مقارنة بالمستشفيات الكبرى في المدن، حيث تتجلى في شكل مستشفى صغيرة مخصصة لأهل القرى، لا تحتوي سوى على ثلاث غرف، وعنبر واحد يكتظ بالعديد من المرضى الذين يواجهون آلامهم بقلوب صابرة. أصيبت ساق أم الديب بجرح ناء نتيجة سقوط السكين عليها، فاستدعاها الأطباء إلى غرفة العمليات ليعمقوا الجرح ويقوموا بتخييطه. أعطاها الطبيب مخدرًا ليبدأ عمله بمساعدة زميله، لكن حالة أم الديب كانت مأسوية، حيث لم تكن تطيق لمس موضع الجرح، وصراخها كان يتردد في الأرجاء كصرخة استغاثة، مما حال بينها وبين ممارسة عملها لفترة مؤقتة حتى تتمكن من الشفاء. أما جلال، فقد أصيب بمشكلة بسيطة في ساقه، مما أدى إلى مضاعفات جعلته يعرج، ويسير على ساق واحدة فقط، في مشهد يعبّر عن المعاناة. مع مرور يومين، اجتمعت الأسرة في غرفة أم الديب، حيث كانت مستلقية على السرير تتألم، وجلال جالس على كرسي بلاستيكي، يتسم برزانة المعلم حنفي، بينما كان الباقون واقفين أمامهم، يستمعون بإنصات لحديث كبير العائلة. لقد كان رفض المعلم حنفي للاستمرار في هذا المشروع واضحًا وجليًا، فقد كان يسعى إلى إنهاءه والعودة بحياتهم إلى طبيعتها، فتحدث للجميع بعبارات مليئة بالاعتراض، قائلًا:
_آني هنا كبير العيلة !

جلال بتبجيل:على راسي يابا.
المعلم حنفي:واللي مالوش كبير بيشتريله إيه؟

أجاب الجميع بنفس الإجابة، وكأنّهم يترددون في نغمة واحدة، حيث انتشرت الأصوات في أرجاء الغرفة، تعكس توافقهم في الرأي:
_كبير.

المعلم حنفي:الله ينور عليكم.

ثم قال لأم الديب بنبرة حاسمة، تفيض بالسلطة، والجدية:
_وانتي يا ولية كار الدكاكين ده مش كارِك، ولأمانة ربنا انتي أكلك وعصايرك طعمهم زي الزفت مآني مبحبش الكدب!

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بازدراء:وانت اللي اسم الله عليك يا راجل اللي بتعرف تطبخ أوي؟ ده انت أكلك والطين واحد، قال بتعرف تسلق بيضة قال.
المعلم حنفي بدهشة:ليه يا ولية كان حد قالك إني فتحت دكانة حلويات؟ آني أه عندي دكان عصاير بس حاجات أصلية، البرتقان هو برتقان مبيتغيرش، والمانجا هي نفسها المانجا مبتتغيرش، الدور والباقي على العكاكة اللي بتبيع عصاير تجيب تسمم وتودي على المستشفى حدف!
أم الديب بغلاظة:انت بتتريق عليا يا حنفي؟

أيد جلال حديث والده، معبرًا عن تأييده، مؤكدًا أن صحة الأسرة وسلامتها هما الأولوية القصوى:
_عندك حق يابا، انت مش أول واحد تقول الكلام ده، وربنا قولت الكلام ده قبل منك ومحدش استعنى بكلامي كأني كنت بكلم هوا.

المعلم حنفي:بُص يا جلال انت ومراتك!

ردت ليالي، منصتة بتركيز شديد لما سيقوله حماها لهم، حيث كانت تشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقها، وكانت تدرك أن كلماته قد تحمل بصيص أمل في خضم هذه الظروف العسيرة:
_قول يا حمايا.

المعلم حنفي:انتي اسم الله عليكي نفسك حلو في الأكل والحلويات.
ليالي:الله يخليك يا حمايا تسلملي.
المعلم حنفي:انتي اللي هتمسكي كل حاجة، وهنجيب ناس تعلميهم الصنعة اللي على حق.
ليالي برفض:لا يا حمايا معلش اعفيني من الحوار ده، احنا هنفض الشراكة دي ومش عايزين حاجة من حد وخلي الحياة ماشية زي ماهي.

رفضت ليالي الاستمرارية مع أم الديب، فقد نفد صبرها، وعانت أكثر مما يمكن تحمله، إذ أدركت أن الأمور تتجه نحو ما هو أسوأ، حيث قد تُحال قضية القتل إلى أوراق مفتي الجمهورية، وهو ما لا يمكن تجاهله. كانت ليالي تشعر بضغط الأعباء، وقد نفدت طاقتها أمام ما لا يُحتمل من معاناة الآخرين.
لكن أم الديب، على الرغم من كل ذلك، كانت لا تزال تكابر وتعاند عائلتها، غير معترفة بأخطائها، فتوجهت إليها بنبرة تحمل غرورًا وثقة مفرطة، وكأنها ترفض الاعتراف بالحقيقة المريرة، قائلة:
_ليه يا بت هو انتي كنتي تطولي؟
لكن جاءها رد نعمة، التي كانت قد أبدت رفضها لاستمرار هذا المشروع، حيث أبلغتها بوضوح أنها لا تستطيع الاستمرار في هذا الطريق. قائلة:
_أنا من رأيي بلاش المشروع ده من أصله، أصل يعني انتوا بتبيعوا حاجات عادية، وايه اللي هيجبر الناس تيجي عندنا؟ أكيد هيدوروا على محل حلويات تاني.

أم الديب الجزء الثالث

كأن الجميع قد اتفقوا على رفض هذا المشروع، بما فيهم هايدي، التي كانت أول من أبدى تعجبه من أفكار والدتها. كانت تعلم تمامًا أن أم الديب لا تنجح في شيء سوى سلق الجزر، ولا تعرف أبدًا الخطوات الصحيحة لإعداد وصفة ناجحة. كانت مشاعر الرفض تتجلى على وجهها، وكأنها تجسد استغرابها من الفكرة، فقالت لها بتعبيرٍ يحمل الكثير من الاشمئزاز:
_ومين قالك أصلًا إن المشروع اللي انتوا فاتحينه ده محل حلويات بجد؟ ده عك، عارفين يعني إيه عك؟

أم الديب:اتشمللي انتي ياختي وانزلي ورينا شطارتك!
هايدي:وأنا أنزل ليه؟ أنا مالي؟
أم الديب بحدة:يبقى تحطي في حنكك فردة بُلغة قديمة!
هايدي بتقزز:حنكك وفردة بُلغة؟

لن تتغير أم الديب أبدًا في طريقة حديثها الفظة والغليظة، فقد كانت أساليبها في التعبير دائمًا تعكس قسوة قلبها وصعوبة طباعها، وعلى الرغم من احتداد كلامها مع هايدي، إلا أن المعلم حنفي أبدى فكرة مبتكرة من أجل إنقاذ مشروع كان قد شرع في الغرق في أعماق الفشل. كان يجمع بين الحكمة والتأني، وهو يوزع أدوارهم بعناية، حيث قال بحنكة:
_ليالي هتنزل مع جلال، ليالي تعمل الوصفات الحلوة اللي من ايديها الحلوين، وجلال يبيع، وهايدي تقعد على الحسابات.
سألت أم الديب زوجها بعجيج يخرم طبول الآذان، حيث كان صوتها يعكس اضطراب مشاعرها من الموقف الراهن:
_ايهي، وآني هعمل إيه يا راجل انت؟

المعلم حنفي:هتمسحي وتسيقي الدكان يا ولية.
أم الديب بعجيج:انت بتقول إيه يا راجل انت؟
المعلم حنفي بانزعاج:يا ساتر منك صوتك سارينة.

وثبت أصابع المعلم حنفي داخل أذنيه، يعاني من صدحها المزعج الذي كان يتردد في كل زاوية. كانت كل كلمة تنطق بها أم الديب تصرخ فيها وكأنها تعبر عن بركان من الاحتدام، دون أن تأبه لضرورة الهدوء الذي يحتاجه الموقف. اعتادت على الصوت العالي، وكأنها تعبر عن معاناتها في كل جملة. حيث اشتكى المعلم حنفي لجلال قائلًا:
_وداني صفرت يا جلال!

جلال:سلامتك يابا.
المعلم حنفي:الله يسلمك، على بركة الله.

أم الديب الجزء الثالث

تمت الاتفاقية بين المعلم حنفي وأبنائه وزوجة ابنه، حيث تم تحديد دور لكل واحد منهم بدقة متناهية، فكان الاتفاق جليًا بأن لا يُسمح لأحد بالتدخل في أدوار الآخرين، مما يعكس روح التعاون والتنسيق بينهم. ظلت ليالي طاهية ماهرة كما اعتادت، تتألق بمهاراتها الفائقة في الطهي، حيث كانت تحضر الأطباق بأصالة وإبداع، بينما تولى جلال مهمة بيع المشروبات وإدارة الحسابات، وهو ما كان يناسب طبيعته، في حين كانت هايدي مسؤولة عن بيع الحلويات الشهية التي أعدتها ليالي بمهارة.
ومع ذلك، كانت نعمة تظهر كضيف عابر، تطل عليهم بين الحين والآخر، فتجالسهم ساعة أو اثنتين، قبل أن تعود إلى منزلها. أما أم الديب، فقد كانت عالقة بفراش المرض، منتظرةً شفاء جرحها لتتمكن من العودة إلى المشروع، مما كان يثير تساؤلاتهم حول مدى قدرتها على العودة إلى العمل مرة أخرى.
وفي هذا السياق، استعدوا لاستقبال سيدتين أخريين بجانب القدامى، حيث كانت ليالي تتولى وصف الطريقة بوضوح، موجهةً إياهم إلى المكونات المرتبة أمامهم على الطاولة في مطبخ مضيء، يعج بروائح السمن، والحليب، والفانيليا، مما كان يخلق جوًا دافئًا من الحماسة. وخاطبت ليالي السيدات بقولها:
_بُصي يا حبيبتي انتي وهي، هنعمل بسبوسة بس أمانة عليكوا تركزوا معايا... علشان تطلع طرية لازم مقدار اللبن يكون قد السمنة ومتقعدش في الفرن كتير وإلا كده هتنشف وهتبقى زي الحجر!
تلفظت السيدة الأولى باكتراث:
=تمام يا أستاذة ليالي.

ليالي:البسبوسة لو مشربتش الشربات في ساعتها اعرفي إن العجينة مش تمام إنما لو شربتها اعرفي إنها عشرة على عشرة.

قالت السيدة الثانية باستعداد:
_طيب ورينا عملي، عايزين نشوف على الحقيقة!

ليالي:هوريكم أهو، ركزوا معايا بس.
السيدة الثانية:حاضر.

في الخارج، كان جلال يبيع المشروبات للزبائن بعد أن تم تحديث قائمة العصائر والحلويات، مما جعل القائمة الجديدة أكثر تطورًا وجاذبية من القديمة، حيث كانت المشروبات التي كانت تقدمها أم الديب تُعد ساخنة، مما يضطر الزبائن لتبريدها في منازلهم، فينتظرون لمدة ساعتين على الأقل قبل أن يتمكنوا من تناولها، بينما الآن أصبحت تقدم لهم باردة وجاهزة للشرب مباشرة، مما زاد من إقبالهم على هذه الخدمة الجديدة والمُريحة. أما بالنسبة للحلويات، فقد اختفت الحلويات الطريفة التي كانت تُعدها أم الديب، ليتم استبدالها بأصناف شهية ومتنوعة مثل الأرز بالحليب، ومهلبية المستيكة المُنعشة، والبرتقال الذي أضاف لمسة حلاوة طبيعية، بالإضافة إلى إبداع ليالي في صنع الإكلير بالفواكه والشوكولاتة، والذي كان بمثابة احتفال حقيقي للنظر والذوق، إلى جانب وصفة السابلية الشهي التي أضفت مزيدًا من اللذة إلى القائمة.

أم الديب الجزء الثالث

وسط زحام الزبائن، نظر أحد الرجال إلى القائمة بتعجب كبير من التغييرات الملحوظة التي طرأت عليها، وسأل جلال باستغراب:
_هي العصاير اللي كانت عندكم اتغيرت ليه؟

جلال:التغيير مطلوب يا معلم، احنا قولنا نحسن من حاجاتنا، ماحنا لا زينا زي ولا أي حد.
العميل بإعجاب:ماهو باين، ربنا يبارك، ادينا اتنين جوافة وواحد فراولة.
جلال:اشطا.
دخل جلال لإحضار المشروبات من الثلاجة، وعاد ليقدمها للزبائن، وحينما لمس أحد الزبائن الزجاجة، لاحظ برودتها المنعشة التي لم يكن معتادًا عليها في السابق، حيث كان يتوقع أن تكون المشروبات ساخنة كما كان يحدث دائمًا. استغرب الزبون من هذا التغيير الملموس، وأدرك أن هذه البرودة تعكس التحول الجذري في الخدمة المقدمة، مما أعطى انطباعًا إيجابيًا عن مدى تحسين التجربة التي يتلقاها، فقال:
_غريبة.

جلال باستفهام:هي إيه اللي غريبة يا معلم؟
العميل باندهاش:أصل إزازة العصير ساقعة متلجة.
جبال بتعجب:وإيه ياض الغريب في كده؟
العميل:الحاجة كنت كل ما أجيلها كانت بتديهالي سخنة موحوحة، هي كانت بتسخنها على النار ولا ايه؟
جلال:لا يابا ماحنا غيرنا من النظام، حسابك سبعين جنيه!
العميل:خد، مش خسارة فيكم.

دفع الزبون الحساب، حاملًا مشترياته، مُغادرًا المكان، لتتوالى بعده مجموعة من الزبائن الجدد الذين انخرطوا في التعامل مع جلال الذي أصبح بمرور الوقت رئيسًا لكل شيء، يدير العملية التجارية بكفاءة، بينما كانت هايدي جالسة على المكتب، تتحدث مع خطيبها زياد في الهاتف، بصوت خافت لا يكاد يُسمع، تتبادل معه الأحاديث الشيقة والكلمات الرومانسية التي تُعبر عن مشاعرهم واهتماماتهم المشتركة. وسط حديثهما المفعم بالحب، سألت هايدي خطيبها زياد عن ميعاد مجيئه إلى المحل، حيث كانت تنتظر بفارغ الصبر لقائه، وتأمل أن يُخبرها عن خططهما المستقبلية معًا، قائلةً له بلهجة مفعمة بالشوق:
_هتيجي امتى؟

زياد:أنا في الطريق يا هايدي.
هايدي:ازاي يابني؟ انت مش قولت هتيجي بالليل؟
زياد:لا مانا كنت في مشوار وقولت بالمرة، بس قوليلي غيرتوا النظام ولا لسه زي ما هو؟

أم الديب الجزء الثالث

هايدي:لا متقلقش خالص، بابا قعد وحط شروط وغيرنا النظام... بصراحة بيني وبينك أنا مش عارفة ليه ماما فتحت المشروع ده أصلًا! لما هي مبتعرفش تعمل حاجة!
زياد:يمكن علشان تحسن الدخل شوية؟
هايدي:هو من ناحية علشان تحسن الدخل فده أكيد، بس كانت دورت على حاجة مناسبة، الأكل مفيهوش تجربة.
زياد:ربنا يهدي مرات عمي.
هايدي:يارب.

كانت ليالي قد تركت أطفالها وحدهم في الشقة. شعر حمود بالجوع فقرر أن يحث أخته تقى على تحضير الطعام، لكن تقى لم تكن تعرف كيف تطبخ، فاندلع بينهما نقاش حاد. حمود، باعتباره الأخ الأكبر، حاول فرض سلطته وهدد بضربها إذا لم تنفذ طلبه. تقى، خائفة، وصرخت مهددة بإخبار والدتها. في النهاية، دفعها حمود إلى المطبخ ليبحثا عن الطعام. توجه الطفلان نحو الثلاجة، لكنها كانت عالية جدًا على تقى. حملها حمود ورفعها لتتمكن من إخراج الطعام. بعدها، حاولا تشغيل الموقد لكنهما لم يعرفا كيف يعمل. ظنت تقى أن والدتهما كانت تشعل النار بعيون الموقد وأشارت لذلك. استمر حمود في المحاولة، لكنهما فشلا في تشغيله حتى تسرب الغاز. في الوقت نفسه، كانت نعمة نائمة في سريرها، وابنها إلى جانبها، لتشم فجأة رائحة الغاز المتسرب، فسألت باختناق:
_إيه ريحة الغاز دي؟ محمد... محمد!

محمد:إيه ياما؟
نعمة بشك:انت لعبت في البوتجاز؟
محمد بصراحة:لا.
نعمة بارتياب:أمال إيه الريحة دي؟ والله الداكتور قايلي متحركش بس لازم أقوم، وسع كده!

كان شك نعمة في ابنها كبيرًا، حيث تساءلت في داخلها إذا كان قد عبث بمفاتيح الموقد أثناء نومها، مما جعلها تنهض برغم تحذيرات الطبيب لها من كثرة الحركة والمجهود الذي قد يُشكل خطرًا على جنينها. حاولت أن تُباعد بين محمد وبين طريقها، ثم دخلت المطبخ بفحص دقيق لكل زاوية فيه، لكنّها وجدت الموقد موصدًا بإحكام، مما زاد من شكوكها، وفي تلك اللحظة، شعرت أن الرائحة القوية التي كانت تملأ الأجواء وافدة من شقة ليالي، التي تركت أطفالها بمفردهم من أجل العمل، مما جعلها تُسرع الخطى نحو الأسفل، تاركةً باب شقتها مفتوحًا خلفها.طرقت الباب بخرع، وفتح لها حمود، وخلفه تقى، لكن الرائحة في شقتهم كانت أكثر قوة بكثير، مما جعلها تشعر باضطراب أكبر. اتجهت نحو مطبخهم وهي تشعر بأن الحيرة تتزايد بداخلها، ثم قالت لهم بصراخ يعبّر عن قلقها، وهي تتقدم بخطوات سريعة نحو المطبخ بينما كانوا يتبعونها باندفاع، مُعبّرين عن استغرابهم:
_إيه الريحة دي؟ يا نهار أسود دي شكلها من عندكم، وسعوا !
أجاب حمود بصراحة، وقد ارتسمت على وجهه تعابير توحي بالاعتذار، مُعبرًا عن استغرابه من رد فعل نعمة:

=أيوه يا عمتي من عندنا أصل احنا بنعمل أكل.

تأكدت نعمة من شكها حينما وجدت مفاتيح الموقد مفتوحة بأكملها، ورائحة الغاز تغمر الشقة، مما جعل التنفس يصبح أمرًا صعبًا، فبادرت بحركة بديهية وأغلقت المفاتيح بسرعة، ثم قامت بفتح النوافذ في الشقة برمتها، محاولةً تهوية المكان والتخلص من تلك الرائحة الخانقة التي تهدد سلامتهم. بينما كانت تتنفس بعمق لتستجمع قوتها، استدارت نحو أطفال أخيها، الذين كانوا يراقبون الموقف بعيون مكتظة بالخوف، وصاحت فيهم بعتاب عارم، مُعبرة عن قلقها وحرصها على سلامتهم:
_يا نهاركم أسود، انتوا ازاي تفتحوا البوتاجاز وأمكم مش هنا؟
أجابت تقى بهلع، ووجهها يتجلى عليه الخوف:
=حمود قالي اطبخي، ولما قولتله لا كان هيضربني!

نعمة برَوع:لما تعوزوا تعملوا أكل تطلعولي تخبطوا عليا، انتوا عيال صغيرة مش عارفين حاجة، كنتوا هتولعوا في البيت!

قال حمود لنعمة بخور، محاولًا تهدئة الوضع وإبعاد التوتر عن الأجواء:
_ستي قالت إنك حامل ومبتتحركيش يا عمتي!

نعمة بحدة:وانت مالك؟ مش أحسن ما تولعوا في البيت؟ يا خبر أسود كان زمانا متفحمين دلوقتي، على الله تفتحوا أنبوبة الغاز تاني وأمكم مش موجودة، فاهم ولا لا؟
حمود:هي كانت مفتوحة من الأول يا عمتي.
نعمة بضيق:آدي الأنبوبة أهي!

بعدما أوصدت نعمة أنبوب الغاز بإحكام، وأدركت أن خطر انفجاره كان يمكن أن يؤدي إلى كارثة لا تُحمد عقباها، شعرت بفيض من الخوف يجتاح كيانها، وهي تنظر إلى الأطفال بعينٍ مليئة بالقلق والمسؤولية، وكأنهم يمثلون لها أكثر من مجرد أقارب، بل امتدادًا لعاطفتها وخوفها الأمومي، وفي هذه اللحظة التي امتزج فيها الخوف بالحذر، تأكدت من أن تلك الخطيئة لا ينبغي أن تتكرر أبدًا، وقررت أن ترسخ في أذهانهم أهمية التعامل بحذر مع كل ما قد يهدد سلامتهم في المستقبل، قائلة بتأكيد:
_محدش فيكم يفتح البوتجاز مرة تانية، فاهمين ولا لا؟
ردت تقى بندم على ما فعلته، حيث شعرت بثقل المسؤولية يثقل كاهلها، وأدركت خطورة تصرفاتها غير المدروسة:
=ماشي.

تنهدت نعمة بعدما ضاق صدرها، وتعكر مزاجها نتيجة الموقف الذي شهدته، حيث شعرت بالقلق على الأطفال واحتياجهم للرعاية في غياب ليالي، مما دفعها للتفكير في كيفية توفير الأجواء المناسبة لهم.
كانت ترغب في صنع الطعام لهم، متسائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_عايزين تاكلوا إيه؟
أجاب حمود بابتسامة تحمل شيئًا من التفاؤل، وكأنها تشع بأمل في تحسين الأجواء المتوترة:
=أي حاجة من ايدك حلوة يا عمتي!

نعمة بانزعاج:كُل بعقلي حلاوة يا ولا!
حمود ببشاشة:لا يا عمتي أنا بقول الحقيقة.
نعمة بابتسامة:حبيب عمتك، أقعدوا وأنا هتصرف، المهم اللي حصل ده ميحصلش تاني!

قالت تقى بفرح، وهي تشعر بشيء من الهدوء يتسلل إلى قلبها:
_ماشي.

خرج الأطفال من المطبخ وجلسوا على الأريكة في هدوء تام، كأنهم تجمدوا في لحظة من الصمت، لم تكن لهم عينا أن ينطقوا بكلمة واحدة بعدما شهدوه من موقفٍ مقلق، فمثل هذه المشكلة القابلة للاشتعال قد تؤدي إلى انفجار منزل بأكمله، وتترك حيهم غارقًا في وفيات وإصابات كبيرة. في تلك اللحظة، نزل محمد يلهو مع الأطفال، وكانوا جميعًا في انتظار نعمة، التي كانت تعمل على إعداد الطعام لهم بصبر، على الرغم من تحذير الطبيب لها من الحركة الزائدة التي قد تضر بصحتها. في شقة أم الديب، لم تستطع تحمل الجلوس بمفردها تتأمل في الجدار، وكادت أن تجن من وطأة الوحدة التي أحاطت بها، لذا قاومت آلامها وقررت الخروج من دارها متوجهة إلى مشروعها، حيث كانت تمشي بتؤدة، تارة تسند نفسها على الجدران، وتارة أخرى تستند إلى أي شيء يقابلها في طريقها، حتى وصلت إلى مكانها. وبمجرد أن رآها جلال، وليالي، وهايدي، اجتاحتهم موجة من الضيق، إذ ظنوا أنها لن تحضر على الأقل لمدة أسبوع بعد الحادث الذي ألم بها. تدخلت مجددًا في كل شيء، وكأنما كانت تجبرهم على القيام بما ترغب فيه، ولم تسمح لهم بحيزٍ للتنفس أو التفكير، وفي خضم هذه الأجواء المتوترة، حضر زياد، فتعجب من وجودها، بعدما أخبرته هايدي بغيابها، وشعر بنفس الشعور الذي اجتاح جلال، وكأنه رأى جنًا يتجول أمامه، مما جعل ملامح وجهه تعكس حيرة وترقبًا كبيرًا، وكأنما كان يتساءل في قرارة نفسه كيف يمكنها أن تكون هنا، في مثل هذه الظروف، فقال لها بابتسامة مُصطنعة:
_ازيك يا مرات عمي؟

أم الديب بفَوْرَة:كويسة، انت إيه اللي جابك يا ولا؟
زياد بصدمة:نعم؟
أم الديب بغلاظة:نعم الله عليك، إيه اللي جابك؟ هو انت كل يوم ناطط عندنا؟ لا بقولك إيه ياخويا مش معنى إنك خاطب بتي يبقى تيجي عندنا كل يوم والتاني، انت ملكش دار ولا ايه؟

عندما رأته هايدي، اندفعت نحوه بسرعة، كأنها تسعى لدرء عاصفة قد تنفجر في أي لحظة، فقد شعرت بأن أي لحظة قد تتحول فيها الأجواء إلى ساحة صراع بين أم الديب وزياد. بحذرٍ شديد، وبلهجة مفعمة بالقلق، نادت هايدي أم الديب، مُحاولةً استباق الأحداث:

أم الديب الجزء الثالث

_إيه يا ماما في إيه؟ ده بدل ما تقوليله نورتنا؟

أم الديب بعبوس:لا ياختي الدنيا منورة لواحدها، مش مستنينه يجي علشان ينورهالنا، هي منورة خلقة!

وجهت هايدي حديثها إلى زياد بنبرة مرتجفة، وكأن كلماتها تتسرب من بين شفتيها بخوفٍ شديد، تعكس مشاعر التوتر التي كانت تسيطر على موقفها، حيث قالت له:
_طيب يا زياد تعالى اتفرج على المحل بعد التجديد، احنا غيرنا كل حاجة فيه والعصاير، والحلويات الجديدة هتعجبك أوي!

زياد بخور:إيه يا هايدي انتي مستغنية عني ولا إيه؟
هايدي:لا طبعًا متخافش، أنا جربت بنفسي واتأكدت!
زياد باطمئنان:طيب كويس.

فكرة التسمم لم تفارق عقل زياد، مما جعله يتردد بشدة في تذوق المشروبات التي كانت تُعد على يد أم الديب، دون أن يعلم أن الصانعة الحديثة لهذه المشروبات هي ليالي والسيدات المساعدات اللاتي انضممن إلى المشروع، لكن هايدي، التي لاحظت تردده، طمأنته بلُطف، مما جعله يشعر ببعض الراحة، فاستدار برفق معها نحو جلال، الذي كان مشغولًا بكتابة الطلبات على الورقة، حيث كان يجلس بتركيز، وكأن كل كلمة يكتبها تحمل أهمية كبيرة في سياق نجاح المشروع، فبادر زياد بسؤال عن أحواله، وهو يحمل ابتسامة واسعة، قائلًا:
_ازيك يا جلال؟

جلال بتهلل:فُل الفل يابن عمي، انت إيه دنيتك؟
زياد بجَذل:الحمدلله، مبروك على المحل.
جلال بابتسامة:الله يبارك فيك ياض.

كان اللقاء بين جلال وزياد وديًا، حيث تبادلا الضحكات التي تعكس الألفة بينهما، على عكس أم الديب التي لم ترحب بزياد، بل تجلى على وجهها انزعاج واضح من وجوده بينهم، مما جعل الأجواء تتسم بالتوتر غير المرئي. بينما كانت هايدي تتحرك بعيدًا لتحضر المشروب من الثلاجة، كانت تتمنى أن تساهم في تغيير الأجواء السلبية المحيطة بهم، ثم عادت وسلمت المشروب إلى زياد، الذي أخذها في يده وهو ينظر إليها بحيرة، حيث تملّكه الخوف من تذوقها، وكأنها لغز محير، فكان يتفحصها بقلق، ثم نظر إلى هايدي بارتياب، وكأنه كان يحاول أن يفهم ما إذا كان يجب عليه المجازفة وتذوق ما في يده، مما دفعه إلى الإفصاح عما يدور في قلبه من مخاوف، قائلًا:
_خايف بصراحة.

هايدي:متخافش، صدقني طعمها حلو، أصل مش ماما اللي عاملاها، ليالي هي اللي عاملة كل ده وليالي بتعرف تطبخ ونفسها حلو في كل حاجة.
زياد بتردد:على ضمانتك!
هايدي بتأكيد:على ضمانتي!

بعد أن اطمأن زياد قليلًا من كلمات هايدي، قرر أن يتجاوز تردده، ففتح الغطاء ببطء، ورفع الزجاجة إلى شفتيه، مشربًا أول رشفة من المشروب، لكن حالته النفسية كانت تمنعه من الحكم الجيد عليه، مما دفعه إلى إعادة تذوقه مرة أخرى، حيث كانت كل رشفة تأخذه في رحلة من النكهات الغنية، مما جعل انبهاره يتزايد بشكل كبير. عاود النظر إلى هايدي، التي كانت تراقب ردود فعله بفضول، فقال لها باندهاش، وهو يعبر عن مشاعره الجياشة :
_حلو أوي فعلًا، طيب كويس إنكم طورتوا من نفسكم، بصراحة الحاجة قبل كده كان مستواها متدني أوي!

هايدي بابتسامة:الكلام ده كان زمان لكن دلوقتي الموضوع اختلف تمامًا!

توجهت هايدي مع زياد نحو الكراسي البلاستيكية الموزعة إزاء المحل، حيث جلسا معًا، بينما استكمل زياد مشروبه باستمتاع، إذ كانت النكهات تداعب حواسه وتزيد من شعوره بالراحة. في الجهة الداخلية، كانت ليالي قد انتهت من تحضير ثلاث صواني من البسبوسة الفاخرة، التي أعدتها بعناية، قبل أن تُدخلها الفرن لتكتسب اللون الذهبي الجميل. بينما كانت مشغولة بذلك، جهزت مكونات الكنافة بالقشدة، حيث تجمعت السيدتان بجانبها، يتطلعن بتلهف إلى كل خطوة تقوم بها، متعلماتٍ من خبراتها الواسعة في فنون الطهي. كانت ليالي تنقل إليهن معرفتها، موجهةً إليهن ملاحظات مفيدة حول كيفية تحقيق النتائج المثلى، وقد قالت لهم:
_احنا كده خلصنا من البسبوسة، هندخل على الكنافة.
سألت السيدة الأولى:
=هتتعمل ازاي بقى؟

ليالي بتركيز:هقولكم، ناوليني الطبق من هناك!
السيدة الأولى:حاضر.

اتجهت السيدة الأولى نحو الموضع المشار إليه سابقًا من قبل ليالي، متطلعةً إلى استحضار الوعاء المطلوب. عادت به بسرعة إلى ليالي، التي كانت مشغولة بتنظيم مكوناتها وتوجيه السيدة الأخرى. لكن ليالي، وهي تفكر في الكمية المطلوبة لإعداد الكنافة بشكل مثالي، شعرت بأنها بحاجة إلى وعاء أكبر، فقالت لها:
_لا ده صغير، هاتيلي واحد أكبر علشان يكفي!

أم الديب الجزء الثالث

السيدة الأولى:من عينيا الإتنين.
ليالي ببشاشة:تسلملي عيونك، سخنتوا السمنة؟

أجابت السيدة الثانية، وهي تتابع قدر السمن الذي يذوب على الموقد بخفّة:ٍ
_أيوه بتسيح على النار أهو.

ليالي:حلو، افرمولي الكنافة في المفرمة!
السيدة الثانية:حاضر.

أثناء جلوس أم الديب على الكرسي أمام المحل مع زياد وهايدي، لمحت الثور قادمًا نحوهم من بعيد، حيث كان قد حفظ طريق الوصول إليها، مما جعل قلبها ينبض بسرعة، وكأنها شعرت بشيء غريب يعتمل في داخلها، وحينما اقتربت الرؤية من ملامح الثور، لم تتمكن من السيطرة على نفسها، فاندفعت من على الكرسي، مما تسبب في سقوطها بشكل غير متوقع. وفور أن استقامت على قدميها، انطلقت صيحاتها في أرجاء المكان، وهي تلوح بيديها، كأنها تحاول أن تنبه الجميع إلى هذا الموقف المفاجئ، قائلة:
_يا لهوي دهو جاي تاني يا عيال!
فر زياد وهايدي هاربين إلى المطبخ مع جلال، حيث أوصدوا الباب بسرعة كأنهم يحاولون حماية أنفسهم من خطر مرئي، بينما اندلعت حالة من الفوضى في الخارج، حيث فرّ الزبائن في الشارع بعيدًا، كل واحد منهم يبحث عن مأوى بعيد عن ذلك المشهد المفزع. لكن على عكس الجميع، لم تهرب أم الديب معهم، بل دخلت المحل بشجاعة، عازمةً على إنقاذ ثمرة جهدها وحلمها الذي عملت عليه بكل جهد وإخلاص، وكانت في تلك اللحظة تعبر عن انفعالاتها بشكل واضح، إذ كانت مشاعرها متأججة بالتوتر، وعواطفها تتصارع بين الخوف والسخط. أول ما أن رأت الثور، أطلقت صرخة حارّة، وهي تعول قائلة:ً
_يا لهوتي دكاني، هو الطور دهو موراهوش حاجة غير دكاني يا عالم؟

دخل الثور المحل، وكانت تلك هي اللحظة الصاعقة التي أضحت فيها كل الأمور معلقة، حيث تحدّت أم الديب كل مخاوفها، ووقفت أمامه بشجاعة لا تتزعزع، متمسكةً بحقها في حماية جهدها وشقاها الذي راكمته عبر الأيام. بينما كان يزأر بتهور، استجمعت قواها، ورفعت صوتها عاليًا، مهددةً إياه بصوتٍ قوي يتردد صداه في أرجاء المحل، وكأنها تستعرض كل شجاعة النساء اللواتي يواجهن المخاطر من أجل أحلامهن، قائلة بعجيج:
_بقولك إيه ابعد عن سكتي وإلا هكسرلك قرونك دهي، فاهم ولا لا؟

دخل الثور بكل قوته، مصطدمًا بأم الديب، حيث اخترق قرنه بطنها في مشهد مؤلم، مما جعلها تنهار مغشيًا عليها، وكأن الصدمة كانت أكبر من قدرتها على التحمل. لم يكتف الثور بذلك، بل استمر في تدمير المحل بكل ما فيه، فكانت الأغراض تتطاير في كل مكان، متساقطةً كأوراق الشجر في عاصفة

عاتية. في الداخل، كانت ليالي وهايدي والسيدات الأخريات في حالة من الذعر، يصحن بصوتٍ عالٍ، تعبيرًا عن خوفهن من الموقف المُفزع الذي يعيشنه. بينما كان جلال يتملكه التوتر، محاولًا السيطرة على الموقف الذي أصبح خارج السيطرة، ورفع صوته وسط الضجة، محاولًا تهدئة الجميع بقوله:
_أسكتي يا بت منك ليها، عاوزين نتصرف، الطور ده جه منين؟

في مشهد مقلق، تعول ليالي بصوت ملآن بالفزع، موجهةً نداءً يعبر عن عمق المعاناة، وهي تنطق بكلمات تعكس شعورها بضعفها، وفي خضم هذا التوتر، يأتي رد زياد المتسم بالبرود، وكأنه يعبر عن استسلامه أمام الأحداث الجارية، متسائلًا عما يمكن فعله في ظل تلك الأجواء الملبدة بالسواد.
ويستمر جلال، الذي يبدو متقدًا بالعاطفة، في التعبير عن استيائه بصوت عالٍ، موضحًا كيف أن الأمور قد انقلبت بشكل دراماتيكي، حيث كان يُفترض أن تكون الأمور في أمان، ولكنها تحولت إلى كارثة مُريعة بعد زيارة ليالي لجارتهم، ويدين ليالي لكونها السبب في هذه المصيبة التي أوقعتهم في مأزق غير متوقع. تتملكه الحيرة خاصة عندما يفكر في الطريقة التي دفعتهم إلى هذا الموقف اللصب. في الوقت نفسه، تتحدث هايدي بصوت عالٍ، تُلقي اللوم على ليالي عن الأحداث التي وقعت في المرة السابقة، متهمة إياها بأنها السبب وراء ما حدث. ولكن ليالي، بكل قوة، تدافع عن نفسها، موضحةً أن والدتها هي التي دفعتها لاتخاذ تلك القرارات الصعبة. تظهر الفوضى في المكان، ومعها يتصاعد مستوى التوتر.
لكن جلال يحاول أن يوجه الجميع نحو الهدوء والتصرف بعقلانية في تلك الفوضى، وفجأة، يتوقف كل شيء عندما يسمعون أصوات تكسير غير عادية. فتح جلال الباب بحذر، ليكتشف وجود الثور، الذي يبدو وكأنه يستعد لمهاجمة أم الديب التي ترقد على الأرض. ويظهر الاستغراب على وجه جلال، مُتعجبًا من تصرفات الثور، وهو يصرخ في الخارج مُعبرًا عن عجزه عن البقاء في هذا الوضع المرعب، وفي لحظة من الرعب، يتراجع الثور إلى الوراء، ويغلق جلال الباب بسرعة، مُحاولًا حماية نفسه وعائلته من ما قد يحدث بعد ذلك، قائلًا لزوجته:
_مش حتة طور اللي يعمل فيا كده يا ليالي!

ليالي بنواح:انت بتقول إيه يا جلال؟ ده طور مش واحد من الناس اللي تعرفهم! يا خراب بيتك يا ليالي، سيبتي بيتك وعيالك وجيتي لقضاكي هنا، لو كنت أعرف إن كل ده هيحصل والله ما كنت جيت.
جلال بجلبة:ما تتكتمي يا بت، انتي هتروشيني ليه؟ آني مش عارف أفكر من صويتك، اهدي شوية!

ندم زياد على قراره بالمجيء في هذا الوقت غير المناسب، حيث تداخلت مشاعر الخوف في قلبه، لكنه كان يدرك أيضًا أن التأخير قد يكلفه أكثر مما يتصور. فإذا انتظر حتى لاحقًا، فلن يجد شيئًا سوى الخراب، ومَن في المكان مُحطّمون جسديًا إثر حادثة ثور شموس، تلك الوحشية التي باتت تُخيّم على الأجواء، مُلوّثة كل شيء. خطا زياد نحو النافذة، مُترددًا، وعازمًا على القفز منها. حيث تنفّس بعمق قبل أن يفتح فمه ليقول، بحذر:
_أنا هنط من الشباك، ياريتني كنت جيت بالليل، إيه اللي جابني دلوقتي بس؟

رد جلال بصوتٍ ساخط، وكأن صرخاته تشق الهواء الحاد المتجمد حولهم، مملوءة بالغضب المتصاعد:

_من نحنحتك ياض، نحنحتك هي اللي عملت كل ده!
تفوهت ليالي بصوت يملؤه الانهزام، والكلمات تتقطع في حلقها، تخرج منها بأنين يائس، مُثقل بالخوف الذي بات يتملكها:
_انجدونا ياللي برا، انجدونا أحب على أيديكم، عاوزة أرجع لعيالي سليمة، يارب سلم يارب!
اندفع زياد بكل جسارته نحو النافذة، وبدون تردد قفز منها بخفة، محققًا هبوطًا ناجحًا في الخارج. كان قلبه يخفق بقوة، لكنه شعر بجرعة من الأمل تسري في عروقه، وهو يرى أن الخلاص ليس مستحيلًا.
في تلك اللحظة، نظرت هايدي إلى ليالي بعينين مليئتين بالتوتر، مشيرةً إليها أن الفرصة ما زالت متاحة للهرب مثلما فعل زياد. حملت كلماتها إلحاحًا، وكأن الهروب هو الملاذ الوحيد قبل أن تُطبق عليهم المصيبة، قائلة:
_ارفعيني وهنط ورا زياد!

ليالي باستغراب:هتنطي ازاي بس؟
هايدي بإلحاح:ارفعيني بس ومالكيش دعوة!

رفعت ليالي هايدي بعناية نحو النافذة، مستخدمة كل قوتها، حتى تمكنت هايدي من القفز والهبوط بجانب خطيبها زياد. وما إن اجتمعوا مجددًا حتى التفوا حول الزاوية، بعيدًا عن المكان المليء بالفوضى، وسارعوا بالتحرك نحو الخلف، حيث كان الخطر ما يزال يلوح في الأفق. أول ما فعلوه بعد النجاة من تلك اللحظات العصيبة، هو الانطلاق سريعًا، يركضون بكل طاقتهم نحو المعلم حنفي، ذلك الرجل الذي كانوا يعتمدون عليه في المواقف الصعبة. عندما وصلوا إليه، كانت أنفاسهم تتسارع، وعقولهم تدور في دوامة من الرعب، وبمجرد أن أخبروه بما جرى، أدرك المعلم حنفي مدى خطورة الوضع، وقال لهايدي:
_تحسي يا بت إن ربنا مش عاوز المشروع ده، متسددة من كل ناحية، مانا قولتهالكم كلمة، كار المشاريع ده مش كارها... المهم أمك ماتت ولا حية؟

هايدي برهبة:وأنا إيه عرفني بس يا بابا؟ الدنيا متدمرة هناك وخرجنا بالعافية، شوفلنا حل عايزين نخرج جلال وليالي والستات اللي كانوا معاها!
المعلم حنفي بشجاعة:آني هعمل كده علشان أخوكي ومراته والنسوان الغلابة لكن أمك تولع، والله ما تفرق معايا بربع جنيه، أصل دي ولية مُقرفة وبتاعة مشاكل!

تلفظ زياد بكلمات متقطعة، مُثقلة بالخوف الذي بدا واضحًا في صوته المرتعش:
_طب الحقهم يا عمي وأجل الكلام ده لبعدين!

المعلم حنفي:آني هعمل كده علشانك انت والبت هايدي، قدامي أما نشوف، أسترها علينا يارب.

أم الديب الجزء الثالث

تحرك المعلم حنفي مع هايدي وزياد بخطوات حذرة، مُتجهين نحو المحل حيث وقعت الأحداث المأساوية. عندما وصلوا، وجدوا جمعًا من الناس يقفون قبال المحل، وقد أخرجوا الثور وهو مربوط، في محاولة للسيطرة عليه. وسط هذا المشهد المشحون، ظهرت جارة أم الديب وهي تجري باتجاههم بخوف بارز على وجهها، وكأنها لم تتوقع رؤية ثورها في هذا الموقف. أثناء الحديث، كشف المعلم حنفي أن الثور الهائج كان ملكًا للجارة، التي اعترفت أنه هرب منها. بدا الخوف يسيطر على كلماتها، خاصة عندما أشارت إلى أن يوم هروب الثور كان يومًا حالكًا، حين طلبت ليالي منها أن يُطلق الثور نحو محل حماتها. تصاعد الشجار بسرعة بين ليالي والجارة، حيث تبادلتا الاتهامات، كل واحدة منهما تلقي اللوم على الأخرى في ما حدث. كان الصراع بينهما يفسر مدى تعقيد المشكلة، ليالي بدت غاضبة بشكل جسيم، مُدافعة عن نفسها، في حين أن الجارة كانت تهدد بالكشف عن المزيد من الأسرار، وعلى جانب آخر، كانت الأمور تزداد سوءًا مع جلال، الذي ظهر عليه الغضب. تصاعد صوته، وكأنه يفجر كل ما بداخله من احتدام، حتى وصلت الأمور إلى مرحلة خطيرة، حيث أخرج المطوى، مما أشعل الأجواء أكثر. تحولت ملامحه بشكل مروع، وكأن الشخص الذي يعرفه الجميع قد اختفى، وحلّ محله شخص آخر أكثر قسوة. بالرغم من محاولات التهدئة، كان جلال غير مستعد للتراجع، رافضًا الانصياع لأي محاولة لتهدئته. تزايدت حدة المشكلة بينه وبين الآخرين، حتى أن ليالي نفسها لم تستطع أن تتعامل مع سخطه، حيث وقف بمنتصف الحشد، وصاح قائلًا بوعيد:

_يلا كل واحد يشوف أشغاله، والدكر فيكم اللي يستنى هنا، وربنا وربنا أدفنه صاحي... يلا مستنيين إيه؟

كانت الناس مملوءة بالخرع، وبعد أن تعقدت الأمور وتفاقمت حدة الذعر، بدأوا يغادرون المحل واحدًا تلو الآخر. كان المشهد مشحونًا بالارتباك، خاصة بعد أن تم إخراج أم الديب، التي كانت في حالة خطرة، ونقلوها بسرعة إلى المستشفى بحثًا عن أي أمل في إنقاذها. عندما وصل الخبر إلى أحمد وجميلة وأم قمر الدين، لم يترددوا لحظة. أسرعوا بركوب السيارة، قلوبهم مثقلة بالقلق على أم الديب، وكل واحد منهم يتساءل في داخله عما ينتظرهم هناك. في تلك الأثناء، كان أحمد يمسك هاتفه بيد مرتعشة، محاولًا الاتصال بهايدي ليعرف آخر المستجدات. بينما كانت السيارة تسرع نحو المستشفى، بدأت المكالمة بين أحمد وهايدي، وكأنها محاولة يائسة للإمساك بأطراف الحقيقة. قال أحمد باعتراض:

_مانا قولتلكم بلاش مشاريع محدش سمع الكلام، أهو انتوا دايمًا كده تمشوا بدماغكم وفي الآخر تتصلوا تعالى الحقنا.

هايدي:احنا أصلًا مكنش حد فينا موافق، كلنا عارضناها، وهي كانت مُصممة.
أحمد:خلاص يا هايدي، الكلام مش هيرجع اللي فات، ماما عاملة إيه دلوقتي؟
هايدي:قرن الطور دخل في بطنها فتحلها جرح خمسة سنتي.

يتبع....

الفصل السابع عشر

يا للهول! كيف للقلب أن يتحمل هذا الهلع؟ أيكون القدر قد اجترأ على الوالدة ليضعها في تلك المعركة الشرسة، حيث تواجهت أم الديب مع الثور في معركة عنيفة انتهت بانكسارها وانحناء عزيمتها. وكأن الرياح العاتية قد عصفت بها، لتجد نفسها في ميدان صراع لا رحمة فيه، وقد تكسرت أحلامها أمام قوة لا ترحم. وفي مكان آخر، كان أحمد يسير على الطريق وكأنه قد طمس بصره عن الاتجاهات، إذ كان يقود سيارته، وزوجته إلى جواره متألقة بثوبها الفاخر، كأنها نجمة سطعت بأناقتها، بينما تخفي عينيها خلف نظارتها الشمسية الفاخرة التي تزيدها هالة من الجمال، وفي المقعد الخلفي، كانت تجلس أم قمر الدين، عاكسةً صورة ابنتها، وقد تزينت بنفس الروعة. لكن في عمق هذا المشهد البراق، لم يكن أحمد يولي اهتمامًا للطريق كما ينبغي، إذ كان منشغلًا بحوار داخلي لا ينقطع، يتخلله القلق الذي يتسلل إلى قلب جميلة، التي كانت تنظر إليه في كل لحظة بعيونها المشحونة بالخوف، كأنها ترى خطبًا وشيكًا يوشك أن ينفجر، وفي الوقت ذاته، كان يتحدث عبر الهاتف مع هايدي، وفي قلبه دهشة تعتريه من الكارثة التي ألمت بوالدته. كان صوته يرتجف بالذهول وهو يقول:

_ياه للدرجة دي؟ وإيه اللي جابه أصلًا؟

هايدي:ليالي هي اللي بعتته، كان في حوار بينهم وحبت تفش غلها من ماما.

لكن جميلة، التي كانت صامتة طيلة الوقت، كأنها تزن في عقلها أثقال القلق. خرجت أخيرًا عن صمتها، وبنبرة هادئة، ولكنها مشحونة بحزم لا يقبل الجدل، التفتت إليه وقالت له بحسم يشق صمت الموقف:

_ركز في الطريق، بلاش كلام دلوقتي!

أحمد:ماشي.

ثم أردف في الهاتف قائلًا بصوت مختصر:

_طيب يا هايدي احنا جايين في الطريق أهو.

هايدي:ماشي توصلوا بالسلامة.

انتهت المكالمة أخيرًا ليعود أحمد إلى تركيزه على الطريق، وقد اجتازوا مسافة طويلة باتجاه القرية التي بدت تقترب شيئًا فشيئًا، وكأن الطريق يمتد أمامهم بخطى ثابتة نحو المجهول، وفي الوقت نفسه، كانت الأجواء داخل الوحدة الصحية تشوبها هدوء غريب، حيث اجتمع أهالي المرضى في صالة الانتظار، وكانت ليالي، وهايدي، وزياد، وجلال برفقة المعلم حنفي جالسين هناك في صمت، ينتظرون خروج الأطباء من غرفة العمليات، إلا أن الأجواء لم تكن تحمل مشاعر التوتر أو القلق المعتادة، بل على العكس، بدا الجميع وكأنهم مرتاحون أو غير مكترثين بغياب تلك التي كانت تشغلهم، وكأن حضورها لم يعد يعني لهم شيئًا. لكن في زاوية من المشهد، ظهرت نعمة، مرتدية عباءتها البنية التي بدت ضيقة قليلًا

أم الديب الجزء الثالث

عند بطنها المنتفخ بالحمل، تسير بجوار حامد، وكانت هي الوحيدة التي قلبها لم يتحمل الصمت والبرود المحيط بها. بصرخات مليئة بالحزن والأسى، تعالى بكاؤها حتى اهتزت أركان المستشفى بصوتها القوي، وكأنها تصارع القدر بدموعها وندائها الذي مزق السكون، ومع اقترابها من ليالي، التي نهضت على الفور لملاقاتها، تشبثت نعمة بذراعها بكل ما أوتيت من قوة، تغرق في أحضانها كأنها تجد في هذا العناق ملاذًا من ألمها، بينما تنتحب بحرقة، وكلماتها المتقطعة تنزلق مع دموعها المليئة بالحزن على فقدان والدتها، قالت:

_ياما يا غالية بختك أسود من يومك، مبتلحقيش تتهني بحاجة أبدًا...ياما يا حبيبتي!

ليالي:اهدي يا نعمة متعمليش في نفسك كده، غلط على اللي في بطنك!

رد حامد بعصبية وقد ضاقت نفسه من المشهد الذي إزاءه، فخرجت كلماته حادة، كأنها سهام أطلقت من فم شاجن لا يستطيع السيطرة على غضبه:

_قوليلها يا ليالي، أهي طول الطريق على نفس المناحة دي، هو يعني صويتك هيرجع اللي راح؟

استدارت نعمة نحوه بسرعة وكأن غضبها قد أشعل فيها قوة لا تُقاوم، وعيناها المتورمتان من البكاء زادتا من حدة نظراتها، ثم صرخت في وجهه بنبرة ممزوجة بالحزن قائلة:

_اسكت انت خالص ياخويا! يا عيني عليكي ياما يا غالية يا قلبي يا كبدي يا حياتي يا عيوني ياما.

نهض المعلم حنفي ببطء، وكأن ما شاهده جعله يتجاوز هدوءه المعتاد، ثم نظر إلى نعمة بدهشة تعتري وجهه، وكلماته خرجت مترددة، وكأن عقله لا يزال يحاول استيعاب انتحابها، متسائلًا عن سبب هذا الانفجار المفاجئ:

_انتي مكبرة الموضوع أوي يا نعمة، اللي يشوفك بتصوتي يفكر في مصيبة حصلت!

نعمة:ماهو اللي حصل ده أكبر مصيبة يابا، أنا أمي بين الحياة والموت.

ثم قد اشتعل الاستياء في عيني نعمة أكثر، فتوجهت بحديثها نحو زوجها حامد، كلماتها خرجت مشحونة بالمرارة، قائلة بنشيج:

_طلعلي المناديل من الشنطة يا حمو.

حامد:حاضر يا نعمة، اهدي بس وإن شاء الله خير.

نعمة بنحيب:ياما يا غالية .

جلست نعمة على المقعد بجوار جلال، ووجهت نظرها إليه، اكتشفت أن وجهه خالٍ من أي أثر للحزن على والدته، وكأنه لم يتأثر على الإطلاق بما يحدث، بل بدا صامتًا، عابسًا، يراقبها بنظرة من عدم الرضا تجاه تصرفاتها، وكأنما يحاول أن ينأى بنفسه عن موجة المشاعر المتلاطمة من حوله. فاجأها ذلك بشدة، وجعلها تتساءل في داخلها عن سبب بروده، لتوجه له حديثها بدهشة جسيمة في صوتها، مُتسائلة:

_ما تقول حاجة يا جلال، ساكت ليه؟

جلال بانزعاج:هقول إيه يا بت؟ آني نفوخي هينفجر من صويتك، هلاقيها من ليالي ولا منك؟

جلست ليالي بجوارهم، وتجهمت لجلال بعبوس ملؤه الاستنكار، وصرخت فيه بانزعاج، قائلة:
_وأنا كنت عملت إيه يعني؟

جلال بسخرية:لا ياختي ولا أي حاجة، مانا أصلي بحور.
ليالي بحنق:أه بتحور يا جلال، كل اللي بيحصلنا ده بسبب أمك، ماهو ربنا مش مبارك في المشروع ده، شكله كده بفلوس حرام، تلاقي أمك سارقاهم من ست بسملة وعاملة علينا الفيلم ده كله، وفي الآخر هُبل وبنتلسع على قفانا.
جلال بصياح:هطلعلك المطوى يا ليالي ومش هيهمني حد، اتكلمي على نفسك يا بت، جلال ميتلسعش على قفاه مهما حصل!

نهض جلال فجأة، وصوته يعلو في وجه ليالي كأنه يجسد الحنق المتأجج بداخله، غير مُكترث بالناس من حولهم الذين كانوا يراقبون حوارهما في صمت، إذ لم يكن أحد يجرؤ على التدخل في تلك اللحظة، خشيةً من جلال المعروف ببلطجته بين أهل القرية، وكأنه قد أرسى قاعدة من الخوف جعلت الجميع يتجنبون أي تصرف يمكن أن يستفز غضبه، وفيما كان جلال ينفي بشدة قدرة أي شخص على استغفاله، نهض بسرعة متعصبًا، لتسقط صفعة قوية على مؤخرة عنقه، صدى صوتها ارتد في أرجاء الوحدة الصحية برمتها، وعندما استدار، وجد أمامه الخال ضايع، الذي كان يرتدي شورتًا قصيرًا للغاية وفانلة بيضاء بلا أكمام، وسلسلة. بدى كأنه قد خرج من لعبة "GTA" الشهيرة، مما أضاف عنصرًا من الكوميديا إلى الموقف الجاد، ولكي يخفي جلال إحراجه أمام الموجودين، انفجر ضاحكًا، متظاهرًا بعدم الاكتراث، واحتضن ضايع بقوة، وقال له:
_إيه ده خالي؟ انت... انت جيت ازاي؟

ضايع بوجوم:جرا إيه ياض؟ مش تقولي حمدالله على السلامة الأول؟
جلال بابتسامة:حمدالله على السلامة يا خالي.

نظر ضايع إلى نعمة، التي كانت تنهمر دموعها بغزارة، وكأنها تحمل آلامًا لا تُحتمل، فرفع صوته بنبرة عالية، محاولًا اختراق سكون الشجن الذي يحيط بها، متجاهلًا مشاعرها المتأججة، وهو يقول:
_ازيك يا بت أختي؟ ربنا يجعلها أول الأحزان.
لم تكترث نعمة بسؤاله، فقد كانت غارقة في بحر من دموع الأحزان، وكأن العالم من حولها قد اختفى، ليظل الألم هو وحده القائم. لكن سرعان ما تدخل جلال ليصلح حديث ضايع غير المرتب، وهو يحاول أن يعيد الأمور إلى نصابها، مستشعرًا ضرورة توضيح الموقف بطريقة أكثر وضوحًا، قائلًا:
_آخر الأحزان يا خالي !

أم الديب الجزء الثالث

ضايع:معلش ياض لسه لافف صوباع حشيش ومش داري، أمال حنفي فين؟

قبل أن يأتي ضايع لزيارة أخته في المستشفى، كان قد خرج من سهرة طويلة في الملهى الليلي الشعبي بأحد شوارع الهرم، حيث أمضى وقتًا في خضم الأضواء الساطعة والموسيقى الصاخبة. لم يكن قد اكتفى بالاستمتاع بالأجواء، بل أنهى فوق خمس زجاجات من الكحول بمفرده، بالإضافة إلى تعاطي الأفيون وما شابه، مما جعله يغوص في عالم من السُكر وفقدان الوعي. لم يكن واعيًا لما يدور حوله أو حتى بمن يحيط به، وعندما نظر حياله، لفت انتباهه المعلم حنفي، الذي كان جالسًا في الزاوية، فاختلطت لديه المشاعر بين الدهشة والضحك. نظر إليه ضايع بعيون مشوشة، ثم انفجر ضاحكًا بقوة، وسأله بعقل مُغيب، وكأنما يتحدث إلى نفسه في تلك اللحظة، مُتجاهلًا تمامًا ما قد يترتب على كلماته حينما تلفظ:
_مجيتش ليه يا جوز أختي؟

المعلم حنفي بتعجب:مجيتش فين لا مؤاخذة؟
ضايع بقهقهة:هنا في المستشفى، دمي عسل... يلا سلامو عليكو.

لم يكمل ضايع خمس دقائق من الوقوف، حيث سرعان ما تحرك ليعود إلى طبيعته المألوفة وسط الراقصات والحفلات الغنائية التي كانت تنبض بالحياة، وكأن عالمًا آخر يناديه. اتجه نحو الطابق السفلي، حيث كانت الأضواء تتلألأ والموسيقى تعزف بإيقاع سريع في رأسه، فتبعه جلال، متسائلًا في نفسه عن دوافع تصرفاته، وهو يناديه بصوت عالٍ يغمره التعجب، عاقدًا حاجبيه في استنكار، في محاولة لاستحضار انتباهه وإعادته إلى الواقع، قائلًا:
=وانت لحقت تقعد يا خالي؟ ولا جاي في المشهد ده ضيف شرف؟

ضايع:أشوفك بالليل في الكبارية، متتأخرش!

اختفى ظل ضايع بعدما نزل إلى الطابق الأول، حيث خرج من المستشفى متوجهًا نحو سيارته، التي كانت تحمل في كل زاوية منها صور النساء اللاتي سلبت أرواحهن على يده، وكأن كل صورة تروي حكاية مؤلمة من حكايات الموت. مد يديه نحو جهاز الصوت ليستمع إلى مهرجان شعبي بعنوان "بحر مانجا"، متذكرًا تفاصيل الحب واللحظات التي عاشها مع كل ضحاياه، بينما كانت الموسيقى تجسد له مشاعر مختلطة من الشغف والندم، وكأنها تدعوه إلى عالمه المُظلم الذي لم يستطع الخروج منه.
بينما في المستشفى، نهضت ليالي من مكانها، متشبثة بثوب زوجها، محاولة فهم ما قاله ضايع قبل مغادرته، وكم كانت متفاجئة وغير متوقعة أن يكون له علاقة بهذه الأماكن المشبوهة التي لطالما حذّرته من الاقتراب منها، ورغم نصائحها المتكررة له بالابتعاد عنها، لم تستطع منع نفسها من رفع صوتها بصخب، وجسدها كله يعبر عن الصدمة التي غمرتها، قائلة له:
_يا نهار أسود عليا، انت لسه بتروح كباريهات؟ أعمل فيك ايه؟ انت مفيش فايدة فيك وفي مشيك الشمال؟ قولتلك خالك ضايع ده هينزلك سابع أرض مسمعتش كلامي!

أم الديب الجزء الثالث

جلال بصياح:أوعي إيدك يا بت!

باعد جلال يده عن ليالي بعنف، وكأنما يرفض أن تتقرب منه في تلك اللحظة العصيبة، بينما كانت نبرة صوته تعبر عن اندفاعٍ قوي وكلماتٍ خرجت كالصواعق، متسارعةً دون توقف، تحمل في طياتها مزيجًا من الاستنكار والسخط، مما جعل الحضور حولهم يتوقفون لحظةً في دهشة:
_انتي هتألفي حوارات من نفوخك؟ ما جرا إيه يا ليالي؟ ما تعدي اليوم، وربنا هتخلوني أتجنن وأناملكم ملط هنا وهجرصكم في البلد!

ليالي بشك:وأنا كنت جيبت كلام من دماغي؟ مش ده كلام خالك؟
جلال بجلبة:ما تشوف حل معاها يابا، أنا دماغي تعبت منها والنسوان حواراتهم كتير مابتخلصش!

ابتعد جلال عن ليالي، وذهب بعيدًا عنها ليشعل سيجارته، معتقدًا أن دخانها يمكن أن يخفف من همومه ويدلّل روحه المرهقة، خاصةً بعدما عكرت زوجته صفوه وأثارت مشاعره الغاضبة، متجاهلًا تمامًا أنه في مستشفى، حيث كان من المفترض أن يسود الهدوء، وأن شرب السجائر ليس بالمكان المناسب، لكنه كان يركض خلف راحته على حساب الأجواء من حوله. بينما عادت ليالي للجلوس بجانب نعمة من جديد، محاولة أن تجد في وجودها بعض السكينة، في حين كان زياد وهايدي يتابعان النزاع بينهما باشمئزاز، وكأنهما لا يستطيعان تصديق ما يحدث أمامهما، وفجأة، ودون مقدمات، عادت نعمة لبكاءها مرة أخرى، مستذكرة آلام والدتها التي كانت تعاني منها، وكلماتها كانت تنزلق من شفتيها بألم، تعبر عن حزنها، ومشاعر العلة التي تسيطر عليها، قائلة بصوت متهدج:
_وحشتيني أوي ياما، هنعمل إيه من بعدك؟

نظر المعلم حنفي إلى ليالي، وقد تجلى في عينيه ذلك القلب الناصع الحكيم الذي يسعى دائمًا لتخفيف الأعباء عن كاهل من حوله، فتدخل بهدوء ليهدئ الأجواء المتوترة بين ليالي وجلال، مؤكدًا لها بلطف أن ضايع، عندما تلفظ بتلك الكلمات، لم يكن في وعيه ولم يقصد أن يجر جلال إلى تلك الأماكن المشبوهة التي تحوم حولها الشكوك، حيث استجمع شجاعته ليقول لها:
_مانتي عارفة يا ليالي إنه عامل دماغ عنب ومش دريان بيقول إيه، سيبك منه، انتي عارفة جلال جوزك ميطلعش منه العيبة مهما حصل!

ليالي بنواح:أه يا خوفي منكم.

بعد فترة من الانتظار المتوتر، خرج الطبيب والممرضة برفقة أم الديب، التي كانت تبدو في حالة من الإعياء، مشوشة الذهن وغير قادرة على استيعاب ما يدور حولها، بينما انطلقت من شفتيها شتائم عابرة تجاه ليالي، مما زاد من العداء. عندما خرجت، انتفض الجميع في المكان، باستثناء المعلم حنفي الذي بقي هادئًا في مكانه، مراقبًا المشهد. وفي خضم الفوضى، هرعت نعمة نحو الطبيب، قلقها واضح في

أم الديب الجزء الثالث

عينيها، ووجهها مشبع بالهلع، وسألته بلهفة عن حالة والدتها، متوسلة للحصول على أي أخبار مطمئنة، مما جعل الطبيب يطمئنها مؤكدًا أن الجرح قد تم خياطته، وأن والدتها ستكون بخير، وهو ما أثلج صدورهم جميعًا، بينما دعواتهم بالخير تنطلق من قلوبهم. بينما كان جلال يحاول فهم الموقف، تساءل عما إذا كان كل شيء على ما يرام، لكنه قوبل بنبرة استنكار من الطبيب، الذي بدا مستاءً من أسلوب جلال في الحديث، محاولًا التأكيد على ضرورة الالتزام بالأدب، ما أثار حفيظة جلال الذي لم يتقبل الانتقاد، مؤكدًا على شخصيته الصارمة التي لا تقبل الجدال. لكن الأمور بدأت تتصاعد، وعندما شعر المعلم حنفي أن مشاجرة قد تندلع، نهض من مكانه وسحب جلال بعيدًا عن الطبيب، عازمًا على تهدئة الأمور قبل أن تخرج عن السيطرة. حيث تجمع الجميع مرة أخرى في الغرفة، لتبدأ أم الديب في الكلام، وهي تبدو وكأنها تعيش في عالم آخر، تأثرت بالبنج الذي جعل كلماتها تتدفق بشكل غير مرتب، قائلة:

_ليالي دهي...

سألت ليالي بانزعاج، وعلامات الحنق تظهر على ملامح وجهها، وكأنها تترقب بفارغ الصبر ما قد يصدر عن أم الديب، متخوفة من توجيه المسبة إليها:

=مالها؟

أم الديب:أبوها سلامة دباح الحمير، ربنا يجحمه مطرح ماهو قاعد، ياكش يتشل وما يلاقوله علاج.

ليالي بغيظ:انشالله انتي واللي يتشددلك!

قالت نعمة لهم بعصبية، وقد تفجرت مشاعرها المترسبة نتيجة للضغط النفسي الذي عاشته في تلك اللحظات:

_ألاه في إيه؟ ما تهدوا على نفسكم!

ثم وجهت حديثها نحو أم الديب، والحب يغمر عينيها، وكأنها تحاول أن تُبث روح الأمل في تلك اللحظة العصيبة:

_انتي كويسة ياما؟

أم الديب دون وعي:أخوكم حنفي مات!

ضحك الجميع على حديثها، حيث كان واضحًا أن تأثير التخدير عليها كان قويًا، مما جعلها تثرثر بكلام غير مفهوم تمامًا، إذ كيف يُعقل أن يكون المعلم حنفي، زوجها، هو أخوهم المتوفي، وهو حي يرزق؟ بدا المشهد كوميديًّا بشكل غير متوقع، حيث قهقهت هايدي وزياد، مُعبرين عن اندهاشهم من تلك التصريحات الغريبة التي صدرت عنها، وكأنهم يرون في هذا الموقف مزيجًا من الفكاهة والحزن، بينما كان الضحك يملأ الأجواء، قالت هايدي:

_بابا فجأة كده بقى أخونا، سبحان الله.

زياد بضحك:فظيعة أوي مرات عمي دي.

هايدي بقهقهة:أوي.

أم الديب الجزء الثالث

بعدما قالته، كان الصمت هو الخيار الأنسب لتفادي أي مواقف محرجة قد تتسبب بها، إلا أن أم الديب ازدادت في التخاريف والهلاوس، وكأن الكلمات تتدفق منها دون أي وعي، لتوصيهم قائلةً بحماس مضطرب، وهي تخلط بين الأفكار والذكريات، عابرةً بين الماضي والحاضر، متحدثة عن أمور لا تمت للواقع بصلة:

_وصيتي ليكم تشيلوا الكوبايات اللي في الدكان وتحطوا بدالها أزايز!

ثم أوصت نعمة بالأخص، مُستشعِرةً أنها الأقرب إليها في تلك اللحظة، قائلةً لها بلهجة تحمل مزيجًا من الحنان والضعف:

=خبي الأزايز الصفرا يا نعمة!

نعمة بَشَده:وصية إيه؟ وكوبايات وأزايز صفرا إيه ياما؟

تلفظت ليالي بعبوس، دون أي لمحة من البشاشة، وكأن البغضاء تملأ قلبها، وهي تسخر من حماتها العليلة التي تسرد أشياء لا وجود لها في الواقع، مما جعلها تشعر بعدم الارتياح، وقالت إلى نعمة بنبرة حادة، تحمل في طياتها استهزاءً واضحًا:

_تأثير البنج متاخديش في بالك، ده لولا إنها متبنجة كان حسابها معايا هيبقى عسير على اللي قالته على أبويا.

نعمة:والنبي يا ليالي مانتي عارفة اللي فيها، البنج بيعمل عمايله برضة.
ليالي:مانا بقولك أهو علشان كده مخدتش على كلامها.
نعمة:أصيلة يا ليالي.

لم تُعِر ليالي أي اهتمام لكلمات أم الديب، فهي تدرك تمام الإدراك الحالة الحرجة التي تمر بها في تلك اللحظة العصيبة، وبعد دقائق معدودات، دخلت الممرضة، وهي تحمل بيدها الإبر المسكنة، لتمنح أم الديب بعض الطمأنينة في خضم آلامها ومعاناتها. وبعد انقضاء ساعة كاملة على سفر أحمد وجميلة وأم قمر الدين، وهم يجوبون الطريق بكل ما يحمله من مشاعر حزينة، وصلوا أخيرًا إلى قرية أبو حلاوة، حيث نزلوا من السيارة وشرعوا في دخول المستشفى بعدما أخبرتهم هايدي بمكان الغرفة، وما إن دخلوا حتى وجدوا العائلة متجمعة في تلك الغرفة الضئيلة، حيث كان بعضهم يجلس على المقاعد المصنوعة من الجلود السوداء، في حين كان الآخرون واقفين على أقدامهم، لا يعرفون كيف يتصرفون، مما جعل أحمد يسأل بقلق بالغ:

_إيه طمنوني، ماما عاملة إيه دلوقتي؟

أجابت نعمة بلهجة مغمورة بالطمأنينة، بعدما جفت دموعها التي كانت تتدفق بغزارة في لحظات الضعف، مستشعرةً ضرورة التماسك في مثل هذا الظرف اللصب:

_الحمدلله أحسن.

أم الديب الجزء الثالث

اقتربت أم قمر الدين من سرير أم الديب، متخطيةً كل الحواجز النفسية التي يفرضها عليها القلق، والتفتت نحو أبنائها، محاطةً بشعور من الرقة، وسألتهم بصوت يحمل عذوبة الكلمات:

=هاي ازيكم؟

أجاب البعض منهم، مفعمين بشعور من الارتياح، قائلين:

_كويسين.

نهضت هايدي بسرعة، وكأنها تتخطى حدود الزمن، لتتوجه نحو جميلة وأم قمر الدين، حيث احتضنت جميلة أولًا بكل حنان، وسألتها بصوتٍ مكتظ بالحُب:

=عاملة إيه يا جميلة؟

جميلة:الحمدلله يا حبيبتي بخير.

سألت هايدي أم قمر الدين، مبتسمةً ابتسامة طفيفة تحمل في طياتها التبجيل:

=ازي حضرتك يا طنط؟

أم قمر الدين:الحمدلله، مامي عاملة إيه دلوقتي؟

أجابت نعمة، التي لم تتمكن من النهوض بسبب جنينها الذي أثقل جسدها وجعلها أسيرة الألم، حيث أحاط بها العجز، مما منعها عن الحركة بحرية:

=الحمدلله يا ست بسملة، اتفضلي اقعدي!

أم قمر الدين برقة:ميرسي.

جلست أم قمر الدين بدلًا من هايدي، ووضعت ساقًا تلو الأخرى في حركة تعكس نوعًا من الغرور غير المقصود. لم تقتنع بما حدث لأم الديب، تلك المرأة التي كادت أن تفقد حياتها على يد الثور، لكن شاء القدر أن تنجو من قبضة الموت. نظرت إلى نعمة، وعينيها تتقدان بالتساؤلات، فقالت لها:

_حاجة غريبة أوي اللي حصلت لأم الديب دي!

نعمة:عندك حق يا ست بسملة، بس أهو قدر ومكتوب، هقول إيه بس قليل البخت يعضه الكلب في المولد.

أم قمر الدين:أوه ماي جاد، بجد مش قادرة أستوعب اللي حصل ده، إيه اللي جاب الكائن ده أصلًا عندكم؟

نظرت هايدي إلى ليالي بنظرة مقصودة تحمل في طياتها معاني ظاهرة، وهي ترد على أم قمر الدين، قائلة:

_الخير والبركة كلها ترجع لليالي.

أم الديب الجزء الثالث

نهضت ليالي، وصرخت في وجه هايدي، حيث أزاحت الستار عن سرها الذي كان مخفيًا أمام سلفتها ووالدتها، مفعمةً بالعواطف الجياشة، وقالت لها بعجيج حار، يفيض بالانفعالات المتضاربة:
=مالك ومالي يا هايدي، قارشة ملحتي ليه؟

هايدي:مش ده اللي حصل برضة ولا أنا بألف؟

تدخل جلال في الحديث، محدثًا ضجة بصياحٍ مرتفع يعبّر عن استيائه، قائلًا:
_انتوا مابتحرموش؟

لم يقتصر التدخل على جلال فقط، بل شارك أحمد أيضًا، معبرًا عن استيائه من شجارهم الذي اندلع في أروقة المستشفى، فقال بوجه عابس، تظهر عليه مؤشرات الانزعاج:
_لا بقولكم إيه استنوا لما أمشي واعملوا اللي انتوا عايزينه، أنا جاي مش ناقص مشاكلكم!
نهض جلال، وهو يصرخ بصياح جارف يعبر عن عاصفة من السخط، متوجهًا بحديثه نحو زوجته وأخته، اللتين كانتا في خضم مشاجرة عارمة، دون أن تكترثا لوجوده بينهما، كأنه صوت رعدٍ يقطع سكون الغرفة، وانفجر قائلًا:
_ماهو العيب عليا مش عارف أسكت اتنين نسوان بس أنا هعرف أسكتهم كويس!
تضايق زياد بشدة من أجل هايدي، إذ لم يستطع أن يتحمل سماع كل هذا الصراخ الموجه نحوها، حتى وإن كانت في نظرهم مذنبة. فهي في حضوره دائمًا محمية تحت ظلاله، كأنها تجد في وجوده الملاذ الآمن من قسوة الحياة. كان زياد بالنسبة لها الأمان الأول والأخير، بعد أن عانت من خذلان أسرتها المتكرر، خاصةً من الوالدة وجلال، اللذين لم يرحماها في أشد لحظاتها ضعفًا. وفجأة، كأن الدماء بدأت تغلي في عروقه، ولكنه تحكم في انفجار مشاعره، وتحدث مع جلال بصوت يحمل احترامًا ظاهرًا، رغم أن مشاعره الداخلية كانت تشتعل بالغضب المكتوم، قائلًا:
_لو سمحت يا جلال ملكش دعوة بهايدي!

جلال بصياح:وانت مالك ياض؟ إيه حشرك ما بينا؟ طب احنا أخوات وبنتكلم، انت مالك؟

لأول مرة تنشأ مشكلة بين جلال الصاخب وزياد، وكانت السبب هايدي، تلك المرأة التي طالما شكلت مصدر الراحة والأمان لزياد. لم يطق زياد أن يتحدث معه أي شخص بهذه الطريقة المُهينة، خاصة بعدما أحرجه جلال قبال الحاضرين بصراخه الغاضب. كانت كلماته تغمر الأجواء بالصخب، مما جعله يشعر بالانكسار. لم يدرك زياد بنفسه كيف نهض في صمت ثقيل، وكأن ثقل العالم كله على كتفيه، متجهًا نحو باب الغرفة ليغادرها. وما إن خرج حتى تبعته هايدي، وقد فاض قلبها بالقلق عليه، وأحمد سار خلفهما بأقصى سرعة، يحاول اللحاق بهما. كان زياد يسير بخطوات متثاقلة، وملامحه متجهمة، غارقة في الحزن، بينما هايدي نادته بصوت مرتعش، خائفةً عليه من أن يستسلم لموجة الاستياء التي تطغى عليه، قائلة:
_استنى بس يا زياد متمشيش، استنى طيب، مانت عارف إن جلال حلوف ومبيختارش كلامه!

أم الديب الجزء الثالث

ناداه أحمد هو الآخر، بصوت يحمل في طياته مزيجًا من القلق والحزم، محاولًا تهدئته قبل أن تتفاقم الأمور، قائلًا:
_استنى يا زياد طيب، متاخدش على كلامه!
داخل الغرفة، جلست ليالي بكل غرور، تتحدى بنظراتها جميلة، وكأنها تستعرض تفوقها بصمت، وفي الزاوية الأخرى، كانت أم الديب تعاني من آلامها، وظهرت عليها دلالات الإعياء الشديد، لتسأل جميلة عن سبب غياب الصبيان، رغم أن ذهنها لا يزال مشوشًا بالأحداث الأخيرة. لكن نعمة، التي كانت تحاول تهدئتها، ذكرتها بأنهما ليسوا الصبيان هما فتاتان: سيليا، وأسيل، وأنهم ليسوا هنا.
في الوقت ذاته، أكدت أم قمر الدين أنهم تركوا الأطفال في الفيلا مع نالا ومنى، وحاولت تحويل الحديث عن حالتها الصحية، متسائلة ما إذا كانت أم الديب تشعر بتحسن. ولكن وسط هذه الأجواء المشحونة، وقع حدث آخر: رن هاتف جلال. على الجانب الآخر من المكالمة، ورد صوت غامض، ما دفع جلال إلى الخروج بسرعة بعدما أخبره المتصل أن موظفي الصحة في طريقهم إلى المحل. أسرع جلال إلى المحل ليفتح لهم، وعندما دخلوا وبدأوا بفحص المنتجات المتواجدة، اكتشفوا كارثة. فقد تبين أن العصائر الموجودة في المحل ملوثة بشيء خطير، مما ينذر بمشكلة كبيرة قد تقع، حيث سأل جلال مفتش الصحة بقلق:
_إيه يا باشا مالك متنح كده ليه؟

المفتش بشك:العصاير دي معمولة من بول الحمير.
جلال بفزع:يا خبر أسود، انت بتقول إيه يا عم؟
المفتش بعصبية:زي ما بقولك المواد دي ضارة، ازاي بتتحط وسط العصاير؟ أنا هقفلكم المحل ده ووروني هتفتحوه تاني ازاي!

أخبر الضابط مفتشي الصحة بجمع كل الزجاجات دون تأخير، مؤكدًا على ضرورة تحويلها إلى المعمل فورًا لإجراء التحاليل اللازمة، حيث كانت نبرته مشحونة بالحزم والجدية، وكأنه لا يسمح بأي تهاون في الأمر، قائلًا:
_يلا خدوا الأزايز البقية دي علشان هتتحلل!

أما عن جلال، فقد شعر وكأنه في حلم لا يصدقه، تتلاطم أفكار غير منطقية في عقله، وكأن كل ما يجري حوله هو مجرد مشهد درامي. كيف يمكن لوالدته، التي كانت تمثل له رمز الأمان، أن تستخدم هذه المواد الضارة في مشروعها؟ كانت هذه الفكرة تتقافز في ذهنه ككائن غريب لا يمكن تجاهله. ومع مرور الوقت، لم يصل إلى إجابة مرضية، ولكنه أدرك أن الجواب الحقيقي يكمن في أعماق نفس أم الديب، حيث تتجلى رغبتها العميقة في الانتقام من كل البشرية، كأنها تسعى لتدمير كل من حولها، وترغب في إلحاق الأذى بهم حتى يصابوا بأمراض حادة لا علاج لها. كان جلال ينظر إلى والدته، التي ارتبطت بابنتها نعمة، بينما تباعدت عن بقية أبنائها، وزوجها، وأسرتها بالكامل، وحتى الجيران، وكأنها تحيط نفسها بجدران من العزلة، وتبتعد عن أي شخص قد يعيق خططها الخبيثة. أما بالنسبة للطعم المخفي الذي لا يدل على وجود أي مواد ضارة، فقد كانت خطواتها مدروسة بعناية، حيث بدأت باختيار

أم الديب الجزء الثالث

المكونات القوية التي من شأنها إخفاء أي أثر غير مرغوب فيه. ثم أضافت إليها مواد كيميائية، وكأنها تصنع وصفة سرية مخصصة، تلتها عملية تخمير خاصة تُحسّن من التركيبة، وخلطتها بمكونات حمضية تعزز من النكهة. وبعدها، أضافت مكونات حلوة مركزة، مثل العسل أو الشراب السكري، لتضفي على المشروبات طعمًا لذيذًا يشجع الزبائن على التهافت عليها دون أدنى شك في مكوناتها. وفي النهاية، استخدمت توابل قوية تلاشى معها الطعم الأصلي تمامًا، ليصبح المشروب شيئًا بعيدًا عن المألوف، يحجب كل ما هو ضار. بينما كانت الشرطة تقوم بجمع الزجاجات، كانت الصدمة تعصف بجلال كعاصفة هوجاء، فقد كان في حالة من الارتباك، يسترجع كل لحظة عاشها مع والدته، وكل نظرة مكر كانت تلقيها تجاهه، ومع أن الحيرة كانت تسيطر عليه، تمكنت الشرطة من إغلاق المحل من الخارج، واستدعت جلال إلى القسم، حيث كان لا يزال في حالة من الصدمة، كما لو أنه غارق في دوامة من الأفكار المُتضاربة، لا يعرف كيف سيواجه الحقيقة التي تتكشف أمامه، حيث قال في نفسه:
_يا نهار أسود هو اللي أنا سمعته ده بجد ولا بحلم؟ آه أتاريها كل ما بتلاقي حد بيقرب من التلاجة كانت تزعق.
في زحمة الذكريات، استرجع جلال لحظة قديمة تجسدت في ذاكرته كصورةٍ ثابتة. كان يحاول إخراج المشروب من الثلاجة لتقديمه للرجل الذي ينتظره، لكنه لاحظ أن والدته، أم الديب، لم ترد على حديثه. عندما اقترب من الثلاجة محاولاً فتحها، تدخلت أم الديب بعصبية لتمنعه. رغم استغرابه من موقفها وتصرفها الصارم، واصل جلال التساؤل عن سبب هذا المنع. أم الديب أصرت بقوة على موقفها، مشددة على أن الثلاجة لا ينبغي أن تفتح بأي حال من الأحوال. انتهى الأمر بجلال وهو ينظر إليها باستغراب دون أن يفهم السبب، وحينما عاد للواقع قال بتفهم:
_بقى بتستغفليني ياما؟ أتاري في مصايب بتتعمل من ورا ضهرنا، بس على مين؟ أديكي اتكشفتي.

ولما وصلوا إلى معمل التحاليل، حيث تكتظ الآلات بألوانها اللامعة، وشرعوا في تحليل عينات من كل زجاجة، اكتشفوا أن هذه المواد، التي بدت عادية في مظهرها، تحمل في طياتها خطرًا جسيمًا مستمدًا من الحيوانات، وهذه النتيجة، بحد ذاتها، تمثل معضلة كبرى تثير الاضطراب. حينها، سأل جلال فني مختبر الأغذية، وقد تملكته الدهشة:
_إيه طلع إيه؟

فني الأغذية:ده بول حمير وحصنة.
جلال بصراخ:يا نهار أسود بستين نيلة، بقى ياما بتلعبي في عداد عمرنا؟ عايزة تقضي علينا؟ يا ليلة سودة، ده آني كنت كل يوم بشرب إزازة، انت متأكد يا عم من الكلام ده؟
فني الأغذية بجلجلة:إلا متأكد... ده انتوا هتروحوا في ستين داهية، بقى بتبيعوا للناس عصاير مُضرة بالصحة؟ وديني لأوريكم !
جلال بانفعال:وأنا مالي يا جدع انت؟ أنا كنت كل اللي بعمله ببيع وبس، أمي هي اللي كانت بتعمل كل حاجة ومش عايزة حد يمد إيده في اللي بتعمله .
فني الأغذية بحدة:الكلام ده تقوله في القسم مش هنا!
جلال بغيظ:ماشي ياما، بقى بتلعبي بديلك وفي الآخر احنا اللي نلبس في الحيط؟ ماشي.

لقد وقع جلال ضحية الفخ، إذ أُلقي القبض عليه من قِبَل الشرطة بتهمة التعامل مع منتجات فاسدة، مما أوقعه في متاهة من المخاوف. وهناك، وقف أمام الضابط في مكتبه، حيث كان الإحراج يكتنفه، ولحظات التوتر تسكن الأجواء. وقد نظر إليه الضابط بفظاظة، محاطًا بهالة من السلطة، وسأله بصوت عميق يعبّر عن الاستنكار:

_مين اللي ماسك المنتجات وبيقوم بتصنيعها؟

جلال:أمي، أمي هي اللي ماسكة كل حاجة أنا يا دوب ببيع وبس، مليش دخل في العصاير والحلويات اللي بتتعمل.
الضابط بسخرية:يعني انت متعرفش إن العصاير دي فيها مواد حيوانية ضارة؟
جلال:يا باشا ربنا عرفوه بالعقل... أنا راجل عندي تلاتين سنة وعندي عيلين ومعايا دبلوم يعني متعلم... هعمل كده ليه؟ وإيه هيخليني أحط الحاجات دي في العصاير؟ مانا كده بضر نفسي ومراتي وعيالي قبل ما أضر الناس، يا باشا أنا كل يوم كنت بشرب إزازة، هو أنا لو أعرف إنها مضرة كنت شربت منها أنا والعيال؟
الضابط بحصافة:واحنا إيه ضمنا إنك بتشرب منها؟ مش يمكن بتحور؟
جلال:يا باشا مش أنا اللي اعمل كده، أمي هي سبب المصايب... منك لله ياما مفيش مرة مشينا وراكي ومغرقناش، ياريتني ما مشيت وراكي ده كان يوم أسود.

ندم جلال على قراره بمشاركة والدته في المشروع، إذ كان هذا القرار قد قاده إلى مأزق كبير. في المستشفى، اجتمع الجميع حول أم الديب، منتظرين بفارغ الصبر لحظة استيقاظها من تأثير البنج. كانت أم الديب تَظهر بتعب جلي، وكأنها تحمل هموم العالم على عاتقها، لكن روحها كانت لا تزال مشرقة. بينما تبادلت الأحاديث بينهم، أبدت أم الديب اهتمامًا بحالة المحل، متسائلة عما حدث، وعندما علمت بخبر تدميره، انفجرت في النواح، وهي تعبر عن شقائها ومعاناتها، مطالبةً الآخرين بمساعدتها واستعادة حقها. في الأثناء، حاولت أم قمر الدين تهدئتها، مؤكدةً أن كل شيء مكتوب ومقدّر عند الله، وأن عليهم أن يثقوا بمشيئته. في خضم ذلك، كانت ليالي تُفكر في سرها، ملاحظةً أن بسملة "أم قمر الدين" تتحدث بينما هي، وابنتها مرتديتان ملابس غير محتشمة. رغم الأجواء التعيسة، حاولت نعمة أن تُخفف من وطأة الموقف، مُشجعةً أم الديب على التفكير في مستقبل أفضل. وعبرت عن أملها في أن يُعوضها الله بشيء أفضل، مُؤكدةً على أهمية وجودها وسطهم. تفاعلت أم قمر الدين بتفاؤل، داعيةً الله أن يحفظ لهم والدتهم ويظلوا مجتمعين، بينما كان جلال في الجانب الآخر، يحاول الاتصال بزوجته، مُعبرًا عن قلقه، وندمه في آن واحد. سألته ليالي:

_ألو يا جلال، عملت إيه؟

جلال:أنا في القسم وانتي وأمي مطلوبين.
ليالي بنواح:يا نهار أسود وأنا مالي يا جلال؟ بتدخلوني في حواراتكم دي ليه؟

جلال بارتباك:أنا مش عارف أتصرف، بقولك إيه اتصلي بخالي أبو محمد وقوليله ولا خلي نعمة تكلمه قبل ما أروح في داهية.
ليالي:طيب يا جلال حاضر، اقفل دلوقتي.

لاحظت نعمة صراخ ليالي المتصاعد وهي تتحدث مع جلال في الهاتف، مما أثار في نفسها شعورًا غائرًا بالاضطراب. فتوجهت إليها بسؤال يحمل في طياته الاهتمام، قائلة بقلق:
_في إيه يا ليالي؟

ليالي بدموع غزيرة:جلال في القسم وأنا وأمك مطلوبين معاه.
نعمة بصراخ:يا نهار أسود! ليه إيه اللي حصل؟
ليالي:والله ما أعرف يا نعمة، طب أمك هتروح ازاي وهي متكسحة؟
نعمة:مش عارفة، طب أنا جاية معاكي، ربنا يستر.

قالت أم قمر الدين، وقد بدت عازمة على تقديم المساعدة: إنها قادرة على إخراجهم من أي مأزق، مشيرةً إلى أنها لا تستطيع أن تظل غير مبالية وهي ترى من حولها في حالة من الاضطراب. وردت نعمة بكلمات تحمل الدعاء. عبرت أم قمر الدين عن مشاعرها، مُؤكدةً على قوة الروابط الأسرية التي تجمعهم. ثم التفتت جميلة، تسأل والدتها عن وجهتها، لتعلم أنها ستذهب لحل المشكلة مع الآخرين، تاركةً ابنتها في المستشفى. بدت جميلة قَلِقة، وطلبت من والدتها أن تعتني بنفسها. بينما كانوا في طريقهم للخروج من الغرفة، صادفوا أحمد وهايدي، الذين كانا يتقدمان نحوهما. استغرب أحمد من وجهتهم، ليكتشف أن جلال، شقيقه، محتجز في مركز الشرطة. ولم يكن أمامه خيار سوى مرافقتهم في هذه المغامرة. أما هايدي، فقد كانت في داخلها تتساءل عن الجديد في هذه الأحداث، حيث بدت لها الأمور تتجه نحو النهاية نفسها. عندما وصلوا إلى قسم الشرطة، بدأت الأمور تتجه نحو التحقيق مع ليالي، بينما انتظر الجميع في الخارج بقلق، متلهفين لمعرفة ما سيحدث، وفي تلك الأثناء، كان الضابط في القسم يجلس وينظر إلى ليالي، آمرًا إياها بالجلوس، وبعدما جلست، أخبرها بقوله:
_احنا لقينا فضلات الحيوانات في منتجاتكم ودي كارثة بتهدد الصحة العامة للشعب.

ليالي بصراخ:يا لهوي فضلات حيوانات مرة واحدة؟ ودي جات منين وازاي بس؟
الضابط:ماهو إجابة السؤال ده هنعرفه منك.
ليالي بنحيب:والله العظيم يا حضرة الظابط ما أعرف الكلام ده جه منين، أنا كل اللي كنت بعمله في الدكان شوية بسبوسة على كنافة على جاتوه، إنما والله ما أعرف جه منين!
الضابط:المواد السامة دي لقيناها في العصاير يا أستاذة ليالي.
ليالي:والله يا حضرة الظابط حماتي هي اللي كانت ماسكة العصاير، أنا أه كنت بعمل شوية بس معرفش دي جات منين، حماتي معروفة في المنطقة عندنا بالعك إكمنها بتحط أي حاجة فوق التانية المهم تبيع وخلاص.

أم الديب الجزء الثالث

الضابط بدهشة:يعني انتي وجوزك متعرفوش حاجة عن الموضوع ده؟
ليالي:أه والله ده اللي حصل احنا مبنكدبش في حاجة.
الضابط بفضول:وحماتك فين؟
ليالي:حماتي في المستشفى إكمن دخل علينا طور ضخم دمرلنا الدكان وقرنه دخل في بطن حماتي ومن ساعتها وهي متلقحة في المستشفى.
الضابط:تفتكري ده عائق بالنسبالنا؟
ليالي بتعجب:ازاي يا باشا؟
الضابط بقسوة:هناخد أقوال حماتك حتى لو ميتة وفي تربتها، احنا مبنهزرش!
ليالي باستياء:وأنا كنت اتكلمت؟
كانت ليالي تتمنى بشدة أن تنشق الأرض وتبتلعها، بعدما ازدادت الأمور تعقيدًا، وكأنها تواجه طلقات المدفع في مواجهة مصير مظلم. كانت تشعر بأنها محاطة بالضغوط من جميع الجهات. بينما حماتها، التي كانت سببًا في كل هذه المتاعب، نائمةً على جناح الأمان بعيدًا عن الأجواء المتوترة التي تمر بها.
وفي تلك اللحظة الحرجة، طُرق الباب بقوة، ودخل العسكري، حاملًا معه نبأ قد يغير مجرى الأحداث.
أخبر الضابط بوجود أم قمر الدين وأحمد في الخارج، وهو يحمل في صوته نغمة جادة، قائلًا:
_في حد مهم عايز يقابل حضرتك دلوقتي حالًا يا فندم.

الضابط:خليه يتفضل.

دخلت أم قمر الدين، بخطوات ثابتة، ومعها أحمد، الذي بدا متوترًا، و دلالات القلق جلية على وجهه، وعندما لمح الضابط دخولها، انتابته حالة من الارتباك، فنهض في مشهد يشي بالتوتر المتبادل.
كان يحاول أن يبدو مبتسمًا، رغم أن قلبه كان ينبض بسرعة، وهو يمد يده للسلام على أم قمر الدين، مُحاولًا إظهار الاحترام في حين كانت عينيه تحملان بعض الخوف من رد فعلها. كانت أم قمر الدين تحملت كثيرًا من الضغوطات، وبدت كالجبل الراسخ، عازمةً على مواجهة هذه الأزمة بشجاعة، وقد نطق الضابط:
_يا أهلًا وسهلًا، معقول أستاذة بسملة ذات نفسها منورانا في القسم؟ يا أهلًا وسهلًا، اتفضلي !

أم قمر الدين بابتسامة:ميرسي.

جلست أم قمر الدين قبال ليالى، حيث صرخ الضابط مُطالبًا ليالي بالنهوض، مشيرًا إلى أنها لا تزال جالسة في مكانها. نهضت ليالي ببطء، مستغربة من صراخه، بينما أبدت بعض الاعتراض على الطريقة التي يتم بها التعامل معها، مُعبرةً عن انزعاجها وموضحةً أن هؤلاء الأشخاص هم من عائلتها.
دخلت أم قمر الدين في النقاش، مشددة على أهمية صلة القرابة، لكنها كانت تدرك أن ذلك لن يفيدهم في حل المشكلة الحالية. أرادت أن تنتقل إلى النقاط المهمة التي تتطلب اهتمامهم. في تلك الأثناء، كان الضابط يحاول السيطرة على الوضع، واستفسر عن سبب وقوف أحمد. ثم نظر إليه باستغراب، متسائلًا عما إذا كان هذا هو ابن السيدة بسملة، وعندما نفى ذلك، مُشيرًا إلى أنه زوج جميلة ابنة أم قمر الدين،

أم الديب الجزء الثالث

أبدى الضابط ارتياحًا وبدأت تعابير وجهه تتغير، مُرحبًا بهم. أظهر الضابط حفاوة في ترحيبه، مُقترحًا عليهم تناول أي مشروب، لكن أحمد في المقابل رفض عرض الضيافة، مُشيرًا إلى عدم رغبته في تناول أي شيء، وبدأ يستعد لما قد يحدث بعد ذلك، وهو يأمل في أن تنتهي هذه الزيارة دون أي مضاعفات غير متوقعة، فاستفسر قائلًا:

_أنا عايز أفهم إيه اللي لاقيتوه عند ماما؟

الضابط:يا فندم احنا لقينا مواد ضارة جدًا بتهدد الأمن الصحي للمواطنين ودي كارثة مينفعش تعدي كده بالساهل!

أخرجت أم قمر الدين رزمة من الأموال من حقيبتها، التي كانت تعج بالكثير من النقود، عازمةً على حل المشكلة وإخراج ليالي وجلال من القسم بسلام. لكن هذا الفعل أحيا شعورًا سيئًا في نفس أحمد.
فقد كان يرفض تمامًا فكرة أن تدفع حماته حتى ولو ربع جنيه على شيء يتعلق بعائلته، إذ شعر أنه هو الأولى بهذه المسؤولية، وأن هذه النقود تمثل كرامته. تغيرت نظراته، وتملّكته مشاعر الاعتراض القوي. حيث وضع كبرياءه في المقام الأول من حياته، أدرك أنه لا يمكنه السماح لهذا الأمر بالمرور دون تعليق. فقد كان يسعى للحفاظ على مكانته كرجل العائلة، متمسكًا بفكرة أن الأعباء يجب أن تتحملها الأكتاف القوية، التي لم تُخلق لتمرير المال دون تقديرٍ ودون اعتزازٍ بالنفس.

يتبع.....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الثامن عشر

شعر أحمد بمدٍّ من الفخر والرجولة يتغلغل في أعماقه، بينما كانت يد أم قمر الدين تمتد نحو الضابط، تحمل بين طياتها رغبة صادقة في إنهاء هذه الأزمة المزعجة، ومتقدمة بأموالها دون تذمر، في موقف ينم عن سخاء لا يضاهى. إلا أن هذا المشهد أشعل في قلب أحمد نار الكبرياء، فاندفع رافضًا رفضًا قاطعًا، وكأنما رفضه ذاك كان نابعًا من أعماق كرامته التي لا ترضى إلا بالعزة. وبرجولة صافية قال لها، وفي عينيه بريق الشهامة:

_لا يا طنط والله ما يحصل، أنا اللي هدفع.

أم قمر الدين بإصرار:لا بليز سيبني أتصرف، لازم المشكلة دي تنتهي.
أحمد برفض:يا طنط مش هينفع، اسمعي الكلام لو سمحتي!

أعادت أم قمر الدين الأموال إلى مكانها داخل حقيبتها بتأنٍ، وكأنها تسلمت رسالة غير منطوقة من زوج ابنتها، فاختارت أن تطيعه عن طيب نفس، رغم أنها كانت قادرة على دفع المزيد دون أن تشعر بأي مشقة. وفي تلك اللحظات، كان أحمد يستجمع كل ما تبقى لديه من أموال في جيوبه، وكأنما كان يبحث بين تلك الأوراق النقدية عن كبريائه الذي لا يسمح له أن يمد يده لأحد، خصوصًا أمام حماته التي تمثل له رمز الاحترام. دفع النقود للضابط بيدين واثقتين، وقال بنبرة رجاء مختلطة برغبة في إنهاء هذه المعضلة:

_ياريت نحل الموضوع ودي وبلاش يكبر أكتر من كده .

الضابط ببشاشة:والله هو هيتحل وبدون أي حاجة، كفاية إن أستاذة بسملة جات نورتنا هنا.

بعد أن استلم الضابط الأموال ووضعها برفق في درج المكتب، رفع نظره نحو أم قمر الدين بنظرة عميقة تمتلئ بالاحترام، ثم سألها عن زوجها "باسم"، رجل الأعمال الشهير الذي تجاوزت سمعته حدود الوطن لتغمر العالم العربي بأسره. يعرفه الجميع في كل بلد زارته إنجازاته العظيمة على مدى الثلاثين عامًا الماضية، حيث شيّد أكبر مؤسسة بنكية في مصر، وأسس إثنى عشر مصنعًا عملاقًا، من الحديد والصلب إلى الأقمشة والنسيج، وصولًا إلى المنتجات الورقية والبلاستيكية. ولم تتوقف إنجازاته عند هذا الحد؛ فقد أقام مستشفى القلب بالرياض، وسلسلة مطاعم شهيرة لم يكن لها نظير، بالإضافة إلى مول ضخم في مدينة الشيخ زايد، وثلاثة معارض سيارات يديرها مرؤوسون كانوا في بداية رحلتهم نحو الثراء. أما تبرعاته، فهي فصل آخر من كرمه الذي لا يعرف حدودًا، فقد كان يفيض بالأموال، والثياب، والزواج لليتامى، ليصبح أيقونة في العطاء. وحديثًا، أسس قناة تلفزيونية باتت تنافس أكبر القنوات الإعلامية، ما جعله رجلًا بلا حدود في ثروته، ورغم كل هذا الغنى الذي يبدو أقرب إلى الخيال، لم يكن "باسم" أبدًا من أولئك الذين تغرهم الأموال. بل على العكس، كان مثالًا للتواضع، وعندما تحدث الضابط إلى أم قمر الدين، بدا الاحترام في صوته واضحًا وهو يقول لها بتبجيل:

=أستاذ باسم أخباره إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

أم قمر الدين بابتسامة:الحمدلله بخير .
الضابط بتبجيل:لازم توصليله سلامي ضروري.
أم قمر الدين بابتسامة:أكيد طبعًا.

نهضت أم قمر الدين بهدوء، والابتسامة الرقيقة ما زالت تزين وجهها كأنها شمس مشرقة، لا تنطفئ حتى في اللحظات الحرجة. كانت خطواتها مليئة بالوقار، غير مكترثة بأي نظرات قد توجه نحوها. ولكن تلك الابتسامة كانت كالوقود الذي أشعل نار الغيرة في قلب ليالي، التي قد بدا عليها الانزعاج العارم، فلم تعد قادرة على كتمان مشاعرها المُتضاربة، وبصوت حاد يشوبه الغيظ، التفتت إلى الضابط وقالت له بوضوح لا يخلو من الاستياء:
_وأنا هفضل واقفة كتير ولا إيه؟

الضابط ببسمة:اعتبروا الموضوع اتحل ومفيش أي حاجة حصلت.

تلفظت أم قمر الدين بابتسامة هادئة، وكلماتها خرجت مصحوبة بنسيم رقيق يخفف من ثقل المشكلة:
_ميرسي.
نهض الضابط بسرعة وكأن الموقف قد أخذ منحى جديدًا يتطلب الحسم، ثم نادى بصوت جهوري يملأ المكان، وكأنه يأمر كل من حوله بالتحرك الفوري. علت نبرته الآمرة وهو ينادي على العسكري، قائلًا بصوت شديد الوضوح:
_انت يابني، يا عسكري !
حضر العسكري على الفور، وكان ينتظر أسفل قدمي الضابط مثل جني يستجيب للأوامر دون تردد. كان جسده منتصبًا في وقفة عسكرية صارمة، ويداه مرفوعتان عاليًا في تحية تُظهر أقصى درجات التبجيل. نظر إليه الضابط بنظرة ثابتة، ثم قال بحزم لا يقبل النقاش، وصوت ينم عن سلطة مطلقة:
_بلغهم يشيلوا التشميعة من على المحل!

العسكري:أوامرك يا باشا.

خرج العسكري من الحجرة بسرعة وهو يعي تمامًا أهمية الموقف، متوجهًا ليأمر زملاءه بإزالة الشمع من على صاج المحل، مما يمهد الطريق لجلال ليعود لممارسة عمله من جديد بشكل طبيعي، وكأنما تتجدد الحياة من حوله. حينها، استدار الضابط نحو أم قمر الدين، وظهرت على وجهه بشاشة تحمل الكثير من الطمأنينة. وبنبرة خافتة لكنها تحمل معاني كثيرة من الود، قال لها:
_بجد نورتونا أوي، النقطة كلها نورت بمجرد ما حضرتك شرفتينا هنا.

أم قمر الدين ببشاشة:ميرسي، مش عارفة أشكرك ازاي.
الضابط بود:متشكرنيش يا بسملة هانم، احنا بنعمل اللي نقدر عليه.

أم الديب الجزء الثالث

قال الضابط لأحمد بوقار، والابتسامة تعلو وجهه كفجر جديد ينشر أشعة الأمل:
_نورتنا يا فندم.

أحمد بابتسامة:شكرًا.

استجمع أحمد عواطفه وأطلق نداءً لطيفًا لأم قمر الدين، داعيًا إياها للانطلاق، ليعبروا معًا إلى خارج القسم، بينما كانت ليالي تتبعهم، مثل ظلال تراقب الموقف. في هذه الأثناء، كانت نعمة قد انتظرت بفارغ الصبر عودتهم، وعندما رأتهم، ارتسمت على وجهها علامات القلق، فبادرتهم بسؤال يحمل الكثير من الفزع، تطلب طمأنتها حول ما حدث. عبرت أم قمر الدين عن ارتياحها قائلة إن المشكلة قد حُلت بالفعل، مما جعل نعمة تحتضنها بعاطفة جياشة، معبرة عن امتنانها لشخصيتها الطيبة وكرم أخلاقها، في حين كانت الكلمات تتدفق من قلبها مثل نهر عذب. نصحتهم أم قمر الدين بأن يبلغوا والدتها بقرار حل المشكلة، وقدمت لهم نصيحة صادقة بأن يبتعدوا عن المشاريع التي لا يفهمون فيها جيدًا، وبدلًا من ذلك، يركزوا على ما يجيدونه. أعربت أم قمر الدين بدعواتها الصادقة أن يكون الله معهم في مسيرتهم، لتأتي إجابة نعمة متمنيةً الرزق لهم، وفي هذه الأثناء، دار حوار خافت بين جلال وأحمد حول ما حدث خارج الحجرة، ليكتشفوا أن أحمد قد دفع الكفالة، رغم رغبة أم قمر الدين في القيام بذلك. لكن جلال عبّر عن أسفه لقرار أحمد، مشيرًا إلى أنه كان بإمكانه الاحتفاظ بالنقود لوقت آخر، لكن أحمد تمسك بمبادئه، مؤكدًا أنه لا يقبل بما يتعارض مع قيمه، وبعد تصاعد الأحاديث، خرج أحمد مع زوجته وحماته من المستشفى، مُتجهين نحو منازلهم في المدينة بقلوب ملآنة بالأمل، بينما كانت أم الديب مغمورة في آلامها، نائمة على سريرها في منزلها، غمرها الهدوء الذي ساد الغرفة، تجمع حولها أبناءها الذين كانوا يراقبون حالتها، عدا أحمد الذي قرر العودة إلى منزله بعد يومٍ طويلٍ مليء بالأحداث. قررت نظرات المعلم حنفي أن تتوجه نحو الأبناء، فبادرهم بكلمات تحمل في طياتها حِكمة وتجربة الحياة، مؤكدًا لهم أهمية إنهاء هذا المشروع الذي جلب لهم الكثير من المتاعب. أطلق المعلم حنفي صوته بحزم، قائلًا:
_على الله أسمع حد فيكم بيقول عاوز يفتح مشاريع وزفت، ده على رأي المثل إدي العيش لخبازه ولو أكل نصه!

أيدت نعمة حديث والدها بعبارات تعكس فهمها لما يجري حولهم، مشددة على ضرورة التركيز على ما هو أكثر أهمية في حياتهم. فقالت بحزم:
=عندك حق يابا ده الصح .
ثم وجهت نعمة حديثها نحو أم الديب، وقد ملأتها مشاعر القلق، والحب في آن واحد، فسألتها برقة:
_ولا انتي عندك كلام تاني ياما؟

أم الديب:معنديش ياختي، يا ترى انت فين يا سلامة؟

ضحك جلال بسخرية، ثم سأل أم الديب بقوة قلب :

أم الديب الجزء الثالث

_هو أنا مقولتلكيش ياما؟

أم الديب:مقولتش إيه؟
جلال بكراهية:أنا سربت الكلب بتاعك!
انغمست ليالي في الحوار، وعبّرت عن استيائها، معترضة على اسم الكلب الذي يشبه اسم والدها، فقالت بحدة وبدون تردد:
_والله يا حماتي إن ما غيرتي اسم الكلب ده لأشتري بقرة وأسميها بسمة وتبقى واحدة بواحدة !
ضحك حمود، وهو ينظر إلى جدته بازدراء، وكأنما أراد أن يعبّر عن استهزائه. ثم قال بسخرية، موجهًا حديثه نحوها:
_ستي البجرة تزعل.
صرخت أم الديب فيه قائلة بأعلى صوت، رغم الآلام التي تعصف بها:
=مانت اللي مربينك ذات نفسهم قلات الأدب ومتربوش .
وأردفت إلى ليالي ببغضاء:
_ماشي يا ليالي أقوم على رجلي وهطين عيشتكم!

ليالي بجلبة:من هنا ورايح أنا محدش له دعوة بيا، أنا استحملت منك اللي محدش يستحمله وبعد ده كله مش عاجب!

حينما استشعر جلال وجود مشكلة تتصاعد بين أم الديب وليالي، صرخ بأعلى صوته، محاولًا فرض الهدوء على العائلة، قائلًا:
_اسكتوا متروشوناش على المسا!
عند هايدي في غرفتها، كانت مشغولة بمصالحة خطيبها زياد الذي تأثر بشدة بعد حديث جلال، شقيقها، بأسلوب قاسٍ في المستشفى، مما ترك أثرًا واضحًا في نفسه، وأشعره بالاستياء وعدم الاقتناع بأن هذا الموقف قد وقع. وعلى الرغم من حرصها الدائم على إسعاد زياد، كانت هايدي مستلقية على سريرها، محاطة بأجواء المصالحة، بعيدة عن صخب الأسرة التي كانت تعج في الغرفة المجاورة. كان انزعاجها واضحًا، حتى وإن كان الباب مغلقًا، حيث أحست بقلق يساورها. برغم كل ذلك، كانت عيناها تتأملان حديث زياد، مليئة بالمحبة، عازمةً على إظهار دعمها له في هذه اللحظات اللصبة، ساعيةً لتخفيف مشاعره السلبية وإعادة الأمل إلى قلبيهما، قائلة:
_بجد أنا أسفة هاتها فيا أنا، مانت عارف إن ...

لكن قبل أن تتمكن هايدي من استكمال حديثها، تصاعد صراخ حاد من الجهة الأخرى، مما جعلها تخرج مسرعة، تُخاطب زياد، وعندما دخلت الغرفة، وجدتها تواجه أم الديب، التي نهضت رغم الجراح التي ما زالت تُثقل كاهلها، ورأسها يقترب بشدة من رأس جلال في مشادة حامية. كانت توبخه بحدة، مُعبرة عن استيائها من تصرفه الذي أدى إلى ابتعاد كلبها إلى مكان غير مألوف، وكأنها تُشير إلى انتهاك

لخصوصيتها. تجسدت على وجهها ملامح الاستياء، في حين كانت كلماتها تنطلق كسهام حادة، تعكس انفعالاتها، وهى تعول في جلال:
_بتسرب الكلب بتاعي يا جلال؟

جلال بصياح:أه ياما، عندك مانع ولا إيه؟
أم الديب بإرهاب:الكلب بتاعي لو مرجعش في ظرف ساعة قول على نفسك يا رحمن يا رحيم!

رفعت هايدي الهاتف نحو رأسها بسرعة، محاولةً استجماع أفكارها، قبل أن تتوجه إلى زياد، مُحذّرةً إياه بلهجة تحمل الجدية. كانت تدرك أن الوضع قد خرج عن السيطرة، وعليها أن تتدخل سريعًا لتفادي المزيد من التوتر. فقالت:
_طب استنى هشوف في إيه!

تركت أم الديب جلال، واندفعت نحو المعلم حنفي، متشبثةً بعنقه وكأنما تبحث عن ملاذ من سخطها المتزايد. كان الفزع قد بدا واضحًا على ملامح المعلم، الذي لم يستطع تخيل ردة فعلها، وهي تطالبه باسترجاع كلبها. صرخت في وجهه بنبرة قوية، تغلظت كأنها نبرة الرجال، تعكس عزمها على استعادة ما فقدته، قائلة:
_الكلب بتاعي يا حنفي!

المعلم حنفي:خلاص يا ولية أهو نصيبه، ده حتى ربنا نجده منك.

ثم وجهت أم الديب حديثها لجلال:
_بتسربه يا جلال؟ آني هوريك!
توعدت أم الديب لجلال، مُعبّرةً عن استيائها بعدما تسبب في هروب كلبها، الذي كان حاميها في أزماتها، واستعادته لحقوقها من عائلتها رغم أنها الجانية في تلك المواقف. تركت عنق المعلم حنفي، الذي كان يرتجف خوفًا على نفسه من غضبها المتزايد. بينما كانت حالة من النواح تتفاقم في رأس هايدي، مما جعلها تشعر بضغوط لا تُحتمل، فصاحت بأعلى صوتها، محاولةً أن تتفوق على ضجيج الموجودين من حولها، قائلة:
_يوه على المشاكل بقى، أنا زهقت منكم!
التفتت أم الديب نحو هايدي، وقد بدت ملامحها تعكس الاحتدام، وهي تصدح بكلماتها في خضم الضجيج. اقتربت منها ببطء، وكأنها تعكس رغبتها في الاشتباك معها، تسألها بنبرة تحمل في طياتها التحدي:
_انتي بتعلي صوتك عليا يا بت؟

هايدي باستشاطة:أنا برضة اللي بعلي صوتي؟ ولا انتوا اللي بتتخانقوا وصوتكم جايب آخر الدنيا؟
أم الديب بامتعاض:البت دهي تتجوز وتريحونا منها !

أم الديب الجزء الثالث

هايدي بلهفة:بجد؟ امتى طيب؟
أم الديب بعصبية:كمان ست شهور.

سرعان ما عانقت نعمة هايدي، وكأنها أرادت أن تُشعرها بالراحة في خضم تلك الفوضى، وقالت لها بسرور:
_ألف مبروك يا هايدي.

بينما كانوا لا يزالون يتبادلون التهاني، فجأةً انطلق الكلب نحو جلال، يعضه بحدة، مما دفع الجميع للصراخ والركض في كل اتجاه. أم الديب، وهي تشاهد الكلب يمزق ثياب جلال، شعرت بفرحة غامرة، حيث أطلقت ضحكة مليئة بالانتشاء، معبرةً عن سرورها وهي تقول:
_جدع يا سلامة هو دهو الكلام الصح، قطعه يا ولا.

رفعت ليالي يديها للأعلى، مستنجدةً بالناس من حولها لإنقاذ زوجها من تحت شراسة الكلب الذي لا يعرف الرحمة، وقد كانت مشاعر الرعب تتصارع في قلبها، حيث كان يدور في ذهنها أنها تريد مساعدته بكل ما أوتيت من قوة، لكنها أدركت في ذات الوقت أن الاقتراب منه قد يعني مشاركته في الثياب الممزقة التي تكسو جسده، حيث كانت أنياب الكلب تنهش في تلك الأقمشة، مهددةً بتمزيق كل شيء كان يجمعهما. ومع تلك الصراعات الداخلية، أطلقت صرخة مدوية، تعكس يأسها، بينما كانت عيناها تتوسلان للمارة أن يتدخلوا، إذ لا تستطيع تحمل رؤية زوجها يتعرض للإيذاء، قائلة:
_جوزي يا ناس، حد يلحقنا من حماتي المفترية!

اندفعت ليالي وهايدي بسرعة نحو جلال، محاولتين بكل قوتهما إبعاد الكلب عنه، وقد كانتا في حالة من الفزع الشديد. بينما المعلم حنفي اقترب بحذر، يحمل عصا خشبية مهددًا الكلب الذي، حين رأى العصا، خشيها وفر هاربًا خارج الشقة. أما جلال، فقد كان ينهض بصعوبة، بمساعدة الجميع الذين تجمهروا حوله بعدما تمزقت ثيابه بالكامل، وكأن الكلب لم يترك فيه موضعًا سليمًا، كما لو كان قد خاض معركة شرسة ضد خصم لا يرحم، وقد كان هو الطرف المنهزم في تلك المواجهة، وبينما كان يحاول استعادة توازنه، نظر نحو أم الديب بسخط يتفجر من عينيه، مملوءًا بالمرارة، وتوعد لها بصوت يمزقه الألم، صرخ قائلًا إن ما فعلته لن يمر مرور الكرام، وإنه لن ينسى هذا الاعتداء الذي جعله يبدو في هيئة الضعيف، وكأنها تحدته في كرامته قبال الجميع:
_بقى بتسلطي كلبك عليا ياما؟ طب ماشي متبقيش تعيطي!

صرخت ليالي في وجه أم الديب، والغضب يشتعل في عينيها كأنها شعلة لا تنطفئ، قائلةً بكلمات مليئة بالانفعال:
_حسبنا الله ونعم الوكيل فيكي يا حماتي، اللهي ربنا ينتقم منك دنيا وآخرة.

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بصخب:اخرسي يا بت الكلـ*، انتي كمان مش عاجبك يا وش المصايب؟ غوروا في ستين داهية لما تاخدكم.

خرج جلال وزوجته وابنه من الشقة في تلك الليلة المثقلة بالتوتر، متسللين بانفعال نحو شقتهم في الطابق العلوي، حيث اتجه جلال مباشرة إلى غرفته واقتلع عن جسده المُتعب كل تلك الثياب الممزقة التي شهدت لحظات الانهيار. بعدها خطا نحو المرحاض ليتطهر من آثار يوم مليء بالأحداث المؤلمة، ولكن الجانب الوحيد الذي خفف من وطأة الكارثة هو أن الكلب الغاضب لم يتمكن من النيل من جسده، بل اكتفى بتمزيق ثيابه فقط، تاركًا له مجالًا للتنفس بعد هذه المحنة. في هذه الأثناء، جلست ليالي فوق الأريكة، وقد أثقل الشجن كاهلها، تنتحب بمرارة على حظها المتعثر وحظ زوجها البائس، وكأن العالم بأسره تآمر عليهما. أما عن المشروع الذي كان يومًا ما مصدر الطموح، فقد انتهى به الحال إلى الاندثار، حيث أبلغ المعلم حنفي زياد بأن أم الديب، تلك المرأة التي لا تعرف الهوادة، قد غيرت قرارها بشكل مفاجئ بشأن زواج هايدي، وقررت تزويجها في أقرب وقت، على الرغم من أن هذا القرار كان نتيجة انفعال عابر وكلمة ألقتها دون تفكير أثناء غضبها، إلا أن الزمن قد مر سريعًا، وبعد ثلاثة أيام قضاها جلال في تفريغ المحل من كل بضاعة، بمساعدة ليالي التي كانت تداري ألمها وتكبت دموعها في خضم هذا العمل الشاق، سلما المفتاح إلى مالك المحل ليعود كل شيء كما كان من قبل، وكأن المشروع لم يكن يومًا. وفي نفس اليوم، حضر زياد، وجلس في الصالة مع المعلم حنفي، وأم الديب، وهايدي، حيث بدت الأجواء مشحونة بالترقب، حتى تكلم "زياد" مع "هايدي" بحزم:
_أنا من رأيي إننا نخلي الفرح قريب بدل سنة ونص يعني.

هايدي برفض:بس احنا كده مش هنلحق نجهز أي حاجة.
زياد بثقة:لا هنلحق أنا متأكد، احنا ناخدها واحدة واحدة واللي فيه الخير يقدمه ربنا.

كانت هايدي تغرق في دوامة من القلق، تشعر أن الوقت الذي حدده "زياد" ليس كافيًا لتتمكن من شراء كل مستلزمات الزواج وتجهيزها على النحو الذي يليق بتلك المناسبة المهمة. فبصوت خافت، ولكن مفعم بالجدية، أبدت اعتراضها وطلبت مهلة أطول، كي يتسنى لها تحضير كل شيء بعناية، كما يتطلب الأمر لمثل هذا الحدث الذي سيغير مسار حياتها. لكن، وبينما كانت تتوقع ردًا هادئًا، جاء رد "أم الديب" صادمًا لها ولمن حولها، فقد بدت ملامح الدهشة على وجهها وهي تستغرب من هذا الاستعجال غير المبرر الذي أبداه زياد. فتوجهت إليه بنظرة صارمة، وقالت له:
_ايهي ومالك مستعجل كدهو ليه يا ولا؟ وبعدين هو كان حد فينا شافلك شقة ولا تكونش فاكر إنك هتقعد بتي في عشة الفراخ اللي في داركم؟

زياد بعشق:لا طبعًا هايدي مقامها عالي، وأنا بإذن الله هعيشها عيشة الملوك، انتي متعرفيش أنا بحبها قد إيه!
أم الديب بطَنز:انت كلام كلام، أما مشوفناش منك حركة واحدة، آني بتي هايدي مش هتركنها جنب منك لحد ما تشوف هتنيل ايه، يإما تشوف شقة يإما الجوازة دهي متلزمناش!

أم الديب الجزء الثالث

كانت الدهشة ترتسم على وجه هايدي كلوحة حائرة أمام أمر غامض، عيناها اتسعتا وكأنهما تسألان عن شيء لم تفهمه بعد، فبصوت متردد وحائر قالت لها:
_في إيه يا ماما؟ هو كان قالك مش هيجيب شقة؟ ماهو هيجيب بس كل حاجة في وقتها!

تلفظ زياد بكلمات تعكس استعدادًا حازمًا لا يقبل التردد، نبرة صوته كانت ثقيلة بالتصميم:
_أنا مستعد أجيب الشقة من النهارده قبل بكرا، شوفوا انتوا عايزين إيه وأنا هعمله.
قالت أم الديب لزياد بعناد لا يقبل النقاش، كلماتها كانت كالصخور التي تتحطم عليها الآراء المخالفة، تنبض بإصرار متمسك بموقفها:
=تنزلوا تشوفوا الشقة دلوقتي يإما بلاها الجوازة دهي !

زياد بموافقة:حاضر يا مرات عمي اللي تشوفيه.

في تلك اللحظة، رن هاتف زياد بشكل مفاجئ، معلنًا عن قدوم مكالمة من أحمد. نهض زياد بخفة، وكأنه أراد الهروب من ثقل الجو المحيط به، وعبر بخطوات سريعة من خلال غرفة أم الديب ليصل إلى البلكونة، حيث الهواء الطلق الذي يمنحه بعضًا من الخصوصية. أراد أن يتحدث بعيدًا عن أعين وآذان الجميع. في هذه الأثناء، نهض المعلم حنفي هو الآخر، واتجه نحو المرحاض ليقضي حاجته، غير مبالٍ بما يحدث حوله، وكأن الأمور تسير في مسارها الطبيعي. وما إن وصل زياد إلى البلكونة واستجاب للمكالمة، حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة تحمل في طياتها دفئًا ومحبة. بلهجة مليئة بالود، تحدث مع أحمد، قائلًا:
_ازيك يا أحمد عامل إيه؟

أحمد بإعزاز:يا أهلًا يا زياد، عامل إيه انت؟ طمني عليك!
زياد بإخاء:الحمدلله أنا كويس، جميلة والبنات عاملين إيه؟
أحمد بابتسامة:الحمدلله بخير، ازي عمي حسين؟
زياد بحبور:كله تمام.

في اللحظة التي كان فيها زياد واقفًا في البلكونة يتحدث مع أحمد عبر الهاتف، بدأت شكوك أم الديب تتسلل إلى ذهنها، وكأنها تعيش في دوامة من الريبة التي لا تفارقها. فبالرغم من أن زياد لم يظهر ما يثير الشبهات، إلا أن الخوف تسرب إلى قلبها، خشية أن يكون وراء تلك المكالمة نية سيئة، ربما لسرقتها أو لوضع شيء في حوزتها دون علمها. لم تستطع أن تمنحه الأمان الكامل، فقد كانت شخصيتها المتوجسة دائمًا ما تتوقع الأسوأ من الجميع. وفجأة، رفعت صوتها عاليًا، موجّهة كلماتها إلى هايدي، وكأنها أرادت أن تجعل شكوكها واضحة أمام الجميع، دون أن تترك مجالًا للغموض، قائلة:
_ايهي هو فاكر إنه دار اللي جابوه يا بت؟ يكونش دار أبوه وآني معرفش؟ قومي يا بت وراه ألا يسرق حاجة من الأوضة! آه يا رجلي يا خرابي يآني.

هايدي بتعجب:يسرق إيه؟ زياد مش حرامي ومستحيل يعمل كده!
أم الديب بسخرية:وانتي إيه عرفك ياللي تتشكي في جنابك؟
هايدي بانفعال:أنا عارفة وواثقة فيه!

مهما حاولت أم الديب إقناع هايدي بمساوئ زياد غير الحقيقية، وتقديم حجج واهية لا تستند إلى أي واقع، فلن ينجح ذلك في تغيير قناعات ابنتها، مهما استمرت في النفث في أذنها همسات الشياطين طوال أعوام وأعوام، وكأنها تتسلل من خلال تلك الهمسات لتغذي شكوكها. وعندما أدركت أم الديب أنه لا جدوى من محاولاتها اليائسة، صمتت فجأة، وهي تتأمل ابنتها بنظرة مليئة بالاستنكار. في تلك الأثناء، في الخارج بالبلكونة، كان الحوار يدور بين زياد وأحمد حول أمور عائلية عادية، حيث كانت الأسئلة تتوالى عن أخبار العائلة وتفاصيل حياتهم اليومية، وبينما كان الحوار يسير بسلاسة، قرر زياد أن يفتح موضوع تعجيل الزواج، محركًا النقاش نحو خطوة سريعة وهامة في هذا الاتجاه، فقال له بحماسة ورغبة واضحة في التحرك قدمًا نحو المستقبل الذي يتوق إليه:
_أما بقولك، احنا عايزين نبتدي في تجهيزات الفرح.

أحمد:انتوا مش لسه قدامكم سنة وشوية؟
زياد:لا ماحنا قصرنا فترة الخطوبة شوية، أصل بصراحة الخطوبة لما بتطول بتزيد المشاكل وبيكون في ملل.
أحمد باهتمام:عندك حق، طيب ناوي على إيه في موضوع الشقة؟
زياد:مانا بكلمك علشان موضوع الشقة خصوصًا إنك كنت قايل هتشوف شقة قريبة منك.
أحمد بضحك:ما ده أكيد، مينفعش هايدي تبعد عني، وبعدين هو أنا أطول تبقوا جيراني وكل يوم أصحى عليكم؟
زياد بابتسامة:حبيبي ربنا يخليك، طيب شوفلنا الحوار ده خصوصًا إن مرات عمي مدايقة من موضوع الشقة يعني.
أحمد بتأكيد:لا هشوفلك الموضوع ده متقلقش.
زياد بوداد:يبقى عملت فيا جِميل، سلملي على اللي عندك!
أحمد ببشاشة:يوصل، هشوف وأكلمك.
زياد ببسمة:خلاص ماشي، سلام.

بعد انتهاء أحمد من حديثه في الهاتف، خرج من الشقة ليجد الجيران المجاورين لهم يحملون أثاثهم بمساعدة الحمالين وهم في طريقهم للخروج، مما أثار استغرابه بشدة. لم يستطع أن يتخيل أن يكون ذلك مجرد صدفة، ففكر في استيضاح الأمر منهم، وعندما اقترب منهم، سألهم عن وجهتهم، ليكتشف أنهم كانوا قد اتفقوا مع مالك العمارة منذ فترة طويلة على الترحال، مشيرين إلى أن هذه الخطوة قد تكون لمصلحتهم. ولما علم أنهم سينتقلون إلى فيلا جديدة، سارع لتهنئتهم على هذا القرار السعيد، متمنيًا لهم التوفيق في خطواتهم المقبلة، بينما كانوا ينقلون حديثهم عن حلم كانت زوجته تطمح في تحقيقه.

أم الديب الجزء الثالث

في هذه الأثناء، كانت جميلة ما تزال مستيقظة، تحمل ابنتها أسيل بين ذراعيها، وتبحث عن أحمد في أرجاء الشقة، لكنها لم تعثر عليه. أدركت أنها استيقظت متأخرة، وعندما نظرت إلى الساعة، لاحظت أنها قد تجاوزت الثالثة عصرًا، مما جعلها تشعر بمرور الوقت بسرعة كبيرة. أعربت عن أسفها لفوات النوم، وأدركت أن السهر مع ابنتها طوال الليل كان له تأثيره عليها. وبينما كانت تفكر في خطتها لليوم، نادت سيليا، التي كانت تطلب الذهاب إلى جدتها بسملة. جميلة، التي كانت قد استعدت لتنظيم الأمور، قررت أن يأخذوا الإفطار أولًا قبل الخروج. أمرتها بغسل وجهها استعدادًا لهذا اليوم الجديد، وفي منزل أم الديب، كانت الأمور تسير بشكل مختلف تمامًا. كانت أم الديب مشغولة بمشاهدة التلفاز، بينما تمسك بيدها طبق الترمس بالليمون والكمون، وتلقي القشور على الأرض بعشوائية، غير مُبالية بترتيب المكان أو بالعواقب التي قد تترتب على تصرفاتها. كان زياد وهايدي يجلسان بجانب بعضهما على الأريكة، يراقبان ما يحدث حولهما. أما المعلم حنفي، فقد غادر منزله متوجهًا إلى عمله، تاركًا خلفه فضاءً مفعمًا بالهمسات. لاحظت هايدي أن والدتها لم تكترث بتقديم أي شيء لزياد حتى الآن، مما أثار في نفسها تساؤلات كثيرة حول هذا التجاهل. فمالت نحوها بهدوء، وهمست في أذنها بصوت خافت يكاد لا يُسمع، كأنها تحاول اختراق جدار الصمت الذي يحيط بالموقف، وطرحت كلماتها بلهجة تحمل في طياتها استغرابها:

_يا ماما مينفعش كده، زياد بقاله نص ساعة وانتي معبرتيهوش بكوبايةماية حتى!

لكن أم الديب أجابت عليها بصوت عالٍ، وكأنها تريد أن ترد على كل الهمسات التي كانت تدور حولها، قائلة:

=ياكل في دار أبوه يا بت!

هايدي بعصبية:ششش هيسمعنا! يعني أنا بتكلم بصوت واطي وانتي عايزة تسمعيه؟

سأل زياد محبوبته هايدي بفضول، وعينيه تتأملان ملامح وجهها، وكل تعبير يخرج منه يحمل معنى خاصًا، قائلًا:

=في إيه يا هايدي؟

هايدي بابتسامة مُصطنعة:لا لا مفيش حاجة.

أجابت هايدي بتلجلج جلي، يكسوه الخرع من أن يكون زياد قد لاحظ أن حديث أم الديب كان موجهًا نحوه، فتملكتها الرغبة في تغيير الوضع. نهضت من مكانها، مصممة على أن تفعل ما لم تفعله والدتها، على الأقل، لتصنع له فنجانًا من القهوة كتعويض عن عدم الترحيب به بشكل لائق. ولكن، ما إن خطت خطواتها نحو المطبخ، حتى نادتها أم الديب بصوت عالٍ، كان يتردد صداه في أرجاء الصالة، موجهة نحوها المسبة قائلة بلهجة حادة:

_رايحة فين يا بت الكلـ*؟

هايدي بدهشة:يوه انتي مفيش مرة تتكلمي زينا؟ بتشتميني ليه طيب أنا عملت إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بصياح:رايحة تعمليله الطفح اللي يطفحه، مانتي مش غرمانة حاجة من جيبك.

استشعر زياد أن الحديث كان من البداية موجهًا إليه، وأن كلمات أم الديب كانت تتسلل إلى مسامعه كسهام جارحة، مما أثار بداخله شعورًا بالاحتقار. نهض في الحال، وكرامته تطغى عليه، حيث تغيرت ملامح وجهه لتصبح أكثر حدة، وكأن سحابة من الكمد قد غطت على ابتسامته السابقة. وقال بانفعال:
_انتوا بتتكلموا عن مين؟

هايدي، بخطوات سريعة وقلق ظاهر، جرت نحوه محاولة تهدئة الأجواء المتوترة بينهما، بينما كانت تتحدث بحروف ساقطة وغير مرتبة، تعبر عن اضطرابها ومحاولتها لاحتواء الموقف. قالت بلهجة متعثرة:
_ماما مربية كلب و...و... وبقاله يوم مكلش فأنا هروح أعمله أي حاجة علشان حرام هيبقى ذنبه في رقبتنا.

زياد بانزعاج:طيب أنا همشي وهشوفك بعدين متكونش حماتي موجودة.

بعدما أنهى حديثه، شعرت أم الديب بأن مشاعرها تغلي في صدرها، فثبتت نظرها على زياد وكأنها تنظر إلى تهديدٍ حقيقي، وتشبثت في عنقه بعنف، معتقدة كل الاعتقاد أنه ذئب بشري ينوي إيذاء ابنتها الصغرى في غيابها، وكأن الأفكار المنحطة قد اجتاحت عقلها بغيوم كثيفة. كانت مخاوفها تتجسد أمامها في صورة تهديدٍ ماثل، فتوجهت إليه بكلمات ملتهبة، وارتفع صوتها إلى درجات لم تعتد عليها، غليظًا كصوت الرجال، قائلة بعجيج لا يتوانى:
_عاوز تستفرد بالبت؟ ليه هي سايبة؟ يعني إيه هتشوفها وآني مش موجودة؟ قرطاس لب ولا كيس جوافة ولا إزازة خل؟ يا لهوي هتتفضحي وسط الناس يا أم الديب، فضيحتك هتبقى بجلاجل كل جُلجلة فيها هتبقى قد كدهو... يا خرابي، ليالي وأهلها هيشمتوا فيكي يا أم الديب، يا مصيبتك السودة.
نزلت نعمة على صدى الضجيج، وكأنها استشعرت القلق الذي يملأ الأجواء، ووضعت يديها على ظهرها، وهي تشعر بآلام تمنعها من الحركة بسلاسة. سألت والدتها بفزع، وعينيها تتسعان بقلق عارم:
_مالك ياما؟ أبويا ماله جراله إيه؟

أم الديب بنواح:أبوكي إيه يا موكوسة يا بت الموكوس؟ قال إيه خطيب أختك اللي طالع من بيت محترم عاوز يستفرد بأختك الهبلة، ماهو مش عاملي احترام ولا محترم حد فينا.

لكن زياد صرخ في وجه أم الديب، وعينيه تشعان بالدفاع عن نفسه، قائلًا بصوت عالٍ يملؤه الإصرار:
_في إيه يا مرات عمي؟ إيه الكلام اللي بتقوليه ده؟ الكلام ده ميصحش وأنا مسمحش بيه!
لأول مرة في حياتها، كانت هايدي شاهدة على ذلك الغضب العارم الذي انبثق من زياد تجاه والدتها، فكان المشهد كطوفان مشؤوم ينذر بقرب نهايتهما، تمامًا كما تنبأت في أعماق قلبها المرتعش، وكمثل

أم الديب الجزء الثالث

أوراق خريفية تتساقط على عجل، انحدرت دموعها بصمت من عينيها المتوهجتين بالخوف، وهي غارقة في تساؤلاتها التي حملت معها رعبًا لا يوصف، قائلة:
_هتسيبني صح؟ أنا كنت عارفة والله إنك مش هتستحمل، مانا قولتلك وانت مصدقتنيش.

زياد بامتعاض:لا طبعًا يا هايدي مش هسيبك بس الكلام اللي مرات عمي بتقوله ميصحش.

لن يتخلى زياد عنها مهما بلغت قسوة الظروف، فهذا عهد في قلبه لن يُنقض، لكنه في النهاية بشر، من لحم ودم، تلتف حوله مشاعر متأججة وتعتصره الآلام كما تعتصر الآخرين. وإن كان من الطبيعي أن يظهر انزعاجه، فهو لا يقل عنهم في إحساسه بمرارة الواقع. وبينما كانت نعمة تعاتب والدتها، جاءت كلماتها كريح خفيفة تهب على قلب مثقل بالحيرة، تحمل في طياتها لومًا محجوبًا، قائلة لها:
_لا ياما عيب عليكي، زياد محترم، هو لو وحش كنا حطينا إيدينا في إيده ولا وافقنا عليه؟

أم الديب بعجيج:ومين قالك يا بت إني موافقة؟

صرخت هايدي في وجه أم الديب، وكأنها تفرغ ثقل الألم المتراكم في صدرها، ليخرج صوتها كهدير بحر هائج لا يهدأ، قائلة:
_يا نهار أسود عليا، بعد كل ده وجاية تقولي مش موافقة؟
قالت نعمة لهايدي، وزياد بابتسامة:
=استهدوا بالله، ده شيطان ودخل ما بينكم، تعالوا معايا فوق نتكلم كلمتين وسيبكم من أمي، أصل انتوا عارفين الحالة لما بتجيلها، بتيجي فوق دماغنا كلنا، تعالوا بس!

خرجت نعمة برفقة زياد وهايدي، يتوجهون بخطوات ثقيلة نحو شقتها في الطابق قبل الأخير، حيث كان حامد منهمكًا في المطبخ، يغسل الأواني بيديه المتعبتين، بينما كانت أصوات الماء تتردد في المكان بصدى هادئ، وما إن تجاوزوا عتبة الشقة، حتى صكت أم الديب الباب وراءهم بعنفٍ مُلفت، ارتد صداه كصرخة مكتومة تهز جدران المنزل الصامت، وكأنها كانت تسعى من خلال ذلك الصوت المرتفع إلى إيصال لوم دفين. بعد ذلك، دخلت شقتها، وظلت تتفحص المكان بنظرة مليئة بالاستياء، وكأنها تعاتب الغائبين عن المشهد على القشور الصغيرة المنثورة على الأرض، التي لم يلمسوها أو يتذوقوها، والتي كانت ثمرة يديها وصنعها بكل جهد، ثم اندفعت بتذمر يكاد يُسمع في أرجاء المنزل، قائلة:
_في داهية، ده انتوا زبلتوا الشقة خليتوها زريبة، ايهي إيه كل القشر دهو؟

جلست أم الديب على الأرض، حيث اختارت أن تكمل طعامها بهدوء غريب، وكأنها تهرب من ضجيج الأفكار إلى لقيمات تلتقطها بصمت. في تلك اللحظة، وعند نعمة، خرج حامد من المطبخ، وقد نشف يديه بعناية، كمن ينهي واجبًا ثقيلًا. تقدم نحو زياد بخطواتٍ واثقة، وعيناه تشعان بمودة قديمة لم تتغير، ثم احتضنه بحنان، وصافحه بحرارة تحمل في طياتها ذكريات اللقاءات الماضية، قائلًا:
_يا أهلًا وسهلًا، ده احنا زارنا النبي، أقعد يا عديلي يا غالي.

زياد بسُخط:الله يخليك، ما تقولي انت بتتصرف ازاي مع مرات عمي؟
حامد بسكينة:بُص يا باشا مفيش أحلى من تكبير الدماغ، كبر دماغك هتعيش عيشة فل، روقان وراحة بال، إنما هتمسك في كل كلمة هتحرق في دمك ويومك هيتقفل.
زياد بحنق:واضح إنه هيتقفل كتير أوي الفترة اللي جاية.

جلس الثلاثة على الأريكة، وثقل اللحظات الماضية يستقر بينهما، لا يحركه سوى الصمت الذي خيم على المكان. تنهدت نعمة بهدوء، ثم التفتت نحو زياد بملامح تنبض بالضيق، وقالت له:
_والنبي ما تاخد على كلام أمي، انت لو فهمتها هتريح دماغك، اعمل زي ليالي مرات اخويا وحامد جوزي، كلنا مكبرين دماغنا...أصل كلمة من هنا على كلمة من هنا الدنيا هتقيد حريق ومش هنخلص.

زياد باستغراب:يعني يتغلط فيا وأسكت؟ ده يرضي مين طيب؟

بعد لحظات من الاضطراب الداخلي الذي شعرت به هايدي، جلست بجوار زياد، تحمل في قلبها خوف التساؤلات والفزع من المصير المجهول. رغم أنها حاولت كتمان حزنها، إلا أن مشاعرها تطفلت على صمتها، فبدا وكأن سؤالًا دفينًا لا ينفك يطرق باب الكلمات. لكن زياد، بروحه المثقلة بالشجن، كان يحاول تبرير موقفه، مؤكدًا لها أن شعوره بالضيق أمر طبيعي، فكل إنسان معرض لمثل هذه المشاعر المتناقضة. وفي تلك الأثناء، أكدت نعمة أن تجاوز المشكلات الصغيرة سيجعل الحياة أكثر هدوءًا، ورغم التوتر الذي كان يخيم على الجو، ظل زياد متمسكًا بكرامته، متمتمًا أن الهداية تأتي من الله، وكأن الكلمات باتت ملجأه الأخير. أما نعمة، فلم تجد سوى الدعاء بصمت، متمنية أن تجد الأمور طريقها نحو الهدوء. في تلك اللحظات، كان أحمد قد اتفق مع مالك الشقة المجاورة ليذهب زياد وهايدي لرؤيتها.
اتصل أحمد بزياد لترتيب الأمر، ليتم تأكيد الموعد على الفور. وعلى الجانب الآخر، شعرت هايدي بالفضول وسألت زياد عن الأمر، فأخبرها بحماس أن الشقة المجاورة أصبحت متاحة، وعرض عليها الذهاب لرؤيتها. لكن نعمة، بحكمتها المعتادة، حذرت زياد من الذهاب بمفردهم، خاصة وأن أم الديب لن تترك الأمر يمر بسهولة. كما أن حامد تدخل، مشيرًا إلى أن من الأفضل ألا يذهب الخطيبان وحدهما في مثل هذا الموقف. حاولت هايدي التخفيف عن نعمة، مشيرة إلى حالتها الصحية، لكن نعمة أصرت على أن تكون جزءًا من الرحلة، خشية أن تتفاقم الأمور في غيابها. بعد تجهيز أنفسهم بسرعة، ارتديا حامد، ونعمة ملابسهما واستعدا للذهاب. استقلوا وسائل النقل وتوجهوا إلى الشقة، حيث استغرقت رحلتهم ثلاث ساعات للوصول، وعند وصولهم، كانت جميلة، في انتظارهم، حيث سألت زوجها أحمد، قائلة:
_هيجوا امتى؟

أحمد:زمانهم على وصول، يارب الشقة تعجبهم، أنا هرتاح لو هايدي وزياد خدوا الشقة اللي جنبنا.
جميلة باطمئنان:أكيد هتعجبهم، ماهي زي شقتنا بالظبط وهايدي جات عندنا كتير وكانت الشقة عاجباها جدًا وكفاية كمان إنها جنبنا.
أحمد بقلق:أنا اللي خايف منه إنها متعجبش زياد.

أم الديب الجزء الثالث

جميلة بابتسامة:بجد النظام تحفه جدًا، أنا واثقة إنها هتعجبهم.
أحمد برجاء:يارب، أتمنى.

بعد رحلة شاقة، وصل الجميع أخيرًا إلى وجهتهم، حيث استقبلتهم جميلة في شقتها بابتسامة ترحيب، مظهرة فرحتها برؤيتهم بعد غياب. كانت هايدي أول من رد التحية، معبرة عن شكرها العميق لجميلة على ترحيبها. أما أحمد، فقد عانق زياد بحميمية تعكس قوة العلاقة التي تربطهما، بينما تبادل زياد التحية. انتقلت جميلة بعد ذلك لتحيي نعمة، التي كانت ترد بملامح تعب، ولكن بشوق نحوها. لم يمر الوقت طويلًا حتى تذكرت نعمة سيليا، ابنة جميلة، وسألت عنها. سيليا كانت حاضرة، ترد على عمتها بابتسامة بريئة، في حين استفسرت نعمة عن أسيل، الابنة الصغرى. ضحكت جميلة بصوت خافت وهي تخبرهم عن مدى تعبها مع أسيل طوال الليل، مستذكرة بتنهيدة مرهقة ما قامت به الطفلة. دعت جميلة الجميع للجلوس براحة، بينما حامد، بنبرة تفيض بالتفاؤل، عبر عن أمله في أن تكون الأمور سهلة في الأيام المقبلة. وبعد استقرارهم في المقاعد، قامت جميلة بتحضير بعض الحلويات والعصائر لتضيف جوًا من الضيافة. كان التعب من الطريق واضحًا على وجوه الجميع، فبدا حامد أكثرهم إرهاقًا وهو يتحدث عن طول الرحلة وصعوبتها. نعمة بدورها لم تفوت الفرصة للإشارة إلى أن استخدام المواصلات العامة يزيد من مشقة السفر، قائلة:
_والله يا أحمد ياخويا مرضيناش نسيب زياد وهايدي يجوا لواحدهم مش لأجل حاجة! لا والله احنا عارفين إنهم زي الفل وعشرة على عشرة، بس دماغ أمك تعبانة وهتعملنا موال.

أحمد:انتي هتقوليلي؟ مانا عارف، متفكرنيش باللي جرا.

سأل زياد أحمد بفضول:
_إيه اللي جرا؟

أحمد باستذكار:وأنا في أولى جامعة كنت متخانق معاها خناقة كبيرة، والوقت ده كانت ماما مشاكلها معانا أضعاف مشاكل دلوقتي، ده يمكن دلوقتي ربنا هداها شوية....

في يوم ما خرج أحمد من بوابة الجامعة، وسط ضحكات أصحابه وصخب الأحاديث اليومية، دون أن يتوقع أن اليوم سيتحول إلى لحظة مفصلية في حياته. وبينما كان يسير بخطواته المعتادة، وقع بصره فجأة على مشهد يزلزل كيانه؛ أم الديب تقف بعيدًا، بملابس ممزقة، باكية كأنها لوحة مأساوية رسمها القدر بيدٍ قاسية. كانت عيناها تمتلئان بالدموع، وفي يدها ترتعش ورقة بالية، مكتوب عليها كلمات تحرق الروح قبل أن تلمس العين: "أنا أم أحمد حنفي الديب... رماني في الشارع واتبرا مني". في تلك اللحظة، شعر أحمد وكأن الزمن توقف، وصوت ضحكات أصحابه اختفى بين أصداء الصدمة التي اجتاحت صدره. كان كل شيء حوله يتلاشى، ولم تبقَ سوى كلماتها التي تخترق روحه كسهام لا ترحم. همس في داخله بصوت مرتجف:
_يا نهار أسود، أعمل إيه دلوقتي؟ أعمل إيه؟ يا ديني على الفضايح.

أم الديب الجزء الثالث

حينما لاحظ صديقه تغير ملامحه، التي بدت كلوحة رسمتها الأحزان، اقترب منه، وسأله:
_إيه يا عم مالك؟

ابتعد أحمد عن المكان، متجهًا إلى الناحية الأخرى، كمن يهرب من كابوسٍ يطارده، محاولًا أن ينجو من نظرات أم الديب التي كانت تتفجر بالاستجداء. لكن تلك المرأة، التي أُحبطت من قسوة الحياة، لم تستسلم؛ بل تبعتها بخطوات متعثرة، وكأنها تلملم شتات قلبها المكسور، وهي تمضي خلفه، اتخذت من تمثيل المأساة سلاحًا، فقالت بصوت ممزق يخنقه البكاء، محاكيةً مشاعر الخيبة:
_بتتبرى من أمك يا ولا؟ بعد ما كبرتك وربيتك؟

أحمد بإضطراب:انتي مين يا ست انتي؟

قد أخذت صديقه الصدمة حين قرأ ما هو مكتوب على الورقة، اتسعت عيناه في ذهول كأنما استنكر حقيقة عجزت الكلمات عن التعبير عنها. جاء صوته مرتعشًا، وهو يقرأ:
_أنا أم أحمد حنفي الديب؟ دي أمك؟

يتبع....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل التاسع عشر

كانت تلك فضيحة عظيمة، كأنها زلزلت الأرض تحت قدمي أحمد، فأحنى رأسه كمن غرق في أوحال العار، حينما لم تتوانَ أم الديب عن مطاردته هو وصديقه في الشارع، تصرخ وتبكي بمرارة، وكأنها كانت تُحضر لهذا المشهد المهيب منذ زمن بعيد، متسلحة بالدموع التي نضجت في قلبها إثر الشجار العنيف الذي دار بينهما في المنزل. وتلاعبت الحيرة بصديقه، فسؤاله المفاجئ جعله يتوقف لوهلة، حائرًا بين الإجابة أو الصمت، لكنه في نهاية المطاف نطق بتلعثم، كمن يحاول الإمساك بكلمات تفر من بين شفتيه:

_لا معرفهاش.

بصوت مرتجف وقلب مضطرب، نظر أحمد إلى الورقة بعينين يملؤهما التردد، كأنه أمام مرآة تعكس له حقيقة يخشى رؤيتها. وبنبرة مهزوزة، وجه سؤاله لأم الديب، كأن الكلمات خرجت من فمه متثاقلة، حذرة من أن تصطدم بصخرة الحقيقة التي قد تهوي على رأسه:

_مين اللي كاتب اسمي على الورقة دي؟

أم الديب بوضوح:جلال أخوك.

أحمد باحتدام:تمام لما أرجعله بس!

أم الديب بصراخ:الحقوني يا ناس، ابني بيتبرى مني بعد ما ربيناه وكبرناه ودخلناه الكلية، صبروني يا عالم، بموت يا خلق الحقوني يا هو!

أحمد بصياح:أنا معرفكيش، قولت معرفكيش!

ترك أحمد صديقه وسار مبتعدًا، متثاقلًا تحت وطأة التفكير، بينما ذكريات أخرى لتشاجره مع أم الديب في صباح أحد الأيام تتوالى في ذهنه. كان ذلك عند بزوغ شمس السابعة صباحًا، حينما غادر منزله مرتديًا ثيابه في غضب جامح، وانطلق إلى المواصلات من موقف أبو حلاوة متجهًا إلى جامعته بالقاهرة، حيث وصل إلى كلية التجارة ودخل المدرج، وهو لا يزال يغلي بداخله. جلس بين أصدقائه، يحاول استجماع أنفاسه، دون أن يعلم أن أم الديب كانت تلاحقه بخطى غير مرئية، إذ استقلت سيارة أخرى ووصلت إلى الجامعة في ذات اللحظة التي خطى فيها إلى المدرج، وبينما الأستاذ الجامعي، المعروف بشخصيته الصارمة التي ترعب الطلاب، قد دخل القاعة محذرًا الجميع من الرسوب بلهجة قاسية، كان أحمد يحاول التركيز على الشرح، حينما انتابته صدمة لا تُحتمل. لقد دخلت أم الديب المدرج أمام الجميع، مرتدية ثيابًا ممزقة، مهترئة كأنها خرجت لتوها من صراع مع الفقر، وقد التصقت بها قطع قذرة تحمل آثار فضلات الحيوانات التي تربيها. وبين يديها، كانت تحمل ذكر بط، كأنها رمز للفوضى. وفور أن وقعت عيناه عليها، تجمد في مكانه، وقد جمدت الصدمة ملامحه. سارت أم الديب بخطى ثابتة نحو الأستاذ الجامعي، غير مكترثة بأنظار الحاضرين، وصرخت بصوت متفجر، كأنها تقذف كلماته في وجه الجميع، قائلة:

_يشهد عليا ربنا يا داكتور، الواد اللي هناك دهو، دهو اللي هناك اللي لابس أزرق!

أم الديب الجزء الثالث

الأستاذ الجامعي بشك:ده؟
أم الديب بصياح:اللي جنبه، هي النضارة بتاعتك فيها مصيبة إيه؟ كبرناه وربيناه وفي الآخر مش عاوز يزغط دكر البط معايا، ما هما مش فالحين غير في الأكل وبس.
الأستاذ الجامعي بصدمة:انتي دخلتي هنا ازاي؟ ازاي تدخلوا الأشكال الزبالة دي جوا الجامعة؟ قوم أقف قوم!

انفجر الأستاذ الجامعي "عادل" سخطًا، وصدى صوته المتفجر عبر الميكروفون ملأ أرجاء القاعة، يطالب أحمد بالوقوف فورًا. نهض أحمد ببطء، كأنه يحمل جبلًا على كتفيه، وعيناه مغروستان في الأرض، غير قادر على مواجهة نظرات الأستاذ أو زملائه. كان يشعر وكأن سكينًا خفية تجرح كبرياءه مع كل لحظة تمر، وكل همسة ضاحكة تتسلل إلى أذنيه. ازدادت ضحكات زملائه وتداخلت في ضجيج ساخر، مستهزئين بالمشهد الغريب الذي لم يسبق لهم رؤيته من قبل. في تلك اللحظات، كانت أم الديب تتقدم بخطوات ثابتة نحو الأستاذ الجامعي، تحمل بين يديها ذكر البط كأنه كنز ثمين، ونظرة الفضول في عينيها لم تفارقها. وقفت أمام الأستاذ وقالت بفضول عجيب، بينما تحكم قبضتها على الطائر:
_أما قولي يا داكتور بتاكل البط ولا الوز؟

الأستاذ الجامعي بجلبة:اللي بيحصل ده مهزلة، أنا مش هسكت !

توجهت نظرات الأستاذ الجامعي نحو أحمد بحدة، وكأنها سهام حانقة تخترق الضحك الذي كان يثقل القاعة. صوته ارتفع عبر الميكروفون، متفجرًا بالانزعاج الذي لم يعد يستطيع كتمانه، وقال بصخب يكاد يصم الآذان، وكأنه يريد أن يُسمع إلى أقصى زوايا القاعة:
_اسمك إيه؟ تعالى هنا، خلص!
تقدم أحمد نحو الأستاذ بخطوات متثاقلة، وعيناه ما زالتا مسمرتين على الأرض، يحاول جاهدًا تجنب النظرات المستهزئة والضحكات المتعالية التي تتطاير من أفواه زملائه. وبينما كان يبحث في جيبه عن الكارنيه ليمدّه إلى الأستاذ، كانت أم الديب تتوغل بين صفوف الطلاب، ممسكة بذكر البط كأنه رفيقها الأوفى. فجأة، ارتفع صوتها الجهوري، كأنها لا تعي الفارق بين السوق والقاعة الجامعية، وقد علت كلماتها فوق صوت الأستاذ نفسه، تنادي بلا مبالاة، قائلة:
_دكر البط بمية وعشرين جنيه بس إنما إيه مليان لحمة، مين عاوز يشتري؟
انتزع الأستاذ الجامعي الكارنية من يد أحمد بعنف، كأنما يريد أن يمحو وجوده من القاعة في تلك اللحظة. نظراته كانت مشتعلة بالغيظ، وصوته خرج صارخًا عبر الميكروفون، كالرعد الذي يهز القاعة، متوعدًا لأحمد وأم الديب معًا. قال بلهجة تحمل في طياتها تهديدًا لا يقبل التراجع، وكأن الكلمات تحكمت فيها قسوة لا تعرف الرحمة:
_ده أنا هوديكم في ستين داهية، بقى دكتور عادل يتعمل فيه كده على آخر الزمن؟
رد أحمد بصوت خافت، بالكاد يُسمع وسط ضجيج القاعة، وكأن الكلمات تتسلل بصعوبة من بين شفتيه. كان رأسه ما زال منحنيًا نحو الأرض، كأنما يختبئ من ثقل العيون التي تلاحقه، وهمس بنبرة مكسورة:
_والله يا دكتور أنا مليش ذنب، أنا معملتش حاجة!

أم الديب الجزء الثالث

الأستاذ الجامعي بتوعد:ولا كلمة! أنا هعرفكم شغلكم كويس!

خرج الأستاذ من المدرج غاضبًا، تتعالى في داخله رغبة الانتقام مما حدث، متوجهًا بخطوات سريعة نحو مكتب رئيس الجامعة، حيث قدّم شكوى رسمية ضد أحمد وضد أمن الجامعة الذي سمح لأم الديب بالمرور دون أي اعتراض، وهي تحمل ذكر البط، في انتهاك صارخ لكل قوانين الجامعة التي لا تتسامح مع هذا النوع من الفوضى في حرمها. لم يتهاون الأستاذ في وصف تلك الحادثة على أنها هزلية ومهينة لمكانة المؤسسة الأكاديمية. ولأن الشكوى كانت صارمة، كان من نصيب أحمد الرسوب في المادة التي يدرّسها ذلك الأستاذ، ما اضطره إلى خوض امتحان التخلفات في الصيف، وهو يحمل في قلبه مرارة الذكرى التي لن تنسى. ظل أحمد طوال تلك الفترة يشعر بأن والدته المتجبرة كانت السبب في تعثره الدراسي، وأن مشهدها المهين أمام زملائه قد طعن كرامته طعنًا لا يبرأ. وعندما انتهى من سرد تلك القصة لزياد وهايدي والآخرين، ارتفعت ضحكاتهم إلى السماء، كأنهم يرفضون تصديق أن مثل هذه الحادثة قد وقعت فعلًا في الواقع. كان المشهد بالنسبة لهم أقرب إلى خيال ساخر، مما جعل زياد يطلق ضحكاته العالية وهو يربت على كتف أحمد، قائلًا بسخرية مفعمة بالدهشة:
_والله ما قادر، أنا متخيلتش إنها توصل للدرجة دي!

أحمد:ماما طول عمرها وهي كده وتوقع منها أي حاجة!

قبل أن يتم أحمد حديثه، تفاجأ بجرس الباب يرن برنينه المألوف، فنهض ليفتح، وما إن انفتح الباب حتى كانت المفاجأة الكبرى في انتظار عينيه، إذ وجد أم الديب تقف حياله، تحمل في وجهها تعبيرًا لا يخلو من الغموض. نظر أحمد إليها بذهول، وكأنما الدنيا قد توقفت للحظة، ثم سألها مستغربًا، محاولًا استيعاب وجودها هنا:
_إيه ده ماما؟ انتي جيتي ازاي؟

أم الديب بإرهاق:وسع يا ولا، جيت زي ما أخواتك جُم!

اقتربت أم الديب من نعمة، التي كانت جالسة مع الجميع في ريسبشن الشقة، ووجهه أم الديب يحمل نبرة منعتشة بالعتاب. نظرت إليها بحدّة، وكأن كلماتها تحمل في طياتها عاصفة من المشاعر المكبوتة، ثم قالت لها بصوت مرتفع، مما جعل الأنظار تتجه إليهما:
_بقى تعمليها فيا يا نعمة انتي وأختك وتيجوا من غيري؟

نعمة بدهشة:إيه ده ياما؟ انتي جيتي ازاي؟
أم الديب بتعجب:مالكم يا عيال كل ما حد يشوفني يقوم متنح ويقولي انتي جيتي ازاي؟ ليه هو انتوا فاكرين إنكم هتقدروا تهربوا مني؟

أم الديب الجزء الثالث

قالت هايدي لها بدهشة:
_نهرب منك إيه يا ماما؟ مانا قولتلك إن احنا هنروح نشوف الشقة ووافقتي وقولتي ماشي!
أم الديب:ايهي امتى دهو؟

نهضت جميلة، وكانت ملامحها تعكس قلقًا، ثم قالت لأم الديب بجدية واضحة في نبرتها:
_أقعدي يا طنط ارتاحي!

أم الديب بابتسامة:أبوسك الأول، ازيك يا مرات ابني يا غالية؟

قبلت أم الديب جميلة عشرين قبلة على وجنتيها، بينما كانت جميلة تظهر على وجهها علامات الاشمئزاز، حيث تباعدت بجسدها عنها كمن تحاول الهروب من براثن موقف غير مريح. لم تكن قادرة على تقبل وجود أم الديب معهم، لذا ردت بابتسامة متعجرفة، تتسم بالاحتقار الخفي:
_الحمدلله يا طنط، انتي عاملة إيه؟

أم الديب:نحمد ونشكر ربنا.

جلست أم الديب على الأريكة، تبحث عن لحظة راحة بعد صخب المواصلات، ثم سحبت سيليا من ذراعها بشكل مفاجئ، كأنها تعبر عن حاجة ملحة لاحتضانها، بينما ضمتها إلى حضنها بقوة غير مريحة، وبدأت تقبل رأسها بقسوة، وكأنها تسعى لإخضاعها إلى إرادتها. سألتها بلهجة حادة، تعكس مشاعر الحب:
_ازيك يا سوليا؟

سيليا برقة:هاي يا نانا بسمة.
أم الديب بإعجاب:زي السكر البت دهي، مش زي المخفية تقى.

قالت نعمة باعتراض، محاولة الرفع من شأن تقى، وكأنها تسعى لإعادة ترتيب الأمور:
_حرام عليكي ياما، ماهو كلهم أحفادك في الأول والآخر!

أم الديب بتمني:شدي حيلك يا بت علشان تجيبلنا الواد.
نعمة باعتراض:يادي النيلة عليا ياما.

ظل أحمد واقفًا، مشدودًا إلى حديث أم الديب، منتظرًا أن تنتهي من حديثها ليفتح باب الحوار. ثم اتجه نحوها، محاولًا كسر الجدال، وسألها عن مشروبها المفضل الذي تود احتسائه في منزله، قائلًا بإحسان:
_تشربي إيه يا ماما؟

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بتلعثم:أي حاجة عندكم، ده آني كنت هقع من طولي، روحت للداكتور قالي عندك أوانيميا.
لكن هايدي، التي كانت تراقب المشهد بتركيز، قررت أن تعيد ترتيب حديثها الملتوي، فالتفتت إلى أم الديب وقالت بتصحيح واضح، تعكس فيه حنكتها اللفظية:
_أنيميا يا ماما!

أم الديب بسُخط:ياختي عيشي عيشة أهلك!

تفوه أحمد باستغراب، مستنكرًا مجيء أم الديب دون سابق إنذار، حيث ارتسمت على وجهه دلالات الدهشة. قال بصوت يتخلله تساؤل غائر:
_طب مقولتيش ليه إنك جاية؟ على الأقل كنتي تيجي معاهم بدل مانتي جيتي لواحدك كده!

أم الديب:أهو اللي حصل، انتوا شربتوا إيه؟

نظرت أم الديب إلى أكواب مشروب البيناكولادا التي استمتع بها الجميع قبل قدومها، حيث أعدتها جميلة بكل حُب، وبعد دقائق من الحديث، توجه الجميع إلى شقة العروسين، ليعاينوها ويتخذوا قرارهم حول ما إذا كانت مناسبة لهما أم لا، بينما بقيت جميلة وطفلتاها ونعمة في الشقة يتحدثون معًا، إذ كانت نعمة تجد صعوبة في المشي لفترة طويلة، بسبب تورم قدميها نتيجة الحمل. كانت الشقة تشبه تمامًا شقة أحمد وجميلة، ولكنها كانت تحمل طابعًا عكسيًا، إذ كانت قديمة ومتهالكة، تعكس آثار الزمن منذ أن عاش فيها الجيران. بينما تجولت أم الديب في أرجاء الشقة، تتفحص كل زاوية وكأنها تبحث عن شيء مفقود، ثم التفتت إلى أحمد، وقالت له بلهجة تحمل شيئًا من الذهول:
_ايهي دي شبه شقتكم الخالق الناطق.

أحمد:أيوه يا ماما، ما العمارة كلها نفس النظام.
أم الديب بذهول:يا سلام يا سلام، شرحة وبرحة.

أعجب زياد بنظام الشقة بشكل كبير، مما أضفى عليها جوًا من الراحة. لم يستطع أن يخفي إعجابه، فالتفت إلى أحمد مبتسمًا، وقال بحماس:
_حلوة أوي بس هنغير الديكورات وألوان الشقة.

أحمد بابتسامة:زي ما تحبوا خصوصًا إنها شقة عرسان.

ارتاح قلب أحمد حينما تأكد أن الشقة نالت إعجاب زياد، حيث شعر بارتياح كبير، وكأن عبئًا ثقيلًا قد زال عن كاهله. ولم يكن ذلك الشعور محصورًا عليه فقط، بل شعرت هايدي بسعادة غامرة هي الأخرى، فالتفتت إلى أحمد، وعلامات الفرح تتلألأ في عينيها، وقالت له بحماسة:
_أحسن حاجة إن احنا هنكون جنبك!

أم الديب الجزء الثالث

أحمد بجذل:ماهي دي أحسن حاجة وأنا شايف إنها فرصة حلوة.
قال حامد لأحمد بإعجاب عارم، وهو يتفحص تفاصيل الشقة بكل انبهار:
_الله أكبر، شقة زي الفل، يارب أوعدنا!

أحمد بمبتغى:ربنا يرزقك بالأحسن منها.
حامد بتمني:يارب.

اتخذ زياد قراره بتأجير الشقة بعد تفكير سريع، فالتفت إلى أحمد بحزم واستعداد واضح، وقال بنبرة تحمل الثقة:
_خلاص أنا موافق، عايزين نتفق مع صاحب الشقة.
ردت هايدي بسرور، وعلامات السعادة تشرق على وجهها، قائلة بشغف:
=أيوه ياريت في أقرب وقت.
لكن وسط الغبطة التي ملأت وجوه الجميع، قررت أم الديب أن تعكر صفو اللحظة، فوجهت حديثها إلى زياد بنبرة تحمل تحديًا، وقالت له:
_اعمل في حسابك يا ولا إنك هتشتري الشقة دهي لبتي، آني بتي متقعدش في شقق إيجار!

زياد:إذا كان أخوها ذات نفسه قاعد في ايجار!

شارك أحمد في الحوار، وظهر الاعتراض بوضوح في نبرته وهو يقول لأم الديب بحزم:
_فيها إيه يا ماما؟ دي فترة لحد ما يشتروا شقة!
قالت أم الديب لزياد بغلاظة صوت، كأنها تريد إحباط حماسه:
_لو بخلان على بتي يبقى الجوازة دهي متلزمناش، متجيش هايدي تقعد في شقة إيجار ويحصل مصيبة إكمن مصايبك كتير وتلاقوا نفسكم مرميين في الشارع.

زياد بكمد:أولًا أنا الحمدلله مبعملش مصايب ودايمًا في حالي، واسألي أي حد يا مرات عمي! ثانيًا لو حصل أي حاجة لا قدر الله هنرجع الشقة اللي في بيت أبويا.

تلفظ أحمد، وهو يسعى لتهدئة الحوار الساخن بينهما، محاولًا استعادة الأجواء الودية، قائلاً بلهجة ملؤها الاعتدال:
_يا جماعة انتوا بتسبقوا الأحداث ليه بس؟ أصبروا وواحدة واحدة!
وجهت أم الديب حديثها لزياد قائلة بصياح، وقد علت نبرتها بشكل لافت:
_تبيع شقة أبوك وتشتري الشقة دهي وإلا مفيش جواز وكل واحد يروح لحاله!
قالت هايدي لوالدتها بخوف، ودموعها على وشك الانزلاق على خديها، بنبرة مرتعشة تفسر قلقها:
=يا ماما حرام عليكي بقى!

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بصياح:حُرمت عليكي عيشتك يا بت، قولتوا إيه؟
أجاب زياد بوجه عابس، يحاول مجاراة الأمور والتصرف كأنه متقبل للموقف، حتى وإن لم يكن ينوي تنفيذ ما قالته:
_حاضر يا مرات عمي، ربنا يسهل.
لن ينفذ زياد ما طلبته منه أم الديب، لكنه بدأ يتعلم كيفية الكذب عليها، متقمصًا فنون المراوغة كما اعتاد أبناؤها على فعل ذلك، إلى جانب حامد، وليالي، وحتى المعلم حنفي، زوجها، الذي لطالما أبدى استسلامه أمام توجيهاتها. كان رده دائمًا يبدو متوافقًا مع ما تتوقعه، لكنه في أعماقه لم يفعل شيئًا سوى ما يريده هو وعروسته، مما أضفى أجواءً من التوتر خلال جولتهم في الشقة، حيث كانت تعلو وجوههم تعبيرات عابسة تتناسب مع ضغط الحديث. في تلك الأثناء، كانت جميلة مشغولة بتسريح شعر ابنتها سيليا، التي جلست تحت ساقيها، مطمئنةً، واثقةً، تسلم نفسها ليدي والدتها باحثةً عن تسريحة شعر رائعة تضفي عليها مزيدًا من الجمال. بينما كانت نعمة، وهي تراقب هذا المشهد العائلي الدافئ بابتسامة خفيفة، قد انتبهت إلى اللحظة المناسبة لتسأل جميلة بفضول عن أخبارها بعد الزواج والإنجاب، قائلة:
_عاملة إيه يا جميلة بعد ما المسئولية زادت عليكي؟

جميلة بتنهد:متبهدلة جدًا مع البنات، مكنتش أعرف خالص إن الجواز مسئولياته كتير أوي كده، خصوصًا بقى لو في أطفال محتاجين رعاية.
نعمة بضحك:بنات كتير فاكرينلك ياختي إن الجواز فستان فرح وشوية رقص ومعازيم، ميعرفوش اللي مستخبي بعد منه... ده الواد محمد ابني طلع روحي أيام ما كنت حامل فيه، كنت كل يومين في المستشفى معلقة محاليل وحالتي ما يعلم بيها إلا ربنا.
جميلة ببصيرة:أنا ملاحظة فعلًا إنك جسمك ضعفان، لازم بجد تاخدي شوية vitamins وتاكلي أكل healthy!

نعمة برُعونة:مع إني مش فاهمة بس ماشي، أما قوليلي انتي محستيش بألم بعد ما خلفتي البتين ازاي؟ ده أنا يا جميلة ياختي وأنا طالعة من العمليات كانوا ستة سانديني!
جميلة بقهقهة:بُصي يا ستي، وقت فترة الـ pregnancyلازم يكون أكلك كله صحي وتلعبي رياضة، ده مهم جدًا بالإضافة إلى إنك لازم تستخدمي جهاز Pca وده اللي الدكاترة بتستخدمه في الولادة بدون ألم.
نعمة بتشوش:اصطبري عليا بس الله يكرمك! رياضة إيه اللي واحدة حامل تلعبها؟ ده احنا عندنا الواحدة بتصلي على الكرسي لحد ما العيل يشرف.

وفي الوقت الذي أنهت فيه جميلة تسريح شعر سيليا، اقتربت منها طفلتها واحتضنتها بحب، كأنها تعبر عن شكرها العميق. نظرت سيليا إلى والدتها بعينين مليئتين بالامتنان، ثم قالت لها ببراءة:
_ميرسي يا مامي.

أم الديب الجزء الثالث

جميلة بحدب:روح قلبي، يلا روحي كملي الرسم ولما تخلصي تعالي!
سيليا برقة:حاضر يا مامي.
جريت سيليا بلهو الأطفال نحو غرفتها، وهي حريصة أشد الحرص على ألا تزعج أسيل، التي كانت نائمة في هدوء، تلك الصغيرة التي لم تدخل الحضانة بعد، ولم يكن يشغل بالها سوى تناول السيريلاك، وشرب الحليب، حيث استخرجت من الدرج كراسة الرسم برفق، كأنها تتعامل مع كنز ثمين، دون أن تُصدر أي صوت يمكن أن يقطع خيط الصمت، ثم أخذت علبة الألوان وجلست على الأرض محاطة بأدواتها، لترسم قطة جميلة كما اعتادت، مظهرةً إبداعها الطفولي. في هذه الأثناء، كانت جميلة تشرح لنعمة أهمية ممارسة الرياضة خلال فترة الحمل، حيث أكدت لها أن التمارين الخفيفة يمكن أن تُساهم بشكل كبير في تسهيل عملية الولادة الطبيعية، وتوسيع الحوض بسلاسة، فالتفتت إليها بنظرة مليئة بالجدية، وقالت لها:
_بصي يا نعمة، هفهمك.

نعمة بتركيز:فهميني ياختي الله يسترك.

بينما كانت أم الديب واقفة في الريسيبشن مع حامد، زوج ابنتها، تتفحص الجدران والسقف بعين خبيرة كأنها تبحث عن أدق التفاصيل التي قد تفوت على غيرها. حيث كان المشهد مختلفًا تمامًا في البلاكونة، حيث وقفت هايدي مع زياد وأحمد، يراقبون جمال الحي الهادئ الممتد أمامهم. كان الحي يبعث شعورًا بالطمأنينة، بعيدًا عن صخب شوارع وسط المدينة التي اعتادوا عليها، حي مخصص للأثرياء، حيث لم يتمكن أحد من العيش فيه سوى أولئك الذين يعرفون قيمة كل خطوة. لن تجد هنا بائع الخردة يجوب الأزقة، ولا بائع غزل البنات ينادي في الشوارع الضيقة. كل شيء كان مضبوطًا بحساب دقيق، وهذا يعود لوجود حرس مشدد على بوابة المدينة، يدققون في كل حركة ويمارسون أعمالهم بدقة متناهية. كل شخص يعيش هنا في عزلة اختيارية، حيث لا مكان للتطفل أو اختلاط الأحوال، وكل باب مغلق بإحكام على أسرته، فلا أصوات تصدر عن شجارات الجيران أو نقاشاتهم كما هو الحال في الريف. وسط هذا الهدوء، لم يكن زياد مصدقًا أنه سيبدأ حياة جديدة هنا بعد شهور قليلة، برفقة محبوبته هايدي، تلك الحياة التي بدت غريبة عليه رغم كل ما فيها من رفاهية وراحة. التفت إلى أحمد، وعلامات الدهشة لا تزال مرتسمة على وجهه، وقال له بإعجاب ممزوج بالحيرة:
_المنظر رهيب، بصراحة حاجة فوق الخيال.

أحمد:مش بذمتك أحسن من العيشة المقرفة دي؟
زياد:ده أحسن بمليون مرة، بس الأحسن من كل ده إننا هنبقى جيران، وهنشوف بعض أربعة وعشرين ساعة.

قالت هايدي لأحمد بغبطة، وعيناها تتأملان جمال الحي وكأنها تحلم بحياة مثالية فيه:
_بجد أنا فرحانة أوي، بس يا خوفي بعد ده كله انتوا اللي تعزلوا وتروحوا مكان تاني!

أم الديب الجزء الثالث

أحمد بضحك:لا من الناحية دي اطتمني خالص، احنا حاليًا مش هنقدر ننقل لإن أنا وجميلة متفقين يوم ما ننقل هننقل على ڤيلا، والڤيلا محتاجة فلوس كتير فلسه بدري شوية.
هايدي بقهقهة:خلاص لو هتنقلوا على ڤيلا اعملوا حسابنا في واحدة جنبكم، المهم وراكم وراكم لو في آخر الدنيا!
أحمد بضحك:وأنا موافق .

قال أحمد لزياد بحسم، وعيناه تحملان جدية واضحة وهو يوصيه على هايدي كأنما يضع بين يديه أمانة غالية:
_المهم أنا بحذرك من دلوقتي هايدي تشيلها في عينك!

زياد بغرام:متخافش، انت مش محتاج توصيني عليها، هايدي في عينيا وقلبي!
أحمد بضحك:طب اعمل حساب إن أنا أخوها حتى!

في الخارج، كان حامد، زوج نعمة، يتجول وحيدًا في الشقة، مذهولًا من اتساعها الذي لم يرَ له مثيلًا في حياته، إذ كانت كل زاوية فيها تعكس رفاهية لم يعهدها من قبل. بينما أم الديب، التي لم تستطع إخفاء دهشتها، دخلت المطبخ بخطوات بطيئة، تتأمل الرخامة الواسعة التي بدت أمامها كأنها بحر ممتد، لم تكن تتخيل أن تكون بهذا الحجم الكبير. نظرت إليها بتعجب، وكأنها تفكر في كم الأطباق التي يمكن أن تُعد على هذا السطح، وقالت لنفسها بدهشة، وملامح تعبر عن استغرابها الكبير:
_ده شبه الرخام اللي بيطلع في برامج الطبخ اللي على التلافزيون بالظبط، ماهو لازم إكمن السكان اللي هناهو مش أي ناس مش هيعملولهم أي حاجة، إن مكانوش دول يقعدوا في شقق فخمة أمال مين اللي هيقعد؟

ثم اقتربت من الرخامة، ولمست سطحها ببطء قبل أن تقرر الجلوس عليها، إذ لم تعد سيقانها قادرة على تحمل الوقوف طويلًا دون وجود كرسي واحد يسندها. جلست أخيرًا، وكأنها وجدت راحة مؤقتة، ثم مررت يديها فوق الرخامة، مستشعرة نعومتها على الرغم من الأتربة التي علقت بأصابعها. شعرت بفرح غامر يختلط بإحساس الراحة، فقالت بسعادة لم تستطع إخفاءها:
_دهي ناعمة بشكل، يا بختك يا بت يا هايدي هتعيشي في الشقة دهي، ده كفاية المطبخ لواحده يفتح النفس.
وما إن أكملت أم الديب حديثها حتى انشقت الرخامة تحت ثقلها، وأخذتها معها في سقوط مفاجئ نحو الأرض، لتنقسم إلى نصفين بصوت مرتفع شق أرجاء الشقة بأكملها. ارتفع صدح الكسر كأنه زلزال أصاب المكان، مما جعل كل الأحاديث الدائرة بين هايدي، وزياد، وأحمد تنقطع فجأة على وقع الحادثة المفاجئة. أصاب الفزع قلب هايدي، فالتفتت بوجه شاحب، وقالت بذعر:
_إيه ده؟ في إيه؟
أحمد، بوجه مشحون بالقلق والاضطراب، همس في حيرة:
=شكل في حاجة اتكسرت!

أم الديب الجزء الثالث

عندما هرعوا جميعًا، مملوئين بالقلق، إلى المطبخ، وجدوا أم الديب مستلقية على الأرض، في حالة من السكون الغامض، بينما كانت الرخامة قد انقسمت إلى نصفين، وكأنها تعكس الفوضى التي تعم المكان.
لكن هايدي قد اختلجت مشاعرها بين الخوف والدهشة، فأطلقت صيحة عالية:
_يا نهار أسود، الرخامة اتكسرت؟
تقدم الرجال نحوها بخطوات خطروفة، عازمين على مساعدتها، لكنهم وجدوا أم الديب تنهض ببطء، تتوجع من الألم الذي غزا جسدها، وكأنها تحمل عبء العالم على كاهلها. بينما كان أحمد، بقلق متزايد، يمسك بيديه بقايا الرخامة المنشطرة، صرخ بصوت يعلو فوق همسات القلق، قائلًا لأم الديب باحتدام:
_انتي عملتي فيها إيه؟

أم الديب:ولا أي حاجة ياخويا، طلعت أقعد قامت مقطومة.

ارتسم على وجه هايدي الانزعاج، حيث تلفظت بكلمات تتصاعد من أعماقها بعصبية:
_وانتي تطلعي عليها ليه أصلًا؟
في خضم هذا الشجار الدائر، انطلقت ضحكات حامد العالية كالرعد، غير قادر على كبح مشاعره المتفجرة وهو يشاهد أم الديب تتدحرج على الأرض ككرة تتقاذفها الأقدار، تخلف وراءها آثار الفوضى في كل اتجاه. انطلقت قهقهاته بقوة، ممزوجة بنغمة من السخرية، وهو يقول لها:
_إيه يا حماتي انتي فاكرة نفسك ريشة؟

أم الديب بصياح:الجوازة دهي متلزمناش، دهو فال وحش ومنيل بستين نيلة.

تلفظت هايدي بكلمات مشبعة بالاستهزاء، وهي تنظر إلى أم الديب، حيث بدت ملامحها تعكس انطباعًا عن حديثٍ اعتبرته سطحيًا وغير منطقي، وكأنها تراه بعيدًا عن الحقيقة. وعباراتها كانت تتدفق كالسيل، مفعمة بالسخرية:
_إيه الهبل ده؟!

أم الديب بصراخ:اخرسي يا بت! مش كفاية ماشية على حل شعرك؟ احنا عندنا العروسة متشوفش شقتها غير ليلة الدخلة، مش انتي يا بت الكلب جاية تتسرمحي ولا ليكي ظابط ولا رابط!
هايدي بانفعال:هو أنا جاية لواحدي؟ مانا جاية مع نعمة وحامد، وقولنالك وانتي وافقتي، يعني معملناش حاجة من وراكي!

في محاولة من أحمد لتهدئة أعصابه المتوترة، اتخذ نبرة هادئة رغم الكارثة التي تسبب بها الوضع، موجهًا حديثه إلى والدته بانزعاج مختلط بالقلق. قال بصوت خافت لكنه مليء بالجدية:
_طيب روحي هناك يا ماما، احنا خلاص هننزل نتفق على الشقة وربنا يعوض على الرخامة اللي اتكسرت.

أم الديب:أحسن حتى رجليا تعبت، آني كان مالي آجي معاكم ليه وتتعبوني؟ ده آني اتمرمط.

ردت هايدي بعجيج واضح في صوتها، حيث ارتفعت نبرتها كأنها تعبر عن مشاعر السخط التي تغمرها:
_وهو حد كان قالك تعالي؟ انتي اللي جيتي من نفسك، يوه يارب صبرني بقى!
تنهد زياد بعمق، محاولًا تهدئة هايدي من العاصفة العصبية التي اجتاحت كيانها، فمدّ يده نحوها برفق، متبنيًا نبرة مشبعة بالهدوء:
=خلاص يا هايدي اهدي، ده ربنا يكون في عونكم بصراحة.
بصوت مفعم بالضجيج، سألَت أم الديب زياد، وقد بدا الغيظ في عينيها:
_بتقول إيه؟

زياد بخوف:لا ولا حاجة.

تراجع زياد للخلف، تجمد في مكانه خوفًا من صوتها الغليظ الذي كان يتردد في أذنه كالرعد، إذ تغيرت ملامح وجهها إلى شر لا يمكن إنكاره، مما جعله يشعر وكأنه لم يتفوه بشيء ذي قيمة. ثم انطلق برفقة أحمد نحو مكتب مالك الشقة، حيث تم الاتفاق على تأجيرها، بينما كان حامد وأم الديب وهايدي يتوجهون إلى شقة أحمد ليتخذوا من الهدوء مأوى لهم قبل العودة إلى القرية. لكن أم الديب، كعادتها، لم تتوقف عن صراخها، حيث استأنفت نزاعها مع هايدي، التي كانت تشتعل غضبًا، فهي تدرك جيدًا أن أم الديب هي السبب الوحيد وراء كل مشكلة تعترض طريقها. بعد أن تم الاتفاق بين زياد وأحمد، صعدا معًا إلى شقة جميلة، حيث جلسا لبرهة لا تتجاوز عشر دقائق، قبل أن يغادر الجميع ويتوجهوا إلى موقف السيارات، حيث استقلوا سيارة الميكروباص. بعد ساعات من الانتظار والترحال، عاد زياد إلى منزله، منهكًا جسديًا وعقليًا بفعل مشاغل تجهيزات الزفاف التي كانت تؤرق تفكيره، وداخل المطبخ كان حسين، والده، منهمكًا في صنع السجق المحمر، حيث كانت رائحته الفواحة تتسلل إلى كل زاوية من المكان، كأنها تعانق الهواء برقة. جلس زياد فوق كرسي الطاولة، ووضع هاتفه بجانبه، وكانت دلالات الإرهاق جلية على ملامحه، مما دفع حسين إلى سؤاله برغبة في الاطمئنان:
_إيه يا زياد عملت إيه؟

زياد بتنهد:روحنا واتفقنا على الشقة، كمان كام يوم هاخدك ونروح ندفع... بس مقولكش مرات عمي دي لواحدها حوار، أقسم بالله تشل، مستفزة بشكل مش طبيعي!
حسين بدهشة:وانت كان حد ضربك على إيديك؟ مانت اللي عايز بنت عمك، يبقى استحمل!
زياد:مستحمل والله وعاصر على نفسي مليون ليمونة، واللي مصبرني إننا هنعيش بعيد عنها خصوصًا إن هايدي ذات نفسها هتتجنن من عمايلها.

حسين:خلاص كبر الجمجمة منها، ركزوا في تجهيزات الفرح، ومتشغلوش نفسكم بيها !
زياد:أنا ناوي أعمل كده.

أم الديب الجزء الثالث

حسين باكتراث:ووصلتوا الشقة على كام؟
زياد بتضايق:الشقة إيجارها سبع آلاف في الشهر، بس مش دي المشكلة.
حسين بفضول:أمال إيه المشكلة؟
زياد:مرات عمي عايزة الشقة تمليك مش إيجار!

ألقى حسين نظرة ضيق على الوضع الذي يعيشه، إذ لم يكن له الجرأة على منع ابنه من هذا الزواج، مدركًا تمامًا أنه لن يكون عائقًا في طريق بهجة ابنه، فهو لم يكن يريد أن يبقى ذكرى سيئة تُدمي قلبه، تتردد في أذنه كما لو كانت تهزّ كيانه، حيث يبقى متذكرًا أن والده كان سبب خراب حياته. لقد نصحه وأدى دوره كأب، أما ما تبقى من خيارات فليس له يد فيه، لذلك استأنف عملية تحمير السجق بكل انشغال، وكأن العمل هو مهربه الوحيد من الأفكار المُتسارعة. وفي صباح اليوم التالي، حيث أشرقت الشمس بأمل جديد في يومٍ ينقض آلام الأمس ويغسلها برفق، تجددت طاقات الجميع بعد ليلة شاقة في الطريق، أضفى فيها النوم العميق على أرواحهم شعورًا من الراحة. بعدما انتهى حامد من الاستحمام في المرحاض، ارتدى ثيابه مستعدًا للدخول في غمار العمل، بينما كان يقف أمام المرآة يعدل لياقة قميصه بعناية، حتى بدا وكأنه يستعد لمواجهة تحدٍ جديد. وفجأة، وبطريقة غير متوقعة، قررت نعمة أن تفتح معه حديثًا حول موضوع الولادة بدون ألم، قائلة بتردد وهي تحاول اختيار كلماتها بعناية:
_بقولك يا حمو، كنت عاوزاك في موضوع كده!
جلس حامد على حافة السرير، حيث كانت أفكاره تتجول بين مشاعر القلق والترقب، وسألها باهتمام ينعكس في نبرته:
=خير يا نعومي؟

نعمة بعبوس:انت عارف يا حمو إن أنا فاضلي أربع شهور وأولد!
حامد:معلوم.
نعمة:أنا عاوزة أولد الولادة اللي من غير ألم، ده أنا اتعذبت في محمد عذاب الأولين والآخرين وأهو كان على يدك .
حامد بموافقة:وماله يا نعومي؟ شوفي انتي عايزة إيه واعمليه، المهم متتوجعيش.
نعمة بتردد:ماهي المشكلة مش في كده ياخويا !
حامد بتفكير:أمال في إيه؟

نعمة:أصل الولادة بدون ألم تعملها ١٣ ألف دلوقتي.
حامد بصخب:يا نهار أسود يا نعمة، وأنا هجيبلك منين؟
نعمة:اتصرف، ولا عايزني أتعب وأتعذب؟ ده أنا مش بعيد يجرالي حاجة.
حامد بشح:بس يا نعومي دي غالية أوي واحنا منقدرش على تمنها.
نعمة برهبة:نستلف فلوس يا حمو، المهم متعبش ألا أنا خايفة أوي أوي.
حامد:يعني الولادة اللي من غير ألم بـ ١٣ ألف جنيه؟
نعمة:أيوه ياخويا.

حامد:طب واللي بألم؟

كانت نعمة تخشى بشدة من ألم الولادة، حيث كانت تخيم على قلبها مشاعر الرهبة والخوف من الإبر والعمليات الجراحية، مما جعلها ترتعد منها بقوة، فهي لا ترغب في إعادة تجربة معاناتها السابقة مع ابنها محمد، الذي أرهقها طوال فترة الحمل والولادة، حيث تركت آثارًا عميقة في نفسها. لكن حامد، في تلك اللحظة، لم يعطِ ردًا نهائيًا، حيث قرر أنه سيعيد التفكير مرة أخرى في إمكانية الاشتراك في جمعية تساعدهم في جمع المبلغ المطلوب للولادة بدون ألم، متمنيًا أن يجد حلًا يخفف من مخاوف نعمة.
في تلك الأثناء، داخل شقة أم الديب، كانت هايدي قد اتفقت مع ليالي منذ أيام على أن تذهب معها لشراء جهازها، فليالي كانت أكثر خبرة بينهن، فهي أول من تزوجت وسبق لها أن ساعدت نعمة في شراء جهازها أيضًا. بينما كانت ليالي في شقتها تلقي لمساتها الأخيرة أمام المرآة، حيث وضعت البودرة المائية ذات الرائحة الفواحة، متجاهلة صيحات الموضة الرائجة في استخدام كريم الأساس الذي يعطي مظهرًا طبيعيًا. أما أم الديب، فقد جلست في الصالة أمام تلفازها العتيق، تستعيد ذكرياتها، حين خرجت هايدي من غرفتها مرتدية ثياب الخروج بعناية، ثم قالت لها باحتراس، وكأنها تتوخى الحذر في كلماتها:
_أنا هروح أجيب جهازي، عايزة عشر آلاف جنيه.
صرخت أم الديب من هول الصدمة، وكأن موجة من الفزع قد اجتاحت كيانها، حيث ارتفعت نبرتها كأنها تعبر عن أعماق قلب المفزوع، ثم قالت بنواح يعتصره الشح:
=يا لهوي عشر آلاف مرة واحدة يا بت؟

هايدي:أيوه مانا لازم لما أنزل يكون معايا فلوس زيادة، يفرض الفلوس مكفتش؟
أم الديب بصراخ:عشر آلاف عفريت لما يلبسوكي في ساعة واحدة، انتي إيه يا بت؟ معندكيش دم؟ فاكراني قاعدالك على كومة فلوس؟
هايدي بانفعال:أنا عروسة ومن حقي أتجهز زي أي بنت، وبعدين صحيح هي مش طنط بسملة اديتك فلوس كتير علشان جهازي؟ ودتيهم فين؟
أم الديب بحسرة:ايهي اتصرفوا على المشروع المايل، يا لهوي متفكرنيش يا بت ألا أقع من طولي أطب ساكتة!
هايدي برصانة:سيبك من الشويتين دول، انتي مخدتيش الفلوس كلها للمشروع، انتي خدتي جزء منها وشيلتي الباقي... قوليلي بقى ودتيه فين؟
أم الديب:الفلوس خلصت، مفاضلش فلوس.
هايدي بذكاء:يا ماما!
أم الديب بجدية:خلاص يا بت أصبري خدي ٥٠٠ جنيه يجيبولك نص جهازك، والنص الباقي بعدين.
هايدي بصراخ:٥٠٠ جنيه لجهازي؟ ليه جهاز عروسة لعبة؟ فين الفلوس يا ماما ودتيها فين؟

جاءت ليالي، وفي يديها ابنتها تقى، حيث كانت تبدو متألقة، وكأنهما تعكسان صورة من الأناقة. وقفتا على باب الشقة، وابتسامة عريضة تزين وجه ليالي، بينما كانت تحمل حقيبتها فوق كتفها بكل استعداد قالت لهايدي بحماسة:

أم الديب الجزء الثالث

_يلا يا هايدي!

هايدي بحنق:طب أدخلي لحد ما نشوف الحوار ده.
ليالي بذهول:حوار إيه؟
هايدي:قال إيه ماما بتقولي جهازي كله ألف جنيه، ٥٠٠ جنيه دلوقتي والباقي بعدين، ومش عايزة تطلع بالباقي!

دخلت ليالي وتقى الشقة، وعندما سمعت أن أم الديب تريد تجهيز ابنتها بخمسمائة جنيه، ضحكت ليالي بسخرية، حيث بدا الأمر كأنه نكتة في زمن يسير بسرعة البرق، فهذا المبلغ لا يكفي حتى لغطاء قدر في الحاضر. وأخذت تنظر حولها بفخر، مستحضرة ذكريات قريبتها حينما كانت تستعد لزفافها، فقالت بتباهي وهي تتذكر كم الأشياء الفاخرة التي حصلت عليها قريبتها في ذلك الوقت:
_انتوا بتهزروا ولا إيه يا جماعة؟ هو ده كلام برضة؟ ده أنا بت خالتي اسم الله عليها جايلها جهاز بنص مليون جنيه، ما شاء الله اسم الله عليها.
جاء رد أم الديب كالصاعقة، حيث أطلقته بصوت مشبع بالاستهزاء، وقالت لها بحقدٍ ساخر:
_القرعة بتتباهى بشعر أختها يا بت.

ليالي بسخط:قصدك إيه يا حماتي؟ قصدك إن أنا مجيبتش حاجة في جهازي؟
أم الديب باستهزاء:وهما شوية الحلل المقرحة دهي تتسمى جهاز يا بت سلامة؟ ده النسوان حوالينا كانوا بيجيبوا جهازهم على عشرين عربية نقل، مش زيك عربيتين كارو.
ليالي بصخب:لعلمك يا حماتي أنا أبويا معاه فلوس قد شولة الرز وإلا كده مكنش جاب لأختي حاجات تشرفها قدام جوزها وحماتها، أصل أهل أشرف كانوا صارفين ومكلفين علشان كده جابوا حاجات عليها القيمة، مش زيكم أوضة أنترية وتليفزيون... هجيبلك حاجات غالية ليه وانتي مكلفتيش نفسك حاجة؟ وبعدين ده بيت قديم .

أردفت ليالي لهايدي، وهي ترفع حاجبيها بتعبير يحمل مزيجًا من الاستهزاء والثبات، بالرغم من النيران المشتعلة في وجدانها:
_ده أنا حتى يا هايدي كل يوم بقول لجلال يشوفلنا بيت حلو بدل البيت المنتن ده.
تفوهت أم الديب بصياح قوي، وكأن كلماتها تتسرب من غياهب الحنق الذي يتأجج في صدرها، بينما نهضت من على الأرض ورفعت ذراعيها إلى الأعلى، وكأنها تستعد لسرد قصيدة مسبة في حق ليالي.
انطلقت كلماتها كالسيف، تُعبر عن امتعاضها، فقالت:
_ايهي داري بقى دار منتن؟ نهارك مدهون قطران ولمون ومصيبتك سودة محنية، يا دكر درفيل فى تلات براميل يتجر بخمسة مراكبية، يا عجل جاموس ميجبش فلوس الكيلو بنكلة مصدية، يا ترولي باص من غير ترباس يا عمر يابن أم ذكية!
ليالي بصياح:يا نهار أسود، انتي بتردحيلي يا حماتي؟طب وربنا مانا سكتالك!
قالت ليالي لابنتها بعجيج، وهي تزيحها برفق من طريقها لتتمكن من مواجهة حماتها:

أم الديب الجزء الثالث

_وسعي يا بت !

رفعت ليالي أكمام عباءتها، وأعطت حقيبتها لهايدي التي كانت ترتجف كأنها تتأهب لمواجهة عاصفة، إذ شعرت بأن خروجة اليوم قد ألغيت بفعل النزاع القائم بين زوجة أخيها ووالدتها، اللتين كانتا تسبان بعضهما بلا هوادة. وبينما كان جسدها يتمايل بحركات تعكس الاهتياج، قالت ليالي بصخب:
_جرالك إيه يا إيحة يا تلقيحة ياللي لا بتحطي كولونيا ولا ريحة؟ يا إبرة مصدية في الكوم مرمية يا....
بعد نصف ساعة من الشجار الذي اشتعل بين ليالي وأم الديب، كانت هايدي تحاول بكل الطرق الممكنة أن تهدئ الأوضاع بينهما، لكن كل محاولاتها باءت بالفشل الذريع، وفيما كانت هايدي تستعد للنزول مع ليالي، فوجئت بظهور أم الديب التي جاءت معهن، وكأنها قد ارتسمت على ملامحها تحديات جديدة.
قالت هايدي، وقد بدى على وجهها الاستغراب:
_انتي جاية فين؟

أم الديب:جاية معاكم، عندك مشكلة ولا إيه يا بت؟
هايدي بقلق:لا معنديش.

حينما توجهوا إلى المعرض الذي سينتقلون منه لشراء احتياجاتهم، دخلت أم الديب إلى المكان، حيث بدأت تتجول بين الأطباق المعروضة، وعيناها تتلألأن بشغف، وفي لحظة غير محسوبة، حاولت شد طبق كان متواجدًا على أحد الأرفف، لكنه انزلق من يديها وسقط على الأرض، مُحدثًا صوتًا مدويًا ككسر زجاجٍ في صمت المكان. تجمدت هايدي في مكانها، وامتدت أصابعها نحو فمها، في حين سرت في جسدها قشعريرة من الصدمة، وهي تراقب الكارثة التي وقعت. قالت هايدي بصدمة، بينما تسارع نبض قلبها في صدرها:
_يا ليلة زرقا!

يتبع....

الفصل العشرون

هايدي وليالي، اللتان عانتا من فاجعة سقوط الطبق الثمين من يدي أم الديب، جرتا في حالة من الارتباك. كان الجميع في المكان يسير بحذر شديد، مراعين كل ركن وكل زاوية حتى لا يتعرضوا لكسر طبق أو كوب من الأكواب الثمينة التي كانت تتلألأ في الواجهة، بينما كانت أم الديب في حالة من اللامبالاة، تندفع نحو الطبق المتكسر بعنف، دون أن تعير أي اهتمام لقيمته المادية، فقد اعتادت على استخدام الأطباق المصنوعة من الاستانلس والبلاستيك، وعندما شاهدت هايدي الموقف، لم تستطع أن تخفي قلقها، فقالت لأم الديب بصوت يعتريه الخوف:

_يا نهار أسود، انتي كسرتي الطبق؟

قالت ليالي لأم الديب بعتاب، وهي تشعر بقلقٍ يعتري قلبها:

=كده يا حماتي؟ أديكي هتدفعي تمنه.

في مكتب الموظفين، حيث كانت الأجواء مليئة بالجدية والنظام، لاحظ الجميع على شاشة الكمبيوتر حركة غير اعتيادية، تمثلت في أم الديب وهايدي، إضافة إلى ليالي، وهن يجمعن ما سقط على الأرض في مشهد يصف الارتباك، بينما كانت تقى واقفة إزاءهم، تنظر إليهن بذهول، مشدوهةً أمام ما يحدث. سرعان ما تحرك أحد الموظفين بسرعة نحو موضعهن، محاولًا إدراك الموقف وتصحيحه، حيث بدت عليه علامات الاستعجال، فقال لهم بلهجة مليئة بالاهتمام:

_الطبق اللي اتكسر ده بـ ٥٠٠ جنيه !

أجابت أم الديب بصياح:

=ايهي ٥٠٠ جنيه ليه يا راجل انت؟ ده هو يا دوبك طبق قد كدهو مش طقم إطباق!

الموظف بحزم:ملناش فيه، حضرتك كسرتيه وهتدفعي تمنه!

قالت هايدي لنفسها بصوت خافت، يكاد يُسمع همسُه بين أنفاس المكان:

_يادي النيلة اللي جات فوق دماغي !

وتابعت للموظف بنبرة مسموعة:

_طيب حضرتك أنا هدفع تمنه!

تلفظت ليالي بضيق، وقد غمرها الضجر، قائلة:

_لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فتحت هايدي حقيبتها بتردد، محاولةً استجماع قواها لتستخرج منها المال، عازمةً على دفع ثمن الطبق الذي كسرته أم الديب، مضحيةً بالأموال التي عملت بجد وسهر لأجل جمعها على مدى أسابيع طويلة، مما أضفى على موقفها طابع الفقدان المؤلم. كانت أم الديب كالرياح العاتية، تجرف كل شيء في طريقها، فقد نزعت بسلوكها هذا سعادتهم، وأثقلت كاهلهم بعبءٍ من الهموم، حتى الأموال التي بذلت هايدي الكثير لتحقيقها، وحينما لاحظت أم الديب أن هايدي تستخرج المال، أطلقت صرخةً ملؤها الاستغراب، قائلة:

_هتعملي إيه يا بت؟

أم الديب الجزء الثالث

هايدي:هدفع التمن، هعمل إيه يعني؟
اقترب أحد الرجال العاملين في المعرض بخطوات واثقة، وقد لفت انتباهه ما يجري من بعيد، فتوجه بحذر ليكتشف أصل الحكاية. وقف أمام زميله العامل، بنظرة يملؤها التساؤل، وقال بصوتٍ يقطر منه الفضول، راغباً في سبر أغوار ما يحدث، عسى أن يجد خيطًا لحل المشكلة:
_هو في إيه؟

الموظف بتضايق:الست دي كسرت الطبق، ده يعمله دلوقتي ٥٠٠ جنيه.

حينما تسللت مشاعر الإحراج إلى أم الديب، واشتد عليها وطأة نظرات العاملين وضغطهم الذي كان يزداد كالأمواج العاتية، تقدمت بخطى ثائرة نحو العامل الذي كان قد أجاب. وفي صوت كالعاصفة الهوجاء، انطلقت كلماتها تهدر بتهديدٍ مُبطن، متوعدة أن تسحق المعرض بكل ما فيه، قطعة قطعة، فوق رأسه، وكأنما تحمل بين نبراتها حنقًا يكاد يشعل المكان نيرانًا، قائلة:
_وعندي استعداد أكسرلك الدكان دهو كله فوق نفوخك لو محترمتش نفسك! واحنا فلوس مش دافعين، ده البت عروسة وبتتجهز ومحتاجين كل قرش وانت هناهو بتقولي تدفعي حق الطبق؟ ليه ياخويا كنت قاصدة أكسره؟ يكونش بيني وبينكم تار وآني معرفش؟
لكن ليالي، وقد أخذ الخوف يتسلل إلى قلبها كسراب يلفه الظلام، التفتت إلى أم الديب بنبرةٍ يعلوها الارتجاف، محاولةً إخفاء قلقها المتزايد. كانت عيناها تحملان خوفًا من أن يتفاقم الخلاف كالنار التي تلتهم الهشيم، إذ كانت تدرك جيدًا أعماق هذه المشكلة وأبعادها التي قد لا يراها الآخرون، فخشيت أن تتسع دائرة الصدام أكثر مما تحتمل الأمور، لذا قالت:
_أسكتي يا حماتي، متحرجيناش أكتر من كده!
نظر العامل إلى أم الديب بعينين تملؤهما الجدية، وفي صوته نبرة لا تقبل المساومة، فقال بحزمٍ لا يخلو من ثقل الموقف:
_حضرتك كسرتي الطبق ودي مش مشكلتنا، أي حاجة بتنقص من المعرض احنا كده اللي هنشيل تمنها!

أم الديب بصياح:هو البعيد بيفهم ولا مبيفهمش؟ مخك دهو فيه إيه؟ بقولك مقصدش! هو إيه أصله دِه؟

تفوهت هايدي بكلماتها وقد خنقتها مشاعر الإحراج، وكأن الحروف تتساقط من شفتيها ببطء تحت حجم الحرج الذي خيم على وجهها:
_خلاص يا ماما!
اقترب عامل آخر بخطوات هادئة بعدما تابع هو الآخر المشهد من بعيد، وكأنما كان يحمل بين يديه مفاتيح الحل لهذا النزاع المتأجج، وفي وجهه ارتسمت ابتسامة ودية، كمن يحاول إطفاء نار التوتر بنسيم من الهدوء، وقال لأم الديب بنبرة ملؤها اللباقة:

أم الديب الجزء الثالث

_الأطباق المعروضة مدفوع تمنها يا فندم تحسبًا لأي خسارة ممكن تحصل.

أم الديب بأفن:ايهي، يعني إيه؟
لم تستطع أم الديب أن تستوعب مغزى حديث العامل، وكأن كلماته مرّت أمامها كطلاسم غامضة. لكن ليالي، بعين ثاقبة وفكر سريع، أدركت ما يخفيه المعنى بين السطور، فالتقطت المعلومة وهي تحلق في الهواء، لتثبت مرة أخرى قوة استيعابها. بادرت على الفور بشرح ما أراد العامل إيصاله، محاولـةً تهدئة أم الديب وتوضيح المقصد، قائلة:
_يعني الأطباق اللي محطوطة قصادنا دي دافعين حقها لأنهم عارفين إنها ممكن تقع تتكسر من أي حد، يعني مش دافعين حاجة يا حماتي، ارتاحتي كده؟

أم الديب بصخب:وانتي مالك انتي يا بت بتتحشري في الكلام ما بينا ليه؟ وبعدين انتي إيه اللي جابك معانا؟

لم تستطع أم الديب تحمل كلمة واحدة من ليالي، إذ انفجر الغضب في صدرها كبركان لا يمكن احتواؤه، وصاحت في وجهها بصوت صارخ، لتضعها في موقف مُحرِج أمام الموظفين، وكأنما أرادت إخماد كل محاولة للتهدئة بحدة لا تعرف الهوادة. وفي لحظةٍ تصاعد فيها التوتر، تدخلت هايدي سريعًا، غير قادرة على كتم انزعاجها، فقالت لوالدتها بنبرة يعلوها الضيق:
_إيه يا ماما؟ أنا مش قولتلك إن ليالي هتيجي معايا لأنها فاهمة كويس في الموضوع ده؟
نطقت ليالي بكلماتها وقد طغى عليها طابع السخرية المرير، وكأنها تلقي بتعليقها بسلاسة خبيثة:
=ماهي لو واحدة تانية اللي جات مكنش حد قدر يفتح بوقة بنص كلمة، لكن هقول إيه بقى تطيق العما ولا تطيقنيش.

تفوهت أم الديب بعنفوان غاضب، وملأت صوتها نبرة عجيجة تنم عن استنكارٍ، وهي ترفض أن يُذكر اسم جميلة، التي تراها في مقامٍ رفيع كملكةٍ عظيمة، بينما تضع ليالي في مرتبةٍ أدنى، كمن تعتبرها خادمة بجانبها. كان لها في هذه اللحظة ملامح الظُلم، حيث لم تترك مجالًا للمقارنة بينهما، وكأنما أرادت أن تؤكد للجميع أن الفوارق بينهما لا تقتصر فقط على الأسماء، بل تمتد لتغمر أعماق الوجود:
_اللي بتتكلمي عنها دهي تقعد في بيتها زي الملكة متجيش وتتمرمط، ده كفاية عليها البتين اللي مغلبينها.

ليالي بكراهية:وحد كان قالك إن أنا رايحة أتفسح؟ مانا سايبة بيتي وابني وجاية معاكم، ولا هي بت البطة البيضة وأنا بت البطة السودة؟

قالت هايدي بنبرة ساخطة، تتدفق منها مشاعر الإحباط، كمن يعبر عن استنكار واضح لتصرفات والدتها:
_اسكتوا بقى، اسكتوا خالص! أنا مش فاهمة انتي إيه جابك معانا؟ ما تسيبيني في حالي بقى!

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بصياح:هلطشلك يا بت ومش هيهمني حد!

سأل أحد الموظفين هايدي، بنبرة تحمل في طياتها اهتمامًا صادقًا، وكأنما كان يسعى لكسر جليد التوتر الذي خيم على المكان:
_في مشكلة معاكي يا أستاذة؟

هايدي بخجل:لا مفيش.
الموظف باكتراث:طيب حضرتك بتدوري على حاجة معينة؟

انغمست أم الديب في الحوار، وكأنها ترى في نفسها نجمًا يتلألأ في سماء هذا الموقف، فقالت للموظف بسخرية ملموسة، تظن أن دمها خفيف وقادرة على تحريك مشاعر الضحك في قلوب الآخرين. انطلقت كلماتها كالألعاب النارية، تتراقص في الأجواء، وتخفي وراءها شحنة من الاستهزاء، قائلة:
_لا بتدور على حاجة مدورة، عسل ياختي، دمي زي السكر مفيش مني اتنين.
نظرت هايدي وليالي إلى أم الديب بتقزز، وكأنما كانتا تنظران إلى شيء مرفوض بشدة، ثم مشتا أمامها برفقة تقى، في حين انطلقت خطواتهن نحو طقم الحلل المتنوع الذي يزدحم بألوانه وأشكاله، بين الجرانيت اللامع والتيفال السلس، مع وجود خيارات أخرى متعددة تملأ المكان، بينما وقفت أم الديب في موقف المتفرج، تراقب عن كثب ما سيختارونه، مدفوعةً برغبة شديدة في التحكم، إذ كان واضحًا أنها ستؤيد بقوة أي خيار يتماشى مع ذوقها الخاص، بينما ستبدي رفضها باستماتة لأي شيء لا يلقى إعجابها، على الرغم من أنه لم يطلب منها أحد أن ترافقهم، حيث كانوا يدركون تمامًا مدى تدخلاتها المستفزة في كل ما يتعلق باختياراتهم، مما جعل الأجواء تتلبد بالتوتر حتى قبل أن تبدأ عملية الاختيار.
استقرت عيني هايدي على الأواني المتلألئة، وسألت ليالي بفضول يجمع بين الاستغراب والاهتمام:
_دي حلل جرانيت صح؟

ليالي:أيوه، الحلل دي حلوة بس غالية، قابلتني وأنا بجيب جهازي بس مرضتش أشتريها... لو عايزة تلمي على نفسك هاتي أي حاجة وريحي نفسك!
هايدي:لا طبعًا أنا عايزة حاجة نضيفة تعيش معايا العمر كله، مانا لو جيبت حاجة رخيصة هتبوظ بسرعة وهضطر أشتري غيرها كل شوية وبكده التكلفة هتكون أكتر، وعلى ايه؟ أجيبها غالية من البداية.
ليالي:هو بصراحة الغالي تمنه فيه، بس تفتكري أمك لو سمعت السعر هتوافق؟

قرأت هايدي السعر، فعندما لمحت الرقم المدون، تلاشت ملامح إعجابها وتحولت في لحظة إلى صدمة واضحة، كأنما سقطت عليها صاعقة من السماء. استدارت نحو ليالي، وعلامات الدهشة تتجلى في عينيها، ثم قالت بنبرة تعكس قلقها ورفضها لهذا السعر المرتفع:
_يا نهاري ده بتلات آلاف جنيه!

ليالي:مانا بقولك!

اقتربت أم الديب من أحد الموظفين، ووجهها يعكس ثقةً غير متزنة، بينما أشارت بيدها نحو الأواني المتنوعة، محاولة السيطرة على المعرض، وسألت الموظف بنبرة جلفة تفيض بالاستعلاء، قائلة:
_بكام الحلل دهي يا راجل انت؟

الموظف:٢٩٩٩ جنيه يا فندم.
أم الديب بتعجب:والجنيه الباقي راح فين؟
الموظف بوضوح:لأن ده تسعير نفسي يا فندم.

قالت هايدي للموظف بإصرار، وهي تشير إلى الطقم المطلوب الذي نال إعجابها بوضوح، معبرة عن رغبتها الملحة في الحصول عليه:
_طيب أنا عايزة الطقم ده!
صرخت أم الديب في وجه هايدي، والعبوس يتجلى على ملامحها، قائلة باعتراض صارخ يتردد في الأجواء، وكأنها لا تتحمل رؤية ابنتها تتخذ قرارًا دون موافقتها:
=يا لهوتي انتي مسمعتيش يا مخفية بيقولك ايه؟ بيقولك تلات آلاف، يا خرابي لما هتجيبي طقم حلل بتلات آلاف، أمال باقية جهازك هنعمل فيه ايه؟

هايدي:أنا عايزة أجيب حاجة تعيش معايا طول العمر مش يومين وتبوظ وتترمي!
أم الديب:محدش قالك إننا من الناس الأكابر، ده احنا ناس غلابة على قد حالنا، مانتي بت خايبة مش عارفة تصرفي الفلوس صح، يا عبيطة يا بت الهبلة التلات آلاف جنيه دول تجيبي بيهم حاجات كتير أوي أوي، متخليش جيرانا ياكلوا وشنا ويقولوا دول مجابولهاش حاجة!
هايدي بانزعاج:وأنا قولتلك مش هخلي حد يشوف جهازي، هما يشوفوه ليه أصلًا؟

سألت ليالي باستغراب، وعلامات التعجب بادية على وجهها، ساعية لفهم ما يحدث في خضم هذا الرفض المتصاعد، قائلة:
_ازاي بس يا هايدي؟ مش هيجولك في الصباحية يبقى وارد أوي يشوفوا حاجتك.

هايدي:لا اتطمنوا محدش هيشوفها، دي هتبقى شقتي مش معرض موبيليا للي رايح واللي جاي!

تفوهت أم الديب بعجيج، قائلة لهايدي بصخب:
_يعني خالتك لما تيجي مش هتوريها الشقة يا بت؟

أم الديب الجزء الثالث

هايدي بامتعاض:لما إن شاء الله ربنا يكرمني وأتجوز نبقى نشوف الحوار ده، المهم خلصوني أنا بالشكل ده هقعد لحد بالليل.

أشارت ليالي على الطقم، وأخبرت الموظف برغبتهم في شرائه، عازمة على تجاوز كل المعوقات التي واجهتهم. كانت عيناها تتلألأان بالإصرار، بينما تعكس نبرتها الحماس الشديد للحصول عليه، مبديةً ثقتها بأنه سيكون إضافة رائعة لمطبخ هايدي:
_طيب هاتلنا الطقم ده، العروسة هتاخده.
لطمت أم الديب وجهها، بينما بدت علامات الندم جلية على ملامحها، وكأنها تبحث عن مخرج من الموقف اللصب الذي وجدت نفسها فيه. كانت عواطفها تتصارع، حيث شعرت بخيبة أمل كبيرة، قائلة:
_يا خرابي يا لهوتي!
كانت أم الديب مضايقة للغاية من سعر الطقم، غير قادرة على استيعاب فكرة أن ابنتها تشتري أدوات مطبخ بهذا السعر الباهظ، فكيف لها أن تسرف أموالها في أشياء تفوق الميزانية، بينما لا تزال أمامهم الكثير من النفقات المتعلقة بجهاز زواجها؟ في الريف، اعتادت العائلات على شراء الكثير من المستلزمات بأسعار منخفضة، لا تكلفهم شيئًا يذكر، فحتى ليلة العزال للعروس تُعرض فيها مشترياتهم في سيارات عديدة، مما يعطي انطباعًا للناس بأن عائلتها ميسورة الحال وليست فقيرة. لكن من وجهة نظر أم الديب، كانت هذه الطريقة تعني أنها ستستطيع شراء القليل فقط، مما يشكل كارثة في حد ذاته. بعد جولة طويلة من التسوق، انتهى بهم المطاف إلى شراء عدد من الحلل والأطباق والكاسات، وكانت هايدي تحمل كرتونتين فوق بعضهما، مما أعاق رؤيتها للطريق، في حين كانت ليالي تعاني من نفس الموقف، بينما تحمل تقى علبة صغيرة تناسب سنها. أما أم الديب، فكانت فارغة اليدين، تشعر بعدم الراحة جراء عدم قدرتها على تحقيق ما ترغب به. وفي منتصف الطريق، شعرت تقى بألم في قدميها بسبب المشي الطويل، فأخبرت ليالي بإنهاك واضح، مستنجدةً بوالدتها، وقائلة لها:
_ماما، أنا تعبت!

ليالي بإنهاك:خلاص هنرجع البيت، كفاية علينا كده.
تقى بابتسامة:هاتيلي حاجة حلوة يا ماما، أنا دوخت!
ليالي بحنان:ماشي.

وضعت ليالي الكراتين فوق بعضهما بجانب سيارة مركونة، حيث كانت تراقب المكان حولها بعيون مغمورة بالحيوية، وقبل أن تذهب مع ابنتها تقى لشراء الحلوى من السوبر ماركت القريب الذي كان يلمع تحت أشعة الشمس، سألتها هايدي بفضولٍ كبير، يعكس رغبتها في معرفة ما ستفعله:
_رايحين فين؟

ليالي:هنروح نشتري شوية حاجات لتقى من السوبر ماركت ده.
هايدي:ماشي.

أم الديب الجزء الثالث

وضعت هايدي الكراتين جانبًا هي الأخرى لتريح ذراعيها المتألمين من ثقل الحمل الذي كانت تتحمله، ثم استخرجت هاتفها من حقيبتها لتطمئن خطيبها زياد عليها برسالة عبر الواتس آب، متطلعةً إلى الشاشة بلهفة، حيث تلقت منه رسالة تحمل في طياتها مشاعر الحب، يسأل فيها: "إيه يا حبيبتي طمنيني عليكي، عملتي إيه؟" وردت عليه بسرور: "الحمدلله يا حبيبي، اشترينا الحلل والأطباق والكاسات، ولسه فاضل حاجات بسيطة هنجيبها وهنرجع على البيت"، وهي تشعر بالراحة لاختصار المسافة بينهما بكلمات تحمل الألفة. وفي خضم تلك المحادثة، شعرت أم الديب بألم يعتصرها، وهي تتحسس ساقيها بإنهاك، بعدما قضت وقتًا طويلًا تسير في شوارع القاهرة المزدحمة، فتنفست بعمق وأفصحت عن معاناتها بوضوح، قائلة:

_آه يا رجلك يا أم الديب، كان مالك ومال كل دهو؟

هايدي:مانا قولتلك خليكي، انتي اللي صممتي!

أم الديب بإساءة:أسكتي يا بت، نقطينا بسكاتك! ده انتوا اللي يمشي وراكم يغرق، رايحة تجيبي طقم حلل بتلات آلاف جنيه يا بت؟ ليه مين اللي هيطفح فيه؟ مش زياد ابن حسين المبقع؟

هايدي بتعجب:هو أنا هطبخ له لواحده؟ مانا هطبخ ليا وله.

أم الديب بانتقاص:دهو على أساس إنك بتعرفي تطبخي؟ ده انتي مبتعرفيش تقشري بيضة، كان مالك ومال الجواز؟

هايدي بعصبية:يا لهوي على الكدب، هتروحي من ربنا فين على كمية الكدب دي؟ أمال مين اللي عامل الأكل من كام يوم؟

أم الديب بإفك:آني.

هايدي:برضة مصممة تكدبي؟ ماشي يا ماما!

بعد فترة قصيرة، عادت ليالي حاملةً كيسًا مليئًا بمختلف أنواع الحلويات، بما في ذلك الشيبسي، والبسكويت، والشوكولاتة، والعصائر المُنعشة التي تنعش الروح، وبدأت تخرج من الكيس ببطء، وهي تُقدّم لهايدي ما اختارته لها من تلك المأكولات الشهية. وكلما مدّت أم الديب يدها لتأخذ نصيبها، كانت ليالي تتعمد عدم إعطائها شيئًا، وكأنها تسعى لتأكيد شيء ما في نفسها، فتوجهت إلى هايدي، وهي تسلمها الشيبسي بنكهة الكباب المميزة، قائلة:ً

_خدي يا هايدي!

هايدي بابتسامة:شكرًا يا ليالي، أنا مش عايزة.

ليالي ببشاشة:والله ما يحصل، ده أنا جايبالك مخصوص، خدي بس خدي متكسفنيش!

هايدي بامتنان:ماشي شكرًا.

استلمت هايدي عبوة الشيبسي، وفتحتها بلهفة، ثم بدأت تلتقط شرائح الشيبسي المقرمشة، التي تذوقت نكهتها اللذيذة وكأنها تستمتع بلحظات من السعادة في خضم الأجواء المتوترة. بينما كانت تقى تستخرج البسكويت من العبوة، بشغف طفولي، مبتسمةً من فرط الحماس، وفي تلك الأثناء، نظرت أم الديب إلى

أم الديب الجزء الثالث

ليالي بنظرة تحمل في طياتها بريقًا من السخط الذي يتماوج مع غيظها، إذ كانت تقول لها بغل ينعكس في صوتها:
_وآني هوا قدامك ولا إيه؟

ليالي بتجاهل:يوه مخدتش بالي يا حماتي، هو انتي واقفة معانا؟
أم الديب بغيظ:لا واقفة مع الناس اللي هناك دهي، بقى بتطنشيني يا بت وعاملة نفسك مش واخدة بالك مني؟ آني ابني كان يستاهل واحدة ست بحق وحقيقي، الجوازة دهي مكنتش تلزمنا.

استخرجت ليالي المثلجات من الكيس، مفعمةً بالحب، لتعطيها لابنتها التي تعشق مذاقها اللذيذ، متجاهلةً تمامًا حديث أم الديب الذي يعكس الحنق. كانت عينيها تتألقان بالسعادة وهي تسلم تقى تلك المثلجات، كأنها تقدم لها هدية من قلبها، قائلةً لها بحنانٍ بالغ:
_خدي يا تقى، انتي بتحبي الچيلاتي.

تقى:عايزة شيبسي!
ليالي:خدي!

فتحت تقى عبوة الشيبسي، وبدأت في تناول الرقائق المقرمشة بشغف، بينما أم الديب، التي كانت تراقب الموقف من بعيد، لم تستطع كبح مشاعر الاستياء المتزايدة في داخلها. فتلفظت بصياح حاد، موجهًا حديثها إلى ليالي التي كانت تتجاهلها في كل مرة، قائلةً لها بامتعاض:
_وآني فين يا بت؟ بتعمليها فيا لتاني مرة؟

ليالي بشناءة:يوه هو انتي...

لا زالت ليالي ستقول نفس الجملة مرة أخرى، مما جعل أم الديب تفقد أعصابها، فتبرق عيناها بغضبٍ شديد، وكأنها تتحول إلى وحش كاسر يهدد كل من حوله، فاندفعت نحوها، ممسكةً بعنقها بكل قوة، مما أثار دهشة المارة الذين توقفوا للحظة ليشاهدوا ما يحدث أمام أعينهم، حيث كان أحدهم يبدو مترددًا، راغبًا في التدخل لإنهاء هذا المشهد العنيف، بينما واصل الآخرون سيرهم دون اكتراث، وكأنهم غير مدركين لخطورة الموقف، في الوقت الذي كانت فيه ليالي تشعر بالخوف، متمنيةً أن تنتهي هذه الأزمة سريعًا دون تصعيد، قالت لأم الديب بخرع:
_خلاص خلاص، خدي أهو!

أم الديب بحدة:ناس تخاف متختشيش.

أعطت ليالي الحلويات لأم الديب، متقيةً شرورها بخوفٍ، إذ كانت تدرك تمامًا أنها قد تفجر ثورة في لحظة غير مناسبة، وبعد أن تناولوا الحلويات التي كانت بمثابة وجبة سريعة تمنحهم دفعة من الطاقة

أم الديب الجزء الثالث

لاستكمال اليوم بحيوية، إلى حين الحصول على وجبة الطعام الأساسية في المنزل، شعروا جميعًا بشيء من الانتعاش. وبعد أن انتهوا من الطعام، وألقوا الأكياس في القمامة، اتجهوا لاستكمال المشتريات، وفي نهاية اليوم، تمكنوا من إنهاء كافة احتياجاتهم وعادوا إلى المنزل، لكن هايدي كانت تشعر بقلق متزايد تجاه أم الديب، فأخذت الأغراض وحملت بعضها بجهد لتصعد إلى نعمة، طالبةً منها أن تخبئها في شقتها، لأنها لم تكن لتأمن عليها في موضع يغمره الفوضى التي تسيطر على شقة أم الديب.
صعدت بأعجوبة وهي تحمل العبوات الضخمة، تتوقف بين الحين والآخر لتستريح، ثم تواصل صعودها بحذر. في الوقت نفسه، دخلت ليالي شقتها مع تقى، لتغير ثيابها وتبدأ في تجهيز الغداء قبل عودة جلال من العمل، متسارعةً في تنفيذ المهام كأنها تحاول مواكبة الوقت. في الأعلى، طرقت هايدي باب نعمة، وهي تناديها بصوت عالٍ يحمل في طياته مزيجًا من الإلحاح والخوف، قائلة:ً

_يا نعمة، نعمة !

فتح محمد الباب، فتألق وجهه بابتسامة دافئة تعكس ملامح الود، بينما قالت هايدي له بابتسامة مماثلة:

_عامل إيه يا محمد؟

محمد:كويس.

حملت هايدي كل العبوات بعناية ودخلت إلى صالة نعمة، تاركةً الباب مفتوحًا وراءها، ثم توجهت إلى الغرفة لتجد نعمة جالسة على سريرها، مستورة بالغطاء كأنها تحتمي من العالم الخارجي. حينما لاحظت نعمة مجيء هايدي، ارتسمت البشاشة على وجهها، وكأن الضوء قد أشرق الغرفة، قائلةً بدهشة واضحة تعكس سعادتها بزيارة أختها:

_انتي جيتي يا هايدي؟

اقتربت هايدي من نعمة، وقبلت جبينها بحبٍ، كأنها تبث في نفسها شعورًا بالأمان، ثم جلست على السرير ترتاح من مشقة الطريق الذي قطعته، حيث كانت آثار التعب بادية على وجهها. وفي تلك اللحظة، شعرت بفرحة عارمة لوجودها مع أختها، فتوجهت إليها بكلمات تحمل في طياتها مزيجًا من الود والإيجابية، قائلة:ً

=أيوه، عاملة إيه؟ كويسة؟

نعمة:الحمدلله، مقدرش أقول غيرها، ده أنا كنت لسه في سيرتك في التليفون مع حامد، أما قوليلي عملتي إيه؟

هايدي باضطراب:ماما جات معايا أنا وليالي وطلعت عنينا، قال إيه عايزة تجهزني بألف جنيه، وحرفيًا كل ما آجي أشتري حاجة بتقفلي وتعمل مشكلة، أنا مش هخليها تيجي معايا تاني.

نعمة بملل:هو أنا أتوه عن عمايلها؟ أنا المرة الجاية هاجي معاكي، بيني وبينك زهقت من قاعدة البيت، بقالي خمس شهور نايمة على ضهري ليل نهار لحد ما قربت أخلل.

هايدي بمعارضة:لا طبعًا، تيجي فين؟ مش الدكتور قالك غلط؟

أم الديب الجزء الثالث

نعمة:لا ده أول كام شهر لحد ما الحمل يثبت، أنا سألته قالي اتحركي كده كده العيل حجمه كبر ومش هيحصل حاجة.
هايدي بفضول:طيب صحيح معرفتيش بنت ولا ولد؟
نعمة:المفروض كنت أعرف من شهر فات، بس بيقولك العيل لافف نفسه ومش باينله ملامح.
هايدي:عادي بقى كل اللي يجيبه ربنا كويس، المهم أنا هشيل الحاجات اللي اشتريتها، في الأوضة عندك، خدي بالك منها!
نعمة بابتسامة:حاضر ياختي في عينيا الإتنين، ومتقلقيش محمد ابني زي النسمة مبيطلعلوش صوت!
عقب انتهاء كلمات نعمة، انتشر صدح تكسير أطباق في الشقة، مما جعل جسد هايدي ينتفض من مكانه، حيث تسارعت دقات قلبها مع ارتعاش خفيف يعتري أطرافها، وانفزعت من الصوت المفاجئ الذي أثار قلقها، وكأن ما حدث قد قلب موازين الأمان التي شعرت بها لحظات قليلة قبل ذلك. نهضت بسرعة، ومشاعر الفزع تتجلى في عينيها، حيث اتجهت نحو مصدر الصوت، عازمةً على اكتشاف ما حدث، وكأن كل تفكيرها قد تمحور حول ضرورة التأكد من سلامة أشيائها، قائلة:
_هو ده اللي زي النسمة يا نعمة؟
نهضت نعمة هي الأخرى ببطء، وخرجت خلف هايدي لتكتشفا ما يجري، ليجدوا أم الديب واقفة في منتصف الصالة، رغم الكراتين التي كانت تحظر المرور من الباب، وكأنها قد اتخذت من المكان ساحةً لصراعٍ جديد. وبسرعة، انحنت هايدي على ركبتيها، تتفحص الكراتين بقلب ينبض ذعرًا، حيث كانت مشاعرٍ القلق تتصاعد في صدرها. كان جسدها متوترًا، وعينيها تتنقلان بين الكراتين وأم الديب، في محاولة لفهم الوضع، بينما كانت تتأمل تلك الفوضى التي قد تنذر بمزيد من المشكلات، قالت لها:
_يا نهار أسود، إيه اللي حصل؟ في حاجة من الأطباق اتكسرت؟

أم الديب بصراخ:وانتي حاطة اللي يتكسر فوق دماغك في السكه ليه يا بت الكلب؟ كنت هتقلب على وشي!
هايدي بصياح:سكة إيه وزفت إيه؟ يارب ارحمني!

اكتشفت هايدي مصدر الصوت حينما وجدت طبقين مكسورين داخل العلبة، فتدفق شعور بالقلق في قلبها، وكأن تلك الأطباق المكسورة كانت رمزًا للفوضى التي عمت المكان. في الوقت نفسه، سألت نعمة والدتها باستغراب عن سبب وجودها هنا، متساءلة عن كيفية قدرتها على الصعود إلى درج المنزل، خاصةً وأنها تعلم جيدًا مدى صعوبة ذلك بالنسبة لها:
_انتي إيه اللي طلعك هنا ياما؟

أم الديب بشَدَه:يعني إيه يا نعمة؟ دهو بدل ما ترحبي بأمك وتجري تجيبيلها حاجة تشربها؟ مانتي جوزك بخيل جلدة، آني كنت فاكراه صاحب واجب، طلع قليل الأصل... ماهو طالع لأمه، ماهي الحِنشة مفيهاش مُسلم يا بت!

أم الديب الجزء الثالث

نعمة بصخب:يا لهوي عليكي ياما، هو انتي مش سايبة حد في حاله خالص؟ ده انتي لا سايبة أبويا في حاله، ولا سايبة ليالي في حالها، ولا سايبة زياد وحامد في حالهم، وكل يومين تطلعيلنا بعدو جديد، ده انتي بتغيري في أعدائك اكتر ما بتستحمي ياما!

أم الديب بمسكنة:آني ست طيبة وغلبانة، انتوا بس اللي مش فاهميني، هاتلي حقي يارب من اللي ظلموني!

ألقت هايدي الطبقين المكسورين في العلبة بانزعاجٍ عارم، بينما كانت دموعها تنهمر على وجنتيها، تعبر عن مشاعر الشجن التي اجتاحت قلبها، حيث كانت لحظة صعبة بالنسبة لها، فقد كانت تبكي على أشيائها الثمينة التي طالما حلمت بحمايتها في مكان آمن، بعيدًا عن شكاسة أم الديب التي لا تدرك قيمتها الحقيقية. اتضح أنها قد مرت بعنف بجانب الكراتين، دون أن تأخذ في اعتبارها ضرورة إزاحتها برفق، مما أسفر عن النتيجة الكارثية المتمثلة في كسر الأطباق، التي كانت تعني لها الكثير، وكأنها تكسر جزءًا من أحلامها، وفي خضم نحيبها الممتزج بصياحٍ مؤلم، قالت لوالدتها بصراخ:

_والله ما حد جاي معايا في حتة تاني، أنا هروح لواحدي وهعرف أتصرف، أنا مش هستنى لما ألاقي كل جهازي متدغدغ حتت، والله اللي بيحصل ده حرام!

لكن أم الديب، التي لم تقتنع أبدًا بخطأها، ردت عليها بعجيجٍ حار، وكأن كلماتها كانت نيرانًا مشتعلة تعبر عن تمسكها برأيها، مستنكرةً كل ما حدث، ومتجاهلةً مشاعر هايدي التي كانت في أمس الحاجة للدعم:

=ماهو من طمعك يا بت، أصل الطماع آخرته سودة، شوفتي؟ أهو ربنا مش مباركلك في جهازك، إكمنك طماعة وكلبة فلوس زي أخوكي جلال.

هايدي بنشيج:بطلي تقولي حاجات مش فيا! إيه علاقة اللي حصل بالطمع؟ أنا عايزة الجوازة تعدي على خير، إيه خلاص كفرت؟ ولا اللي بيتكلم في البيت ده وبيقول رأيه يبقى وحش وفيه كل العبر؟

حاولت نعمة تهدئة النفوس، فقالت بابتسامة:

_اهدي بس يا هايدي، أمك بتحبك ومش قصدها و ...

وجهت أم الديب حديثها لهايدي بصخبٍ عالٍ، مما جعل الكلمات تتردد في أرجاء الشقة وكأنها صدى لصوتها الجهوري، حيث كان غضبها يتسرب من كل حرف تنطق به، كأنما تسعى لفرض وجهة نظرها وسط الفوضى التي شهدتها، دون أدنى اهتمام بمشاعر من حولها، قائلة:

_ماهي أمك مش راضية عليكي لو كنت راضية عليكي مكنش كل دهو حصل، اشربي بقى!

تلفظت نعمة بجلجلة:

=ده انتي عليكي عمايل، يعني أنا بصلح وراكي وانتي مصممة تخربي؟

نظرت أم الديب إلى نعمة بغرورٍ، وكأنها تحمل في عينيها عبئًا من الاستياء لا يمكن تصوره، ثم غادرت الشقة دون أي مبالاة، عائدةً إلى شقتها كأنما تفر هاربة من مشاعر العداء، لتستقر في مكانها المفضل أمام شاشة التلفاز، حيث كانت تنغمس في متابعة المسلسلات التي تفضلها، متجاهلةً كل ما حولها، ساعية للانفصال عن الواقع المحيط بها. في تلك الأثناء، جلست نعمة بجانب هايدي على

الأريكة، محاولةً أن تكون مصدر الراحة والدعم في لحظاتها الصعبة، حيث كانت تواسيها بعبارات تحمل في طياتها الحنان الأخوي الذي لا يُقدر بثمن، بينما كانت هايدي تنتحب بشدة، وكل كلمة من كلمات نعمة كانت بمثابة طوق نجاة يحاول تخفيف الألم الذي يعتصر قلبها، قائلة:

_معلش يا هايدي أصبري كلها كام شهر وتتجوزي وترتاحي منها!

لن تتحمل هايدي الانتظار أكثر من ذلك، حيث ظلت نعمة تواسيها وتقدم لها الدعم الأخوي الذي كانت في أمس الحاجة إليه، مما جعلها تشعر بأن الأمل لا يزال موجودًا حتى في أحلك اللحظات. وبعد أسبوعين من الزمن مروا كلمح البصر، يوم تخرج هايدي مع نعمة في أجواء من السعادة، ويوم آخر تخرج مع ليالي، وأيام أخرى كانت تذهب مع الاثنتين لتكملة المشتريات الضرورية لجهازها، حيث أصبح روتينهم يتضمن الذهاب في يوم والراحة في اليوم التالي، ثم الخروج في الثالث، وهكذا، ومع مرور الوقت، لم تعد أم الديب تذهب معهن، مما جعلهن يستمتعن بأوقاتهن دون تدخلات مزعجة، حتى جاء اليوم الذي قرروا فيه الذهاب لشراء مستلزماتها، وفي ذات الوقت قرروا أن يمروا على الطبيب لاحقًا ليتأكدوا مما إذا كانت نعمة حاملًا في أنثى أم ذكر. كانت وجهتهم معرضًا فاخرًا يقع في وسط شوارع القاهرة، حيث كانت هايدي مُصممة على عدم شراء جهازها من قرية أبو حلاوة، مهما حاولت نعمة أو ليالي إقناعها بخلاف ذلك. وقد استقلوا المواصلات معًا وتوجهوا نحو القاهرة، حيث كانت الخطة المحددة هي شراء باقي الأدوات المنزلية، المعروفة بـ"الرفايع"، وبعد ساعات طويلة من الذهاب هنا وهناك، تمكنوا من شراء كل ما تشتهيه نفس هايدي، وبينما كانوا يقفون على الرصيف وسط المتجولين، شعرت ليالي بالسعادة تغمرها، فقالت لهايدي بسرورٍ بارز في صوتها:

_اشترينا شوية حاجات ما شاء الله زي الفل، تتهني بيهم في شقتك يا هايدي.

هايدي:يارب يا ليالي عقبال ما تجوزي حمود وتقى.

ليالي:يارب.

لم يكن زياد مرتاحًا في ظل أن هايدي تمر بمرحلة تجهيز عش الزوجية، بل بالعكس، كان يراقب عن كثب أعمال النقاشين في الشقة الجديدة، حيث انشغل ذهنه بالتفاصيل الدقيقة التي تحتاج إلى اهتمامٍ وعناية. وفي هذا اليوم، قرر أن يأخذ والده حسين، وتوجهوا معًا إلى الشقة التي كان يتواجد فيها أيضًا أحمد، حيث كان العمال يعملون بكل جهد واجتهاد، ينفذون كل ما كلفهم به العروسين من ألوان جديدة وديكورات أنيقة، بينما كانت الأرضية مزينة بسيراميك يتميز بجودة بورسلين حر ذات اللون الأبيض النقي. بينما تجول حسين بين العمال، متفقدًا ما وصلوا إليه من تقدم في العمل، انبهر بالنتيجة النهائية التي كانت تتبلور قبال عينيه، وفي لحظة تجلى فيها الإعجاب، قال لهم بحرارة تعبر عن تقديره لجهودهم:

_الله ينور يا رجالة.

أجاب النقاش، وهو مندمج تمامًا مع العمال في دهن حائط غرفة النوم بألوان مُبهجة، حيث كانت فرشاة الطلاء في يده تتحرك برشاقة، مُظهرة حماسته لهذا المشروع، قائلًا بنبرة ملآنة بالاعتزاز:

=بنورك يا أستاذ حسين.

أم الديب الجزء الثالث

سأل زياد أحمد، وهو يحاول فهم عقلية أم الديب التي ترغمه على شراء الشقة بدلًا من تأجيرها، مما أثار في قلبه تساؤلات متعددة، حيث لم يكن بإمكانه تجاهل الفكرة التي تسيطر عليها، والتي بدت له وكأنها تتجاهل تمامًا واقعه كشاب في مقتبل العمر، لا يزال يسعى لبناء مستقبله. كان يعتقد أنه ليس من الحكمة أن يُلزم نفسه بمسؤوليات مالية كبيرة في بداية حياته، بينما كان من الأسهل له استئجار مكان مناسب، مما يسمح له بالتنقل والمرونة في خياراته، فالتخطيط للمستقبل يتطلب نوعًا من التفكير المتوازن الذي يتلاءم مع طموحاته، وليس مجرد ضغط لتحقيق تصورات معينة:
_مانا عايز أفهم برضة، مرات عمي هتفضل مصممة إن أنا أشتري الشقة لحد امتى؟ يا نهار أسود دي الشقة بتلاتة مليون ونص، هجيبهم منين دول؟

أحمد بحصافة:مانا هقولك، أنا والله ما بستغل إنها مبتعرفش تقرأ وتكتب، بس في الحالة اللي زي دي لازم نعمل كده... احنا هنقولها إننا اشترينا الشقة وكبر دماغك!

قال حسين لأحمد بضيق من تصرفات أم الديب، وكأنها تتجاهل تمامًا ما يمر به زياد من صعوبات في بداية حياته، وكأنما تحاصرهم بآرائها وتصوراتها التي قد لا تتماشى مع الواقع:
_انت معلكش عيب... أمك هي سبب العيب كله متزعلش مني، دماغها أنشف من الحجر وعايزة كل الناس تسمع كلامها ومحدش يرفض طلبها... لما شاب لسه في بداية حياته يجيب شقه بتلاتة مليون ونص ده غير نقاشة الشقة، ولسه العفش، ولسه الفرح... ده الفرح ده لواحده موال !

أحمد:عندك حق يا عمي، مانا علشان كده بقولكم نعمل إننا اشتريناها ونريح دماغنا من المشاكل.
حسين:طب اعذرني يابني، يفرض حد من أخواتك اتكلم قدامها، العمل إيه ساعتها؟
أحمد بمُخطط:أنا هتفق مع جلال ونعمة وهايدي والموضوع سهل، انتوا بس اللي خايفين زيادة عن اللزوم.
حسين بقلق:ماهو لازم نخاف، دي أمك وأنا مش محتاج أتكلم عنها.
أحمد:عارف يا عمي بس متقلقش احنا هنتفق كلنا نعمل إيه وبعدين إن شاء الله زياد وهايدي لسه قدامهم العمر طويل، مشتروش شقة دلوقتي يشتروا بعدين مش نهاية الكون يعني.
حسين بإعجاب:ربنا يبارك فيك وفي دماغك.

تم الوصول إلى خطة جبارة بين أحمد وزياد وحسين لينتهوا من ثرثرة أم الديب وشجارها الذي لا ينتهي معهم، على الرغم من صفاتهم النبيلة والطيبة، إلا أنها أجبرتهم على استغلال جهلها في القراءة والكتابة، ليقنعوها بأن زياد قد قام بشراء الشقة بالفعل. بعد ذلك، توجهوا مع أحمد إلى شقته حيث قدّم لهم الشاي بالنعناع، الذي لطالما أحبوه، في غياب جميلة التي كانت مع ابنتيها في النادي يمارسن حصص السباحة تحت إشراف مدرب ماهر. بينما كانت نعمة وليالي وهايدي قد عدن من القاهرة محملات بالمشتريات الثقيلة، صعدت ليالي وهايدي بالأكياس إلى شقة نعمة لوضعها في غرفة محمد، ثم نزلوا معًا ليذهبوا إلى الطبيب في القرية. وهناك، جلسوا في انتظار دورهم بين العديد من النساء الحوامل واللواتي يرغبن في

أم الديب الجزء الثالث

الحمل، حيث كان المكان يعج بالأحاديث والهمسات، وعندما جاء دور نعمة، دخلوا معًا إلى غرفة الطبيب، الذي استقبلهم بابتسامة دافئة على وجهه، مما أعطى انطباعًا بالراحة، وقال لنعمة بلُطف:
_مجيتيش بقالك فترة يا مدام نعمة.

نعمة بوهن:معلش يا داكتور مكنش فيا حيل.
الطبيب بتعجب:ليه؟ مش بتهتمي بأكلك زي ماتفقنا؟
نعمة:لا باكل والله حتى اسأل ليالي.

ضحكت ليالي، ودافعت عن نعمة بحماس، مخبرة الطبيب بأنها تأكل جيدًا كما أوصاها، على الرغم من أنها في الحقيقة لم تكن تتبع تلك النصيحة بشكل دقيق. كانت تحاول أن تُظهر لنعمة أنها تهتم بسلامتها، وأنها تأخذ الأمور بجدية، حتى لو كانت هذه الكلمات تُخفي الحقيقة، قائلة له:
_أيوه نعمة مهتمة بأكلها زي مانت قولت، حتى أنا حاساها ابتدت تتخن وتربرب.

الطبيب بابتسامة:طب كويس ننتظم بقى.

كانت نعمة على أحر من نار الجمرة، تتأمل بلهفة في معرفة جنينها، حيث تملأها الأحلام والتطلعات، متمنية أن تكون هذه المرة فتاة، تعبر عنها بألوان من الأمل. لم تستطع كبح جماح مشاعرها، فتوجهت إلى الطبيب بحماس لا يوصف، قائلة له:
_ماشي يا داكتور، المهم ورينا العيل عايزين نعرف نوعه.

الطبيب:طيب اتفضلي!

نهضت نعمة واستلقت على سرير الكشف، بينما وقفت ليالي وهايدي بجوارها، مترقبين بفارغ الصبر تلك اللحظة الحاسمة. وضع الطبيب الجل على بطن نعمة وبدأ يكشف بالسونار، محاولًا تحديد نوع الجنين. في تلك الأثناء، كانت ليالي تأمل في أن تنجب نعمة ولدًا، فبدأت تردد في نفسها بتمني:
_إن شاء الله ولد.
ردت هايدي، وهي تحمل نظرة من الرضا في عينيها، مؤكدةً أنه لا يفرق معها سواء كان الجنين ذكرًا أو أنثى، فالاثنان في نظرها هدية من الرحمن، يرمزان إلى الحياة الجديدة وأمل الغد:
=ولد بنت مش فارقة، كله حلو من عند ربنا.

سألت ليالي الطبيب بفضول، وقد ارتسمت على وجهها ملامح الترقب، بينما كان الجنين يظهر على الشاشة بوضوح، حيث كانت تتلهف لسماع الخبر الذي سيحدد ملامح المستقبل. قائلةً بسعادة:
_إيه يا داكتور طمنا؟

الطبيب:الجنين بنت. **يتبع.....**

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الحادي والعشرون

كانت الصدمة جليلة عندما تسرب الخبر إلى نفوس نعمة وليالي وهايدي، لتدرك كل منهن أن نعمة تحمل في أحشائها أنثى. بالنسبة لنعمة، كانت الصدمة مختلفة؛ إنها صدمة الفرح التي انفجرت في داخلها كما تمنت طويلًا، فقد لامست أملها الخفي الذي احتضنته لأيام. لكن هذا السر الصغير لم يبقَ مكتومًا؛ إذ تسلل سريعًا إلى أذني أم الديب، فثارت كبركان حانق لا يرحم، وصرخت في وجه ابنتها، بصوت عميق يشق صمت الجدران، غير قادرة على استيعاب أن ابنتها ستنجب أنثى، لتجد نفسها وسط دوامة معايرة الناس، الذين يرون في ولادة الأنثى وصمة عار تلطخ حياة الأسرة. قالت أم الديب، وبصرخاتها تذوب مع الهواء:

_يا خرابي بت يا نعمة؟ بت؟

نعمة بارتياع:أه ياما، أهو رزق وجالنا

قالت أم الديب للمعلم حنفي بحسرة تختنق في حنجرتها، وهي تسترجع في ذاكرتها تفاصيل الأنساب وتعد أحفادها واحدًا تلو الآخر، وكأنها تحسب في قلبها وزن الثقل الذي تلقيه الإناث والذكور في ميزان العائلة:

_عد معايا يا حنفي!

المعلم حنفي بتعجب:أعد معاكي إيه يا ولية؟
أم الديب بتفكير:تقى، وسيليا، وأسيل، والمحروسة الصغيرة اللي جاية في السكة!
المعلم حنفي بفرحة:ياه يا حنفي، كبرت وجه اليوم اللي بقى عندك فيه خمس أحفاد؟ !
أم الديب بصراخ:أربع بنات وو ادين اتنين بس؟ يا خرابي !

استمرت أم الديب في العويل داخل أرجاء المنزل، كأنما حلت فاجعة ثقيلة على رؤوسهم، أو كأن حادثة عظيمة وقعت لتزلزل الأرض تحت أقدامهم. كان صوتها يملأ المكان كعاصفة لا تهدأ، وكأنها لا ترى إلا ظلامًا يحيط بها. بينما في الواقع، كان الآخرون في الخارج يحلمون بلمسة إصبع طفل صغير، ويدفعون الغالي والنفيس، ويرهنون قلوبهم وأعمارهم مقابل أن يحتضنوا مولودًا بين أيديهم. وسط هذا الصخب، شعرت نعمة بالضيق يتسلل إلى صدرها، وقد أثقلها العجيج المتصاعد من والدتها، فقالت لها بانزعاج ظاهر، وهي تكاد لا تحتمل:

_بقولك إيه ياما! أنا تعبت من حواراتك دي! مالهم البنات؟ ما هما زي الفل وأهو يبقى عندي الواد والبت.

قالت أم الديب للمعلم حنفي، بقهر يمزق روحها تمزيقًا، وكأن كلماتها كانت سكاكين حادة تغرس في أعماق قلبها مع كل حرف ينطق به لسانها:

_قلبي واجعني يا حنفي !

أم الديب الجزء الثالث

المعلم حنفي بصياح:ما يوجعك ولا ياكش يولع فوق دماغك يا ولية .

وجه المعلم حنفي حديثه إلى نعمة، والبسمة تعلو شفتيه، مفعمًا بالسرور وهو يهنئها على حملها بالأنثى، فهو لم ير في هذا الأمر ما يعتبره الآخرون نقمة أو أمرًا سيئًا. بل بالعكس، كان يرى في إنجاب الإناث نعمة عظيمة تفوق بكثير ما قد يجلبه إنجاب الذكور. فالإناث، في نظره، يحملن في قلوبهن طيبة لا تضاهى، ورحمة لا تنضب، وحنانًا لا يمكن أن يُحصى أو يُعد. قال لها، بنبرة مليئة بالدفء والإيمان بما يؤمن به:

_مبروك يا نعمة.

نعمة بخَوَر:الله يبارك فيك يابا.

عندما دخلت هايدي غرفتها وأغلقت الباب خلفها، جلست بهدوء على سريرها، وأمسكت هاتفها لتبدأ البحث بعناية عن عيادات التجميل، استعدادًا للتحضير لمراحل ما قبل الزفاف. كان ذهنها مشغولًا بأدق التفاصيل؛ كيف ستهتم ببشرتها وجسدها لتظهر بأبهى صورة، تمامًا كما تفعل كل العرائس في هذه اللحظات الحاسمة؟ وبينما كانت تتنقل بين المواقع والمراكز، اكتشفت أن الأسعار باهظة للغاية، فتجعدت ملامح وجهها مع كل رقم تقرأه. وبعد فحص طويل وتأمل عميق، أدركت أن الأسعار موحدة تقريبًا في جميع مراكز التجميل، وكأن هذا الثمن المرتفع بات قانونًا غير مكتوب. شعرت بالصدمة تتغلغل في نفسها وهمست بدهشة:

_مانا مش معقول هسيب نفسي كده ليوم الفرح!

بدأت دموع هايدي تسيل على وجنتيها بصمت ثقيل، وكأن الحزن الذي اجتاح قلبها لم يجد سبيلًا للخروج إلا من عينيها. وبينما كانت غارقة في هذه اللحظة، دخلت نعمة غرفتها بالصدفة، فلم تستطع أن تتجاهل المشهد الحزين الذي رأته أمامها. اقتربت منها بخطى هادئة وجلسَت بجوارها على السرير، وعينيها تنطقان بالحنان والتساؤل. مدّت يدها بلطف، وربتت على كتف أختها برفق، قبل أن تسألها، بصوت يفيض اهتمام:

_مالك يا هايدي بتعيطي ليه؟

هايدي بإرتعاب:خايفة أوي يا نعمة، قلبي مقبوض!

نعمة بمُبالاة:خايفة من إيه؟

هايدي بخشية:خايفة أوي من المسئولية اللي أنا داخلة عليها، الجواز مسئوليته كبيرة، خايفة مكنش قدها!

نعمة بتخمين:شكلك حد اتكلم قصادك في حاجة.

هايدي:لا محدش اتكلم، بس أنا فكرت بيني وبين نفسي حسيت إن الموضوع كبير أوي، خصوصًا إنكم متبهدلين أوي في البيت وتربية الأطفال!

نعمة ببسمة:اسمعي يا خايبة، مش علشان واحدة طلع حظها وحش يبقى كله كده، الجواز زي البطيخة وانتي وحظك يا تطلع حمرا يا تطلع قرعة، واللي بتتكلم قصادك وقرفاكي أربعة وعشرين ساعة بتشتكي بتكون هي أكتر واحدة بتخزي العين!

هايدي بتوتر:يا بنتي محدش اتكلم! بس أنا يعني خايفة شوية، حاجة جديدة عليا، لازم أخاف!
نعمة بابتسامة:لا متخافيش كله بيعدي... انتي بس طمني قلبك، كُتر التفكير هيجيبلك صداع وانتي اسم الله عليكي بتغيري رأيك في ثانية.
هايدي:بغير رأيي في أي حاجة إلا في جوازي من زياد! زياد غير نظرتي لحاجات كتير... أنا قبل منه كنت متعقدة ورافضة الجواز، ولما هو جه ارتاحتله ووافقت ونسيت كل اللي كنت ناوية أعمله!
نعمة:بيني وبينك، الواد ده ابن حلال وطيب، بس لو أمك تكمل جميلها للآخر وتسيبكم في حالكم بس!
هايدي:ده اللي أنا عايزاه والله، مش عايزة أكتر من كده!
نعمة:خلاص ياختي هدي أعصابك بس وسيبيها على ربنا!
هايدي:حاضر.

في تلك المرحلة الجديدة من حياتها، شعرت هايدي وكأنها محاطة بدوامة من الحيرة، لا تستطيع أن تحدد خطواتها القادمة ولا تعرف كيف تتصرف بشكل صحيح، سواء كان الأمر يتعلق بحياتها الزوجية المقبلة أو أي جانب آخر من حياتها. كانت تفتقر إلى القدرة على اتخاذ القرارات بثقة، وكأنها تفقد توازنها في كل خطوة. ذلك الشعور بالتردد كان نابعًا من حياتها الطويلة التي عاشتها عازبة بين أهلها، لم تعرف خلالها شيئًا عن تحمل المسؤوليات أو مواجهة أعباء الحياة الحقيقية. كانت حياتها خالية من التحديات الكبيرة، وأكبر مشكلاتها لم تتجاوز مشاجرات عابرة مع والدتها. لكن مع مرور شهر قد قامت بشراء الكثير من الأغراض لجهازها، والشقة قد أُنجزت بكل تفاصيلها، حتى أن الوقت قد حان لاختيار الأثاث، وهي خطوة جديدة تتطلب اتخاذ قرارات حاسمة. في ذلك اليوم، كان من المفترض أن تتوجه العائلة جميعًا، في السيارة التمناية، إلى المعرض ليتفقوا مع البائع على الأثاث الذي سينال إعجابهم.
كانت هايدي جاهزة، تنتظر بفارغ الصبر قدوم زياد وحسين، وقد كانت تتحدث مع زياد في الهاتف، تتساءل عما إذا كانت هناك أي تطورات جديدة، قائلة له:
_أيوه يا زياد.

زياد:أنا جاي في الطريق مع بابا... مين هيجي معاكم؟
هايدي:جلال ونعمة وبابا وماما.
زياد بتضايق:مرات عمي تاني؟ مش قولنا بلاش؟
هايدي:والله اتكلمت يا زياد بس هي مصممة، أنا مش عارفة أتصرف، خايفة بجد من مجيتها دي.
زياد:ماهو أكيد هتتخانق معانا يا هايدي، أنا خلاص حفظتها!
هايدي بخوف:طيب لو عندك حل تاني قولي!
زياد بتخطيط:اخترعيلها أي حاجة، قوليلها إننا هنلف كتير وإنها مش هتقدر تمشي كل ده!
هايدي:أنا هتصرف وهقولها أي حاجة.
زياد:ماشي يا هايدي، مسافة الطريق وأكون عندكم.
هايدي:ماشي، باي.

أم الديب الجزء الثالث

أغلقت هايدي هاتفها وهي تشعر بقلق غائر يعتصر قلبها، خوفًا من أن تأتي أم الديب معهما في تلك الرحلة التي كانت تأمل أن تمر دون أي تعقيدات. كانت تخطط بوعي لتنفيذ خطة محكمة تضع بها العراقيل في طريق أم الديب، متسائلة كيف يمكنها أن تختلق لها الحجج الواهية بأشكالها المتعددة، حتى تبعدها عن تلك الزيارة التي كانت تعتبرها بمثابة خرق لخصوصيتها. عندما دخلت غرفة أم الديب، فوجئت برؤيتها ما زالت ترتدي جلبابها الريفي، واقفة أمام المرآة، تعدل من شكلها في صورة عكست الفوضى. تعجبت هايدي من ذلك، كيف أن والدتها لم تكن جاهزة بعد، على الرغم من الوقت الذي مر، فسألتها بنبرة تحمل الكثير من التعجب:

_إيه ده يا ماما انتي لسه بتلبسي؟

أم الديب بافتراء:أبوكي عمال يخترعلي في شغل ومش عاوز يتهد ويقعد ساكت، مرة كوباية شاي، مرة شاندوتش، مرة هاتيلي الكلسون من على الحبل.

عندما خرجت هايدي من غرفة أم الديب، اصطدمت بنظرها مباشرة بالمعلم حنفي وهو يحمل كوب الشاي الذي أعده بنفسه في المطبخ، مما زاد من حيرة أفكارها. كان هذا المشهد المتناقض تمامًا مع ما سمعته من والدتها، التي أكدت لها في حديث سابق أنها هي من تقوم بجميع الواجبات المنزلية، وهو ما أضفى على الوضع طابعًا من الكذب. الحقيقة كانت واضحة أمام عينيها، إذ كان المعلم حنفي في يده ملعقة صغيرة، يقلب بها الشاي. نظرت هايدي إلى والدتها، وقد غمرها شعور بالذهول الجسيم، مما جعلها تتساءل في قرارة نفسها عن مدى صحة ما كان يُقال، فقالت:

_هو ده اللي انتي بتعمليله؟ ماهو طلع عامل لنفسه أهو.

نظر المعلم حنفي إلى هايدي بسخرية خفيفة، وهو يرتشف الشاي من الكوب. كانت تلك السخرية تعكس روح الدعابة التي يعرف بها، قائلًا:

=ليه يا هايدي وانتي فكرك إن أمك بتنفذلي طلباتي زي باقية الحريم اللي بحق وحقيقي؟

اجتاحت أم الديب الغرفة بصراخ عارم، كان صوتها حادًا وعاليًا كالرعد، مدافعةً عن نفسها بشكل قاسٍ وكأنما تريد أن تحمي مكانتها في الأسرة من أي مساس، قائلة للمعلم حنفي:

_وانت لو راجل بحق وحقيقي كنت كاستني من فوقي لتحتي زي باقية الرجالة، ده آني يا راجل بقالي عشر سنين بنفس الجلابية مغيرتهاش!

المعلم حنفي بسخرية:ليه يا ولية هو مش انتي اختارتي تبقي دكر البيت وتمسكي مصروف البيت في ايدك؟ يبقى آني مالي؟

تلفظت هايدي بانزعاج، وقد بدت ملامحها محملة بالاستياء من موعد الشجار غير الملائم، حيث كانت تلك اللحظة غير مناسبة على الإطلاق لمواجهة أي نزاع:

_أجلوا الكلام ده بعدين، زياد جاي في الطريق.

لكن أم الديب، التي كانت غارقة في مشاعر البغضاء، صرخت في وجه هايدي بقوة، معبرة عن انزعاجها الشديد من تصرفاتها. كانت كلماتها تتطاير في الأجواء كالصواعق، مشيرة إلى عدم استحقاق

زياد لهذه المكانة العالية في حياتها. بدا أن أم الديب كانت تعتقد أن ابنتها تعطي أهمية أكبر من اللازم لشخص لا يعرف قيمتها الحقيقية، قائلة لها:
=ما يجي ولا انشالله عنه ما جه يا بت؟ هنعمله إيه؟ نقف نستناه على أول الطريق ونصفرله أول ما سلامته يجي؟

هايدي بصياح:بطلي تتكلمي بالطريقة دي عن زياد!

نظر المعلم حنفي إلى ابنته بنظرة مليئة بالمعاني، تعكس الكثير من المشاعر التي كانت تتدفق في داخله دون أن يحتاج إلى الكلمات. كانت تلك النظرة تنقل رسائل من الاحتقار تجاه أم الديب، كما لو أنه يختصر كل ما كان يدور في ذهنه من صراعات، قائلًا:
_قدامي يا هايدي هننزل نستنى عمك تحت!
خرج المعلم حنفي من الشقة. في حين قالت هايدي لوالدتها بنبرة هادئة، محملة بمشاعر الخوف، وهي تحاول إقناعها بأن تبقى في المنزل وعدم الذهاب معهم في هذه الرحلة التي لم تكن ترغب في تفاقم الأمور فيها:
_خليكي هنا انتي يا ماما، هنخلص ونيجي.

أم الديب بتعجب:ليه يا بت؟ مجيش ليه؟
هايدي بابتسامة:أصل الطريق طويل عليكي وهتتعبي!
أم الديب بتهكم:ليه هو آني راكبة جمل وماشي بيا في قلب الصحرا ولا راكبة عربية؟
هايدي بتردد:ماهو أصل احنا هنطول ورجليكي هتوجعك من الواقفة!
أم الديب بدهشة:وآني أقف على رجلي ليه؟ ما أقعد على الكرسي.
هايدي:مانتي هتجوعي من كتر اللف معانا!
أم الديب:ناكل يا بت ومناكلش ليه؟ ما المطاعم مالية الدنيا.
هايدي بإصرار:بس انتي مش هترضي تدفعي!
أم الديب بحدة:مآني مش هدفع مليم ساغ، أخوكي وأبوكي يدفعوا من جيبهم، أمال الرجالة اللي بشنبات يقعدوا حاطين رجل على رجل والنسوان هي اللي تدفع؟
هايدي بإحباط:يعني انتي مصممة تيجي؟
أم الديب:أيون هاجي، ليكي شوق في حاجة؟
هايدي بانهزام:ماشي يا ماما، ماشي.

باءت كل محاولات هايدي بالفشل، على الرغم من جهودها لإقناع والدتها بانتظارها في المنزل، فقد كانت تدرك جيدًا أن أم الديب ستفتعل العديد من المشكلات بلسانها الطويل، وشخصيتها القوية التي غالبًا ما تفرض سيطرتها على من حولها. بدا الإحباط واضحًا على ملامح هايدي، وكأن ضوء الأمل قد انطفأ في عينيها. وأخيرًا، ربطت أم الديب حجابها فوق رأسها، وكانت تلك الخطوة بمثابة الإشارة الأخيرة

أم الديب الجزء الثالث

للانتهاء من ارتداء ملابسها، فاستعدت للخروج. نزلوا جميعًا ليصعدوا إلى السيارة، وفي تلك اللحظة، نظرت نعمة إلى والدتها بلُطف رغم القلق الذي يعتريها بشأن ما قد يحدث لاحقًا، وقالت لها:
_تعالي ياما اركبي!

أم الديب باستعداد:يا مسهل الحال يارب.

كلما حاولت أم الديب أن تدخل السيارة، كانت تفشل وتتراجع إلى الوراء وكأن هناك قوة خفية تدفعها بعيدًا، وكأن الهواء نفسه يتآمر عليها ليرفض وجودها وسطهم. بدا الأمر كأنما كانت تفتقد التوازن، مما جعلها تشعر بالانكسار. نظر المعلم حنفي إليها بانزعاج، وعبّر عن استيائه بكلمات تنم عن التهكم، إذ انطلقت من بين شفتيه حروف ساقطة، تحمل في طياتها قدرًا من السخرية، وهو يتلفظ:
_كله من طفح المحشي، لو تخفي شوية.
ضحك جلال، وأطلق قهقهة مفعمة بالاستياء، وقال هو الآخر لوالده باستهزاء، مستحضرًا لمسة من السخرية في كلماته:
_ده أمي مخلصة حلة محشي لواحدها أول امبارح.

المعلم حنفي باستياء:ومطولتش منه صوباع واحد.

عجت أم الديب بصوتها الذي كان يشق الأجواء ويخرم آذانهم، وهي تصيح في وجه زوجها المعلم حنفي، قائلة له بصوت غليظ، يعبر عن حدة مشاعرها:
_مين اللي تعبان فيه آني ولا انت؟ ما ترد!

المعلم حنفي بفزع:انتي.
أم الديب بصياح:مين اللي لافه صوباع صوباع آني ولا انت؟
المعلم حنفي بخوف:انتي.
أم الديب بضجيج:يبقى تنقطنا بسكاتك، منسمعش صوتك!

إلى متى ستستمر هذه المناوشات والنزاعات بينهما؟ بينما هايدي ما زالت خلف أم الديب تنتظرها لتدخل السيارة، ولكنها لم تكن فارغة البال، إذ كانت مشغولة بالتشاجر مع المعلم حنفي في شجار عنيف يملؤه التوتر. كانت الكلمات تتطاير بينهما كشرارات النار، مما جعل هايدي تشعر بالضيق، وانفجرت بسمتها الغائبة، وتنفست بعمق، وهي تشعر بالانزعاج من فترة وقوفها في الخارج، ثم قالت لوالدتها بحزم:
_طب عديني وبعدين اتكلموا!

أم الديب بفظاظة:عدي ياختي.

أم الديب الجزء الثالث

أزاحت أم الديب الطريق لهايدي، مما مكن الأخيرة من المرور والدخول إلى السيارة قبل أن تلحق بها والدتها. وعندما نجحت أم الديب في الدخول وجلست، نظرت خلفها لتجد حسين وزياد يجلسان معًا في المقعد الخلفي، وكانت الدهشة تعلو ملامح وجهها. شعرت وكأنها تفاجأت بوجودهما في تلك اللحظة، مما جعلها تعبر عن استغرابها، وكأنها كانت تتوقع شيئًا آخر. كانت الكلمات تتزاحم في ذهنها، بينما عينيها تركزان على وجهيهما، وهي تقول:

_ايهي مين اللي ورا دول؟

أجاب حسين بسخرية:

=سلامة الشوف، بقى مش عارفة احنا مين؟

نهضت أم الديب في السيارة، وملامحها تحمل مزيجًا من الحنق والاستياء، حيث لمست رأسها بالسقف أثناء محاولتها أن تستدير لحسين وزياد. ووجهت صراخها إلى حسين، حيث كانت على وشك أن تسبه بأفظع الشتائم، تعبيرًا عن استيائها منه. قائلة له:

_انت بتهددني ولا إيه يا بتاع انت؟

لكن حسين لم يكن كأخيه حنفي الذي يتقبل الإهانة ويصمد إزاءها بصمت. فقد شعر حسين بجرح في كرامته، مما دفعه للرد بشكل غير متهاون، حيث رفع صوته بعصبية، معبرًا عن رفضه لتحمل هذه الإهانات. قائلًا لأخيه:

=اللي بيحصل ده أنا مقبلوش على نفسي يا حنفي! يعني إيه يتقالي يا بتاع انت؟ أنا ليا قيمتي ومكانتي!

مدَّ جلال يديه بانفتاحٍ على مقود السيارة، في محاولة منه لتبديد أجواء التوتر المتصاعدة بين عمه حسين ووالدته المتسلطة. تميز صوته بنبرة جافة تعكس صعوبة الموقف، وهو ينادي عمه بلهجة تحمل في طياتها شعورًا بالخوف من تفاقم الأمور:

_اهدى بس يا عمي، مانت عارف أمي مخها لاسع.

قالت نعمة لوالدتها، وهي تعبر عن قلقها بشأن ما حدث، إن ما فعلته ليس صوابًا وأن معاملتها القاسية تجاه عمها حسين لا يستحقها، إذ إن تصرفاتها كانت بعيدة عن التعقل:

_عيب ياما ميصحش اللي انتي بتقوليه ده!

أم الديب بصياح:استنني انتي يا بت!

ظلَّت كلمات جلال عالقة في ذهن أم الديب كأنها صدى يتردد في أعماقها، مما دفعها للسؤال عنه بصوتٍ عالٍ، بينما كانت على وشك الانفجار من شدة الغيظ، قالت لجلال:

_هي مين دهي اللي مخها لاسع يا جلال؟

جلال:مش القصد ياما، استهدوا بالله كده بس !

تفوه زياد بعصبية شديدة، معترضًا بكل ما أوتي من قوة على الطريقة المهينة التي تحدثت بها أم الديب مع والده، رغم مشاعره الجياشة تجاه هايدي، والتي تجاوزت حدود الكون بأسره:

أم الديب الجزء الثالث

_أنا مسمحش لحد إنه يغلط في أبويا!
قالت أم الديب بتهكم واضح، مضيفةً إلى أخطائها المتزايدة في التعامل مع زياد وحسين، غير مُعترفةً بأن تصرفاتها ليست مقبولة بالنسبة للآخرين. كان صوتها يحمل نبرة من الاستهزاء، متحدية كل القيم الاجتماعية التي ينبغي أن تُحترم:
=ايهي اللي شاري بتي يستحمل ويحط في حنكه فردة بُلغة قديمة!
خرجت هايدي عن صمتها المرير، مُهدِّدة والدتها بأنها ستنتحر، مُلقيةً بجسدها بين السيارات، رغم أن السيارة لم تتحرك بعد، بل كانت ثابتة في مكانها. كانت في حالة بائسة، وهي تشعر أن والدتها تتسبب لها في كل الأزمات من خلال أفعالها المتكررة، دون أن تضع أدنى اعتبار لسعادتها وكأنها ليست موجودة في حساباتها. تلفظت هايدي بنواحٍ مؤلم:
_يوه بقى، ما ترحميني! عايزة مني إيه؟ والله أفتح الباب وأرمي نفسي من العربية وأرتاح من العيشة المقرفة دي!
أدار جلال محرك السيارة، وبدأ يقودها في حركة متجهًا نحو دمياط، حيث كانت الوجهة المقصودة لشراء أفضل أنواع الأثاث. عُرفت دمياط بتميزها في صناعة الأثاث الممتاز والأخشاب ذات الجودة العالية، مما جعل الرحلة أكثر إثارة. كان شغف جلال يملأ الأجواء، إذ كان يتطلع إلى خوض هذه التجربة الفريدة، وهو يقود السيارة بنظراته المركزة نحو الطريق. في تلك اللحظة، التقّت عيونه نحو هايدي، متحدثًا بصوتٍ يحمل بعض الرحمة:
=خايبة يا بت، هتروحي على نفسك ببلاش.
قالت أم الديب لجلال بصخب، وهي تُلقي العتاب عليه بعبارات تحمل نبرة قوية:
_انتوا بتتفقوا عليا يا جلال؟

جلال:أللاه، مانتي ياما اللي لسانك طويل ونازلة غلط!

بينما كان حسين جالسًا في المقعد الخلفي، لم يكن راضيًا عن ما حدث، حيث كانت ملامح وجهه تظهر عبوسًا عميقًا يدل على استيائه من مجريات الأمور، ولم يكن قادرًا على تجاوز مشاعره المتضاربة. نظر إلى زياد، الذي كان يجلس بجانبه، وسأله بوجه مُتجهم:
_عاجبك كده يا زياد وأبوك بيتغلط فيه؟

زياد بخجل:معلش يا بابا حقك عليا، أنا آسف.

بينما كانت نعمة تعاني من آلام الحمل ومشقته، كانت تتألم أيضًا من كثرة النزاعات والأصوات العالية من حولها، مما زاد من حدّة معاناتها النفسية والجسدية. فقالت في ذاتها بصوت خافت، لا يسمعه أحد سواها:
_ياريتني ما جيت.

أم الديب الجزء الثالث

ثم اتصلت نعمة بزوجها، الذي كان منهمكًا في إعداد الكبدة البلدي والسجق، في محاولة منها للتحدث معه كوسيلة للهروب من الضيق الذي تسلل إلى روحها بسبب تصرفات والدتها. كانت تبحث عن لحظة من الهدوء في خضم الفوضى، قائلة له كلمات تنم عن احتياجها للدعم:

_ألو يا حمو.

استجاب حامد للمكالمة، فبدأ يتبادل الأحاديث مع نعمة بينما هو منهمك في إعداد الطعام، لم يستطع أن يرفض مكالمتها، حتى وإن كانت مشاغل الحياة تُثقل كاهله. وقد هدأت الأمور قليلًا في السيارة، إذ عمَّ الصمت بين الجميع، لكن جلال قرر أن يشغل بعض الأغاني الشعبية، وفي منتصف الطريق، مروا على كمين للشرطة، حيث كانت السيارات تتوقف واحدة تلو الأخرى أمام الشرطي الذي كان ينظر إلى رخص القيادة، مُصدرًا أوامره بفتح الحقائب والبدء في عملية التفتيش. وعندما جاء دور سيارة عائلة أم الديب، نظر الضابط إلى كل فرد من أفراد العائلة، ثم سأل جلال باهتمام، مُستفسرًا:

_انتوا قرايب؟

جلال:أه يا باشا.

الضابط بارتياب:باين، طلع الرخص !

جلال بابتسامة:لا مؤاخذة يا باشا نسيتها في البيت.

الضابط بجدية:اسمك إيه؟

جلال بمزاح:جلال الشبح.

الضابط بمُرية:طلعلي البطاقة!

استخرج جلال البطاقة، وبدأ الضابط يحدق فيها بدقة، حتى وجد اسم "جلال حنفي الديب". فابتسم الضابط بسخرية، مُعبرًا عن استهزائه، قائلًا له بنبرة تحمل بعض الاستهزاء:

_جلال الشبح هاء؟ أمال مين حنفي ده؟

أخرج المعلم حنفي رأسه من نافذة السيارة، ضاحكًا، وأشار بيديه للضابط ليخبره بأنه هو حنفي المدون اسمه في بطاقة جلال. لكن الضابط، الذي لاحظ شيئًا مريبًا في إطار هذه العائلة، زاد من حذره. استدار نحو جلال، وقال بنبرة حادة وهو يتأمل ملامحه السرسجية:

_طب اركنلي العربية على جنب يا حلو!

جلال بكذب:الرخص سليمة يا باشا وكله تمام التمام، بس مراتي الله يسامحها دبت معايا خناقة ونزلت من غير الرخص.

الضابط بصخب:طب انزل معايا يا روح أمك ونشوف الحوار ده تحت !

جلال بقلق:ما بلاش أمي، مش علشان هي غالية عليا، لا علشان أمي ممكن تكسرلكم الكمين ده في ثانية إلا ثانية!

سألت أم الديب جلال بصياح، وهي مستعدة للاشتباك مع الضابط، قائلة:

_في إيه يا ولا؟

جلال:لا مفيش حاجة ياما.

قالت نعمة في ذاتها بخوف، وهي تستشعر أن الأمور ليست على ما يرام:
_أسترها يارب، إيه اللي بيحصل ده؟
بعدما ركن جلال السيارة، نزل منها مع المعلم حنفي وزياد وحسين، متجهين نحو ضابط آخر كان يجلس تحت المظلة أمام اللابتوب. بينما كانت هايدي مرعوبة، تتأمل المشهد حولها، تتمنى أن تنتهي هذه الفوضى. كانت تقول في ذاتها:
_مفيش حاجة بتكمل للنهاية على خير.
تلفظت نعمة بخور:
=جيب العواقب سليمة يارب.
كان جميع الرجال يقفون أمام الضابط الذي بدا مستهزئًا بهم جميعًا. نظر الضابط لجلال، غير مقتنع بعدم حمله لرخصة القيادة ورخصة السيارة، حيث لم يكن معه سوى بطاقته الشخصية. ورغم ذلك، كان جلال يتمنى أن تتغافل عنه الشرطة وتطلق سراحه وكأن شيئًا لم يحدث. في تلك اللحظة، قال الضابط لجلال:
_دلوقتي انت ممعاكش الرخص.

جلال:مظبوط.
الضابط ببسمة:أصبر بس ده انت هتتظبط .

سأل الضابط زميله الذي كان يقف بجوار سيارة العائلة التي أوقفها في البداية، موجهًا إليه سؤالًا يعكس استغرابه من موقف العائلة:
_أما قولي يا شُكري باشا الحوار ده فيه غرامة كام؟

شُكري الضابط:ألفين جنيه والعربية هتتحجز عندنا.

كان الأمر عسيرًا حقًا، كيف يمكن لسيارتهم التي يعتمدون عليها في الذهاب إلى كل مكان أن تحتجزها الحكومة إلى أجل غير مسمى؟ بعد فترة من الصمت الذي تخلله الاستماع إلى أحاديث الضباط، انطلق صوت جلال، الذي كان محملًا بالغضب، فصرخ فيهم بعصبية شديدة، وهو يتلفظ:
_عربية إيه يا باشا اللي هتتحجز عندكم؟ ده أنا راجل على باب الله وعندي عيلين بجري على أكل عيشهم!
قال حسين لجلال بنبرة مهزوزة ومحترسة، مُعبرًا عن قلقه من إمكانية تفاقم الأمور أكثر من ذلك، محذرًا من مغبة الاستمرار في التصعيد، حيث كان يشعر بضرورة التهدئة:
=أصبر بس يا جلال !

أم الديب الجزء الثالث

صمت جلال، ثم تقدم حسين إلى الأمام، مُتحدثًا بكل أدب واحترام مع الضابط. كان لديه طريقة خاصة في توضيح الأمور بشكل يتقبله الجميع، فبدأ يتوسل للضابط ألا يسحب السيارة في يوم كهذا، مُشيرًا إلى أن العائلة لا تتحمل فكرة المصائب، خاصة في أيام تُفترض أن تكون مملوءة بالبهجة. كان صوته يحمل الرغبة في التفاهم، وهو يتحدث:
_يا سعادة الباشا احنا مش حِمل بهدلة، رخص جلال سليمة ومفيهاش حاجة واحنا مستعدين نرجع البيت نجيبها علشان حضرتك تتأكد، فحضرتك حِلها ودي ده حتى الشرطة في خدمة الشعب.

الضابط:يا حاج اللي بيحصل ده ضد القوانين اللي المفروض أي سائق يلتزم بيها، حضرته ماشي من غير رُخص وعايزها تعدي كده بالساهل، اللي هو ازاي يعني؟
حسين بسعادة:يا باشا انت لو تعرف احنا كنا رايحين فين والله هتعذرنا... عقبال أولادك إن شاء الله، رايحين نجيب عفش العروسة....

أشار حسين إلى ابنه زياد ثم إلى العروس، مُتوسلًا للضابط للمرة الثانية أن يتركهم وشأنهم، مؤكدًا على أهمية العفو وعبارة "عفا الله عما سلف". كان يتحدث بوجه سمح، مُعبرًا عن رغبة صادقة في منحهم فرصة أخرى، آملًا أن يُسفر ذلك عن سماح يعفيهم من هذه المحنة، قائلًا:
_ده زياد ابني العريس، والعروسة قاعدة هناك في العربية، وكنا رايحين ومبسوطين ده ابني أول فرحتي!

الضابط بتنازل:ألف مبروك، خلاص اتفضل البطاقة.

نجحت طريقة حسين في إقناع الضابط بأن يتركهم للمغادرة، فكان من حظهم أنهم تعاملوا مع شخصية جديرة بالاحترام، شخصيةً مغمورةً بالرحمة. لم يستطع الضابط أن يفسد عليهم فرحتهم في هذا اليوم بفعل طائش كجلال. سلمه البطاقة، فقال حسين بسرور وهو يهتف بصوت عالٍ:
_الله يبارك فيك، تحيا الشرطة.
هتف المعلم حنفي ببهجة، مُعبرًا عن فرحته التي اجتاحت مشاعره:
=يحيا الشعب المصري.
قال الضابط بتبجيل:
_اتفضلوا!
عاد الرجال محملين بالحبور، وركبوا السيارة من جديد بعد أن نزلوا منها قلقين. فتحرك جلال بالسيارة، بينما استفسرت أم الديب عن سبب الخلاف الذي كان يسيطر عليهم في غيابها، مُظهرةً رغبتها في معرفة ما حدث من مشاكل بينهم. قائلة:
_إيه اللي جرا؟ بقى آني أنده عليكم محدش يعبرني ويرد عليا؟
قال المعلم حنفي بدهشة:
=احنا في إيه ولا إيه يا ولية؟

تجلى حسين في لحظة من الاعتزاز بقدراته البارعة في الإقناع، وذكائه اللامع، كأنما هو نجم يتلألأ في سماء الفكر، وقال:
_الحمدلله المشكلة اتحلت، الكلمة الطيبة صدقة.
عبّر زياد لوالده عن امتنانه، كأزهار تتفتح في الربيع، قائلًا له:
=لولا انت يا بابا كانت المشكلة كبرت.
انفجرت مشاعر الانزعاج في صدر جلال، حيث لم يكن يحتمل فكرة دفع غرامة، ذلك أنه لم يذهب معهم في هذا المشوار بدافع الكرم والشهامة التي تُعلي من قدره، بل كانت له غاياته الخاصة، إذ كان ينتظر في هذا الطريق المكافأة التي قدرها ألف جنيه، فكيف له أن يتخلى عن كسب الأموال التي تعود عليه من عمله، ويقبل على السفر بلا جدوى أو عائد؟ قائلًا:
_ما هما كده واقفينلنا على الواحدة، محدش بيعرف يكبر دماغه.
أبدى حسين ارتياحًا كبيرًا، كمن أزال عن كاهله أثقالًا ثقيلة، معبرًا عن شعورٍ بالسلام الداخلي الذي يعكس رضاه عن مجريات الأمور، قائلًا:
=قول الحمدلله إنها عدت على خير، محدش عارف إيه كان ممكن يحصل.
نطقت نعمة حديثها بسرور:
_طيب الحمدلله يا جماعة....
ثم أضافت لعمها بامتنان، معبرةً عن شكرها الجزيل لما بذله من جهد من أجلهم:
_شكرًا يا عمي على وقفتك معانا!

حسين:احنا واحد يا نعمة.

تحرك جلال بالسيارة، وبمرور ساعة من الزمن، وصلوا إلى معرض الموبيليا الذي امتاز برحابة مساحته، حيث كانوا يدخلون، تتجول أعينهم بين اليمين واليسار، باحثين عن كل ما قد يناسب ذوقهم الرفيع. كان المعرض واسعًا للغاية، يضم في جنباته تنوعًا هائلًا من الأذواق الحديثة والقديمة. بينما كان العروسين يتجولان باهتمام، يسعيان لاختيار أثاثٍ يتماشى مع ديكورات شقتهم الجديدة، قامت هايدي بالتفكير بعمق، وهي تستعرض كل قطعة أثاث بعناية، ثم قالت لزياد:
_عايزين ألوان هادية، مبحبش الألوان الغامقة.

زياد بذهول:هو تقريبًا في دورين هنا.
هايدي:أه طبعًا المعرض ده كبير، نختار إيه الأول صحيح؟
زياد:نختار أوضة النوم وبعدين نشوف الأنترية وأوضة الأطفال.

هكذا كان رأي زياد، حيث تجولا معًا في المقدمة، بينما بقيت بقية الأسرة في الخلف، بما فيهم أم الديب التي انبهرت بجمال الأثاث ورونقه، لكنها، كما عُهد بها، لم تعبّر عن مشاعرها الحقيقية، بل على العكس، كانت تستعد لإطلاق لسانها بكل عيوب القطع التي لم تعجبها. وفي هذه الأثناء، كان جلال يتحدث مع زوجته ليالي عبر الهاتف، تستعرض له شكواها من النزاعات المتكررة بين أطفالهما، حيث

أم الديب الجزء الثالث

كان حمود يسعى جاهدًا للسيطرة على أخته تقى بكل الطرق الممكنة، مُجبرًا إياها على السير بخطواته، حتى وإن كانت ترفض ذلك. وإذا ما تعذر عليه إقناعها، كان يعاملها بعنف، حتى يصل إلى حد انتزاع شعرها من بين يديه، وسط فوضى الشجار تلك، سأل جلال بحيرة:

_الواد ماله؟

ليالي بانزعاج:مش راضي يتهد نازل ضرب في أخته، وبيشدها من شعرها.

ثم صرخت في وجه حمود بصوتٍ عالٍ:

=يا ولا اسكت بقولك!

كانت ليالي في المنتصف، تحاول بكل جهدها فض النزاع المتصاعد، بينما كانت تتحدث مع جلال بتلجلج، إذ كان لسانها يعيقه الاضطراب الذي يعتريها. ومع ذلك، لم يتأثر حمود بعجيج والدته المتصاعد، بل استمر في ضرب تقى، التي كانت تنتحب من شدة الألم، وهو يتوعدها بصوتٍ عالٍ، قائلًا لها:

_مش هسيبك يا تقى وهاخد حقي منك !

تقى بصراخ:يا ماما، ابعديه عني بقى!

ألقت ليالي الهاتف بعنف على الأريكة، ثم تشبثت بثياب حمود بقوة لم تعتد عليها، كأنها تستجمع كل ما لديها من شجاعة في تلك اللحظة الحرجة، وصاحت قائلة له بحزم:

_وسع! إيدك دي متتمدش عليها، فاهم ولا لا؟

ثم قبضت على الهاتف مجددًا، ووجهت حديثها لجلال بتوتر أعصاب واضح، وكأن الكلمات تخرج منها متعثرة، قائلة:

_ألو يا جلال، أعمل ايه؟ العيال مغلبني!

جلال بعصبية:هاتي الولا أكلمه!

أعطت ليالي الهاتف لابنها بعدما خابت محاولاتها في السيطرة عليه، الذي لا يخشى شيئًا سوى والده، وكأنها تستسلم لتلك الفوضى التي تحيط بها، وبنبرة غليظة، تحمل طابع الحدة والرجولة، قال جلال لابنه بتهديد صارم:

_اسمع ياض، أنا لما أرجع هرنك علقة سخنة هتحلف بيها طول عمرك! شغل البلطجة ده تعمله على أي حد مش على أختك!

حمود بخرع:أنا معملتش حاجة، هي اللي ابتدت!

جلال بوعيد:هربيك لما أرجع، بس أصبر!

أم الديب الجزء الثالث

في الأمام كانت أم الديب تسير مع نعمة، حيث جرت بين هايدي ونعمة وقفة سرية، تم الاتفاق خلالها بسرعة على خطة محكمة، تستدرجان فيها أم الديب إلى مكان آخر، بهدف إبعادها عن عملية اختيار الأثاث حتى لا تتدخل في ذلك وتتنازع مع حسين وزياد. وبذكاءٍ فائق، قررت نعمة تنفيذ هذه المهمة بمهارة، فتظاهرت بأن ساقيها يؤلمانها بشدة، وكأنها لم تعد تحتمل الوقوف، وسرعان ما بدا التعب جليًا على ملامح وجهها، لتستدعي نظرات العطف من والدتها، وهي تناديها بصوت مغمور بالضعف، قائلة:
_بقولك إيه ياما أنا هقعد مش قادرة، يا خرابي رجلي وارمة على آخرها!

أم الديب بحنان:إيه اللي جابك يا نعمة؟ محدش هينفعك لو تعبتي يا بت!
نعمة بعناء:مانا كنت كويسة ياما والداكتور قالي اتحركي عادي يعني مفيهوش أي غلط.
أم الديب:وجوزك المنيل مجاش معانا ليه؟ مش كان جه يسندك؟
نعمة بإرهاق:حمو في شغله ياما، مش فاضي للي احنا فيه ده، ربنا يعينه.
أم الديب باستهزاء:ليه ياختي بيشيل الطوب والأسمنت على ضهره؟ ولا حياالله بياع على عربية كبدة؟
نعمة:ربنا يعينه ياما ماهو برضه بيتعب، مفيش حاجة بالساهل.

كان في حديث أم الديب استهزاء واضح بعمل حامد، الذي يعمل بائعًا للكبدة والسجق البلدي على متن سيارة صغيرة بإحدى شوارع القرية. شعرت نعمة بالراحة وهي تجلس على الأريكة المعروضة، بينما ظلت أم الديب واقفة بجانبها، تتحدثان في أمور أخرى بعيدة عن موضوع العمل الذي أثار استهزاء الأولى. في الوقت نفسه، وفي الجهة المقابلة، كانت هايدي وزياد قد اقتربا من غرفة نوم أنيقة بألوان هادئة، حيث غمرهم شعور كبير بالإعجاب بكل ما حولهم من تفاصيل، مما جعل هايدي تتوجه إلى زياد بترقب شديد، وهي تنتظر رد فعله، قائلة له بحماس:
_إيه رأيك حلوة صح؟

زياد بحُب:أيوه طبعًا هو انتي بتختاري أي حاجة برضة؟
هايدي بفرح:خلاص هنجيبها... ولا أقولك استنى نشوف الماتريال الأول!

اقتربت هايدي من السرير، تتفقد خشب الأثاث بعناية، تتساءل في سرها إن كان نظيفًا وذو جودة، وعندما تأكدت أنه جيد، ابتسمت لزياد، حيث شعرت برضا ينعكس على ملامح وجهها. ثم اقتربت من الخزانة، وقررت فتحها لتستكشف ما بداخلها، ولكن ما إن فتحتها حتى أطلقت صرخة مدوية، انتشر صداها في المكان بشكل جذاب للأنظار، كأن كارثة قد حلت عليها فجأة، مما جعل زياد يهرول نحوها بسرعة، مستشعرًا القلق، وسألها بلهفة:
_في إيه يا هايدي؟
دخلت أم الديب الخزانة في السابق لتتأكد بدقة من جودة الأخشاب، متسائلة في نفسها إن كانت ممتازة أم أنها لا تزيد عن كونها كالأوراق التي لا تستحق حتى جنيها واحدًا؟ حيث كانت تعاين أثاث عش الزوجية الخاص بابنتها، لكن ما رأته هايدي أفزعها، هي وكل من كان في المكان، مما جعلها تقول لأم الديب بصدمة في صوتها:

أم الديب الجزء الثالث

_انتي إيه اللي دخلك في الدولاب؟

أم الديب:بشوفه يا بت، بطمن عليه... أمال يطلع أي كلام؟

قال زياد لأم الديب بانزعاج:
_إيه يا حماتي؟ حد يخض حد كده؟

أم الديب بغضب:ومين قالك إني حماتك يا ولا؟ مش يمكن الجوازة تبوظ؟

تلفظت هايدي بعصبية:
_بعد الشر متقوليش كده!
نهضت نعمة من على الأريكة بعدما كانت تشعر بالراحة، واتجهت نحوهم، ووجهت حديثها إلى والدتها بعتابٍ خفيف، محذرة إياها من ضرورة اختيار الكلمات المناسبة في مثل هذه اللحظات الحرجة، خصوصًا أن الأمور قد تكون حساسة وقد يتأثر بها القدر، قائلة:ً
_حرام عليكي ياما بتفَولي عليهم ليه؟ ده بدل ما تدعيلهم ربنا يكملهم على خير؟
قالت هايدي بحنق، وكأن الكمد يتصاعد من أعماقها:
=قوليلها!
تحدث زياد بسخط، وقد امتلأ وجهه بالتجاعيد التي تبرز استياءه، حيث كانت كلماته تتدفق كالأمواج العاتية، فتلمس قلب من حوله، وهو يقول:
_تعالي يا هايدي نكمل فوق!
سألت أم الديب زياد بصياح، إذ ارتفعت نبرة صوتها بشكل يكشف عن قلقها، والكلمات تتساقط منها كالسياط، قائلة:
=تكملوا إيه يا ولا؟

زياد بوضوح:هنطلع نشوف باقي الموبيليا! أمال هنكمل إيه يعني؟
أم الديب بحزم:رجلي على رجليكم، مش هتخطوا خطوة واحدة من غيري! فاهم ولا لا؟
زياد بانزعاج:ماشي يا مرات عمي.

أخذ زياد هايدي وصعدا معًا إلى الطابق العلوي، بينما كانت أم الديب ونعمة تتابعان خطواتهما من خلفهما، ليشاهدوا بقية الأثاث المتواجد في المعرض، وكأنهم قد دخلوا إلى جنة من الأناقة، حيث كانت كل قطعة أثاث تحكي قصة زمنٍ سابق، وتمثل عمرًا قادمًا بألوانها، على عكس ما تعودوا عليه في قرية أبو حلاوة، حيث كان هناك رموز للعشوائية وعدم التنظيم، والألوان العجيبة التي تفتقر إلى التنسيق، بينما هنا كان كل شيء جذابًا، وفي خضم تلك الأجواء الساحرة، كان زياد يحاول جاهدًا نسيان ما يجري من حوله، كمن يعصر فوق رأسه مائة كيلو ليمون. لكن نعمة، التي كانت تراقب قسوة أم الديب تجاهم،

أم الديب الجزء الثالث

لاحظت أن تلك القسوة لا تتناسب مع وضعهم كعروسين للمستقبل، ويجب على الجميع الحفاظ على مشاعرهم وتقدير لحظاتهم الجميلة، لذا قالت لها برفق:
_براحة عليهم شوية ياما مش كده!

أم الديب:انتي ليه يا بت يا نعمة محسساني إني وحشة معاهم؟ ده آني طيبة الدنيا كلها جوا قلبي.
نعمة بسخرية:ماهو باين ياما، من كتر الطيبة مش مدياهم فرصة ياخدوا نفسهم.
أم الديب بسخط:اطلعي منها انتي بس ياختي!

في لحظة مفاجئة، وقعت أعين هايدي على الأثاث المثالي لشقتهم، حيث كانت أريكة مميزة تتألق بجمالها عن باقي الأرائك المعروضة في المعرض. شعرت وكأن هذه الأريكة تمثل بداية حياة جديدة مليئة بالذكريات التي ستنشأ في المستقبل، فاندفعت نحو زياد، ينبض قلبها بالحماس، وقالت له بانبهار:
_حلو أوي ولايق على لون الريسيبشن!
تدخلت أم الديب في الحديث، وقالت لها باستخسار، إذ كانت نبرة صوتها تبين عدم رضاها، كأنها لا ترى في الاختيار ما يتناسب مع التقاليد، مما جعلها تعبر عن رأيها بوضوح، قائلة:
_نكلملك أبو محمد يشوفلك النجار اللي جنب منه يعملك كنبة زي اللي عندي وأهي هتلاقيها أرخص.

هايدي بصدمة:في عروسة هتجيب في شقتها المتين متر، كنبة زي اللي عندك في الصالة؟
أم الديب:عيشي عيشة أهلك، هو مين اللي هيدفع صحيح؟

أجابت نعمة:
_زياد ياما.

أم الديب:مادام هو اللي هيدفع يبقى تجيبوا الكنب دهو وتجيبوا الكنب اللي هناك دهو، آني مفيش حاجة تغلى على بتي... ياه يا هايدي هتتجوزي وتسيبي أمك؟ يا لهوي يا أم الديب عليكي وعلى بختك.

في لحظاتٍ من الحيرة التي تغمر القلوب وتتخلل الأفكار، اختارت أم الديب الابتعاد بصمت، تاركة وراءها ضحكات نعمة وهايدي التي تلامس قلوبهم خفيفة كنسيمٍ في يوم صيفي. كان زياد يقف بينهم، غير قادر على إخفاء انفعاله، متسائلًا كيف يمكنهم احتمال ما لا يطيقه هو. نعمة، بحنانٍ مألوف، حاولت تهدئة أفكار زياد المتوترة، مُدافعةً عن والدتها بروحٍ طيبة، مؤكدةً أن الأمر ليس كما يبدو، بل هو مجرد سوء فهمٍ عابر. أما هايدي، فقد حسمت قرارها، متمسكةً برأيها بثباتٍ قاطع. لحظة حاسمة مرت بينهم عندما أخذ زياد على عاتقه اتخاذ الخطوة التالية، وهو ينادي على أحد العمال ليأتي لشراء الأثاث .
وبينما كانوا يستعرضون غرفة الطاولة، انجذبت أعينهم إلى تصميمٍ أعجبهم. لكن، كانت هايدي مترددة في شراء النيش، وبدأت في التعبير عن رأيها بشأن عدم ضرورته في حياتها الجديدة. في هذه اللحظة، برزت ملامح النقاش حول الحاجة إلى شراء النيش من عدمه، حيث قدّمت نعمة رأيها بوضوح،

أم الديب الجزء الثالث

مستذكرةً صغر شقتها وشقة ليالي، ومع ذلك فإن شقة هايدي، برحابتها، كانت مؤهلة لاستيعاب ما لم تستطع هي أو غيرها امتلاكه.

لكن هايدي، التي تنظر إلى الأمور من زاوية أخرى، رفضت ملء المكان بما لا تراه ذا قيمة، مقتنعةً بأن استبدال النيش برُكن صغير للقهوة هو الخيار الأنسب لأسلوب حياتها. في تلك الأثناء، وعلى بعد خطوات، كانت أم الديب تخوض معركةً من نوعٍ آخر. تقف بين صفوف الأثاث، تتحسس كل قطعة بعينٍ ناقدة. فجأة، توجهت نحو أحد الباعة، مشيرةً بإصبعها نحو أريكةٍ بعينها. لكن تواصلها مع البائع أخذ منحىً مختلفًا حينما أبدى ارتباكه، مشيرًا إلى قطعةٍ أخرى بدلًا مما قصدته. وهنا، اندفعت مشاعرها بعفوية، تعلو نبرتها بالاستنكار.أشارت أم الديب إلى أن خطيب ابنتها هو الذي سيتكفل بالدفع، وأنه لن يبخل على ابنتها في أي شيء. كان حديثها مليئًا بالتلميحات، تمزج بين الفرح بمستقبل ابنتها وبين دفاعها المستميت عنها، وكأنها تحميها من كل عين حاسدة. في لحظةٍ مفاجئة، استخرجت من جيبها كيسًا صغيرًا من الملح، ورشت بعضًا منه في الهواء، محاولةً إبعاد الحسد بطرقها التقليدية، وكأنها تخوض معركة قديمة بطقوس جديدة، في انتظار مستقبلٍ أفضل لابنتها.

يتبع....

الفصل الثاني والعشرون

بعد أن نثرت أم الديب حبيبات الملح في كل زاوية من زوايا المعرض، انتشر ذاك البريق الأبيض على الأرضيات والأثاث، حتى استقر فوق رأس الموظف المسكين الذي وقف مذهولًا لا يدري ما العمل.
كانت هي تتشبث بتبرير فعلتها الغريبة، تلك التي ترجعها إلى خوفها المتأصل من عين الحاسد. وبثقة لا تنكسر، أخبرته أن شقة ابنتها متسعة رحبة، تتسع للألف من الأحباب كما تتسع الأفق في يوم صافٍ، وكأنها تؤكد أن ما فعلته ليس إلا من باب الحرص، قائلة له:
_الشقة بتاعتها كبيرة ولا كأنها ملعب كورة.

الموظف بانزعاج:ميصحش يا أستاذة اللي حضرتك بتعمليه ده، حضرتك كده بتتلفي الموبيليا الموجودة في المعرض، من فضلك دخلي الكيس اللي في ايدك ده !
أم الديب بلا اكتراث:فكك من كيس الملح وخلينا في المهم، عاوزاك تخيطه في حدود متين ألف! ولا أقولك دول قليلين زود عليه بتاع نص مليون مرة واحدة، مش عمال يتنحنح وعامل فيها شاري بتي؟ يورينا قد كلامه ولا لا!

كان اعتراض الموظف على ما أقدمت عليه أم الديب جليًا، إذ لم يستطع كتم غيظه وهو يوقفها بحزم، محاولًا منعها من التمادي قبل أن تلحق الأضرار بالأثاث وتكون سببًا في خسارته لعمله. وبينما تتصاعد حدة النقاش، كان جلال يطوف حول المكان برفقة المعلم حنفي وعمه حسين، وقد أسره بريق الموبيليا الفاخرة المعروضة، وكأن عينيه لم تقع على مثلها من قبل. بدا في داخله شوق خفي للعودة بالزمن، ليستطيع اختيار أجمل الأثاث لمنزله يوم زواجه، متحسرًا على الفرص الضائعة، مُلتفتًا إلى والده، قائلًا له بأسف:
_يا سلام يا سلام، كان فين المعرض ده أيام ما كنت بتجوز؟ مش بذمتك يابا أحسن من المعارض اللي في البلد عندنا؟

المعلم حنفي:ياض احنا في دمياط هنا ودي أساس الموبيليا، واللي في بلدنا بيستوردوها من المعارض اللي هنا ويمكن بيجيبوا أرخص حاجة، ماهو مش هيجيبوا الحاجات الغالية... بس ذوقهم عالي أوي الصراحة.

ابتسم حسين ابتسامة عريضة، ثم أطلق ضحكته التي ملأت أرجاء المكان، وقال بمرح:
_علشان تعرفوا بس إن هايدي غالية علينا وعايزين نكرمها ونجيبلها أحسن حاجة.
تنهد جلال بعمق، وكأن أنفاسه تحمل في طياتها الزمن الذي مضى دون رجعة، ثم تلفظ بحسرة قائلًا لعمه:
=البت هايدي حظها نازل من السما، بختها حلو هي وأحمد... مش زيي أنا ونعمة بختنا أسود.

حسين ببشاشة:اتجدعن يا جلال وانت ربنا يكرمك... انت بس اللي شابط في البلد دي مش عايز تغيرها.
جلال بتعجب:وأنا أغيرها ليه يا عمي؟ دي بلدي اللي اتولدت واتربيت فيها، وأكل عيشي فيها، ومدارس عيالي فيها، أسيبها وأروح بلد تانية ليه؟ هو أنا هنسى أصلي وفصلي زيهم؟

قال المعلم حنفي بتفهم:
_جلال راضي بقليله ودايمًا بيقول الحمدلله.

كان حديث المعلم حنفي يعكس حكمة لم يتقبلها قلب جلال الذي امتلأ بحب المال وجشع الدنيا، رافضًا أن يرضى بنصيبه كما يليق برجل صادق. على النقيض، كان يطمح أن يجمع ثروات الأرض بين يديه، ولو كان الثمن هو السير في دروب الظلام والخديعة، غير مكترث بمبادئ أو أخلاق تمنعه من الانحدار إلى تلك الطرق المشبوهة، ونعود بالزمن إلى الوراء، حين كانت أم الديب تمسك بين يديها أوراق المال وهي تدخل غرفتها، بينما جلال، الذي كان جالسًا متظاهرًا بأنه غارق في تدخين النارجيلة ومتابعة التلفاز، كان في الحقيقة يراقب حركاتها بعين خفية، منتظرًا لحظته المناسبة. وما إن خرجت وتوجهت إلى السوق، حتى اندفع نحو الغرفة باندفاع من يعلم وجهته، فتش كل زاوية حتى وجد المال. وبينما يمسكه بكلتي يديه، رفعه إلى شفتيه وقبّله كما لو كان وجد كنزه المفقود، قائلًا بسعادة جياشة:
_هو ده الكلام، أمال أأكل ليالي والعيال ازاي؟
نعود إلى حاضرنا حيث نعمة، التي امتلأ قلبها فرحًا وسرورًا وهي ترى أختها هايدي تخطو خطوات ثابتة نحو تجهيز بيتها واستكمال مستلزمات الزواج. كانت نظرات نعمة تعكس مزيجًا من الفخر والإخاء، مشبعة بمحبة صادقة لا تعرف زيفًا. وبابتسامة دافئة، باركت لها قائلة بصوت يحمل من النقاء ما لا يوصف:
_مبروك عليكي يا هايدي.

هايدي بابتسامة:الله يبارك فيكي يا نعمة.
نعمة:هتجيبوا كل حاجة النهارده ولا هتعملوا إيه؟
هايدي:أيوه إن شاء الله ناويين نجيب كل حاجة النهارده.

توجهت نعمة بنظراتها نحو زياد، وقد بدا على وجهها تعبير من الاستغراب. وبصوت يحمل في طياته التساؤل، خاطبته قائلة:
_يا نهاري! وانت فلوسك جاهزة يا زياد؟

زياد بثقة:أيوه متقلقيش! بس ياريت محدش يتكلم قصاد مرات عمي !
نعمة:لا محدش متكلم، طب كنتوا اقسموها على يومين تلاتة، ده يوم واحد هيطلع عينكم!

أم الديب الجزء الثالث

كان زياد يبدو وكأنه مستعد تمامًا لشراء جميع الأثاث في يوم واحد، إذ يملك بين يديه مبلغًا كبيرًا يمكنه من تلبية كل ما تطلبه هايدي دون عناء. غير أن نعمة كانت تعتريها الحيرة، فلطالما اعتادوا شراء هذا الأثاث على مدار أسابيع، يجمعون المبالغ تدريجيًا حتى يتمكنوا من الوفاء بالمتطلبات. وبينما كانت علامات الاستغراب ترتسم على وجه نعمة، تدخلت هايدي بحنكة، لتبدد استغرابها قائلة:
_احنا كنا ناويين نعمل كده، بس بصراحة المعرض هنا كل حاجة فيه حلوة أوي وهنجيب كل العفش من هنا.

نعمة بغبطة:يلا ربنا يتمملكم على خير ويسعدكم يارب.
هايدي بتمني:يارب يا نعمة يا حبيبتي.

بعد أن تم اختيار كل قطعة من الأثاث بعناية فائقة، وتهيأت الأمور لوقت دفع الحساب، كانت تلك هي اللحظة الحاسمة التي يجب فيها إبعاد أم الديب عن الساحة، قبل أن تتدخل بكلماتها المتسلطة وتبدأ في وضع العراقيل التي قد تنهي هذه الزيجة قبل أن تبدأ. وفي تلك اللحظة، أدركت نعمة أن عليها استخدام ذكائها للخروج من هذا المأزق، فراحت تمثل الإرهاق للمرة الثانية، محاولة التأثير على والدتها، وبصوت ضعيف يحمل في طياته تعبيرًا عن التعب، وضعت يديها على بطنها وقالت لها:
_أه ياما أنا تعبانة، تعالي اسنديني لحد العربية!

أم الديب بانشغال:أختك تسندك، آني واقفة معاهم.
نعمة بإلحاح:لا ياما، هايدي لواحدها متقدرش تسندني، اسنديني انتي كمان معاها!
أم الديب بسُخط:يادي النيلة، أصبري يا بت مش وقته!
نعمة:بقولك تعبانة ياما، هو إيه بس اللي مش وقته؟

وجهت هايدي حديثها إلى أم الديب بصوت يحمل طابع الإقناع، متسلحةً بالدبلوماسية، قائلة:
_أيوه يا ماما تعالي نسندها بس! هي تعبانة ومش قادرة!

أم الديب:تعالي ياختي منك ليها أما نشوف آخرتها معاكم إيه!

استجابت أم الديب لكلمات ابنتيها، فخرجت مع هايدي وهما تسندان نعمة التي كانت تتظاهر بالتعب، حتى وصلوا إلى السيارة، وعندما فتحت هايدي الباب، نظرت أم الديب إلى نعمة بترقب، ثم قالت بلهجة مليئة بالحنان:
_خُشي براحة على مهلك!

نعمة بإعياء:حاضر ياما.

أم الديب الجزء الثالث

جلست نعمة على مقعدها، فجلست معها أم الديب وهايدي، وأوصدوا باب السيارة بهدوء. في تلك الأثناء، كان الرجال داخل المعرض مشغولين بدفع الحساب. لم يتردد زياد لحظة، فدفع مائتي وخمسين ألف جنيه دون أن يظهر على وجهه أي علامات تضايق، بل كان يحمل في قلبه حبًا كبيرًا دفعه لتلبية جميع مطالب هايدي، موقنًا أن ما يفعله هو من أجل بناء منزل يجمعهما معًا على أساس العشق، وفي خضم هذه الأجواء المشحونة بالفرح، عانق حسين زياد بحنان الأب، وأشار إليه بعيون مليئة بالاعتزاز، قائلًا:
_مبروك يا زياد يابني، عقبال ما أشوفكم في الكوشة.

زياد بسرور:الله يبارك فيك يا بابا.

قال المعلم حنفي لزياد بخجل، وهو يحاول أن يخفف من الإحراج الذي أحاط به:
_معلش يابني دفعناك مبلغ كبير.

زياد بفرح:لا يا عمي ده حق هايدي، وبعدين احنا بنشتري حاجة تعيش معانا طول العمر.

تحدث جلال مع زياد بابتسامة طفيفة، تعكس مشاعر السعادة التي تعتمل في قلبه، قائلًا:
_مبروك ياض، عقبال الليلة الكبيرة.

زياد بابتسامة:الله يبارك فيك، عقبال ولادك.

بينما كان المحاسب منهمكًا في عد الأموال على الجهاز، استغل حسين الفرصة وسأله بفضول عارم عن تفاصيل وصول هذا الأثاث الجديد، قائلًا:
_هناخد الموبيليا دي على كام عربية يا حاج؟

المحاسب:على أربع عربيات إن شاء الله.

أكد زياد للمحاسب موعد وصول الأثاث الجديد، مستفسرًا أن الطلبية ستكون متاحة قريبًا، وهو يقول له:
_بعد بكرا زي ما اتفقنا على العنوان!

المحاسب ببسمة:أكيد يا فندم، وألف ألف مبروك لحضراتكم.

أجاب المعلم حنفي، وحسين في آنٍ واحد:
_الله يبارك فيك.
استلم زياد الورقة التي تشير إلى الاتفاقية بينه وبين المعرض، ثم خرجوا جميعًا مسرورين، إذ شعروا أنهم قد استغلوا الوقت بشكل مثمر في أمر ينفع الجميع. وعندما وصلوا إلى السيارة، بدأ كل منهم يتخذ

مكانه على مقعده، لكن فضول أم الديب كان عارمًا، وكأنها تحمل في قلبها تساؤلات لا تنتهي. فالتفتت إليهم، ونظرت إلى جلال، وسألته:

_دفعتوا كام؟

جلال:دفعنا متين وخمسين ألف جنيه ياما.

أم الديب بصدمة:ايهي دهو قليل على البت، ده مكنش اتفاقنا، بقى بتضحكوا عليا وبتستغلوني؟

قال حسين بضيق، وقد بدا على ملامحه عدم الرضا:

_احنا مبنستغلش حد، احنا جيبنا كل اللي انتوا شاورتوا عليه متأخرناش عنكم في حاجة.

تلفظ المعلم حنفي بشكر، وهو ينظر إلى حسين بتقدير واحترام، قائلًا:

_الصراحة انتوا مقصرتوش، وعملتوا اللي عليكم وزيادة.

تحرك جلال بالسيارة متجهًا نحو إحدى المطاعم الشعبية في دمياط، حيث كان ينوي شراء بعض الساندويتشات الشهية قبل العودة إلى القرية، بعد يوم طويل وشاغر بالأحداث المتلاحقة التي حفرت في ذاكرته، وبينما كان يقود السيارة، التفت زياد إلى هايدي، وكأنه يستعرض قائمة المهام التي لا تزال تنتظرهما، ثم قال لها بتفكير عميق:

_صحيح يا هايدي، كده باقيلنا إيه؟

هايدي بتفكير:باقيلنا إيه؟ باقيلنا إيه؟ فاضل الستاير، والأجهزة الكهربائية، والسجاجيد، وشوية رفايع.

أعلنت أم الديب بغلاظة صوت، غير معترفة بالإنجاز العظيم الذي حققه زياد لابنتها، في ظل ظروف عسيرة باتت تشكل عائقًا أمام الشباب الراغبين في الزواج. كانت تعبر عن انزعاجها من الانتصارات الصغيرة في نظرها، مؤمنة بأن التحديات التي تواجهها الأجيال الجديدة يجب أن تُعتبر أمرًا عاديًا، قائلة:

_ايهي، مانت لو فلوسك حاضرة كان زمانك خلصت كله النهارده، لكن راكن بتي جنبك لحد ما هتخلل، مانت مالي ايديك منها بس مش علينا احنا الكلام دهو!

لكن جلال أصدمها برده، إذ رفع صوته بشكل مفاجئ يعبر عن استياءه، مشددًا على أهمية الإنجازات التي حققها زياد في ظل الظروف الصعبة التي يواجهها الشباب اليوم. كانت كلماته تحمل في طياتها إحساسًا بالعدل، مظهرًا تضامنه مع خطيب أخته ودفاعه عن جهوده، قائلًا لها:

_ما تبطلي شغل العبط ده ياما! ده الواد لا مؤاخذة في الكلمة لسه متخيط في ربع مليون جنيه ولسه الشقة ناقصها حاجات، وانتي تقوليله راكنها جنبك؟ ما تعقلي الكلام ياما!

قالت هايدي، وهي تشعر بالرضا عن حديث جلال الذي أعطى وزنًا لجهود زياد:

=أول مرة تقول حاجة صح.

نطقت أم الديب بعجيج، حيث كان دفاع جلال عن زياد بمثابة طعنة في صدرها، إذ أحست بأنها محاصرة بين اتفاقاتهم عليها. بدا السخط يشتعل في عينيها، وهي تدرك أن كلماته قد تمثل تحديًا لها:

أم الديب الجزء الثالث

_ايهي انتوا بتتفقوا عليا وعاملين عليا رباطية؟ ده بدل ما تقفوا في صفي وترجعولي حقي؟
قال حسين بانفعال لأم الديب، معبرًا عن استيائه من موقفها:
=حقك إيه يا أم حق؟ ما تخلينا ساكتين! أنا لولا عامل احترام لحنفي أخويا كنت اتكلمت كلام غير ده!

أم الديب بصياح:لم نفسك! انت إيه اللي جابك معانا؟ ما كنا مرتاحين منك.

قالت نعمة لأم الديب بخوف، وهي تشعر بتوتر الأجواء:
_لا إله إلا الله، هو انتي ياما المشاكل بتجري في دمك إدمان؟

أم الديب بنواح:عملها فينا، ما هو عملها، خلاكم زي الخاتم في صوباعه، قلبكم عليا علشان تكرهوني وتبقوا في صفه!

قال جلال لأم الديب بصخب عالي، معبرًا عن انزعاجه:
_اتهدي بقى ياما! وربنا مانا ناقصك، ده انتي روشتيني !

بعد ساعات عندما وصلوا إلى المنزل، توجه جلال نحو شقته، بينما انطلقت هايدي إلى غرفتها. في تلك الأثناء، كانت ليالي مشغولة في إعداد الغداء، حيث انشغلت بالتحضير للوجبة وتخفيف الأجواء المتوترة التي نشأت نتيجة الشجار بين الأطفال. كانت تشعر بالقلق من تصرفات ابنها حمود، الذي تشاجر مع أخته تقى. جلال، الذي كان يشعر بالقلق والحنق في آن واحد، بدأ يبحث عن حمود بعدما سمع ما حدث. كان لديه نية لمعاقبته بشكل صارم، إذ كان يتوقع أن يتصرف ابنه كأنه أسد قوي، متجاهلًا القواعد المنزلية. صوته الحاد كان يعكس قلقه، وكأنه يحاول استعادة السيطرة على الأمور في الشقة.
ردت ليالي بتساؤل هادئ، محاولة تهدئة الوضع، حيث أخبرته أن الأطفال قد تصالحوا بالفعل. ولكن جلال لم يكن راضيًا عن هذا التفسير، وأبدى استياءه من تصرفات ليالي السابقة، التي اعتبرها مساعدة لابنه في التمرد. كان يتمنى لو أن ليالي كانت أكثر حزمًا في التعامل معهم، وأن الأطفال يشعرون ببعض الخوف من تصرفاتهم. بينما كانت ليالي تحاول شرح موقفها، وتحدثت عن كيف أنها قد عاقبت حمود بشدة، حتى جعلته يبكي ويشعر بالندم، حاول جلال أن يظهر استياءه من الفوضى التي تعمّ الشقة. كان لديه إحساس بأن كل شيء قد تحول إلى فوضى نتيجة عدم انضباط الأطفال. لم يكن جلال مهتمًا برغبات ليالي، بل كان يركز أكثر على إعداد الطعام. انطلقت رائحة الثوم والبصل في أرجاء المنزل، مما جعله يتساءل عن مدى نضج الطعام. ومع ذلك، لم تكن ليالي تشعر بالاستياء من تعليقاته، بل بالعكس، كانت ترد بفخر بأنها قادرة على التعامل مع الأمور. عندما سأل عن موعد انتهاء الطعام، أوضحت له ليالي أنه لن يستغرق أكثر من عشر دقائق. وفي لحظة من الحسم، قرر جلال أخذ حموم سريع قبل تناول الطعام.

دخل جلال المرحاض، وأدار الماء ليغتسل، في حين أن أم الديب، التي كانت معتادة على زيارة السطح للاعتناء بالبط الذي تربيه، مرت على باب شقتهم. سمعت صوت الماء المتدفق من الدش، مما جعلها

تشعر بالتخطيط. لذا، قررت العودة أدراجها إلى الأسفل. استمر جلال في الغناء أثناء استحمامه، في محاولة للتخلص من الضغوط التي واجهها خلال اليوم. تردد صوت جلال وهو يغني بأعلى ما يملك من نغمة تحت رشات الماء الباردة، بينما كان الصابون ينساب بين خصلات شعره كأنما يطهره من كل هم. عيناه مغلقتان، وكأنه قد حجب نفسه عن عالم الخارج، غارقًا في لحظات صفاء عابرة، غير واعٍ للقدر الذي يتربص به في خفاء. والدته كانت تكتب خطوط الكارثة في عقلها، تخطط لما سيزلزل عالمه الهادئ دون أن يدري، حيث غنى قائلًا:

_كانت غالية بس معايا هادية، كانت صعبة بس معايا سهلة، كانت جامدة بس معايا سيف، كانت عاقلة بس معايا هبلة، تقفلني كله تضحكلي، تحزن بس تيجي ترقصني.

في عمق البيت، عند أم الديب، نزلت بخطوات حذرة، تسلل الصمت معها كأنه شريك في خطتها. دخلت المنور الذي يحتضن الأسرار، وأغلقت الماتور الخاص بجلال، ثم قطعت عنه الماء دون تردد. في تلك اللحظة، كان الصابون قد أحاط بوجه جلال كالسحب التي تحجب الرؤية، وهو مستمر في غناءه بمرح غافل عما يحاك له:

_كانت ساكتة ومعايا شقاوة، كانت حارة على قلبي ترا....

وما إن بدأ يكمل أغنيته بحماسة، حتى انقطعت المياه فجأة كأنما الحياة توقفت لحظة. ارتفع صوته بنداء عالٍ يحمل بعض الضجر ممزوجًا بالتعجب، ينادي زوجته كأنها المنقذة من هذا المأزق المفاجئ، ولم يكن يدري أن اللعبة قد بدأت بالفعل، قائلًا لها:

_يا ليالي، انتي فاتحة المياة في المطبخ؟

ليالي:مفتحتش حاجة!

جلال بدهشة:أمال في إيه؟

خرجت ليالي من المطبخ بخطوات مُسرعة، ويدها تحمل ملعقة لا تزال تحمل بقايا الطعام الذي كانت تخلطه في القدر. وقف القلق واضحًا في عينيها وهي تتقدم نحو الباب، لتسأله بنبرة مترددة وكأنها تترقب سبب هذا النداء المفاجئ:

_في إيه يا جلال؟ هي المياة قطعت عندك؟

جلال بامتعاض:أيوه يا بت، أنا على وشي صابون!

ليالي بصدح:طب اقفل الحنفية وافتحها تاني!

جلاب بصياح:وربنا ما شايف حاجة، ما هي متقطعش غير وأنا بتنيل على عيني.

ليالي بهدوء:طب أصبر بس!

دخلت ليالي الغرفة بخطوات متسارعة، وما زالت الملعقة في يدها كأنها لم تشأ أن تترك أثرًا من انشغالها السابق. التقطت الهاتف بسرعة واتصلت بنعمة، محاولة أن تفهم إن كان هذا الانقطاع يعم الحي بأسره أم أن الأمر يتعلق بهم وحدهم. وما إن ردت نعمة على المكالمة، حتى جاء صوت ليالي واثقًا، قائلة لها دون تردد:

أم الديب الجزء الثالث

_بقولك إيه يا نعمة، هي المايه قاطعة عندك؟

نعمة بتردد:مش عارفة، طب أصبري أشوفلك!
ليالى بقلق:طب بسرعة الله يكرمك!
نعمة:حاضر.

فتحت نعمة صنبور المياه في مطبخها، ليتدفق الماء بشكل طبيعي دون أي عوائق، وكأن شيئًا لم يحدث. عندها، عادت إلى المكالمة وقالت لليالي بثقة:
_شغالة عندي، هي قاطعة عندكم انتوا بس؟

ليالي:باينلها كده، طب بقولك نزلي محمد يشوف الماتور ماله!
نعمة:أنا هبعته لهايدي وهي تشوفه، أصل ممعاييش رصيد أتصل عليها.
ليالي:ماشي بس بسرعة وحياتك، الصابون على وش جلال!
نعمة:ماشي يا ليالي.

بعد أن انتهت المكالمة، أصدرت نعمة أمرها لطفلها محمد بالنزول لاستدعاء هايدي حتى تذهب لتفقد الماتور بنفسها. لم يمضِ وقت طويل حتى نزل محمد إلى شقة أم الديب، وكانت هي نفسها من استقبلته، حيث خرجت من مطبخها منشغلة بسلق الكرنب. وما إن وقع بصر الجدة أم الديب على محمد حتى امتلأت عيناها بالفضول، وبدأت تتساءل عن سبب مجيئه، تنتظر منه ما يكشف غموض الزيارة المفاجئة، قائلة له:
_إيه يا ولا أمك مالها؟

محمد:أمي عايزة خالتي تشغل ماتور خالي جلال.
أم الديب بمكر:ايهي انت شكلك خاسس يا ولا، تعالى أعملك ساندوتش وسيبك من خالك، أعملك ساندوتش إيه؟

حينما أدركت أم الديب أن مشكلة ماتور جلال على وشك الحل، وأن المياه ستعود إلى مجراها الطبيعي قريبًا، قررت أن تستغل الفرصة بذكاء، فألقت طُعمها ببراعة أمام محمد الذي لم يلبث أن وقع في فخها كسمكة تستجيب لإغراء الصنارة. قادته بخطوات مدروسة إلى مطبخها، حيث بدأت بتحضير ساندوتش من الجبن القديم له، مستغلة انشغال هايدي، التي لم يصلها الخبر بعد، وهي غارقة في استماعها للأغاني داخل غرفتها. في تلك الأثناء، كانت ليالي في الطابق العلوي، تنتظر عودة المياه، وحينما طال غيابها، شعرت بأن هناك ما يستدعي النزول بنفسها. فتوجهت نحو المنور، وحالما دخلت إليه، أدركت أن الماتور الخاص بهم قد تم فصله. وقفت لحظات صامتة، تتأمل الموقف بعينين تملؤهما الحيرة، تفكر بعمق وتبحث في ذهنها عن خيوط الإجابة التي قد تكشف لها هذا اللغز المفاجئ، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_مين اللي له مصلحة يعمل العاملة السودة دي غير حماتي؟ واشمعنا الماتور بتاعنا احنا بالذات؟ وربنا مانا ساكتالك بس أصبري عليا!

استدارت ليالي فجأة لتجد أم الديب تقف خلفها، وعيناها تمتلئان بالغل المكبوت، كأنها كانت تترصد لها في الظلال. شعرت ليالي بتيار من الشك يسري في قلبها، وهي تحدق في حماتها، غير قادرة على تجاهل التوتر الذي يحيط بها، قائلة لها بارتياب:

_هو انتي اللي عملتي كده يا حماتي؟

أم الديب بتمثيل:يا حول الله يارب، الماتور بتاعكم ماله؟ جراله إيه؟

ليالى بارتياب:قال كده أنا صدقت؟ بصي لو عايزاها تعدي على خير يبقى تطلعينا من نفوخك، أنا مابقتش حِمل عمايلك دي!

أم الديب بغيظ:انتي بتتبلي عليا يا بت؟ طيب ماشي.

كانت أم الديب تتظاهر بعدم معرفتها بأي شيء يتعلق بالحادثة، لكن ليالي لم تستطع تصديق تمثيلها، إذ كانت قد تعلمت كثيرًا عن شخصية حماتها وقدرتها على التلاعب بالمشاعر. في لحظة من الهياج، انقضت أم الديب على قطعة من الحصى الملقى على الأرض، وكأنها تجد فيها وسيلة للتعبير عن ألمها، فرفعتها عاليا وأصابت بها رأسها، متظاهرة بأن ليالي هي من ألحق بها هذا الأذى، مستغلة تلك اللحظة لتظهر وكأنها الضحية، بينما كانت تعيش في عمق تلك الدراما التي رسمتها بنفسها، مما دفعها إلى التقاط أنفاسها بصعوبة قبل أن تندفع إلى الشارع، والدماء تسيل من جرحها، حيث انطلقت تعول وكأنها قد فقدت عقلها في لحظة، جاذبة انتباه المارة من حولها، قائلة بنواح:

_يا لهوي مرات ابني اللي كنت بعاملها زي بناتي استقويت عليا وبطحتني، اللي من يوم ما دخلت دارنا واحنا شايلينها على راسنا، وفي الآخر تعمل معايا كدهو؟ الحقوني يا عالم الدم بيشُر من نفوخي، يا بختك المايل في مرات ابنك يا أم الديب، يا لهوي!

خرجت الجارة من منزلها بسرعة، وقد بدت على وجهها ملامح الفزع، وسألت أم الديب بحذر، باحثة عن تفسير لما يحدث، مُتسائلة عن سبب الضجيج الذي انتشر في الأجواء:

_مالك يا أم الديب؟

لكنها حينما دققت النظر، ووقعت عيناها على بقع الدماء التي تلطخ الأرض، انتابتها حالة من الذعر، فصرخت بصوت عالٍ، يتردد صداها في الأرجاء، معبرة عن رعبها مما شهدته، قائلة:

_يا لهوي ده دم!

كل هذا والدمار يسود المشهد، بينما كانت ليالي تخرج من المنزل، مصدومة، ولم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة، وكأن لسانها قد جف أمام هذه التراجيديا العائلية الكبرى التي تجسد فيها حماتها كأنها البطلة التي تسيطر على المسرحية بمهارة. في تلك الأثناء، كانت هايدي قد سمعت الصراخ، فاندفعت نحو الأسفل بسرعة، برفقة المعلم حنفي، وقلوبهم تنبض بالخوف من مصيبة غير متوقعة. في الطابق العلوي، كانت نعمة وزوجها يراقبان الوضع بقلق من نافذة الصالة، وعندما انتبهت نعمة جيدًا إلى طبيعة الصوت، أدركت بكل وضوح أنه نواح والدتها، فصرخت بوجه حامد، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_يا نهار أسود، ده صوت أمي!

حامد بفزع:تصدقي ده صوت أمك فعلًا!
نعمة بصراخ:أسترها معانا يارب، هات المفتاح بسرعة وتعالى ورايا!

فتحت نعمة خزانة الثياب بسرعة وكأن الزمن يداهمها، ورفعت الحجاب فوق رأسها بحركة سريعة، متجهة نحو الشارع، بينما كان زوجها يلاحقها، وكأنهما يجريان في سباق مع الأحداث المُتسارعة، وفي خضم هذه الفوضى، كان جلال لا يزال واقفًا في المرحاض، محاطًا برغوة الصابون التي غمرت وجهه، كأنه يعيش في عالم مظلم، لا يجرؤ على فتح عينيه ليعود إلى الواقع، عازفًا عن كل ما يجري من حوله، وعلى الرغم من تأخر ليالي في اللحاق به، إلا أنه كان منصتًا لصدى شجار عنيف يشتعل في الخارج، لكنه لم يكن يدرك أن تلك الأصوات القاسية تعود لوالدته وزوجته، بينما استغاث بليالي كمن يبحث عن طوق نجاة في بحر من الهموم، قائلًا بأعلى صوت:
_يا ليالي، ليالي، حد يجيلي، ليالي!
ولما لم يجدها تجيب، خرج جلال من البانيو بخطوات مترددة، متخبطًا في المجهول، مستعينًا بحواسه حتى وصل إلى الباب. وفي تلك اللحظة، استيقظ أطفاله على صوت الفوضى، فوجدوه واقفًا عاريًا كأنه فقد كل إحساسه بالزمان والمكان، مما جعلهم ينفجرون بالصراخ، فاندفعوا بسرعة إلى الغرفة، حيث غمرتهم مشاعر من الإحراج، وكأنهم اكتشفوا شيئًا غير متوقع في عالمهم الصغير. نادت تقى بفزع:
_يا ماما!
صرخ جلال بصوت عالٍ، وهو يلتفت حوله بقلق، محاولًا استيعاب ما يجري في تلك اللحظة الفوضوية:
=وربنا ما شايف حاجة، يتحرق الاستحمام على اللي عايز يستحمى، ده كان يوم أزرق!
ثم دخل المطبخ بدلًا من الغرفة، مشوشًا، يتعثر بخطواته وكأنه فقد الاتجاه في هذا الزحام من الأفكار، ولم يكن يعرف موقع وقوفه بدقة، مما زاد من حيرته في تلك اللحظة العصيبة، فقال:
_أنا فين؟ يا نهار أسود عليا!
بينما كانت نعمة في الشارع، اجتاحتها صدمة عارمة حين رأت والدتها، التي كانت باكية في مشهد مروع، مغمورة في الدماء التي سالت على رأسها وحجابها، وكأنها تعيش لحظة من الكابوس المرعب. استبد بها الخرع، واندفعت نحوها، محملة بعواطف متضاربة، وراحت تسألها بصدمة:
_يا نهار أسود ياما، مين اللي عمل فيكي كده؟

أم الديب بصراخ:ضربتني، فتحتلي نفوخي يا عالم، استقويت عليا إكمني ست غلبانة، آه!

سألت نعمة ليالي بصياح، يتردد في صوتها قلق دفين ممزوج بالذعر، وكأن كل كلمة كانت تُخرجها من فمها تحمل معها العتاب:
_هي وصلت بيكي إنك تمدي ايدك على أمي يا ليالي؟

أم الديب الجزء الثالث

ليالي بجلبة:وربنا ما عملت حاجة يا نعمة! أمك كدابة، دي فتحت دماغها قدامي وخرجت تصوت في الشارع!

لكن هايدي في دخيلتها لم تكن تصدق أن هذا الحادث وقع بالفعل، إذ كانت تدرك تمامًا قدرة والدتها على الخداع وإجادة تمثيل المواقف، مما جعلها تشكك في كل ما تراه أمام عينيها، قائلة:
_بصراحة مستبعدهاش عن ماما، تعمل كده عادي يعني.
انطلقت أم الديب نحو ليالي، تصرخ من أعماق قلبها بينما كانت تمسح دماءها المتساقطة من رأسها بيد مرتعشة، وكأنها تسعى لإخفاء عار الجرح الذي أصابها، ثم توجهت بنظرات حادة نحو نعمة، قائلة ببغضاء:
_دي كدابة.
وأردفت لليالي بنواح:
_حسبنا الله ونعم الوكيل فيكي يا ليالي، يقعدلك في صحتك وفي عيالك... مش هسامحك مهما يحصل!

ليالي بصياح:وحياة المصحف ما جيت ناحيتها دي بتكدب، ده حتى هي اللي فصلت الماتور على جلال وهو بيستحمى!

تذكرت ليالي وسط النزاع الفوضوي الذي اجتمع فيه كل أهل الحي، أن جلال لا يزال في المرحاض ينتظر عودة المياه ليستأنف حمومه، مما دفعها للانطلاق بسرعة، فدخلت المنور لتشغل الماتور، لكنها لم تستطيع، وعندما خرجت مُسرعة نحو الأعلى، تبعها المعلم حنفي، الذي كان يصدّق روايتها ولا يُقنعه تمثيل أم الديب مهما حاولت إقناعهم بكلماتها، إذ كان واضحًا للجميع أن هناك شيئًا أكبر من مجرد مشاجرة عائلية تلوح في الأفق، مما جعله يقدّم دعمه لها في تلك اللحظة الحرجة، قائلًا لها:
_مصدقك يا ليالي، دي ولية وش تبالي.

ليالي بقهر:والله يا حمايا ما لمستها، دي كدابة كدب الإبل!

حتى وصلا إلى الشقة، ليجدوا جلال واقفًا في الصالة، عاريًا تمامًا، لا يرى شيئًا بسبب الصابون الذي غمر عينيه، مما جعله في موقف شديد الإحراج. شعرت ليالي بالخجل يتسلل إلى أعماقها، وهي تنظر إليه، ثم التفتت إلى المعلم حنفي، حيث كانت الكلمات تتردد في لسانها، تبحث عن طريقة للخلاص من المشكلة التي تواجههما:
=يا نهار أسود، استنى يا حمايا متدخلش!

المعلم حنفي:أديني واقف.

أم الديب الجزء الثالث

نظر المعلم حنفي من بئر السلم، وأطلق صوته في أرجاء المكان، ينادي هايدي بحماسة، راغبًا في إحضار الماء من الأسفل، وكأن تلك المهمة الصغيرة ستساعد في حل المشكلة. صوته كان واضحًا ومسموعًا، يحمل في طياته عزمًا على التصدي لهذه الفوضى، قائلًا لها:

_بت يا هايدي، هايدي!

خرجت هايدي من الشقة، وملامح الاستغراب تتجلى على وجهها، فسألته بصوت عالٍ، يتردد صداه في الأرجاء:

=إيه يا بابا؟

المعلم حنفي:هاتي جردل وامليه مايه واطلعي !

هايدي:ماشي.

دخلت هايدي الشقة بسرعة لتحضر جردل المياه، حيث وضعته تحت صنبور مرحاضهم وشرعت في ملئه، مجهدةً نفسها وسط الفوضى التي تسود المنزل. بينما في الأعلى، كانت ليالي تسعى بكل قوتها لإزاحة زوجها العاري نحو المرحاض، خاشية عليه من أن تلتقطه النظرات التي يمكن أن تصيبه في أي لحظة، مما جعل قلبها ينبض بالهلع. فتوجهت إليه، قائلة له بخوف، وكأن الكلمات تتراقص على لسانها بينما تتمنى أن تنقذه من هذا المأزق المحرج:

_خُش جوا، يادي الفضايح، منك لله يا حماتي، مغلولة منك على أخري، عاوزة أفش غلي، مش مستحملة!

جلال بتضايق:براحة يا بت أنا مش شايف حاجة!

ليالي بقلق:خُش قبل ما حد يطلع!

ثم أدخلت زوجها المرحاض، وقامت بإغلاق الباب خلفها بحذر، قبل أن تعود مُسرعة إلى المعلم حنفي، الذي كان ينتظر في حالة من القلق. في الأسفل، كانت أم الديب تستند إلى نعمة، وحامد، الذي ساعدها في الصعود إلى الشقة، حيث جلست نعمة على الأريكة، غارقة في مشاعر الحزن على والدتها، متأثرة بشدة مما حدث، وكأن كل كلمة خرجت من فم والدتها قد تركت في قلبها أثرًا عميقًا. بينما كانت هايدي تخرج من المرحاض، تحمل الجردل الثقيل الممتلئ بالمياه بين ذراعيها، تقاوم ثقله بكل ما أوتيت من قوة، وهي تحاول الصعود به إلى المعلم حنفي. بينما كانت نعمة تشعر بالحنان تجاه والدتها، ومتمنية لو أن بإمكانها أن تزيل عنها كل همومها، قالت لها:

_متخافيش ياما ده جرح صغير، الحمدلله إنه مجاش كبير.

أم الديب:يبقى آني مخبطش الإزازة كويس.

نعمة بعجيج:يا نهار أسود ومنيل بقطران! هو انتي اللي عملتي في نفسك كده ياما؟ يعني احنا ظلمنا ليالي؟

أم الديب بصياح:أيوه آني يا بت، حد له شوق في حاجة؟

أم الديب الجزء الثالث

قال حامد لأم الديب بصدمة، بينما كانت ملامح وجهه تعبر عن استغرابه من الموقف الذي يعيشه الجميع:

_حرام عليكي يا حماتي، بتعملي كده ليه؟

أم الديب بامتعاض:وانتوا مالكم؟ خلي الواد جلال يتربى ويعرف غلطه، بقى كلكم تتفقوا عليا عشان حسين وابنه؟

قالت نعمة لوالدتها بعتاب، وكأن كلماتها تتدفق من قلب ملآن بالمشاعر المختلطة:

_لا ياما مالكيش حق انتي غلطانة، اعقلي ياما ده انتي جدة مش عيلة صغيرة، متخليش الناس تصتصغرك!

أم الديب بصياح:لمى نفسك يا بت! آني كبيرة وهفضل طول عمري كبيرة، واللي عنده كلام غير كدهو يخبط دماغه في الحيط، ويلا هاتيلي تلج.

ثم أردفت لحامد بأمر:

_وانت يا ولا روح هاتلي مرهم من الصيدلية!

مد حامد يده ليأخذ منها المال، لكنها سرعان ما ضَربَته بيدها، مما جعله يتراجع في دهشة، بينما صرخت أم الديب بصوت عالٍ، يتردد في أرجاء الصالة، قائلة له:

_هتدفعوني وآني ست كبيرة في السن دهو؟ مانت نطع يا ولا، دهو بدل ما تدفع من جيبك عشان حماتك؟

حامد بتعجب:ألله يا حماتي، وهو المرهم ده ليا ولا ليكي؟

أم الديب بجلبة:ايهي هو لازم يكون ليا عشان تدفعلي؟ يلا إنجر بسرعة، آني نفوخي وارم!

نهض حامد من الأريكة، مُجبرًا على دفع ثمن الدواء من ماله الخاص، فتوجه نحو الباب ونزل من المنزل متجهًا إلى الصيدلية، مما جعله يشعر بالقلق إزاء ما يحدث في الداخل. وفي الطابق العلوي، كان الوضع بين ليالي وجلال متوترًا بعد أن جاءت هايدي إليهما بجردل الماء. استقبلت ليالي الجردل منها بسرعة، وسلمته لجلال في المرحاض، حيث شرع في غسل وجهه وباقي جسده، محاولًا التخلص من آثار الصابون التي وقعت. وعندما خرج من المرحاض، ملفوفًا في منشفة، كان واضحًا عليه السخط نتيجة ما حدث له، وقد تملكه الشك تجاه والدته، خاصة بعد أن توعدت له في السيارة عندما دعم زياد، ابن عمه، مما جعله يتوجه إلى ليالي بصياح، وكأن كل ما يجول في ذهنه من مشاعر مُضطربة يتدفق في تلك اللحظة، متسائلًا:

_مين اللي عمل كده يا ليالي؟

أم الديب الجزء الثالث

ليالي بحنق:أمك، أمك هي اللي عملت فينا الحركة السودة دي!
جلال بصياح:طب وربنا مانا ساكت!

قال المعلم حنفي بسلبية لجلال، الذي كان يعج بصوته في الشقة، محاولًا أن يهدئ من حدة الأمور، ويعيد الأمور إلى نصابها:
_أقعد ياض! دي لسه متبلية على مراتك!

جلال بسُخط:ولا يشغلني يابا، حقي هاخده لو هيحصل إيه كده!

ثم دخل الغرفة وأوصد بابها خلفه، محاطًا بعباءة من الحنق، وشرع في ارتداء ثيابه بسرعة، وكأنه يتأهب لدخول معركة لا مفر منها، ثم نزل لأم الديب وهو يخطو خطوات شرسة، كأن شيطانًا يزأر في أعماقه، وهو متجه إلى النزاع مع ملك الأبالسة، حتى وصل إلى شقة أم الديب، حيث دخلها وهو يصيح فيها، مستعرضًا كل مشاعره المتأججة وكلماته تحمل ثقل الامتعاض المتجذر في صدره، قائلًا لها:
_بقى بتفصلي الماية عليا وأنا بستحمى؟

أم الديب بنشيج:مراتك ضربتني، استقويت عليا، هي كانت بتلعب مصارعة وهي في دار أهلها ولا إيه؟ بقى ست كبيرة على آخر الزمن يتعمل فيها كدهو؟
جلال بصياح:وديني مانا ساكتلك، وأنا يانتي النهارده!

ظل جلال يصيح، ويصدم يده على الطاولة، وكأن كل ضربة تحمل معها الاحتدام المتراكم، بينما كانت أم الديب تجلس هناك، تنتحب بدموع التماسيح. حيث توعد لها جلال بخطة انتقامية أشرس بكثير من خطتها، حيث كان يشعر بأن الأمر لن يمر سديًا، بل كانت نيرانه تشبه القلم الذي يرسم به على خريطة القصاص، مما جعل الشجار يتصاعد إلى مستويات عنيفة، والغريب في الأمر أن أم الديب لم تُبدِ أي رد فعل يذكر، في حين كانت نعمة تحاول تهدئة الأجواء، لكن جلال صعد ساخطًا إلى شقته، حيث كان الحنق يشتعل في داخله، خاصة أنه لم يتناول شيئًا من الطعام الذي أعدته له زوجته، مما جعل روحه منهكة تحت وطأة الضيق، فاكتفى بشرب ثلاث لفائف من السجائر حتى خلد في نومه ضائق الصدر.
في اليوم الثالث من الاتفاقية بين زياد وصاحب المعرض، كان الجميع ينتظرون وصول السيارات المحملة بمفروشات الشقة الجديدة، وبطبيعة الحال، كانوا قد منحوا أحمد نسخة من مفتاح الشقة، خصوصًا أن الشقتين بجانب بعضهما، حيث كان أحمد وجميلة وسيليا يقفون في البلكونة بترقب وغبطة ينتظرون وصول السيارات. كانت جميلة، التي لم تعش أجواء العائلة المليئة بالبهجة، تشعر بأن كل ما يحدث حولها طريف، فكلما تزوجت إحدى أخواتها، كانت عائلتها تتكلف بتغليف مشتريات العروس كتغليف الهدايا، بطريقة خاصة تُظهر ثراءهم، وترسلها إلى المنزل في صمت مطبق. بينما كان عامة الشعب يعيشون لحظات من الفرح، معتادين على ركوب سيارات النقل مع الأثاث، وهم يهتفون ويغنون مع الأغاني، في جو مفعم بالبهجة التي تعكس روح العائلة والأصدقاء. **يتبع....**

الفصل الثالث والعشرون

انطلقت السيارات النقل والنصف نقل في موكب مُهيب، محملة بأثاث العروس الجديد الذي يلمع بريقه تحت أشعة الشمس، كأنه يعلن عن دخول عصر حديث مليء بالتطور. كانت كل قطعة من هذا الأثاث مغلفة بعناية بالبلاستيك الشفاف الذي يحافظ عليها من أي ذرة غبار، حاملة في طياتها وعدًا بحياة جديدة، ومرتبة. توالت السيارات واحدة تلو الأخرى في نظام دقيق، كأنها جيش يسير نحو هدف محدد. في مقدمة القافلة كان جلال يقود السيارة التمناية، وإلى جانبه والده المعلم حنفي، الذي بدت على وجهه ملامح الفخر، وعمه حسين الجالس خلفهم، وزياد ابن عمه الذي ينظر إلى الطريق وكأن المستقبل بأسره ينتظره. كانوا جميعًا متوجهين نحو عش الزوجية الذي سيحتضن بداية جديدة. وعلى الجانب الآخر، كانت جميلة واقفة في البلكونة مع أحمد، نظراتها مليئة بالتساؤلات، لتسأله عن موعد زفاف هايدي وزياد، متسائلة:

_هو خلاص الفرح قرب كده؟

أحمد بسرور:أيوه طبعًا، فاضل شهرين.

بلهفة تشع من عيني سيليا، توجهت بسؤالها إلى والدها أحمد:

_عمتو هايدي هتيجي هنا لما تتجوز؟

أحمد بابتسامة:أيوه هتيجي، وهتبقى جنبنا!

سيليا بحبور:هييه، أنا مبسوطة أوي !

اقتربت جميلة من ابنتها سيليا في لحظة مليئة بالحنان، وطبعت قبلة دافئة على رأسها، كأنها تضع بركتها في أعماق قلب الصغيرة. كانت سيليا غارقة في سعادة لا توصف، فهي ترى في قدوم عمتها بعد الزواج وعدًا بحياة مليئة بالترابط والدفء العائلي، حيث ستتسع دائرة الذكريات الجميلة بينهم، وسيعيشون معًا لحظات لا تُنسى، تشع بالسعادة. نظرت جميلة إلى ابنتها برقة لا حدود لها، وقالت:

_يارب دايمًا يا روحي.

وصلت السيارات إلى الحي في هدوء يلفه الصمت، دون صوت غناء أو صخب المزامير المعتاد في مثل هذه المناسبات. توقفت السيارات أمام المنزل، واستقر كل شيء في مكانه، كأن المشهد يشير إلى بداية مرحلة جديدة بهدوء تام. نزل الجميع من السيارات، في حين بقيت النساء في القرية، ينتظرن بفارغ الصبر الجولة الأخيرة لنقل بقية الأثاث، استعدادًا لتنظيف الشقة بعناية وترتيب كل قطعة في موضعها المحدد، وكأنهن يحضرن لمسرح الحياة الزوجية بلمساتهن الخاصة. وصلت آلة الونش لتقوم بمهمتها المعتادة في رفع الأثاث الثقيل إلى الطابق المحدد، لكن المعلم حنفي، بخبرته الطويلة، وجد نفسه في حالة من التردد، متحيرًا بشأن كيفية رفع المثقلات إلى هذا الارتفاع الشاهق بأمان. كان قلبه ملآنً بالتفكير، فسأل بنبرة حائرة، باحث عن حل يضمن سلامة الممتلكات:

_هما بيقولوا هيرفعوها ازاي؟

أم الديب الجزء الثالث

أجابه زياد بإبانة:

=هيرفعوها بالونش، مابقاش حد بيرفعها على ضهره ولا حتى بيستخدم الأسانسير دلوقتي.

نطق حسين كلماته بثقة تامة، وقد بدا عليه الاقتناع التام بتلك الفكرة التي تضع حدًا للجهد البدني الشاق المتمثل في رفع الأثاث عبر السلالم. رأى في هذه الطريقة القديمة جزءًا من الماضي الذي ولى، وحلّ محله الونش، تلك الآلة التي غيّرت موازين العمل وسهّلت عبء الزمن والجهد معًا:

_لا بس الصراحة كده أسهل.

ابتسم المعلم حنفي ابتسامة مترددة سرعان ما تحولت إلى ضحكة خفيفة، وكأن تلك الضحكة كانت محاولة لتخفيف التوتر الذي بدأ يتسلل إلى قلبه. وبنبرة من التوجس، توجه بحديثه إلى زياد:

=يفرض الموبيليا وقعت من الونش؟

زياد باطمئنان:لا يا عمي متقلقش، بيبقوا حاطينها بإحكام!

كان الرجال منهمكين في رفع الأرائك واحدة تلو الأخرى فوق الونش، وقد توزعوا بينهم ليشرفوا على العملية بدقة، حيث ثبت أحدهم بجانب الأريكة لتأمينها جيدًا، بينما بدأ السائق في تشغيل المرفع ببطء مدروس. وكلما ارتفعت الأريكة في الهواء، ارتفعت أنظار الرجال معها، يراقبونها بأعين متحفزة، تتبعها في حذر وقلق مبطن. كانت قلوبهم مثقلة بشيء من التوتر، خشية أن يحدث ظرف طارئ لم يكن في الحسبان، قد يعكر صفو هذا العمل الدقيق. وفي منزل أم الديب، كانت تجلس على أرضية الصالة بكل بساطة، تتناول الجبن القديم والجرجير الطازج مع الخبز المحمص أمام التلفاز، أما نعمة وهايدي، فكانتا جالستين معها لكن على الأريكة، يشاركانها الحديث بين الحين والآخر، في حين كان حفدتها حمود وتقى ومحمد يلعبون على الدرج لعبة الاستغماية. كانوا مستمتعين بطفولتهم البريئة التي تملأ البيت بالضحكات، وكأنها درع يحميهم من مشاق الحياة ويغمرهم ببهجة الطفولة التي لا تعرف سوى اللهو.
بينما كانت أم الديب تواصل تناول طعامها بنهم، توجهت إلى نعمة بنبرة يعتريها شيء من الندم، فقد كانت تتمنى من أعماقها أن تكون معهم في تلك الرحلة، تشاركهم لحظات نقل الأثاث والتواجد معهم، قائلة لها:

_مش كنا روحنا معاهم يا بت؟

نعمة:ماحنا هنروح المرة الجاية ياما واحنا بإذن الله بنفرش شقة العروسة، أصل لسه الشقة مخلصتش.

تلفظت هايدي بكلمات تتجلى فيها معالم التفكير العميق، مسترجعةً في ذاكرتها قائمة طويلة من الأشياء التي تنقصها في منزلها الجديد، وكأنها تستعرض أمام عينيها صورًا مفعمة بالتفاصيل، قائلة:

_ياه ده لسه المطبخ والسجاد والستاير والأجهزة، أنا صحيح عايزة أشتري العجان، بيقولوا حلو أوي للعجين.

ردت أم الديب بفظاظة في نبرة صوتها، مستنكرةً أدوات المطبخ الحديثة التي اجتاحت الأسواق، وكأنها تعبر عن دهشتها من تلك الابتكارات التي باتت تُستخدم في الطبخ. كانت تتحدث وكأنها تشعر بأن هذه

الأدوات لا تعكس الأصالة التي تربت عليها، إذ تذكر لها الأواني التقليدية التي كانت تُستعمل في منازل الأجداد، حيث كانت كل أداة تحمل معها قصة وتاريخًا:

=وماله يا بت العجن اللي بالإيد؟ كل دهو علشان خايفة على إيديكي؟ ماحنا ياما اتمرمطنا وطلع عينينا.

لكن نعمة، بتلك الروح العصرية التي تتسم بها، ردت على والدتها بهدوء، محاولةً تهدئة انفعالاتها، قائلة:ً

_ياما احنا زمنا اتغير .

ثم سألت هايدي باهتمام، وكأن فضولها يدفعها نحو مزيد من الاستفسارات، قائلة:

_أما قوليلي يا هايدي هو المكرووف ده يعمله كام؟

هايدي:قصدك الميكرويف! بصراحة مش عارفة بس هنعرف النهارده، أصل زياد هيعدي عليا بعد ما يخلصوا علشان نشتري الأجهزة.

اندست أم الديب بين حديثهما، وكأنها تسعى لتكون صوت القسوة بين النغمات المختلفة، مصممةً على وضع زياد في خانة السيئين، أصحاب الأيادي المختلسة، مظهرةً بوضوح مشاعر الكراهية التي تكنها له، واتهمته بأمور لم تحدث، فاندفعت قائلةً بنبرة حادة:

_ايهي وهو جايب الفلوس دهي كلها منين؟ تلاقيه حرامي وإيده طويلة، ميعملش اللي هو بيعمله دهو غير النصاب الحرامي اللي بياكل حق الناس.

اغتاظت هايدي بشدة، وكأن كل مرة تُذكر فيها أم الديب اسم زياد تُشعل نارًا في قلبها، تلهب مشاعرها وتثير فيها الرغبة للدفاع عنه. شعرت أن حديث والدتها لم يكن مجرد انتقادات، بل كان هجومًا عليه، فاندفعت لترد غيبته بحماس، تدافع عنه إزاء الأقاويل الكاذبة التي رُفعت بشأنه. وبعصبية، قالت لوالدتها:

=زياد مش حرامي وللمرة المليون هقولك كده! عمي حسين كان شايله مبلغ محترم علشان يوم ما يفكر يتجوز يبقى جاهز وميقولش للناس ادوني!

أم الديب بإساءة:هتلاقي أبوه حرامي، ماهو أصل حسين دهو محدش يعرفه قدي، دهو ياكل مال النبي!

قالت نعمة لوالدتها بسخرية، تحمل نبرة دهشةٍ بين حروفها:

_هو برضة ياما؟

أم الديب:أه هو.

أم الديب الجزء الثالث

نظرت هايدي إلى أم الديب بنظرات مكتظة بالبغضاء، ثم غادرت الغرفة بصمت، تاركة والدتها مع نعمة بمفردهم وسط ضجيج الأطفال الذين يلعبون في الخارج. كانت نعمة، في شهور حملها الأخيرة، تعاني من ركلات الجنين الحادة، مما جعل آلام ظهرها تشبه صراع فرس مُنهكة تفتقد الرحمة.
في المدينة، وتحديدًا في حي الأثرياء، نزل أحمد برفقة طفلته سيليا، التي كانت تلاحقه كظل ثابت في كل زاوية. كانت متعلقة به بشغف، تستمد سعادتها من قربه، وكأن وجوده بجانبها يُعطي لحياتها معنىً أكبر.
اقترب أحمد من زياد وعانقه بحرارة، تعبيرًا عن الأخوة والمودة. كان سعيدًا برؤية زياد، العريس الذي اختارته أخته العزيزة، التي لا يُضاهى حبها في قلبه سوى حب أسرته الصغيرة. كل لمسة من يديه على ظهر زياد كانت علامة ترحيب، تحمل في طياتها مشاعر الود، فقال له:
_منور الدنيا يا عريس!

زياد بفرح:بنورك انت وسيليا القمر.

عانق المعلم حنفي حفيدته سيليا بحبٍ غائر، ثم رفعها برفق فوق كتفيه وكأنها كنزٌ ثمين، يعتز به. نظر إليها بعينيه المتلألئتين، وسألها بحدب:
_ازيك يا سوليا، عاملة إيه؟

سيليا بخِفة:كويسة يا جدو، هي نانا بسمة مجاتش معاك ليه؟
المعلم حنفي بضحك:احمدي ربنا، دي لما بتيجي بيحصل كوارث... أمال أختك الصغيرة فين؟
سيليا ببراءة:فوق مع مامي، لازم تيجي عندنا يا جدو انت وحشتني!
المعلم حنفي بحُب:وانتي كمان، أمال إيه الطعامة دي؟

بعدما صافح أحمد زياد وعمه حسين، كان كمن يحمل شعورًا دافئًا من الود واللقاء، استمع جيدًا لحديث المعلم حنفي وسيليا، كأنه يمتص كل كلمة تحمل في طياتها أفكار عائلية. وفجأة، انفجرت ضحكاته عفويًا، بينما كانت الابتسامة لا تفارق شفتيه، كأنها جزء من شخصيته، فقال لوالده بلهجة مفعمة بالمرح:
_طب تعالوا اتفضلوا!
اعترض حسين بحزم على فكرة الصعود إلى شقة أحمد، حيث بدا جادًا في موقفه، وأخبره بأنه سيظل هنا لمتابعة الحمالين حتى انتهاء نقل كل الأثاث. وبنبرة مليئة بالمسؤولية، قال له:
_أنا واقف مع جلال وزياد علشان بس لو حصل حاجة.

أحمد باِكتِهاء:خلاص أنا هطلع بابا ونازلكم تاني.
حسين:على راحتك.

صعد أحمد مع المعلم حنفي، وسيليا في المصعد الكهربائي، الذي كان يضيء بألوان المحبة التي تبعث على السعادة، وكل لون يحمل معه طاقة إيجابية تملأ الأجواء من حولهم. في الخلفية، كانت تعزف موسيقى أجنبية هادئة، تنساب كنسيم رقيق، وتضفي جوًا من السكون، تُضيء الدروب المظلمة بجمالها

الفاتن، وبعدما ضغط أحمد على الزر وشرع المصعد في الصعود ببطء، شعر بنبضات قلبه تتماشى مع إيقاع الموسيقى، فتوجه بنظراته إلى والده، مبتسمًا ابتسامة ملؤها الإحسان، وقال له بكل ود:
_منور الدنيا يا بابا.

المعلم حنفي بسرور:منورة بيك يابني.
أحمد بتعجب:أمال محدش جه ليه؟
المعلم حنفي بابتسامة:هيجوا يوم رص الشقة علشان تبقى مرة واحدة ويخلصوا.
أحمد ببشاشة:على خير إن شاء الله.
المعلم حنفي:يارب.

في شقة ليالي، كانت مشغولة بنشر الملابس على حبال الشرفة، تستمتع بشمس النهار، بينما تتحدث مع أختها هبة عبر الهاتف. صوتها كان مليئًا بالتعبير، يصف ضغوط الحياة التي تعاني منها. تحدثت ليالي عن الحماة، تلك المرأة التي تثير القلق في حياتها، وعبّرت عن استيائها منها. كانت تصف كيف أن الحماة تظهر سلوكًا عدوانيًا، وكأنها تتحول إلى "عقربة" تسعى لتوجيه اللوم إليها. ردت هبة بتعاطف، معبّرة عن شجنها على أختها. شعرت بمدى الضغط الذي تعاني منه ليالي، وأعربت عن أمنيتها في لو أنها كانت في مكانها، حيث كانت ستتعامل مع الوضع بشكل مختلف، لكنها أيضًا تعرف مدى صعوبة الأمر. لكن ليالي، على الرغم من تعبيراتها الساخرة، أظهرت قوة في شخصيتها. كان لديها قناعة بأن الحماة ليست سهلة، ولكنها أيضًا كانت تدرك أنها لا تستطيع السيطرة على الأمور. أكدت لأختها أن الناس المشابهة لحماتها غالبًا ما يعيشون طويلًا، مما جعل هبة تتساءل عن مدى تحمّلهم لهذه الظروف.
بعدما ساعد أحمد والده في الصعود، دخلا معًا إلى شقته، حيث جلس في الريسيبشن الواسع الذي كان يتميز بألوانه الهادئة التي تعكس شعورًا بالسكينة، وأثاثه العصري المتميز الذي يحمل طابعًا يجمع بين الأناقة والراحة النفسية، مما جعله مكانًا مثاليًا لتجديد النشاط. كانت رائحة المكان مفعمة بالعطر، وكأن كل زاوية تنبض بالحياة، بينما كانت على كل جدار صور زفاف أحمد وجميلة، التي كانت تعبر عن عمق الهوى والمشاعر المتبادلة في علاقتهما، حيث كان لكل صورة قصة تحكي تفاصيل يومهما السعيد.
ترك أحمد والده في تلك الأجواء الدافئة وذهب ليتابع الأعمال مع باقي الرجال، تاركًا والده الخمسيني يستقر على الأريكة الفاخرة برفقة حفيدته سيليا. ثم جاءت جميلة حاملةً صينية الحلوى "تشيز كيك بالتوت" اللذيذة، مع مشروب "بلامبوغوني" المنعش، وضعتها برفق فوق الطاولة، حيث صافحت المعلم حنفي بلمسة من الود، وجعلت من جلستها على الأريكة وهي تضع ساقًا فوق الأخرى مشهدًا مليئًا بالأنوثة، وأخبرته برقة:
_منور الدنيا يا أونكل حنفي!

المعلم حنفي بابتسامة:الله يخليكي يا جميلة يا بتي، تعبناكي معانا.
جميلة بلُطف:لا يا أونكل لا تعب ولا حاجة، مبنشوفكش كتير يعني!
المعلم حنفي ببشاشة:مشاغل والله، ده حتى الولية اللي ربنا يهدها مطلعة عينينا... ده كويس إنها مجاتش.

جميلة برقة:ربنا يهديها يا أونكل، ويتمم بخير لهايدي.
المعلم حنفي بابتسامة:يارب وعقبال سوليا وأسيل.
جميلة ببشاشة:يارب يا حبيبي.

في الشارع، حيث كان النشاط يسود المكان وقد تم الانتهاء من معظم الأعمال ونقل الأثاث إلى شقة زياد، كان أحمد يتنقل بين شقة العروسين، يواصل صعوده ونزوله في المصعد وكأن خطواته تردد أصداء الفرح. كان يبذل مجهودًا كبيرًا في المتابعة ومساعدة العمال، كالنحلة التي لا تهدأ في سبيل إنجاز مهامها. بينما كان هذا الحراك الدؤوب يحدث من حوله، عاين حسين الوضع بتمعن، محاطًا بالمشاغل، وأخذ يفكر في كل ما يجري، كما لو كان يشاهد مسرحية تتكشف فيها أدوار العائلة وتربطها خيوط الترابط، وقد سأل زياد:
_هتروحوا تجيبوا الأجهزة بكرا؟

زياد:أيوه إن شاء الله، ده إنجاز إننا جيبنا كل الموبيليا أول امبارح... بس قولي إيه رأيك في الأنترية؟
حسين بغبطة:لا حلو، ذوق هايدي مية مية ولا لسه لما الشقة تتفرش.

وقف أحمد بجانبهم، ولحظات الفرح تشتعل من حوله، وسأل زياد بمزاح، مظهرًا روح الدعابة التي لا تفارق شخصيته:
_أوعى تقولي بقى إنكم مسافرين دمياط علشان تكملوا باقي الشقة!

زياد بسعادة:لا لا احنا روحنا لأن كله بيقول الموبيليا فيها حلوة والخامة نضيفة، لكن هنجيب الأجهزة من هنا إن شاء الله.
أحمد بابتسامة:هو الجواز كده مش بالساهل، لازم يطلع عينك علشان يتقفل عليكم باب واحد.
زياد بهوى:بس هايدي تستاهل إني أتعب علشانها، أنا قولتلها شاوري على اللي انتي عايزاه وهيجيلك لحد عندك!

ضحك حسين بمرح، لكن قلقه كان واضحًا في عينيه، فقال لزياد بنبرة تحمل في طياتها خليطًا من الدعابة والجدية:
_بدل مانت عاملي فيها الواد الحبْيب، خُد بالك وركز عايزينها تعدي على خير، حاسس إنه هيقع علينا مش عارف ليه!
قهقه أحمد بمرحٍ عالٍ، وضحكاته كانت تتردد في أجواء المكان، ثم نظر إلى عمه بحماس وطمأن قلبه بعبارات مليئة بالثقة:
_متخافش يا عمي، مفيش حاجة هتحصل!

بعد وصول الأثاث إلى الشقة الجديدة، اجتمع زياد مع والده، والمعلم حنفي، وجلال. بينما كانوا في السيارة، طرح زياد على هايدي في المكالمة الهاتفية فكرة شراء ثلاجة ذات بابين، مما أظهر رغبته في

تلبية احتياجاتها. لكن هايدي كانت حكيمة، وعلقت على تلك الفكرة بتردد، مشيرة إلى أن الثلاجة الكبيرة ستكون باهظة الثمن، خاصة بعد النفقات التي تحملها زياد مؤخرًا. ومع ذلك، كان زياد مصممًا على أن يوفر لها كل ما تحتاجه. بدا على نعمة الفرح، حيث عبرت عن سعادتها لمظهر العلاقة بين زياد وهايدي، ودعت لهما بالتوفيق في حياتهما المشتركة. اقترحت هايدي حلولًا بديلة، مثل شراء ثلاجة ذات باب واحد، بالإضافة إلى ميكروويف، وفرن كهربائي، وعجان، مع التركيز على أهمية الموقد التقليدي.
في شقة ليالي، حيث كانت تسترخي بلباس النوم فوق سريرها، انقطعت لحظات السكون فجأة على صوت طرقات الباب القوية، مما جعلها تنهض بسرعة وتضع الروب حول جسدها كحاجز يحميها من برودة الواقع. سرعان ما خرجت من الغرفة، محاطة بأفكار متسارعة تساءلت عما قد يكون وراء هذا الطارق المجهول. كانت أجواء الشقة تعبق بالهدوء الذي ساد فيها، لكنها الآن باتت مشحونة بالتوتر، فنطقت بصياح:
_مين اللي على الباب؟ أنا جاية أهو، جاية!
فتحت ليالي الباب ببطء، لتفاجأ بمشهدٍ مذهل لا يُمكن تصوره، حيث كانت أم الديب تتلاعب بمصير فأرٍ حي بين قبضتيها. بينما كان الفأر يصرخ محاول الهرب من قبضة تلك المرأة القاسية التي لا تهاب مخاطر العالم من حولها، بل يبدو أنها أكثر رعبًا من حيواناتها. بمجرد أن رأت ليالي هذا المشهد المفزع الذي يفوق توقعاتها، شعرت برعشة تسري في أوصالها وكأنها أمام كابوسٍ حي، إذ كانت تعرف تمامًا مدى قلقها من مجرد سماع اسم الفئران، فما بالك بوجود أحدهم أمام عينيها بشحمه ولحمه؟ مما جعل قلبها ينبض بسرعة، وسألت أم الديب بقلق متصاعد، وهي تكاد لا تتمالك أعصابها من الفزع الذي يعصف بها:
_إيه اللي انتي ماسكاه في ايديكي ده يا حماتي؟

أم الديب بخَبَل:بينى وبينك يا بت يا ليالي، الفار اللي في إيدي دهو بقاله كام يوم مغلبني ومش لاقياه، بس الحمدلله لقيته، خلوه عندكم يغير جو شوية، تلاقيه زهق من شقتي .

صوبت أم الديب الفأر في شقة ليالي بكل قوة، وما إن انطلق الفأر من قبضتها حتى انطلقت ليالي تصرخ وتجري كالمجنونة، مستشعرة فزعًا عميقًا من احتمال أن ينقض عليها أو يتسلل بين ثيابها، إذ كان إعوالها يتردد في أرجاء الشقة بنبرة هستيرية تعكس حالتها النفسية المتأزمة. بينما كانت تصرخ وتركض، نزلت أم الديب إلى شقتها بهدوء، وكأن ما حدث لا يعنيها، وكأنها دفعت الأذى إلى شقة زوجة ابنها دون أن تُعير أي اهتمام لما قد تثيره من فوضى. وفي تلك الأثناء، كانت ليالي تنوح بأعلى صوتها، قائلة:
_آه الحقوني، فار فار!
قالت أم الديب بشماتة، وهي تتأمل حالة ليالي بعيون مليئة بالسخرية:
=تعيشي وتاخدي غيرها يا بت.
ثم أوصدت أم الديب باب شقتها بهدوء، بينما كانت ما تزال تستمع لإعوال ليالي المتصاعد من الأعلى، حيث كانت ليالي تفر هاربة مع أطفالها الذين خرجوا مذعورين من غرفتهم، وكأن الخوف قد تسرب إلى قلوبهم الصغيرة، حتى استطاعت إدخالهم إلى غرفتهم من جديد، فأوصدت الباب خلفها وهي تبكي،

وترتجف من الرعب الذي اجتاحها كعاصفة لم تكن في الحسبان. بينما كان في الجهة الأخرى بالقرية كانت هايدي تنتظر مع نعمة، وقد ارتديتا ثيابًا أنيقة جهزتهما لهذه السفرية. ركبوا السيارة من موقف أبو حلاوة، حيث انطلقوا في رحلة نحو المول الرحيب بالقاهرة، وصولًا إلى كايرو فيستيفال ليقابلا العائلة هناك، متجهين إلى إحدى الشركات الشهيرة لشراء الأجهزة الكهربائية. كان زياد وهايدي يمشيان في المقدمة، بينما كانت نعمة تسير خلفهم، ويتبعهم المعلم حنفي وحسين، وفي آخر الصف كان جلال الذي كان يبدو كظل يتبعهم بتكاسل، وطوال مسيرتهم، كانت أنظار الناس تلاحق جلال برهبة، إذ كان شكله يوحي بأنه سرسجي، بل ربما مرعب للغاية، مما أثار في نفوسهم التوجس. عندما وصلوا إلى الوجهة المنشودة، أشار زياد بيده نحو الثلاجة اللامعة، قائلًا لهايدي بفرحٍ عارم، وكأن هذا الأمر يمثل بداية جديدة لحياتهما المشتركة:

_أهي التلاجة اللي بقولك عليها!

هايدي بتَحَيُّر:هي حلوة أوي وفخمة بس مش هينفع، أكيد غالية!
زياد بثُبوت:مفيش حاجة تغلى عليكي يا هايدي، احنا هنجيبها، أنا خلاص قررت!
هايدي بامتنان:شكرًا يا زياد انت بجد كل يوم بتثبتلي قد إيه بتحبني، مابقتش عارفة أردلك نص اللي بتقدمهولي !
زياد بعشق:يا هايدي اللي بيحب بجد مش بيبخل على اللي بيحبه بحاجة وبيبقي عايز يجيبله نجمة من السما!

الأحباء يتحدثون بأجمل الكلمات، ينثرون عبارات الحب في الهواء، ويصفون مشاعرهم المتبادلة كأنها زهور تتفتح في فصل الربيع، ولكن وسط هذا الجو الرومانسي، كانت نعمة واقفة بينهم، عيناها تتنقلان بين زياد وهايدي، تتأمل تلك اللحظات التي تغمرها السعادة، لكن شيئًا ما كان يثقل قلبها. حينما فاض بها الكيل، وامتلأت مشاعرها بالانزعاج من تداخلات حديثهما، توقفت لحظة لتجميع أفكارها، ثم استجمعت قواها ووجهت نظرها إليهما، قائلة بحزم:

_طب بقولكم، إيه رأيكم تأجلوا كلام الحب والرومانسية دي لوقت تاني، وتخلصونا؟

ردت هايدي عليها بانفعال:

_خلاص يا نعمة في إيه؟

نعمة بسخرية:انتي اللي في إيه يا هايدي، مالكم كده؟ ده أنا لو أمي كانت جات معانا وسمعت الكلمتين دول كانت علقتكم من هدومكم!

لا يرى زياد أي مشكلة في التعبير عن الحب، لذلك قال لنعمة بدهشة:

_وإيه المشكلة يعني لما أقولها كلام حلو أعبرلها بيه عن حُبي؟

نعمة بمزاح:انتوا عندكم حق عيشوا يومين قبل الجواز، علشان بعد الجواز هتولعوا في بعض من كتر المسئولية اللي هتبقى عليكم.

زياد بثقة:لا اتطمني أنا هفضل كده دايمًا سواء قبل الجواز أو بعده!
نعمة بضحك:طب يارب، ده أنا أتمنالكم الخير، بس خفوا علينا ده هي مرارة واحدة مفيش غيرها!

قالت هايدي لنعمة بعصبية، وهي تدفعها بلُطف إلى جانبها وكأنها تريد أن تزيل عائقًا بين مشاعرها وما يثقل كاهلها:
_طيب قدامي يا نعمة نشوف الأجهزة!

نعمة بهزل:يلا بينا ياختي!

عند ليالي، ظلت تدور حول نفسها في حالة من الاضطراب، غير قادرة على المرور عبر ممر غرفتها، إذ كان الخوف يسيطر عليها من احتمال ظهور الفأر الذي أدخل الرعب إلى قلبها في أي لحظة، مما قد يؤدي إلى تعرضها لأذى لا تُحمد عقباه. كانت تسير على أطراف أصابعها بحذر، وعيناها تجوبان المكان بلا استقرار، كأنهما تبحثان عن أي حركة غير متوقعة، حتى تمالكت نفسها في لحظة، ودخلت الغرفة بسرعة، حيث التقطت هاتفها، ثم فرّت نحو غرفة أطفالها، مغلقة الباب خلفها بقوة، تريد أن تحتمي من العالم الخارجي. في تلك الأثناء، اتصلت بجلال لتروي له ما حدث لها بسبب والدته، وهي تتحدث بنشيج يعبر عن رعبها، قائلة:
_بقى أمك تحدف عليا فار يا جلال؟ أهو الفار دخل شقتي ومش عارفة أتصرف.

جلال بصدمة:يعني إيه يا ليالي؟ فار إيه اللي هي حدفته عليكي ده؟
ليالى بنحيب:أيوه زي ما بقولك كده، زمانه قرقدلي عفشي ولا المصيبة الأكبر ممكن يقرمني أنا والعيال ويجيبلنا الطاعون.
جلال باستغراب:هي أمي مالها ومالنا؟ بتعمل معانا كده ليه؟

على الناحية الأخرى، كان المعلم حنفي وحسين يتحدثان سويًا، حيث كان حسين يعبر عن رغبته العارمة في حضور حفل زفاف زياد، متحدثًا بحماسة عن شوقه المتزايد لهذا اليوم المميز، الذي بات يقترب شيئًا فشيئًا. كانت أحلامه تتجسد في خياله، إذ تخيل زياد متألقًا في بدلة العريس السوداء، يضيء المكان بابتسامته السعيدة، وهو يقف بجانب عروسته في أبهى حلة. إضافة إلى ذلك، كان حسين يتمنى أن يحمل أطفال زياد بين ذراعيه، يستمتع بضحكاتهم، مما يمنح حياته مزيدًا من البهجة، ويملأها بالألوان الجميلة. وعندما نظر إلى المعلم حنفي، تمنى لو يتمكن من مشاركته تلك اللحظات السعيدة، معبرًا عن أمله في أن تكون الأيام القادمة مكتظة بالمناسبات السعيدة التي تجمع العائلة، قائلًا له:
_أنا مستني يوم فرح زياد بفارغ الصبر... الواد كان حتة لحمة حمرا، كبر قدام عينيا لحد ما بقى راجل ملو هدومه، آه لو أمه كانت عايشة كانت فرحت بيه أوي!

المعلم حنفي:ربنا يباركلك فيه ويخليكم لبعض يا حسين ياخويا، وما يحرمكم من بعض أبدًا وتشيل عياله.

أم الديب الجزء الثالث

حسين بمُبتغى:يارب.

فجأة، وفي لحظة غير متوقعة، ارتفع صوت جلال بشكل ملحوظ جدًا، مما جلب الأنظار حوله، وهو يصيح في الهاتف، بعدما شحنته ليالي بجرعة من الاحتدام تجاه والدته. كانت كلماته تتردد في الأجواء كالرعد، بينما كانت العيون تتجه نحو مصدر الصوت، حيث قال بعجيج:
_وربنا لأوريها أيام سودة، أمي دي مفيش حد قادر عليها بس تمام أنا هخرب الدنيا فوق دماغها، اقفلي أنا هكلمها، سلام.
اتصل جلال بأم الديب بصوت حاد، معبرًا عن سخطه من تصرفاتها. استخدم ألفاظًا غير لائقة، مما جذب انتباه الناس من حوله الذين نظروا إليه باحتقار بسبب حديثه. حيث بدا جلال غير مكترث بردود فعل الآخرين. حيث نبهه حسين قائلًا برفض:
=لا يا جلال بلاش الكلام ده هنا، الناس ابتدت تبص!
قال جلال في الهاتف لوالدته بصياح حار، بينما كان يوجه لها كلمات مهينة جعلت الناس من حوله يشمئزون من وجوده بينهم، كأن كلماته كانت تتطاير كشرر نار، تخترق الأجواء المحيطة بهم، وتثير مشاعر الرفض:
_وأنا جايلك في خناقة ويا قاتل يا مقتول، مراتي خط أحمر، لا تهوبي ناحيتها ولا ناحية عيل من عيالي، أنا قولت كلام ومش هعيده دي بقيت عيشة.****

أم الديب باستخفاف:انت كنت بتقول إيه يا جلال؟ أصلي سيبت التلافون وروحت المطبخ أعمل كوباية شاي أعدل بيها مزاجي.

قالت هايدي لنفسها بإحراج، وهي تشعر بوجهها يخجل من تلك اللحظة المحرجة التي أوقعت عائلتها في دائرة الصراع:
_يا ربي على الفضايح!
سأل زياد بفضول:
=هو في إيه؟
ثم ذهب إلى جلال لمعرفة سبب المشكلة، حيث كان حسين والمعلم حنفي يحاولان تهدئته بحديثهما العقلاني الرزين، في حين كانت هايدي تشعر بقمة الإحراج من انعدام أخلاقه، إذ كلما حاولت الهرب من مشاعر الخزي التي أثقلت كاهلها، كان يعود إليها إما بسبب تدخل أم الديب أو بسبب تصرفات جلال، مما جعل صورتها تهتز في أعين الغرباء بفعل تصرفات عائلتها. بكلمة من المعلم حنفي تلتها كلمة من حسين، هدأ جلال قليلًا وأجل هذا الصخب إلى حين عودته للمنزل، بينما واصلوا شراء الأجهزة الكهربائية كالموقد والثلاجة، وغيرها على أن يستلموها بعد أيام. عاد جلال إلى المنزل، ودخل شقة أم الديب كالثور الهائج في ساحة معركة شرسة، حيث صرخ فيها موجهًا اللوم لما فعلته في زوجته، وكسر النافذة بيده إثر النزاع الحاد الذي احتدم بينهما. صعد إلى شقته ليبدأ البحث عن الفار، وبعدما وجده، تشبث به بيده ثم ألقاه من النافذة بقسوة، بينما كانت ليالي ما زالت تنتحب، وتنظف شقتها من جديد بعدما ملأها الفأر بفضلاته في كل أرجائها. بعد أيام، وصلت الأجهزة الكهربائية، فنقلوها إلى شقة

العروسين في أجواء من الفرح والانتظار. في نفس اليوم، ذهبت هايدي مع ليالي إلى مركز تجميل، حيث بدأت تهتم بجسدها استعدادًا للزفاف، من خلال تنظيف البشرة والعناية بالأظافر وتقشير الجلد الميت، وكل ما يخص العروس. بينما كانت نعمة وحامد ذاهبين لمتابعة الحمل عند الطبيب، وأرادا أيضًا شراء ثياب المولود الجديد بكل فرح وهناء، وأثناء صعودهما على الدرج، واجهت نعمة صعوبة في الحركة، حيث كان الجنين يثقل جسدها ويجعلها تلهث باحثة عن أنفاسها، فتشبثت بيد زوجها، بينما عكست عينيها معاناتها وآلامها، قائلة:
_والنبي يا حمو ما فاهمة في إيه! كل ما يعدي شهر نفسي بيتقطع أكتر من الأول، آه يانا، اسندني!

حامد بحنو:معلش يا نعومي، علشان تعرفي قد إيه الأمهات بتتعب.
نعمة بإرهاق:مانا حسيت هي أول مرة أحمل؟ آه يا ضهري آه!
حامد بمُساندة:اطلعي بس فاضل سلمتين!

سحب حامد زوجته برفق، محاولًا مساعدتها على الصعود، لكنه وجدها تتمادى في التمنع، حيث كانت تشعر بألم شديد يعتصر جسدها، فتفوهت بكلمات تحمل معاناة واضحة، تعكس صعوبة حالتها:
_رجليا وارمة على آخر آخرها، يا ريتني لبست الشبشب كان أريحلي.

حامد ببشاشة:معلش يا نعومي سلامتك، كلها كام شهر وترتاحي.
نعمة بألم:ياريت، أما صحيح جمعت فلوس؟
حامد:فلوس لإيه يا نعومي؟
نعمة:للولادة بدون ألم ياخويا، أنا مش كلمتك في الحوار ده قبل كده وانت طنشتني؟ اشمعنا مرات أخويا وأنا لا؟
حامد:ربك يسهلها يا نعومي، سيبيها على ربنا!
نعمة بإرهاق:لا يا حمو مانا مش هسيب نفسي لحد يوم الولادة وفي الآخر ألبس في العمليات وأطلع ميتة من التعب، انت تشوفلي صِرفة!
حامد بابتسامة:من عينيا الإتنين يا نعومي، اطلعي بس!
نعمة:حاضر.

صعدا أخيرًا حتى وصلا عيادة الطبيب، حيث جلسا معًا في غرفة الانتظار، مترقبين دورهما بفارغ الصبر، وفي تلك الأثناء، اتفقت هايدي مع طبيبة التجميل على خوض تجربة جلسات الليزر، تلك التقنية المبتكرة التي تمنع الشعر من الظهور، وتضمن لها نعومة مثالية، بينما كانت ليالي في غرفة أخرى مع خبيرة التجميل، التي وضعت لها مجموعة من الأقنعة الخاصة بالعناية بالبشرة، تلك التي تنير الوجه وتعيد إليه حيويته، لتزيل عنه كل آثار التعب والإجهاد الناتجة عن مشاغل الحياة اليومية مع الأطفال.
كانت ليالي أكثر الناس احتياجًا لهذه اللمسات الجمالية، التي تلألأ فيها بريق شبابها المنطفئ، الذي كاد يختفي وسط الفوضى اليومية، ومع صرخات الأطفال، فكل لمسة من الخبيرة كانت بمثابة سحر يعيد لها الأمل. قالت الطبيبة لهايدي بحسم:

أم الديب الجزء الثالث

_المفروض كنتي تيجي بدري شوية علشان الجلسات بتاخد وقت.

هايدي بخجل:معلش يا دكتورة انتي عارفة ترتيبات الجواز بتاخد مننا وقت قد إيه! مكنتش لاقية وقت آجي، أنا عارفة إن أنا اتأخرت بس ننقذ ما يمكن إنقاذه.
الطبيبة باحترام:خلاص مفيش أي مشكلة، انتي بجد نورتينا!
هايدي ببسمة:شكرًا ده بنور حضرتك، هو بقى تنضيف البشرة وباكدچ العروسة يعمله كام؟
الطبيبة بابتسامة:سيبي نفسك لينا خالص وصدقيني الأسعار هتعجبك!
هايدي بحبور:خلاص ماشي، نبدأ بإيه؟
الطبيبة:نبدأ بالليزر، وبعدين ندخل على تنضيف البشرة.
هايدي بخوف:طب أنا هحس بألم؟
الطبيبة:لا خالص احنا هنحط بنج موضعي ومش هتحسي بحاجة، متخافيش يعني !
هايدي باطمئنان:خلاص تمام.

نهضت هايدي، مستعدة لتلقي جلسات الليزر على شازلونج الكشف، حيث كانت تشعر بخليط من الحماس والقلق، بينما كانت ليالي في الغرفة الأخرى تستمتع بكل ما تقوم به الخبيرة على وجهها.
شعرت بارتياح غير طبيعي، وكأن هموم الحياة اليومية تتلاشى من على عاتقها مع كل لمسة لطيفة من الخبيرة، حيث كانت عضلات وجهها ترتخي تدريجيًا. كانت تجربة استثنائية تعيد لها البريق الذي فقدته، مما جعلها تتساءل بفضول عن تفاصيل العناية التي تتلقاها، قائلة:
_انتي بتحطي إيه؟

خبيرة التجميل:ده كريم صنفرة بالخيار.
ليالي بارتياح:بس راحة نفسية، ده أنا كل يوم هجيلكم هنا، لولا البيت والعيال كنا بقينا حاجة تانية خالص، بس هقول إيه بقى واخدين كل وقتنا.

ضحكت الخبيرة، وتبادلت الحديث مع ليالي بروح المرح، وفي الجهة المقابلة، كانت أم الديب مضجعة على حصيرتها في الصالة أمام التلفاز، تتناول الطعام بشراهة تفوق الوصف، كأنها في سباق مع الزمن، دون أن تعطي لنفسها الفرصة لمضغ الطعام كما يفعل البشر العاديون، تاركة حفدتها حولها جائعين بلا رحمة، وكأنهم غير موجودين في عالمها. كانت عيونهم تتعلق بها، يراقبون كل لقمة تُدخل إلى فمها، بينما المسغبة تأكل في قلوبهم، وكأن صرخات الجوع تتردد في زوايا المنزل، وبعدما ترقب حمود الوضع كثيرًا، تملكه اليأس من الحصول على أي شيء، مما جعله يقرر أخيرًا أن يتحدث إلى أم الديب، قائلًا:
_طفحينا يا ستي!

أم الديب بكراهية:ايهي جاك طفح لما تطفحه يا بعيد يابن البعيدة، هي أمك ترميكم عندي وتيجوا هناهو تبلوني بيكم؟

أم الديب الجزء الثالث

حمود:مانتي بتاكلي أهو، اشمعنا احنا؟
أم الديب:آني ست كبيرة وتعبانة وشقيانة وبعوض التعب والمرمطة اللي شايفاها، لكن انتوا عيال صغيرة مبتعملوش حاجة علشان تطفحوا!
حمود:لا احنا بنلعب وبنتعب بعدها.
أم الديب:محدش قالك تلعب!
حمود:وانتي محدش قالك تتمرمطي!
أم الديب بصراخ:ايهي أما انت عيل ابن كلب مش متربي! وأبوك وأمك معرفوش يربوك، مانت أمك طالقاكم في الشارع ليل نهار زي كلاب السكك المسعورة، مش فالحة غير في المياصة!

مرحبا بخلاف جديد، ولكنه هذه المرة يأتي بين أم الديب وحمود، بعد أن كانت دائمًا في صراع مع الكبار، وحين غاب هؤلاء الكبار، انتقلت إلى صغارهم، لتتفاعل في ساحة أخرى من الحياة. كانت تلك اللحظة بمثابة فرصة لها لتشفي غليل السنوات الماضية المدفونة في أعماق نفسها، التي كانت تعاني من آثارها السلبية في كل تفاصيل حياتها. جاء هذا الخلاف ليبرز مشاعر دفينة، ويعيد إلى السطح كل ما لم يُقال في السابق.

يتبع.....

الفصل الرابع والعشرون

تغلغلت الدهشة في صوت حمود، كالسهم المباغت مخترق السكون، حينما رفع بصره نحو جدته بعد أن أبدت نقدها الحاد تجاه والدته. كان يسعى بفطرة المحب واستفسار الباحث عن الحقيقة إلى فهم الكيفية التي تمكنت بها من سبر أغوار تفاصيل والدته الشخصية، تلك التي ظن أنها محصنة خلف جدران الصمت، قائلًا لها:

_وانتي عرفتي منين يا ستي؟

أم الديب بخبث:العصفورة قالتلي، أما قولي يا ولا أمك بتأكلكم إيه؟
حمود بذكاء:مش هقولك.
أم الديب بابتسامة:ايهي مش هتقول لستك حبيبتك؟

ارتسمت على شفتي تقى ابتسامة مفعمة بخبث بريء، كأنها تحمل في طياتها سرًا صغيرًا لا يقوى على البقاء مختبئًا. ثم رفعت رأسها نحو الجدة، وكلماتها تنساب بهدوء متعمد، قائلة لها:

_أنا هقولك ماما بتقول عليكي إيه !

أم الديب بسرور:تعالي يا بت قربي قوليلي!

تسللت تقى بخفة نحو رأس جدتها، وكأنها تحمل معها سرًا خفيًا يوشك أن ينكشف. اقتربت منها ببطء، كما يفعل اللصوص حين يتربصون بفريستهم، ثم فجأة أطلقت صرخة مدوية في أذنها، مفتعلة ضجيجًا مقصودًا. ارتعد جسد أم الديب من المفاجأة، وصوتها صدح كالرعد، يتمازج مع ارتجاف جسدها المذهول. تراجعت تقى ضاحكة وهاربة، متشبثة بسرعتها قبل أن تنالها يد جدتها الساخطة. لم يمضِ وقت طويل حتى نهضت أم الديب غاضبة، تبحث بعينيها الحادتين عن نعلها القديم المتسخ، ذاك الذي حملته بيدها كرمز للتهديد. صوتها انطلق بنبرة مشحونة بالسخط، وهي تناديها باحتدام، قائلة:

_تعالي هناهو يا بت الكلب، آني اتطرشت، تعالي هناهو!

تقى بفزع:لا.

دخل المعلم حنفي بخطوات ثابتة من الخارج، عيناه ترقبان الموقف بعين الحذر، وما إن رأى أم الديب متأهبة لتعاقب حفيدتها، حتى اندفع نحوها سريعًا، وسحب النعل من يدها بقوة، ثم ألقاه على الأرض في حركة صارمة، كأنه يفصل بين عالمين، بين حنقها ولهو الطفولة. تقى، وقد شعرت بالخطر المحدق، انطلقت مسرعة نحو جدها، تبحث عن ملاذ آمن خلف جلبابه الطويل، وملامح الخوف ترتسم على وجهها. بصوت مرتجف، تملأه الرجاء، نادت عليه وهي تتشبث بملابسه، قائلة:

_الحقني يا جدي، ستي عايزة تضربني!

أم الديب الجزء الثالث

انتفض صوت المعلم حنفي كالرعد الهادر، حينما التفت إلى أم الديب، والصياح يخرج من أعماق صدره، ليوقف ثورة غضبها. حدّق في عينيها بنظرة صارمة، وقال:
_اترزعي يا ولية! انتي مش لاقية حد تعاركيه فبتتعاركي مع العيال الصغيرة؟

أم الديب بجلبة:دي بت قليلة الرباية، عاوزة تتربى من أول وجديد، وإن كان أبوها وأمها معرفوش يربوها آني هربيها !

في لحظة لم تكن تتوقعها أم الديب، جاء حمود من خلفها كالشبح، حاملًا غطاءي القدر بين يديه الصغيرتين، وضربهما ببعض بعنف. دوى الصوت في الشقة كالرعد المفاجئ، وجعل أم الديب تصرخ من الصدمة، وكأنها تلقت هجومًا غير متوقع، وفي غمضة عين، لم يكن حمود وأخته إلا ظلين هاربين نحو الخارج، ضاحكين بسعادة الانتصار الطفولي. أما أم الديب، فقد اشتعلت غضبًا، وكأن ألسنة اللهب تتطاير من كل جزء في جسدها، فاندفعت نحو المعلم حنفي، تمسك به بقوة، باحثة عن منفذ لتفريغ سخطها. ارتعد المعلم حنفي بين يديها، وقد سرت في أوصاله رعشة خوف لا يستطيع كتمانها، وصوته المرتجف انطلق يائسًا، وهو يحاول تهدئتها، قائلًا بحذر شديد:
_آني مالي يا ولية؟

أم الديب بصراخ:هاتلي العيال! اتصل بأبوهم يجي !
المعلم حنفي بتألم:رقبتي، اتخنقت، ده انتي ولية بهيمة، وسعي إيدك دي !

بدفعة قوية غير معهودة، أبعد المعلم حنفي يده عن قبضتها المتشنجة، كمن يحرر نفسه من قيد لا يريده. بدت أم الديب وقد جمدت في مكانها، نظرتها مشبعة بالدهشة التي لم تستطع إخفاءها. التقت أعينهما، وكأنما الزمن قد توقف للحظة، فبادرته بصوت خافت يملؤه الاستفهام:
_انت بتزقني يا حنفي؟

المعلم حنفي بارتجاف:لا، هي جات كده!

لم ينتظر المعلم حنفي طويلًا بعد نظرتها الصادمة، بل أدار ظهره وهرب بخطوات مُتسارعة، وكأن الأرض تحته تشتعل. ركض مبتعدًا عنها كمن يفر من عاصفة هوجاء، تاركًا خلفه أجواءً مشحونة. أم الديب، وقد اشتعل الحنق في قلبها كالجمر المتقد، لم تتراجع، بل نزلت الدرج وراءهم بخطوات ساخطة، كأنها تطارد رياحًا هاربة. وفجأة، انطلق صوتها الحاد كالعاصفة الرعدية، قائلة لهم:
_وانتوا فكركم لما كل واحد فيكم يهرب وياخد ديله في أسنانه مش هعرف أوصله كدهو؟ لا الحركات دهي متتعملش عليا، ده آني أم الديب !

بينما كانت أم الديب تصعد الدرج من جديد، وعينها تتطاير منها شرارات السخط، انفتح باب الشقة بهدوء، وخرج منه حفيدها محمد. كان هو الوحيد الذي لم يهرب بعد، ثابتًا في مكانه كما لو أن لديه ثقة

أم الديب الجزء الثالث

تامة بأن الأمور ستتبدل. ما إن رأته أم الديب حتى تبدلت ملامح وجهها فجأة، وابتسمت له ابتسامة هادئة مليئة بالحنان. اقتربت منه بخطوات واثقة، وبسطت يدها على صدره برفق، وكأنها تستشعر فيه الأمل المتجدد، ثم قالت له بفخر يعلو نبرة صوتها:
_انت اللي باقيلي يا ولا، يا حبيب ستك.

محمد:ستي !
أم الديب بحنو:عاوز إيه يا حبيب ستك يا غالي يابن الغالية؟
محمد بضحك:خدي !

مدّ محمد يده الصغيرة نحو أم الديب، مظهرًا لها مفاجأة كانت مخبأة بعناية بين أصابعه. ساد صمت قصير قبل أن تستلمها منه في أمان، وكأنها تتلقى كنزًا ثمينًا لا يُقدّر بثمن. نظرت إلى عينيه اللامعتين، متسائلة بفضول لا يُخفى، إذ ملأها الحماس لمعرفة ما يحمل لها هذا الغرض الغامض، متسائلة:
_دهو إيه يا ولا؟

محمد بقهقهة:صاروخ!

انطلق محمد كالسهم، جريًا نحو الأسفل حتى وصل إلى الشارع، حيث كانت فرحته لا تُضاهى. حتى انفجر الصاروخ. حدث الانفجار في يد أم الديب، مما أثار الرعب في قلبها، ارتعشت أطرافها، وانقلبت على الأرض، تنطلق منها صرخات فزع مدوية، تتردد أصداؤها في المنزل. عاودت الفكرة الغاضبة التسلل إلى قلبها، فصرخت بقهر، قائلة:
_يانا، يانا، آه... بختك مايل إيه الجديد؟ مالكيش حظ في حد لا في عيالك ولا مراتاتهم ولا أحفادك... ماشي يا محمد لما أمك ترجع بس!

حاولت أم الديب أن تسيطر على أعصابها الملتهبة، متسلحة بالعزيمة، ونهضت من الأرض، عازمة على دخول شقتها بكل قوة، متوجهة نحو وضع خطة محكمة تأخذ بيدها نحو الانتقام من حفدتها وأهاليهم، وكأنها تجسيدٌ لمخططٍ محبوك في خيالها. في تلك الأثناء، وبعد أن أكملت نعمة كشفها الطبي، ارتفعت آمالها مع زوجها حامد، إذ توجها معًا إلى إحدى المحلات التجارية الصغيرة، التي على الرغم من حجمها المتواضع، كانت تضم بين رفوفها المتنوعة الكثير من الملابس الجذابة، فبدأت نعمة تتجول في أروقتها، تتأمل كل قطعة بفضول، تتمنى أن تختار الأفضل لابنتها المنتظرة. بينما كان حامد يقف أمام المتجر، منهمكًا في حديثه مع والدته "أم أشرف"، تلك السيدة التي لا تقبل بحال من الأحوال ذكر نعمة، حيث كان الضيق يتسلل إلى قلبها مثل حبل يضيق حول عنقها كلما سمعت اسم نعمة يتردد في حديث حامد، ليجعل تلك اللحظة أكثر ثقلًا على صدرها، فتسأل "أم أشرف" بأسلوبٍ حاد:ٍ
_مراتك عاملة إيه يا حامد؟

حامد بابتسامة:كويسة، كله تمام.

أم الديب الجزء الثالث

أم أشرف:مش هتيجي تشوفني وتشوف أبوك وأخوك؟
حامد:من عينيا هاجي أنا ونعمة بعد ما نشتري حاجات المولود.
أم أشرف بدهشة:وهي مستاهلة؟ مش هي حامل في بت برضة؟
حامد:أه ياما، بس مش مستاهلة ازاي؟ هنلبسها كراتين ولا ايه؟
أم أشرف بامتعاض:بتصرف فلوسك على حاجات مالهاش لازمة يا حامد، مراتك هتخرب بيتك!
حامد:لا ياما احنا مبنشتريش غير كل فين وفين، وبعدين دي أول بت لينا والصراحة فرحانين.
أم أشرف بسخط:بت؟ لأ وايه فرحانين! ربنا يهدي وترجع لعقلك.
حامد بتعجب:في إيه ياما؟ أنا مش فاهم حاجة!
أم أشرف:لا ولا حاجة تنورونا يابني.
حامد:ماشي ياما لو إن كان كده هرجع نعمة البيت وأجيلك أنا.
أم أشرف:زي ما تحب .

لم تكن أم أشرف لتسعد بفكرة حمل نعمة في أنثى، على الرغم من أن هبة قد حظيت سابقًا بفتاة، ولطالما كانت الجدة تحمل الصغيرة بين ذراعيها بكل حنان، مما يُظهر تعارضًا واضحًا في مشاعرها، إذ كانت قسوة قلبها تتجاوز كونها مجرد تفضل الذكور، بل كانت مقتصرة على أبناء نعمة وحدهم، إذ طالما حملت في قلبها كرهًا عميقًا تجاهها، بغضت كل ما ينتمي إلى دائرتها، وهو ما زاد من ألم حامد الذي كان يستمع لهذه الأفكار. وهكذا، انتهت المكالمة بينه وبين والدته، فتوجهت نعمة نحو زوجها، وقد لاحظت تغير ملامحه التي بدت مشوبة بالشجن، مما أثار في قلبها شعورًا من القلق، فسألت بحب ورغبة في معرفة ما يشغله، قائلة له:
_في حاجة ولا إيه؟

حامد بارتباك:أمي بتسلم عليكي يا نعمة.
نعمة بلهفة:الله يسلمها، اديني أكلمها أطمن عليها!
حامد:خلاص قفلت، يلا شوفي هتشتري إيه علشان نمشي!

صدقت نعمة حامد، لطبيعة قلبها الطيب الذي لا يعرف الخداع أو الكذب، واستمرت في شراء المشتريات بحماس، بينما انضم حامد إليها في المتجر، حيث دخل ليشاركها في اختيار الملابس بدقة، وقد ارتسمت على وجهيهما ملامح الجدية، بينما تجادلا حول الأفضل والأردأ، محاولين التوصل إلى خيارات تُرضي ذوقهما وتناسب احتياجات المولودة القادمة. وفي مكان آخر، كانت هايدي وليالي قد أنهوا جلسات العناية بالبشرة، ليخرجا من تلك التجربة الثرية ببشرتين ناعمتين ومتألقتين، حيث كان الفرق واضحًا بشكل لا يُحتمل مقارنته، وكأن وجوههما أصبحت تنبض بالحياة، بينما كانتا تنزلان في المصعد، فإذا بليالي تلتفت نحو هايدي وتقول لها بإعجاب مفعم بالحماس، معبرة عن مدى انبهارها بتلك الخدمات الممتازة التي لم تجد مثلها في قريتهم الصغيرة، التي كانت تفتقر إلى مثل هذه التجارب الفريدة التي تُشعرهما بالتجديد:
_البيوتي سنتر ده حلو أوي يا هايدي، ده حتى بصي وشي بقى منور ازاي!

هايدي بانشراح:أيوه أوي، ما شاء الله وشك نور.
ليالي بارتياح:ده أنا الود ودي آجي هنا كل يوم أدلع نفسي .
هايدي بابتسامة:خلاص المرة الجاية أبقي تعالي معايا!
ليالى بدهشة:هو في مرة تانية؟
هايدي بضحك:مرة تانية؟ قولي مرات، لسه الموضوع طويل وبيتعمل على كذا جلسة.

ليالي:خلاص المرة الجاية أبقي عرفيني وأنا هاجي معاكي .
هايدي:ماشي، يلا بينا !

خرجت هايدي وليالي من المبنى، متجهتين نحو الشارع، حيث كانتا تبحثان عن مطعم لشراء الساندويتشات، آملتان في العثور على وجبة شهية تروي جوعهما المتزايد بعد يوم طويل من التدليل.
وفي الجهة المقابلة، كان جلال في القرية، يعمل وسط مشاغل الحياة اليومية، وفجأة، شعر بحاجة ملحة لقضاء حاجته، وبعد أن أنزل الركاب في وجهتهم، عاد فارغ إلى المنزل في توكتوكه، حيث أوقفه قبال مدخل بيته، ثم وقفت قدماه لحظة ليعدل في بنطاله، متهيئًا لدخول المنزل. لكن ما إن دخل المدخل، حتى وجد أم الديب جالسة فوق الدرج، تحجب الطريق عنه، وكأنها تجسد عائقًا لا يمكن تجاوزه، وعندما رأت جلال، أطلقت صرخة عالية تحمل في طياتها مشاعر مزيجة من السخط والانتقام، وهي تقول له بعجيج:
_كنت فين يا صايع ياللي مش عارف تربي عيالك؟

جلال بصياح:ما تلمي نفسك ياما وبلاش طولة لسان!
أم الديب بصخب:عيالك الكلاب خضوني، وقعوا قلبي في رجلي، بقيت أترعش يا ولا وأعصابي سابت.
جلال باستعجال:طب عديني، عاوز أخش الحمام!

أم الديب بعناد:مش هتروح في حتة وتطلعلي عيالك الكلاب دول من تحت الأرض وترجعلي حقي منهم!
جلال بصياح:ياما وسعي بقولك على أخري! ولا أعملهالكم هنا؟
أم الديب بسخرية:ليه وانت خاسس على اللي خلفوك إيه؟ آني اللي بنضف وبيطلع عيني، كانت مراتك عدلة زي باقية الحريم اللي بيساعدوا حماتهم؟ ولا هي مش فالحة غير في المياصة والرقص؟
جلال بعجيج:ياما بقولك وسعي، الكلام ده مش وقته!
أم الديب بإصرار:مش هتعدي يا ولا!
جلال بحنق:انتي اللي جيبتيه لنفسك ياما!

بدأ جلال في فك أزرار بنطاله، مُعلنًا استعداده للتبول في مدخل المنزل. بينما كانت أم الديب تراقب الموقف بفزع، حيث ظنت في البداية أنه يهددها مجرد تهديد، وليس لديه الجرأة للقيام بذلك، لكنها لم

أم الديب الجزء الثالث

تدرك أنه كان صادقًا في وعيده. وفجأة، انقلب شعورها إلى الخرع الحقيقي، مما جعلها تتراجع بسرعة، لتتجنب أن يملأ مدخلها بالقاذورات. وسرعان ما نهضت، مضطرة لصعود الدرج، وهي تقاوم ثقل جسدها الذي بدا وكأنه يحاول أن يثقل حركتها، بينما كان صوتها يملأ المكان بالصراخ، قائلة له بنواح:
_انت بتعمل إيه؟ يخربيت أبوك، يا خرابي!

جلال بصياح:هو كان لازم أعمل كده علشان تعديني؟ شكلك ياما مبتجيش غير بالعين الحمرا!

كان جلال يهددها فقط، فهو لم يكن يجرؤ على فعل شيء كهذا، لكن كان لابد أن يشعرها أن وعيده كان حقيقيًا حتى تفر بسرعة نحو الأعلى كما حدث. أغلق أزرار بنطاله سريعًا وصعد إلى شقته، حيث دخل المرحاض، مكتفيًا بكونه وحده في تلك اللحظة، إذ كانت الشقة فارغة، لا يوجد فيها سواه. فقد هرب الأطفال جميعًا مع المعلم حنفي إلى متجره، حيث انطلقوا معًا لشراء الكشري المصري الذي يُعتبر وجبة محبوبة، بالإضافة إلى أنهم أحضروا معهم البسبوسة كتحلية بعد الوجبة. في نهاية اليوم، عادت ليالي مع هايدي، وقد علت الابتسامة وجوههن، سعيدتين بتجربتهن التي كانت مليئة بالمرح، إذ كانت تلك اللحظات بمثابة ملاذ بعيد عن افتعال أم الديب، التي كانت تعكر صفو حياتهم في كثير من الأحيان.
مرت الأيام كلمح البصر، حيث اعتادت هايدي على شراء ما تبقى من جهازها مع ليالي ونعمة، حتى انتهت من تجهيز كل ما تحتاجه، مما أدى إلى ازدحام شقة نعمة وأم الديب بمشتريات العروس، والتي تُعرف بـ"الرفايع"، في مشهد يصف الفرح. وفي هذا اليوم المشرق الذي يقترب به موعد حفل زواجها من معشوقها زياد، كان الأمل يزداد بوضوح مع مرور كل لحظة، مما أعطى الحياة لونًا خاصًا.
أطل يوم "العزال"، حيث استيقظ كل أفراد الأسرة مبكرًا بحماسٍ لا يوصف، متحمسين لنقل المشتريات إلى شقة العروس، فحضر ما يقرب من خمس سيارات، منها سيارات النقل والأخرى نصف النقل، كلها مصطفة حيال منزل أم الديب في تمام الساعة العاشرة صباحًا، وكأنها جيوش من الفرح مستعدة للاحتفال.

بينما حضر زياد ووالده حسين، حيث كان زياد متألقًا وكأنه عريس يحلم ببناء عش الزوجية، مرتديًا ساعته اللامعة، وشعره المتألق، وبنطاله الأسود الذي كان يتماشى بشكل رائع مع التيشرت الخاص به. بينما كان الحمالون يصعدون بالتوالي إلى شقة أم الديب، تتولى النساء تقديم الكراتين، كل واحدة منهن تحمل فرحة غامرة في قلبها. لكن في روح هايدي، كانت هناك مخاوف تشتعل، فقد كان لديها هاجس من أن يُخدش أي شيء من المشتريات الجديدة، مما جعلها تحذرهم كل دقيقة، بقلقٍ جلي، وكأن التحذيرات تتدفق من قلبٍ مليء بالرهاب. من الطبيعي أن تذهب العروس إلى منزلها من أجل ترتيبه بشكل يتناسب مع ذوقها، لتجنب أي مفاجآت ليلة الزفاف، ولكن في الريف، اعتادوا على أن تبقى العروس في المنزل، بينما تذهب العائلة بأكملها، عدا هي، مما يعتبره البعض كارثة تهدد بالطلاق في المستقبل إذا شاركتهم في المجيء، وهذه كانت وجهة نظر أم الديب، والتي كانت تعبر عن فكرة مريضة بلا أساس واقعي. لذا، اعترضت هايدي على هذا الفكر الرجعي، وتنازعت مع والدتها بسخط، قائلة لها بعصبية تعكس قناعاتها:
_يعني إيه مش جاية معاكم؟ أنا العروسة ومن حقي آجي أرتب حاجتي على مزاجي!

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بصدمة:ليه يا بت الكلـ* عاوزة الناس تاكل وشنا؟ طب دهو فال أسود ومنيل بستين نيلة!
هايدي بتهكم:نفسي تبطلي الخرافات والجهل ده! فال أسود إيه؟ إيه اللي بتقوليه ده أصلًا؟ ما ناس كتير راحوا ومحصلش كل اللي بتقوليه ده!
أم الديب بإصرار:آني قولت كلمة ومش هتنيها!
هايدي بانفعال:وأنا هاجي يعني هاجي، إيه التخلف ده؟ !
أم الديب بتهديد:اكتمي يا بت بدل ما أقعد فوقيكي أبططك!

رن الهاتف الأرضي في غرفة النوم، مما جعل أم الديب تهرول نحوه، متحاملة على نفسها بقلق، حيث جلست على السرير، وتناولت السماعة، وبدت في حالة من الاستعداد لمعرفة ما يجري، وبمجرد أن ردت، كان صوت أختها يتردد في أذنها، تسألها بلهجة تحمل بعض الفضول: "هل أنتم في المنزل أم لا؟"، مما جعل أم الديب ترد قائلة:
_ألو يا سعاد ياختي، أيون تعالي احنا لسه في الدار!
دخلت هايدي إلى غرفتها، وقد بدت متعصبة جدًا، وهي تزفر بفمها في محاولة للتخلص من شعورها المتوتر، ثم أخذت هاتفها واتصلت بنعمة، تشتكي لها بحسرة، قائلة بنبرة مفعمة بالألم وكأنها على وشك البكاء:
_ألو يا نعمة، شوفيلي حل!

قررت جميلة، أن تأخذ ابنتيها سيليا وأسيل وتذهب لزيارة والدتها، بسملة. كانت تلك الخطوة استراتيجية منها لتجنب استضافة أي ضيوف في بيتها، خوفًا من أن تتسبب تلك الزيارة في فوضى أو اتساخ المنزل الذي كانت تعبت في ترتيبه. في نفس الوقت، كان أحمد، زوجها، في العمل ولم يكن على علم بخططها. بينما كانت جميلة تجهز نفسها والفتيات للخروج، وصل أحمد من العمل مبكرًا ليفاجأ بأنهم في طريقهم للمغادرة. ارتبك أحمد وسألها عن السبب، خاصة وأنه كان يعلم أن والدته وأخته هايدي وآخرين يعتزمون الحضور إلى الشقة لترتيب الأمور المتعلقة بحفل زفاف هايدي. لم تكن جميلة مرتاحة لفكرة استضافة الضيوف في ذلك اليوم، وفضلت قضاء الوقت مع والدتها بدلًا من ذلك، مما أثار تساؤلات أحمد وشكوكه حول السبب الحقيقي وراء رفضها. بعد نقاش طويل بينهما، بدأ أحمد يلاحظ أن جميلة تتجنب مواجهة الموقف بشكل مباشر، ومع بعض التفكير، أدرك أن هناك سببًا أكبر وراء تصرفاتها. تذكر أحمد حادثة سابقة كانت قد جرت في منزلهم عندما كانت أم الديب في زيارة لهم. في ذلك اليوم، بينما كانت جميلة منشغلة في المطبخ لتحضير الضيافة، كانت هايدي في المرحاض، وعندما خرجت جميلة من المطبخ وجدت أم الديب تقوم بتصرف غريب وغير مريح، حيث كانت تطلق مخاط أنفها في ملابس أسيل، سألت جميلة بتقزز:
_أوه ماي جاد، انتي بتعملي إيه يا طنط؟

أم الديب بضحك:ايهي أصل عندي برد، حنفي فتح عليا الشُباك وآني نايمة.
جميلة بتقزز:طيب يا طنط مش تقوليلي وأنا أجيبلكWipes ؟

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بلا مُبالاة:القماشة دهي قضت الحال.

في مرةً أخرى، كانت أم الديب جالسة تأكل معهم على المائدة، حيث أخذت شوكة الطعام لتقوم بتنظيف أسنانها بها، في تصرف غير لائق تمامًا، مما أدهش الجميع حولها. ولم تكتف بذلك، بل قامت بإخراج بقايا الطعام من فمها، ومسحتها في الطبق بشكل يفتقر إلى أبسط قواعد الآداب. ومنذ ذلك الحين، بدأت جميلة تتجنب زيارتها كلما علمت أنها ستأتي، فكان هذا الموقف قد ترك أثرًا سيئًا في نفوسهم، وجعلهم يترقبون زيارتها بحذر. هذه الأحداث السابقة كشفت لأحمد السبب الحقيقي وراء عدم رغبة جميلة في استقبال الضيوف، وبالأخص أم الديب، مما جعله يفهم موقفها ويقر بأن لديها ما يبرر رفضها، فقال بتفهم:
_بصراحة ليكي حق، أنا طلعت غلطان.

جميلة بخجل:أنا بجد كنت مُحرجة أحكي علشان شكلها، بس كان لازم أعرفك علشان متفهمنيش غلط!
أحمد بتفهم:خلاص يا جميلة شوفي انتي عايزة إيه واعمليه!

أخبرت سيليا والدها:
_بابي أنا هقعد معاك!
قال أحمد لجميلة، وهو يقنعها بإبقاء سيليا معه:
_خلي سيليا، وخدي أسيل معاكي !

جميلة:أوكي، يلا باي باي.

خرجت جميلة بأسيل، وهي واضعة إياها في حمالة الطفل المتصلة بجسدها، مستعدة لقضاء يوم لطيف ومليء بالذكريات مع والدتها بسملة. رفعت سيليا يديها لأعلى، وكأنها تُودع جميلة ببراءة، قائلة:
_باي يا مامي!
نزلت جميلة من المنزل، وركبت سيارتها، مغادرةً الحي الذي يعج بالذكريات، بينما كان أحمد يحمل سيليا فوق ذراعيه، يراقبانها من الشرفة، حيث تأكدوا من مغادرتها قبل أن يعودا إلى الداخل سويًا. في منزل أم الديب، نزلت نعمة مع محمد بعدما استمعت باهتمام لسرد هايدي لها عن المشكلة التي تواجهها، وقد كانت تعاتب أم الديب بوضوح على هذا الفكر الرجعي الذي يعيق تقدمهم. فقد شعرت بأن التمسك بمثل هذه الأفكار القديمة يفرض قيودًا على حياتهم، ويعطل مسيرتهم نحو التطور. لذا قالت لها باعتراض:
_إيه ياما الكلام اللي انتي بتقوليه ده؟ يعني إيه هايدي متجيش؟

أم الديب:تيجي ليه يا بت؟
نعمة بدهشة:هو إيه اللي تيجي ليه؟ مش يمكن علشان هي العروسة مثلًا؟

أم الديب:دهي بالذات اللي مينفعش تيجي، يا بت! الناس هتاكل وشنا، أختك بسبب حركة زي دهي ممكن تطلق فيها!
نعمة بجلبة:فال الله ولا فالك ياما، تُفي من بوقك، بلاش الشؤم ده!

سأل حامد أم الديب بدهشة، مستفسرًا عن الأمر الذي لم يكن يتوقعه:
_وفيها إيه يا حماتي؟ متزعليهاش خليها تفرح !

أم الديب بصياح:اطلع منها انت ياخويا، آني بكلم بتي، إيه حشرك ما بينا؟
حامد بندم:خلاص أنا غلطان، يا ريتني ما اتكلمت.

قالت نعمة لوالدتها بإلحاح، خاشيةً على أختها من الشجب في هذا اليوم السعيد، حيث كانت تشعر بضرورة حماية مشاعرها وتفادي أي موقف قد يفسد أجواء الفرح التي كانوا جميعًا ينتظرونها بفارغ الصبر:
_أمانة عليكي ياما ما تزعليها وسيبيها تفرح! ده الواحدة وهي بترص حاجتها بنفسها بتبقى طايرة من الفرحة .

أم الديب:آني نصحت وعملت اللي عليا ولو حصل حاجة محدش يجي يشتكيلي، افتكروا إني قولت!
نعمة بابتسامة:لا ياما إن شاء الله مش هيحصل حاجة.

بعدما أقنعت نعمة والدتها بضرورة اصطحاب العروس معهم إلى الشقة، دخلت الغرفة حيث كانت مطلقةً الزغاريد من شدة ابتهاجها، في حين كانت هايدي جالسة على السرير، مظهرها يعكس استياءً واضحًا على الرغم من الأجواء الاحتفالية التي تعم المكان، مع تصاعد أصوات الأغاني في الخارج وضجيج الرجال الذين يحملون الكراتين، مما جعل نعمة تشعر بالحيرة تجاه عدم مشاركة هايدي في الفرح، فقالت لها بغبطة:
_افرحي يا هايدي لينا دماغ أمك الناشفة، افرحي يا بت!

هايدي بقهر:مابقاش ليا نفس أفرح، كل مآجي أفرح أتنكد!
نعمة بسرور:لا أحب على راسك بلاش نكد ده انتي عروسة يا هايدي، افرحي وإرمي كلام أمك ورا ضهرك!

دخلت ليالي الشقة وهي تزغرد بأعلى صوت، وكأن فرحتها تتناغم مع الأجواء الاحتفالية التي تعم المكان، بينما كان أطفالها يتبعونها بحماس، يتناولون رقائق الشيبسي، وتبدو عليهم علامات السرور، وبسعادة غامرة، قالت:
_ربنا يكتر من أفراحنا.

لكن توقفت فرحتها فجأة عندما التقطت عيناها مظهر أم الديب الجالسة فوق الأريكة، حيث كانت تعابير وجهها تحمل بوضوح مشاعر الامتعاض، مما جعل ليالي تشعر بسخط جسيم، وعندما التقت نظراتهما، قالت لها أم الديب ببغضاء:
_ايهي انتي إيه اللي جابك يا بت؟
نظرت ليالي إليها بغرور، ثم دخلت الغرفة وأحاطت هايدي بذراعيها، مُعبرةً عن مشاعر الفرح. وبحنان، هنأتها قائلة:
_مبروك يا هايدي ربنا يتمملك على خير.

هايدي باستياء:الله يبارك فيكي.

كان رد هايدي تعيسًا بلا لون أو طعم، فقدت رونق السعادة بسبب ضغوط والدتها، لكن ليالي، بحنكتها وذكائها، كانت عازمة على إعادة البهجة المفقودة لها. بدأت تزغرد، وترقص، وتغني معها، مُجبرةً إياها على استعادة الفرح الذي غاب عن وجهها، وفي الأسفل، كان المكان قبال المنزل مكتظًا بالرجال الحاملين الكراتين، حيث اختلطت أصواتهم مع مزمار السيارات المارة على أول الطريق، مما أضاف إلى الأجواء حيوية، ومن بعيد، اقترب أبو محمد من المعلم حنفي، وهو يبتسم ببشاشة، قائلًا له:
_ألف مبروك، ربنا يتمم بألف خير للعروسين.

المعلم حنفي بحبور:الله يبارك فيك، عقبال ولادك... إيه يا راجل مختفي فين كل ده؟
أبو محمد بابتسامة:أشغال والله بس أدينا جينا.

تحدث حسين مع أبو محمد بابتسامة تعكس روح الود، متمنيًا له دوام الصحة والعافية، بينما رد أبو محمد بكلمات تحمل معاني الشكر، مما يعكس العلاقة القوية بينهما. سأل جلال عن أي شيء آخر لم يتم تنزيله بعد، فكان الرد بأن الأمور قد اكتملت. في تلك الأثناء، ظهرت هايدي نازلة من الشقة، وهي تحمل كرتونة في يدها، مما لفت انتباه الجميع إليها. حذرتهم بجدية، طالبة منهم أن يتوخوا الحذر عند التعامل مع الكراتين، مُعبرةً عن حرصها على عدم تعريض الأغراض للتلف. وقد جاء رد الآخرين بالاطمئنان، مؤكدين لها أنهم سيحافظون على الأغراض. ثم اقترب زياد من هايدي، وابتسم، وقال لها بغرام:
_مبروك يا هايدي، كلها عشرين يوم ويتقفل علينا باب واحد!

هايدي بسعادة:إن شاء الله على خير.
زياد بتخمين:شكلك جاية معانا ولا أنا بيتهيئلي؟
هايدي بتأكيد:لا مش بيتهيئلك ولا حاجة أنا فعلًا جاية.
زياد باستغراب:هي مش مرات عمي كانت رافضة؟
هايدي:نعمة بقى ربنا يخليهالي هي اللي أقنعتها، أي حاجة ماما مش موافقة عليها بنلجأ لنعمة وهي تتصرف معاها بطريقتها، أصلها مش بتتأثر بحد غيرها.

زياد ببشاشة:شكل نعمة أقرب حد ليها.
هايدي ببسمة:أيوه بالظبط كده، هي أقرب حد ليها.
زياد بفرح:المهم إنها وافقت.
هايدي:أيوه الحمدلله، هطلع أنا بقى أجيب آخر كرتونة ونازلة!
زياد:لا استني متشيليش حاجة! أمال الناس اللي احنا جايبينها دي جايبينهم ليه؟ استني وأنا هطلع أخدها!
هايدي:طيب ماشي تعالى معايا!

صعدت هايدي، وفي إثرها زياد خطيبها، الذي أخذ منها الكرتونة بكل حرص، لينزل بها إلى السيارات حيث تم وضع جميع الأغراض في المركبات المختلفة، مما جعلهم يشعرون بارتياح كبير بعد إتمام تلك المهمة. ركبت العائلة في السيارة التمناية التي يقودها جلال، بينما انضم البعض الآخر إلى السيارات النقل المخصصة للأغراض، التي كانت مزودة بسماعات ضخمة تُطلق الأغاني الفرحة، مُعززةً أجواء الاحتفال التي تنتظرهم. مع مغادرتهم، بدا منزل أم الديب فارغًا من البشر. في حين توجهوا نحو القاهرة، وكانت السيارات تسير في خط متوازي، حيث كان بعضها يسبق الآخر بينما يتقهقر الآخر، وبعد ساعات من السير في الطريق، وصلوا أخيرًا إلى حيهم، واستقرت السيارات أمام المنزل بشكل صاخب لفت أنظار الأثرياء المنزعجين من هذا الضجيج الذي لم يعتادوا عليه في أحيائهم الهادئة، وفي خضم هذه الأجواء، كان أحمد في انتظارهم في الشارع، ممسكًا بيد ابنته سيليا، وحينما خرج زياد من السيارة، اقترب أحمد منه وعانقه بحرارة، مقدمًا له التهاني التي تعبر عن فرحته الكبيرة بهذا اليوم المميز الذي يجمعهم جميعًا، قائلًا:
_مبروك يا حبيبي، ربنا يكملك على خير.

زياد ببهجة:الله يبارك فيك.

قال أبو محمد للمعلم حنفي بذهول، وهو ينظر إلى جمال الحي الذي يحيط بهما، حيث كانت البيوت العصرية تزين الشوارع بألوانها المبهجة وحدائقها الغناء، مما جعل القلوب تتراقص فرحًا لرؤية هذا المنظر الخلاب:
_ما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، المنطقة جميلة جدًا!

المعلم حنفي:هايدي حظها من السما، ده كفاية بس عليها زياد، واد محترم وجدع.
أبو محمد:ما شاء الله ربنا يباركلهم، ويجعل بينهم مودة ورحمة .
المعلم حنفي:يارب.

أثناء صعود النساء إلى سلالم المدخل البراق، وقفت أم الديب في سكة المصعد، مما جعل الجيران، المكونين من رجل في الأربعينات وزوجته ذات الشعر الأشقر، غير قادرين على الدخول. كانت نعمة

أم الديب الجزء الثالث

تراقب الموقف، فشعرت بضرورة التدخل، فقالت لأم الديب بتنبيه، مُحذرة إياها من ضرورة إفساح المجال للجيران:

_وسعيلهم ياما!

لكن أم الديب لم تعر اهتمامًا، بل استمرت في النظر إلى الجيران بنظرات عداء مكشوفة، على الرغم من صمتهم الذي كان يعبّر عن استغرابهم من موقفها الطريف. أعادت نعمة حديثها، قائلة بحزم:

_ياما وسعيلهم، الناس عايزة تعدي!

أم الديب:ايهي مخدتش بالي .

قالت أم الديب للرجل بغلاظة، وهي تتطلع إليه بنظرة حادة:

=عدي يا راجل انت !

بعدما أساعت أم الديب الطريق بكل سلاسة، مما أتاح للرجل وزوجته فرصة الدخول إلى المصعد الكهربائي، التفتت أم الديب إلى نعمة، وقالت لها بصوت مرتفع، يمتد صداها ليصل إلى آذان كل من يتواجد في المكان:

_شوفي الولية عاملة إيه في شعرها؟ ولا كأنها عيلة صغيرة.

وضعت هايدي يديها بسرعة على فم أم الديب، ساعيةً إلى منعها من الكلام وإثارة المشاكل، وقالت لها بنبرة خافتة، تنم عن قلقها:

_اسكتي بقى متفضحيناش!

باعدت أم الديب يد هايدي بقوة، وكأنها تستشعر ضرورة التعبير عن حرية رأيها، بينما كانت ليالي، تتملّكها مشاعر الخوف على أطفالها، خشية أن يبتعدوا عنها ويفقدوا طريقهم في أروقة الحي، فمدت ذراعها نحوهم، وقالت بحنان الأم الذي يفيض بالعاطفة:

=تعالوا هنا يا عيال، متسيبوش ايدي !

قال حمود لها بسخرية، في نبرة تحمل في طياتها تلميحات من الاستهزاء:

_ليه أنا عيل صغير؟

ليالي بانزعاج:أه عيل صغير ومتتلامضش! لما أمك تقولك حاجة تسمعها وانت ساكت!

في الخارج، كان الرجال واقفين، يتأملون بإمعان الونش الذي يعمل على رفع مستلزمات العروس إلى شقتها الجديدة، ويتابعون بانتباه كبير أعمال الحمالين الذين يتنقلون بمهارة، بينما في الداخل، كانت سعاد، التي أُسرت بشدة بذهولها من أناقة الحي ورونق العمارة الذي يحيط بها، لا تستطيع أن تصدق أن ابنة أختها ستتزوج في هذا المكان الفخم، فقالت لأم الديب، مستنكرةً وشكها يتردد في نبرة صوتها:

_انتي متأكدة يا بسمة إن دي العمارة اللي بتك هتتجوز فيها؟

أم الديب بسخرية:ليه يا ولية شايفانا مساطيل ولا شاربين حاجة؟ ده آني لو غلطت في العمارة هما مش هيغلطوا، أصل حسين دهو عينه زي عين الصقر!

أصاب حسين الحسد في لحظة لا تتكرر، حين كان ينظر إلى الأعلى بتركيز، يتابع الونش الذي كان يقوم برفع الأثاث، بينما كان التراب يتدحرج تحت أرجل الحمالين، ليتناثر في الهواء قبل أن يسقط بغتة في عينه، مما جعله يصرخ بألم حار، وهو يهرش عينه المشتعلة بالحرقة، ويصيح قائلًا لابنه، بصوت يملؤه الاستغاثة:
_آه عيني، عيني، هاتلي مايه يا زياد!

زيادة بفزع:مالك يا بابا؟ عينك مالها؟
حسين بألم:التراب نزل فيها، هاتلي مايه بسرعة!
زياد بقلق:حاضر.

ركض زياد بسرعة نحو السيارة، كمن يتسابق مع القلق، ليُخرج منها زجاجة المياه التي قد تخفف من معاناة والده، في حين اقترب المعلم حنفي من حسين، متجهًا إليه بخطوات سريعة، وسأله بفزع، وقد ارتسمت على وجهه ملامح القلق:
_لا إله إلا الله، جرالك إيه بس؟

حسين بمعاناة:مش عارف... زياد جه ولا لسه؟
المعلم حنفي:أه جاي أهو.

حضر زياد، وجهّز الزجاجة، ورشّ الماء برفق على عين حسين، مستمرًا في ذلك حتى بدأت الآلام تخف، وتلاشى الشعور المزعج شيئًا فشيئًا، وبعد مرور خمس دقائق، لم يستطع زياد كبح مشاعر القلق التي كانت تتأجج في صدره، فسأله بلهجة مشفقة:
_أحسن دلوقتي يا بابا؟

حسين بارتياح:الحمدلله.

لاحظ أحمد علامات الإرهاق البادية على وجه عمه حسين، فتملّكه شعور من القلق، فسارع بخطوات متسارعة مع ابنته، ممسكًا بيدها، ثم اقترب من حسين وسأله باهتمام بالغ، وكأنه يحاول الاطمئنان على حالته بشكل عاجل:
_إيه يا عمي؟ مالك؟
أجابه زياد بطمأنينة:
=لا مفيش حاجة، هو كويس.
بعد أن انتهى الونش من رفع كل متعلقات العروس إلى الشقة الجديدة، قررت أم الديب ونعمة وهايدي وليالي وسعاد، برفقة الأطفال، الصعود إلى الشقة باستخدام المصعد، الذي اتسع لهم جميعًا بفضل مساحته الواسعة. كانت هايدي، وقد شعرت ببعض الارتياح من تعب اليوم الطويل، هي من بادرت

أم الديب الجزء الثالث

بالضغط على الزر الخاص بالطابق المنشود، ثم استدارت نحو المرآة الصغيرة الموجودة في المصعد لتعدل طرحتها بعناية، وكأنها تهيئ نفسها للقاء جديد. لكن فجأة، وبلا سابق إنذار، ضغطت أم الديب على زر التوقف، لتعم الصدمة المكان، ثم ببرود تام، ضغطت على الزر الخاص بالدور العاشر، مما جعل ليالي، وقد امتلأت ملامح وجهها بالفزع، تسأل حماتها بقلقٍ لا يمكن إخفاؤه:

_انتي عملتي إيه يا حماتي؟

أم الديب:ضغط بالغلط يا بت.

تحرك المصعد الكهربائي ببطء نحو الطابق العاشر، وفي تلك اللحظة، شعرت هايدي بالذهول، فوضعت يدها بسرعة على فمها، وكأنها تحاول كتم صرخة مفاجأة، ثم نطقت بصوت مرتجف تغمره حالة من الهلع المتزايد:

_يا نهار أسود، ده طالع في العاشر!

سألت سعاد، وهي تغالب مشاعر الارتباك التي بدت واضحة على وجهها، متوجهة إلى هايدي، وكأنها تبحث عن تفسير لما يحدث، قائلة بصوت متردد:

=وانتوا في الكام؟

هايدي بارتياع:احنا في الخامس، يادي النيلة... وسعوا كده!

قالت نعمة بروح يملؤها الثبات، وكأنها تملك يقينًا داخليًا لا يتزعزع، مستشعرة الهدوء وسط التوتر المحيط بها:

_براحة بس، سموا الله ومفيش حاجة هتحصل.

ضغطت هايدي على زر الطابق الخامس بعصبية، ولكن المصعد رفض الاستجابة، وكأن شيئًا خفيًا يعاند رغبتها، واستمر في الصعود حتى وصل بهم إلى الطابق العاشر. وما أن انفتح باب المصعد ببطء، حتى فوجئوا بولد صغير يقف عند المدخل، وفي يده كلب أسود ضخم ذو نظرات حادة، اقترب منهم بخطوات هادئة لكنها مخيفة. في تلك اللحظة، تجمد الجميع في أماكنهم، قبل أن تبدأ الصرخات تتعالى بشكل هستيري. ارتفعت أصواتهم، لكن صدى صوت أم الديب كان الأشد وقعًا، وهي تصرخ بحدة. صوتها ممتدٌّ يملأ أرجاء الطابق، وهي تتلفظ:

_يا خرابي هينهشني!

صرخت ليالي بصوت مرتعش يعكس حالة الرعب التي سيطرت عليها، وكأن الخوف شل حركتها تمامًا، بينما عينها كانت تراقب الكلب الضخم يقترب منهم، قالت:

=اقفلوا الباب بسرعة!

نطقت هايدي بفزع، وارتجفت كلماتها وكأنها تعكس حالة الهلع التي سيطرت على ملامحها:

_يا نهار أسود، ابعدوا لورا!

أم الديب الجزء الثالث

بعد لحظات من الذعر الذي عاشوه في الطابق العاشر، أغلقت أبواب المصعد عليهم مجددًا، ليجدوا أنفسهم فجأة يتجهون نحو الطابق الثامن، وكأن المصعد نفسه يلعب بهم. عندما توقفت الأبواب وفتحت ببطء، كان في استقبالهم رجل يرتدي قناعًا على هيئة شيطان، مما جعل أم الديب تطلق صرخة مدوية، قبل أن ترمي نفسها باتجاه الآخرين في محاولة بائسة للهرب. تصاعدت أصوات الصراخ من كل جانب، وكأن الرعب قد أحكم قبضته على الجميع، واستمروا على هذا الحال حتى وصل المصعد أخيرًا إلى وجهتهم الأصلية. وعندما انفتح الباب إزاءهم، كان الحمالون ينتظرون هناك بهدوء، وكأن شيئًا لم يحدث. النساء، بما فيهم الأطفال، بدأن بالتسلل بخطوات مترددة، واحدة تلو الأخرى، حتى دخلوا جميعًا إلى الشقة، محاولين استعادة أنفاسهم، وما إن هدأ الموقف قليلًا، حتى تقدم أحد الحمالين وسألهم بفضول:
_انتوا اللي كنتوا بتصوتوا؟

أزاحت أم الديب الرجل بقسوة، مفسحة المجال لنفسها لتتنفس، دون أن تعيره أي اهتمام أو تجيبه، فقد كانت تعاني من دقات قلبها المتسارعة التي كادت أن تخرج من صدرها. في تلك اللحظة، تدخلت سعاد، وهي تضع يدها على قلبها الذي ما زال يرتجف من الفزع، وكأنها تحاول السيطرة على نبضاته المتسارعة، وأجابت الرجل بارتباك:
=أيوه احنا، ده احنا كنا هنموت، هو اليوم ده عامل كده ليه من أوله؟
قالت نعمة بقلق يسري في عروقها، مستشعرة مدى الرهبة التي تحيط بهم:
_يارب، يارب أسترها، ده أنا واحدة على وش ولادة ومش حِمل المرمطة دي!
ردت هايدي بتأثر، وكلماتها تحمل في طياتها أعباء الخرع:
=معلش يا نعمة، هاتيها فيا!
دخلت هايدي إلى غرفة النوم، تتفقدها بفضول، بينما كان المعلم حنفي وأحمد وجلال وزياد وحسين وأبو محمد وحامد يظهرون في المصعد الكهربائي، صاعدين نحو الشقة، ومع دخولهم، تبعهم الحمالون، الذين بدأوا على الفور في تركيب الأثاث الذي كان مفككًا في كل زاوية وكأنها قطع من أحجية تنتظر من يجمعها. في هذه الأثناء، دخل كل واحد من الرجال إلى غرفة خاصة به، بينما تجمعت النساء حول الأريكة في الاستقبال، مستندات إلى لحظات من الهدوء بعد القلق، وعندما هدأت الأجواء قليلًا، نظرت أم الديب إلى الجميع، وقالت:
_ده احنا اتكتبلنا عمر جديد، كله من قر بت سلامة.
دخلت ليالي ونعمة إلى غرفة النوم لمساعدة هايدي، وكانتا تحملان في عيونهما مزيجًا من المعاونة، والحرص، فسألتها ليالي بنبرة ملؤها الاهتمام:
_هما هيركبوا أوضة النوم امتى؟

نعمة:كمان شوية.

نظرت نعمة حولها، متفحصة الشقة، لتجد كل شيء مبعثرًا في كل زاوية، وكأن الفوضى قد اجتاحت المكان، مما جعل من الصعب على أي أحد التحرك بسلاسة. ثم، وفي محاولة لإضفاء بعض النظام على الفوضى، قالت لليالي بصوت يعكس ضيقها:

أم الديب الجزء الثالث

_الواحدة مش عارفة تحط رجليها في حتة.

نعمة:معلش لما يركبوا الحاجة هيوسعولنا مكان.

هناك، كان حمود مشغولًا بعبث أظافره في أكياس الأثاث الحديث، وكأنه يحاول إيجاد شيء مثير في فوضى الأغراض. فجأة، نادته ليالي بتحذير، محذرة إياه من مغبة ما يقوم به:
_واد يا حمود متلعبش في حاجة!

حمود:ماشي.

ترك حمود الأكياس البلاستيكية التي كان يعبث بها، وانطلق ليقفز في الهواء مع محمد، يتبادلان الضحكات ويمضيان وقتًا ممتعًا في اللعب، بينما كانت تقى وسيليا تقفان جانبًا، مشغولتين بالحديث عن عرائس باربي الحديثة المتوفرة في الأسواق، وكأن عالمهن الطفولي مليء بالأحلام. في تلك الأثناء، خرجت نعمة إلى صالة الاستقبال، لتكتشف مشهدًا غريبًا: كانت أم الديب واقفة على الأريكة المكشوفة، بلا ساتر بلاستيكي يحميها، وبنعليها المتسخين، تسحب شبكة العنكبوت العالقة على الحائط بيديها، بينما كانت الأريكة مغطاة بالعصير الذي انسكب بسببها، وقد انطلقت منه بقع ملونة. شعرت نعمة بالصدمة، وضعت يدها على صدرها في حركة تلقائية تعبر عن ذهولها، ثم صرخت بكل قوة، محاولةً إيقاف ما يحدث:
_يا لهوي يآني!

يتبع....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الخامس والعشرون

اقتربت نعمة من أم الديب بخطى مثقلة بالحذر، وهي تتأمل بعينين غاضبتين تلك الكارثة التي طالت كل زاوية ولم تُبقِ على نظافة أو جمال في الأثاث الجديد للعروس؛ إذ كانت البقعة قد اتسعت وامتدت، لتصبح كندبة واضحة تشهد على استهتار أم الديب التي، غير مكترثة، تعاملت مع المكان وكأنها في معركة لتنظيف غبار الجدار أو آثار شبكة عنكبوت صغيرة، بينما ملأت حبات التراب كل ثنية في الأريكة، فاختفى رونقها وتلاشى بريقها. وفي حين كانت نعمة تنظر حولها بقلق، مترقبة ظهور هايدي في أي لحظة، كان الصمت يخيم على الجميع إلا سعاد الجالسة على الأريكة المقابلة، تراقب المشهد بعينين حذرتين، بينما نعمة تلتفت نحو والدتها، ويعلو صوتها بنبرة حادة، قائلة:

_يا نهار أسود ومهبب، انتي بقعتي الكنبة؟ لأ وكمان واقفة عليها بالشبشب؟

أم الديب بصياح:وآني كنت قاصدة أبقعها يا بت؟
نعمة بخور:انزلي بسرعة قبل ما هايدي تيجي وتشوفك وتعملنا مشكلة!
أم الديب بتعجب:ايهي، وآني هخاف منها ولا إيه؟ ما تتعدلي يا نعمة ومتنسيش إن آني أمكم!
نعمة بسخرية:لا سبحان الله كنت فاكراكي مرات عمي.
أم الديب بتجاسُر:مرات عمك ماتت مبطونة، أهي راحت في داهية خدتها، كان زمانها واقفة معانا دلوقتي وعاملالك فيها أم العريس!
نعمة بحزن:حرام عليكي ياما دي كانت ست طيبة!
أم الديب بقسوة:محدش طيب غيرك يا بت!
نعمة باستياء:ربنا يهديكي ياما.

هبطت أم الديب من فوق الأريكة وقد بدت على ملامحها دلالات الإرهاق الشديد، وكأنها تستريح من جهد أحبالها الصوتية التي طالما ارتفعت بالصياح في وجه نعمة. وبينما كانت نعمة تتلقى تلك الكلمات الثقيلة بصمت، دخلت إلى المطبخ بخطوات مثقلة، تلتقط الإسفنجة والصابون، عازمة على تنظيف البقعة التي طالت الأريكة، غير عابئة بحملها الذي زاد من عبء جسدها، وكأنها تتحدى أوجاعها بيديها. وبعد مضيّ بعض الوقت، غادرت أم الديب إلى المرحاض. بينما دخل جلال وأحمد ومن خلفهما فريق من الرجال إلى الغرفة، عازمين على تركيب أثاث غرفة النوم وغرفة الأطفال والمطبخ. وسط هذا الحراك، وقف المعلم حنفي مشرفًا على العمل بنظرة خبير، والتفت نحو فني تركيب الأثاث قائلًا له بتوجيه:

_تعالى يابا الحاج خُش جوا!

الفني:الأوضة اللي هناك دي؟
المعلم حنفي:أيوه هي.

في غرفة الأطفال، كانت هايدي تدفع المراتب الثقيلة باتجاه الحائط بكل ما أوتيت من قوة، محاولة إزاحة بعض المساحة حتى يتسنى للجميع التحرك بسهولة في الغرفة التي امتلأت بصناديق وأغراض متفرقة.

أم الديب الجزء الثالث

كانت العرقات تتصبب من جبينها بينما تبذل جهدها في تنظيم المكان، وعلى الجانب الآخر، جلست ليالي على كرسي الطاولة المغلف بالأكياس البلاستيكية التي لا تزال جديدة تمامًا، تتحدث مع والدتها عبر الهاتف بصوت مفعم بالدهاء، بينما أطفالها تجمعوا حولها، جالسين على الكراسي المجاورة في هدوء غير معهود. كان المشهد مليئًا بالصخب غير المنطوق، إلا أن حمود، الذي كان يجلس في الزاوية متأملًا، لم يكن يستوعب كيف ستصبح هايدي قريبًا عروسًا وهي التي ما زالت في نظره مجرد طفلة لم تتجاوز حد البراءة. تطلع نحوها بعينين مشدوهتين، وكأن الزمن قد توقف للحظة في عينيه، محاولًا استيعاب هذا التحول الكبير في حياتها، وسألها:
_انتي هتتجوزي يا عمتي؟

هايدي بسرور:أيوه عقبالك انت وأختك.
حمود بتفكير:يعني هتسيبي بيت ستي؟
هايدي:أه، هقعد عندها أعمل إيه؟
حمود:اشمعنا عمتي نعمة قاعدة في بيت ستي؟
هايدي:ماما هي اللي عايزاها جنب منها، بتحبها أكتر مننا بقى، هنقول إيه؟
حمود:أنا عايز أتجوز زيك!
هايدي بعصبية:ششش انت عبيط؟ انت لسه عيل صغير! قال تتجوز قال.
حمود:مانتي عيلة صغيرة يا عمتي وهتتجوزي!
هايدي بصدمة:أنا عيلة صغيرة؟ طب أقعد ساكت بقى! آدي آخرة اللي ياخد عيال صغيرة معاه في حتة.

يميل الأطفال دائمًا إلى تقليد الكبار، يتوقون لاختبار كل ما يرونه حولهم، غير مدركين أن لكل مرحلة في الحياة قراراتها الخاصة التي تأتي مع النضج. كيف يمكن لطفل بالكاد بدأ في اكتشاف العالم أن يفكر في أمر كبير كمسألة الزواج، وهو لا يزال يتلمس خطواته الأولى في الحياة؟ لم يخرج بعد من قشور طفولته الهشة؟ لكن ليالي، التي كانت مستغرقة تمامًا في حديثها الهادئ مع والدتها عبر الهاتف، لم تلقِ بالًا لما قاله ابنها. في الخارج، حيث صالة الاستقبال المليئة بالأثاث المبعثر والضجيج الذي يعم أرجاء الشقة، خرجت أم الديب من المرحاض وقد بدت على ملامحها الراحة بعد لحظات من الخلوة مع نفسها. تقدمت بخطى ثابتة وجلست بجوار أختها سعاد. لم يطل الوقت حتى بادرت أم الديب بالكلام، حيث أفصحت عن رغبتها في توسيع صالة شقتها الصغيرة التي طالما شعرت بأنها تخنقها بزواياها الضيقة. تحدثت إليها بشغف ممزوج بتأمل، قائلة:
_البت بعد ما تتجوز، هفتح أوضتها على الصالة أكبرها.

سعاد:طب ويفرض حد من عيالك جه يبات عندك؟
أم الديب:جلال له شقته ونعمة ليها شقتها، وأحمد مبيرضاش يبات عندنا، وهايدي أبقي تفي في وشي لو جات عندنا تاني، ده البت كأنها ما صدقت إنها هتمشي! هو آني بعملهم إيه يا سعاد ياختي؟
سعاد:مانتي برضة يا بسمة طبعك صعب مع العيال وناشفة معاهم وياما قولتلك حِني عليهم شوية... ده إن مكنتش الأم تبقى الصدر الحنين لعيالها أمال مين اللي هيحن عليهم؟

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب:هما اللي فاهميني غلط ومش عارفين يعاملوني.
سعاد بارتداع:لا يا بسمة ياختي، غيري من طبعك مع عيالك واكسبيهم في صفك، اعرفي ازاي تجمعيهم حواليكي مش تخليهم ينفروا منك!
أم الديب بصياح:ايهي انتي عاملالي فيها داكتورة من اللي بيطلعوا على التلافزيون يا ولية؟ خدي الشرشوبة وسيقي الحمام! أمال انتي جاية معانا ليه؟

قد لفت انتباه سعاد تلك المعاملة الجافة التي تنتهجها أم الديب مع أبنائها، فهي لم تكن تمنحهم تلك الجرعة من الحنان التي تميز الكثير من الأمهات. كانت القسوة في نبرة أم الديب واضحة، مثل صخرة صماء لا تعرف سبيل الانحناء. وبينما كان الاختلاف جليًا بين أسلوب بسمة وسعاد في تربية أبنائهما، فإن سعاد لم تكن بالحنونة المثالية، لكنها لم تعاملهم أبدًا بتلك القسوة التي تكاد تمزق أرواحهم. كانت تمنح أبناءها قدرًا من الحرية، تسمح لهم باختيار قراراتهم الخاصة، على عكس أم الديب التي لم تكن تتسامح مع فكرة الاستقلال، حيث كانت تمارس السيطرة المطلقة، متحكمة في كل صغيرة وكبيرة.
في تلك اللحظات العصيبة، كانت نعمة جالسة على الأرض، تنحني بكل ما أوتيت من طاقة، تحاول جاهدة إزالة البقعة العنيدة التي علقت بالأريكة، وبدأت تتنفس بصعوبة من شدة الجهد المبذول. كان القلق ينهش قلبها، تخشى أن تكتشف هايدي الكارثة قبل أن تتمكن من تنظيف الأريكة، فتزداد الأمور سوءًا.
وبينما كانت منهمكة في هذه المهمة المضنية، جاءت سيليا إليها بخطوات متثاقلة، تقف على عتبة الصمت، تراقبها بعينين مملوءتين بالذهول. كانت تتابع حركات نعمة وكأنها ترى شيئًا غير مألوف، فاقتربت أكثر وقالت لها:
_إيه ده يا عمتو انتي بوظتي الـCouch ؟

نعمة بقلق:وربنا ما جيت ناحيتها يا سيليا، دي ستك هي اللي دلقت عليها العصير ومكفهاش، لأ راحت طالعة عليها برجليها!
سيليا:نانا بسمة بقيت نوتي! حتى مامي بتشتكي منها.
نعمة باستغراب:بتشتكي منها ليه؟

حين أدركت سيليا فجأة أنها بكلماتها تلك قد بدأت في كشف بعض الأسرار دون قصد، شعرت بتوتر يسري في أعماقها، فسرعان ما غيرت مجرى حديثها بشكل مفاجئ، قائلة بنبرة متحفظة:
_لا أنا بهزر، نانا بسمة طيبة، بس دي عملت لون كبير!

نعمة:أدينا بندعك أهو، يارب تطلع قبل ما هايدي تشوفها، ألا البت بقيت روحها في مناخيرها وهتفضل تتنطط.

تقدمت تقى بخطوات صغيرة، وعينيها تلمعان بالشوق للعب، متوجهة نحو سيليا التي كانت ما تزال واقفة بجوار نعمة، وقالت لها بصوت طفولي مكتظ بالحماس:
_سيليا تعالي العبي معايا!

سيليا:أوكي يا تقى .

نظرت سيليا إلى عمتها نعمة بابتسامة صغيرة تكاد تخفي خلفها شيئًا من الخجل، وقالت بلُطف ملحوظ:
_أنا هروح ألعب مع تقى يا عمتو!

نعمة بانزعاج:ماشي يا حبيبتي روحي... ربنا يستر من هايدي لو عرفت!

توجهت الطفلتان، تقى وسيليا، نحو الدرج حيث كان حمود ومحمد بانتظارهما، تاركين نعمة وحدها في مهمتها الشاقة، تدعك البقعة بكل ما لديها من قوة. بينما في غرفة النوم، انهمك الرجال في تركيب قاعدة خزانة الثياب، كل واحد منهم يحمل أداة مختلفة، فالمسامير متراصة بجانبهم، والأدوات مبعثرة هنا وهناك. نظر الفني حوله، محاولًا ربط أحد المسامير، لكن يبدو أنه لم يجد ما يحتاج إليه، فرفع صوته قليلًا وأخبرهم قائلًا:
_عايزين مفك صليبة !

نظر زياد إلى الأدوات المبعثرة على الأرض، حيث كانت تتناثر بشكل عشوائي، عاكسة حالة الفوضى التي تسود الغرفة. برزت تساؤلاته في ذهنه، ورفع صوته متسائلًا:
=هو مفيش؟
قال أحمد بتفكير، بينما كان ينظر إلى الأدوات من حوله وكأنها قطع شطرنج تحتاج إلى الترتيب:
_طيب استنوا هشوف لو عندي وجاي، طب تشربوا شاي؟ أي حاجة طيب؟
أجابه المعلم حنفي بصوت هادئ:
=اعمل للرجالة ولعمك وابنه وجلال!

أحمد ببسمة:من عينيا ده انتوا تؤمروا.

رد حسين بابتسامة:
_الله يخليك.

خرج أحمد من شقة أخته متجهًا نحو شقته، حيث استقبله شعور بالراحة قبل يوم طويل من العمل، وما إن دخل المطبخ الأمريكي، حتى اتجه مباشرة نحو البراد، ليملأه بالماء البارد. رفع البراد ووضعه على الموقد، ثم أشعل النار بمهارة. بدأ بتجهيز الأكواب، مرتبًا إياها بعناية فوق الرخامة الواسعة، كأنه يرتب قطع فنية على لوحة، وبحركات متأنية، بحث عن علبة السكر وعلبة الشاي، وبدأ بتوزيع كل منهما على الأكواب، مع التركيز على كل تفاصيل صغيرة، وكأن كل كوب يمثل تجربة مميزة لذوقه.
بينما كان أحمد غارقًا في تحضير مشروبه، شعر جلال بوجود نوع من الارتباك في تصرفات الفني، حيث بدا الأخير غير قادر على تحقيق تقدم يُذكر. أدرك جلال أنه حان الوقت للتدخل، وكان لديه رغبة

قوية في فرض سيطرته على الموقف. اقترب من الفني، وأزاحه من مكانه بخطوات حازمة، وهو يثني ركبتيه ليحل محله بكل ثقة، قائلًا له بفظاظة تحمل بعض التحدي:
_أوعى يابا بس كده وسيبها عليا! بلا مفك صليبة بلا مفك باريزة، وسع كده بس!

الفني باعتراض:مش هتعرف، دي شغلتي أنا!
جلال بانفعال:يا عم متخلنيش أتغابى، بقولك وسع! مبحبش أعيد كلامي مرتين !

أهدأ حسين جلال، وهو يتأمل الموقف بعينين مليئتين بالتفهم، ثم قال له بلُطف:
_براحة يا جلال بس!
أشار جلال له بيده في الهواء، في حركة تنم عن إهمالٍ وعدم اكتراث، فقد ألغى مهمة الفني تمامًا، كأنه لم يكن حاضرًا بينهم. لم تذهب جميلة مباشرةً إلى زيارة أم قمر الدين، بل اتجهت أولًا نحو المول التجاري، حيث اختارت بعنايةٍ بعض مستحضرات المكياج من أفخم المتاجر، لتضفي على نفسها لمسة من الجاذبية، ثم خرجت مع ابنتها متجهتين نحو قصر الوالدة. كان الجو هادئًا، فتحت نوافذ المنزل على مصراعيها لتسمح بدخول نسيمٍ عليل، ممزوجٍ بعطورٍ فواحةٍ تملأ الأجواء بعبق الأزهار، بينما كان حوض السباحة يعكس أشعة الشمس في لوحةٍ من الألوان المتألقة. داخل القصر، كانت أم قمر الدين مستلقيةً على الأريكة المريحة، أمام التلفاز الكبير، تتابع بشغفٍ المسلسلات التركية التي تعشقها، بينما تتناثر المكسرات المحمصة حولها، ويزين الطاولة إنجلش كيك الشهي، ومشروب الكاكاو بالمارشميلو الذي يثير الشهيّة. عندما تفاجأت بدخول جميلة، التي كانت تحمل ابنتها أسيل بأناقةٍ لا تُوصَف، بحيث لم توحي للوهلة الأولى بأنها قد تزوجت وأنجبت، خفضت صوت التلفاز بدقةٍ، وقالت لها بذهولٍ يختلط بالدهشة:
_إيه ده جميلة؟ ازيك يا حبيبتي؟
نهضت أم قمر الدين، وقد ارتسم على وجهها الفرح البارز، فاحتضنت ابنتها بكل حنان، وقبلت رأسها ورأس حفيدتها أسيل، وكأنها تعبر عن مشاعرها الجياشة بكلمات لا تُقال. أجابت جميلة بعذوبة، وهي تجلس بجوار طفلتها على الأريكة، مُثبتةً ساقًا فوق الأخرى، وكأنها تُجسد لوحةً من الأناقة. جلست الوالدة أيضًا بجانبها، حيث كانت تُحيط بهما هالة من المشاعر الدافئة:
=Good، انتي عاملة إيه؟

أم قمر الدين:الحمدلله يا روحي.

نظرت أم قمر الدين إلى أسيل، وقد غمرتها مشاعر الدلال، فقالت بصوتٍ رقيق:
_ازيك يا لولي عاملة إيه؟ أمواه.
سألت جميلة عن والدها بمحبة، وقد بدت على وجهها تعابير الشوق، قائلةً لأم قمر الدين:
=بابي أخباره إيه؟

أم قمر الدين بتعجب:بخير الحمدلله، غريبة يعني إنك جاية النهارده وليه سيليا مجاتش معاكي؟

جميلة بوضوح:سيليا مع باباها هناك، بصراحة يا مامي بيني وبينك أنا مش قادرة أستضيف حد في بيتي خالص، فقولت آجي عندك لحد ما اليوم يعدي.
أم قمر الدين:ليه كده يا جميلة؟ وجوزك عارف؟
جميلة:أه طبعًا عارف، هو زعل في الأول بس لما فهمته بقى عادي.
أم قمر الدين باستغراب:طيب ليه يا حبيبتي مش عايزة حد يجي عندك؟
جميلة:طنط بسمة حركاتها مقرفة جدًا وأنا مش قادرة أتعامل معاها، هي نظام حياتها غير نظامي تمامًا.

أم قمر الدين:ماهو يا جميلة ده طبيعي خصوصًا إنها طول حياتها عايشة وسط حظاير وحيوانات، ده أكيد يعني.
جميلة:ماهو علشان كده قولت أجي عندك، حتى اتفقت مع سامية نقضي معاكي اليوم النهارده.
أم قمر الدين بضحك:أها ده انتوا متفقين بقى ومخططين وأنا آخر من يعلم.
جميلة بتردد:لا يا مامي هي مبتتحسبش كده بس زي ما قولتلك، ولا انتي مدايقة مننا؟
أم قمر الدين بحُب:لا يا جميلة يا روحي أوعي تقولي كده تاني! ده بيتك انتي وأخواتك وتيجوا في أي وقت، خليكي هنا وأنا هروح أشوف الخادمات فين!
جميلة بابتسامة:أوكي يا حبيبتي.

في شقة العروس، كانت نعمة لا تزال تمسح المكان الذي تركت فيه أم الديب بصمتها، حين دخلت ليالي بعد أن أنهت مكالمتها مع تباهي. نظرت إليها بصدمة، وكأنها رأت شيئًا غير متوقع، وسألتها بفضول:ٍ
_إيه ده يا نعمة في إيه؟

نعمة بإرهاق:أمي بقعت الكنبة، نفسي اتقطع، أوف.
ليالي:طيب هاتي عنك، قومي ارتاحي انتي!
نعمة بخجل:مش عايزة أتعبك يا ليالي، انتي مالكيش ذنب.
ليالي بإلحاح:متقوليش كده يا نعمة، أنا وانتي واحد، قومي بس!
نعمة:ماشي.

نهضت نعمة، وجلست على الأريكة لتستعيد أنفاسها، بعد جهدٍ شاقٍ بذلته في إخفاء الكثير من البقعة التي تركتها أم الديب، حيث كانت آثار العمل واضحةً، فالفرق بين الحالة قبل التنظيف وبعده كان جليًا كاختلاف الليل والنهار. نظرت ليالي إلى الأريكة بتمعن، وكأنها تحاول استشراف كل تفصيلٍ فيها، ثم جلست على ركبتيها بحذر، لتواصل ما بدأته نعمة، مستخدمةً نفس الإسفنجة والصابون الذي كان يزفر برائحة منعشة. كانت يديها تعملان برشاقةٍ، تفركان الإسفنجة على الأريكة بنمطٍ منتظم، بينما كانت تنظر إلى زوايا الصالة، حيث كانت الألوان المتناسقة تخلق جوًا من الألفة، وتجعل من المكان واحةً من الجمال. في تلك الأثناء، قالت لنعمة:
_علفكرة البقعة مش باينة بس أهو زيادة أمان.

أم الديب الجزء الثالث

نعمة:معلش يا ليالي أصل دي حاجة عروسة والمفروض تبقى بتبرق.
ليالي:على رأيك، بصي بعد ما نخلص نبقى نغطيه بمشمع، احنا مش ضامنين أمك إكمن مصايبها كتير.
نعمة:ماشي يا ليالي، هروح أشوف أمي فين.

ذهبت نعمة تبحث عن أم الديب، وعندما لمحتها قادمة، كانت تحمل كؤوسًا بأيدٍ مرتجفة، بينما كانت وراءها أختها سعاد، تحمل أطباقًا متراصة بشكل غير منتظم. كان المكان مزدحمًا بالفوضى، فالأرض مغمورة بالكراتين والأشياء المتناثرة هنا وهناك، مما جعل الحركة فيه محفوفة بالمخاطر. بينما كانت أم الديب تمضي قدمًا، تعثرت قدمها فجأة، وسقطت الكؤوس من يديها، لتحطم على الأرض وتنفجر إلى قطعٍ متناثرة، مما خلق صوتًا مدويًا كان بمثابة صدمة للجميع. في تلك اللحظة، ظهرت هايدي، وهي تسرع نحوهم، وجهها متجهمًا، وعيناها مليئتان بالقلق، وقد سألت أم الديب بصياح:
_إيه اللي انتي عملتيه ده؟ يا نهار أسود عليا وعلى سنيني، مستحيل تعدي على خير! لازم من كل خرابة يطلعلنا منها عفريت.

أم الديب بصخب:اكتمي يا بت مسمعش صوتك! فدايا.
هايدي بصياح:يعني إيه فداكي؟ هتجيبيلي غيرهم يعني؟ ده انتي طلعتي روحي علشان أجيب جهازي، دي كانت عايزاني أجيب أطباق وكوبايات بلاستيك علشان توفر!

خرج الرجال من الغرفة، وكان من بينهم زياد الذي شعر بقلق متزايد على ما يجري. نظر إلى هايدي بترقب، عاكسًا في عينيه مزيجًا من الاستفسار والاهتمام، محاولًا قراءة ما يدور في ذهنها، متسائلًا:
_في إيه يا هايدي؟
صخبت أم الديب، وقد ارتسمت على وجهها ملامح منزعجة، حيث كانت تحاول استعادة هدوءها بعد الحادث. تقدمت نحو هايدي، وعلت صوتها، معبرةً عن مشاعرها بعجيجٍ عارم:
_انتي بتسيحيلي يا بت الكلب؟

هايدي بتضايق:وأسيحلك ليه؟ مش دي الحقيقة؟

قالت ليالي بقلق:
_استهدوا بالله متخلوش الناس تتفرج علينا، هو في البيت هناك وهنا؟
تلفظت نعمة بكلمات مختلطة من الذهول والقلق، وكان صوتها يحمل نغمة من الارتباك:
=روقوا دمكم بس مفيش حاجة مستاهلة، تعالي معايا يا هايدي!
سحبت نعمة هايدي من ذراعها ودخلت بها غرفة الأطفال، حرصًا على تجنب تفاقم الموقف بسبب أم الديب، حيث جلستا على الكراسي في هدوءٍ نسبي. بينما في صالة الاستقبال، سأل "حسين" "أبو محمد" بدهشة عما حدث، مستنكرًا الوضع الذي آل إليه كل شيء:

_هو في إيه؟

أبو محمد:تقريبًا كده اتشاكلوا، ربنا يهديكي يا أختاه.

دخلت ليالي غرفة الأطفال، وكان في عينيها لمعة من الشماتة الخفية، حيث بدت وكأنها تستمتع برؤية المشاكل التي تعم المكان. نظرت إلى نعمة وهايدي، بينما ارتسم على شفتيها عبوس متكلف، وهي تقول:
_يا حول الله يارب، عين وصابتهم.
وبعد دقائق، شرعت ليالي ونعمة في جمع الزجاج المكسور، الذي انكسر معه قلب هايدي، حيث كانت تشعر بضغط شديد على صدرها، وكأن كل قطعة زجاج تفسر الارتباك الذي يكتنفها، غير مستشعرةً فرحة العروس التي تعيشها باقي النساء، اللواتي كن يغمرهن البهجة. بينما كان الأطفال يلهون خارج الشقة، كان الضحك يتصاعد ليملأ العمارة. في تلك الأثناء، طرأت فكرة في عقل سيليا، التي كانت ترغب بشغفٍ في عرض عرائسها اللعبة على تقى. كانت غرفتها شاسعة، تحوي العديد من الرفوف المليئة بالألعاب الملونة، وكأنها متجر ألعاب وليس غرفة فتاة تأخذ طابع اللون الوردي. الألوان الزاهية والتفاصيل الدقيقة في الألعاب كانت تجذب الأنظار، مما جعل الغرفة تبدو كعالمٍ سحري. استدارت "سيليا" نحو "تقى"، وقالت لها بحماس:
_تعالي معايا عايزة أوريكي عروستي الجديدة!

تقى:انتي عندك عرايس كتير أكتر من اللي عندي؟
سيليا:مامي وبابي بيشترولي ألعاب كتير كل يوم.

ثم ذهبت مع تقى ودخلتا الشقة دون علم أحمد، متجهتين نحو الغرفة في صمتٍ يشوبه الترقب، لتريها ألعابها الخلابة التي كانت تحلم بها دائمًا. هناك، أضاءت غرفتها بلمساتٍ ناعمة من الأضواء، لتخلق أجواءً ساحرة، وأحضرت علبة كبيرة مملوءة بألعاب عروس باربي، كانت مرتبة بعناية وكأنها تعرض في واجهة متجر. عندما فتحت العلبة، انطلقت ألعابها إلى الضوء كأنها تُعلن عن قدومها، فظهر أمام تقى عالمٌ من الألوان. كانت باربي بفستانها الزهري الفاتح، بجانب مجموعة من الملابس والإكسسوارات، تضفي لمسة من السحر. في تلك الأثناء، خرج أحمد من الشقة حاملًا صينية كبيرة مغمورة بأكواب الشاي بالنعناع، الذي كانت رائحته تنعش الأجواء المحيطة. أوصد الباب خلفه برفق، متوجهًا نحو المعلم حنفي وجلال وبقية الرجال في شقة العروس، حيث كانت الأحاديث تدور بينهم حول تجهيزات الزفاف.
عندما رآه المعلم حنفي، ارتسم على وجهه الارتياح، وسأله بامتنان:
_تعبت نفسك ليه؟
ضحك جلال، وقال بتهكم:
=جرا إيه يابا؟ مانت اللي قايله، ما بلاش الحركات القرعة دي!
بينما كان أحمد يوزع الشاي على الجميع، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، وقال:
_عيب عليكم يا جماعة متقولوش كده احنا اهل، اتفضلوا!
ثم مدَّ أحمد عمه حسين بالمشروب، قائلًا بتبجيل:

_اتفضل يا عمي.

وأردف للفني الذي كان مشغولًا في تركيب الخزانة مع جلال:
_اتفضل.
احتسى حسين المشروب باستمتاع، ولذته تتجلى في عينيه، حيث نظر إلى أحمد، وتدفق الحديث من قلبه، حيث قال له بلُطف:
=تسلم يابن أخويا.
وزع أحمد المشروبات على الجميع ليعدلوا صفوهم قبل الدخول في معركة تركيب الأثاث، محاولًا تخفيف الجهد الذي يحيط بهم. بينما كانت الأجواء مليئة بالنشاط، كانت في غرفة الأطفال هايدي تنتحب بحرقة مما حدث لها، وكأن قلبها محطم تحت وطأة الظلم. كانت أختها تعانقها برفق، لكن ذلك لم يكن كافيًا لتهدئة قلقها. كان العالم من حولها يتحول إلى شاشة سوداء قبال عينيها، حيث اختفت جميع الألوان من حياتها لحظة سقوط الكؤوس، وزاد استياؤها من والدتها، التي كانت تصر على أن كل شيء يجب أن يسير وفقًا لمزاجها، دون اعتبار لمشاعر ابنتها أو ممتلكاتها. بعد فترة مديدة من البكاء، حيث كانت الدموع تنهمر كالمطر الغزير، حاولت نعمة أن تدخل بعض الإيجابية إلى الموقف، فاقتربت منها برفق، وقالت لها بنبرة ملآنة بالتفهم:
_خلاص بقى يا هايدي!

هايدي ببكاء:أرمي نفسي من الشباك علشان أرتاح ولا أعمل إيه طيب؟
نعمة:يا بت متبقيش عبيطة، إيه الجديد على أمك يعني؟ محسساني إنك اتفاجئتي بعمايلها دي!
هايدي بحسرة:يعني مش حرام الكوبايات دي تتكسر؟ مين هيجيبلي غيرها طيب؟
نعمة بمواساة:يا بت هما كوبايتين وإحمدي ربنا على كده، وإن كانوا مزعلينك نجيبلك غيرهم بس روقي بقى.
هايدي بحسرة:عمرهم ما هيكونوا زي اللي أنا جايباهم، أنا جايبة أنضف حاجة!
نعمة ببشاشة:قولولي جايباهم منين وأنا أجيبلك زيهم.
هايدي:خلاص يا نعمة محصلش حاجة، هعمل إيه يعني؟ أهو اللي حصل حصل.
نعمة بمَسرة:أيوه كده شاطرة يا هايدي ربنا يثبتك بعقلك.

بعد أن انتهت ليالي من تنظيف الأريكة بنجاح، كان حمود ومحمد قد مروا بجانبها، حيث نادت ابنها بلهجة مفعمة بالحزم، لتطلب منه أن يجلب لها تقى من أجل تناول دواء السعال في موعده، قائلة:
=يا حمود، تعالى !

حمود:إيه ياما؟
ليالي:اندهلي أختك عشان أديها دوا الكحة!
حمود:ماشي.

أم الديب الجزء الثالث

ذهب حمود يبحث عن أخته تقى في أرجاء الشقة، لكن لم يجد لها أي أثر. كان يتجول في الغرف والممرات، محاولًا إيجاد أي دليل على وجودها، إلا أنه لم يعثر عليها، مما زاد من شعوره بالاضطراب. تساءلت ليالي، التي شعرت بنذر الخطر، عن مكان تقى، لتتلقى إجابة حمود التي لم تفعل سوى أن تزيد من حيرتها: "مش موجودة". استبد بها الفزع حينما عادت إلى جلال، تبحث عن تفسير يهدئ من روعها، لكنها لم تجد أكثر من الاستنكار في ردودهم. حذرتهم من احتمالية وجودها في مكان غير آمن، بينما كان حسين يقترح بطريقة خفيفة أن تكون مشغولة باللعب. ولكن الخوف كان يعتصر قلب ليالي، التي شعرت بأن الوقت يمر بسرعة، وأخذت تخرج من الشقة وتنادي على ابنتها، ترجوها أن ترد عليها. تردد صدى نداءاتها في الأرجاء، بينما كان جلال ينضم إليهم في مناداة تقى، مذكرًا الجميع بأن القلق لا يحل المشكلة. خيم الصمت لفترة قصيرة، لكن القلوب كانت تتسارع في صدورها، وكأنها تتوق لسماع صوت تقى. كانت ليالي تتخبط بين مشاعر الأمومة والذعر. خرج أحمد ليبحث عن طفلته سيليا، مستشعرًا شيئًا غامضًا يحيط بالمكان، فاستدعى بصوت عال:ٍ

_هي سيليا فين؟ سيليا... سيليا.

خرجت نعمة متوجهة إلى الخارج، حيث كانت تنادي بنات أخواتها، وقد ارتفع صوتها عاليًا، يملأ الفضاء بأنغام النداء، قائلة:

=يا بنات.

ظهرت أم الديب من خلفهم، وتقدمت نحوهم بحدة، تدفعهم بيدها في حركة قوية، ثم راحت تصرخ بصوتها الذي تردد صداه في أرجاء المنطقة، قائلة بعبارات حادة تحمل في طياتها قسوة:

_انتي يا بت الكلـ* انتي وهي، بت يا تقى، بت يا سوليا، انتي يا بت منك ليها روحتوا فين؟

كان أحد سكان العمارة يستمتع بنوم عميق وأمان تام، ولكن ما إن سمع صوت أم الديب الجهوري المرتفع حتى استيقظ على الفور، متقلبًا من على سريره بفعل الفزع، وفي تلك الأثناء، كانت ليالي تعاني من قلق غائر يعتصر قلبها، فقد كانت تشعر في أعماقها بأن ابنتها قد اختطفت على يد عصابة غادرة، وكانت تتوسل إلى جلال بكل مرارة، وهي تعبر عن ألمها، قائلة:

=بنتي يا جلال، البت اتخطفت!

أطلق جلال نداءً حارًا يبحث عن ابنته، حيث ارتفعت نبرات صوته في أجواء المكان، قائلًا:

_يا تقى!

عندما سمعَت تقى وسيليا أصواتهم المرتفعة، اندفعت سيليا نحو باب الشقة وفتحته، وعندما رأتهم العائلة، ركضت إليهم بسرعة، بما في ذلك أم الديب التي كانت قد انضمت إليهم في تلك اللحظة، حيث صاحت بصوت عالٍ، قائلة لتقى بعجيج:

=إيه اللي دخلكم جوا؟ ما تردي يا بت!

عانقت ليالي تقى بحنان، محتضنةً إياها وكأنها تحاول أن تحميها من كل المخاطر، متفحصةً وجهها عن كثب، بينما تقبّل يدها برعشة من فرط اللهفة، حامدةً الرحمن في سرها على سلامتها، ثم سألتها بتجهم واضح يظهر القلق في عينيها:

_كنتي فين؟

أم الديب الجزء الثالث

احتضن أحمد ابنته سيليا بعطف، رغم أن قلبه كان يشتعل نيرانًا من القلق، حيث كان يفضل أسلوب التربية الإيجابية الحديثة التي تسعى لتعزيز الثقة والاحترام المتبادل، فسألها بهدوء، محاولًا التحكم في مشاعره الجياشة:

_إيه اللي دخلكم الشقة يا سيليا؟

لم يكترث جلال بكل ما يدور حوله، بل دخل الشقة مرة أخرى مع الرجال، كأنما كان في عالم آخر لا يؤثر فيه ما يحدث، وعندما تقدمت نعمة نحو ليالي وأحمد، أبدت لهم طمأنينة واضحة في نبرتها، فقالت لهما بثقة:

_إحمدوا ربنا يا جماعة إنهم بخير.

شعرت سيليا بالخجل إزاء والدها بعدما تصرفت دون وعي، حيث كان من الواجب عليها أن تُخبره بوجودها لتطمئن روحه عليه وتخفف من قلقه، فأحنت رأسها إلى الأسفل، بينما كان الاستياء يتأجج في عينيها، ثم نظرت إليه بأسف عميق، قائلة له:

_سوري يا بابي.

أحمد بهدوء:انتي عارفة إنك عملتي حاجة غلط ولا لا؟
سيليا بندم:أيوه.
أحمد بشجن:متعمليش كده تاني وإلا هزعل منك جامد!
سيليا باستياء:أوكي.

عانق أحمد سيليا بحُب، وقبّل رأسها برقة تعكس حنان الأب الذي لا يعرف القسوة، ثم توجه بها إلى داخل الشقة، وهو مصمم على عدم تركها تلعب بعيدًا عنه في هذه اللحظة الحرجة، حيث قرر أن تبقى بجانبه إلى آخر لحظة، ليحميها من كل ما يحيط بهم من مخاطر. في تلك الأثناء، كانت ليالي قد اطمأنت على سلامة تقى، ولكنها لم تستطع كبح مشاعر الحنق المتراكمة في صدرها، فتوجهت إليها بنبرة حادة، متوعدةً إياها بالعقاب في المنزل، قائلة بصرامة:

_حسابك معايا في البيت يا تقى، هوريكي لما نرجع!

ثم تشبثت بيدها، وكأنها تبحث عن الأمان في حضنها، بينما دخلت معها الشقة، فعندما استقروا داخل المكان، نظر أحمد إلى ليالي، وقال لها بنصيحة مُشبعة بالحكمة:

=خلاص يا ليالي محصلش حاجة، قولي الحمدلله إنهم طلعوا بخير، بلاش تيجي على البنت أكتر من كده!

ليالي بغيظ:دي وقعت قلبي في رجلي، كنت هروح فيها.

جلست نعمة على الأريكة بملامح هادئة تعكس طمأنينتها، ثم نظرت إلى ليالي وقالت لها بلهجة مفعمة بالراحة:

=خلاص يا ليالي إحمدي ربنا، دول عيالنا ومهما كان في الأول والآخر أهو عيال صغيرة مش فاهمين حاجة.

ليالي بعصبية:ماهو لو ابنك هو اللي حصله كده مكنش ده هيبقى كلامك.

تلفظت أم الديب بضجيج، حيث ارتفعت نبرة صوتها وسط الأجواء المغمورة بالتوتر:
=ايهي، انتوا هتسيبونا اللي ورانا واللي قدامنا وهتقعدوا تحكوا وتتحاكوا؟ خلصوا متوجعوش راسنا!
ثم أردفت لأختها بانشغال، وهي تتحدث بسرعة وكأن الأفكار تتدافع في ذهنها، قائلة:
=يلا يا سعاد ياختي.
أخذت أم الديب أختها بيدها ودخلتا غرفة الأطفال، بينما دخلت هايدي غرفة النوم، وقد سادت حالة من الهدوء في الأجواء. وبعد ساعة واحدة، عادت جميلة مع أسيل إلى الشقة، حيث دخلتا تنظران حولهما في صمت، تراقبان تفاصيل المكان بعناية، ثم قالت جميلة برصانة:
_هاي، عاملين إيه؟
نهضت أم الديب في الحال وكأنها رأت الملكة تتقدم نحوها، فاندفعت نحو جميلة، تطلق الزغاريد من أعماق قلبها فرحًا، قائلة لها بتفضيل:
_يا ألف بركة، مرات ابني الغالية جات، تعالي يا جميلة ياختي تعالي!

جميلة بحَذَب:أخبارك إيه يا حبيبتي؟
أم الديب بسرور:عال العال، هاتي البت أشيلها!

عانقت أم الديب جميلة بقوة، وقبلتها بحرارة، ثم حاولت أخذ أسيل بين ذراعيها بعنف، ولكن جميلة سرعان ما رفضت تسليم طفلتها لها، إذ كانت تشمئز من مجرد فكرة أن تلامس أم الديب تلك الطفلة البريئة، التي تلمع كالماس في معرض الأمان. باعدت جميلة بينها وبين أم الديب بسرعة، وواجهتها بابتسامة تعجرف تحمل في طياتها قلقها، قائلة:
_سوري يا طنط، أصل أسيل عاملة Stool على نفسها.
=ايهي يعني إيه؟
خرجت نعمة من الطرقة لتجد جميلة في وجهها، فاحتضنتها وقبلتها على وجنتيها بحنان بالغ، ثم قالت لها بإعزاز، تعبر عن تقديرها:
_منورة الدنيا كلها يا جميلة يا حبيبتي.

جميلة بابتسامة:منورة بيكوا يا روحي، هاجي أساعدكم بقى، ها!

كانت ليالي تستمع إلى الحوار بينهما في صمت، وهي جالسة في الغرفة، فتسربت مشاعر الازدراء إلى أعماقها، فابتسمت بسخرية، قائلة في خاطرها:
_تساعدهم؟ تساعدهم قال، هي دي بتعرف تشيل شوكة لما تساعدهم مرة واحدة؟
أجابت نعمة على حديث جميلة، قائلة لها ببشاشة تضيء وجهها:
=ماشي يا جميلة احنا مستنينك.

أم الديب الجزء الثالث

كان السبب الذي جعل جميلة تعود هو أن والدتها قد أخبرتها بضرورة الوقوف إلى جانبهم ومساعدتهم، حتى تتمكن من مشاهدة المسلسلات في هدوء بعيد عن صخب أحفادها، وعلى الرغم من ذلك، لم تحضر سامية كما اتفقت مع جميلة، حيث طرأ أمر طارئ في عملها حال دون قدومها، مما جعل جميلة تشعر بالخيبة حين أدركت أنها ستجلس في القصر بلا جدوى، فقررت العودة إلى منزلها. وبعدما أنهت حديثها مع نعمة، دخلت جميلة مع أسيل إلى شقتها، حيث استمتعتا بأجواء من الخصوصية والسكينة. قامت جميلة بالاستحمام مع الطفلة، وارتديتا أجمل البيجامات التي تبرز أناقتهما، ثم وضعت العطر الفاخر الذي يعبق في الأجواء، وأخذت وقتها لتسشور شعرها باهتمام، لتعود إلى شقة العروس متألقة بأناقتها. في تلك الأثناء، كانت كل النساء في المنزل يعانين من العرق والجهد الذي بذلنه خلال التحضيرات، فبعضهن كن يمسحن الأرضية وينظفنها من الأتربة المتراكمة، بينما أخريات كن يلمعن الأكواب ويرصنها بعناية داخل البوفية. خرج أحمد من الغرفة ليجد جميلة جالسة فوق الأريكة مع أسيل، وكانت إطلالتها المتألقة تضفي على المكان لمسة من الجمال. فاقترب منها بدهشة، وعلامات الاستغراب ترتسم على وجهه، وسألها:

_إيه ده يا جميلة؟ انتي جيتي امتى؟

جميلة:من شوية، قولت لازم أساعدهم وأقف جنبهم، احنا أهل برضة وملناش غير بعض.

أحمد باستغراب:هو إيه اللي حصل يا جميلة؟

جميلة:واضح إن مامي مشغولة النهارده ومش فاضية.

أحمد بتعجب:عندها شغل ولا إيه؟

جميلة بضحك:خالص، قاعدة تـ.Watch the series

ضحك أحمد بخفة، ثم اتجه ليكمل العمل معهم، حيث كانت روح التعاون تملأ المكان، فالجميع كان يساعد بعضه البعض في تناغم. طوال اليوم انشغلوا بكنس الشقة وغسلها بالماء والصابون لتنظيف كل زاوية فيها. بعضهم كان مشغولًا بتركيب خزانات الثياب في كل غرفة، مساندين بعضهم البعض في تلك المهمة، فالعمل الفردي كان شاقًا ويتطلب التكاتف. كل شخص تولى دورًا خاصًا به في هذه المعاونة المشتركة، بينما آخرون انهمكوا في تعليق خزانة المطبخ، ومع كل حركة للشنيور، كانت النساء يتسابقن في تنظيف الأتربة التي تتساقط إثر الحفر، فبدأت إحدى النساء بترتيب أدوات المطبخ بدقة، وكل شيء يعود إلى مكانه المخصص بعناية.وبينما كانت ساعات العمل الطويلة تستهلك طاقتهم، قرر أحمد أن يجلب وليمة طعام من أحد المطاعم القريبة، ليمنحهم لحظات من الراحة. اجتمع أفراد الأسرة والعمال حول الطعام، جالسين على الأرض، يتبادلون الأحاديث والضحكات، ثم استمتعوا بالمشروبات المثلجة التي أعادت إليهم بعض الانتعاش، ليواصلوا عملهم بنشاط متجدد. وعند اقتراب الساعة من الواحدة صباحًا، انتهى العمل أخيرًا، وجلس الجميع على الأرائك منهكين من التعب. وبصوت يحمل في طياته أثقال اليوم، بدأت ليالي تدلك ساقيها اللتين كانتا تؤلمانها من شدة الإجهاد، وقالت بصوت يكسوه الألم الذي يكاد يكون لا يُحتمل:

_آه يا رجلي، نار فيها، كلمة نار دي قليلة!

تنهدت نعمة بصوت يحمل أثر التعب، وقد بدا الألم واضحًا على ملامحها المتعبة، وقالت:

أم الديب الجزء الثالث

=المهم إن الشقة خلصت.
تفوهت هايدي بكلمات تخرج بصعوبة من فرط الإرهاق، ونبرة صوتها تعبّر عن يوم طويل من العمل والجهد المتواصل، قائلة بتعب بادٍ عليها:
_أمال أنا أعمل إيه؟ أنا شغالة بإيديا من الصبح.
قالت جميلة بنبرة يغمرها الإعجاب الصادق، وقد أضاءت عيناها بلمعان تقدير حقيقي لما تراه أمامها:
=بس ما شاءالله الشقة بقيت تجنن.

تلفظت أم الديب بكلمات تخرج من بين أنفاس مثقلة بالمعاناة:
_آه يا رجلي آه.
وسط آهات الجميع واستسلامهم للتعب، نهضت نعمة فجأة، وعيناها مفتوحتان باتساع أشبه ببوابة كهف غامض، ووضعت يدها على ظهرها، الأمر الذي لفت انتباه الجميع نحوها. فجأة، صرخت بألم حاد، بينما كانت مياه الجنين تنزلق على سيقانها، غارقةً عباءتها، معلنةً مجيء لحظة الولادة المبكرة التي جاءت نتيجة للجهد الشديد الذي بذلته، وما إن لاحظت ليالي هذا التغير المقلق حتى نهضت هي الأخرى بسرعة، والقلق يتجلى في ملامحها، لتقترب منها وتسألها بارتباك:
_مالك؟

نعمة:الطلق يا ليالي، جالي الطلق، يا لهوي، الحقوني بولد!

نظرت أم الديب إلى نعمة بفزع، وسألتها بنبرة متوترة:
_مالك يا بت؟

نعمة:بموت ياما، الحقيني!

أقبل جلال وأحمد وزوجها حامد وباقي الرجال مُسرعين، بعدما سمعوا نواح نعمة الحار يتردد في الشقة، وقد بدت عليهم علامات الخرع. وقف جلال أمامها في حالة من الصدمة التي تملأ ملامحه، وسألها:
_مالك يا نعمة؟

نعمة:ودوني المستشفى بسرعة!

أطلق حامد ضحكة خفيفة، تحمل في طياتها سخرية، وقال بنبرة لاذعة:
_شكلها جاتلك يا نعمة.
سألت "أم الديب" "حامد" باستغراب:
=ايهي هي إيه اللي جاتلها يا ولا؟

أم الديب الجزء الثالث

حامد بمزاح:الحالة.
أم الديب بعجيج:حالة إيه يابن المعبوطة؟ دهي بتولد !

ثم أردفت لجلال بارتياع:
=اسندها يا جلال انت وأخواتك بسرعة!
قالت ليالي برهبة، وهي تحاول أن تخفي مشاعرها المتخبطة:
_متخافيش يا نعمة، ربنا يكتبهالك ساعة سهلة قادر يا كريم.

نعمة بصراخ:آه يا بطني!

قالت هايدي بفزع، يتجلى على ملامحها الخوف من فكرة الزواج، وكأنها تواجه عاصفة من المخاوف الداخلية:
_أنا مش عايزة أتجوز، أنا غيرت رأيي !
قال جلال لحامد باستعداد لإسناد نعمة، وقد تجلت على وجهه ملامح الجدية، معبرًا عن استعداده لتحمل المسؤولية في هذه اللحظة الحرجة:
_إيدك معايا يا حامد!

حامد باستعداد:توكلنا على الله.
أسند جلال وحامد نعمة بكل عناية، ونزلا بها على أقرب مستشفى، حيث كانت نعمة تعاني طوال الطريق من آلام الطلق المفاجئ الذي لم يكن في الحسبان، وكانت أنينها يتردد في الأجواء، مما زاد من خوفهم على سلامتها. وعندما وصلوا إلى المستشفى، لم تتردد أم الديب في الاتصال بأم قمر الدين، لتخبرها بأنهم في أمس الحاجة لدخول المستشفى في هذه اللحظات الحرجة. هناك، كان الدفع مسبقًا، وهو أمر مختلف عن العديد من المستشفيات الأخرى. لم تتأخر أم قمر الدين في الاستجابة، فقد أرسلت إليهم مبلغ الولادة مع السائق، ليكون دعمها دليلًا على تضامنها في هذه الأوقات اللصبة. وفي غرفة المستشفى، عندما كشف الطبيب على نعمة، تأكد أنها تعاني من طلق مبكر، وهو ما زاد من سرعة الإجراءات الطبية. علقت الممرضة لها الكانيولا في يدها، واستعدت الطاقم الطبي لدخولها غرفة العمليات. بينما كانت أم الديب تستمع إلى صرخات نعمة التي تعكس آلامها من داخل غرفة العمليات، قالت بصوت يملؤه القلق، تعبر عن شعورها بالعجز تجاه ابنتها:
_أسترها عليها يارب، دهي بت غلبانة، اكتبلها ساعة سهلة، دهي مش هتستحمل، يارب.
قالت ليالي بخوف، وقد ارتسم على وجهها القلق، وكأنها تواجه عاصفة من المشاعر المتناقضة:
=إن شاء الله هتقوميلنا بألف سلامة يا نعمة.
سأل جلال ليالي، وقد تجلى في عينيه اهتمام حقيقي، قائلًا:
_هي في الشهر الكام؟

ليالي برهبة:في أول السابع، كان فاضلها شهرين، ياريتها ما جات معانا مكنش كل ده حصل.

أم الديب الجزء الثالث

دعا حامد دعوة عجيبة، إذ قال بتمني يختلط فيه الأمل مع الخوف:

_يارب يجي واد.

سألت "ليالي" "حامد" باستغراب:

=واد ازاي؟ هو مش الداكتور قالكم بت؟

حامد بتمني:أيوه قال، بس ياريت يجي واد.

في خضم الأحاديث المتشابكة في شقة هايدي، عبّرت جميلة عن مشاعرها الصادقة تجاه الأوضاع المحيطة بنعمة، حيث بدا أن ما حدث لها قد أثر بشكل كبير على الجميع. كان التأثر واضحًا في عينيها، وهي تشير إلى صعوبة ما تمر به. أما هايدي، فقد كانت ترفض فكرة الزواج، لكن توترها كان يجعل كلماتها تتلعثم. عندما حاول زياد استيضاح موقفها، تسرب الخوف من قلبها إلى صوتها. تدخل حسين ليعبر عن تفهمه لمخاوف هايدي، متحدثًا عن الصعوبات التي تواجه الأمهات وكيف أن قدوم الحياة الجديدة لا يأتي دائمًا بالسهولة التي قد يتصورها البعض. تساندت جميلة مع هايدي، مؤكدة لها أن الخوف شعور طبيعي، مطمئنة إياها بأن الأمور ستتجاوز هذا الظرف الحرج. ومع ذلك، تواصلت مشاعر الإحباط لدى هايدي، حيث لم تتمكن من السيطرة على دموعها. كان زياد يحاول الحفاظ على هدوئه، لكنه شعر بالخذلان عندما بدأ يتحدث عن خططهم المشتركة، متسائلًا عن سبب تغيير رأيها في اللحظة الأخيرة. كان يعبر عن حيرته، بينما هايدي تأمل في تأجيل الزفاف، ربما لتأخذ وقتها في معالجة مشاعرها وفهم ما يجول في خاطرها.

يتبع.....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل السادس والعشرون

كان الخوف في صدر هايدي كالطوفان الجارف، لا يُوصف ولا يُقاس، فهي التي طالما رفضت فكرة الزواج بتصميمٍ لا يلين. ولكن حين قبلت أخيرًا، اصطدمت بعقباتٍ لم تكن في حسبانها، وكأن القدر يختبر إصرارها بتحديات جديدة. ومع ما مرت به نعمة خلال حملها وما انبثق من آلامٍ وعقدٍ إضافية، ازداد رفض هايدي، واستحال إلى اعتراضٍ قاطع لا رجعة فيه. حاولت العائلة التخفيف عنها، لكنّ حادث نعمة جاء كظل ثقيل ليجعل الأجواء أكثر كآبة، وبينما كانت هايدي تبكي بشدة، انطلقت جميلة بضحكةٍ عالية، أثارت دهشتها فسألتها باستغراب:

_مش معقول يا هايدي، للدرجة دي أعصابك تعبانة؟ تعالي معايا بس وسيبك من كل ده!

نهضت جميلة من على الأريكة بثبات، واتجهت نحو هايدي وجذبت ذراعيها برفق، لتأخذها إلى شقتها، حيث يمكن لهما أن يجلسا ويتحدثا بحرية أكثر، بعيدًا عن أعين الفضوليين، وبصحبة بناتها، سارت معها إلى الشقة، حيث اجتمعن في لحظاتٍ من الفضفضة، وفي أروقة المستشفى، عاشت العائلة دقائق من الترقب، إذ كانت نعمة تصرخ داخل غرفة العمليات، تتصارع مع آلام الطلق المبكر، وكأنّ كل لحظة تمرّ تصب في جسدها ألماً أشدّ من السابق. لكنها ولدت بسلام بعد معاناة، لتخرج الممرضة مبتسمة وهي تحمل بين يديها الطفل الذي يشعّ حياة، وما إن وقعت أعين أم الديب وليالي عليه، حتى انطلقت الزغاريد من حناجرهما، كأنما تهلّل للفرح المنتظر، وابتسمت الممرضة وهي تقترب نحو ليالي لتسلمها الطفل، وقالت بوجهٍ يفيض بالسرور:

_ولد، يتربى في عزكم.

رفع جلال حاجبيه باندهاش، وكأن السؤال قد أطلّ على لسانه دون إرادة منه، وأطلق نظرة استفسارٍ تُضيء وجهه بتعجّب، قائلًا:

=ازاي؟

نظرت ليالي إلى الممرضة بعينين متسعتين من الدهشة، وكأنها تحاول استيعاب ما تراه أمامها، وقالت بنبرة يغمرها التعجب:

_بس الداكتور قال إنها حامل في بت!

الممرضة بتبسم:ساعات بيحصل لغبطة وبيطلع العكس.

انطلقت الزغاريد من لسان أم الديب كالشعاع المتوهج، يغمر المكان بفرحٍ لا يُضاهى، وهي تهلل بسعادة غامرة لأن ابنتها نعمة باتت الآن تملك ولدان، كأنما اكتملت صورة الحياة في عينيها، ولم تفوّت الفرصة، فتسللت إلى كلامها كلمات مقصودة بدهاءٍ، موجّهة نحو ليالي بلمسات من الكيد المحسوب، وقالت بصوت يفيض بالمكر:

_بتي جابت واد وبقى معاها وادين، مش واد وبت زي ناس!

أم الديب الجزء الثالث

انطلق رد ليالي كالسهم الصائب، يخترق جبهة أم الديب ويصيبها في مقتل، فقد استحضرت بقسوة من تفضلها عليها، ملمّحةً إلى أنها، رغم سعادتها بالولد والبنت، تبقى جميلة محرومة من الذكور كليًا.
وجاءت كلماتها مغلفة ببغضاء، كأنها ترد الضربة بمثلها، قائلة بنبرة قاسية:
=مش أحسن ما يبقى بتين زي ناس؟

أم الديب بغيظ:ايهي مالك ومال جميلة يا بت الكلب؟

تقدمت أم الديب نحو ليالي بخطوات بطيئة، ونظرة مشتعلة، كأنما تريد أن تطأ كبرياءها فوق رأسها، لكن ليالي خطت خطوةً للخلف، محاولةً تفادي المواجهة، وجاء ردها متلعثمًا، وقالت بتوتر:
_وأنا كنت جيبت سيرة الحاجة جميلة؟

أم الديب بصياح:مفيش غير جميلة هي اللي معاها بتين، انتي فاكرة نفسك بتكلمي واحدة عبيطة يا بت ولا إيه؟
ليالي بصخب:لا بقولك إيه أنا مقولتش حاجة ولا جيبت سيرة حد! انتي هتقوليني كلام مقولتوش ولا إيه؟

خرجت الممرضات يدفعن السرير الذي تستلقي عليه نعمة، غارقة في نوم عميق، وكأنها قد انفصلت عن هذا العالم بفضل تأثير المخدر الذي أبعدها عن كل ألم وأخذها إلى عالمٍ آخر من الهدوء، وفي تلك اللحظة، تقدم حامد وأخذ طفله من يدي ليالي برفق، ونظر إلى ملامحه الصغيرة بفرحةٍ تغمر قلبه، ثم قال بابتسامة تشع بالسرور:
_يامانت كريم يارب، كان قلبي حاسس إنه واد.
اندفعت العائلة بخطوات سريعة خلف السرير الذي يحمل نعمة، إلى حين أدخلتها الممرضات إلى غرفتها، حيث وضعنها بلُطف فوق سريرها، ثم شرعت إحداهن في تثبيت الإبر اللازمة قبل أن تغادر، تاركة الغرفة مكتظة بالأهل. اقتربت أم الديب من ابنتها بوجه يشع بالفرح، وزغردت بصوتٍ عالٍ، كأنما تعلن انتصارًا طال انتظاره، ثم نظرت إلى نعمة بعينين يفيض منهما السرور، وقالت لها بابتسامة:
_بت يا نعمة، ألف مبروك يا بت، جيبتي واد!
لكن نعمة كانت غارقة في سبات غائر، لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم، محاطة بتأثير التخدير الذي زجّ بها في نوم عميق، بينما كان صوت المولود يملأ الأجواء بالصراخ، ويُبث الفرح بين أفراد العائلة الذين كانوا يتناوبون على حمله بحب، وكأن السعادة قد تضاعفت لتصبح اثنين. نهض جلال من على الكرسي بخطواتٍ حماسية، ورفع هاتفه ليعقد اتصالًا بأحمد، عازمًا على مشاركته هذا الخبر السعيد الذي أسعدهم جميعًا. وكانت الأسرة قد انتقلت من شقة العروس إلى شقة أحمد، حيث اجتمعوا حول التلفاز في أجواءٍ مفعمة بالحب، وعندما استجاب أحمد للمكالمة، لم يتمكن جلال من كبح غبطته، فقال له بحماسة:
_ألو ياض، بلغ الموجودين إن أختك جابت واد.

أحمد بسرور:طب ألف مبروك، يتربى في عزهم.

جلال بفرح:الله يباركلك، بلغهم بقى.
أحمد بسعادة:ماشي.

انتهت المكالمة، ووجد أحمد نفسه محاطًا بنظرات الترقب من جميع أفراد العائلة، الذين كانوا يتوقون لسماع الأخبار السارة. ثم، بعباراتٍ مشبعة بالفرح، أوصل ما كلفه به جلال، قائلًا للجميع بصوتٍ يفيض بالحماس:
_نعمة خلفت ولد.
لكن هذه الأخبار جاءت كالصاعقة على قلوبهم، فقد كانوا طوال الشهور الماضية يعيشون في وهم أنها ستنجب فتاة، بل إن نعمة قد قامت بشراء ثيابٍ مخصصة لها، استنادًا إلى حديث الطبيب الذي زاد من يقينهم. لم تتمكن هايدي من استيعاب كيف حدث هذا التحول المفاجئ في ليلة وضحاها، فبرزت عليها علامات الدهشة، لتقول بذهول:
_ازاي؟ دي كانت حامل في بنت!
سأل حسين بقلق، وبتعبيرات توحي بمدى استغرابه من المفاجأة، قائلًا:
=اتبدلوا ولا إيه؟
لكن جميلة، التي كانت واعية بحقيقة الواقع، علمت أن مثل هذه الأخطاء الطبية قد تحدث بشكل متكرر في مناطق الريف، حيث لا يزال التقدم التكنولوجي غائبًا عنهم كما هو الحال في المدينة. لذا، تحدثت إلى هايدي بنبرة تحمل بعض الاعتياد، قائلة:
_عادي يا هايدي، أوقات السونار بيغلط.

هايدي بغبطة:المهم إنها قامت بالسلامة، الحمدلله.

في غرفة المستشفى، بدأت نعمة تستعيد وعيها تدريجيًا من آثار التخدير، حيث بدأت تدرك ما حولها بعد لحظاتٍ من الخرف والانفصال عن الواقع. راحت تسرد بصوتٍ متقطع تفاصيل خاصة تجمعها بحامد، ما جعل وجوه الجميع تشتعل خجلًا، باستثناء أم الديب التي لم تتوقف عن الزغردة فرحًا، كأنما تغمرها موجات من السعادة العارمة. أما الطفل، فقد تم نقله إلى الحضانة لمراقبته بعناية، خاصةً أنه وُلِد في الشهر السابع، وعندما انفتحت عينا نعمة، وجدت أم الديب أمامها، مغمورة بالسعادة، تقول لها بسرور:
_مبروك يا نعمة جيبتي الواد!

نعمة بصدمة:واد؟ واد ازاي؟ أنا كنت حامل في بت!

انفجرت ليالي ضاحكة، وقد ارتسمت على وجهها الغبطة الحقيقية، ثم توجهت إلى نعمة بنبرة مرحة مليئة بالحب، قائلة:
_عادي يا نعمة بتحصل في أحسن العائلات، المهم إن ربنا نتعك بالسلامة .

نعمة بقلق:الواد فين طيب؟

أم الديب الجزء الثالث

رد حامد بفرح، وقد تراقصت مشاعر السعادة في صوته، قائلًا لنعمة:
_دخلوه الحضانة أصله ابن سبعة.

نعمة بصراخ:يا مصيبتي! وهيفضل فيها لحد امتى؟

ارتعدت نعمة خشيةً على طفلها، حيث تمنت لو تستطيع ملامسته، وشعرت بلهفةٍ عارمة لرؤية وجهه، لتستشعر لحظة اللقاء الأول بينهما. لكن قلقها بدأ يطغى على ملامحها، وتحولت مشاعرها إلى حزنٍ. حينها، اقتربت منها ليالي، محاولةً طمأنتها، وقالت لها:
_هيقعد سبع أيام في الحضانة وبعدين يبقى في حضنك... أما قوليلي هتسميه إيه؟

نعمة:هسميه عمر.
ليالي بسعادة:يتربى في عزكم يارب.

في هذا اليوم المليء بالأحداث، قرر أحمد أن يوصل أخته هايدي وزياد وعمه حسين إلى القرية. لقد غادر باقية الأقارب القرية بعد ما حدث لنعمة، بما في ذلك أبو محمد الذي لم ينتظر حتى رؤية حفيد أخته الجديد. في تلك الأثناء، كانت ليالي قد باتت مع نعمة في المستشفى، تُظهر لها كل الدعم الذي يمكن أن تقدمه، رغم أن روابط الدم بينهما كانت غير موجودة. عاد جلال مع المعلم حنفي، وأم الديب، وحامد، حيث أحضروا معهم الأطفال الذين أضفوا جوًا من الضوضاء على المنزل. حينما دقت ساعة الثامنة صباحًا، عاد أحمد إلى منزله، منهكًا بعد ليلةٍ مضنية، ليستقر في سريره ويغفو في نومٍ عميق ليزيل آثار التعب الذي خيم عليه. في صباح ذلك اليوم الجديد، استعد جلال، وحامد، والمعلم حنفي للذهاب إلى المستشفى لإحضار نعمة، وليالي، تاركين الأطفال مع أم الديب التي تفرغت لرعايتهم. قبل مغادرة نعمة من المستشفى، كانت تتوق إلى إلقاء نظرة أخيرة على مولودها، عمر، الذي وُضع في الحضانة. اقتربت من الزجاج، وقلبها يمتلئ بالمشاعر المتناقضة، حيث كانت ترى الأجهزة الطبية المحيطة بذلك الطفل الصغير الذي لم يتمتع بعد بدفء أحضانها.

أخذت لحظةً لتتأمل وجهه البريء، شعور بالحنين يملأها، وتمنت لو كانت قادرة على احتضانه، لكن الظروف لم تسمح لها بذلك بعد. ومع ذلك، كانت تأمل أن يخرج من الحضانة قريبًا ليكون بين ذراعيها. بعد هذه اللحظات المؤثرة، حملت نعمة على الأكتاف، وعادوا جميعًا إلى منزلهم في قرية أبو حلاوة. مر على هذه الأحداث تسعة عشر يومًا كانت تمر وكأنها شريطٌ من الذكريات المتراكمة، حيث قضت نعمة أيامها على السرير في حالة من الاسترخاء الجبري، بينما كانت الممرضة تأتي يوميًا من القرية لتقدم لها الإبر المسكنة، كأنما تمسح بها آلامها. كان حامد معتادًا على الذهاب للعمل كل يوم، ولكنه لم يكن يغفل عن صنع حساء الخضروات لنعمة، لتكون مغذية، ثم يقضي باقي اليوم في العمل، تاركًا ليالي أو هايدي لرعايتها. أما هايدي، فقد اتفقت على جميع مستلزمات زواجها، واشتريت فستان الزفاف الذي أخفته في خزانة ثياب نعمة، خوفًا من أن تُثير أم الديب ضجة كبيرة إذا رأت الفستان في غرفتها، فتبتكر مصيبة

أم الديب الجزء الثالث

كبرى كما هو معتاد. كانت هايدي تسعى جهدها لإبعاد الأمور عن والدتها بطرق شتى، وذات يوم، أثناء صعودها إلى السطح لتلقي الحبوب للبط كما أمرتها أم الديب، وجدت نفسها في مواجهة مع نسيم القرية الذي تدفق على سطحهم الصغير. لكن ما إن رفعت نظرها، حتى أصابتها صدمة مروعة، إذ رأت أم الديب قد وضعت طبقًا من الأطباق الثمينة التي كانت في جهازها، ليأكل فيه البط. شعرت هايدي بصدمة تعصف بمشاعرها، بينما كانت تراقب أشيائها الثمينة تُستخدم بشكل غير متوقع، وقد جالت في خاطرها أفكار مضطربة، حيث تحدثت مع نفسها بعجيج من الاحتدام:
_يا نهار أسود! ده الطبق بتاعي! إيه اللي جابه هنا؟ وأتاريني عمالة أدور أدور أدور ومش لاقياه، لدرجة إن أنا فكرته اتسرق، وأهو طلع مسروق فعلًا، ماشي يا ماما!
نزلت هايدي مرة أخرى إلى حيث كانت أم الديب، التي جلست على الأرض في الصالة، تعجن الخبز البلدي اليابس في وعاء ستانلس غير طاهر، وكأنها تمزج بين القذارة والابتكار مع كل حركة. دخلت هايدي، وصاحت بصوتٍ مرتفع يملؤه الاعتراض:
_انتي حاطة الطبق بتاعي للبط ليه؟

أم الديب بتعجب:طبق إيه دهو؟
هايدي بانفعال:الطبق الدهبي اللي في جهازي!
أم الديب بكذب:محدش خد حاجة من الأطباق بتاعتك، شوفي مين اللي خده! تلاقيها ليالي الحرامية.
هايدي بجلبة:بقولك إيه! أنا الحوارات دي خلاص مابقتـ....

نظرت هايدي قبالها وجدت والدتها تعجن الخبز بالمياه حيث اعتقدته طعام الدجاج فسألت بدهشة:
_ليه القرف ده؟ ده أكل البط ده ولا إيه؟

أم الديب بعجيج:قرف لما يقرفك يا صايعة يا ضايعة ياللي مش لاقية حد يلمك، بط إيه يا بت؟ دهو بدل الكحك والبسكاويت!
هايدي بشك:يا نهار أسود، أوعي يكون ليا!
أم الديب بشح:شوفي كيلو الكحك والبسكاويت دلوقتي يعملوا كام، ده احنا صارفين على جهازك مصاريف بالعبط، ده أخواتك التلاتة مصرفوش ربع اللي انتي صرفتيه!
هايدي باضطراب:استني بس! هو احنا مش اتفقنا نجيب كحك وبسكويت وبيتيفور علشان الفرح؟
أم الديب بحدة:هي البعيدة مخها تخين؟ مآني بقولك الحاجة غالية يا بت، آني كنت هعملك شوية عجينة بالسكر وأدخلهم الفرن أهي أي حاجة مسكرة وخلاص!

هايدي بصراخ:أنا بجد زهقت، زهقت من العيشة المقرفة دي، مابقتش قادرة أستحمل!
أم الديب بصياح:انشالله عنك ما استحملتي! كلها سواد الليل وهتغوري في دار اللي ما يتسمى.
هايدي بإصرار:يوه، أنا عايزة كحك وبسكويت لفرحي، مليش دعوة!
أم الديب بفظاظة:ده اللي عندنا إن كان عاجب يا بت، واعملي حسابك الرجالة هيجوا يفكوا أوضة نومك عشان هبيعها وأفتح أوضتك على الصالة أوسعها!

أم الديب الجزء الثالث

هايدي بصدمة:يا نهار أسود، أمال هانام النهارده فين؟
أم الديب بصخب:اطلعي نامي عند أي حد من أخواتك، ده آني مستحملاكي طول السنين اللي فاتت وحاطة فردة شبشب في بوقي!
هايدي بصراخ:يارب صبرني بقى ده إبتلاء، والله إبتلاء!

دخلت هايدي الغرفة مُنزعجة، وأوصدت بابها بقوة، بعد عجيج حار دام بين الطرفين، تاركة خلفها أصداء الجدل. كانت نعمة نائمة على السرير، والجروح قد بدأت تلتئم ببطء، بينما كانت تحتضن ابنها عمر الذي خرج للتو من الحضانة. إلى جانبها، كان ابنها محمد ينام بهدوء، بينما كان زوجها حامد يُقدم لها كل ما تحتاجه خلال هذه الفترة الحرجة، حيث جاء يحمل الطعام، الذي كان يتألف من حساء لسان عصفور، ودجاج مسلوق. جلس حامد على طرف السرير، ووضع الصينية برفق على ساقيها، فأشارت نعمة إلى امتنانها العميق لجهوده، قائلة:
_تسلم إيدك يا حمو.

حامد ببشاشة:بألف هنا وشفا.

بعدما نظرت نعمة في الأطباق واكتشفت صنف اليوم المكرر منذ ولادتها، ارتسمت على وجهها ملامح من الاستياء، ثم قالت لحامد برفض:
_يا لهوي، فراخ مسلوقة تاني؟

حامد بلين:دي أوامر الداكتور يا نعومي، قال لازم تعيشي على الأكل المسلوق لحد ما الجرح يلم.
نعمة بتفكير:بس غريبة محستش بألم المرة دي، هو انتوا دفعتولي فلوس الولادة بدون ألم؟
حامد بوضوح:ست بسملة هي اللي لما عرفت دفعت.
نعمة باستغراب:ده امتى ده؟ وازاي محدش قالي؟

حامد:أهي جات وخلاص، بس للأمانة دي ست محترمة وكريمة كرم مالوش نهاية!
نعمة بإعزاز:إن جينا للحق، فهي ست طيبة واللي في إيديها مش ليها، ده ياريت أمي كانت زيها.
حامد بضحك:زيها إيه بس يا نعومي؟ ده فرق السما من الأرض!
نعمة بحسرة:محدش فينا بيختار أهله يا حمو... كلنا جينا الدنيا دي ولاقينا أهالينا زي ما ربنا كاتب إننا نلاقيهم، الأهل دول حظوظ، اللي أهله أغنيا، واللي أهله فقرا، واللي أهله طيبين، واللي أهله بتوع مشاكل، وأنا وقعت في أم فقيرة بتاعة مشاكل ومع ذلك راضية وبقول الحمدلله.
حامد بلين:بكرا أمك تتهد لما تعجز، مش هيبقى فيها حيل للمشاكل... المهم كُلي علشان تعوضي اللي جسمك محتاجة!
نعمة:ماشي يا حمو، الحمدلله أحسن من مفيش.

أم الديب الجزء الثالث

حمل حامد الطفل بين يديه، مُتيحًا الفرصة لنعمة لتناول الطعام بأريحية، وكأنما يُعبر عن دعمه لها في تلك اللحظة، ومع مرور الأيام، اتضح أن ليلة الحناء لم تكن ضمن خطة المناسبات، فاكتفت هايدي بيوم عقد القرآن وليلة الزفاف فقط. كان يوم عقد القرآن مفعمًا بالبهجة التي تغمر كل سنتيمتر من المنزل، حيث اجتمعت العائلة والأقارب في جو من الاحتفالات. ارتدت هايدي فستانًا أبيض بسيطًا، يُبرز جمالها بوضوح، ووضعت مكياجًا خفيفًا يُضفي على وجهها لمسةً من البريق. تم اللقاء في المسجد، حيث حضر المأذون الشرعي ليبدأ في نطق الصيغة الرسمية لعقد الزواج. كان العريس، زياد، يرتدي بنطالًا أسود وقميصًا أبيض، ويظهر بمظهرٍ أنيق ومهندم. بينما كانت ليالي وجلال مشغولين بتوزيع المشروبات والحلويات على كل الحاضرين، حاولوا خلق أجواء من المودة. أما نعمة، فقد جلست في مكانها، تشعر بالتقيد، فلا تجرؤ على الحركة بحرية، ومولودها في حقيبته فوق ساقيها. كان المعلم حنفي وحسين جالسين على يمين ويسار المأذون الشرعي، يحضرون تلك اللحظة المهمة بعناية. أمامهم، كان هناك منديل مكتوب عليه اسم "زياد وهايدي" وتاريخ هذا الحدث الهام، محاطًا ببعض القلوب التي ترمز إلى الغرام، مما غمر الأجواء بالتمنيات الطيبة. تخلل الجو أصوات التهاني، بينما كانت عائلاتهم تتمنى لهم حياة مليئة بالهناء. كانت المشاعر مختلطة، ورأس هايدي يدور بها ذكريات منذ أول مشكلة حجزتها عن قبول فكرة الزواج، حتى ظهر زياد في حياتها ليغمرها بالمحبة، وبلمساته التي جعلت قلبها يرفرف فرحًا. كان الحب عجيبًا، لكن ما هو أعجب منه هو ذلك الرفض الذي تحول إلى موافقة بفعل العشق، وكأنما كان القلب يكتب قصة جديدة لم تتوقعها. بدأت أيد حسين والمعلم حنفي تتشابك، مغلفة بمنديل عقد القرآن، بينما كان المأذون الشرعي يلقنهم الكلمات التي ينبغي أن يقولوا، حيث كانت الأصوات تتعالى بدعوات الخير. حينما انتهوا، مضت هايدي على قسيمة الزواج، وبصمت عليها هي وزياد، كأنهما يبصمان دلالة الهوى في علوها. بعد الانتهاء، كان قول المأذون: "بارك الله عليهما وجمع بينهما في خير"، كأنما هو طربٌ يطرب الآذان. تفاعلت الأجواء مع زغاريد النساء التي تعالت لتجلجل أنحاء الحي، وكأنما كانت تبشر بقدوم فصل جديد من السعادة. التقت عينا زياد بمعشوقته هايدي، حيث انطلقت إليهما أحضان عميقة، تصف النهاية السعيدة لحبهما. كانت الدموع تتدفق من عيني هايدي بقوة، تحمل معها فرحة لا توصف، حتى تبادلت العناق مع نعمة وليالي، اللتين شاركتاها هذه اللحظة الفريدة. وفي زوايا المسجد، كان الرجال يعانقون بعضهم البعض في بهجة. توالت التهاني والتبريكات من كل جانب، حيث انطلقت أصوات الضحك في كل الأرجاء، لتُرسم في الأذهان ذكريات لا تُنسى. احتفل الجميع بهذا اليوم المميز، كأنهم كانوا يحتفلون بربيع جديد يزهر في قلوبهم.

في ليلة الزفاف، استيقظت هايدي بحيوية، وقد شعرت بأنها جاهزة ليوم سعادتها الذي سيتشكل فيه العديد من الذكريات الجميلة. كان جسدها يلمع بفضل جلسات العناية بالبشرة التي أعدتها سابقًا، كأنما كانت تتأهب لتكون نجمة تتألق في سماء تلك الليلة. أول ما فعلته كان الوضوء، ثم فرشت سجادتها، داعية الرحمن أن يمر اليوم على خير ويسعد قلبها. بعد ذلك، نهضت لتتناول وجبة خفيفة، ثم انطلقت برفقة ليالي ونعمة إلى مقر خبيرة التجميل، حيث كانتا تشعران بالفرح. كانت أجواء السعادة تتعالى مع الأغاني والزغاريد التي صدرت من أفواه نعمة وليالي، بينما كانت هايدي تستعد لوضع المكياج الذي سيجعلها مميزة في ذلك اليوم. في القاعة، كانت العائلة والأقارب جالسين في انتظار العروسين، وتبث في الأجواء فرحة الاستعداد لاستقبال المناسبة. للمرة الأولى، وضعت أم الديب مكياجًا، لكن مظهرها لم يكن

أم الديب الجزء الثالث

متلائمًا كما كانت تأمل. بالطبع، دعت أم قمر الدين، التي كانت من أول الأشخاص الذين يجب أن يحضروا بفضل كثرة أفضالها على العائلة. كل سيدة كانت مشغولة بذاتها، حتى وإن كان الشكل غير ملائم، حيث كن يحاولن أن يظهرن بأفضل صورة في هذا اليوم. في هذا الوقت، كان زياد وهايدي في جلسة تصوير، حيث كان المصور يوثق لهما كل لحظة جميلة من تلك الليلة المميزة، وكان الضوء الخافت يغمر المكان حيث كانت الشمس تغرب لتحل عتمة الليل مكان النهار. بينما كانت أم الديب قد توجهت للجلوس على منصة العروسين، اقترب منها حمود، الذي كان يرتدي بنطالًا أسود وقميصًا أبيض، وقد ارتسمت على وجهه السخرية. تمتزج ضحكاته مع أنغام الموسيقى الهادئة التي تعزف في القاعة، حيث قال لها بأسلوبه الفكاهي:
_انتي قاعدة على الكوشة ليه يا ستي، انتي فاكرة نفسك عروسة؟

أم الديب بدلال:ايهي ومعملش نفسي عروسة ليه يا ولا؟ ده آني حلوة وطِعمة، اسم الله عليا هتحسد.
حمود بتهكم:شكلك وحش يا ستي، بقيتي شبه القرد!

قال حمود هاتين الكلمتين، ثم انطلق يجري بعيدًا، بينما تجمدت أم الديب في مكانها، وقد اتقد في داخلها السخط، وكأنها شعلة من النار تنبعث من عينيها. نادته بصوت غليظ، ينم عن استيائها، قائلة له:
_يلا يابن الكلـ* من هناهو! عيل صايع زي أبوه، وعرة زي أمه بت دباح الحمير.
اقتربت سعاد، التي كانت ترتدي عباءة سوداء مزينة بإكسسوار ذهبي يوحي بالطابع الريفي الأصيل، لتسأل أم الديب في دهشة:
_انتي قاعدة هنا ليه يا بسمة؟

أم الديب:آني شوقي كِدِه.

بينما كانت نعمة جالسة مع ليالي على الطاولة، حيث كانتا تتألقان في أبهى صورة، إذ اجتهدتا كثيرًا ليظهرا بهذا الشكل الجميل، كانت نعمة تظل ثابتة في مكانها دون أن تتحرك، حيث لم تكمل بعد ثلاثين يومًا منذ ولادتها، مما جعلها لا تزال تمر بفترة النفاس، ورغم ذلك كانت تشعر بضرورة حضور زفاف أختها ومشاركتها في هذه اللحظات السعيدة. ثم نظرت ليالي إلى نعمة، وقد غمرها الفضول، فقالت لها:
_أنا في سؤال محيرني!

نعمة باهتمام:سؤال إيه؟
ليالي بمِريَة:هما جابوا كل الفلوس دي منين؟ أصل أنا شايفة يعني إن القاعة دي فخمة.

قال جلال بتأكيد، وقد بدت عليه ملامح الثقة:
_الواد زياد نايم على مبلغ وقدره، أبوه مأمنه التأمينة التمام، مش زيي لما جيت أتجوز ملقيتش اللي يديني!
ردت نعمة على حديث جلال بدهشة، وقد تجلى في عينيها استغراب، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

=ملقتش اللي يديك إيه يا جلال؟ أمال ست بسملة اللي اديت أمك الفلوس وانت لهفت نصها، ولا انت نسيت؟

جلال:طب وربنا ما يجوا حاجة في اللي مع عمي حسين، دول راحوا على بناية الشقة، أنا لو معايا مبلغ حلو كان كفى الشقة والفرح والجوازة من بدايتها لآخرها.
نعمة بمزاح:والنبي لو كان معانا فلوس، برضة ما كانت أمك اديتك حاجة.
جلال بضحك:أمي هتعيش وتموت بخيلة.

نظرت ليالي إلى أم الديب، التي اعتقدت أنها لا تزال صغيرة، تتدلل وكأنها تعيش في عالم الشباب، على الرغم من أن سنها قد تجاوز الخمسين عامًا، وملامحها الصارمة التي لا تتجانس بأي شكل من الأشكال مع الرقة التي تسعى لإظهارها. فابتسمت ليالي بسخرية، وقالت:
_وهي مالها قاعدالك في الكوشة ليه؟ فاكرة روحها عروسة؟
كان المعلم حنفي وحسين وأبو محمد جالسين على طاولة أخرى في القاعة، يتبادلون الأحاديث والابتسامات وسط أجواء الفرح والاحتفال. كانت الأنوار تتلألأ في القاعة، وزغاريد النساء تملأ الفضاء، مما زاد من بهجة الحفل. استدار المعلم حنفي إلى أخيه حسين، مرسوم على وجهه الفرح والسرور، وقال له:
_أهو جه اليوم اللي هتشوف ابنك عريس فيه !

حسين ببهجة:الحمدلله إنه جه وأنا عايش، بس اللي عمري ما كنت أصدقه يا حنفي إن أنا وانت نحط ايدينا في ايد بعض في يوم من الأيام... ده أنا لو كان حد بصملي بالعشرة شمع ما كنت هصدقه !
المعلم حنفي بأسى:ليه بس، مش قد المقام ولا إيه؟
حسين بزهزقة:لا قد المقام ونص كمان، بس بيني وبينك أنا مكنتش مقتنع بسبب مراتك... ماهو أصل ده ابني الوحيد برضة ولازم أخاف عليه.
المعلم حنفي باطمئنان:ليك حق تخاف، بس أنا حاسس إن الولية مش هتعمل حاجة، ولسبب واحد! إن هايدي محدش هيشوف وشها بعد ما تتجوز، أصل هي وأمها ناقر ونقير.
حسين بهاجس:طب هايدي مش هتروحلكم...أمها بقى مش هتروحلها؟
المعلم حنفي:لا هتروح، أصلها ولية تنحة معندهاش دم.

رفع المعلم حنفي ذراعيه لأعلى، وكأنه يستغيث بربه في لحظة تأمل، قائلًا بحسرة تملأ صوته:
_يارب انت المُعين، ارحمنا منها!

بعد ساعة من الاحتفال، توقفت الموسيقى الهادئة لتتحول إلى نغمات أكثر حماسًا على أنغام أغنية "أدخلي عمري" للفنان حسين الجسمي، التي بدأت بكلمات تفيض بالمشاعر: (ألف صلاة ألف السلام، على الحبيب خير الأنام، أدخلي عمري بخطوتك اليمين، اضوي أيامي وعتمات السنين، قرة عيوني بشوك مقبلة، يالملاك اللين العذب الرزين، اسمعي نبضي ورا صوت الدفوف، من لمحتك ضيع الشوق

الحروف). عندئذٍ، انفتحت الأبواب في القاعة، لتُسلط الأضواء المتلألئة على كل من كان حاضرًا، بينما انطلقت الألعاب النارية في القاعة، وفي تلك اللحظة، ظهر زياد وهو يرتدي بدلة سوداء أنيقة، مع فيونكة تتناغم مع مظهره، بينما كانت هايدي تتشبث بذراعه، متألقة في فستان زفافها الأبيض الذي يُشع بالأضواء، وقد زينت رأسها بطرحة طويلة وتاج فضي، مع مكياج لامع يُبرز ملامحها الجذابة. كان هذا المشهد مهيبًا، يشرح القلوب قبل الألسنة، حيث تجلت الفرحة في عيون الحضور وتسللت إلى أرواحهم. ظل زياد وهايدي يتقدمان بخطوات واثقة، حتى وصلا إلى مقاعدهما، حيث تركزت الأعين عليهم بكل حب وتقدير. ومع تغير الموسيقى إلى لحن أغنية "على دربك"، انطلقت أم الديب في صرخات تتجلى فيها مشاعر الفراق، وهي تعبر عن فقدانها لابنتها، قائلة بمرارة:

_هتتجوزي يا هايدي، هتتجوزي وتسيبي أمك يا بت، هتقطعي بيا يا هايدي، يا قلب أمك يا غالية...آخر العنقود بتتجوز يا ناس!

انقض جلال نحو أم الديب، وسحبها من ذراعها بقوة، مستنكرًا تصرفها، وقال لها بصياح مرتفع:

=تعالي ياما! قال الحب مقطع بعضه.

أم الديب بنحيب:بقولك دي آخر العنقود يا ولا!

جلال باستهزاء:إيه جو سوق الفاكهة اللي احنا فيه ده؟ تعالي معايا هناك نعمة عايزاكي!

في لحظة انقضت أم الديب، حاملةً في قلبها مزيجًا من الفرح والشجن، حيث التفت بوجهها نحو أم قمر الدين، التي تألقت بفستانها الأحمر الزاهي، الذي كان كأشعة الشمس تتلألأ تحت ضوء القمر. لم يكن جمالها مقتصرًا على الفستان فقط، بل زاد من بريقها المكياج المتقن الذي أضفى عليها السحر، في حين كان أحمد، الذي ارتدى بدلة سوداء أنيقة، يبدو كالأمير في حكايات ألف ليلة وليلة، إذ جعلت تسريحته الأنيقة وشعره المصفف مثالًا للجاذبية. أما جميلة، التي كانت دائمًا محور اهتمام الحضور لما تتمتع به من جمال استثنائي، فقد زاد فستانها الفاتن، المكشوف عن الكتفين، من بريق عينيها، بينما كانت كعوبها العالية تبرز أناقتها الفائقة، وفي هذه الأجواء، كانت سيليا وأسيل ترتديان فساتين تتناسب تمامًا مع أعمارهن الصغيرة. تقدمت أم الديب نحو صديقتها، منتحبة بحرارة، قائلة لها:

_بتي بتتجوز يا ست بسملة!

أم قمر الدين بعَطف:معلش يا أم الديب، بجد أنا حاسة بيكي، أنا حصلي كده برضة لما بناتي اتجوزوا، هو احساس صعب جدًا بس هتتعودي عليه مع الوقت!

ابتسمت جميلة، وكأن وجهها يتلألأ كنجمة في سماء مُضيئة، وقالت لأم الديب:

_مبروك يا طنط.

أم الديب بابتسامة:الله يبارك فيكي يا جميلة يا غالية!

عانق أحمد والدته أم الديب، محتضنًا إياها بحنان، ثم قال لها بفرحٍ جلي في عينيه:

أم الديب الجزء الثالث

_خلاص كده انتي كملتي رسالتك!

أم الديب بحُزن:أيون ياخويا، تعالوا أقعدوا، تعالوا!

ثم أخذتهم أم الديب، كأنها قائدة فرقة موسيقية تجمع شتات الألحان، وذهبوا للجلوس على طاولةٍ خاصة بهم. كانت رائحة عطورهم الفاخرة تملأ الأجواء، وتنسج عبيرها في الفضاء كخيوط من السعادة. بينما كانا هايدي وزياد يجلسان في منصة العروسين، حيث أضاءت عيونهما بفرحة لا تُوصف. مال زياد نحوها برومانسية، كالعصفور الذي يقترب من زهرته، وقال في أذنها همسًا:
_أخيرًا وبعد طول إنتظار هيتقفل علينا باب واحد، وهنبقى مع بعض طول حياتنا!

هايدي بتتيُّم:أيوه يا زياد، انت غيرتلي نظرتي للجواز... كنت دايمًا متعقدة منه، وخايفة، ومش عارفة هل لو اتجوزت هكون مبسوطة ولا لا... بس اكتشفت إن أنا كنت غلط وإن يوم ما الواحد يلاقي نصه التاني هيغير نظرته وتفكيره الغلط وهيتنازل عن اتفاقاته اللي بينه وبين نفسه! الحمدلله بجد إنك كنت من نصيبي!
زياد بجوًى:ربنا يخليكي ليا يا هايدي ونعيش مع بعض طول العمر في سعادة وهنا.
هايدي بتمني:يارب.

بعد قليل، انطلقت أنغام أغنية "حلالي" في أرجاء القاعة، وبدأ زياد وهايدي يرقصان برشاقة، حيث وضع زياد يده برفق على خصر هايدي، ليشكل بينهما رابطًا خاصًا خلال رقصة هادئة تنم عن الألفة. كانت الأنظار متجهة نحو العروسين، إذ أضاءت شاشة العرض لحظاتهم الجميلة، بينما كانت الأضواء الخافتة والمُلونة تضفي السرور على الأجواء، وكأنها تروي قصة حبٍ نادرة. كان الأقارب يتوافدون واحدًا تلو الآخر، فينهض المعلم حنفي وحسين ليصافحوهم بحرارة، ويجلسوا معًا، تبادلًا للحديث، وبعد قليل، نهض الجميع ليرقصوا مع العريس والعروس على أنغام الأغاني الشعبية، وكان الجميع يتفاعل بشكلٍ حيوي مع الألحان. بينما كانت الأجواء تعج بالبهجة، كانت فقرة الكيك ذات الخمس طوابق تقترب، مُعلنةً عن أحد أبرز لحظات الحفل، حيث استعد العروسان لقطع الكيك سويًا، ويتذوقانه بالتبادل كرمزٍ للاشتراك في الحياة الجديدة. عندها، خرج العاملون لتوزيع الجاتوه والعصائر والساندويتشات على المعازيم، وكانت أم الديب تتناول خمس أطباق تعبيرًا عن حزنها لزواج ابنتها، وسط نظرات استغراب من الحضور. استمر اليوم مغمورًا بالرقص، حيث عبّر الجميع عن سعادتهم بطريقتهم الخاصة. كانت الأجواء ملآنة بالفرح، وهايدي كانت تتلألأ كنجمة في سماء الاحتفال، وفي نهاية اليوم، بعدما بذلوا جهدًا كبيرًا في الرقص، حان موعد ذهاب العروسين إلى عش الزوجية. نهض الجميع ليصافحوا العروسين ويودعوهم، لتتجلى اللحظات الدافئة في عيونهم. اقتربت أم قمر الدين من أم الديب، وقد حملت في يدها ظرفًا أنيقًا، وسلمتها إياه بلُطف، قائلة:
_دي حاجة بسيطة يا أم الديب، وألف مليون مبروك لهايدي.

أم الديب بحبور:الله يبارك فيكي يا ست بسملة.

بعد استلام أم الديب للأموال، اختفت فجأة من القاعة في ظروف غامضة، مما أثار حيرة الحضور وفضولهم، وكأنها انصهرت في ظلال القاعة. بينما كان العريس والعروس يغادران، اقترب أخوات هايدي منهما لتوديعهما. عانق أحمد هايدي، حيث تدفقت الدموع من عينيه كأمطار خريفية، تروي قصة فراق مؤلمة، ودّعها كما ودعت هي العزوبية، قائلًا لها بحنان:
_مش مصدق إنك اتجوزتي يا هايدي!

هايدي بنشيج:ولا أنا والله، حاسة إني بحلم.

ثم قال أحمد لزياد، وهو يحتضنه بقوة، وكأنما يسعى لاحتواء كل الذكريات الجميلة التي جمعتهما:
_خد بالك منها يا زياد وحطها في عينك، أوعى تزعلها ولا تجرحها في يوم!

زياد بفرح:متخافش، هايدي دي كل حياتي ونصي التاني، عمري ما أقدر أزعلها!

عانقت نعمة هايدي، مشبعةً عناقها بكل المشاعر المُختلطة، ثم قالت لها باستياء:
_مبروك يا قلب أختك، هتوحشيني أوي يا هايدي، يعني مش هتبقي في بيتنا تاني؟ مش هنزل عند أمي وألاقيكي؟

هايدي بسرور:هاجي أشوفكم متخافيش!

أطلقت ليالي الزغاريد، التي كانت كأصوات طيور تغرد في الفجر، وعانقت هايدي بشغف، قائلة لها:
_مبروك يا هايدي، ألف مبروك!

هايدي بسعادة:الله يبارك فيكي.

ثم عانقت جميلة العروس أيضًا، مستندةً إلى مشاعر الفرح والشجن في آن واحد، وقالت لها بثبات:
_أنا مش هعيط زيهم لأنك؛ هتكوني جنبنا وهنكون طول اليوم مع بعض!

هايدي بغبطة:صح يا جميلة عندك حق.

احتضن حسين ابنه زياد، غير قادر على فراقه، حيث كان هو الوحيد الذي تبقى له من هذه الحياة العصيبة، عكازه الذي يعتمد عليه، ومسنده الذي يقيه من الأزمات، ومقواه الذي يحنو عليه، وقال بدموع غزيرة تتساقط كالأمطار الغزيرة:
_زياد يابني أنا مش عارف أقول إيه ولا أتكلم ازاي! فرحتي بيك مش سايعاني...كبرت يا حبيبي وبقيت عريس! بقيت عريس يا زياد!

زياد بفرح:انت اللي ربيتني وكبرتني لحد ما وصلت للي أنا فيه، أنا من غيرك ولا حاجة يا بابا! ربنا يخليك ليا.
حسين باستياء:حبيب أبوك يا زياد، حبيبي!

بعد أن ودع الجميع بعضهم، توجهوا لتوصيل العروسين إلى منزلهما، حيث كانت السيارات تتسابق في الشوارع، تتعالى الأغاني الشعبية التي تملأ الأجواء بحماسٍ لا يوصف. كانت أصوات الكلكسات العالية تردد أصداء الفرح، بينما كانت الألعاب النارية تضيء السماء كأنها نجوم تتراقص في احتفالٍ كبير.
ومع ذلك، كانت النساء تزغرد فرحًا. في حين لم تتوقف نعمة عن النشيج طيلة الطريق، وكأن قلبها يحمل أعباء الفراق. لن تستيقظ نعمة في صباح اليوم التالي وتجد هايدي في غرفتها كما اعتادت. كان الفراق مؤلمًا، يمزق أحشاء روحها ويقهرها، حيث بدت كزهرة ذبلت في غياب أشعتها. في تلك اللحظة، اقترب منها حامد، الذي كان دائمًا مصدرًا للراحة، وابتسم لها، محاولًا تهدئتها، وقال:
_خلاص يا نعومي هنروحلها في الصباحية نشوفها!

نعمة ببكاء:والله دماغي ماهي مستوعبة إن هايدي اتجوزت، دي الحاجة الوحيدة اللي عمرها ما تحصل، ازاي حصلت؟!
حامد بابتسامة:أهو أمر ربنا... ربنا يفرحها.
نعمة بأمل:يارب.

وصلت السيارات أمام المنزل، حيث نزل الجميع، محملين بأجواء الاحتفال. فتحت ليالي باب السيارة للعروس، وهي تسحب فستانها نحوها برفق، مساعدتها في الخروج بكل أناقة، بينما كانت نعمة تراقبها، تتمنى لها السعادة في خطوتها الجديدة. عندما خرجت هايدي، صافح جلال زياد، مشدّدًا على أهمية الروابط الأسرية، فقال له بتأكيد:ٍ
_خد بالك منها ياض!

زياد بسعادة:حاضر.

عانق حسين ابنه للمرة الأخيرة، وكأن كل لحظة تمر تحمل معها ذكريات كبيرة، ثم قال بتأثرٍ في صوته:
_خد بالك من نفسك ومن هايدي يابني!

زياد بفرح:حاضر !

وصلت العائلة بهم إلى مدخل العمارة، حيث كانت زغاريد النساء تتردد في أرجاء الحي كأصداء فرحة، ثم غادرت العائلة، تاركةً خلفها أجواء من البهجة. صعد أحمد، وجميلة، والفتيات، والعروسين معًا في

المصعد الكهربائي، إذ كانت شقتهم بجوار شقة هايدي. نظرت جميلة إلى هايدي بغبطة، حيث ارتسمت على وجهها ملامح الإعجاب، وقالت:
_ما شاءالله يا روحي زي القمر، ربنا يسعدك.

هايدي ببشاشة:عقبال سيليا وأسيل.
جميلة بتهلل:إن شاء الله.

عندما خرجوا من المصعد الكهربائي، نظر أحمد إلى زياد بجدية، ووصاه بخصوص هايدي، معبرًا عن مشاعر الحب التي تملأ قلبه. أكد له على أهمية حمايتها في هذه المرحلة الجديدة من حياتهما، موضحًا ضرورة أن يكون لها السند الذي يعينها على مواجهة الأزمات، قائلًا له:
_طبعًا أنا مش هوصيك ده احنا شقتنا جنب شقتكم أي حاجة كده ولا كده، مش عارف إيه اللي هيحصلك!

زياد ببسمة:عمري ما أقدر أزعلها، أنا مبسوط أوي بجد!

دخل العروسين الشقة، حيث كانت الأجواء تعج بالبهجة، وأحمد وجميلة دخلا معهما ثم عادا إلى شقتهم. بينما كان زياد لا يصدق ما يحدث حوله، إذ كانت لحظات الزواج لا تزال تتراقص في ذهنه كأحلامٍ رائعة، التفت نحو هايدي، ليجدها تنتحب. تملّكته الدهشة، وشعر بقلق يتسلل إلى قلبه، فتساءل عن سبب دموعها، متمنيًا أن يكون الأمر بسيطًا، قائلًا لها:
_بتعيطي ليه يا هايدي؟

هايدي بشجن:نعمة هتوحشني أوي.

ثم دخلوا غرفة النوم، حيث استقبلتهم أجواء من الحميمية. نظر زياد إلى هايدي بابتسامة تعكس شغفه، مشاعر الحب تتأجج في قلبه، وتمنيات السعادة تملأ جو الغرفة. عبر عن سعادته بوجودها بجانبه، قائلًا لها:
_نعمة وكلهم هيجوا بكرا وعلاقتنا بيهم متقطعتش! أكيد هنشوفهم وهيشوفونا طول الوقت... انتي بس روقي كده وبلاش عياط! عايزك تدخلي تاخدي شاور علشان نصلي ركعتين لله علشان يباركلنا في حياتنا.

هايدي:ماشي يا زياد.

لا يزال زياد يفتح الخزانة ليخرج المنشفة، وفجأة، صُدم عندما رأى أم الديب جالسة داخلها، تأكل الموز والتفاح بهدوء. انقلب كل شيء في عينيه، وسقط على الأرض من الفزع، بينما تملكه ارتجاف غريب.

أم الديب الجزء الثالث

نظر إليها في ذهول، وعجز عن الكلام، متسائلًا كيف يمكن أن تكون هنا، كأنما يواجه مشهدًا غير متوقع في فيلمٍ غريب، مُتسائلًا:
_بسم الله الرحمن الرحيم، انتي إيه اللي دخلك جوا الدولاب وجيتي هنا ازاي أصلًا؟

أم الديب بسرور:هبات معاكم النهارده، مبروك يا عيال!

يتبع.....

الفصل السابع والعشرون

خرجت أم الديب من خزانة الثياب، ماضيةً في مضغ قطع الموز والتفاح بشهية لا تزعزعها أركان الغرفة، ليتفاجئ زياد بظهورها المفاجئ، فيسألها بذهول يخترق الصمت كالعاصفة، وكأنه رأى طيفًا يتجسد أمامه:

_حماتي؟

أم الديب:أه حماتك، مالك يا ولا مستغرب كدهو ليه؟
زياد باستغراب:انتي مرجعتيش معاهم البيت ليه؟

دفعت أم الديب زياد جانبًا بحدة، ثم جلست على السرير، تستجمع أنفاسها كأنها قد عبرت مسافات طويلة من الهواجس، يملؤها خوف دفين من أن يعبث زياد بسلام ابنتها في غيابها، وصرخت في وجهه، وكأن صوتها صار سيفًا يشق جدران الصمت المحيط بهما:

_آني مش هانام بعيد عن بتي! الله أعلم نيتك فيها إيه، آني مش هسيبك تستفرد بالبت! مش علشان أبوها وأخواتها رجعوا على البلد يبقى خلاص كده! لا يا ولا حط في دماغك إن ليها أهل واقفين ورا ضهرها، أه أمال إيه؟

زياد بصدمة:انتي بتتكلمي عن إيه؟ أنا مش فاهم حاجة منك، انتي ازاي تقعدي معانا واحنا لسه عرايس جداد؟

عادت هايدي إلى الغرفة بخطوات مملوءة بالحيرة، فقد كانت قد خرجت للتوّ قبل أن يقتحم زياد خزانة الملابس، ولم تجد تفسيرًا لوجود أم الديب هنا، خاصةً في ليلة زفافها، حيث كان غير متوقع أن ترافقهم إلى بيتهم الجديد. نظرت إلى والدتها بعينين يغشاهما تساؤل عميق، وقالت لها بلهجة تغلب عليها الدهشة:

_ماما؟ انتي بتعملي إيه هنا؟

أم الديب:مالك يا بت انتي واللي ما يتسمى جتتكم لبشت ليه ولا كأن حد دلق عليكم جردلماية ساقعة؟
هايدي بصياح:انتي إيه؟ مفيش فايدة فيكي؟ هتفضلي كده لحد امتى؟ يعني إيه آجي ألاقيكي هنا؟ مش المفروض كنتي تروحي معاهم من بدري؟
أم الديب بصخب:وطي صوتك يا بت الكلب! آني مش عاوزة أمد إيدي عليكي إكمنك لسه عروسة، متخليش الناس تتلم على زعيقنا! إلا وحياة النعمة دهي أقلع اللي في رجلي وأنزل بيه على نفوخك!

فقد زياد سيطرته على أعصابه، واندفع صوته بقوة تهز أركان المكان، كأن نبرة السخط فيه تُصعّد نارًا مكتومة كانت تتأجج في صدره، وصاح بحدة تقطر انزعاجًا، كمن ينفث سخطًا طال كتمانه، وكأن كلماته سيف مسلول يمزق حاجز الصمت الثقيل:

أم الديب الجزء الثالث

_أنا سكت كتير وجيبت أخري وخلاص مابقتش قادر أستحمل زيادة عن كده، أنا هروح أجيب أحمد وهو يتصرف معاكي!

أم الديب بجلبة:يلا من هناهو يابن حسين المبقع ياللي أمك كانت بياعة بصل على الفرشة اللي على ناصية شارعنا، وياريته كان بصل عليه القيمة، دهو كان بصل مدود ومصنن، هو انتوا كان حد بينفعكوا يا بياعين البصل؟

انفجر صوت هايدي في وجه أم الديب، وصرخت بصوت مخنوق بأنفاس الحزن لانكسار، محاولة أن تجتث من صدرها كل مشاعر الأسى المتراكمة، وكلماتها تتخللها أنين مكتوم، يعكس ما في أعماقها من لوعة:

_اسكتي بقى، اسكتي!

غادر زياد الشقة وقد تملكه الغضب، يمشي بخطوات ثقيلة كأنها تحمل أثقال همومه، واتجه مباشرة نحو شقة أحمد، يطرق الباب بقوة تفيض عنفوانًا. في تلك اللحظة، كانت جميلة منهمكة في إزالة مكياجها داخل غرفة الثياب، بينما وقف أحمد أمام المرآة يفك أزرار بدلته واحدة تلو الأخرى بتروٍ. وما إن تناهى إليه صوت الطرقات المتتالية حتى تملكه إحساس غامض بأن زياد ربما يمر بضائقة ويحتاج إلى عون عاجل، فتوجه بسرعة نحو الباب وفتحه ليجد زياد واقفًا أمامه، لا يزال مرتديًا بدلته، وكأن شيئًا لم يتغير في هيئته منذ دخوله، فألقى عليه نظرةً متفحصة تنم عن اهتمام ممزوج بالقلق، وسأله بنبرةٍ تحمل الترقب:

_إيه يا زياد في حاجة ولا إيه؟

اندفع زياد بالرد، وصوته يرتفع كصدى انفجارٍ في ليلٍ هادئ، يكسو كلماته سخطٌ يكاد يحرق الهواء حوله، قائلًا:

=تعالى شوف اللي أنا شايفه وأحكم بنفسك وساعتها هتعرف إن أنا عندي حق!

أحمد بارتياع:اهدى بس نفهم في إيه!

خرج أحمد مع زياد بخطواتٍ متسارعة تملؤها مشاعر القلق، وتقدّم خلفه بخطوات ثابتة حتى دخلا إلى شقة زياد ووصلا إلى غرفة النوم، حيث وقعت عيناه على مشهد أثار دهشته العميقة؛ أم الديب مستلقية بارتياحٍ على السرير، تتناول الكيوي بقشرتها وكأنها في عالم منفصل، بينما هايدي تجلس قبالتها، ودموع القهر تبلل وجنتيها بصمت. لم يتمكن أحمد من كبح جماح مشاعره أو التصرف بهدوء؛ فانطلق صوته بصخبٍ عالٍ، محملًا بالاستنكار، وسألها بنبرةٍ تقطر حدة:

_ماما؟ انتي إيه اللي جابك هنا؟

أم الديب بصياح:وانت مالك؟ آني قاعدة في شقة بتي، حد له حاجة عندي؟ ما تردوا اتخرستوا ليه؟

أحمد بصخب:هو إيه اللي قاعدة في شقة بنتك؟ يعني إيه؟ يا ماما متخليش صوتي يعلى، كفاية فضايح بقى متكسفوناش وسط الناس! أنا عايز أفهم انتي بتعملي إيه هنا؟

أم الديب الجزء الثالث

أطلقت هايدي تنهيدة مخنوقة، وقد تشبعت كلماتها بنشيجٍ حزينٍ كأنما تنفث ألمًا دفينًا لا تستطيع كتمانه، فكان صوتها يتقطع بين شهقات تبكي قهرًا، وهي تقول:

_عرفتوا أنا ليه مكنتش عايزة أتجوز؟ أهو علشان كل اللي بيحصل ده كنت عارفة إنه هيحصل من زمان!

قال أحمد بانزعاجٍ، وقد تعلقت عينيه بالوضع غير المتوقع قباله:

=استني بس يا هايدي !

ثم أردف لوالدته بضجيج:

=ردي عليا يا ماما! بتعملي إيه هنا؟

أم الديب بضجيج:ايهي هو انت هتعملي فيها وكيل نيابة يا روح أمك؟ وانت مال اللي خلفوك؟ آني كيفي كدهو وأعمل اللي أنا عاوزاه من غير ما حد يتكلم معايا نص كلمة!

أحمد بجلجلة:حرام عليكي بقى يا شيخة اللي بتعمليه فينا ده، انتي مش عايزة تعقلي أبدًا وعالطول فضحانا وحاطة راسنا في الأرض! ده كل مالواحد يحاول يحسن من نفسه شوية تقومي انتي فضحاني!

أم الديب بازدراء:قاله يابا شرفني قاله لما يموت اللي يعرفني.

أحمد باهتياج:انتي عايزة إيه دلوقتي؟

تلفظ زياد بصياح مدوٍ، حيث كانت كلماته تتصاعد كصوت رعدٍ في عاصفة، موجهًا حديثه مباشرةً إلى أم الديب، وكأنه يحمل في صوته كل ما في صدره من استياء:

_اتفضلي يا مرات عمي ارجعي مكان ما جيتي وسيبيني أفرح زي أي عريس، كفاية نكد بقى!

أم الديب بانتقاص:ليه هو انت فاكر حتة عيل بشخة زيك هيقولي أروح فين وآجي منين؟ لا ياخويا ده في خيالك! أم الديب تحكم بلد بحالها لكن محدش يحكم عليها، آني هناهو في دار بتي، دارها اللي من حقها ومكتوبلها كل سنتي فيه في القايمة! أمال انت فكرك واخدها مننا ببلاش؟

قال أحمد لأم الديب بصياحٍ متصاعد، وكان صوته يملأ الغرفة كأنما يعبر عن حالة من الاستنكار العارم، بينما كانت نظراته تتنقل بين وجهها وساعة يده، التي كانت تلتقط كل ثانية تتفاقم فيها الأمور:

_وطي صوتك بقى انتي عريتينا كلنا! انتي عارفة الساعة كام دلوقتي؟ احنا الساعة أربعة الفجر والناس كلها نايمة! مفيش حد عامل دوشة غيرك انتي!

أم الديب:ايهي آني عريتك؟ فاكر يا ولا لما كنت بشيلك الـ....

بينما كانت أم الديب تستعد لإكمال حديثها، قفز أحمد سريعًا ووضع يده على فمها، محاولًا كبح جماح كلماتها وكأنما يخشى أن تبوح بأسرار قد تكون ضارة، لكن رد فعلها كان مفاجئًا؛ فقد عضته بقوة، مما

دفعه إلى الصراخ، تعبيرًا عن الألم من فعلها، وكأن صوته كان صرخة استغاثة تعكس حالة الاضطراب في الموقف:
_آه!
سأل زياد بقلق:
=انت كويس؟
شعرت جميلة بوجود أمر غامض يحيط بالموقف، لكن سرعان ما تلاشت أفكارها عندما استمعت لآهات زوجها تأتي من الشقة المجاورة، فاندفعت نحو الصوت بسرعة، تاركةً فتياتها في شقتهم، وعندما دخلت نحو مصدر الصوت، اكتشفت أحمد وهو يعاني من إصابة في يده، بينما كان يقف إلى جانبه هايدي وزياد، اللذان كانا يبدو عليهما القلق البالغ، فتقدمت نحوهما بخطوات مُتسارعة، وسألت أحمد بفزع:
_أوه ماي جاد، مالك حصلك إيه؟

حينما أدارت جميلة وجهها، اصطدمت بعيني أم الديب، مما جعلها تصرخ من شدة المفاجأة وتعود بظهرها إلى الوراء، حيث اجتاحت مشاعر الصدمة ملامح وجهها، فسألتها بلهجة متأزمة تعكس انفعالاتها القوية:
_إيه ده؟ طنط؟

أم الديب بانفعال:ازيك يا بت يا جميلة؟ يرضيكي اللي هما بيعملوه فيا دهو؟ بقى آني يكرشوني من دار بتي بدل ما يرحبوا بيا؟
جميلة بصدمة:لا طبعًا، بس يعني انتي جيتي ازاي؟
أم الديب بلا مُبالاة:أهو جيت وخلاص... عندكوا أكل يا جميلة؟
جميلة بتلعثم:لا، أه... لا لا معندناش!

عندما استفاق أحمد من وطأة الألم التي كانت تؤرقه، تقدم بخطوات واثقة نحو والدته، وكأن الحزم قد تجسد في صوته الذي ارتفع ليملأ الأجواء من حوله، فقال لها بصياح يعبر عن تصميمه القوي ورغبته في مغادرتها من شقة العروسين:
_يلا يا ماما علشان هروحك البيت، مش هتقعدي هنا ثانية واحدة! انتي إيه؟ مابترحميش؟
سألت جميلة أحمد بصدمة، وقد غلفت عينيها نظرة من الاستغراب:
=لا لا معقول هتسافر في الوقت المتأخر ده؟ طيب وهترجع امتى؟

أحمد بانزعاج:هعمل إيه بس يا جميلة؟ أنا مضطر، ماهو اللي بيحصلنا ده كتير علينا والله العظيم ده إبتلاء!

سألت أم الديب أحمد بجلجلة قوية، تتصاعد في أجواء الغرفة كصوت جرس ينذر بالخطر:
=هو إيه دهو اللي إبتلاء يا ولا؟

أحمد بسُخط:لا ولا حاجة... اتفضلي!

تحركت أم الديب خلف أحمد، لكنه أمرها بالانتظار حيال باب شقته، ثم دخل بسرعة ليحضر هاتفه ومفاتيحه والمال، وعندما اكتملت تجهيزاته، انطلقا معًا إلى المصعد الكهربائي، ليخرجا من العمارة برمتها، في الوقت الذي خرجت فيه جميلة إلى البلكونة، تترصد حركاتهما بعينين يملؤهما القلق، فهي تعاني من ضغوط الحياة الزوجية بسبب تصرفات والدته، مما جعلها تتساءل في حيرة كيف يمكن له السفر بعد يوم مرهق مليء بالتحديات؟ وفي السيارة، كانت العائلة تنقل الأجواء السعيدة، حيث كان "عمر" ابن نعمة يبكي بحرقة، بينما كانت نعمة عاجزة عن التصرف في هذه اللحظة الحرجة، فتارة تحمل ابنها بين ذراعيها وتواسيه، وتارة أخرى تضعه جانبًا لتعود وتلتفت إليه، حتى أرهقتها تلك اللحظات المتلاحقة، لتقول لحامد بانزعاج:
_لا حول ولا قوة إلا بالله، ما كنا سيبناه عند أمك يا حمو.

حامد:مانتي عارفة أمي يا نعومي مبتستحملش زن العيال الصغيرة.
نعمة:ماهي بتشيل بنت هبة وعلى قلبها زي العسل، اشمعنا يعني؟

فجأة، تذكرت نعمة وجود ليالي، التي كانت تتحدث عن أختها هبة، مما جعلها تشعر بإحراجٍ عارم يعتريها، فتوجهت إليها بكلمات مفعمة بالخجل، مردفة لها بصوتٍ متقطع:
_لا مؤاخذة يا ليالي!

ليالي بتسامح:ولا يهمك يا نعمة، أصل بت هبة أختي مبتعيطش كتير زي عمر ابنك... هو إكمن العيال الصغيرة وهما لسه مولودين مبيبطلوش عياط بس لما يكبر شوية هيريحك من زنه.

وسط الأحاديث الجارية من حوله، انتبه المعلم حنفي إلى غياب أم الديب، حيث كان الصمت يلف المكان بشكل غريب، فانعكست ملامح وجهه بابتسامة واسعة على شفتيه، وعيناه تتلألأان بحيوية، ليحدث الجميع بنبرة تفاؤل تحمل في طياتها رغبة في إشعال الأجواء من جديد:
_أما انتوا ملاحظتوش اللي آني ملاحظه ولا إيه؟
بينما كان جلال يقود السيارة في طريقهم إلى البلدة، ومع اقترابهم من الوصول، نظر إلى والده بجانب المقعد، فسأله محاولًا استجلاء الأفكار التي كانت تدور في ذهنه:
=هو إيه يابا؟

المعلم حنفي بسرور:الولية مركبتش معانا، تكونش ركبت عربية تانية؟
جلال بقهقهة:عربية تانية إيه يابا؟ هو حد راجع على بلدنا غيرنا؟

سألت سعاد باهتمام عن أختها الغائبة، حيث كانت كلماتها تتسلل بين حروف الجملة كنسائم خفيفة تحمل قلقًا عميقًا:

أم الديب الجزء الثالث

_صحيح بسمة فين؟ ومركبتش معانا ليه؟
أجابت ليالي بانشراحٍ ظاهر على وجهها، حيث كانت نبرتها تنبض بالسعادة، كأنما كانت تشرق بشمسٍ دافئة تضيء أركان الحديث:
=كده أحسن خلينا مرتاحين من زنها، ولا لمؤاخذة أنا نسيت إنك أختها، بس بصراحة احنا معذورين.

سعاد بحفيظة:أوعاكي تجيبي سيرة بسمة بحاجة وحشة تاني! بسمة أختي محترمة ومتربية هي بس خُلقية شويتين.
ليالي بسخرية:مين يشهد للعروسة؟

سعاد تدرك تمام الإدراك أن أم الديب تملك طباعًا سيئة وفظة، وقلبها غليظ لا يحمل المحبة لأحد، حتى لنفسها، ورغم ذلك، فإنها تدافع عن أختها الغائبة في غيابها، تلك الأخت التي قضت معها سنوات طويلة في منزل الوالدين، مما يجعل هذا الدفاع في نظر ليالي مجرد تعبير عن ضعف شخصية سعاد وعدم قدرتها على الاعتراف بالحقيقة المرة. في تلك الأثناء، كان أحمد وأم الديب يقفان في الشارع بجوار سيارته، بينما كانت جميلة في البلكونة، وجهها يعكس سخطًا واضحًا من نزول زوجها من منزله في وقت الفجر، وهو الوقت الذي كان من الأفضل أن ينقضي في الراحة، بعيدًا عن المتاعب، فقالت لنفسها بضيق:
_إيه اللي جابها بس؟ بجد إنسانة مُتعبة جدًا، أنا مش عارفة لو كانت قعدت معانا كان هيحصلي إيه؟
في الأسفل، حيث كان الهدوء هو اللحن الوحيد الذي يسود مدينة الأثرياء، إلا أن هذا الهدوء لا يعني أن الجميع في حالة نوم، فقد كان معظم السكان مستيقظين، لكنهم لم يصدروا أي صوت يُزعج جيرانهم، بل كانوا يعيشون في صمتٍ مفعمٍ بالاحترام، حريصين على عدم إحداث أي إزعاج يطال من حولهم. كانت الشوارع مضاءة بأعمدة الكهرباء التي تضيء الطرقات بنورٍ قوي، وبعض السيارات تمر بهدوء على الأسفلت، مما يُعزز من شعور السكينة الذي يسود الأرجاء، وفي تلك الأثناء، وضعت أم الديب يدها على مقبض السيارة، ونظرت إلى أحمد بعينين تحملان شيئًا من الفظاظة، قائلة له بكلمات تُظهر صلابتها:
_افتحلي الباب!

أحمد بتضايق:ماهو مفتوح أهو، اركبي!

ركب أحمد السيارة، وفي تلك اللحظة التي كانت أم الديب تفتح الباب بعنف، سحبته بطريقة خاطئة وغير محسوبة، مما أدى إلى كسر مقبض السيارة بقبضتها القوية التي تعكس طبيعتها الاندفاعية، فانتشر صوت الكارثة في الأرجاء كصدى جرس يعلن عن حدث غير متوقع. سرعان ما نزل أحمد من السيارة بسرعة، ووجهه يعكس اندهاشًا وقلقًا كبيرين، وهو يسألها بصياح يعبر عن حنقه الشديد مما حدث:
_يا نهار أسود، إيه اللي أنا سمعته ده؟ إيه اللي اتكسر؟

أم الديب بصياح:ايهي وآني إيه دراني يا ولا؟ انت هتلبسها فيا ولا إيه؟ ولا هما يعملوها ويخيبوا؟

تفحص أحمد باب السيارة الأمامي الأيمن، واكتشف أن المقبض قد تم كسره بسبب قوة أم الديب، مما جعل غليان النيران يتأجج في عروقه، ليشعر بحنقٍ متزايد يجتاح مشاعره، وبدلًا من أن تكون خطته إيصال والدته إلى منزلها في القرية بسلاسة، تغيّرت الأمور بشكل دراماتيكي بفعل هذا التصرف الأحمق. أسرع في إخراج هاتفه من جيبه، وبدأ بإجراء اتصال بشركة السيارات ليستأجر سيارة أخرى تُوصل والدته إلى منزلها، بينما كانت أم الديب تنظر إليه بتفكير، وقد راودتها أفكار سلبية خلال حديثه في الهاتف، معتقدةً أنه يخون زوجته، مما دفعها إلى قول ذلك بدهشة:

_ايهي بيكلم مين في إنصاص الليالي؟

في أجواء يسودها النشيج المرهف بالألم، كان زياد وهايدي جالسين على سريرهما كعروسين لم يفترقا عن مشهد زفافهما؛ هي بدموعها المسكوبة التي تسكن عينيها كأنها تروي وجعًا مخنوقًا، مرتدية فستانها الأبيض الذي أضحى عبئًا عليها، وهو إلى جوارها، ببدلته الرسمية التي تكسوها سمات الوقار، يضمها بين كلماته الهادئة ويده التي تمرر طمأنينة على كتفها. كانت هايدي تعيش مرارة ليلة الزفاف التي حوَّلها حدث صغير إلى ذكرى ثقيلة؛ فقد كانت تحلم بيومٍ يسوده السلام ويغلفه الفرح دون أي معكرات، لكن الحلم انكسر بلحظات ختام مزعجة غرست في قلبها وخزات خيبة، تراودها فكرة الهروب من ظل والدتها التي لم تترك لها فرصة للتنفس بحرية، لحقها ظلها الثقيل في كل مكان، وكأنها حبال خفية تربطها بها. لطالما ظنت أن ارتباطها بزياد سيجعلها في مأمن من سيطرة والدتها التي ستغيب عن حياتها بعد الزواج، فاندفعت في تفاؤل مُفرط بقطع الحبل بينهما، لكن فوجئت بواقعٍ يناقض توقعاتها؛ إذ وجدت والدتها تطل برأسها من بين جدران منزلها، تراقب كل صغيرة وكبيرة. كان زياد، بإحساسه الدافئ، يحيطها بكلماته العذبة، يمسح على كتفها ويهمس لها بكلمات تجعلها تشعر بأن طمأنينة ما تزال ممكنة، قائلًا لها:

_خلاص بقى يا هايدي مانا قولتلك إنهم نزلوا!

هايدي بندب:بجد مش عارفة ماما ليه مصممة تقهرني يوم فرحي؟ هو احنا عملنالها إيه لكل ده؟ وبتستفاد إيه أصلًا من اللي بتعمله معانا؟ ده مفيش جوازة واحدة لينا عدت على خير... لا أنا ولا جلال ولا أحمد! ده حتى نعمة فرحها انتهى بكسر رجل عم سلامة، هي ليه كده بجد يا زياد؟
زياد بإحراج:أنا شايف بصراحة إن مرات عمي مختلة عقليًا، أنا آسف بس بصراحة مش قادر أحدد موقفها إلا بالشكل ده، أصل مفيش حد عاقل يعمل اللي هي بتعمله، أنا عمري في حياتي ما شوفت ولا هشوف زي مرات عمي، دي حالة نادرة جدًا.
هايدي بأنين:هي فعلًا حالة نادرة واللي بتعمله ده زي مانت قولت مفيش حد عاقل يعمله... طيب قولي نتصرف معاها ازاي؟ دي مفيش حاجة نافعة معاها.
زياد برصانة:أنا شايف إننا نطلعها من دماغنا ونرمي اللي حصل ده ورا ضهرنا... يا هايدي أنا من زمان وأنا بحلم باليوم ده... اليوم اللي هنكون فيه مع بعض ويوم ما يجي يتنكد علينا؟ علشان خاطري يا هايدي انسي اللي حصل وخلينا نفتح صفحة جديدة، قومي خدي شاور وزي ماتفقنا!
هايدي:حاضر يا زياد!

أم الديب الجزء الثالث

عندما رآها زياد تغرق في دموعها، جذبها إلى صدره برفق، ليبث في قلبها الطمأنينة ويمحو من وجنتيها آثار الألم. وبعد أن أحاطها بذراعيه، همس لها بلطف، مشجعًا إياها على النهوض، فاستجابت بنظرة محملة بالتعب. مد يده ليساعدها على فك الفستان وثنايا الطرحة التي بدت كحجاب يحجب فرحتها، لتتسلل إلى المرحاض حيث أرادت أن تغسل عن جسدها عبء هذا اليوم. هناك، تحت زخات الماء المتساقطة على رأسها، كانت دموعها تتماهى مع المياه، وامتزج النشيج بحفيف الماء، ليحمل معه صوت معاناتها الخفية. جلس زياد بعد ذلك في غرفته، وقد بدّل ملابسه واستقر على سريره، يتأمل ما جرى ويغوص في تفاصيل تلك الليلة المثقلة بالتوتر. في هذه الأثناء، كان السائق قد وصل بالسيارة، ليجد أحمد بانتظاره، فتحدث معه من نافذة السيارة بنبرة خافتة:

_أنا عارف إن مينفعش تخرجوا برا نطاق المدينة، بس للأسف حصل مشكلة والعربية بتاعتي اتعطلت ومفيش حل تاني، بص أنا هديك الضعف بس وصلها!

السائق باطمئنان:يا باشا من غير أي حاجة دي زي والدتي، شكلكم ناس طيبة.
أحمد بابتسامة:ربنا يخليك تسلملي، عايز كام؟
السائق:قول حوالي ألف ونص.

أخرج أحمد محفظته بحركة هادئة، وسحب منها المال ليسدد للسائق مستحقاته، ثم ناوله رقمه بخطوات من الإلفة، كأنما أراد أن يبقي على خيطٍ من التواصل بينهما في المستقبل، وكأن رحلتهم لم تكن مجرد مسافة تُقطع، بل كانت نقطة انطلاق لصلات خفية. بعد أن ودعه بنظرة منحنية تُوحي بشيء من الاحترام، اتجه بخطواتٍ واثقة ينادي على "أم الديب" كي تستعد للركوب معه. حين سمعته، التفتت إليه بدهشة، لتسأله بعينيها قبل لسانها، فيما كلماتها تخرج متسائلة:

_ايهي مين دهو؟

أحمد:يلا يا ماما علشان تروحي في العربية!
أم الديب بروع:دهو شكله متحرش، بقى ترمي أمك لراجل غريب ينهش في لحمها؟
أحمد بانفعال:لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... هو أنا بقولك روحي معاه هيفسحك؟ أنا بقولك هيروحك البيت ولو حصل أي حاجة مع إنه مش هيحصل يعني بس أبقي رني عليا!
أم الديب بكَرَم:والرصيد بتاعي يخلص؟ مانت غرمان إيه؟ كلكم طمعانين فيا وفي فلوسي وإن كان عليكم عاوزين تقتلوني وتاخدوا أعضائي تبيعوها وتتمرمغوا في عزها!
أحمد بدهشة:أعضائك إيه؟ يا ماما الله يكرمك يلا! كفاية تأخير ده الساعة داخلة على خمسة!
أم الديب بعناد:وآني مش هتعتع من هناهو! بقى مش خايف على أمك؟ مانت أمك مش فارقالك.
أحمد برهبة:أنا مش خايف عليكي، أنا خايف منك!
أم الديب بسخرية:ايهي ليه؟ راكبني عفريت ولا قتالة قتلة؟

لاحظ السائق ترددهم وتباطؤ خطواتهم، فارتفع صوته مناديًا أحمد بقوةٍ، يكسوها شيء من الحزم، كأنه يحاول دفعهم إلى الإسراع وعدم إضاعة المزيد من الوقت، قائلًا له:

أم الديب الجزء الثالث

_يا أستاذ أحمد، إيه النظام؟

أحمد:جاي أهو .

بادر أحمد بالحديث إلى "أم الديب" بنبرة يسودها الاستعجال، وقد حاول أن ينقل إليها إحساسه بالضرورة الملحّة للمغادرة، قائلًا لها:

=يلا يا ماما!

أمسك أحمد بذراع "أم الديب" بحذر، محاولًا مساعدتها على السير رغم خطواتها المثقلة، حتى وصل بها أخيرًا إلى السيارة. وقبل أن تصعد إلى المقعد الخلفي، مال أحمد على نافذة السائق وأوصاه بلهجة حانية، وطالبًا منه أن يُعاملها وكأنها والدته، وأن يسعى بكل حرص ليبلغ بها القرية بأمان وسلام. ثم قال له بنبرة ملؤها التأكيد:

_حطها في عينيك دي زي والدتك !

السائق بتبسم:من عينيا .

ابتسم السائق لـ "أم الديب" ابتسامة دافئة، كأنما أراد أن يبعث في قلبها طمأنينةً وسط رحلتها. تلفظ ببضع كلمات ودودة، ساعيًا لجعلها تشعر براحةٍ تليق بمقامها:

_اتفضلي يا أمي !

أم الديب:يا مسهل الحال، توكلنا على الله.

فتح أحمد الباب الخلفي للسيارة بحركة مفعمة بالحنان، ثم ساعد والدته في الركوب، حيث استقرت في المقعد برفق. بعد أن أوصد الباب بحذر، تحرك نحو نافذة السائق مرة أخرى، ونظر إلى والدته بنظرة مطمئنة، قائلًا لها:

_توصلي بالسلامة.

أم الديب بهشاشة:مع السلامة ياخويا.

تحرك السائق بسيارته مُتجهًا بأم الديب خارج مدينة الأثرياء، بينما صعد أحمد إلى شقته محاولًا استعادة نشاطه بعد ليلة الزفاف التي كانت مرهقة، حيث كانت مشاعره متضاربة بين الفرح والحزن. دخل إلى غرفته وبدأ في تغيير ثيابه، وهو يبتسم مع نفسه تارة وينظر إلى السقف تارة أخرى، مُفكرًا في تفاصيل تلك الليلة التي استغرقت فيه الأوقات السعيدة والذكريات المؤلمة. في تلك الأثناء، خرجت جميلة من المرحاض بعدما استكانت فتياتُها للنوم، ملتفةً بمنشفة حول رأسها لتجفف شعرها. دخلت غرفة الثياب بحركات رشيقة، واستعانت بالسشوار لتصفيف شعرها أمام المرآة. أما أحمد، فقد دخل المرحاض ليغسل وجهه بالماء البارد، ويفرش أسنانه بمعجون الفحم الذي اعتاد عليه، في محاولة منه لإزالة آثار التعب

أم الديب الجزء الثالث

من على وجهه، حيث كانت تتزاحم الأفكار في ذهنه، مُسترجعًا لحظات الزفاف ومشكلة أخته. في شقة العروس، كانت هايدي قد أنهت استحمامها، وخرجت مرتدية زي العروس المنزلي الأبيض، وجلست أمام المرآة لتسرح شعرها، مُعتمدةً على بعض الزيوت التي اعتادت استخدامها، بينما كانت أفكارها تتجول بين الماضي والحاضر. ثم اتجهت إلى غرفة الأطفال، حيث اتفقت مع زياد على أن لا يقترب منها أبدًا، وأن يكتفي كل منهما بالنوم بمفرده. كانت تعرف أن هذا القرار لم يكن سهلًا عليه، لكن عذابه الداخلي كان واضحًا، فوافق على ذلك رغبة منه في حماية نفسها من معاناتها النفسية التي تراكمت جراء الضغوطات. على الطريق، وبعد نصف ساعة، كان السائق يسرح بنظراته في المرآة الخلفية بين الحين والآخر، يتابع السيارات التي تمر خلفه، لكنه لم يلاحظ أن أم الديب كانت ترصد تلك النظرات. مع تكرار تلك النظرات، اعتقدت أنه غزل صريح، مما أثار شكوكها. خرجت عن صمتها، ووجهت له كلمات حادة، محملة بقسوة عارمة، لتقول له بجرأة واضحة:

_مالك يا راجل انت عمال تسَبلي طول الطريق بعينيك اللي عاوزة حشها؟

السائق بغرابة:إيه يا حاجة اللي بتقوليه ده؟ وأنا هسبلك ليه؟ دي انتي في مقام الحاجة أمي!
أم الديب بصراخ:ما كلكم بتقولوا كدهو وفي الآخر تعملوا عملتكم الهباب... لا ياخويا اسمع مش علشان ابني سابني معاك لواحدينا تبقى فاكرها سايبة، لا ده آني أهد الدنيا فوق نفوخك!

بينما كانت أم الديب تتحدث، كان السائق ينظر حوله بقلق، محاولًا معرفة مصدر ذلك الصوت الغليظ الذي أثار انتباهه. عندما شعرت أم الديب بسلوكه الغريب، ازدادت خشونة نبرتها بشكل واضح، حتى بدت كأنها رجل يتحدث، مما جعله يظن للحظة أنها تخفي شخصًا ما في عباءتها، أو أن ذلك الصوت القوي صادر من الهاتف المحمول. فاستدار نحوها بدهشة، وسألها باندهاش:

_هو حضرتك اللي بتتكلمي؟

أم الديب بغلاظة:أمال الماتور هو اللي بيتكلم؟ لا بقولك إيه يا راجل انت، آني مش هستنى لما تتهجم عليا، ده آني أتغدى بيك قبل ما تتعشى بيا!

لم تنتظر أم الديب لحظة واحدة، ولم تعط السائق فرصة للتهجم عليها، بل أظهرت اندفاعيتها التي لم تتردد في البروز، وكأنها طائر جارح يحلق فوق فريسته. انقضت عليه ككلب مفترس، متشبثةً بعنقه بقوة وكأنها تستنطق أعماقه. كانت يديها تشتبك حول عنقه تخنقه، بينما كان هو يُستغيث، وصرخاته تخرج بصعوبة عبر أنفاسه المُحتبسة، غير قادر على مواصلة القيادة في ظل تلك الفوضى. تأرجحت السيارة على الطريق، وكلما زادت شدة قبضة أم الديب، زادت سرعة تأرجح المركبة، وكأنها على وشك الاصطدام في أي لحظة. السائق، الذي أصبح ضحية لنوبات الغضب المفاجئة، كان يكافح ليظل واعيًا. في خضم ذلك الفوضى، انطلقت أصوات ضحكات الأقدار، وظهر هاتفه المحمول من جيبه، ليتصل بأحمد بسرعة، بينما تلقي ضرباتها المتوالية على جسده. قال له باستغاثة متقطعة، يحاول جاهدًا أن يجد صوتًا يصل إلى مسامع أحمد وسط تلك الفوضى:

_الحقني، أمك اتحولت كلب بلدي !

أم الديب الجزء الثالث

كأن الراحة لم تُكتب لأحمد بعد، إذ تلقى تلك المكالمة وهو متجه نحو سريره، حيث كان يعتزم الانتقال إلى عالم النوم بجوار جميلة، بعد ليلة مرهقة. ولكن، ومع صدى تلك الكلمات التي جاءته من هاتفه، تبددت آماله في الاسترخاء، وأخذته الأحداث إلى درب آخر. بعد شجار عنيف بين أم الديب والسائق، توقفت السيارة فجأة، وخرج منها السائق وهو يصيح بعصبية، بينما تبعته أم الديب، وكأنها كائن حانق يسعى خلف فريسته. تجمهر الناس حولهما، وفي خضم الفوضى، راحت أم الديب تسرد أكاذيب لم تحدث، لكن للأسف صدقها المحيطون بها، وانقضوا على السائق، وحطموا جسده بالوطآت التي جاءت كالصواعق. عندما خرج أحمد بسرعة من منزله متجهًا نحو القسم، كان قلبه ينبض بالقلق، وعقله مشغول بتفاصيل تلك الحادثة المروعة. وعند وصوله، وجد السائق ممزق الثياب، ووجهه يشرد بألوان عجيبة من الكدمات، غير قادر على الوقوف بثبات، كأنما هو كائن منهار. في نفس اليوم، لكن بالنهار، وفي تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، استيقظ الجميع من نومهم بعد ليلة مُرهقة. هايدي، بعد أن استردت وعيها من غياهب النوم، تفاجأت بوجود زياد نائم بجانبها، فما لبثت أن نهضت بسرعة، وقد استشعرت الفزع يتسلل إلى قلبها، ونبضاته تزداد تسارعًا. استفاق زياد على وجهها المذعور، الذي كان يعكس قلقها العميق، فنهض يقترب منها برفق، وكأنما يريد أن يطمئنها بأن كل شيء سيكون على ما يرام. ثم سألها بدهشة، مُحاولًا فهم ما يحدث:
_مالك يا هايدي؟ خايفة كده ليه؟

هايدي بارتباك:احنا مش اتفقنا كل واحد فينا ينام في أوضة لواحده لحد ما نكمل سنة جواز؟
زياد بضحك:سنة إيه بس يا هايدي؟ يا حبيبتي أنا بقيت جوزك مش حد غريب، عايزة تحرميني منك سنة كاملة؟
هايدي بتوتر:وأنا هحرمك مني سنة كاملة ليه؟ مانا معاك أهو، بس يعني ياريت كل واحد فينا يكون له أوضته!
زياد بمزاح:طيب وهو الكلام ده ينفع؟ هو في اتنين متجوزين كل واحد فيهم بينام في أوضة لواحده؟ ماهو لو إن كان كده خلي كل واحد فينا يبات في بيت أهله أحسن!
هايدي بهاجس:مش قصدي يا زياد، أنا بس خايفة... انت فاهمني؟
زياد بابتسامة:طبعًا فاهمك ومقدر كده كويس، أنا هديكي تلات أيام تكوني فيهم لواحدك بس ياريت ميزيدوش عن كده!
هايدي برهبة:بس تلات أيام قليل أوي!
زياد بلُطف:هايدي، أنا عايزك تطلعي الأفكار السلبية دي من دماغك ومتخافيش من أي حاجة طول مانا معاكي! وأنا مصيري هثبتلك إن أي حاجة كنتي خايفة منها مكنتش صح!
هايدي:ماشي يا زياد.

نظر زياد إلى هاتفه، وعيناه تتسعان بذهول حين وجد أن الساعة تشير إلى الثانية عشر ظهرًا، وهو ما أكد له أن العائلة قد تكون في طريقها إلى منزلهم في يوم الصباحية. هذا الإدراك جعله يتملكه شعور بالخوف، وكأن الوقت قد فاجأه بوحشية. فقال لها بصدمة في نبرته:
_ياه، الساعة بقيت ١٢ ده زمان أهلك جايين دلوقتي.

أم الديب الجزء الثالث

هايدي:طيب أنا هجهز قبل ما هما يجوا.

خرجت هايدي من الغرفة، وتوجهت بسرعة إلى المرحاض لتشطف وجهها بالماء والصابون، عازمةً على طرد آثار النوم من ملامحها. بينما زياد، الذي كان يشعر بالقلق يتصاعد في داخله، خرج إلى صالة الاستقبال وجلس على الأريكة الجديدة التي بدت وكأنها رمز لأمل جديد، إذ كانت شقة العروسين تعكس بهجة الحياة ورائحة الأثاث العذب تعبق في الأرجاء. تجلت أجواء السعادة في كل ركن من أركان الشقة، حيث كانت الطاولة الواسعة تتزين بأطباق الحلويات الفاخرة مثل الكعك، والبسكويت، والبيتي فور، التي أهدتها لهما أم قمر الدين، في خطوة سخية منها، خاصة عندما علمت أن أم الديب كانت ترفض تلك الفكرة التي لم تكن تلائم ظروفهم المالية في تلك الفترة العصيبة. ومع ذلك، قررت أم قمر الدين أن تمد لهم يد العون كما اعتادت دومًا. في منزل العائلة في القرية، كانت الأجواء مهيأة تمامًا للذهاب إلى العروسين في صباحيتهم، فقد عملت ليالي على تجهيز الأطباق التقليدية الشهية، بما في ذلك الفطير المشلتت المدهون بالسمن البلدي، مع الجبن القديم، والعسل الأسود، والقشدة، بالإضافة إلى الحمام المحشي بالأرز، والكفتة المشوية، وسلطة الطحينة، التي كانت تُضفي الفخر على مائدة العروسين. وضع جلال الأكياس في السيارة، بينما صعدت ليالي إلى شقة نعمة لتساعدها في التحرك، وكان حامد يحمل مولوده "عمر" في يده، ويتحدث في الهاتف مع والدته "أم أشرف" في اليد الأخرى، حيث كان يأمل في أن يترك الطفل لديها ليكونوا أكثر حرية أثناء السفر، بعيدًا عن نشيج الأطفال الذي قد يسبب لهم الإزعاج. لكن ما يريح نعمة يُرهق أم أشرف، فهي لم توافق على استقبال الطفل عندها، بل رفضت بشكل قاطع. استفسر حامد بدهشة، محاولًا فهم سبب رفضها، قائلًا لها بنبرة استغراب:
_ليه مينفعش ياما؟ مانتي مستحملة هبة وبتها، هي جات على ابني؟

أم أشرف:ومين قالك إن أنا بشيل عيال حد؟ هبة عمرها ما إديتني بتها وراحت مشوار، هي اللي شايلة هم بتها من أوله لآخره الدور والباقي على الأخت اللي مش عارفة تشيل ابنها وعايزة ترميه لحماتها!
حامد:اللي معاها عيل مش زي اللي معاها عيلين ياما، ونعمة دلوقتي بقى معاها اتنين وكتر ألف خيرها، ده غير يعني إنها لسه والدة مكملتش شهر.

أم أشرف ببغضاء:أديك قولتها لسه والدة مكملتش شهر، وهو في واحدة نَفَسة يابني تروح تتسرمح على السكك؟ مش كانت قعدت في بيتها وايديها على ابنها؟
حامد بانزعاج:مانتي عارفة اللي فيها ياما، مينفعش متروحش صباحية هايدي أختها، مجاتش على كام ساعة!
أم أشرف بحدة:أنا ورايا أشغال ومش فاضية، وورايا هم ما يتلم.
حامد بتضايق:طيب ياما عاوزة حاجة؟
أم أشرف:سلامتك.
حامد:سلام .

أم الديب الجزء الثالث

بعد انقضاء المكالمة بين حامد وأم أشرف، التفتت نعمة إلى زوجها، وقد أضاءت عينيها بشغف الاستفسار، وسألته بفضول:
_إيه يا حامد طمني؟

حامد بأسف:مرضتش، خلاص يا نعومي كبري دماغك! لو شايلة هم الواد فأنا هشيلهولك وتبقي ريحتي وارتاحتي.

انغمست ليالي في حديثهما، وأخذت تتدخل بحماس، قائلة بتطوع:
_وهو ده اسمه كلام برضة؟ أبقى أنا موجودة وتشيلوا انتوا الواد؟ أنا هشيله بس اصبروا عليا أسند نعمة لحد تحت وهاخده منك!
لكن حامد كان متفهمًا تمامًا لصعوبة عناية ليالي لثلاثة أطفال في هذه الأثناء، مما جعله يشعر بواجب التخفيف عنها. فقال لها برفض لطيف:
=لا يا ليالي انتي معاكي عيلين كده هيبقى كتير عليكي.

ليالى بإخاء:ولا كتير ولا حاجة اسمعوا الكلام بس!
حامد:بشوقك.

نزل حامد حاملًا طفله الصغير بين ذراعيه، بينما كانت ليالي تتبع نعمة، مسندةً إياها بحذر، تخشى أن يؤثر أي جهد إضافي على شفاء جرح الولادة الذي كان لا يزال طريًا، ومع تآزرهم، نزلوا جميعًا بحماسة، وركبوا السيارة سويًا، متجهين نحو منزل العروسين، حيث كانت أجواء الفرح تسود المكان. عندما انطلقوا، قام جلال بتشغيل الأغاني الشعبية التي كان لها أثر السحر على مزاجه، تمامًا كما تفعل السجائر مع المدخنين، إذ كانت تلك النغمات تنعش الروح وتبعث الفرح. فارتفعت الأصوات وتراقصت الألحان في السيارة. في منزل أحمد استيقظت جميلة لتجد سريرها خاليًا من زوجها، بينما ابنتها سيليا تجلس حيالها، مشرقة كأشعة الشمس. بعد تبادل التحية، سألت جميلة ابنتها عن والدها، لكن سيليا لم تكن تعرف مكانه. أرادت جميلة تجهيز ابنتها قبل الخروج، فأخبرتها بالدخول إلى المرحاض لأخذ حموم استعدادًا لزيارة عمتها هايدي. مؤكدة على أهمية النظافة، خاصة عند زيارة الأقارب. بينما دخلت سيليا المرحاض، انتقلت جميلة إلى المطبخ لتحضير الإفطار الذي كان عبارة عن البان كيك بالعسل والزبدة، وساندويتشات الجبن المقلي، متأملة في اليوم المشرق الذي ينتظرهما. مرت العديد من الأحداث، ومع ذلك، استمر أحمد في إلحاحه على السائق، متوسلًا إليه بصدق أن يتنازل عن المحضر الذي قام به ضد أم الديب. طيلة الساعات الماضية، كان يعتذر له بشكل متكرر، وكأن الكلمات تتدفق من فمه بلا انقطاع، لكن السائق، رغم كل ذلك، ظل متمسكًا بقراره. بدا أحمد كآلة لا تعرف الراحة، كان مُتعبًا للغاية، حيث غمره النوم، ومع ذلك، لم يكن ليُظهر استسلامه. بعينيه المتعبتين ونبرته المليئة بالإلحاح، قال للسائق بإصرار:

_والله العظيم أنا متأسفلك وبقولك حقك على راسي!أمي ست تعبانة، وعقلها غير متزن، ومش واعية هي بتعمل إيه!

السائق بصراخ:ولما هي غير متزنة وعبيطة، بتركبها معايا ليه؟
أحمد بفزع:حقك عليا، شوف انت عايز إيه وأنا هعمله، أنا عايز أراضيك!

يتبع....

الفصل الثامن والعشرون

رغم محاولات أحمد المتكررة، وإصراره على استمالة السائق وإقناعه بالتنازل عن المحضر، ظل الأخير على موقفه الراسخ، متشبثًا بقراره كالجبل الراسي، لا تزعزعه كلمات ولا تؤثر فيه توسلات. وكيف له أن يتنازل وقد لامست الإهانة كرامته حين صدرت من أم الديب؟ فقال السائق بملامح معترضة، وصوت متحشرج بالعزم:

_وأنا مش هتنازل عن المحضر!

أحمد بإلحاح:حضرتك بقولك فرح أختي كان امبارح والنهارده الصباحية! أرجوك متخليهوش يوم أسود علينا، أنا عارف إنك ملكش ذنب، بس أنا بقولك شوف طلباتك إيه وأنا معاك للآخر!

السائق بصياح:مليش فيه! أبقى خدها على مصحة للأمراض العقلية وحلوا مشاكلكم دي مع بعض، لكن أنا مليش فيه ومش هتنازل عن المحضر ولا هسيب حقي!

أحمد:أنا مش عايز حاجة منك غير إنك تتنازل عن الـ...

بينما كان أحمد يواصل حديثه، متشبثًا بخيوط الأمل الرفيعة في إقناع السائق، إذ برنين هاتفه يقطع عليه تلك المحاولات، فالتفت سريعًا ونظر إلى شاشة الهاتف بتوترٍ عابر، ثم خطا خطوات قليلة مبتعدًا عن السائق ليجيب على المكالمة، فقال له:

_ثواني، عن إذنك !

وما إن استجاب لتلك المكالمة الواردة حتى ظهر على الشاشة اسم زوجته، جميلة، فارتبكت كلماته وسرت في صوته نبرة متلجلجة، تكاد تخفي اضطرابه، محاولًا أن يتماسك رغم تصاعد مشاعر القلق في داخله، ثم قال لها بصوتٍ حائر يحاول جاهدًا أن يبدو مطمئنًا:

_ألو يا جميلة.

جميلة بقلق:انت روحت فين؟

أحمد بتردد:هقولك بعدين، انتي كويسة انتي والبنات؟

جميلة:أيوه، بس ممكن تعرفني انت فين؟

أحمد بتلجلج:أنا في...

جميلة باهتمام:فين؟ كمل!

أحمد بصراحة:أنا في القسم مع ماما.

جميلة بصراخ:أوه ماي جاد، قسم؟ قسم يا أحمد؟ ازاي؟ انت كويس؟ حاجة حصلت؟

أحمد:متخافيش أنا كويس، المشكلة كلها جاية من ماما، ماما ضربت سواق أوبر وروحنا القسم عملها محضر وبحاول أقنعه يتنازل مش راضي!

جميلة بانزعاج:بجد طنط دي بقيت خطر علينا كلنا، انت مالك ومال المشاكل بتاعتها؟

أم الديب الجزء الثالث

أحمد بدهشة:ازاي بس يا جميلة؟ دي أمي! أنا عارف إن تصرفاتها متخلفة ومش طبيعية بس أهي في الأول والآخر أمي.
جميلة بتضايق:وأنا هفضل مستنية ترجع لحد ما الـ Driverيتنازل عن المحضر؟
أحمد باضطراب:أنا بحاول معاه بكل الطرق، لما بابا ونعمة وكلهم يجوا أبقي روحيلهم عند هايدي وقوليلهم إن أنا في مشوار، أوعي تقوليلهم اللي حصل!
جميلة بهدوء:خلاص أوكي، باي.

ما إن انتهت المكالمة بين أحمد وجميلة حتى كانت سيليا تنتظر والدتها بلهفة بريئة داخل المرحاض، عيناها تتطلعان إلى الباب بترقب، تنتظر تلك اليد الحانية التي ستعتني بخصلات شعرها الحريرية المتناثرة كخيوط الشمس. ارتفعت بصوتها الندي، تنادي بأعلى ما تملك من حماسٍ طفولي، قائلة:
_يلا يا مامي!

جميلة:جاية أهو.

في سيارة العائلة كانت ليالي تتأكد أن كل شيء يسير بسلاسة، وبالأخص وجبات العروسين، التي كانت تطمئن عليها بحرصٍ عارم، حيث لم تشأ أن تترك أي تفصيلة تمر دون تدقيق. ورغم إشراقتها المعتادة، إلا أن جلال بدا مُثقلًا بتعب اليوم، فهو مُجبرٌ على تلبية متطلبات عديدة بينما يجد نفسه مضطرًا للالتزام برغبات الجميع. كان المعلم حنفي يدير الأمور بحكمة الأب، طلب من جلال أن يمر على عمه حسين، لينضم إليهم في الطريق، مبررًا له ذلك بغياب وسائل النقل في القرية البعيدة خلال الصباح. لكن جلال، المرهق من المهام التي تثقل كاهله، بدا ممتعضًا من تلك الجولة الإضافية، معترضًا على عبء البنزين الذي سيتحمله، وتكلفة الرحلة التي تثقل ميزانيته. ووسط هذا النقاش المحتدم، تدخل حامد محاولًا تحفيزهم للإسراع حتى لا يتأخروا، فيما ظل جلال ممتعضًا، وكأن صبره بدأ ينفد، وهو يشعر بأن الجهد ينهكه والضغط يكاد يلتهم أعصابه. حاولت ليالي تهدئته بلُطف، مُذكرةً إياه بأن المناسبة لن تتكرر، وأن عليه التحلي بالصبر لتجاوز هذا اليوم. لكن التوتر الذي كان يسيطر على جلال كان سببه غياب سجائره المعتادة، التي نفدت منه وأثرت على حالته المزاجية، فأخبرهم بالأمر الذي جعلهم يكتشفون السبب الحقيقي لتوتره. بينما نعمة، بقلق الأخت ومشاعرها الصادقة، نصحته بالإقلاع عن التدخين حفاظًا على صحته، وخاصة أنه أب لطفلين يحتاجان إليه. ورغم التعبير عن استيائه، إلا أن المعلم حنفي وعده بتوفير بعضٍ مما يحب من الشاي والسجائر على الطريق لتحسين مزاجه، ليعود الجميع للرحلة وكأن الجو عاد للهدوء المنتظر. أما أحمد، فقد ظل يجاهد ويستنفد كل طاقاته في محاولات مستميتة لإقناع السائق بالتنازل عن المحضر، كمن يبحث عن بصيص أمل في عتمة مستعصية، حتى بدت موافقة السائق أخيرًا بعد طول عناء. لكن السائق لم يُسلّم بموافقته بسهولة، بل قال له بلهجة متعنتة تُخفي في طياتها شرطًا كالصخرة الثقيلة:
_تمام، أنا عايز ١٥ ألف جنيه عشان أتنازل عن المحضر!

أم الديب الجزء الثالث

أحمد بتردد:بس... بس يعني... أنا مش معايا ١٥ ألف جنيه دلوقتي، وبعدين دول كتير أوي! أنا ممكن أراضيك بخمس آلاف ويبقى كويس أوي.
السائق بشكاسة:وأنا مش هتنازل عن المحضر، بقى أنا أسيب بيتي وأجري على أكل عيشي عشان أصرف على أبويا وأمي وأخواتي وفي الآخر أتضرب من ست كبيرة في مقام أمي؟ أنا أتهان من واحدة؟ انت ترضاها على نفسك؟
أحمد بإرهاق:لا مرضهاش، أنا أمي غلطانة! بس ماهو مش انت بس اللي بتجري على أكل عيشك كلنا بنجري على أكل عيشنا وبعدين أنا لو اديتك ١٥ ألف هقعد كام شهر لقدام على الحديدة، وأنا عندي بنتين محتاجين مصاريف!
الظابط بصخب:أنا لو شوفت أمك تاني مش هيحصل كويس!
أحمد:يعني هتتنازل عن المحضر؟

نظر إليه السائق طويلًا بصمت يشي بشيء من التفكير، ثم قرر أخيرًا التنازل عن المحضر، ليحمل أحمد عبء هذا الانتصار الثقيل على كتفيه، ممسكًا بيد أم الديب بعد أن دفع الغرامة الكبيرة التي أثقلت عليه، ثم خرجا معًا باتجاه السيارة. كانت خطوات أحمد بطيئة، تثقلها مشاعر ضيق خانق كغيمة سوداء، تشوش عليه، وقد أرهقته تلك الساعات المتتالية من الاستيقاظ، إذ لم يذق طعم النوم منذ أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة، ولم يرتح جسده المُتهالك من تلك الجهود المضنية التي بذلها في كل اتجاه. أما القشة التي قصمت ظهره، فكانت ذلك المبلغ الضخم الذي اضطر لدفعه ككفالة، ليتحرر أخيرًا من عبء رؤية أم الديب في حبس الشرطة، وما إن اقتربا من السيارة حتى تطلّع إلى أم الديب بنظرة ساخطة، بينما كانت تنتحب بدموع تمثيلية تسعى بها لكسب عطفه، فصاح في وجهها بنبرة تكاد تفيض بالحنق، متجاهلًا محاولاتها البائسة لخداعه، قائلًا لها:

_أنا كده عملت اللي عليا وزيادة، انتي عارفة أنا دفعت كام بسببك؟ أنا دافع خمس آلاف جنيه من معايا... هو أنا بلاقي الفلوس في الشارع لما أبعتر فيها بسببك؟ انتي مش عايزة تعقلي ليه؟ هو انتي عيلة صغيرة؟ ده انتي جدة!

أم الديب بنواح:يا بختك المنيل في ابنك يا أم الديب... ابنك مش مستحملك، ماهي لو مراته اللي عملت كدهو مكنش قدر يتكلم نص كلمة، لكن هقول إيه كلكم جايين عليا سواء انت ولا أخواتك، كلكم بتكرهوني ومش عايزني! آني هختفي من حياتكم ومش هتلاقوني تاني!
أحمد بامتعاض:يا ماما انتي اللي بتجبرينا نتعامل معاكي كده، مفيش حد عاقل أبدًا يتصرف تصرفاتك دي، هو انتي فاكرة إن أنا كنت مبسوط وأنا بحاول أطلع للسواق مليون مبرر وأقوله إن أمي مختلة عقليًا؟
أم الديب بصياح:يا لهوتي آني مختلة عقليًا يابن الكلب؟ ليه شايفني لابسالكم شِوال وناكشة شعري وبجري في قلب الشارع أقول الحقوني يا ناس؟ يا خراب بيتك يا بسمة، يا خيبتك القوية في عيالك وجوزك... ياريتني كنت بركت عليك انت وأخواتك ولا كنتوا جيتوا الدنيا .
أحمد بجلبة:ياريت، كنتي تبقي رحمتيني من الفضايح اللي عايشها بسببك! اركبي!
أم الديب بتعجب:ايهي دِه بيقولي فضايح؟ آني بعملكم فضايح؟

أم الديب الجزء الثالث

جلست أم الديب على المقعد الخلفي للسيارة، بعدما فتح لها أحمد الباب بنفسه، خوفًا من أن تدفعه بعنف كما فعلت البارحة فتزيد من حجم الخسائر. كان مشهدهما كمن يتحرك في مسرحية عبثية، يعرف أن عليه إصلاح هذا العيب في السيارة سريعًا، خاصة وأنه لن يجرؤ على تركها وهي على هذه الحال، إذ باتت لقمة سائغة لأيدي اللصوص، واحتمال سرقتها في الشارع يثير في نفسه قلقًا مضاعفًا، وما إن وصلا إلى فني السيارات، حتى ركن السيارة جانبًا ونزل تاركًا أم الديب بمفردها. بحث عن الفني بنظراته المستعجلة، وما إن وجده حتى استدعاه لمعاينة المشكلة، فاقترب الفني وفحص المقبض المكسور بنظرة دقيقة، وأخبره أن الأمر لا يحتمل سوى تبديله بآخر جديد، فاستجاب أحمد على مضض، يراقب الفني وهو يقتلع المقبض القديم ليضع بدلًا منه الجديد، وكل ضربة على المعدن تزيد من شعوره بالخسارة، إذ كانت أمواله تتبخر أمامه في سبيل إصلاح كسر لم يكن في الحسبان، فأصبح صفاء ذهنه معكرًا بغيمة من الحنق. بعد ساعة كاملة، وفي خضم أجواء مشوبة بالتعب، وصلت العائلة إلى منزل العروسين. ما إن وطأت أقدامهم العمارة حتى تردد صدى الزغاريد العالية، تملأ الأرجاء بأصوات الفرح، كأنها ترانيم تنطلق من بين أفواه النساء ابتهاجًا بهذا الحدث السعيد. كانت العروس هايدي ترتدي روب استقبال منمقًا يلفها كملكة، وقد توهج وجهها بألوان المكياج، بينما العريس زياد يقف مرتديًا بيجامته، يحيط نفسه بهالة من البساطة تليق بجو العائلة. كانت الأيادي تتصافح، ووجوه الرجال تتبادل الابتسامات الودودة، أما النساء فقد غمرن الشقة بالأحضان، والقبلات المتبادلة، وكأنهن يستقبلن الفرح بأذرع مفتوحة. اقتربت ليالي من هايدي، وهمست لها بسرور بالغ، قائلة كلمات دافئة تتطاير منها شرارات الحب:

_ألف مليون مبروك يا هايدي، وزي النهارده السنة الجاية نجيلك وانتي معاكي عوضك.

هايدي:لا أنا مش عايزة أخلف!

سألت "ليالي" و"نعمة" "هايدي" بصوت واحد، يعكس دهشتهما:

_إيه؟

هايدي بتردد:أنا اتفقت مع زياد منخلفش واتفقت معاه كمان إن كل واحد فينا ينام في أوضة لواحده!

اتجهت أنظار الجميع نحو حديث هايدي الغريب، وكأنما استحالت الدهشة إلى حالة جماعية تعكس استغرابهم، كيف لعروس في أول أيام زفافها أن تمنع زوجها من النوم بجانبها، وتصده بهذا الشكل وكأنه شخص غريب تمامًا وليس حلالها؟ سرعان ما جذبت "ليالي" هايدي نحوها، وهمست في أذنها بصوت خافت يحمل في طياته مزيجًا من الصدمة والقلق، قائلة:

_يخربيتك، إيه الهطل اللي بتقوليه ده؟ هو أخوكي يا بت؟ ده جوزك! يا نهار أسود مالك يا هايدي دماغك دي فيها ايه؟

اقتربت "نعمة" هي الأخرى من هايدي، واستندت إليها كما لو كانت تقدم دعم في وسط زوبعة المشاعر، ثم حدثتها بنبرة خافتة تحمل رائحة القلق:

_خدي بالك إن كان زياد صبر عليكي أسبوع، أسبوعين، شهر بالكتير مش هيصبر عليكي أكتر من كده... انتي بالشكل ده هتخليه يزهق منك ويرمي طوبتك بدري.

هايدي باضطراب:لا لا هو موافق ومبسوط وممانعش بالعكس قالي شوفي انتي عايزة إيه واعمليه!
قالت "ليالي" لهايدي بصدمة جلية في عينيها:
_مانتي خايبة، هو مش عايز يتكلم عشان لسه متجوزين ومش معقول يعني يحصل مشاكل وانتوا مكملتوش يومين جواز! طلعي الأفكار المتخلفة دي من دماغك يا هايدي وعيشي حياتك انتي وجوزك!

هايدي بثقة:لا هو فعلًا مبسوط ومش ممانع، متحاولوش تغيروا اتفاقاتنا مع بعض! احنا خلاص اتفقنا على كل حاجة!
تفوهت "نعمة" مع هايدي بصدمة، كأنما سقطت فوق رأسها كالكارثة، غير مصدقة أن أختها تتباعد عن عريسها منذ ليلة أمس، ومتخيلة في ذات اللحظة أنها ستعود إليهم بفطيرها الساخن، كأن الحياة لا تسير بشكل طبيعي:
_يا نهار أسود! هو انتوا من إمبارح وكل واحد فيكم نايم في أوضة لواحده؟

هايدي بتلعثم:أه، لا لا... أيوه.

قالت "ليالي" بصوت خافت لهايدي، وكأنها تخشى أن يسمع أحد ما تقول:
_كان لسه بدري عليكي يا هايدي، أنا مش فاهمة إيه اللي خلاكي اتجوزتي دلوقتي بس!
ردت "نعمة" على حديث "ليالي" بنبرة تحمل دهشة واضحة، قائلة:
=ولا بدري ولا حاجة ده وقته المناسب هي بس هايدي اللي عندها عقدة قد كده لسه متفككتش.
ثم أردفت لأختها هايدي، مقدمة لها النصائح التي قد تؤثر على حياتها بشكل إيجابي، مستندة إلى تجربتها السابقة في الزواج، قائلة بحكمة مكتسبة من تجاربها:
_اسمعي يا هايدي! احنا معندناش استعداد ترجعيلنا تاني! طلعي أفكارك المنتنة دي من دماغك وعيشي حياتك يا بت، متخليش الناس تشمت فينا!

هايدي:طيب ربنا يسهل.

تحدث حسين بسرور، موجهًا كلامه لهايدي بتهنئة مليئة بالفرح:
_ألف مبروك يا هايدي.

هايدي بتبسم:الله يبارك فيك يا عمي.

في تلك اللحظة، جاء طرق خفيف على الباب، فتوجهت هايدي لفتحه لتجد أحمد وأم الديب واقفين هناك.
بدا أحمد منهكًا للغاية، وعيناه محمرتان من أثر السهر المبالغ فيه منذ ليلة أمس، كأنما كل التعب قد تجسد في ملامحه، بينما كانت أم الديب كآلة لا تهدأ، مفعمة بالحيوية، وطاقتها تبدو عالية رغم استيقاظها

أم الديب الجزء الثالث

منذ الأمس. تقدم أحمد نحو أخته، وعانقها بحرارة، مقدمًا لها التهاني الحارة التي تنبع من قلبه المثقل بالهموم، قائلًا بابتسامة:
_ألف مبروك يا حبيبتي.

هايدي بسرور:الله يبارك فيك يا حبيبي.

حين نظرت هايدي لوجه أم الديب، تأملت ملامحها بحيرة، ثم سألتها بدهشة بارزة:
_إيه ده ماما؟ انتي كنتي فين؟

أم الديب بغلاظة:وسعي يا بت، بقى آني يتعمل فيا كل دهو؟

أزاحت أم الديب "هايدي" من طريقها بدفع خفيف، ثم دخلت الشقة كأنما تبحث عن مأوى، وجلست على الأريكة وسط الموجودين، متخذة مكانها كأنها ملكة في قاعة عرشها، بينما دخل أحمد وأوصد الباب وراءه، ليجلس هو الآخر غارقًا في رغباته للنوم. نظر المعلم حنفي إلى أم الديب بدهشة، مستغربًا غيابها منذ البارحة، وهو يتساءل في نفسه عن الأسباب، فقال لها بفضول:
_انتي كنتي فين؟

أم الديب بوقاحة:وانت مال اللي خلفوك يا راجل انت؟ شاغل دماغك بيا ليه؟ ولا هو تطلع عيني وعامل دلوقتي قلبك عليا؟
المعلم حنفي بندم:ياريتني ما سألت، ده كان يوم أسود.

هكذا كان ردها حينما سألها زوجها، إذ هبت فيه كالنيران المشتعلة، وجاء صوتها الجهوري يحمل في طياته قوة تعبر عن طريقتها التي لا تعرف الاحترام، مما جعل المعلم حنفي يندم على تدخله ويقرر في قرارة نفسه ألا يتدخل في أمورها مرة أخرى، عازمًا على تركها تواجه تحدياتها بمفردها. بينما سأل "جلال" "أحمد" قائلًا له بنبرة تحمل تساؤلًا خفيفًا:
_أمك كانت فين يا أحمد؟

أحمد بنعاس:هقولك بعدين.

لم يكن هذا وقت السرد والحكايات، فقد استنزف أحمد طاقته إلى حد كبير حتى الآن، ورأسه كان يميل نحو ظهر الأريكة كأنه يطلب الراحة في عزلته، غير مكترث بأحاديث من حوله، فكان النوم سلطانه الذي يسعى إليه. نهضت أم الديب فجأة، ودخلت المطبخ دون استئذان ابنتها مالكة المنزل الآن، باحثةً عن أي طعام يسد جوعها ويملأ معدتها الفارغة التي تئن من الخواء. وما إن وقعت عيناها على طبق الكعك والبسكوت، حتى استبشر وجهها سرورًا، فبدأت تتلذذ بنكهاته المميزة، وتناولته بشغف، إلى أن خرجت من المطبخ، وقد امتلأ فمها بالمذاقات اللذيذة. فسألتها هايدي بدهشة، مستنكرة هذا التصرف:

_انتي بتعملي إيه؟

أم الديب بشراهة:باكل... جعانة، إيه ماكلش؟
هايدي بمَوجدة:بس الحاجات دي بتاعتنا!

نظرت هايدي بانزعاج إلى نعمة وليالي، وعبرت نظرات عينيها عن رسالة واضحة، كأنها تقول لهما: "تدخلوا لإبعادها عني"، فقد كانت نظراتها تفسر الكثير مما يدور في خلدها. ثم دخلت النساء المطبخ معًا، حيث كانت ليالي تحمل طعام الصباحية، بينما كانت نعمة ترافقها فارغة اليد، لتبدأ في إعادة تسخين الفطير المشلتت في الفرن، كنوع من الإعداد لوجبة إفطار العروسين. جلست أم الديب على الأريكة بجانب جلال وأولاده، وهي تلتهم الكعك بالسكر بشهية، بحيث تناثرت ذراته على السجاد كأنها تتجاهل كل ما حولها. كان زياد ينظر إليها بضيق، غير قابل لفكرة هذه الفوضى التي تفسد أثاثه الجديد، لكنه كان غير قادر على النطق بكلمة واحدة تعبر عن استيائه. بينما نظر حمود إلى أم الديب بشغف، وقد أبدى اهتمامه الكبير بما تأكله، ثم قال لها:
_إديني حتة يا ستي!

أم الديب بقسوة:أبقى اطفح في بيتكم.

لكن جلال الذي كان يلاحظ طريقة أم الديب القاسية مع طفله، قال لها بصوت حاد:
_ما براحة على الواد ياما، هو مش ده حفيدك برضة؟

أم الديب بسخرية:لا ابن أختي.

قال المعلم حنفي بصوت خافت:
_دمك زنخ.
رن الجرس، فنهض زياد ليفتح الباب، لتكون المفاجأة غير متوقعة، إذ وجد جميلة وابنتيها متزينتين بأفخم البيجامات، بينما كانت جميلة متألقة بمكياجها الهادئ، ورائحة العطور الفاخرة التي اشتراها لها والديها من "فرنسا" تفوح منها، مما أضفى على هيئتهن البهية لمسة من الأناقة الرفيعة. تقدمت جميلة نحوهم، حاملةً أسيل بين ذراعيها، وخلفها كانت سيليا تتبعها بخفة، وقالت لهم برقة تعكس فرحتها:
_هاي، عاملين إيه؟
أجاب الجميع بحماس، حيث ارتسمت الابتسامات على وجوههم، فقالوا في صوت واحد:
=الحمدلله.
نظرت جميلة إلى زوجها، وسألته باهتمام عن هايدي، قائلة:
_هايدي فين يا أحمد؟

أحمد:دخلت الأوضة جوا، أدخليلها!

أم الديب الجزء الثالث

دخلت جميلة المطبخ لتلتقي بليالي ونعمة، بينما خرجت هايدي من غرفة النوم، فبدأت أصواتهن تتعالى وهن يصافحن بعضهن بحيوية. كان المنزل مفعمًا بالأحاديث في كل زاوية، وكأن الفرح قد غمر الشقة.
انقضت سيليا نحو جدها، منغمسة في أحضانه بشغف، قائلة له بحنان:
_جدو حنفي!
في المطبخ، قالت جميلة لهايدي بتهنئة، والابتسامة تتألق على وجهها كأشعة الشمس:
_مليون مبروك يا روحي.

هايدي ببشاشة:الله يبارك فيكي يا جميلة.

على الرغم من علاقة جميلة وليالي الودية التي تبدو ظاهريًا، إلا أن نار الغيرة اشتعلت في قلب ليالي بمجرد رؤية جميلة، التي كانت تذكرها بعيوبها ونقصها الذي تحاول إخفاءه. كلما التقت بها، كانت تشعر بحجمها الحقيقي، مما جعل غليان مشاعرها يتصاعد. وفجأة، سمعوا صدح ارتطام قوي، فخرجوا مُسرعين ليروا ما حدث، ليكتشفوا أن أم الديب قد أسقطت "كولدير الماء"، مما أدى إلى فيضان الماء في الشقة وكأن الدنيا قد غمرتها الأمطار. فزع الجميع من المنظر، وعبرت هايدي عن فزعها بصراخ مرتفع، كأنما كانت تريد لفت الانتباه إلى ما حدث، فقالت بصوت ينم عن القهر:
_ياربي أعمل إيه؟ أموت نفسي وأنتحر ولا أعمل إيه؟ يارب!
لم تكترث أم الديب بنحيب هايدي، بل صرخت في وجهها موجهة إياها بحزم، وكأنها تأمرها بأن تسارع في جلب المياه بسرعة، قائلة بصخب:
=اجري يا بت هاتيلي كوبايةماية! آني مش فاهمة إيه لازمته الجهاز دهو! ماحنا طول عمرنا بنشرب من حنفية المطبخ.

هايدي بصراخ:إيه ده؟ لا لا بجد إيه ده!

قالت ليالي لأم الديب بانفعال:
_الماية غرقت الدنيا، عاجبك كده يا حماتي؟

أم الديب بجلجلة:وانتي مالك؟ إيه حشرك ما بينا؟ لما يبقى دارك تبقي تتكلمي، لكن انتي هناهو مسمعش صوتك!

قالت نعمة لهن باستعجال، وكأن الوقت يداهمهن:
_والنبي ماهو وقته الكلام ده، اجروا بسرعة هاتوا جردل وخيشة، خلونا نلم الماية اللي غرقت السجادة!

أم الديب الجزء الثالث

وقفت هايدي في مواجهة أم الديب، غير مستشعرة بما تقوله، إذ كانت أطرافها ترتجف، ودموعها تتساقط بغزارة كأنها تنثر حزنها على الأرض، بينما تصرخ وهي تشير بيدها نحو الباب، قائلة بنواح يعبّر عن ألمها:

_اطلعي برا، اطلعي برا أنا مش عايزاكي تيجيلي تاني! أنا كرهت الدنيا واللي فيها على ايديكي، ده انتي لو ألد أعدائي مش هيطلع منك كل ده!

قال حسين لهايدي في محاولة منه للتهدئة، مستشعرًا عمق مشاعرها المُتضاربة:

=استهدي بالله يا هايدي، أكيد أمك متقصدش.

هايدي ببكاء:كل حاجة بتعملها متقصدهاش؟ ولما كانت مستخسرة فيا جهازي كانت متقصدش؟ ولما كانت عايزة ترميني لأي عريس يتقدملي كانت متقصدش؟ خناقاتها معايا كل يوم على أتفه الأسباب كانت متقصدش؟ ولا لما كانت بتخربلي فرحتي بدل ما كانت تخاف عليا وتسيبني أفرح زي أي بنت كانت متقصدش؟ انتوا اللي مش عارفين حاجة، محدش فيكم حاسس بحاجة غيري أنا!

قالت نعمة لهايدي بتأثر، وكأن كلماتها تحمل عبء مشاعرها:

=معلش يا هايدي، أمك بتحب..

بترت هايدي حديثها في الحال، وعلت نبرتها بنواحٍ عالٍ يتردد في أرجاء الحي الهادئ كأنما يوقظ السكون، قائلة:

_أوعي تقولي بتحبك دي تاني! أوعي تنطقيها أصلًا! ماما مابتحبش غير نفسها وبس، أنا بحس إن أنا يتيمة الأم.

قالت أم الديب لهايدي بصياح، صوتها يتردد كالرعد في سماء ملبدة بالغيوم:

=ايهي انتي موتيني وآني عايشة يا بت؟ وإيه جو الأفلام والمسلسلات اللي عاملهولي دهو؟ ما تعيشي عيشة أهلك وبطلي أنعرة كدابة!

نهض جلال من على الأريكة، غير مكترث بما يحدث حوله، وصوته يعلو بصخب وكأنه يريد أن يقطع حبل الفوضى:

_بقولكم إيه حلوا الحوارات دي بينكم وبين بعضكم، أنا دماغي مصدعة ومش فايقلكم وربنا!

ردت أم الديب بعجيج، وكأن صوتها يحمل عواصف من الاستياء:

=وانت مالك؟ حاشر نفسك انت ومراتك ليه؟ آني محدش يعلي صوته عليا، آني هناهو الراس الكبيرة!

قالت ليالي لأم الديب ببغضاء جلية، وقد تلاشت معها كل مظاهر المجاملة:

_ده انتي مش راس كبيرة، ده انتي راس أفعى!

أم الديب بحنق:بتقولي إيه يا بت سلامة؟

ليالي ببغضاء:مبقولش.

تلفظت نعمة بقلق، مستشعرة خطر تدفق المياه نحو صالة الاستقبال، حيث أن الوضع يخرج عن السيطرة:

_طب يلا يا جماعة لموا الماية قبل ما تسرح على الصالة!
نظرت هايدي لهم بعصبية، واندفعت نحو غرفتها، وقامت بإغلاق الباب بقوة أحدثت صدى في أرجاء الشقة، مما زاد من توتر الأجواء. فسألها زياد بصوت عالٍ، محاولًا كسر حدة الموقف:
_هايدي، انتي رايحة فين؟
كان أحمد يشعر أن كل هذا سيحدث، لكنّه اكتفى بإحساسه في دخيلته، متجاهلًا الفوضى المحيطة به، فقال وهو منغمس في رغبته للنوم، وكأن كلمات النوم تدعوه برفق:
_أنا عارف والله إن كل ده هيحصل بس مبحبش أتكلم وأسبق الأحداث، أهو كان قلبي حاسس.
قال زياد لأحمد بانفعال، وهما يتجهان نحو غرفة هايدي، ومشاعر القلق تتدفق من عينيه:
_معلش يا أحمد متزعلش مني، أنا مش هستضيف مرات عمي في بيتي بعد كده!

أحمد بتفهم:ومين قالك إن أنا هزعل؟ مانا عارف إن ماما مش سهلة وبتاعة مشاكل، وعلى إيه؟ خلي كل واحد مرتاح وهو بعيد عنها.

كان أحمد يدرك تمامًا طبيعة هذا الأمر، إذ لم يكن ليجرؤ أبدًا على الدفاع عن والدته، التي كانت تمثل سببًا لكل المشكلات التي تواجهه في مسار حياته المضطرب، وفي تلك الأثناء، بدأ يطرق الباب برفقة زياد، بينما استمعت أذنهما إلى نحيب هايدي الذي ينطلق من الداخل، والذي كان يعبّر عن ألمٍ عميق.
كانت هايدي، التي كانت تحاول مرارًا جذب الفرح نحوها بكل ما أوتيت من قوة، تجد نفسها دائمًا مطرودةً في الهواء من قِبل أم الديب، التي كانت تمثل لعنةً على مساعيها للعيش. شعرت هايدي وكأنها مدفونةٌ في رمال الحياة، غير قادرة على الاستمتاع بأي شيءٍ يحيط بها، حتى باتت حياتها كالجحيم الذي لا يرحم، حيث اختلطت الأفراح بالأحزان، وبدت الحدود بينهما غير واضحة، وكأنها سجنٌ لا ينتهي.
في تلك اللحظة، دخلت نعمة وليالي، حاملتين جردلًا من المرحاض والقماشة، لتجفيف المياه التي تسربت، بينما اقترب حسين من المعلم حنفي، وخاطبه بصوت خافت، بالكاد يمكن سماعه، كأنه يهمس بأسرار لا يجب أن تُفشى:
_بقولك إيه يا حنفي! أنا عارف إنك هتمشي معايا على نفس الخط.

المعلم حنفي بتمعن:قول يا حسين ياخويا.
حسين بحسم:مراتك متعتبش عتبة بيت زياد وهايدي بعد كده، زي مانت شايف مراتك مبتعملش حساب لحد وفي الآخر بتيجي على دماغ الغلابة دول.
المعلم حنفي بتنبيه:طب خد بالك ألا دي جاية!
حسين بحذر:ماشي.

تقدمت أم الديب لتجلس إزاءهم، وملامح وجهها كانت تعكس غضبًا شديدًا كأنها تحمل عاصفة من السخط والغضب الإلهي، إذ كانت تنظر يمينًا ويسارًا، وكأنها تبحث عن شيءٍ مفقود لا تستطيع إدراكه.
في تلك الأثناء، دخل زياد وأحمد إلى غرفة نوم هايدي، حيث وجد زياد محبوبته هايدي في حالةٍ من الانكسار، فضمها إلى أحضانه بحنانٍ عميق، وهو يواسيها بكلمات تحمل بين طياتها الشفقة، قائلًا:

أم الديب الجزء الثالث

_متزعليش يا هايدي، نعمة وليالي بيلموا الماية!

بينما كانت النساء منشغلات بتنظيف الأرضية التي غمرتها المياه، أطلقت أم الديب نظرة مشحونة بالبغضاء تجاه المعلم حنفي، وكأنها تستشعر في أعماقها احتقارًا لا يمكن إخفاؤه، ثم نطقت بكلماتٍ تحمل في طياتها وقاحةً بالغة، واحتقارًا مفرطًا، قائلة:
_بقولك إيه يا راجل يا منفخ انت!

المعلم حنفي بانفعال:هو انتي مبتتكلميش عدل زي الناس أبدًا، وكل كلامك غلط في غلط؟
أم الديب باستهانة:آني اتولدت كدهو وهعيش كدهو وهموت كدهو!
المعلم حنفي بكراهية:ده انتي الداكتور سحبك من لسانك، ياريته كان نسى وقطعهولك وريحنا من قلة أدبك.

نهضت أم الديب بثباتٍ غاضب، واقتربت منه بخطواتٍ كأنها تجسّد زحفًا لهيبًا من الكراهية، ومدّت يديها لتمسك بلياقة جلبابه الريفي بتشبثٍ شديد، فيما ارتعش هو فزعًا أمام ملامح وجهها الشريرة التي كانت تعكس شراسة لا تعرف الرحمة، ثم صاحت بصوتٍ حارٍّ، يحمل قوة سخط عارم:
_لولايا كان زمانك قاعد وشك في وش الحيطة ومفيش كلب بيسأل عليك! آني اللي خلفتلك أربع عيال وكبروا واتجوزوا وخلفوا وعملولك عزوة، وبقوا رايحين جايين عليك... لولايا كان زمانك نكرة محدش بيبص في وشك!

المعلم حنفي بتعجب:آني اللي مستغربه، انتي ازاي خلفتي زي باقية الحريم؟ ده انتي دكر!
أم الديب بغلاظة:آني دكر يا حنفي ؟ رد عليا! ايهي تقصد مين بالكلام دهو؟

اتكأت أم الديب بقبضةٍ كالجحيم على عنق المعلم حنفي، فبدأ يختنق وأنفاسه تتلاشى بين يديها القاسيتين، بينما نهض حسين وحامد من مكانهما بفزعٍ، وهرعت جميلة مسرعةً من المطبخ، يتبعها أحمد بخطواتٍ متخبطة، متسارعة، خارجًا من غرفة نوم هايدي. في تلك اللحظة، اندفع جلال نحوهم محاولًا التفريق بينهما، واندفع الآخرون في محاولاتٍ بائسة لفض هذا الاشتباك العنيف، وأمام هذا المشهد الذي يوحي بقرب النهاية، نظرت جميلة إلى أم الديب بعينين جاحظتين من الهلع، وهي ترى المعلم حنفي ينازع شبح الموت، وقالت بصوتٍ مرتعش:
_لا لا يا طنط، انتي بتخنقي أونكل كده!

أمسك أحمد بيد أم الديب بكل قوته، محاولًا إبعاد قبضتها القاسية عن والده، وصاح فيها بصوتٍ متهدج:
_انتي بتعملي فيه إيه؟
استجمع المعلم حنفي قواه، محاولًا استنشاق أكبر قدر من الأكسجين من حوله، وكأنما يسعى لاستعادة أنفاسه الهاربة من قبضة الموت. كان يتحدث بصوتٍ مشوبٍ بالألم، وأوتار حنجرته ترتجف بوجعٍ عميق، غير قادرٍ على نسج الكلمات، وهو يقول:

أم الديب الجزء الثالث

=أمك كانت عاوزة تموتني، وتجيب أجلي!

تقدمت أم الديب نحو المعلم حنفي مرة أخرى، خطواتها تنبض بالشر، وعيناها تلمعان ببريق الغلّ الذي لا يضاهيه شيء. كانت تشتعل رغبةً في الاشتباك معه، ووجنتاها ترتجفان من شدة الكراهية، ثم صاحت قائلة:

_مش هسيبك يا حنفي!

تحرر جلال من صمته المتكتم، وانفجر بصوتٍ حانق يملؤه الوعيد، صارخًا في وجه أم الديب بلهجةٍ تحمل في طياتها نبرة شرٍ لا تقبل التراجع، مهددًا إياها بطعنةٍ قاسية دون أن يأبه بكونها والدته، قائلًا بجمودٍ مخيف:

_عليا الطلاق إن ما سيبتي أبويا في حاله لأطلعلك المطوى وأغزك بيها ياما !

لم يكن جلال يعرف من بر الوالدين سوى اسمه، إذ إنّه اعتاد على عقوق والدته دون أن يشعر بوخزٍ من ضمير، لكنها كانت شريكةً في غرس هذا الجفاء في قلبه، بأفعالها الدنيئة التي تجرده من أي شعورٍ بالندم. لم يكن يهتم بفكرة احترامها، بل على العكس، كان مستعدًا ليدوس عليها كما يفعل بالغرباء، إلا أنّه يمسك نفسه دومًا، مخافة أن يلتقط أحدهم خطأً بسيطًا ليلصق به لقب قاسي القلب. أما جميلة، فقد كانت تقف متأملةً هذه العلاقة البشعة، مشدوهةً من انحدارها، حتى تساءلت في سرها بدهشة:

_مش معقول! هيعمل كده في مامته؟

أما أحمد، فعلى الرغم من قسوة ما يتعرض له، ظلّ محافظًا على برّه بوالديه، رافضًا أن تكون تلك التجاوزات حجة تبرر لهما الإساءة. لم يكن يستطيع أن يتقبل فكرة التمرد على والدته مهما كانت أفعالها، فالتفت إلى جلال بنظرة يملؤها الرفض، وقال له:

_لا يا جلال انت بتقول إيه؟ أصبر بس وهما شوية وهيتصالحوا!

تلفظت أم الديب بصياح:

=مانتوا كلكم جايين عليا عشان أبوكم، آني هسألكم سؤال وتردوا عليا بأمانة ربنا، مين اللي شالكم في بطنه تسع شهور واستحمل قرفكم آني ولا أبوكم؟

صرخ جلال بصوتٍ صاخبٍ كأنما أراد أن يزلزل جدران الشقة، ويكسر سلاسل الصخب المحيط، قائلًا بنبرة تهدر كالرعد:

_بقولك إيه ياما انتي مبتكلميش عيال صغيرة! اعقلي كده وسيبي أبويا في حاله، ده الراجل داخل على الستين وانتي مش عاتقاه!

تلفظ المعلم حنفي بأسى يغمر روحه، بينما كانت عيناه تشعان بالتعب:

=قولها!

وجهت أم الديب نظراتها إلى جلال، وقد تجلت في عينيها قسوة لا تُحتمل، ثم نطقت بكلماتٍ تحمل في طياتها وعيدًا شديدًا، مصممةً على أن تزرع في قلبه الرعب، قائلةً بتوعدٍ حازم:

_طيب يا جلال طيب أصبر عليا بس!

جلال بصخب:تاني ياما؟ تاني؟

أم الديب بعنف:وتالت ومليون، وسع من وشي كده، وسع!

أم الديب الجزء الثالث

أزاحتهم أم الديب عن وجهها بكل عنف، واندفعت إلى المرحاض في حين ظلت هايدي تنتحب في غرفتها، وزياد يقدم لها الدعم العاطفي، محاولًا تهدئة مشاعرها المتلاطمة. بينما بدأت العائلة في الصالة تهدئة المشكلة، إذ بدأ كل واحدٍ منهم بإلقاء كلماتٍ طيبة، ما أعاد إلى الشقة بعضًا من الهدوء، فجلسوا من جديد مرتاحين لدقائق من ازعاج أم الديب. كانت نعمة تتكئ بظهرها، تمسح الأرض، وقد بدا الجرح الذي كانت تعاني منه قد استجاب للعلاج كثيرًا، لكن ليالي فضلت أن تظل نعمة بعيدة عن أي إرهاق قد ينهك جسدها الذي لا يزال في فترة النفاس. نظرت ليالي إليها بقلقٍ شديد، وأخبرتها بضرورة الحفاظ على نفسها، قائلة بروح الأخت الدافئة:
_قومي يا نعمة انتي لسه نَفَسة واللي بتعمليه ده غلط عليكي!

نعمة بإحراج:ماهو مش كل مرة يا ليالي أمي تبوظ الدنيا وأسيبك انتي تتعكي بسببها، هو انتي إيه ذنبك بس في كل ده؟
ليالي بابتسامة ماكرة:هقولك يا ستي، ذنبي إنها حماتي، أنا لو كنت أعرف إن كل ده هيحصل مكنتش وافقت على الجوازة دي! من يومها وأنا مشوفتش يوم راحة، وياريت أمك بتحس على دمها وتعرف إن اللي بتعمله ده غلط، لا لا دي بتكابر وبتعند وتطلعنا احنا في الآخر اللي غلطانين.
نعمة:معلش ياختي هاتيها فيا، هو انتي لواحدك يعني اللي بتعاني من عمايلها؟ ماحنا كمان كده، انتي من يوم ماتجوزتي جلال ومشوفتيش يوم راحة وأنا من يوم ماتولدت وجيت الدنيا مشوفتش يوم راحة واتحرمت من حاجات كتير أوي يا ليالي.
ليالي:الحال من بعـ...

فجأةً، ظهرَت أم الديب خلفهم، مترقبة اللحظة المناسبة للانقضاض، إذ بدت وكأنها استمعت لكل ما دار بينهم من همسات. انبعث صوتها الحاد في الأجواء، وهي تسأل نعمة، متهيئة للنزاع مع ابنتها، قائلة:
_هو إيه اللي اتحرمتي منه يا نعمة؟

نعمة بتلجلج:لا ياما ده أنا بتكلم على حامد جوزي، أصل أول امبارح طلبت منه يجيبلي كيلو جوافة فقالي يعني إن ممعاهوش فلوس، ولا امبارح طلبت منه كيلو موز قالي برضة إن ممعاهوش فلوس وأنا كان نفسي فيهم أوي.

همست ليالي بصوت خافت يكاد يُسمع:
_شوف جابت ورا ازاي؟
تلفظت أم الديب بفظاظة:
=طب يلا ياختي منك ليها شهلوا شوية عن كدهو!

ثم تركتهم وغادرت إلى الصالة، حيث جلست مع العائلة التي لم يكن أحدٌ منهم يحتمل وجودها، إذ كان الجميع مستائين من تصرفاتها الفظة، ومما تتركه من أثر سلبي على الأجواء. كانوا يتحدثون معًا، دون أن يلتفتوا إليها أو يشاركوها في حديثهم، مما جعلها تبدو وكأنها شخصية منبوذة في عيون الآخرين، لا

مكان لها بينهم. بينما تطوّعت ليالي لتجفيف الأرضية المغمورة بالمياه، جلست وبدأت تعمل بجهدٍ واضح، في حين بقيت نعمة واقفةً تتابعها، لكن ليالي شعرت فجأةً بغيظٍ عارم حين نظرت إلى جميلة، لتجدها جالسةً ببهاءٍ وجاذبية على الأريكة، بجانب زوجها، وتتبادل الأحاديث برقةٍ مع المعلم حنفي، وحسين، وأحمد، الذين كانوا يكلمونها بشغفٍ، خاصةً وأنها ابنة الأكابر ذات المستوى الشامق. كانت جميلة محتفظةً بهيبتها، ساقها متقاطعة فوق الأخرى، تنظر إلى المعلم حنفي تارةً، وإلى أحمد تارةً أخرى، فيما كانوا يتبادلون الحديث معها. تلاشى شعور ليالي بالراحة، حين أدركت أنها تظلم نفسها وهي تعمل كخادمة. في حين كانت جميلة تتألق كالملكة في عرشها، وفي لحظةٍ من الغيظ الذي كان ينهشها، نهضت وقالت لنعمة بغيرةٍ ملحوظة:

_وهي جميلة مجاتش تعمل معانا ليه؟ إيه خايفة على هدومها تتوسخ؟

نعمة:جميلة مالهاش في الجو ده! وبعدين هي مالها؟ هي يعني اللي كانت وقعت جهاز الماية وغرقت الدنيا؟

ليالي بغيظ:وهو أنا يعني اللي كنت وقعت جهاز الماية؟ مش كفاية شايلة قرفكم على دماغي من فوق وساكتة؟ طب والله مانا عاملة!

وسط خضم الحديث الذي كان يدور بين العائلة، رفعت سيليا صوتها بخجل، وسألت والدتها باستئذان:ٍ

_مامي ممكن ألعب مع تقى؟

جميلة برقة:أها يا حبيبتي ممكن.

ذهبت الطفلتان تلعبان في ركن جانبي بروح مرحة مع حمود ومحمد، بينما كان حامد يحمل طفله عمر فوق ساقيه، مانحًا إياه لمسةً من الحنان. اتجهت ليالي نحو جميلة، إذ وضعت يدها على خصرها، ورفعت حاجبيها بتعبير يوحي بالاستفزاز، ثم قالت لها بسخرية:ٍ

_أما بقولك يا جميلة ياختي، معلش يعني احنا خلاص بقينا عيلة واحدة، انتي مابتعمليش معانا ليه؟ ما تقومي تحركي نفسك وتتعودي على التنضيف! هو انتي مش بتنضفي بيتك ولا إيه؟ حوسة لا تكوني سايباه مزبلة!

جميلة بدهشة:أنا؟

ليالي باندفاع:هو في غيرنا يا حبيبتي؟ هكون بكلم جوزي ولا جوزك ولا يكونش بكلم حمايا؟

جميلة بغرور:أنا بيتي نضيف وطول عمره نضيف، مامي بتبعتلي الخدامات بتوعها ينضفوا البيت كل أسبوع!

ليالي باستهزاء:ماهو باين، طب قومي نضفي معانا!

جميلة باعتراض:لا طبعًا، أنا اعمل كده بمزاجي مش بمزاجك خالص! انتي هتديني أوردر ولا إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

سأل "أحمد" "ليالي" مستفهمًا بقلقٍ عن سبب الشجار الذي نشب بينهم، وقد بدت في عينيه رغبةٌ في فهم الأحداث:
_في إيه يا ليالي؟ عايزة إيه من جميلة؟

ليالي بعبوس:عاوزاها تقوم تنضف زي ماحنا بننضف، ماهو هنا مفيش حد أحسن من التاني وكلنا زي بعض.

رد جلال مؤيدًا حديث ليالي، وقد تخللت نبرته حدة تُظهر استياءه من الوضع القائم:
_أيوه يا بت.
ثم سأل جلال "أحمد" باستفهامٍ ملؤه التعجب، مستنكرًا السبب وراء دلال جميلة المتزايد الذي يمنعها عن أداء واجبات المنزل كباقي النساء:
_أمال مراتك مبتنضفش ليه؟

أحمد بتضايق:جميلة مش هتقدر تعمل حاجة.

تلفظت ليالي بعباراتٍ مشوبة بالازدراء للمرة الثانية، وجسدها يهتز كأنه يحمل بداخلها شحنةً من الكيد، وكأنها كانت تتوق إلى توصيل رسالتها بكل حدة:
_ليه على رجليها نقش الحنة ولا عليها نقش الحنة؟

أجابت جميلة بعزةٍ واضحة، دون أن تتأثر بكلمات ليالي، واضعة حدًا لكل ما يمكن أن يُقال، متمسكةً برأيها الراسخ في مسألة العلاقة بينهما:
=أنا مسمحلكيش تتكلمي عني بالأسلوب ده أبدًا! لولا إنك مرات جلال كان هيبقى ليا كلام تاني معاكي !

ثم نادت ابنتها بلهجة تحمل الغرور، موجهةً إليها الأمر بوضوحٍ، ساعية لتأكيد هيمنتها، قائلة:ً
=سيليا، سيليا!

نهضت جميلة، حاملةً طفلتها أسيل برفق، وغادرت مع سيليا، وكأنهما تجسيدٌ للهدوء والرقي في مواجهة الضغوط المحيطة بهما، خرجتا من شقة العروس دون أن تتزعزع لهما قامة أو تضعف أمام نظرات الآخرين. وعندما دخلت شقتها، أوصدت الباب خلفها بقوةٍ، لتعيش في عالمها الخاص، الحر، بعيدًا عن كيد الريفيين وأجواءهم.

يتبع....

الفصل التاسع والعشرون

قد اعترت ملامح الذهول وجه "أحمد" واستبدت به مشاعر الاستفهام، فسأل "جلال" في دهشة خالصة:
_إيه اللي مراتك بتقوله ده يا جلال؟ وهي من امتى جميلة بتنضف؟ انت يعني مش عارف إن طول عمرها عايشة عيشة مرتاحة ومبتعملش حاجة بإيديها؟

جلال:أنا إيه دراني ياض؟ أنا اتفاجئت زيي زيك !

نطقت ليالي، وقد ارتسمت على ملامحها بسمة ساخرة تشي بما تخفيه من تهكم، قائلة لأحمد بأسلوب ينضح بالسخرية:
_يا سلام؟ وهي عشان مبتعملش حاجة في بيت أهلها، تيجي علينا احنا وتتعوج وتعملنا فيها بنت با...

أحمد بحزم:أنا مش هسمحلك تتكلمي على مراتي بالشكل ده!جميلة خط أحمر ومالكيش دعوة بيها تاني!

خرج أحمد من الشقة بخطى مشحونة بالكدر، تحمل في طياتها اعتراضه الجارف على أسلوب ليالي المستفز في الحديث عن زوجته، وقد عقد العزم على أن يكون درعها الحامي وحارس كرامتها، يذود عنها بكلماته الصادقة التي لا تعرف المواربة. رغم وطأة النعاس التي أثقلته، عاد إلى شقته مثقلًا بأفكار تهمس في رأسه، يبحث بين زوايا المنزل عن زوجته المتأججة بالغضب، ساعيًا لإرضائها والاعتذار لها عما بدر من ليالي، التي على ما يبدو تفتقر إلى أبسط قواعد اللباقة في الحديث. أما ليالي، فقد اجتاحها الغيظ كنار تتأجج في صدرها، فاستدارت نحو زوجها جلال، تصيح بصوت يحمل شدة:ً
_شايف أخوك بيتكلم معايا ازاي يا جلال؟
وسط الضجيج الذي خيم على الشقة بين ليالي وجلال، تقدمت نعمة بخطوات وئيدة، تضفي بنورها هدوءًا على فوضى اللحظة. نظرت نحو حامد، الذي شهد الموقف منذ بدايته، وعيناها تشعان بحيرة، فسألته بصوت يفيض بالهدوء والرغبة في الفهم:
_هو إيه اللي حصل؟

حامد بشده:أنا سامع شد في الكلام بس مفهمتش حاجة، إيه اللي حصل يا جلال؟

رفع جلال صوته في حدة تجسد الحنق الذي أضرمته تصرفات زوجته، موجهًا إليها تهديدًا صارمًا بالرد القاسي إن لم تضع حدًا لصخبها. فقد أشتعلت نيران الغيرة في قلبها، ودفعتها إلى افتعال الفضائح التي نالت من هيبته، لا لشيء إلا لحقد متقد تجاه جميلة، تلك التي كانت ترى فيها منافسة تزعزع كبرياءها، فقال لها:
_مسمعش صوتك يا ليالي! وكلمة كمان أنا همد إيدي عليكي! متصغرنيش يا بت، أنا كبير وطول عمري كبير ومش هتيجي واحدة زيك تصغرني!

ليالي بصخب:اشمعنا هي تحط رجل على رجل ومتمدش إيديها في حاجة وأنا اللي كل مرة مطلوب مني أتمرمط وأتذل لجنابكم؟
جلال بصياح:هي كلمة ومش هعيدها تاني !

أطلقت نعمة كلماتها مع ليالي وقد ارتسمت على وجهها الدهشة، تنبض نبراتها بحيرة لا تخفى، متسائلة في استغراب كمن يبحث عن إجابة وسط دهاليز المواقف المبهمة:
_برضة عملتي اللي في دماغك واتكلمتي يا ليالي؟

ليالي بغيظ:أيوه يا نعمة، ومكنتش ههدى ولا أرتاح إلا لما أتكلم.

استجمع حامد كلماته وقد اكتست ملامحه بطابع الاستفهام، فسأل مستفسرًا عن جذور النزاع منذ بدايته:
_طب ما تفهموني إيه الحوار؟
في خضم الأجواء المشحونة بالمشاكل، اختار كبير العائلة الصمت، مكتفيًا بدور المستمع الحكيم دون أن يبدي رأيه، إذ كان يخشى أن يتدخل في الأمر فيثير غضب إحدى زوجات أبنائه، فآثر السكون ملاذًا وسورًا يحميه من الانحياز. أما أم الديب، فقد كانت بعيدة عن تلك الأجواء المضطربة، تجلس في هدوء داخل غرفة الأطفال، حيث يرقد عمر نائمًا على السرير، غافلة تمامًا عما يجري من صراعات حولها، وفي تلك اللحظة، لم يتمالك حسين نفسه، فالتفت بدهشة نحو المعلم حنفي، وعيناه تنطقان بعلامات التعجب، قائلًا له:
_اللاه ما تقول حاجة يا حنفي! يعني نساوين عيالك الإتنين بيتخانقوا وانت قاعد ساكت؟

المعلم حنفي:هقول إيه يا حسين ياخويا؟ لو اتكلمت مع واحدة التانية هتزعل، خليني برا المشكلة أحسن.
حسين:أنا زيي زيك مرضتش أنطق بكلمة ألا أتفهم غلط، بس إن جينا للحق مراتات عيالك الإتنين غلطانين... مش مرات أحمد اسمها جميلة؟
المعلم حنفي:أه جميلة.
حسين:جميلة غلطانة وليالي غلطانة... جميلة غلطانة إنها مبتشاركش في حاجة ولسه عايشة عيشة أهلها ومش عايزة تتنازل! وليالي غلطانة إنها دخلت تتكلم بالإندفاعية دي، ده أنا حسيت إنها هتمسكها تعجنها ضرب تحت ايديها مانت مشوفتهاش!
المعلم حنفي بضيق:ماهو أصلك انت متعرفش، ليالي شايفة من الولية أيام سودة وساكتة ومكتمة في جنابها بقالها سنين، ماهو من اللي هي شايفاه، مفيش حاجة من فراغ!
حسين:ربنا يهديهم يا حنفي.
المعلم حنفي:يارب ياخويا.

أم الديب الجزء الثالث

خرج زياد من الغرفة برفقة هايدي، وقد طغى على وجهه ملامح الود بعدما تمكن بأساليبه الحصيفة من تجديد روحها المتهالكة، وأعاد إلى قلبها بريقًا افتقدته. كان يسير بجانبها واضعًا يده فوق كتفها برفق، يمشيان بخطوات تتهادى، عروسان حديثا العهد بالحب. هناك، نظر زياد إلى هايدي بعينيه المملوءتين حنانًا، وسألها بلُطف:

_بقيتي أحسن دلوقتي؟

هايدي بابتسامة:أيوه يا زياد.

زياد ببشاشة:الحمدلله يا حبيبتي، يارب دايمًا.

بعدما دخلوا الصالة، لم يجدوا أحمد وجميلة وفتياتهم الصغار، بل رأوا جلال وليالي، ونعمة وحامد واقفين معًا، يتبادلون الحديث بشكل يوحي وكأنهم في خضم مشادة كبيرة، وفجأة، انطلق جلال بالصياح، معاتبًا ليالي على تصرفها الخاطئ الذي أثار الجدل، قائلًا لها:

_يا بت انتي غاوية مشاكل زي أمي؟ مالبت كانت ساكتة وكويسة، بتجري شكلها ليه؟

ليالي بامتعاض:انت مش حقاني يا جلال طالع زي أمك، أمك دي ست ضلالية ومتعرفش طريق الحق فين... بقى أنا تميزوا ست بتاعة دي عني؟ ليه ياخويا زيادة عني في إيه؟

عندما ارتفع صوت ليالي، لم تتمالك نعمة نفسها، فصرخت في حدة، تعبر، قائلة:

_يا لهوي يا ليالي أسكتي ألا أمي تسمعك!

سألتهم هايدي بدهشة:

=في إيه؟

داخل الغرفة حيث كانت أم الديب جالسة على السرير بجوار "عمر"، ابن نعمة، الذي لم يكن قد أتم شهره الأول بعد في هذه الحياة المليئة بالتحديات، كانت الأجواء تنبض ببراءة الطفولة. من المؤسف أن يكون هذا الطفل الصغير قد وُلد في كنف عائلة تموج بالمشاكل والاضطرابات، لكن لم يكن بمقدوره أن يختار أسرته أو الظروف التي أحاطت به. كانت رائحته عطرة كالملاك الصغير، يغفو في نومه الهادئ، وإصبعه الرقيق يلتف حول فمه، ظنًا منه أنه يرضع من ثدي أمه. نظرت أم الديب بعينين مليئتين بالعطف، متمعنةً في ملامح الطفل الناعمة، وحدثت نفسها بتفكير يشبه همسات القلب:

_ايهي هو مش شبه نعمة ليه؟ الواد شارب من سته أم أشرف اللي ربنا ياخدها قوام قوام... كل دهي مناخير يا ولا؟ وبعدين الواد أبوه وأمه سُمر، طالع فاتح لمين؟ايهي مش يمكن مش ابنها؟ لا يكون الواد حامد بدله بعيل تاني! إكمنه واطي ويعملها عشان الفلوس، يا خراب بيتك يا أم الديب حفيدك اتبدل في المستشفى! لا لا ازاي بس؟ هو آني قاعدة هناهو ليه؟ أما أقوم أشوف أشكالهم العِكرة بتهبب إيه.

عندما خرجت أم الديب من الغرفة، وجدت جلال وزوجته في خضم مشادة حادة، بينما كانت هايدي ونعمة وحامد وزياد يتوسطون المكان، محاولين تهدئة النزاع بكل ما أوتوا من طاقة، وكأن صدى

أم الديب الجزء الثالث

الصراخ يتردد في كل زاوية من زوايا الشقة. تفاقمت الأحداث في عقل هايدي، فما لبثت أن صرخت بقوة، قائلة:

_يا ربي، اهدوا بقى انتوا زهقتوني! انتوا مبتشبعوش مشاكل؟

أحس زياد بالإحراج يعتصر قلبه من فكرة أن يسمعهم الجيران، مما قد يترك انطباعًا سيئًا عن العروسين الذين لم يمضِ على زواجهما سوى يومين. تملكته مخاوف من أن تزداد القضايا تعقيدًا، فتوجه بكلماته إلى الحاضرين، محاولًا تخفيف حدة الشجار، قائلًا:

_يا جماعة مينفعش اللي بتعملوه ده، الناس هتسمع صوتكم وهيبقى شكلنا وحش أوي!

تلفظ جلال بعجيجٍ عالٍ مع زوجته، حيث كانت كلماته تتصاعد في نبرة حادة، تعبر عن احتدام النقاش بينهما:

_يلا يا ليالي خشي اندهي العيال عشان راجعين على البيت!

ليالي بعناد:وأنا مش مروحة معاك في حتة يا جلال، ترجعلي حقي الأول وبعدين أرجع معاك!
جلال بجلبة:حقك إيه يا بت؟ هو انتي حد داسلك على طرف؟ ولا هو ضربني وبكى وسبقني واشتكى؟

جذبت نعمة ليالي نحوها بقوة، وكأنها تسعى لإنقاذها من خضم العاصفة الكلامية، ثم قالت لهما بصوت يحمل نبرة من الحزم:

_روق دمك يا جلال، اهدي يا ليالي الله يكرمكم!

قال حامد بابتسامة طفيفة تتسلل إلى ملامحه، كمن يسعى إلى إضاءة لحظة مشحونة بالسلبية:

_خلاص يا جدعان حصل خير، كان لازمته إيه كل ده؟

كان كل واحد منهم يلقي كلماته على الآخر، وكأنهم في مهرجان من الجدال المتواصل، بينما كانت أم الديب بينهم، كالأصم في الحفل، تراقب الموقف دون أن تفهم شيئًا مما يجري. ومع تصاعد الحديث حولها، وارتفاع الأصوات حتى بلغت ذروتها، طفح بها الكيل، فاستجمعت شجاعتها وعجت بصوتها الغليظ، مستفسرة بقلق عن الأحداث الأخيرة التي غابت عنها:

_في إيه يا ولاد الكلـ* منك ليهم؟

عمَّ الصمت أرجاء المكان، وجلس الجميع في حالة من الترقب، إذ لم يستطع أحد منهم أن ينطق بكلمة، فكانوا يدركون تمامًا أن أم الديب ستقف بلا تردد في صف جميلة. وبعد لحظات من السكون المطبق، أعادت سؤالها بدهشة، وقد اتسعت عينيها من الاستفسار، قائلة:

_ايهي اتخرستوا ليه؟

نظرت أم الديب إلى المعلم حنفي، الذي كان جالسًا ساكنًا على كرسيه بجانب أخيه حسين، مشغولًا بلعب أظافره وكأنه غير مكترث بما يحدث حوله من مشادات. تملكها الاستغراب من عدم اكتراثه، فاقتربت منه وسألته بدهشة تعكس قلقها:

_في إيه يا حنفي؟

المعلم حنفي ببُغض:معرفش.

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بصياح:مرزوع من ساعتها على الكرسي متحركتش وفي الآخر متعرفش؟ أمال تعرف إيه؟ النسوان اللي بيرقصوا على قنوات الرقص والمسخرة؟ ايهي هما زيادة عني في إيه؟

قالت نعمة لوالدتها بصياح، وقد تجلت في صوتها مشاعر الحنق:
_جرا إيه ياما؟ هو انتي هتتكلمي وتردي على نفسك؟ إيه جاب اللي بتقوليه ده للي بيحصل دلوقتي؟

أم الديب بانفعال:مانتوا كلكم اتخرستوا ومحدش عاوز ينطق!
نعمة بقلق:هقولك ياما بس لما نرجع البيت.

جرت نعمة بسرعة إلى غرفة أطفال هايدي، حيث كانت تتطلع إلى تقديم لمسة من السعادة في خضم الفوضى التي تعصف بالعائلة. حملت حقيبتها التي كانت بجوار مولودها على السرير، واستخرجت منها مائة جنيه، كنقوط للعروسين في صباحية زفافهما. كان هذا ما استطاعت تقديمه، خصوصًا في ظل الظروف المادية العصيبة التي يمرون بها. ثم خرجت إلى أختها هايدي، وجذبتها جانبًا بعيدًا عن دوامة المشاجرات. عندما سلمتها المال في يدها، نظرت هايدي إلى المائة جنيه بدهشة، مشدوهة من المبادرة في هذا الوقت غير الملائم، حيث كانت الأجواء مشحونة بالصراخ. مستغربة، وقالت لها:
_احنا في إيه ولا إيه بس يا نعمة؟

نعمة بتبسم:سيبك من اللي حصل ده، انتي عروسة وفي ليلة صباحيتك... دي حاجة بسيطة، لو أطول أجيبلك أكتر من كده كنت جيبتلك.
هايدي بسرور:أنا عارفة والله... ربنا يخليكي ليا يا نعمة، وعقبال ما تفرحي بمحمد وعمر.
نعمة بفرح:يارب، يسمع منك ربنا.

في شقة أحمد، وبعدما غيّر ثيابه وارتدى البيجامة، جلس على السرير بجوار جميلة، التي كانت مستاءة في غرفة تغمرها ظلال الظلام، ولا يتخللها سوى ضوء الأباجورة ذات اللون البرتقالي الدافئ. تلاشت الضحكة التي اعتاد سماعها منها، وحلّت محلها نظرات ساخطة تعبر عن خيبة أمل. كان أحمد يقاوم النعاس حتى تلك اللحظة، وطاقته بدأت تتلاشى بشكل ملحوظ، وكأنها تتوارى ببطء. وسط حديثهما، انفجرت جميلة باعتراض عارم، قائلة لأحمد إنها لا تستطيع تحمل فكرة أن تدخل ليالي منزلها مرة أخرى بعد ما حدث بينهما، مشددة على ضرورة الحفاظ على كرامتها وخصوصيتها، قائلة له:
_أنا مستحيل أستقبل ليالي دي في بيتي مرة تانية، دي بجد قليلة الذوق جدًا... هي ازاي تتكلم معايا كده؟هي نسيت نفسها؟ خلاص هتساوي نفسها بيا؟

أحمد بتضامن:لا طبعًا يا جميلة انتي مفيش حد زيك! ومن الواضح إنها فعلًا نسيت نفسها ولكن أنا وقفتها عند حدها، ومستحيل تتكلم الكلام اللي قالته ده تاني.
جميلة بكراهية:أنا بفكر أغير العمارة اللي احنا فيها، فعلًا مش هقدر أشوفها ولو صدفة.

أم الديب الجزء الثالث

أحمد بتعجب:ياه يا جميلة هو احنا هنفضل نتنقل كل شوية من شقة للتانية؟ مش اتفقنا منتقلش إلا على الڤيلا اللي المفروض نشتريها بعدين؟
جميلة بتضايق:أنا شايفة إنك اتأخرت أوي في شرا الڤيلا، أنا من حقي أعيش في ڤيلا زي باقية أخواتي ولا انت إيه رأيك؟
أحمد برفق:من حقك، بس انتي عارفة إن الفلوس مش هتكفي، مفيهاش حاجة لو استنينا شوية كمان!

جميلة بسُخط:أنا معنديش استعداد أشوف ليالي دي تاني!
أحمد بلُطف:بقى انتي عايزة تنقلي من العمارة كلها علشان بس متشوفيش ليالي مرة تانية؟ معقول ده تفكيرك؟
جميلة باستهزاء:ليه هي دي أول مرة ليالي تتصرف معايا التصرف الحقير ده؟ ماهو باين جدًا إنها طالعة من.Rubbish Place
أحمد بابتسامة:أنا عارف إن الفرق بينكم كبير جدًا بس مينفعش أقول كده قصادهم، أكيد الموضوع حساس جدًا ويزعل، انتي حرة في قرارك إنك مش عايزة تشوفيها تاني وكلنا هنحترم ده جدًا بس قرار الڤيلا حاليًا مينفعش!
جميلة بهدوء:أوكي يا حبيبي مفيش مشكلة، منين ما تكون جاهز عرفني!

قبل أحمد رأس زوجته، مُعبرًا عن اعتذاراته الصادقة عن كل ما جرى، ثم استلقى بجسده برمته فوق السرير، وبسط الغطاء عليه كأنه يستعد لاحتضان أحلامه بعد يومين عسيرين، ليدخل أخيرًا في نوم عميق يغمره بالراحة. بينما خرجت جميلة من الغرفة، تاركة إياه في هدوء يسود المكان، وأوصدت الباب برفق محاولة أن تحافظ على السكينة، ثم اتجهت نحو الريسيبشن لتجلس مع فتياتها الصغار، حيث كان الجو هناك أكثر بهجة، مفعمًا بصوت ضحكاتهم ومرحهم. بعد نصف ساعة، غادرت العائلة شقة العروسين، ونزل الجميع إلى سيارتهم، مُستعدين للعودة إلى منزلهم. وبعد ساعات من الطريق، وصلوا إلى وطنهم، فتوزعوا بين من دخل منزله مباشرة ومن توجه إلى أعماله. في صباح اليوم التالي، استيقظت أم الديب بخطوات ثقيلة، وكأن كل خطوة تمثل عبءًا من الأفكار التي تتزاحم في ذهنها، فدخلت غرفة هايدي، لتلقي نظرة على كل الزوايا بأمل عميق أن توسع صالتها الضيقة عن طريق فتح غرفة هايدي، لتتحول إلى صالة أكثر اتساعًا، حيث تستطيع استضافة الأحبة بكل أريحية. وبينما كانت غارقة في تلك الأفكار، همست لنفسها بتفاؤل:

_يلا أديكي اتجوزتي وفضيتيلنا مكان... هي الشقة مستحملاني لما تستحمل تلاتة مرة واحدة؟ طب والنبي آني ما عارفة ازاي كلنا كنا عايشين في الشقة دهي! قطعتي بينا يا بت يا هايدي.

بينما كان المعلم حنفي يغفو في سبات غائر، احتلت أذنه نداء أم الديب الحار، وهي تناديه بصوت يغمره القسوة:

_يا حنفي، انت يا راجل اصحى!

ثم دخلت أم الديب إلى غرفة المعلم حنفي وهو غارق في نومه، وأردفت له بنبرة محملة بالغلاظة:

_اصحى زمان الحاج عبد السلام جاي ياخد أوضة البت! آني مش هبيعها أقل من ألف جنيه، أمال إيه؟ ماهو أصل الأوضة دهي غالية عليا أوي أوي.

أم الديب الجزء الثالث

المعلم حنفي بنعاس:أوضة إيه يا ولية؟

نهض المعلم حنفي مشدوهًا مما سمعه، كأن صدمة الكلمات قد أفزعت نومه واحتلت عقله. جاء قرار إزالة غرفة هايدي في ليلة وضحاها، إذ كانت أم الديب قد أخبرته عن الأمر بطريقة مباشرة، مما جعل الأثر يتردد في نفسه كصدًى، قائلة له:
_أوضة بتك هايدي، هو مش آني متفقة معاك إننا هنبيعها ونفتح أوضتها على الصالة نوسعها؟

المعلم حنفي:أما بقولك يا ولية كنت عاوزك في موضوع.
أم الديب بفضول:موضوع إيه دهو؟

نهض المعلم حنفي من سريره، وأزاح الغطاء عنه بهدوء، واتجه نحو الصالة بخطواته العجوزة، محاولًا استجماع أفكاره، ثم جلس فوق الأريكة كمن يستعد لمواجهة مصير غير معلوم. شعرت أم الديب أن تصرفاته تعكس عدم احترامه لمكانتها، فغلبتها مشاعر السخط، وقالت له بصياح، مما جعل صوتها يعلو في الغرفة:
_انت رايح فين؟

المعلم حنفي:هنتكلم هنا يا ولية، تعالي بس!
أم الديب بصياح:ايهي هو آني شخشيخة هتحركها على كيفك؟ آني مش جاية في حتة، تعالى انت يإما بلاها كلام خالص!
المعلم حنفي بلين:يا ولية تعالي متنشفيش دماغك! تعالي يا بسمة!

نظرت أم الديب إلى المعلم حنفي بتقزز، ثم جلست بجانبه على الأريكة اليتيمة التي تبقت في منزلهم، في جو ممل يعبق بالذكريات، بعدما تزوج كل أبناءها، فلم يتبقَ سواها هي وزوجها وحيدين في هذا المكان الخالي من الضجيج. أخذ المعلم حنفي نفسًا عميقًا، محاولًا ترتيب أفكاره، فقال لها، وهو يرغب بصدق في إصلاح الأمور بين زوجات أحمد وجلال، ليعيد بعض السكينة إلى القلوب المُضطربة:
_آني شايف إنك تعملي عزومة لعيالك وتصالحيهم على بعض بعد اللي حصل ليلة امبارح، نساوين عيالك زعلانين من بعض وزمان عيالك ذات نفسهم قلوبهم شايلة.
أم الديب بصراخ:ايهي وهو كان حد قال لمقصوفة الرقبة ليالي تنجر من لسانها وتتكلم الكلام دهو؟
المعلم حنفي:ليالي شايلة منك كتير ومكتمة في قلبها.
أم الديب ببغضاء:ياكش تولع، وهي تهمني في إيه؟
المعلم حنفي بجرأة:ماهو كله من قسوتك دي، يا ولية افهمي! عاملي نساوين عيالك الإتنين زي بعض، متفضليش واحدة على التانية! ماهو أصل التفرقة بتولد كره وغيرة.

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بتحيز:آني ميهمنيش غير جميلة وبس! جميلة بت الحسب والنسب اللي يشرف لكن ليالي أهلها طول عمرهم ناس زبالة وأي كلام... ده مفيش مرة أنبوبة الغاز أم ليالي تكلمني تعيد عليا لا في عيد صغير ولا عيد كبير، ده حتي لما البت نعمة ولدت مهانش عليها ترفع سماعة التلافون وتباركلي.
المعلم حنفي بتهكم:وهي تباركلك ليه يا ولية؟ هو انتي اللي ولدتي ولا هي؟ ثم إن آني متأكد إنها كلمت نعمة وباركتلها، جماعة عم سلامة ناس محترمة وبيفهموا في الأصول.
أم الديب بصياح:هو انت مسيبني اللي ورايا واللي قدامي عشان تحكيلي عن دباح الحمير وعياله؟ مايكش يولعوا في داهية تاخدهم واحد ورا التاني.

نهضت أم الديب وهي منفعلة، وقد اتقد الاحتدام في صدرها، فدخلت غرفتها بسرعة حتى تتصل بالنجار لتبيع له غرفة هايدي، وكأنها تتطلع لتغيير الأوضاع بشكل جذري. بينما كانت مشغولة بأفكارها، قال المعلم حنفي لها بعجيج:
_ماشي يا ولية ماهي دي غلطتي إني أقعد وأتكلم مع ولية بهيمة زيك، انتي أخرك تتربطي في الزريبة وسط البهايم، جاتك الهم.
نهض المعلم حنفي هو أيضًا، وقد تجسدت في ملامحه معالم التعصب، فبدأ يبرطم بالكلام وكأن أفكاره تتسابق للخروج من فمه، ثم اتجه بسرعة إلى المرحاض، حيث فتح صنبور المياه وبدأ في وضوءه استعدادًا لأداء الصلاة، مُتجاهلًا كل ما يدور حوله من أحداث متشابكة. وفي تلك الأثناء، في شقة جلال، كانت ليالي تتحدث مع والدتها، وتشتكي لها من المشاكل التي تعيشها وسط عائلة زوجها، حيث كانت تصف لها كل ما يثقل كاهلها ويقهر روحها، مبينة لها الضغوط النفسية التي تتعرض لها في تلك الأجواء، بينما كانت والدتها تباهي تواسيها بكلمات مطمئنة. لكن بمجرد أن رأت ليالي جلال قادمًا نحوها، اختصرت الحديث بسرعة، وقد تجلى في عينيها القلق من رد فعله، قائلة لها:
_طيب ياما هكلمك بعدين، سلميلي على أبويا وكل الموجودين، سلام.
وقف جلال بجوارها، مشدودًا بحاجبيه الباذخين نحو الشك، مرتاعًا من انتهاء المكالمة بشكل مفاجئ، كأنما كانت ليالي تخفي أسرارًا غامضة تثير فضوله، فاستفسر منها بارتيابٍ، كمن يكتشف ضبابًا يحجب الرؤية عن العوالم الخفية التي تتوارى خلف الستار:
_إيه بينكم أسرار ولا إيه؟

ليالي بارتباك:ولا أسرار ولا حاجة، أنا أمي وراها شغل البيت وأنا كنت معطلاها.
جلال بتحذير:أنا نازل وعلى الله حد يتصل بيا يطلب مني حاجة!

خرج جلال من باب الشقة ونزل حتى ركب التوكتوك، متوجهًا إلى عمله في صباح يوم جديد، حيث سار على طرق القرية المعروفة بأجوائها التقليدية، وفي الخلفية تعزف الأغاني الشعبية التي يعشقها ويجد فيها ملاذًا من هموم الحياة، فكان يشرب سيجارته بنشوة، كأن دخانها ينقل عنه أوجاعه ويغمره في عالم من السعادة المؤقتة. بينما في المنزل، كلما استرجعت ليالي تصرفات زوجها، تزايدت في قلبها مشاعر اليقين بأنه كالعجين الذي تم تشكيله بمهارة على يد أم الديب، فأطلقت تنهيدة من صدرها وقالت بعدم رضا:

_سبحان الله انت وأمك فولة واتقسمت نصين، مبتحبوش غير نفسكم وبس.
ثم عاودت الاتصال بتباهي، لتستأنف حديثهم الذي انقطع عند دخول جلال، لكن الآن بات الجو مهيئًا للكلام بحرية تامة، وكأن حواجز الزمن قد أزيلت. في شقة أحمد، كان زياد وهايدي جالسين معًا، يتبادلون الحديث حول المشكلة التي نشأت ليلة أمس، وقد تجلى في حديثهم احتدام النقاش حول تصرفات ليالي. وعلى الرغم من أن ليالي قد قدمت معروفًا كبيرًا لهايدي أثناء تحضيرات جهازها، إلا أن هايدي، بحكم عاطفتها، وضعت جميلة في المقام الأول، فهي لم تستطع إغفال تصرف ليالي الذي أظهر عداوتها نحو جميلة بشكل صارخ. لذلك، توجهت هايدي إلى جميلة، وأطلقت اعتذارًا صادقًا، قائلة:
_هاتيها فيا أنا يا جميلة، انتي أكيد لحد إمبارح مكنتيش تعرفي ليالي كويس.

جميلة:لا من بعد اللي حصل Often ابتديت أفهمها.

الرجال غالبًا ما يجهلون ثغرات كيد النساء، ويصعب عليهم ملاحظتها إلا بعد فوات الأوان، لكن أحمد كان من القلة الذين أدركوا منذ الشهر الأول لزواج جلال أن ليالي لم تكن شخصية سهلة، بل كانت تحمل في طياتها عمقًا وتعقيدًا يثيران فضوله. لذلك، وعندما تلمس حقيقة تلك الشخصية، قال:
_أنا عارف ليالي كويس من أول يوم دخلت بيتنا فيه، ليالي حقودة، مش علشان ماما ظالماها يبقى ليالي ملاك! لا لا هي وماما زي بعض بالظبط!
أيدت هايدي حديث أحمد، راغبةً في كسب رضا جميلة، فقالت بتأكيد:
=أحمد عنده حق، أنا مستغربة انت ازاي عرفت وانت أغلب الوقت كنت بتبقى مسافر عشان الكلية؟ بس فعلًا ليالي من النوع الحقود اللي بتغير من أي حد أحسن منها.
تحدث زياد مع هايدي بتفكير عميق، مظهرًا حرصه على تحليل الموقف بشكل شامل. بدا كأن كل كلمة يختارها تحتاج إلى تمحيص:
_أعتقد إن الستات بيغيروا من بعض وأكيد كل بيت فيه واحدة حقودة زي ليالي... أنا لما شوفتها أول مرة حسيت إنها مش سهلة.

هايدي:عارف يا زياد؟ أصلًا لو واحدة غير ليالي هي اللي بتتعامل مع ماما مكنتش كملت أسبوع جواز... لكن ليالي ذكية وحويطة أوي وعارفة ازاي تتعامل مع ماما.
زياد:ما هما دول اللي ينفعوا مع بعض.

لم تكن جميلة ترغب في رؤية ليالي، حتى لو كان ذلك صدفة، إذ كان لديها من الكبرياء ما يكفي ليدفعها لتفادي أي لقاء قد يثير مشاعرها السلبية أو ذكرياتها المؤلمة. لقد استشعرت في أعماقها أن ليالي تمثل تحديًا يهدد سلامها الداخلي، وكانت متأكدة من أنها لا تحتاج إلى تعقيد حياتها بمزيد من الصراعات، لذا كان قرارها ثابتًا بعدم الاقتراب منها، فقالت:
_المهم إن أنا بعيد عن كل ده ولو أقدر أبعد أكتر من كده هبعد!
البعد ليس حلًا، إذ بعد أن جاءت هايدي للزواج بجوار أخيها، كيف يمكن أن يفكر في مغادرة المكان مع أسرته إلى مكان آخر؟ كان وجودها بجانبه يشكل لها منتهى الأمان، حيث كان يمثل ذلك ارتباطًا قويًا

بأسرة متماسكة، مما جعل فكرة الانتقال غير مقبولة بالنسبة لهايدي. شعرت بأن تغيير مكان إقامتهم قد يؤدي إلى زعزعة استقرارها، فتجلى ذلك في حديثها حين أعربت عن رفضها القاطع، قائلة لجميلة:
=لا يا جميلة أوعوا تبعدوا عننا، ده احنا ما صدقنا بقينا جنب بعض! وإن كان على ليالي فمتقلقيش أنا مش هفتحلها بابي تاني، هو بس علشان كانوا يومين الفرح فمكنش ينفع أمنعها.

جميلة بلُطف:خلاص متفقين.
هايدي بسعادة:حبيبتي يا جميلة.
جميلة برقة:روحي.

تنهد أحمد بعمق، وهموم العالم تثقل كاهله، ثم نظر إلى زياد وسأله بتفكير، وكأنما يسعى لاستخراج إجابات تغذي فضوله:
_المهم بقى مش ناوين تقضوا شهر العسل؟

زياد:أنا اقترحت الفكرة على هايدي بس رفضت.

سألت جميلة هايدي بتعجب، والدهشة تتسلل إلى نبرة صوتها، حيث لم يكن بمقدورها استيعاب ما يجري حولها:
_ليه يا هايدي؟ ده أحلى يومين في حياتكم بجد!

هايدي:أنا شايفة إن المصاريف هتكون كتير أوي، وزياد لسه دافع مبلغ كبير على الشقة والفرح! فشايفة يعني إن كل ده مالوش لازمة!

السفر في هذه الفترة، قبل عودة العمل، قد يكون حلًا ممتازًا لنسيان الماضي الأليم ودفنه في طيات الذاكرة، حيث تمثل تلك الرحلة فرصة للهروب من الهموم والانطلاق نحو آفاق جديدة. لكن هايدي، رغم رغبتها في الابتعاد، شعرت بخجلٍ عميق من تكليف زياد بأي شيء إضافي، خاصة بعد أن دفع الآلاف من أجل زواجهما، مما جعلها تشعر برأفة تجاهه. في حين كان إصرار زياد لا يلين، فقد كان مصممًا على إيجاد وسيلة لتخفيف العبء عن عاتقها، مؤكدًا لها أن هذه الرحلة ستكون ضرورية لهما معًا، لتجاوز كل ما عانياه، فقال زياد لهايدي:
_هو احنا كل يوم بنتجوز يا هايدي؟ وبعدين دي فرصة حلوة، احنا كده كده واخدين أجازة من كل حاجة يبقي ليه نضيع الأجازة في البيت لما ممكن نسافر في مكان حلو؟
اقترحت جميلة على هايدي فكرة من بئر أفكارها، مشددة على أن سفرهم للخارج قد يكون حلًا بسيطًا لن يكلفهم الكثير، كما اعتادت هي في حياتها. كانت تنظر إلى الأمر بعين التفاؤل، مُعتبرة أن تلك الرحلة ستمنحهم فرصة لاستكشاف أماكن جديدة وتحرير أنفسهم من قيود الماضي، قائلة لهايدي:
_إيه رأيكم تسافروا جزر هاواي؟

هايدي باعتراض:لا طبعًا دي أكيد غالية جدًا.

أحمد، بمشاعر مليئة بالتفهم، استمع لما قيل حول فكرة السفر، وقال:
_هيكون صعب عليهم يسافروا برا مصر دلوقتي، فأنا بقترحلكم تقضوا شهر العسل في شرم أو الغردقة.
أعجب زياد بالفكرة جدًا، إذ رأى أن سحر الرحلة سيكتمل حينما يسافروا مع أحمد وجميلة، الذين وجدوا في قربهم راحة نفسية كبيرة. كانت علاقاتهم تعكس روح الألفة، مما جعل فكرة السفر أكثر جاذبية.
لذلك، قرر أن يعرض على أحمد اقتراحًا إضافيًا، مؤكدًا على أهمية وجودهم معًا في تلك المغامرة، حيث سيكونون قادرين على دعم بعضهم البعض واستكشاف عوالم جديدة بروح جماعية تعزز من أواصر صداقتهم. قال زياد لأحمد:
_فكرة حلوة جدًا وأنا موافق عليها، وبما إنك اقترحت علينا الفكرة دي فانا بقترح عليكم نسافر سوا.

أحمد بابتسامة:وأنا موافق.

ثم سأل أحمد جميلة، منتظرًا رد فعلها بترقب، حيث كان يدرك تمامًا أن آرائها تلعب دورًا محوريًا في اتخاذ القرار:
_إيه رأيك يا جميلة؟

جميلة:طيب مش ناخد وقتنا في التجهيزات الأول؟
أحمد:متشيليش هم حاجة، انتي بس وافقي وهتلاقي كل حاجة متيسرة.

قالت هايدي لأحمد بإعجاب، إذ بدأ رفضها للسفر يتلاشى تدريجيًا، حيث استشعرت في أعماقها أن الرحلة ستصبح ممتعة للغاية بوجود أخيها وزوجته. كان هذا الإحساس يتسلل إلى قلبها، مشجعًا إياها على التفكير في اللحظات السعيدة التي ستُصنع معهم:
_فكرة حلوة فعلًا..طيب هننزل في أي فندق؟

أحمد:الفنادق كتير بس هنسيرش ونشوف إيه أحسنهم.

حكمت جميلة عقلها، حيث رأت أنه من الممكن السفر، لكن بشرط أن تترك بناتها لدى والديها في القصر، إذ كانت تدرك تمامًا أهمية تهيئة الظروف المناسبة لضمان راحة عائلتها الصغيرة، وقالت:
_خلاص أوكي وهبقى أعدي البنات على مامي أسيبهم معاها.
كان السفر دون الأبناء بالنسبة لجميلة مُتعة، لكن هايدي أدركت أنه يُعدّ نصف مُتعة فقط، إذ كان الأطفال هم كل الحياة، الذين يرسمون البهجة في الرحلة ويمنحونها مذاقًا خاصًا لا يُضاهى. لذلك، كانت تفكر في كيفية إشراك فتيات أخيها في هذه المغامرة، معتقدة أن وجودهن سيُضفي مزيدًا من المرح على التجربة، لذا توجهت إلى جميلة، معبرة عن رغبتها في أن يشمل السفر أحبتهم الصغار، قائلة:

أم الديب الجزء الثالث

_لا يا جميلة متحرميش بناتك من الخروجات الحلوة دي! خليهم يعيشوا معاكم كل حاجة لحظة بلحظة!

جميلة باعتراض:هيكون صعب أوي يا هايدي إن آخدهم معايا، انتي مش عارفة قدر الصعوبة اللي ممكن تتعرضي ليها لو خدتي بيبي معاكي وسافرتي!
هايدي:طب خلاص سيبي أسيل مع طنط وخلي سيليا.
جميلة باقتناع:أوكي.

أخيرًا، اتفقوا جميعًا على السفر معًا إلى الغردقة، مما أضاف البهجة إلى خطط العروسين، الذين بدلًا من أن ينطلقا بمفردهما، سيحظيان برفقة أحمد وجميلة، اللذين يبعثان روحًا إيجابية في الأجواء، خصوصًا كاريزما جميلة المميزة، وعقلانية أحمد، الذي يتمتع بفتحه الذهني الكبير. ورغم أنه من الريف، إلا أنه لم يحمل طباعهم التقليدية، بل أثبتت تجربته أنه قد تجاوز ذلك بكثير. كان في الماضي يجهل خرائط مصر، ولا يعرف سوى الإسكندرية والقاهرة، لكن مع مرور الوقت، أصبح يعرف المزيد من البلدان، مما جعل خبرته تتسع بشكل ملحوظ. وقد شهدت حالة جميلة تحولًا من الضيق إلى الارتياح، حيث غمرت الضحكات الأحاديث بين الرباعي، مما خلق أجواء من الألفة. فقال أحمد بانشراح:
_يبقى توكلنا على الله.
في منزل أم الديب، قدم النجار برفقة صبيين كانا يعاونانه في فك أثاث الغرفة، حيث بدأوا في حمله قطعة قطعة، مُرَكِّزين على إنهاء المهمة بسرعة. بينما كانت أم الديب تراقبهم عن كثب، عيونها تترصد أي مشكلة بسيطة قد تحدث لتتدخل بشكل حاد. فبسخط واضح، ووجهها متجهم، قالت لهم بغلاظة:
_على مهلكم، لو حاجة اتخدشت خدشة آني مش هيكفيني قتلكم! يلا خلصوا!
وقف المعلم حنفي على سيف أم الديب، معترضًا على هذا القرار، متسائلًا بوضوح:
=برضة يا ولية مصممة تبيعي الأوضة؟

أم الديب:هخليها أعمل إيه؟ اللي كانت قاعدة فيها أهي خلاص اتجوزت، ولا هو كتر كراكيب وخلاص؟
المعلم حنفي بأُهكومة:ما بلاش تتكلمي انتي على الكراكيب! بقي بذمتك يا ولية ده منظر مطبخ؟ رامية زبالة شارعنا كلها جوا مطبخنا؟ وآني اللي زي لما يحب يطفح يعمل إيه؟
أم الديب باِختلاق:اللي كانت بتنضف خلاص اتجوزت، الدور والباقي على مرات ابنك اللي عايشالنا الدور وآني ست كبيرة وركبي سايبة ومش قادرة يا عيني عليا، دهو بدل ما تنزل وتساعدني؟
المعلم حنفي بصدمة:تساعدك بعد كل اللي بتعمليه فيها؟ ده انتي ولية جاحدة.

بعد سبع دقائق، تمكنوا من نقل الأثاث بالكامل ووضعه في سيارة نصف نقل، حيث نزلت أم الديب مع المعلم حنفي ووقفا معًا إزاء المنزل، يتفقدان العمل المنجز. اقترب النجار منها، وعلامات التعب بادية على وجهه، قائلًا لأم الديب بجدية:
_خلاص الأوضة خلصت يا حاجة، عاوزة فيها كام؟

أم الديب:ألف جنيه. **يتبع.....**

الفصل الثلاثون

رغم أنّ المبلغ كان باهظًا للغاية مقارنةً بقيمة تلك الغرفة التي لا تستحق حتى خمسين جنيهًا، فقد تكشّفت على حالٍ مُهترئ يعبث فيه الزمن، تتساقط منها الأجزاء، وتتعالى فيها كسور الزمن كما يتعالى الأنين على سكون الأطلال. كانت أم قمر الدين قد قدّمت للعائلة هذا الأثاث بكل صفاء، لكنه تحت سقف أم الديب تحوّل إلى خرابٍ وبقايا ذكرياتٍ بائدة، نطق النجار بنبرةٍ تحمل في طياتها الأسف، موجهًا كلامه إلى أم الديب:

_بس الأوضة دي متجيبش ٥٠٠ جنيه، دي مخلعة وحالتها حالة!

أم الديب بافتراء:لو مخلعة فأهي منكم، انتوا اللي مش واخدين بالكم كويس، ما هي لو حاجتكم كنتوا خوفتوا عليها.

النجار بسخرية:ليه هو احنا اللي كنا بننام عليها ولا انتوا؟

أم الديب بعجيج:وانت كمان هتتكلم؟ بقولك إيه آني شغل الاستعباط دهو مبيجيش معايا سكة، آني عاوزة ١٥٠٠ جنيه!

النجار بانفعال:مش عاوزينها، خليهالك!

أم الديب بتهديد:خلاص أبقى قول الكلام دهو لأخويا ضايع!

النجار بفزع:لا ضايع إيه؟ هو احنا ناقصين؟ اللي تشوفيه.

أم الديب بارتياح:أيوه كِده.

انتاب النجار شعورٌ غامضٌ بالخوف من ذكر اسم ضايع، وكأنّه مفتاح لمشاكل بلا حد، قد يُفتح عليه منها ما لا قِبل له به، فاضطرّ لقبول المبلغ بصمت، ودفعه لأم الديب بيدين مرتعشتين، قبل أن ينطلق مسرعًا من المكان. اليوم الثاني، كان أحمد قد أنهى مهمة حجز غرفتين في أحد فنادق الغردقة بعد جولةٍ طويلة من البحث والتدقيق بين المواقع بحثًا عن الأفضل، وأخذت جميلة تُعدّ حقائب السفر بعناية فائقة؛ كانت تقف بجوار سيليا، تُمرر لها ثيابها هي وأحمد وسيليا، بحركةٍ مليئة بالتناغم. رتبت الأغراض الضرورية بعينٍ حريصة، وخصصت ركنًا أنيقًا لمنتجات العناية بالبشرة، كأنّها تبني مكانًا خاصًا لعنايتها في هذه الرحلة، وفيما كانت هايدي في شقتها، وقفت بجوار زياد في غرفة النوم، وأمامهما الحقيبة الكبيرة المفتوحة فوق السرير كصفحةٍ بيضاء تنتظر امتلاءها. انتقلت يد هايدي إلى الخزانة، تُخرج الثياب واحدة تلو الأخرى، وتسلمها لزياد الذي يتناولها بانتظام ويضعها في الحقيبة بعناية متناهية، وكأنّه ينسج في ذلك ترتيبًا يستبق احتياجات الرحلة، ومع قلة الأغراض التي قد يحتاجانها، فقد اكتفيا بحقيبة واحدة كبيرة، على خلاف أحمد وجميلة اللذين حملا حقيبتين، إذ سترافقهما سيليا في الرحلة، بحاجاتها الخاصة، وبعد أن انتهيا من إعداد الحقيبة تمامًا، نظرت هايدي إلى زياد بنظرة مُتسائلة، وطرحت عليه سؤالها:

_خلاص كده؟ ولا استنى! فاضلنا إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

زياد بتذكّر:فاضل إيه؟ فاضل إيه؟ معتقدش إن فاضل حاجة، ولا أه افتكرت، كده ناقص طقم الخروج بتاعي، احنا ازاي نسينا حاجة زي دي؟
هايدي:خدلك طقمين تلاتة، أمال هتغير في إيه؟
زياد:صح عندك حق، طب حطيهملي انتي، حطي تلات تيشرتات، وتلات بنطلونات، وكابين وأنا هروح أجيب الأيس بوكس.
هايدي:ماشي.

شرعت هايدي في وضع الثياب التي نسياها في خضم الاستعداد، كأنها تخطو خطوة جديدة نحو اكتمال التحضير. بينما انتقل زياد إلى المطبخ، عازمًا على إحضار صندوق الثلج، كان ذهن هايدي مشغولًا بالتفكير فيما ينقصها، كأنّها تعيش في متاهة من الأفكار، وبينما كان زياد يجهز الأطعمة التي سيأخذونها معهم إلى المصيف، ويفكر في طريقة تنظيمها بشكل يُبقيها طازجة، كانت هايدي تُفتش في زوايا ذاكرتها، محاولةً أن تضع يدها على ما قد يغيب عنها. ثم التفتت إلى نفسها، متحدثة بحسٍ من الدقة:
_أيوه أنا فاضلي طرحتين، والبوركيني هبقى أشتريه من هناك، يارب اجعلها فسحة حلوة بقى.
ملأ زياد صندوق البحر بكل ما يُسعد النفس، من الدجاج النيء المتبّل بالأعشاب والتوابل، إلى الخضروات الطازجة المفعمة بالألوان، والمشروبات المنعشة التي تعكس روح الصيف، بينما في الجهة الأخرى، أنهى أحمد وجميلة عملية جمع المستلزمات بجدٍ ونشاط، حتى أوصدوا الحقائب أخيرًا، كأنهم أغلقوا باب الاستعدادات خلفهم. نزل أحمد بالحقائب في المصعد الكهربائي، وهي تمثل شغفهم بانتظار رحلة مثيرة، ثم وضعها في حقيبة سيارته، مُرتاحًا لرؤية كل شيء في مكانه، وحينما عاد إلى الداخل، مُنعمًا نظره في الأرجاء متفحصًا ما إذا كان قد فاته شيء، طرح سؤاله على جميلة:
_خلاص كده يا حبيبتي، في حاجة تاني ولا إيه؟

جميلة:لا خلاص كده، ممكن تاخد أسيل وتوديها لمامي، أنا مجهزالها شنطتها فيها كل حاجة.
أحمد بشاغل:طب ويفرض إنها مرتاحتش غير معاكي انتي؟ ساعتها مش هينفع نرجع تاني لأنه هيكون مشوار طويل.
جميلة بتضايق:أنا بصراحة كنت عايزة أسافر طيران، موضوع إننا نسافر في العربية هيكون صعب علينا.
أحمد باطمئنان:لا صدقيني مش هتحسي بتعب الطريق، التكييف شغال والعصاير موجودة وكله تمام، أنا هاخد أسيل أوديها لطنط وهرجع تاني تكونوا جاهزين!
جميلة بحبور:أوكي يا حبيبي.

حملت جميلة طفلتها أسيل بكل حب، ثم سلّمتها إلى والدها، الذي استقبلها في يده برفق، بينما كانت حقيبتها الصغيرة مُعلقة على ذراعه، تحوي مستلزمات الأطفال الضرورية مثل الحفاضات، وحليب البودرة، والثياب، وكل ما يلزم للعناية بها. خرج أحمد من المنزل، حاملًا طفلته فوق ذراعه وكأنها كنزٌ غالٍ، وفي يده الأخرى كانت حقيبتها الملونة تتلألأ بالألوان الزاهية، وفي تلك اللحظة، كان زياد يخرج من شقته، وقد جذب انتباهه المشهد، فوجه سؤالًا إلى أحمد بنبرة تحمل بين طياتها الفضول:

أم الديب الجزء الثالث

_إيه يا أحمد رايح فين بأسيل؟

أحمد:هوديها لطنط بسملة وهرجع تكونوا انتوا كمان جهزتوا.
زياد:خلاص ماشي احنا عمومًا فاضلنا حاجة بسيطة.
أحمد بابتسامة:ماشي عشر دقايق وراجع.
زياد بتبسم:ماشي.

نزل أحمد بأسيل من المنزل، وانطلق بها نحو قصر أم قمر الدين، مدركًا أن وجودها سيملأ المكان بفرحة لا تُضاهى. إلا أن القلق انتابه وهو يفكر في تركها على الكرسي بجانبه، خشية أن تسقط. لذا، قرر حملها على ركبتيه أثناء قيادته، حيث كان يُثبّت جسدها الصغير بيده اليسرى، بينما يقود بعناية باستخدام يده اليمنى. أما في منزل أم الديب، فقد كان العمال يعملون في هدم الحائط، وأصواتهم العالية تتردد في الأرجاء كعاصفة تعكر صفو الهدوء. كان الصوت مزعجًا للغاية، مما جعل ليالي تتقلب في سريرها يمينًا ويسارًا، تسعى لالتقاط أي رائحة من راحة البال، إلا أن محاولاتها باءت بالفشل. فجلست على السرير، عيناها موصدتان في محاولة يائسة للاسترخاء، ثم نطقت بانزعاج قائلة:
_أوف، إيه وجع الدماغ ده؟ يا جلال انت نزلت الشغل ولا إيه؟

جلال بانزعاج:نزلت فين؟ مانا واقف قصادك أهو! أنا نازل لأمي أشوف إيه الوش اللي عاملاهولنا على الصبح ده.

قال حمود لوالده، وفي نبرة صوته المشاركة:
_استنى يابا خدني معاك!
نزل جلال، وتبعه حمود عند أم الديب، ليجداها مشغولة في هدم الحائط الذي يفصل غرفة هايدي عن الصالة، في محاولةٍ لتوسيع المساحة وجعلها أكثر انفتاحًا. ارتسمت على وجه جلال ملامح الصدمة وهو يشاهد ما يحدث، فاستدار نحو والدته وسألها بذهول:
_إيه ده ياما؟

أم الديب:بوسع الصالة يا ولا.
جلال بغضب:على الصبح كده؟ مش كنتي تصطبري لحد مالناس تصحى من نومها؟
أم الديب بصياح:وآني هفضل مذلولة لحد ما جنابكم تصحوا من النوم؟ يلا كله قوام قوام.

دخل جلال يبحث عن والده، ليجده في المطبخ، حيث كان يقف قبال حوض الغسيل، يغسل المواعين المكدسة. كانت هناك منشفة موضوعة فوق كتفه، فيما بدت عيناه مرهقتين ومرغرغتين بالدموع، كأنما ينعي ما آلت إليه الأحوال. كان المطبخ يفيض بالمواعين غير النظيفة، وأصوات المياه تتعالى في صمت المكان. نظر إليه جلال بدهشة، وسأله بحيرة:
_إيه اللي انت عامله في نفسك ده يابا؟

أم الديب الجزء الثالث

المعلم حنفي ببكاء:أمك مطلعة عيني يا جلال، الولية مش عاتقاني لوجه الله، المطبخ بقاله يومين يضرب يقلب ومش هاين عليها تنضفه.
جلال بعصبية:ألّلاه! طب ومقولتش ليه يابا؟ كنت خليت ليالي نزلت.
المعلم حنفي بصراخ:لا تنزل إيه هو احنا ناقصين؟ علشان يشدوا مع بعض تاني؟
جلال بشجاعة:لعلمك يابا، أنا أمي دي كلام علي الفاضي ولا تقدر تهوب ناحية ليالي.

شعر جلال بيدٍ تتكئ على ظهره، فالتفت ليجد أم الديب تقف خلفه، وحاجباها مرفوعان إلى الأعلى، وكأنها تعبر عن استغرابها مما يحدث. نظرت إليه بملامح تجمع بين الفضول والقلق، ثم قالت له بلهجة تحمل بعض الحزم:
_انت بتتكلم عليا يا جلال؟ هي مين دهي اللي متقدرش تعمل حاجة؟

جلال بتراجع:لا ياما انتي فهمتي غلط، أنا أقصد إنك قلبك أبيض ومش هتعمليلنا حاجة.
أم الديب بحدة:اسمع ياروح أمك! آني ولا طيبة ولا بتنجان أزرق، آني مبسيبش حقي لحد ولو كان مين كدهو !
جلال بخوَر:حقك إيه ياما؟ هو حد جه ناحيتك؟
أم الديب بفظاظة:لو كنت نسيت مراتك عملت إيه مع جميلة فأنا منسيتش ومش هنسى! قول لعرة النسوان تعمل حركاتها دهي على واحدة تانية مش على جميلة، لا هي قدها ولا قد مشاكلهم! آني مش هخسر ست بسملة عشان خاطر مراتك، مراتك دهي تحت جزمتي يا جلال!

قال جلال لوالده بعصبية، وكأن نبرته تحمل ثقل المشاعر المكبوتة:
_ما تقول حاجة يابا! عاجبك اللي بيتقال ده؟
ثم أردف لوالدته بصياح، وكأنّ سخطه قد بلغ مداه:
_بقولك إيه ياما، أنا محدش أحسن من ليالي مراتي! أمال إيه؟ مراتي بالدنيا واللي فيها ده كفاية إنها شالتك كتير وأهو مطمرش فيكي وكله اتنسى! نسيتي مين اللي كان بيخدمك كل ما تتعبي؟ ده انتي مفيش واحدة من بناتك عملتها، ومرات أخويا دي معملتلكيش ربع اللي ليالي عملته ولو في إيدها تعمل ياما برضة مش هتعمل.

أم الديب بمراوغة:ايهي وانت مين قالك؟ ده البت بتحبني حُب ومعتبراني أمها وإن كان على خدمتها ليا فهي هتخدمني ازاي وهي عايشة في بلد تانية بعيد عننا؟ ده ست بسملة دهي خيرها مغرقني من فوقي لتحتي، ومغرقكم انتوا كمان، أمال مين يا ولا اللي ادانا فلوس بناية شقتك؟ مش ست بسملة برضة اللي انت مش عاجبك بتها؟
جلال بحصافة:طب بس بس ياما متقوليش أي كلام وخلاص! ست بسملة كانت مدياكي الفلوس عشانك انتي وأبويا مكنتش عاملة حسابي في مليم ساغ! لولا إلحاحي عليكم ليل نهار مكنش حد إداني

أم الديب الجزء الثالث

جنيه، أنا اللي زيي ياما مجاش الدنيا وهو نايم على ريش نعام زي ناس، ده أنا طلع عيني وعين عيني عشان أجيب مليم وأقدر أتجوز!
أم الديب بصياح:إلحاح مين يا أبو إلحاح؟ ده انت سرقت الفلوس، هو انت كنت طلبت حاجة من حد فينا؟ ده انت لهفتهم في كرشك يا نصاب يا أبو إيد طويلة يا حرامي !
جلال بصخب:بقولك إيه ياما بطلي تسيحيلي قصاد الناس! متخلينيش أتجنن عليكي ياما! وقولتلك مليون مرة متتكلميش قصاد العالم الغريبة ومادام هو كلام بكلام فأنا عندي كلام كتير يتقال ولو عايزاني أتكلم هتكلم!

في الطابق العلوي، كانت ليالي تستمع إلى أصوات الشجار التي تتعالى من الأسفل، مما جعل قلبها ينبض بشدة. ارتدت الروب فوق ملابسها، وأعادت ترتيب الطرحة على رأسها، ثم نزلت مُسرعة إلى الأسفل. هناك، وجدت جلال يتشاجر مع أم الديب، فاندفعت نحوهما بسرعة، شادةً ذراعه بقلق، وسألتهم بنبرة متوترة:
_مالكم بتتخانقوا ليه على الصبح؟ في إيه يا جلال؟ ما ترد!
قال المعلم حنفي لليالي بأمرٍ صارم، وهو ينظر إليها بنظرة تحمل دلالات الحزم:
=خدي جوزك واطلعي يا ليالي!
تفوهت أم الديب مع جلال بصخب، وكأن كلماتها كانت تتطاير كسهام مشحونة بالحنق، طارده إياه من شقتها بشكل مُهين، مما جعل العمال من حولهم يشعرون بتوتر، رغم أنهم كانوا أقل من أن يتدخلوا في نزاع بين من يُطلق عليهم "البلطجي" و"المتسلطة". كان المشهد كأنه عرضٌ درامي، حيث اجتاحت الألفاظ الحادة الهواء:
_يلا برا يا أبو إيد طويلة يا حرامي!

جلال بانفعال:أنا برضة اللي حرامي ولا انتي ياما؟ هو أنا جايبه من برا؟ مأنا لو حرامي فأهي تربيتك انتي!
أم الديب بنواح:يلا يابن الكلـ* اطلع برا! إياك تعتب عتبة داري انت ومراتك تاني! مش عاوزة أشوف وش حد فيكم!
جلال بتوعد:ماشي ياما وربنا مانا ساكتلك، ماشي.

ثم أزاح جلال ليالي عن طريقه، حيث كانت تقف كحاجز إزاء الباب، تقيد حركته بشكلٍ يثير الانزعاج. نظر إليها بانفعال، وصرخ قائلًا:
_أوعي يا ليالي من وشي!

صعد جلال بسرعة على سلالم المنزل، مدفوعًا باندفاعه، بينما كانت ليالي تتبعه، محاوِلةً أن تفيق من آثار النوم التي لا تزال تُثقِل عينيها. دخل شقته، وجلس على الأريكة، بينما السخط يتأجج في نظراته الحانقة، كأنه بركانٌ يغلي في أعماقه. جلست ليالي بجواره، محاطةً بالقلق، ووضعت يديها الحنونتين فوق كتفيه، تقول له بلين:

أم الديب الجزء الثالث

_اهدي طيب يا جلال متعملش في نفسك كده! ياه يارب، نكد على الصبح كده؟ ده الناس بتصحى تقول يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، وانت أمك بتقول يا مشاكل؟

لكن جلال أجابها بصياح، كأنه يسعى لأن تسمعه أم الديب، مؤكدًا لها أن العيش معها بات لا يُطاق، كمن يعيش بالقرب من بركانٍ ثائر:

=بقولك إيه يا بت! وديني مأنا قاعد في البيت ده تاني! والشقة دي هتتباع ونشوفلنا شقة في داهية تانية، انشاالله تكون أوضة وصالة، أنا أمي دي عيارها فلت، ده حتى مسألتش حد فينا علي حوار أوضة هايدي... دي بتتصرف من دماغها ولا كأن ليها عيال!

ليالي:وهو لو كان ينفع نشتري شقة في حتة تانية كان نفع من بدري يا جلال! بس هو كده الحاجة اللي أمك بتعرفها يستحيل تكمل للآخر على خير... أنا نفسي أشتكي للناس كلها من عمايل أمك وأحكيلهم هي مسوية فينا الويل ازاي!

جلال بغيظ:أنا هبيع الشقة دي وهاخد نصيبي من البيت.

ليالي باستغراب:ازاي بس؟

جلال بحنق:زي الناس يا ليالي.

كانت ليالي تحاول بكل جهدها أن تفهم كيفية استحصال نصيبه من هذا المنزل المليء بالتعقيدات، في ظل وجود أم الديب، التي كانت بمثابة عائقٍ يمنع أي تسهيلات، كعقدة بالمنشار تعيق كل محاولات التنسيق، فتظل تصد عنهم كل ما يعينهم وتعرقل حياتهم أكثر فأكثر، مما زاد من ضغوطاتهم النفسية.

لكن جلال كان عازمًا على اتخاذ خطوة جدية ليخرج من هذا المنزل برفقة زوجته وأبنائه، محاولًا تقليل الخسائر النفسية قدر المستطاع، متأملًا في مستقبل أفضل بعيدًا عن هذا المنزل. وفي قصر أم قمر الدين، وقفت تنتظر حفيدتها أسيل أمام باب القصر، حيث كان الشوق يغمر قلبها ويعكسه انتظارها بفارغ الصبر، وما إن وصل أحمد بالسيارة أمام البوابة، حتى انفتحت له الأبواب، وحيّاه الحرس بتلك التحية الرسمية التي تعبر عن احترامهم له، فركن سيارته بعناية أمام باب القصر، ثم نزل حاملًا ابنته الصغيرة بين ذراعيه، بينما كانت ابتسامة الفرح تعلو وجهه. اقترب نحو حماته، التي تقدمت منه بخطوات سريعة، فرحة بلقائه، وعانقته كوالدته، قائلة له بلهجة دافئة:

_هاي يا روح قلبي، أخبارك إيه؟

أحمد بتهلل:الحمدلله يا طنط، انتي اللي اخبارك إيه؟

أم قمر الدين بجَذل:كله تمام، إيه مش هتدخل؟

أحمد باستعجال:لا حضرتك عارفة إن أنا مستعجل علشان مسافرين، أكيد جميلة بلغتك إن أنا جاي أديكي أسيل.

أم قمر الدين بتبسم:طبعًا أمال أنا واقفة ليه؟ مستنية روح قلب نانا.

استلمت الجدة "أسيل" بعناية، وعانقتها بشغف، حيث ظلّت تقبّل وجنتيها الورديتين كأنها تُعبّر عن حبٍ لا ينضب، ثم قالت لها بغبطة، وبصوت يحمل نغمة الفرح:

_علفكرة يا لولي هنقضي مع بعض وقت حلو أوي !
ثم أردفت لأحمد برقة، وقد ارتسمت على وجهها ملامح السعادة:
_سلملي على هايدي وجوزها بليز يا أحمد !

أحمد ببشاشة:حاضر يا طنط يوصل، عايزة حاجة؟
أم قمر الدين بإفترار:سلامتك يا روحي.
أحمد:سلام.
أم قمر الدين بابتسامة:باي باي يا حبيبي.

ركب أحمد سيارته، متجهًا نحو منزله، بينما كانت أم قمر الدين تحمل أسيل بين ذراعيها، وتدخل القصر، وكأن قلبها يفيض بالفرح لسعادة وجود حفيدتها إلى جانبها، مُدركةً تمامًا حقيقة ما يقال: "أعز الولد ولد الولد". وبينما كانت تتجه نحو الريسيبشن، تفاجأت بنزول باسم على درج القصر، وهو يرتدي بيجامته الفاخرة، وعلى عينيه نظارته الطبية، بينما كانت دلالات النوم لم تختفِ بعد عن وجهه، فاتجه نحو زوجته بابتسامة مُشرقة، وقبل حفيدته من جبينها بحنان، قائلًا بانشراح:
_صباح الخير، هي أسيل جات امتى؟

أم قمر الدين:من شوية أصل جميلة وأحمد مسافرين مع هايدي وجوزها في الهاني مون، فجميلة كلمتني امبارح بالليل وقالتلي يا مامي ليا طلب عندك قولتلها أؤمريني يا حبيبتي، قالتلي محتاجة أسيب أسيل معاكي لأننا مسافرين الغردقة ومش هقدر آخدها معايا قولتلها أوكي أنا في إنتظار روح قلبي أسيل.
باسم بسعادة:ده إيه الصباح القمر ده؟ لا لا أنا يومي النهارده مختلف تمامًا عن أي يوم تاني، النهارده صحيت على أحلى أسيل في الدنيا كلها!

ليستلمها بين أحضانه، ويقبل رأسها بلُطف، حيث كانت أسيل، التي تشابه والدتها كثيرًا، تُظهر ملامح جميلة في صغرها أكثر من سيليا، مما جعل الجدة تشعر برابط عاطفي عميق معها، وكأن الزمن قد عاد بها إلى أيام طفولة ابنتها. ثم جلس بها فوق الأريكة، متأملًا عينيها اللامعتين وابتسامتها البريئة، وقال ببشاشة وجه، مُعبّرًا عن حبه الكبير:
_أنا عايز أشكر جميلة شُكر عظيم من هنا للسنة الجاية على إنها جابتلنا أحلى بنت في الدنيا كلها، وعلفكرة أنا عن نفسي لأول مرة عايز جميلة وأحمد يغيبوا شهر كامل علشان بس أفضل مع لولو أطول فترة ممكنة.

أم قمر الدين بضحك:ياه يا باسم أول مرة أشوفك كده!
باسم بسرور:في مثل بيقول أعز الولد ولد الولد، وأنا يمكن تعلقي بأحفادي أكبر بكتير من تعلقي بأولادي... لولا البيزنيس يا بسملة كان زماني مقضي معاهم وقتي كله!

أم قمر الدين بفرح:عارفة يا حبيبي مأنا كمان كده برضة، هو احنا هنلاقي أغلى من سيليا، وأسيل، ولارا، وحمزة؟
باسم بجذل:لا طبعًا، عقبال ما باقية أولادنا يتجوزوا ونشوف أولادهم علي خير يا بسملة.
أم قمر الدين بتمني:يارب يا حبيبي يارب.

وصل أحمد إلى المنزل ليجد الجميع جاهزين للسفر، وكانت أجواء الحماس تعم المكان كأنها تحتفل بانطلاقهم إلى مغامرة جديدة. انتظر في السيارة بينما نزل زياد وهايدي، يحملان الحقيبة الكبيرة وصندوق البحر الذي يحتوى على كل ما يحتاجونه من مؤن، في حين كانت جميلة وسيلية قد ارتديتا ثيابهما الصيفية الملونة، التي تعكس روح الصيف المشرقة. وضع زياد مستلزمات السفر بعناية في الحقيبة، وأوصدها بإحكام، ثم ركب بجانب أحمد، بينما جلست جميلة وهايدي في المقعد الخلفي مع سيليا التي كانت تتوسطهما، تنظر إليهما ببراءة. تحرك أحمد بالسيارة، متمتمًا دعاء السفر، متمنيًا لهم رحلة آمنة ومليئة بالذكريات السعيدة، حتى خرج من المدينة بأكملها، متجهًا إلى طريق الجلالة الذي يفضي إلى الغردقة-سفاجا. خلال الرحلة، كانت جميلة تلتقط السيلفي، تلتقط اللحظات السعيدة التي تجمعهم، بينما كانت هايدي مشغولة بمشاهدة جمال الطريق. أما سيليا، فكانت تنظر من النافذة، مبهورة بعالم جديد يتكشف أمام عينيها، تُتابع حركة الرياح وتلعب بشعرها. نظر زياد إلى أحمد في حالة الجو الهادئ والمشمس، حيث كانت الأجواء مثالية للرحلات، ورغب في أن يضيف شيئًا من الانتعاش على الرحلة، فقال له بحماسة:
_عندك أغاني حلوة؟

أحمد بإعزاز:أه طبعًا ولو معنديش أنزلك أغاني، هو أنا عندي أغلى منكم؟
زياد بفرح:ربنا يخليك لينا، طب والله انت مهون علينا مشاكل مرات عمي، بتحسسني كده إن أنا مش لواحدي وفي ضحايا كتير غيري.

رفع أحمد يده نحو الكاسيت، ليشغل الأغاني التي احتفظ بها على فلاشته، فبدأت تتردد ألحان أغنية "ناويلي على إيه"، لتملأ السيارة بأجواء من الحماس. سرعان ما ضحك زياد مع استماع الكلمات، حيث كان ينظر إلى هايدي بغرام، وعيناه تسرد لها الكثير من الحكايات المعبرة، خاصة عندما سمع مقطع: "من بعد النظرة دي، تسمحلي من وقتك بدقيقة... فين، هلاقي كدة فين؟ ده يا دوب من ثانيتين، حبيبي جيت غيرتلي حالي". تدفقت ضحكات هايدي بخجل، وكأنها تجسد كل معاني الرومانسية في تلك اللحظة، ونظرت جهة أخرى، ووجنتاها اكتستا بلون الحمرة من الحياء، ثم، وبعد لحظة من التفكير، أجابت هايدي على حديث زياد بعبارات تحمل نبرة من المرح، قائلة:
_الضحايا كتير أوي، عد معايا! عندك ليالي وحامد وأنا وانت!

زياد بضحك:لا انتي نسيتي الأهم من كل ده، حمايا!
هايدي باستياء:أيوه صح عندك حق، والله العظيم بابا ده أكتر واحد بيعاني منها، الله يكون في عونه، دلوقتي مابقاش في غيرهم هما اللي وشهم في وش بعض.

ضحك أحمد، وعيناه مصوبتان نحو الطريق، وكأنما يريد أن يختزن تلك اللحظة في ذاكرته، ثم قال بابتسامة عريضة:
_إن الله مع الصابرين وبابا صبر كتير... طب والله أنا ساعات بيبقي هاين عليا أشتريله شقة بس يبعد عنها، بابا كبر مبقاش زي الأول والناس لما بتكبر بتبقى عايزة اللي يريحهم مش اللي يتعبهم زيادة! وبصراحة ماما بقى متتوصاش دي أكتر واحدة متعبة في الدنيا دي كلها.
قهقهت هايدي، وعلامات السعادة تتلألأ في عينيها، ثم أخبرت أحمد قائلة:
=لا ماحنا كل شوية نبقى نروح نتطمن عليه.

أحمد بضحك:هايدي بنفسها عايزة تروح بيتنا تاني؟ طب ده أنا قولت عمرك ما هتروحي هناك تاني بعد ما اتجوزتي.
هايدي بتهلل:مأنا لو روحت أكيد مش هروح عشان ماما يعني، أنا هروح عشان نعمة وبابا، بجد هما ملهمش غيري!

وسط الأغاني الصاخبة التي تعم أرجاء السيارة، نادت سيليا والدتها ببراءة، قائلة لها:
_مامي، مامي!

جميلة:نعم يا سيليا؟
سيليا:ممكن أقعد قدام عند بابي؟
جميلة بتردد:طب يا حبيبتي هيسوق ازاي كده؟ ما تخليكي هنا جنب مامي وعمتو!

لكن أحمد لم يرغب في صد احتياجات ابنته في القرب منه، حتى وإن كان ذلك سيؤثر على قيادته، فالتفت بنظرة حانية نحو جميلة في المرآة، ثم تحدث إليها بلُطف، مُعبرًا عن مشاعره:
_سيبيها علي راحتها يا جميلة !
ثم نادى ابنته بحنو، وهو يبتسم لوجهها الصغير:
_تعالي يا سيليا بس خدي بالك وانتي بتعدي!

سيليا:أوكي.

اتجهت سيليا نحو والدها بخطوات واثقة، وكان زياد يسندها بحذر وهو يشجعها على المرور بينهم، متجنبًا أن تصطدم رأسها بزجاج السيارة، وعندما جلست على ساق أحمد الأيسر، استند ظهرها برفق على الباب الموصد بإحكام، كأنها تستمتع بتلك اللحظة التي تجمعهم معًا، بينما كانت تضحكاتها تملأ أجواء السيارة ببراءة الطفولة. في الجهة الخلفية، كانت جميلة مشغولة بالتقاط السيلفي بجنون، تعبر عن شغفها بالتصوير، حيث كانت تلتقط الصور بشكل متواصل، محاويةً اللحظات الممتعة التي يعيشونها في

أم الديب الجزء الثالث

تلك الرحلة. نظرت هايدي إلى جميلة بعينيها، وكأنما رأت الجمال الحقيقي يتجسد في حركتها، مما جعل قلبها ينبض بإعجاب. فقالت هايدي لجميلة، بينما كانت الابتسامة تزين وجهها:
_حلو أوي لون عيونك.

جميلة بغُناج:ميرسي يا روحي، انتي أحلى، ما تيجي نتصور سوا؟
هايدي بحماس:أوكي يلا بينا.

ثم بدأوا بالتقاط عدد من الصور معًا، صور تُظهر محبتهم المتبادلة وتعبّر عن سعادتها بلحظاتهم الجميلة. نزلت جميلة الصور في نفس اللحظة على إنستجرام وفيس بوك، مستغلةً باقة الإنترنت الكبيرة التي تملكها، مما يتيح لها رفع المزيد من الصور والفيديوهات. وكتبت عليها بحماس: "Going to spend their honeymoon with the groom and bride"، ثم حددت الموقع الذي يعتزمون الذهاب إليه، وهو الغردقة. وبعدما نزلت الصور على الإنترنت، التفتت جميلة إلى هايدي بحماس، وعينيها تلمعان من الفرح، قائلة:
_بجد تحفة أوي الصورة دي !

هايدي بإعجاب:أيوه فعلًا.

في شقة ليالي، التي كانت منهمكة في أحزانها ومشاكلها التي تعمقت بسبب التوترات مع أم الديب، على عكس الرباعي المرح الذي يسير على دروب السعادة الآن. كانت ليالي جالسة فوق سريرها، تتأمل في الفضاء من حولها، بينما أطفالها لا يزالون نائمين في غرفتهم، مما منح الشقة شعورًا بالهدوء القاتل. أما جلال، فقد تناول إفطاره المكون من الفول والفلافل والسلطة الخضراء، ثم غادر إلى عمله، تاركًا ليالي بمفردها في دوامة من المشاعر المُتضاربة. كانت الوحدة تسيطر عليها، وتدفع بأفكار سلبية وخطيرة للتوافد إلى رأس ليالي، وهي تفكر في خطط تسترد بها حقوقها، لتعيد لها بعضًا من كرامتها المفقودة. فقالت لنفسها بتفكير:
_لا يا ليالي أوعاكي بعد كل اللي استحملتيه من حماتك يروح هدر كده! لا فكري وشغلي دماغك! إيه الجديد يعني؟ مانتي طول عمرك دماغك شغالة وبتفكري في الصح، انتي عارفة كويس إن حماتك عنيدة ودماغها ناشفة ومبتجيش بالنشوفية، خليكي انتي أذكى منها، اضحكي عليها بكلمتين وخديها تحت جناحك يا هبلة! خليها تحبك انتي وتكره ست بتاعة اللي طالعة بيها السما دي! وبعدين فيها إيه لو جيتيلها من بطنها إكمنها طفسة وبتعشق حاجة اسمها أكل؟ البت نعمة كانت قايلالي إن أمها بتحب البطيخ والكنافة بالمكسرات... فيها إيه لو روحت أجيبلها بطيخة صغيرة ونص كيلو كنافة؟ أنا عارفة إنه مش هيطمر في جتتها إكمنها زي القطط تاكل وتنكر، بس هجرب ولو موافقتش هاخد الحاجة للعيال، قومي يا بت اتحركي! ولا أقولك استني! كان في حلواني فاتح جديد بيقولوا حاجته حلوة، استني لما اشوف إسمه إيه !

أم الديب الجزء الثالث

التقطت ليالي هاتفها الأبيض البسيط من فوق الكوميدينو، لتبحث عن الحلواني الذي افتتح متجره منذ أسبوع في القرية، حيث كان يحكي الكثير عنه أنه يبيع حلويات شرقية لذيذة تُضاهي تلك التي تباع في القاهرة والمدن الكبرى، راغبةً في كسب ود أم الديب بأسلوب مُحكم كطريقة الثعبان، فهي تدرك جيدًا أنها تعشق الطعام وتحب من يُقدمه لها. بينما كانت تفتح الهاتف وتدخل على الفيس بوك باحثة عن الصفحة، وللصدفة المحضة، وجدت صورة لجميلة مع هايدي، وكان مكتوبًا عليها جمل إنجليزية تعبر عن لحظات السعادة. فقالت ليالي باستغراب، وهي تنظر إلى الصورة بإمعان، محاولةً فهم السياق:

_إيه الكلام اللي بالإنجليزي ده؟ أنا مش فاهمة حاجة غير كلمة الغردقة، وبعدين هما متصورين مع بعض ليه؟

حتى استخدمت ذكاءها ونسخت النص ولصقته في مترجم جوجل، لتكتشف أنهم مسافرين معًا في رحلة ممتعة، تاركين إياهم في بئر المشاكل التي تغرق فيها، بينما يسعون للخروج من وحل الأزمات التي صنعتها أم الديب، مما زاد من شرارة الحقد داخلها، وشعرت بأنها محاصرة بمزيج من الغيرة والحنق، فقالت بإغتياظ:

_يا نهار أسود ومنيل، يعني هما رايحين معاهم شهر العسل في الغردقة وسايبني أنا وجلال هنا بنولع مع حماتي اللي ربنا ياخدها؟ أما محدش جاب سيرة ولا أتكلم يعني! هقول إيه؟ ما ناس ليهم الفسح وناس ليهم المشاكل والهم، آه يا مراري يآني!

يتبع....

الفصل الحادي والثلاثون

في لحظةٍ تعجُّ بالغيظ، تسرّبت خيوط الحنق إلى نظرات ليالي، وهي تنهض من مقعدها كمن ينتزع نفسه من قيود الهمّ، لتنقل لنعمة همساتٍ عن أخبارٍ مفجعة؛ فبين أروقة تلك القرية السياحية البعيدة على شواطئ الغردقة، كان اللهو الصاخب يتجلّى في عيون البعض، غارقين في مشهدٍ لا يعترف سوى بلذّاته العمياء. في تلك الأثناء، وبين زوايا شقة أم الديب المتواضعة، كان الصدى يروي حكاية أعمق؛ بعد أن كسروا الجدار بقوةٍ شديدة، تسلّلت أصوات الأيادي التي كانت تخبّط على الأسمنت بتركيز، كأنهم يعيدون تشكيل جدران المكان بلمساتٍ توحي بالتماسك. وسط هذه المعمعة، جلست أم الديب على كرسيها، مُتَّشحةً بوقار السنين، وفي يدها كوب الشاي يتصاعد بخاره بروية، وكأنها تشاهد طقوسًا يومية تُعيد للحياة شيئًا من روحها الضائعة، وفي لحظةٍ مفاجئة، خرج المعلم حنفي من المطبخ حاملًا صينيةً متينةً تضمّ ثلاثة أكواب من الشاي، تشعّ بأبخرةٍ تداعب الأنفاس، وما إن أبصرته أم الديب حتى انتفضت كمن رأى ما لا يُحتمل، وارتسمت على ملامحها مشاعر مختلطة من الدهشة والاستنكار، حتى نطقت بصوتٍ مليءٍ بالعجيج، تتساءل وكأنها تشكُّ في فاجعة:

_الشاي دهو لمين يا حنفي؟

المعلم حنفي برزانة:يا ولية حِسي على دمك! الرجالة شغالين من صباحية ربنا وانتي مهانش عليكي تعمليلهمماية بسكر حتى! ورايحة جاية قصادهم من ساعتها، مرة بالأكل ومرة بالشاي ومعزمتيش عليهم.

أم الديب بضِنَّة:وآني أعزم عليهم بتاع إيه يا راجل انت؟ مش هياخدوا مني فلوس الحيطة اللي هدوها؟ ولا هو هيبقى فلوس وشاي؟ هو انت يا راجل فاكرنا بنلاقي الفلوس في الشارع؟ ده احنا طالع عينينا فيهم!

المعلم حنفي بسُخط:يتحرق بخلك وليه جلدة وإيحة.

انفجرت أم الديب بصيحةٍ كادت تهز أركان المنزل، ورمت نظراتها الحادة في وجه المعلم حنفي كأنها سهامٌ مصوبة إلى قلبه، ثم ارتفع صوتها كهدير العاصفة، وامتدت يدها بحدةٍ حتى سقطت الصينية من يده، وتبعثرت أكواب الشاي على الأرض، مندفعًا المعلم حنفي إلى الخلف مرتعدًا، وكأنما تلقت نفسه صدمةً عاتية تفوق قدرته على الاحتمال، وصرخت أم الديب، بعنفٍ يفوق صوت الرعد، وهي تقول:

_إيه اللي انت قولته دهو؟ رد عليا! آني جلدة وإيحة يا راجل يا لمامة؟

نظر المعلم حنفي إلى العمال بنظراتٍ يكسوها الذعر، وكأن عينيه تستنجد بهم في صمت، ثم تلعثم صوته، يرتجف بين حروفه كأوراقٍ تراقصها ريح عاصفة، وقال بصوتٍ مخنوق:

=منورين يا رجالة.

لم يتمكّن المعلم حنفي من إنهاء جملته، فقد باغتته أم الديب، وقبضت على ذراعه بقبضةٍ كالحديد، تشدّه نحوها بعنفٍ لا يرحم، وكأنها تسلبه قدرته على الهروب. عينيه اتسعتا برعبٍ واضح، وهمست له بنبرةٍ يكسوها القسوة، كمن يعلن حكمًا لا رجعة فيه:

_ايهي محدش هينور غيرك انت دلوقتي، عارف آني هعمل إيه؟ هكهربك يا حنفي!

أم الديب الجزء الثالث

المعلم حنفي بصراخ:ابعدي عني يا ولية! انتي حد مسلطك عليا؟ ده انتي عاملة زي السرطان اللي مكلبش في الجسم مش عاوز يسيبه! ابعدي ألا والنعمة هتصل بأخواتك يجوا يشوفوا حل معاكي، آني عاوز أفهم مين فينا الراجل أنا ولا انتي؟
أم الديب بصياح:مش عاوزة أسمع صوتك! صوتك دهو بيتعبني! بيخليني مش على بعضي! غور من وشي يا حنفي! آني مش فايقالك، هو مرة ابنك ومرة انت؟ انتوا عاوزين مني إيه؟

بضربةٍ عنيفة، زاحت أم الديب كرسيها عن طريقها، ثم مضت داخل الغرفة، تاركةً المعلم حنفي خلفها يغرق في دوامةٍ من القهر، وكلّ ذرة من كبريائه قد تحطّمت في لحظة. لم يستطع تمالك نفسه، فانهمرت دموعه. لاحظ العمال هذا المشهد المؤلم، فتأثروا برؤية رجولته المنكسرة تحت وطأة القسوة التي عاشها، فاقترب أحد الرجال منه بملامح يملؤها التعاطف، وربّت على كتفه بلطفٍ، ثم قال بصوتٍ مواسي:
_الله يكون في عونك يا حاج، ده انت شايف اللي محدش شايفه، ده انت يتعملك تمثال ويتعلق على مدخل بلدنا.

المعلم حنفي بقهر:يارب انجدني منها، هي الدنيا جرا فيها إيه؟ هي الدنيا اتقلب حالها؟
العامل:متقلقش يا حاج، مصيرها يجيلها يوم وتتهد.

بينما كان العمال يتناوبون على مواساة المعلم حنفي، كانت دموعه تتساقط دون انقطاع، كأنها أمطارٌ شتوية تجرف معها بقايا كبريائه. بدا في تلك اللحظة كطفل صغير مكسور، وكلّ رجفة من جسده تحكي ألمًا عميقًا تجذّر في قلبه. وفي زاوية أخرى من البلدة، جلس جلال إلى جانب حمود داخل أحد المقاهي الشعبية، يرافقهم المحامي، وأمامهم أكواب الشاي تتراقص عليها خيوط البخار الدافئة. أصوات المباراة كانت تتعالى من الشاشة الضخمة المثبتة على الحائط، بينما الهتافات تملأ المكان، ممزوجةً بضحكات ومشاعر الزبائن المشدودين إلى كل لقطة من اللعب. كان بائع الشاي يتجول بين الطاولات، يحمل صينيته المزينة بأنواع المشروبات، يميل بتأنٍ ليضع طلب كل زبون أمامه؛ فهناك من طلب العصائر الباردة المنعشة، وآخرون فضّلوا شاي النعناع أو اليانسون ليهدّئ أعصابهم في هذا الجو الحافل. إلى جانب طاولة جلال، دار نقاشٌ حماسي بين رجلين يتبارزان في لعبة الطاولة، يحركان أحجارها بنظرات تحدٍ، كأن مصيرهما مُعلّقٌ على تلك الطاولة الخشبية العتيقة. وسط كل هذا، جلس جلال يتحدث بتركيزٍ مع المحامي، يناقش معه تفاصيل وإجراءات بيع الشقة التي خطّط لها منذ مدة، كانت نظرته بين الحيرة، وفي منتصف حديثهما، انتبه جلال إلى نقطة غامضة، فمال نحو المحامي وقد عقد حاجبيه في تعجب، وقال له:
_يعني إيه مينفعش يا عم؟ وإيه اللي قل نفعه بس؟

المحامي:مانا قولتلك إن البيت من أوله لآخره بإسمها ومينفعش أي عملية بيع تتم بدون موافقتها!

أم الديب الجزء الثالث

نقل جلال بصره بعيدًا عن المحامي، وتاهت عيناه في الأفق، كأنها تبحث عن شيءٍ مفقود أو وجهٍ غائب طال انتظاره، وهمس لنفسه بمرارةٍ كأنما يخاطب طيف والده الغائب:

_ليه كده يابا بس؟ بقي بتسلمنا لأمي تسليم أهالي؟

ثم عاد جلال إلى حديثه مع المحامي، محاولًا إخفاء ما اعترى صوته من شجن، ونظر إليه بعينين تملأهما تساؤلات لا تهدأ، ثم أردف بصوتٍ هادئ لكنه يحمل في طياته ثقل تلك السنوات الماضية، وقال:

_طب وفيها إيه لو بيعته من غير إذنها؟

المحامي:هتبيع الشقة ازاي وعقد البيع معاها هي؟

جلال بشك:ده تلاقي أمي شايلاه تحت سابع أرض ولا إن حد يوصله، طب والعمل إيه بس؟

المحامي برصانة:هو في حل وحيد ولكن مش هينفع خصوصًا إنها أكيد شايلة عقد البيع بصورته و شهادة المشتملات بكل حاجة فيه، لأننا في الحالة دي كنا هنتوجه للمحكمة ونطلب عقد بيع جديد وحتى دي كمان مش هتنفع لان برضة البيت متسجل عند الحكومة بإسمها ولازم هي اللي تروح بنفسها وتطلب عقد جديد في حالة ضياع العقد الأصلي، خصوصًا إنها الوحيدة اللي عارفة تفاصيل البيت زي وصفه ومضمونه وتفاصيله!

جلال بضياع:وربنا مانا فاهم حاجة منك! أنا الحاجة الوحيدة اللي فاهمها إن مينفعش حد غيرها هو اللي يروح، مفيش حل غير إننا نجبرها هي اللي تروح بنفسها وتغير العقد من إسمها لإسمي، بس ازاي؟ معرفش!

المحامي:انت قولتلي إن الحاجة أُمية! ما تستغل النقطة دي بقى لصالحك!

جلال:أمي جاهلة أه بس دماغها توزن بلد ومحتاجة خطة مدروسة... ماشي ياما!

تردّد صوت رنين الهاتف في أذن جلال، ليقطعه عن دوامة أفكاره ويعيده إلى واقعه، فتناول هاتفه ببطء، ونظر إلى الشاشة ليجد اسم ليالي يظهر بوضوح الذي سماه "الحُب كله". تنهد قبل أن يُجيب، ثم استجاب للمكالمة، وردّ قائلًا:

_ألو يا ليالي.

ليالي:ألو يا جلال، كنت بقولك.

جاءت مكالمة ليالي في لحظةٍ لم يكن جلال مستعدًا لها، فقد كان ذهنه مُنشغلًا بأمورٍ مصيرية تتعلق ببيع الشقة، الأمر الذي يتطلب تركيزًا. لم يكن يدري ما الذي ستجلبه ليالي في حديثها، لكنها استدعته بحماس للعودة إلى المنزل، لتبادل الأحاديث حول خطط السفر التي كانت تُعِدّها برفقة الأسرة. في تلك الأثناء، كانت أم الديب تقف في شرفة البلكونة، عيناها تراقبان العالم من حولها، بينما كانت أفكارها تتجول في متاهات تصرفات جلال الأخيرة، تفكر في تلك البوادر التي تلوح في الأفق وكأنها عاصفة تهدد

استقرارها. شعور غريب بالقلق اجتاح قلبها، مستشعرًا غدره المحتمل، فتأملّت بحيرة عميقة، ثم همست بارتياع:

_مش عارفة ليه قلبي حاسس إن جلال دهو وراه مصيبة مستخبية! ماهو طبعًا مش متجوز عقربة بتلعب في دماغه ليل نهار وبتقويه على أمه؟ ده يبقى يا ويلك يا سواد ليلك ياللي تفكر تلعب معايا! لو طلع اللي في دماغي صح أنا مش هرحمك يا جلال، لا انت ولا مراتك!

وبعد لحظاتٍ من التفكير، خرجت أم الديب من شرفتها، متجهةً نحو غرفة هايدي، حيث كان العمال قد أنهوا العمل تقريبًا، ولم يتبقّ سوى اللمسات الأخيرة من الدهانات. وعندما دخلت، استقبلتها رائحة الأسمنت الطازج، التي امتلأت بها الأجواء. تقدمت منه، ورسمت على وجهها تعبيرًا يحمل خليطًا من القلق والفضول، وسألت النقاش بلهجة تتسم بالجدية:

_والبتاع دهو هينشف امتى؟

النقاش:الأسمنت لحد بكرا هيكون نشف وهنبقى نيجي ندهنلك الصالة كلها لون واحد.

أم الديب بأمل:يا سلام عليكي يا أم الديب هتدهني شقتك وتجدديها وترجع شقة عروسة من أول وجديد! أما قولي يا حاج، الشقة كلها تتكلفلها كام؟

النقاش:خمسة آلاف جنيه إن شاء الله.

أم الديب بصراخ:يا نهار أسود، خمس آلاف إيه؟ يا لهوي دي غالية أوي أوي، انشالله عنها ما اتلونت كفاية الصالة بس، اسمع يا راجل انت! آني عاوزة أشكال حلوة في الصالة من اللي طالعة جديد!

النقاش:الديكورات مش أقل من ألف جنيه، يإما أعملك ورق حائط.

أم الديب باهتمام:يطلع إيه ورق الحائط دهو؟

النقاش:دي ورقة كبيرة يا حاجة بتتلزق على الحيطة وفي منها رسومات كتير، في رسمة بحر ورسمة ورد ورسمة جبال وشلالات، تختاري إيه؟

أم الديب بشوق:اعملي ورقة البحر وأهو كأني صيفت ويفضل البحر قدامي ليل نهار.

النقاش:على بركة الله.

كان مظهر الشقة قد أُعيد تشكيله بشكلٍ جذّاب، حيث افتتحت غرفة هايدي أبوابها لتندمج بسلاسة مع الصالة، مما أضفى عليها اتساعًا غير مسبوق. شعرت أم الديب بنسيم التجديد يلفّ أركان قلبها، إذ طاف بخيالها مشهد الصالة بعد أن تُدهن باللون الأخضر، وهو لونها المفضل الذي يحمل في طياته معاني الحياة. كان يجول في خاطرها أيضًا فكرة لصق ورق حائطٍ يُحاكي ألوان البحر، ليمنح المكان لمسةً من الانتعاش ويُجدّد روحها المفعمة بالحياة. بعد مضي نصف ساعة من الأحاديث المتبادلة بين جلال والمحامي، عاد جلال برفقة حمود إلى المنزل، وتوجه مباشرةً إلى غرفة النوم، ليجد ليالي في انتظاره، عينيها تحملان استفسارات ملحة. فتحت الموضوع بشكلٍ مباشر، وعبّرت عن رغبتها في الحديث عن خطط السفر وتفاصيله، لكن جلال أبدى رفضه بصوتٍ حازم، قائلًا لها:

_كلام إيه اللي بتقوليه ده يا ليالي؟ هو احنا في إيه ولا إيه؟ يعني أنا متخانق مع أمي وعاوز أبيع أم الشقة ودماغي هتنفجر من التفكير، وانتي هنا بتقوليلي عاوزة تسافري مصيف؟

ليالي بلهفة:أه يا جلال، وليه لأ ياخويا؟ انت نسيت إن السنة قبل اللي فاتت أمك نكدت علينا وممتعتناش بالسفرية؟
جلال بمُعارضة:لا ده وقته ولا ده أوانه يا بت! ثم إن السفر ده عاوزله شئ وشويات وأنا مش جاهز دلوقتي! انتي عارفة المصايف في راس البر وصلت كام دلوقتي؟
ليالي بصدمة:راس بر إيه ياخويا؟ أنا عاوزة أسافر الغردقة!
جلال بصياح:الغردقـ...؟ الغردقة؟ انتي عبيطة ولا دماغك كده؟ بقولك إيه يا ليالي اتعدلي مش عاوز أمد إيدي عليكي! قال تسافر الغردقة قال، لا ده شكلك اتعبطي في دماغك بحق وحقيقي!

خرج جلال من غرفة النوم إلى الصالة، وقد ارتفع صوته فيها كأنما كان يطلق صيحة تحدٍّ، مما جعل الحوار بينهما يبدو كمعركة تتصارع فيها الآراء. لم تكن ليالي لتستسلم بسهولة، فاتّبعت خطواته بإلحاح، وجاورتْه على الأريكة، محاطةً بهالة من العزيمة. عندما التقت عينيهما، رأت في عينيه سخطًا، فثبّتت نظرها في عينيه بثبات، وكأنها تتحدى كل ما قد يعكر صفو حديثهما. ثم قالت بصوتٍ مليء بالإصرار:
_أه يا جلال عاوزة أسافر الغردقة! غلطت أنا ولا قولت حاجة غلط؟ ولا هما اللي بيسافروا دول أحسن مننا؟

جلال بصخب:مانتي كنتي كويسة يا بت، إيه اللي طلعها في دماغك مرة واحدة؟
ليالي بملل:زهقت ياخويا، زهقت من مشاكل أمك معانا وعاوزة أغير جو! عاوزة أتفسح زي باقي الناس، اشمعنا هما واحنا لا؟ ولا احنا هيفضل مكتوبلنا التعب والشقى طول حياتنا وهما هناك متنعمين في العز؟
جلال بشك:هما مين؟ بقولك إيه أنا مش فايقلك! انتي جهزتي الفطار ولا لسه؟
ليالي بعناد:مجهزتش حاجة ومش هجهز إلا لما تسمع كلامي وتمشي معايا على نفس الخط!

تلفظ جلال بصياح حار، مملوء بالاستياء، وكأن بركانًا من المشاعر قد انفجر داخله، فصاح قائلًا:
_لوي الدراع ده ميمشيش معايا! أدخلي حضري الطفح ومفيش سفر! يلا خلصي متتنحيش!
دخلت ليالي المطبخ، غارقةً في عصبيتها، تشعر أن زوجها جلال يقف حائلًا أمام سعادتها، على عكس أحمد الذي كان دائمًا يلبي جميع طلبات جميلة بلا تردد، كأنهما يتناغمان في سيمفونية متناسقة، بينما كان جلال بمثابة الديكتاتور، غير متقبلٍ إبداء الآراء أو المناقشة. بينما كانت تستخرج الأواني من خزانة المطبخ بعنف، كانت تُصدر صخبًا مقصودًا يُعبّر عن انزعاجها المتزايد، وكأنما كل صريرٍ للأواني كان صرخة من أعماق قلبها. ثم استخرجت علبة الفول من الثلاجة، وأفرغتها في الطاسة، ثم أشعلت النار، التي كانت تشتعل في المطبخ كما كانت نيران قلبها تتأجج. في تلك الأثناء، استلقى جلال على الأريكة، مستخدمًا جهاز التحكم عن بعد لتشغيل التلفاز، محاولًا الهروب من الشجار. على الجانب الآخر، كان أحمد وجميلة وزياد وهايدي في طريقهم إلى وجهتهم، وقرروا التوقف عند إحدى محطات البنزين على طريق الجلالة لتعبئة السيارة بالوقود. بعدما أضفى أحمد البنزين على سيارته، نظر إلى جميلة بابتسامة ودودة، ثم قال لها:

أم الديب الجزء الثالث

_خدي سيليا وهايدي وأدخلوا الحمام ولو عايزين تشتروا حاجة، اشتروا!

جميلة:أوكي هات ٤٠٠ جنيه.

استخرج أحمد أربعمائة جنيه من محفظته، وناولها لجميلة بحركةٍ حانية تعكس تواصلهم الودي. نزلت جميلة من السيارة برفقة هايدي وسيليا، متوجهات نحو المتجر، حيث تداخلت أصوات الناس مع الأجواء المحيطة. في المحطة، كان هناك العديد من السيارات، بعضُها يقوم بتعبئة الوقود، بينما الآخرون يشترون الأطعمة من متجر المنتجات الغذائية، في مشهدٍ ينضح بالحيوية، وكان منظر الجبال يلفت الأنظار، كأنه لوحة فنية تتجلى أمام الأعين، تذوب فيها الأرواح أمام جمالها. كانت الأغاني الأجنبية تتردد من السيارات المجاورة. بينما كان الزبائن هنا من الطبقات العليا والمتوسطة، حيث كل شيء يوحي بالرفاهية. عند دخولهن إلى المتجر، تبادلن النظرات المليئة بالحماس. فتحت سيليا حديثها مع جميلة، وقالت بنبرة مليئة بالتشويق:
_مامي دخليني التويلت بليز!

جميلة:أوكي.

كانت هايدي متمعنة النظر في جمال الطبيعة من حولها، وكأنها انتُشلت من عالم القهر والضغوطات إلى عالم الفرح والحرية بعد زواجها. كانت تلك المرحلة الجديدة في حياتها بمثابة طوق نجاة، انتشلتها من بين الأيدي القاسية لتضعها في أحضانٍ رحيمة، حيث تفتحت أمامها آفاق جديدة من الأمل. بينما كانت هايدي تغمرها تلك المشاعر، نظرت جميلة إليها، رأت انشغالها في أحلامها، فسألتها بفضولٍ مليء بالود:
_مش هتدخلي انتي كمان يا هايدي؟

هايدي بابتسامة:أه طبعًا هدخل.

دخلت جميلة مع سيليا حجرة المرحاض، تساعد ابنتها في قضاء حاجتها، بينما انتظرت عند الباب، وهي تستخرج المرآة الصغيرة المطبقة من حقيبتها. بحركةٍ رشيقة، وضعت الروج الأحمر فوق شفتَيها، لتعكس بذلك ثقةً وأناقةً تعززان جمالها. بينما كانت هايدي تقف في مكانها، كأنها مُثبتة في أفكارها، تخيلت العالم من حولها. وفي صمتها، كانت تُفكر في عقلها دون صوت، قائلةً لذاتها:
_ياه ٤٠٠ جنيه بس؟ ده أنا قولت إنها هتاخد منه مش أقل من ألفين جنيه! ماهو أنا عارفة جميلة كويس بتموت في المصاريف، بس بصراحة حقها، البخل وحش أوي، نفسي أنسى العيشة اللي عيشتها مع ماما طول السنين دي وأبدأ حياة جديدة بقى!
ثم دخلت حجرة المرحاض، حيث كانت تعكس إضاءة خافتة تضفي على المكان شعورًا بالخصوصية. نظرت إلى جميلة، ثم توجهت إليها، التي لا تزال مشغولة بمكياجها، وقالت لها بإعجاب:
_الله المكان حلو أوي، هى دى الأماكن ولا بلاش!

أم الديب الجزء الثالث

بينما كان الرجال ينتظرون النساء في السيارة، ساد صمتٌ خفيف في الأجواء، وكأن الانتظار قد خلق لحظة من التأمل. نظر أحمد إلى زياد بجواره، وتملكته رغبة قوية في كسر هذا الصمت، فسأله بفضول:
_إيه يابني مش هتروح الحمام؟

زياد بتردد:طب بقولك، في هنا قهوة؟
أحمد:أه طبعًا في قهوة وشاي وكابتشينو وكل اللي انت عايزه، طب أقولك تعالى ننزل نشرب حاجة!
زياد بحماس:ماشي.

ترجل زياد وأحمد من السيارة، وبعد أن نزل أحمد أوصد أبواب سيارته بالريموت بحركة حذرة، وكأنما يحرص على كل تفصيل صغير لضمان الأمان. دخلا المتجر، حيث تمازجت الروائح الزكية للمنتجات اللذيذة التي تملأ المكان، مما منح إحساسًا مغريًا بالاستكشاف. كانت أعينهما تتنقل بين الأرفف، تلتقط كل ما يشتهيه البصر، إلى أن وصلا أخيرًا إلى ركن المشروبات. هناك، تطلّع زياد نحو البائع بابتسامة واثقة، وبلباقة تليق برقيه، قال له:
_لو سمحت عايز واحد قهوة زيادة!

البائع:تحب حاجة تانية إضافية؟
زياد:ممكن بسكويت.

أشار البائع بيده نحو الرف الذي يعرض مجموعة متنوعة من البسكويت، بأنواعه المختلفة ونكهاته المغرية، وقال لزياد بابتسامة لطيفة:
_البسكويت هناك!

زياد:شكرًا.

اتجه زياد نحو الرف الذي أشار إليه البائع، يبحث بتركيز عن نوع البسكويت المفضل لديه، مُقلّبًا بين الأصناف المتنوعة بعناية، وكأنه يريد اختيار أفضل ما يناسب ذوقه مع القهوة، وفي هذه الأثناء، نظر أحمد إلى البائع بطلاقة، وقال له بابتسامة ودودة:
_عايز واحد نسكافية بندق.

البائع:تمام.

بينما كان البائع منشغلًا في تجهيز المشروبات المطلوبة، ذهب أحمد لمشاركة زياد في اختيار نوع البسكويت المناسب، وقضيا بعض الوقت في المزاح وتبادل الآراء حول النكهات المفضلة. بعدها، استقرا على طاولة قريبة، ينتظران بصحبة الأجواء الهادئة عودة النساء. لم يمر وقتٌ طويل حتى انضمت إليهم جميلة وهايدي وسيليا، وقد انتهين من تجولهن، وقررن اختيار مشروباتهن أيضًا،

وانضممن إلى الطاولة بجانب أحمد وزياد، حيث جلس الجميع في انتظار إعداد المشروبات. وفي تلك الأثناء، كانت سيليا تتجول بمرح أمامهم، تستعرض رفوف الشوكولاتة ورقائق الشيبس المستوردة.
رفعت جميلة هاتفها بعد لحظة من التأمل، وقررت الاتصال بوالدتها للاطمئنان على أسيل. على الجانب الآخر من المكالمة، كانت أم قمر الدين مستلقية على أريكتها في الحديقة، تستمتع بنسيم الهواء العليل، وبجوارها كلبها المفضل الذي كان يرقد بسلام عند قدميها. تخللت نبرات جميلة حنانًا دافئًا، حين قالت لأم قمر الدين بصوت ملؤه المحبة:
_ألو يا حبيبتي، أسيل عاملة إيه معاكي؟

أم قمر الدين بانشراح:ما شاء الله عليها يا حبيبتي تتحسد، باسم هو اللي نيم أسيل وحطها عند منى.
جميلة بدهشة:معقول يا مامي؟ بابي بنفسه اللي نيم أسيل؟
أم قمر الدين بضحك:طبعًا يا جميلة، ده أنا مقولكيش باباكي فرحان بيها قد إيه! طب تعرفي إنه خد أجازة النهارده علشانها؟
جميلة باشتياق:ياه يا حبيبي، بجد وحشني أوي أوي، هبقى أكلمه أطمن عليه، في حاجات كتير عايزة أقولهاله!

ألقى أحمد نظرة ترقب على زياد وهايدي، كمن ينتظر إجابة قد تضفي على رحلتهم طابعًا خاصًا. بتأملٍ في تفاصيل وجهيهما، سأل بفضولٍ لا يخلو من الحماس:
_إيه رأيك في المكان يا زياد؟ إيه رأيك يا هايدي؟
أجابت هايدي بابتسامة واسعة، وقد ارتسم في عينيها بريق من السعادة وهي تتأمل المشهد من حولها، وكأنها تريد أن تحتفظ بكل تفاصيله في ذاكرتها. قالت بنبرة هادئة يغلب عليها الاستمتاع:
=حلو أوي، كانت فين الأماكن دي من بدري؟
قال زياد لأحمد ببهجة، وعيناه تتألقان بامتنانٍ للحظات الجميلة التي يعيشها:
_لما ده وعلى الطريق أمال هناك بقى الجو عامل ازاي؟

أحمد بابتسامة:لا دي مفاجأة مش عايز أحرقها، انتوا هتنبسطوا أوي، ولسه بقى أنا مجهزلكم برنامج للرحلة هيعجبكم أوي.

نظرت هايدي إلى أحمد بابتسامة دافئة، يغمرها حب صادق يعكس مشاعرها، وقالت له بصوت هادئ يحمل في طياته أسمى معاني الامتنان:
_ربنا يخليك ليا يا حبيبي وميحرمنيش منك.
ضحك زياد بخفة، ونظر إلى هايدي بمزاح محبب، وقال لها بابتسامة مرحة:
=الله طب وأنا؟ إيه مليش حاجة خالص؟
ضحك أحمد، ونظر إلى زياد بنظرة مليئة بالاعتزاز، وقال مبتسمًا:
_وهي تقدر تنساك برضة يا زياد؟ ده انت اللي في القلب!
تلفظت هايدي بعشق يوثب من عينيها نحو أخيها وزوجها، قائلةً بنبرة مكتظة بالحنان:

=انتوا الإتنين بجد بحبكم أوي !
قال أحمد لهايدي بتمنٍ صادق:
_ربنا يجعلها رحلة سعيدة.

هايدي بفرح:يارب.

بعد دقائق، وصل النادل محملًا بمشروباتهم جميعًا، فبدأ الجميع يتناولون المشروبات الساخنة مع البسكويت الشهي، ويتبادلون الحديث والضحك، مما أضفى أجواءً من الفرح على الجلسة، وبعدما انتهوا، عادوا إلى السيارة، واستأنفوا رحلتهم متجهين نحو الغردقة، حيث سيقضون شهر عسل ممتعًا مع العروسين زياد وهايدي. في منزل أم الديب، بعدما غادر العمال تاركين بعض الأدوات في الصالة، بدت الصالة غير نظيفة ومكتظة بالأتربة وقطع الطوب، مما جعل الحصير المتواجد على الأرض يبدو متسخًا. ورغم الفوضى، كانت أم الديب جالسة فوق الحصير، مشغولة بمشاهدة التلفاز، حتى تفاجأت بدخول ليالي التي كانت محملة ببطيخة تزن اثنين كيلو وكيس مدون عليه "الحانوتي للحلويات الشرقية". على الرغم من أنها أمية لا تقرأ، إلا أن قلبها استشعر شيئًا يسعد المعدة. فجأة، نهضت أم الديب وصرخت في وجه ليالي بامتعاض، قائلة:ً
_آني مش قولت محدش فيكم يعتب عتبة داري تاني؟ هو آني كلامي مش مسموع ولا إيه؟

ليالي بتبسم:اهدي بس يا حماتي! ده أنا جاية أفرحك!
أم الديب بارتياب:ايهي ومن امتى الكلام دهو يا بت؟
ليالى بحنان:من زمان بس انتي اللي مش واخدة بالك! طب ده أنا أول ما عرفت من نعمة إنك بتحبي البطيخ والكنافة قولت لازم أنزل مخصوص أشتريلك! ومتخافيش البطيخة هتطلع حمرا ده أنا موصيه الراجل وقولتله هاتلي أحسن حاجة دي لحماتي الغالية!
أم الديب بذهول:حماتك الغالية؟ ليالي على آخر الزمن بتحبني؟ ده انتي لو تطولي تموتيني هتعمليها، ده انتي تطيقي العما ولا تطيقنيش!
ليالي ببشاشة:لا يا حماتي أوعي تقولي الكلام ده تاني! أنا بحبك من زمان ومعتبراكي أمي التانية، لولا بس خناقاتك معايا طول الوقت هي اللي كانت مدارية الحب ده! ماهو برضه يا حماتي حطي نفسك مكاني، انتي لو....

لا تزال ليالي تكمل كلامها، وفجأة، شعرت بيد أم الديب تسحب منها البطيخة، وبدون تردد، دخلت بها إلى المطبخ لتقطعها. لم تتمكن ليالي من تجاهل هذا التصرف، فدخلت خلف حماتها بسرعة، بينما كانت الأخيرة منهمكة في تقطيع البطيخة دون أن تغسلها أولاً. نظرت ليالي إلى أم الديب باشمئزاز، قائلةً لها:
_طب مش تغسليها الأول طيب؟ هتاكليها بالتراب اللي عليها؟

أم الديب باشتهاء:لعلمك يا بت احنا البطيخة عندنا مفيش حاجة بتترمي منها!
ليالى بدهشة:ده اللي هو ازاي؟

أم الديب:بناكل اللحم الأحمر اللي فيها والبياض بنعمله مربى، إنما القشر الأخضر دهو بنسلقه ونعمله عصير.
ليالي باستغراب:طب والبذر بتوديه فين؟
أم الديب:بنحمصه ونأزأزه، احنا معندناش حاجة بتترمي! الكنافة سادة ولا بالمكسرات؟
ليالي بخبث:بالمكسرات، يلا بالهنا والشفا، مطرح ما يسري....

صمتت ليالي قليلًا، كأنها تود قول لفظ آخر، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وقررت أن تُعبر عن مشاعرها بشكل أكثر وضوحًا، فقالت بدهاء:
_يمري، يلا بالإذن!
صعدت ليالي شقتها، تاركة أم الديب تكافح في تقطيع البطيخة بسكينها البارد الذي لم يتحرك بسهولة مع كل ضغط منها. وبعدما فشلت أم الديب في فتحها بالطريقة المعتادة، قررت رفعها بقوة ثم صدمتها في الحائط، فانشطرت نصفين غير متساويين، حيث كان أحدهما كبيرًا والآخر أصغر ومتعرجًا. دون أن تتوانى، أحضرت ملعقة وبدأت تأكل منها مباشرة، متجاهلة تمامًا فكرة تقطيعها وتناولها بالشوكة. في شقة نعمة، كانت ممددة على السرير، لا تزال تعاني من ألم الجرح القيصري، وإن كان بشكل أقل مما كان عليه في السابق. بجانبها، كان مولودها عمر يغفو في نومه الهادئ، بينما كان ابنها محمد يلعب في الصالة بسيارته الصغيرة. في المطبخ، كان حامد يحاول صنع الملوخية بعدما يئس من كثرة تناول حساء الدجاج أو لسان العصفور أو حساء الخضروات، فنادى نعمة، وهو في المطبخ يسخن الحساء التي بدأت تفوح بروائحها في أنحاء المنزل، قائلًا بنبرة عالية:
_أما قوليلي يا نعومي، هي الملوخية بتتعمل ازاي؟

نعمة بصدح:وانت عاوز تعمل ملوخية ليه؟ احنا مش قولنا نقضيها أكل مسلوق لحد ما أكمل شهر؟
حامد بتأفف:مانا بصراحة زهقت من أكل المسلوق، طب انتي الداكتور قايلك تاكلي مسلوق عشان الجرح، أنا آكل مسلوق معاكي ليه؟
نعمة بإدراك:قول بقى إنه عشانك انت مش عشاني!
حامد بضحك:وحياتك عشانا احنا الاتنين، قوليلي بس بتعمليها ازاي!
نعمة:حاضر هقولك.

رن هاتف حامد، فتوجه بسرعة إلى الموقد ليخفض النيران حتى لا يجف الحساء، ثم اتجه إلى الصالة، حيث رفع هاتفه ليجد والدته، أم أشرف، تتصل عليه. جلس على الأريكة، وأجابها بابتسامة رحيبة، قائلًا:
_ألو ياما، عاملة إيه انتي، وأبويا، وأشرف، وهبة؟

أم أشرف بحنو:بخير، انت اللي عامل إيه؟ طمني عليك!
حامد بتبسم:الحمدلله.

أم الديب الجزء الثالث

أم أشرف بتخمين:يدوم الحمد، أما مش موجود على عربيتك ليه؟ ده أنا روحت وجيت مرتين والعربية مقفولة زي ما هي!
حامد:ماهو انتي عارفة إن أنا قاعد أخدم نعمة، أصل نعمة مينفعش تتحرك كتير لازم تكمل شهر الأول!

أم أشرف بحدة:سايب شغلك وحالك ومالك وقاعد تخدم مراتك؟وأكل عيشك يابني؟ مانت بالطريقة دي مش هتلاقي تأكل مراتك وعيالك بعد كده! محدش هينفعك يا حامد، انزل افتح عربيتك وسيبك منها!
حامد:عندك حق ياما، بس نعمة مابقاش في اللي يساعدها، أختها خلاص اتجوزت وبقى ليها بيتها! وحماتي مبتخدمش حد دي عايزة اللي يخدمها.
أم أشرف بلا اكتراث:دي حاجة متشغلناش، انزل شغلك وكفاية قاعدة البيت! مراتك مش هتنفعك وافتكر كلامي كويس!
حامد:حاضر ياما، قوليلي بقى كنتي رايحة السوق ولا إيه؟

كانت نعمة في الداخل تستمع لأحاديث حامد مع والدته، ومشاعر البغضاء تتصاعد في صدرها كالدخان، متأملة في مدى تهميشها وكأنها لا تُعتبرها ابنتها، حيث ذكرتها تصرفات أم الديب مع ليالي بعلاقتها القاسية مع حماتها. همست بصوت خافت لنفسها، متأثرة بمشاعرها:
_أما مفيش مرة تقوله هات أكلم مراتك أسلم عليها! للدرجة دي بتكرهني وقلبها شايل مني كتير؟ ربنا يهدي.
كانت أم الديب جالسة فوق الحصير، تأكل البطيخ بشراهة، مستمتعةً بحلاوة طعمه وسكريته التي أكدت عليها ليالي، بينما كانت تشاهد تلفازها المفضل وكأن الحياة لا تدور حولها إلا في فلك النوم والأكل فقط. فجأة، دخل المعلم حنفي، حيث تحركت رغبته نحو أكل البطيخ الذي بدا لذيذًا في حر الصيف. تردد قليلًا، ولعابه يسيل جوعًا، ثم قال لها باشتهاء:
_إيه ده بطيخ؟ ما تناوليني حتة!

أم الديب برضى:ما تاكل حد مانعك؟
المعلم حنفي بتعجب:ده إيه الكرم اللي حط عليكي مرة واحدة ده؟

ثم جلس يأكل مع أم الديب، حيث استمتع الاثنان بتناول البطيخ في جوّ الصيف الحار، مستغلين لحظات الانتعاش التي تمنحها لهم هذه الفاكهة الشهية. لكن في وسط الأكل، فجأةً، أخذت أم الديب ما تبقى من البطيخ الذي كان قباله ونهضت بسرعة وكأنها لم تكتفِ من طعمه اللذيذ. نظر إليها المعلم حنفي بدهشة، وعيناه تتسعان من المفاجأة، ثم قال لها بصخب وبنبرة تعكس اندهاشه:
_إيه يا ولية؟ آني لسه مخلصتش!

أم الديب بشراسة:كان قدامك خمس دقايق تاكل فيهم بس انت اللي بطيء زي السلحفة!
المعلم حنفي بانفعال:وانتي زي الدرفيل يا ولية!

أم الديب الجزء الثالث

عادت أم الديب، وهي تحمل نصف البطيخة، ثم ركبتها فوق رأس المعلم حنفي، معبرة عن عدم احترامها له بطريقة مباشرة، متجاهلةً تمامًا مشاعره. ارتبك المعلم حنفي، فنهض بسرعة، وبدت عليه ملامح السخط، وهو يصيح قائلًا لها:

_إيه اللي انتي عملتيه ده؟

أم الديب بشكاسة:لما تبقي تحترم مراتك أبقى آني أحترمك!

المعلم حنفي بصياح:آني مش هسكت على اللي بيحصل ده! انتي ولية قليلة الأدب ومعدتش عليكي تربية!

خلع المعلم حنفي نصف البطيخة عن رأسه، وفجأةً، غلبه الاحتدام، فأمسك بها بشدة من رقبتها بكل قوة، كأنه يحاول أن يفرغ فيها كل ما في قلبه من احتقار. كان يضغط على عنقها بينما كانت أم الديب تعول وتختنق، تلهث في محاولة للحصول على الهواء، وعينيها تتوسلان له أن يتركها. قال المعلم حنفي بسخط جسيم، وصداه يتردد في الصالة:

_آني هخنقك وهطلع بروحك في إيدي!

أم الديب باستغاثة:الحقوني يا ناس!

المعلم حنفي بقسوة:هقتلك!

أثناء ما كان المعلم حنفي خانقًا أم الديب بعنف، شعر بجبروت غريب يندفع من خلفه. كأن هيبته قد تزعزعت، وتبددت قوة السخط في قلبه لحظة ظهور "ضايع". ترك عنق أم الديب فجأة، وكأن قوة خفية أجبرته على ذلك، مما جعلها تسقط على الأرض، تعول وتلهث في محاولة يائسة لتعويض الأكسجين الذي فقدته. كانت عيناها مملوءتين بالدموع، ووجهها شاحبًا، بينما التف المعلم حنفي نحو ضايع، وقد ارتسمت على ملامحه دلالات الارتباك، وقال له برجفة عارمة:

_ضايع؟

يتبع....

أم الديب الجزء الثالث

الفصل الثاني والثلاثون

تزلزلت أعماق المعلم حنفي حين التقى فجأة بضايع، ذاك الرجل الذي كان حجر الأساس في بناء قيد زواجه من أم الديب، قيدٌ لم يكن له منه مفر، بل كان مفتاحًا لآلامه وسببًا لأوجاعه التي انغرست في قلبه كالأشواك. لو أنّه تركه في الماضي، لأتيح له طريق نحو إنسانة تملأ حياته بالحبّ والأمان، تحيطه بذراعي الحنوّ. غير أنه وجد نفسه غارقًا في بئر عميق، في صحراء مقفرة لا يعبرها إلا السراب، وبخطوات تملؤها القسوة، اقترب ضايع من المعلم حنفي وسأله بنبرة مكر:

_أه ضايع، مالك اتخضيت ليه؟

اقترب ضايع من المعلم حنفي بخطوات ثقيلة مشبّعة بشر مستتر، فانتاب المعلم حنفي شعور بالفزع كأنّما نُزع غطاء الأمان من حوله، فهبّ من مكانه كالعصفور المذعور، ولاذ بالغرفة وصك الباب خلفه في عجل، وكأنّ ذاك الباب الرقيق سيحميه من مخالب الشرّ التي قد تنقضّ عليه في أي لحظة، مع علمه أنّ ضايع يستطيع تحطيمه دون أدنى عناء. لكن لم يكتفِ ضايع بذلك، بل وجه أنظاره الماكرة نحو أم الديب، واقترب منها بخطى متثاقلة، ثم رماها بسؤاله المغلّف بسخرية لاذعة:

_مالكم كنتوا بتلعبوا مصارعة ولا إيه؟

أم الديب بصياح:مصارعة إيه وهباب إيه؟

اندفعت أم الديب نحو الباب وكأنّها زوبعة هائجة، تضربه بيديها في إصرار، تعلو صرخاتها كأنّها نداءات تتخلل صمت الغرفة، وتنادي المعلم حنفي بحرقة، محاولةً اختراق حصونه الورقية، قائلة بصياح:

_افتح يا حنفي آني مش هسيب حقي، افتح بقولك!

أخذت أم الديب تدقّ على الباب بغلٍ يكاد يُفجّر أركانه، وكأنّها تصبّ في ضرباتها غضب السنين المتراكم، حتى خارت قواها، بينما جلس ضايع على الأريكة وكأنّ المشهد برمّته لا يعنيه. أسند ظهره مسترخيًا، ووضع قدمًا فوق أخرى، وسحب سيجارة وأشعلها ببطء، فتطاير دخانها حوله كوشاح من البرد المستفزّ. ثم التفت إلى أم الديب، وحدّق فيها بنظرة باردة تحمل لا مبالاة مريرة، قائلًا لها بنبرة خالية من أي تأثر:

_بقولك يا بسمة ياختي، أقعدي بس عاوزك في حوار!

أم الديب بنواح:دهو بدل ما ترجعلي حقي من الكلب اللي جوا؟ بقى بسمة على آخر الزمن يتعمل فيها كدهو من راجل مخلع؟

ارتطمت يدا أم الديب بالباب مرة أخرى، وكأنّ في ضرباتها صدىً لصرخاتٍ محبوسة، تجلجلت كلماتها بصوتٍ عالٍ مليء بالحدّة، تكسوها نبرة لا تعرف اليأس، تنادي المعلم حنفي بنداءات تعكس رغبتها العارمة في اجتياح تلك الغرفة المعزولة، قائلة باهتياج:

_افتح يا حنفي بقولك !

أم الديب الجزء الثالث

باغتها ضايع بصوتٍ مفاجئٍ يخلو من كلّ مقدمات، كالسهم الذي يُطلق دون تنبيه، فتسلل صوته إلى مسامعها ببرودٍ ينمّ عن خبث دفين، قائلًا لها:
=أنا اتجوزت يا بسمة!

أم الديب بسخرية:ايهي وإيه الجديد عليك؟ مانت كل يومين متجوزلنا واحدة شكل، ده انت بتغير في الحريم أكتر ما بتغير في هدومك.
ضايع بوضاعة:لا المرة دي غير، أنا اتجوزت في السر من عشرين سنة وجيبت عيال في الحرام!
أم الديب بصراخ:يا لهوي، انت عندك عيال يا ضايع؟ عندك عيال ومخبي عليا كل دهو؟ كنت سايبني أتمرمط في جوازات عيالي لواحدي بدل ما كنت تبعتهملي يقفوا معايا ويساعدوني؟
ضايع بضحك:هو ده كل اللي يهمك يا بسمة؟ أنا عايزك تتعرفي على مراتي وعيالي.

حين أدركت أم الديب من نبرة ضايع أنّ في حديثه ما يستدعي الانتباه، جلست إلى جانبه بتردد، وكأنّها تقترب من غابة مظلمة لا تعلم ما يختبئ بين أشجارها. نظرت إليه بعينين مشوبتين بالشك، تحمل في طياتهما تساؤلاتها الكثيرة التي تجرحها الحيرة، وقالت له بلهجةٍ مشدودة:
_أوعى يكون مقلب من مقالبك السودة! مآني عارفاك تعشق الكدب والحوارات.

ضايع:لا يا بسمة ياختي، أنا مبقولش أي كلام والدليل هتشوفيه قصاد عينيكي.

أخذ ضايع بيد أم الديب، وسارا معًا نحو منزل زوجته، تلك التي تزوّجها بعقد رسمي منذ عشرين عامًا، بعد أن أنجب منها طفلين، رغم أنّه كان يعيش حياة مليئة بالنزوات والضحايا، إلا أنّها الوحيدة التي حملت اسمه في ظلّ القانون، دون أن تصل هذه الحقيقة إلى أم الديب التي كانت تظنّ أنّ ضايع مجرد رجل سائر خلف رغباته العابرة، غير ملتزم بأي رباط.

بمجرد دخولهما إلى الشقة، خيم على المكان إحساس خانق بالكآبة؛ جدران سوداء بلا أي بصيص من ضوء الشمس، وإضاءات حمراء كأنها تسبح في أجواء شيطانية، مضاءة لتكسب المكان رهبة غريبة. غمرت صور الراقصات كل زاوية، لكنها تجمّعت في إطارات صغيرة، في حين خصّت صورة زوجته بإطار ضخم يطغى على الجدار الرئيسي، كأنّها تحظى بمكانة خاصة في ذلك العالم المظلم. جلست أم الديب بجوار ضايع على الأريكة، والانتظار يخيّم على ملامحها، مترقّبة ظهور زوجته وأبنائه. لم تتمالك نفسها أخيرًا، فنظرت إلى ضايع بنظرة مليئة بالتساؤلات، وقالت له بلهجة مشوبة بالاستفسار:
_هما اتأخروا كدهو ليه؟

ضايع:الصبر حلو يا بسمة، أصبري!
أم الديب بتهكم:أدينا صابرين أهو، وانت يعني اللي زيك هيخلف إيه غير قتالين قتلة زيه؟ ولا يمكن تيجي من عيالك ماهو يخلق من ضهر الفاسد عالم برضة، أمال إيه؟

أم الديب الجزء الثالث

دخلت زوجة ضايع إلى الصالة، مرتدية ملابس خليعة تخلو من أي علامة على الاحترام، وكأنّها تجسد تجسيدًا حيًا للغرائز التافهة التي تسيطر على هذا العالم المظلم. في يديها صينية مزخرفة بكاسات الويسكي والبيرة، بينما تلاها شاب طويل يشبه ضايع في سنوات شبابه، وفتاة أخرى تكاد تُغطي وجهها بكمية هائلة من الماكياج، وكأنها تحاول إخفاء هويتها الحقيقية تحت طبقات من الألوان الاصطناعية.
تقدمت "سافلاء" من أم الديب، تحمل في ملامحها ابتسامة وضيعة لا تنم إلا عن عدم الحياء، وقالت لها:
_يا أهلًا وسهلًا، يا أهلًا بأخت جوزي الغالية.
وضعت تلك المرأة الصينية فوق الطاولة بحركة رشيقة، ثم اقتربت من أم الديب وكأنّها تنوي تقبيلها، في سلوكٍ يحمل في طياته التهكم. كانت أم الديب مشدودة الأعصاب، واستشعرت في تلك اللحظة أنّ حدود الوقاحة قد تجاوزت كلّ المدى، فسألت ضايع بصدمة واضحة على ملامح وجهها:
_ايهي هي دهي مراتك؟

ضايع بتأكيد:أمال إيه؟ ده حتي بيقولوا إننا فينا شبه من بعض .

ثم أردفت لزوجته "سافلاء" بابتسامة مريبة:
=أقعدي يا سافلاء ارتاحي !
نادى ضايع أبناءه الذين كانوا يقفون بعيدًا، بعيدًا عن مشهد الفوضى الذي يسود الصالة، صوتُه يخرق الصمت كأنّه دويّ جرس في غابة موحشة، قائلًا لهما:
_تعالى يا منحط سلم على عمتك بسمة انت وأختك مايعة!
بينما كانا يتقدمان نحو عمتهم، انتفضت أم الديب في مكانها، صرخات الذهول تتسلل إلى نبرتها، قائلة لضايع بصدمة لا تخفى:
=يا لهوي إيه الأسامي دهي يا ضايع ياخويا؟
قال "منحط" لأم الديب بتلك الابتسامة الماكرة التي تفتقر إلى العمق، والتي لم تكن إلا قناعًا يخفي ما في داخله من ضغينة:
_ازيك يا عمتي؟ أنا كان نفسي أشوفك من زمان.
تلفظت "مايعة" مع أم الديب بابتسامة طريفة لا تحمل سوى الازدراء، وكأنّها تسعى لتحويل الموقف إلى مسرحية هزلية:
=منورة الدنيا يا عمتي، احنا أبونا كان عالطول يحكيلنا عنك، وكنا دايمًا نقوله يودينا عندك بس مكنش بيرضى.
سألت "أم الديب" "ضايع" بصدمة، وصوتها يرتفع كصرخة نذير في لحظة من التوتر، وهي تصرخ فيه بلهجة تنضح بالاستنكار:
_يا خراب بيتك يا ضايع، بقى حد يسمي عياله الأسامي دهي؟ سافلاء ومنحط ومايعة؟
ضايع بِاتضاع:أنا قولت أسمي العيال أسامي تليق على سموي، ماهو أصل أنا مش أي حد يا بسمة ياختي ولازم يوم ما أسمي، أسمي أسامي متسمتش قبل كده!

ضحكت "سافلاء" بقهقهة تفتقر إلى الاحترام، ثم قالت لأم الديب بنبرة مشبعة بالتهكم:

أم الديب الجزء الثالث

_عارفة يا بساسيمه؟ أنا ضايع اختارني مخصوص لأجل اسمي، بيني وبينك حسيت إن بينا كيميا رهيبة من أسامينا.

أم الديب بازدراء:ايهي انتي هتقوليلي؟ وانتي بتشتغلي إيه ياختي؟
سافلاء بحقارة:أنا صاحبة كبارية يا عينيا، الحمدلله فضل ونعمة من عند ربنا، عمري ما كنت أتخيل إن أنا في يوم هكون صاحبة كبارية، بس كله بفضل ضايع حبيب قلبي ورفيق روحي.
أم الديب بسخرية:حبيب قلبك ورفيق روحك؟ جاكي عزرائيل لما يقبض روحك يا بعيدة.

خرجت أم الديب من الصالة وهي تغلي من السخط، متجهة نحو الباب لفتحه والخروج من هذا العالم الغريب الذي يشبه كوابيس المسحورين، حيث الفوضى تكتسح الأجواء والعلاقات تتأرجح بين الضحك والازدراء. ومع كل خطوة كانت تأخذها، تلاها المراهقين، و"ضايع" الذي قام متعقبًا إياها، محاولًا اللحاق بها، وهو يسأل أم الديب:
_رايحة فين يا بسمة؟

أم الديب بصخب:انت جايبني تعرفني على واحدة اسمها سافلاء، والتاني منحط، والتالتة مايعة؟ ايهي إيه الأسامي دهي؟ وتقولك صاحبة كبارية؟
ضايع:وانتي كان حد قالك يا بسمة ياختي إن أنا شيخ جامع؟ مانتي عارفة اللي فيها، وبعدين الكلام ده ميصحش أقعدي خدي واجبك !

نادى ضايع زوجته بصوت عالٍ، محاولًا استعادة بعض من السيطرة على الموقف المتفجر، قائلًا لها بلهجة تحمل في طياتها استعجالًا:
_كاسين بيرة على السريع يا سافلاء أصل شكل بسمة أختي مستعجلة.

سافلاء بطاعة:من عينيا يا ضايع.

التفت ضايع في تلك اللحظة، بينما كانت زوجته تقترب منه حاملةً كاسات الخمر، ساعية لتقديمهم تعبيرٍ عن الاحتفال وسط فوضى الهموم. لكن "أم الديب" ، التي كانت تشتعل اعتراضًا، صرخت في ضايع قائلة له بعنفٍ يُظهر حنقها العارم:
_استني عندك! آني مش هشرب الهباب دهو، خليهولكم!
ثم فتحت الباب، وخرجت لتجد ضوء الشمس يتسلل إلى عينيها، كأنه يعيدها إلى عالمها الأصلي، بعيدًا عن منازل الأبالسة التي أطبقت عليها بكلّ ضغوطها. شعرت بوهج الحياة وهو ينعش روحها، لكن ضايع خرج خلفها، مناديًا أم الديب بصوت مرتفع، بينما كانت هي تنزل على السلم بخطوات حاسمة، قائلًا لها:
=استني بس يا بسمة! رايحة فين؟

أم الديب الجزء الثالث

أم الديب بصياح:اطلع منها انت ياخويا وشيلني من نفوخك! قال سافلاء قال، يا مصيبتي السودة.

حينما أدرك ضايع أنّه لا فائدة من نداء أم الديب، دخل شقته من جديد وأوصد الباب خلفه بقوة، وكأنّه يغلق على نفسه كلّ صرخات العالم الخارجي. في تلك الأثناء، اقترب منه "منحط"، ابنه الذي يتوقّع دائمًا الأسوأ، وسأله بفضول مستتر، محاولًا فهم سبب مغادرة أم الديب:
_هي عمتي زعلت ليه يا أبويا؟

ضايع:وأنا إيه عرفني؟ شكل حنفي منكد عليها عيشتها، أفوقله بس وهعلقه على باب بيتهم.

تحرك ضايع نحو زوجته، وملامح وجهه تتجلى فيها علامات الحزم، قائلًا لها بصوت غائر:
_أما بقولك يا سافلاء.

سافلاء بتبسم:أؤمرني يا ضايع.
ضايع:انزلي انتي على الكبارية عقبال مانا أقضي مصلحة سرقة في الشارع اللي ورانا.
سافلاء:من عينيا يا حبيبي.

تحركت أم الديب في الشوارع القريبة من منزل ضايع السري، كأنها تبحث عن مخرج من كابوسٍ خيم على حياتها، حتى وصلت إلى الطريق الرئيسي. وقفت هناك وحيدة، والسيارات تتدفق بجانبها كأنها تجري في سباقٍ لا يعبأ بما يجري حوله. كانت تنتظر أحدهم لتمنحه عنوان أبنائها في القاهرة، وحينما مرّ بجانبها أحد سيارات الأجرة، أشارت له بحركة متعجلة، قائلة:
_أقف !
توقفت سيارة الأجرة فجأة، فالتفتت أم الديب نحو السائق من نافذتها، حيث سألها "السائق" عن وجهتها، قائلًا بنبرة عملية، ساعي لبدء رحلة جديدة في يومه:
_رايحة فين يا حاجة؟

أم الديب:على العنوان دهو.

ثم مدت أم الديب يديها لتمنح "السائق" الورقة التي تحتوي على تفاصيل عنوان منزل أحمد، وكأنها تسلّمه مفاتيح أملها في العثور على أبنائها. بعدما دقق السائق في المعلومات المكتوبة، رفع نظره إليها، قائلًا بتأكيد:
=طب اركبي!

ركبت أم الديب التاكسي، متجهةً نحو الوحدة السكنية التي يعيش فيها أحمد حيث كانت تتأمل الشوارع غير المألوفة وهي تمر بسرعة. بينما كان المعلم حنفي مختبئًا في الغرفة، يتحدث إلى "حسين"، أخيه، في الهاتف بصوت خافت يكاد يختفي في الأجواء، متجنبًا أن تُسمع أي كلمة عن احتمال وجود أم الديب

أم الديب الجزء الثالث

أو ضايع في المنزل. بعدما سرد حنفي تفاصيل ما حدث في تلك الليلة المشؤومة، علق حسين على حديث أخيه بنبرة تتأرجح بين القلق والعتاب، قائلًا له:

_ مانا قولتلك مية مرة تيجي تقعد معايا وأهو نونس بعض بدل قعدتك مع مراتك اللي تجيب الهم والغم! يا حنفي احنا خلاص مابقاش ورانا حاجة! انت كل عيالك اتجوزوا وبقى ليهم حياتهم الخاصة، وأنا ابني الوحيد اتجوز وبقى له حياته الخاصة، وانت قاعد لواحدك زهقان، وأنا قاعد لواحدي زهقان، ده كفاية إن مراتك مش مريحاك زي باقية الحريم... لا بتعملك لقمتك ولا بتغسلك هدمتك، يبقى تقعد معاها ليه وتتشاكلوا طول الوقت؟

المعلم حنفي:شكلك كده انت اللي طلع عندك حق، أنا كان عليا بإيه قعدتي معاها؟ أنا بس اللي خايف منه الولية تعرف فتقوم حاطاني في دماغها وشغل العباط يزيد أكتر من الأول.

حسين بإلحاح:سيبك منها وطلعها من دماغك، ولم هدومك وتعالى عيش معايا! احنا أخوات وملناش غير بعض يعني منتعوضش يا حنفي! لكن هي تتعوض ونص وتلت أربع كمان.

المعلم حنفي باقتناع:عندك حق، طيب أقفل يا حسين آني هلم هدومي وجاي.

حسين بشوق:وأنا مستنيك... توصل بالسلامة.

المعلم حنفي:الله يسلمك.

بعد انتهاء المكالمة، بدأ المعلم حنفي يجمع ثيابه من الخزانة، وكأنّه يحاول تخبئة ذكرياته في كيس بلاستيكي قديم. كانت يديه ترتجفان وهو يضع القطع المتناثرة بعناية، إذ كان يدرك أن كل ما يفعله هو محاولة يائسة للهروب من واقعٍ مرير. فتح باب الغرفة بحذر، عينيه تتنقلان بين الجانبين كعيني طائرٍ حذر، يخشى من مواجهة ضايع، الذي لا يعرف مغادرته برفقة أم الديب. بخطوات بطيئة، كأنه يسير على قشور البيض، خرج من المنزل بأكمله، مُشعرًا بضغط كل لحظة تمر عليه. بمجرد أن أصبح في الخارج، أشار لأحد التكاتك، ووصف له الوجهة المطلوبة، ثم ركب وانطلق نحو منزل حسين.

بعد ساعات من السفر، وصل الرباعي إلى الغردقة أخيرًا بسلام. كانت الأجواء هناك شديدة البهجة، حيث احتلت الحياة أجواء المتعة بلا حدود. عمت الموسيقى الأجنبية في القرية السياحية، والناس من جميع أنحاء العالم يتجولون بملابس البحر، يمزجون بين الضحكات والمشاعر المبهجة. دخل زياد وأحمد، محملين بالحقائب الثقيلة إلى الفندق، تاركين النساء يمشين كالملكات دون أي عناء، كأنّهن يقطفن ثمار الراحة في كل خطوة، ومع لحظات من الهدوء، بدأ أحمد وزياد يمضيان على الأوراق المهمة. سلم أحمد لهم نسخة من قسيمة زواجه بجميلة، بينما قدم زياد أيضًا نسخته للتأكيد على حقيقة زواجهما، وكأنّ الأوراق كانت درعًا يحميهم من أي شكوك. بعد الإجراءات الروتينية، صعدوا جميعًا نحو غرفهم، حيث كانت غرفة أحمد وجميلة تقع في المقدمة، بينما كانت غرفة زياد وهايدي في المنتصف، وعندما وقف "أحمد" على عتبة باب غرفته، قال لزياد:

_ أدخلوا ارتاحوا وغيروا، هننزل نشتري شوية حاجات كمان شوية!

زياد:مش هنروح البحر ولا إيه؟

أحمد:ماهو احنا هنروح نشتري مستلزمات البحر علشان نقدر ننزل، انت عارف الموضوع جه فجأة وملحقناش نشتري حاجة.
زياد:طيب تمام.

أردف "زياد" لهايدي:
=يلا يا هايدي!
دخل كل واحد منهم إلى غرفته وصك الباب خلفه بإحكام، كما لو كان كلٌ منهم يسعى لحماية أسراره وأحلامه من العالم الخارجي. أما هايدي، فقد اتجهت نحو البلكونة، حيث استقبلتها نسمات البحر العليلة التي تحمل عبق الملح ونداء الأفق اللامحدود. كانت واقفة هناك، تتأمل البحر الهادئ الذي ينساب برفق تحت ضوء الشمس الساطع، وكانت في قمة السعادة، كأنما تحررت من قيود الحياة اليومية. موجات البحر تتلاطم بلُطف على الشاطئ، وكان الصوت كأنّه لحنًا مهدئًا ينساب في الأجواء. تأملت هايدي السماء الزرقاء الممتدة بلا حدود، حيث تزينها بعض الغيوم البيضاء كالأزهار العائمة. في تلك اللحظة، كانت الحياة تبدو لها كحلمٍ جميل. فجأة، وقف "زياد" بجوارها، مُعجبًا بالمنظر الساحر الذي يحيط بهما، وقد انعكس على ملامحه الاستمتاع، وقال لها بدهشة:
_الله، إيه الجمال ده؟ المنظر حلو أوي أوي.

هايدي بانشراح:أوي يا زياد... عارف أنا حاسة إن أنا اتغسلت من جوا، حاسة إن أنا نسيت كل حاجة وحشة مرت عليا، أنا عندي إستعداد أعيش هنا طول حياتي.
زياد بسعادة:والله وأنا كمان، انتي عارفة لو احنا عايشين في عشة بس بعيد عن مرات عمي، أنا والله راضي، المهم نكون بعيد عنها.
هايدي بمُتعة:خلاص انسى ماما وطلعها من دماغك، خلينا نستمتع بالحلاوة دي!
زياد بإذعان:عندك حق، طب انتي هتغيري ولا هتنزلي كده؟
هايدي:لا مالوش لازمة احنا كده كده نازلين تاني.
زياد بتبسم:طيب أنا هدخل أستكشف الأوضة.
هايدي بحبور:ماشي.

دخل "زياد" الغرفة، وفور أن ألقى نظرة على المكان، شعر بشعورٍ مفعم بالارتياح؛ كانت الغرفة جميلة للغاية، مزينة بألوان دافئة تضيء الجدران، وأثاث مريح يعكس ذوقًا رفيعًا. ولكنه لم يستطع مقاومة فضوله، فاتجه نحو الثلاجة، وعندما فتحها، وجدها مغمورة بالمشروبات المعلبة والشوكولاتات المتنوعة، كأنّها كنز من السعادة مخبأ في قلب الغرفة. تملّكه الحماس، فأخذ منها علبتين من المشروبات، إضافةً إلى بعض الشوكولاتة، وعاد بسرعة إلى هايدي التي لا تزال واقفة على البلكونة، تستمتع بمنظر البحر الخلاب. وقف بجوارها، والبهجة تشرق على وجهه، ثم قال لها بابتسامة عريضة:
_خدي نتسلى فيهم لحد ما أحمد وجميلة يجهزوا.

هايدي بسعادة:الله أنا بحب العصير ده أوي!

أم الديب الجزء الثالث

زياد بغرام:وأنا بحبك أوي!

قبل زياد يديها برفق، وكأنّما أراد أن يُعبر لها عن مشاعره بلمسة صغيرة، لكن "هايدي"، التي شعرت بخجلٍ شديد، احمرّت وجنتاها وتملكتها حالة من الارتباك. لم تكن تتوقع تلك اللفتة، فغمرتها مشاعر مختلطة من السعادة والخجل. بسرعة، حاولت تغيير الموضوع، قائلة له بحياء، بينما كانت تبتسم بخجل:
_عجبك المنظر صح؟

زياد بهيام:أوي.

كان "أحمد" وجميلة وسيليا يجتمعون في البلكونة، حيث كان البحر البهيج يتلألأ خلفهم، ويعكس جمال اللحظة في ألوانه الزرقاء اللامعة. كانوا يلتقطون السيلفي معًا، يضحكون ويتبادلون الأحاديث المرحة. ووسط التصوير، فجأة، نشب أحمد الهاتف ورفع نظره إلى جميلة، مُعبرًا عن حماسته، فقال لها بصوتٍ ملؤه الدفء:
_لا لا استني أنا اللي هصور!

جميلة باستجابة:أوكي يا سيدي، اتفضل.

رفع أحمد الهاتف والتقط الصور مع زوجته جميلة وابنتهما "سيليا"، بينما كانت الضحكات تملأ الأجواء، وتظهر البهجة على وجوههم. وبعد أن انتهوا من التصوير، نظروا إلى الصورة التي ظهرت على الشاشة، وكانت رائعة ومميزة، فقالت سيليا لجميلة، والإعجاب يتجلى في عينيها:
_مامي ممكن تبقي تصوريني قصاد الـbeach ؟

جميلة بلُطف:حاضر بس لما ننزل.
سيليا بإلحاح:طب يلا بليز، يلا يا مامي، يلا عايزة أتصور بليز!

قال "أحمد" لسيليا باستعداد، وهو ينظر إليها بابتسامة مشجعة:
=حاضر يا سيليا، يلا بينا!
أخذ أحمد سيليا بيده، وخرجا من الغرفة، بينما كانت جميلة تتبعهما، تحمل حقيبتها الأنيقة، وهي تشعر بسعادة متزايدة تتصاعد في أجواء الغرفة. أوصدت الباب خلفها، وانطلقوا أمام غرفة العروسين، حتى وصلوا إلى باب زياد وهايدي. طرقوا الباب برفق، وما لبث أن فتح "زياد" لهم، مع ابتسامة كبيرة تزين وجهه، وكان يبدو عليه الفرح البالغ لرؤية العائلة مجددًا. فقال لسيليا بسرور، وهو ينحني قليلًا ليكون في مستوى عينيها:
_الله إيه المفاجأة الحلوة دي؟

سيليا بظُرف:أنا بتحايل عليهم من بدري ومفيش حد سمع كلامي غير دلوقتي!

أم الديب الجزء الثالث

زياد بضحك:بتتحايلي عليهم في إيه؟
سيليا بطَلَاقة:إننا ننزل كلنا عند الـ .beach

ضحك "أحمد" بملء قلبه، وهو يشعر بأن لحظات التهلل تتدفق في الأجواء، ثم قال لزياد:
_من بدري وهي عايزة تنزل تحت تتصور.
ثم نظر "أحمد" حوله بتساؤل، يبحث عن هايدي، قائلًا لزياد:
_إيه هايدي فين؟

زياد:هايدي في البلاكونة.

نادى "زياد" هايدي مستعجلًا، وعيناه تتلألأان بشغف لرؤيتها، وكأنه يحمل في صوته دعوة خاصة لها:
_هايدي!
جاءت "هايدي" مسرورة، تتلألأ عينيها بالفرح، وكأنّها تحمل في طياتها نسيم البحر العليل الذي يعبق في الأجواء. توجهت نحو أحمد، تحمل في قلبها مشاعر السعادة، وابتسامتها الواسعة تُضيء وجهها، وسألته:
_هننزل دلوقتي ولا إيه؟

أحمد:أيوه، جاهزين ولا إيه؟
هايدي باستعداد:أه طبعًا جاهزين.
أحمد بحماس:طيب يلا بينا.
هايدي بإقدام:يلا.

حملت هايدي حقيبتها بخفة، وخطت مع زياد خارج الغرفة، بينما أوصدوا الباب خلفهم صعدوا في المصعد الكهربائي، حيث كانت الأجواء ملآنة بالتشويق، ومن ثم خرجوا من الفندق إلى فضاء واسع يتلألأ فيه ضوء الشمس، مما جعل الجميع يتجمعون أمام واجهته لالتقاط صور تخلد هذه اللحظات السعيدة. بعد الانتهاء من التصوير، ركبوا السيارة مُتجهين نحو أكبر المتاجر في الغردقة، التي تُعرف بتقديم كل ما يخص مستلزمات البحر من ملابس وإكسسوارات. عند وصولهم، نزلوا من السيارة وبدأوا يتجولون بين أروقة المتجر الذي كان يعجّ بالزوار، حيث كانت الوجوه تضيء بالفرح والاستمتاع بالتسوق. لفت نظر جميلة بكيني متدلى على المانيكان، وكانت تعكس عينيها إعجابًا كبيرًا برؤية التصميم الجريء، الذي كان يُبرز الألوان الزاهية. كان ذلك البكيني عاريًا إلى حد كبير، يحمل جرأة لم تكن لتتقبلها عائلة أحمد، مما جعلها تشعر بالحيرة. فقالت "جميلة"، والتردد يتسلل إلى نبرتها:
_حلو أوي البكيني ده!

هايدي بصدمة:يا نهار أسود يا جميلة، معقول هتلبسي ده؟
جميلة بقهقهة:عادي، إيه المشكلة؟

أم الديب الجزء الثالث

هايدي بدهشة:هو انتي يا بنتي أول مرة تسافري مع أحمد؟
جميلة:لا طبعًا سافرنا كتير، بس ليه بتقولي الكلام ده؟
هايدي باستغراب:طيب كنتي بتلبسي إيه؟ أصل مستحيل يوافق إنك تلبسيه! انتي مش شايفة شكله عامل ازاي؟

جميلة بلا مُبالاة:ياه يا هايدي، ارتقي بأفكارك بقى! هو لسه في حد بيفكر بالطريقة دي؟ هو أه أنا كنت بلبس مايوه طويل بس خلاص أنا من حقي أعمل اللي أنا عايزاه، ولا أنا كل سنة على نفس البروجرام؟
هايدي برفض:لا يا جميلة ده هيبقى مبين جسمك جدًا، أنا أسفة بس انتي كده كأنك مش لابسة حاجة خالص! وأكيد دي حاجة أخويا مش هيوافق عليها!
جميلة بابتسامة:نقنعه، ليه لأ؟ ممكن يوافق.

حين وجدت "جميلة" "هايدي" مصدومة في أخلاقياتها، ضحكت بقوة، تعبيرًا عن سعادتها برؤية رد فعلها. كانت ضحكتها تنبعث من عمق قلبها، ثم اقتربت منها، عاقدة العزم على توضيح نواياها، فقالت لهايدي بطريقة مرحة ملؤها المزاح:
_خلاص يا هايدي أنا بهزر! مش معقول كل حاجة تصدقيها كده! تصدقيني لو قولتلك إن أنا الوحيدة في أخواتي اللي عمري ما لبست بكيني بالشكل ده؟

هايدي بقلق:بجد يا جميلة، يعني مش هتلبسيه؟
جميلة ببشاشة:أيوه طبعًا شكلك لسه متعرفنيش بس على العموم هتعرفيني أكتر مع الأيام.

ضحكت هايدي وسرحت بخيالها نحو البوركيني الإسلامي، تستمتع بتفاصيله والألوان الزاهية التي تجذب الأنظار. في تلك الأثناء، كان أحمد وزياد يقفان بجانب قسم الملابس، يتفحصان التيشرتات والشورتات المخصصة للبحر. بينما كان الشغف بالاستعداد لمغامرات البحر يسيطر على تفكيرهما. قال "أحمد"، وهو يُشير إلى تيشيرت مزخرف بألوان مُشرقة:
_إيه رأيك؟

زياد:حلو أوي عليك، ومتهيئلي اللي هناك هيكون أحلى!

أشار زياد نحو التيشرت الذي أثار انتباهه، وكأنّه يسعى لتأكيد اختياره المفضل. كان أحمد يراقب بحذر، وأعاد إيماءته بمزيد من الحماس، وهو يُشير إلى ذلك التيشرت الزاهي. في تلك اللحظة، ارتسمت على وجهه ملامح الاستفسار، حيث سأل "أحمد" بشغف:
_ده؟

زياد بتأكيد:أيوه، بس التشكيلة هنا حلوة أوي!

أم الديب الجزء الثالث

أحمد:ده أحسن مكان هنا للتيشرتات والشورتات، لأ وكمان الخامات هنا حلوة أوي!
زياد:ماهو باين فعلًا، أنا أصلًا عمري ما جيت الغردقة بس الفضل يرجع ليك انت اللي عرفتني على الأماكن دي!
أحمد:ومين قالك إن أنا كنت بروح الأماكن دي أصلًا؟ أنا لحد ما اتجوزت مكنتش بشوف الأماكن دي ولا أعرف طريقها منين، لولا جميلة هي اللي عرفتني على الأماكن دي واحدة واحدة، يا أخي ده أنا بحر إسكندرية مكنتش بشوفه، لما آجي هنا مرة واحدة!
زياد باستغراب:ليه هو عمي مكنش بياخدكم فسحة يوم في السنة؟
أحمد بشجن:ولا ساعة واحدة حتى! احنا الأربعة كنا دايمًا بنشوف البحر ده في التليفزيون، كان نفسنا نشوفه على الطبيعة، وكان كل ما حد فينا يقول إن نفسه يشوف البحر كأقل حق من حقوقه يعني، الدنيا تقوم متقعدش.

في الماضي، قبل خمسة عشر عامًا، كان الأبناء يتطلعون بشغف إلى رؤية البحر والسباحة فيه كما يفعل بقية الناس، مُعبرين عن مللهم من مشهد الترعة القذرة التي كانت تحيط بهم، مليئة بالقمامة والحيوانات الميتة التي كانت تنشر الأمراض دون رحمة. كان جلال، الذي كان يحمل في قلبه آلامًا نفسية عميقة، يأمل في أن تُخفف له السباحة من أعبائه. كان يُنظر إلى البحر كملاذٍ للهروب من الواقع القاسي، وكأنَّ أمواج الماء ستغسل همومه وتمنحه فرصة جديدة للحياة. توجه بجسده نحو والدته أم الديب، محاولًا إظهار رغبة ملحة في السفر إلى البحر، قائلًا لها:
_أنا عاوز أشوف البحر، نفسي أبلبط فيه ياما زي باقية الخلق!

أم الديب باحتجاج:واحنا معندناش حاجة اسمها بحر، عندكم الترعة اللي قصاد الدار انزلوا فيها وعندك كاوتش العربية خده عشان متغرقش، وخلي بالك من أخواتك!

وجه "جلال" كلماته إلى أم الديب بصوت مرتفع، مُعبرًا عن مشاعر الفوضى التي تسكن داخله:
_كاوتش عربية إيه ياما وترعة إيه؟ بقولك عاوز أشوف البحر اللي لونه أزرق! مش الترعة الخضرا اللي بيرموا فيها زبالة شارعنا!
سألت "نعمة" أم الديب بدهشة، بينما كانت تعكس عينيها استغرابًا كبيرًا من ما سمعته:
_وفيها إيه ياما لما تاخدونا يوم وتودونا البحر؟ مش أحسن من المناظر اللي تجيب الهم دي؟

أم الديب بفظاظة:آني جيبتلكم الحل وانتوا اللي بتصعبوه عليا، افضلوا اتدلعوا كدهو كتير لحد ما تقعوا على جدور رقبتكم! ماهو البطران عيشته قطران.

بعدما تبادل الكبار الحديث، أدركوا أن لا جدوى من وصف احتياجاتهم، خصوصًا مع صراخ والدتهم المجنونة التي لم تكن تعرف كيف تتفاهم معهم باللين. كان الإحباط يتسلل إلى قلوب أحمد وهايدي، بينما ظلّا صامتين، ينظران إلى بعضهما البعض وكأن الكلمات قد فقدت معناها في ظل تلك الفوضى، وفي

أم الديب الجزء الثالث

تلك اللحظة، كان "أحمد" في حاضرنا، يقف مع زياد، مُستعيدًا ذكرياته من الماضي. كانت ملامح وجهه تعكس تأثره بما حدث، وهو يواصل شرحه بتفاصيل مثيرة، مُتحدثًا:
_من يومها وأنا وهايدي نفسنا نخلع من العيشة دي، ونحس إننا عايشين زي باقية الناس الطبيعية اللي عايشة بجد.

زياد:أنا اختارت هايدي لإنها شبهي في حاجات كتير ومن ضمنهم النقطة دي، الفرق بينا إن أبويا كان مساعدني أطور من نفسي لكن مرات عمي كانت بتهبطكم دايمًا ومش ماشية معاكم على نفس الخط!
أحمد باستياء:ربنا ما يعيدها أيام يا زياد، دي كانت أيام سودة.
زياد بأمل:إن شاء الله مش هتتعاد تاني، أنا واثق من كده!

جاءت "جميلة" بابنتها سيليا، التي كانت ترتدي مايوه البحر الجديد، بشغف ظاهر على ملامح وجهها. كانت تنتظر بفارغ الصبر ردود أفعالهم، وكأنها تسعى للحصول على تأكيد لمشاعرها. نظرت إليهم بعيون مليئة بالتوقعات، وسألت:
_إيه رأيكم في المايوه؟ حلو صح؟
أجاب "أحمد" بإعجاب، بينما كانت عينيه تتلألأان بشعور الفخر:
=أه طبعًا حلو جدًا .
وأردف لابنته، وهو يفعمها بالطاقة الإيجابية، بأن اختيارها للمياه يعكس ذوقها الرفيع:
=يجنن عليكي يا سيليا!
ضحكت "سيليا"، وقد شعرت بدفء كلمات والدها، وقالت له برقة، وكأن ضحكتها تنبع من أعماق قلبها:
_ميرسي يا بابي، طب مش هتجيب مايوه انت كمان؟
أجاب "أحمد" بمزاح، مبتسمًا وهو يراقب رد فعل ابنته:
=طبعًا هجيب، بس مش زي المايوه بتاعك!

سيليا بمرح:أكيد مش هتلبس زي ده، دي تبقى مشكلة!

قهقه "زياد"، وهو يتابع تلك الأجواء المرحة بين أحمد وابنته، ثم قال لأحمد بلهجة مازحة:
=ماشاءالله سيليا لمضة.

أحمد بضحك:أوي، هو انت لسه شوفت حاجة؟
زياد بابتسامة:ربنا يبارك فيها يارب.
أحمد بتمني:يارب وعقبال ما نشيل ولادك انت وهايدي.

صمت زياد ونظر في الأرض، كأنه يخفي شيئًا ثقيلًا في قلبه لا يستطيع البوح عنه حتى الآن، بينما لاحظ "أحمد" تغير ملامحه وابتعاده عن الأجواء المرحة. استشعر القلق يتسلل إلى قلبه، مما دفعه للسؤال بحذر:

أم الديب الجزء الثالث

_في إيه يا زياد؟

لكن زياد لم يُجيب، وظل صامتا مكتفيًا بهذا السر الذي يحمله وحده، حيث خشي أن يحرج هايدي إزاء أخيها، خصوصًا أن الأمور كانت خاصة جدًا ودقيقة. في تلك الأثناء، عادت جميلة وسيليا من جولة تسوق جديدة، محملتين بأكياس ملابس البحر التي تفيض بالألوان الزاهية، بينما كانت هايدي بعيدة، تستعد لتجربة البوركيني الإسلامي الخاص للمحجبات. بعد نحو ثلث ساعة، وصلت أم الديب إلى الوحدة السكنية التي يعيش فيها أحمد وهايدي، وقد خاضت معركة صغيرة مع سائق التاكسي حول الأجرة. كانت شوارع المدينة مزدحمة ومليئة بالحياة، لكنها لم تكن تهتم سوى بوصولها، حيث قدمت له خمسة جنيهات فقط. وعندما استقبلها السائق بنظرة غير راضية، دعا عليها وهو يهمس بكلمات ساخطة. غير أن أم الديب لم تعر له اهتمامًا، وواصلت خطواتها نحو العمارة. حالما وصلت، كان "البواب" الخمسيني جالسًا على الكرسي، يستمتع بأشعة الشمس التي تسللت عبر الأشجار القريبة. وبمجرد رؤيته لأم الديب، نهض بسرعة، مشعًا بابتسامة عريضة وكأنه قد رآها بعد غياب طويل، قائلًا:
_يا أهلًا بست الحاجة، منورة الكمباوند كله.

أم الديب بإرهاق:الله يسترك ويباركلك يا حاج.

أكملت أم الديب سيرها نحو العمارة، وما إن كانت على وشك الدخول حتى ناداها "البواب" بدهشة، مفعمًا بالكثير من الاستغراب:
_رايحة فين يا ست؟

أم الديب بهدوء:طالعة لعيالي، أطمن عليهم.
البواب:مفيش حد فوق!
أم الديب بدهشة:ايهي خرجوا ولا إيه؟
البواب:أه طبعًا دول نزلوا كلهم من صباحية ربنا، سافروا!

صرخت "أم الديب"، وسألت البواب بصدمة، باحثة عن تأكيد لما تسمعه:
=سافروا؟ مين دهم اللي سافروا؟

البواب بوضوح:سافروا الغردقة يقضوا شهر العسل.
أم الديب بغيظ:ايهي يعني هايدي والمخفي زياد سافروا؟
البواب:سافروا مع أحمد بيه وجميلة هانم.
أم الديب بصدمة:يا لهوي، ومحدش قالي؟ كده يا أحمد بقى تخبي على أمك؟ ماشي ماشي.

غادرت أم الديب الحي، مشتعلة بالنيران التي تحرق أعماقها، حيث كان قلبها يفيض بالحنق. لم تستطع تصديق أن أبناؤها قد أخفوا عنها قرار سفرهم، وكأنهم قد اختاروا أن يحملوا هذا السر الثقيل بمفردهم

أم الديب الجزء الثالث

دون أن يشاركوها في تلك اللحظة الحاسمة. كان انتقامها عويصًا، يحمل في طياته طيف الخيانة، وكأنما تعهدت بأن تعيد الأمور إلى نصابها، لتؤكد لهم أن الأم ليست مجرد ظل يراقب من بعيد. بينما كانت تتأمل في خيباتها، كان البواب يجلس مرة أخرى على كرسيه، يستعيد أنفاسه بعد المفاجأة التي عاشها.
كان يشكر الرحمن في سريرته على أن أم الديب لم تدخل في شجار عنيف معه. لكن في أعماق أم الديب، كانت نذر العواصف تتجمع، كانت تلك العودة تحمل في طياتها رغبة في استعادة السيطرة، وفي خوض معركة من أجل استعادة حقوقها كأم.

يتبع....

الفصل الثالث والثلاثون

ما إن استجمع المعلم حنفي شتات ثيابه، وانسلَّ بخطواتٍ مثقلة إلى منزل أخيه، حتى وجد نفسه جالسًا كالحطام على الأريكة، يئنُّ تحت وطأةِ الألم كمن أنهكته الأهوال وأذابت قوته الجروح الدفينة. كان قلبه ينزف قبل عينيه، ودموعه تتدفق كالسيل الهادر، تفضح هشاشةَ نفسه رغم مظاهر الذكورة التي تجمَّل بها طوال عمره، فلم يعد يقوى على كتمان مرارة الإهانة التي غرستها في روحه صدى كلمات أم الديب، وهي ترميه بوابلٍ من الشتائم وتطأ كرامته بنعلٍ لا يعرف الرحمة. وبينما كان يعبر عن نزفه الداخلي بانكسار، جلس حسين إلى جواره، ووضع يديه بلطفٍ على كتفيه، ونظر إليه بعينيه الدافئتين، وكأنَّ حكمته تتسلل إلى روحه الجريحة، ثم قال له:

_اهدي بس يا حنفي ياخويا متعملش كده في نفسك! والله ما حد يستاهل دمعة واحدة من دموعك، اهدى بس يا راجل! طب ده أنا مجهزلك أكلة انت بتحبها.

المعلم حنفي بتعاسة:الولية طلعت عيني يا حسين، وريتني أيام سودة، ده أنا كبرت وعاوز اللي ياخد باله مني! ودي مش راحماني وليل نهار بتشاكل فيا.
حسين بشفقة:معلش يا حنفي متزعلش نفسك! حقك على راسي ياخويا يا غالي، أوعى أشوفك في الحالة دي تاني! أنا مقدرش أشوفك كده أبدًا! تعالى بس، تعالى!

ثم نهضا معًا، واختارا الدخول إلى البلكونة، حيث استقرَّا على الكرسي تحت أشعة الشمس الدافئة التي تعكس حياةً تغمر المكان بالنور، بينما كانت الدجاجة تُطهى مع الخضروات في الفرن، لتملأ الأجواء بروائح شهيّة تنساب عبر أروقة المنزل المكون من ثلاثة طوابق. في الطابق الأول، كانت شقة حسين تجسّد دفء الأسرة، بينما الطابق الثاني يضم شقة زياد، التي كانت على الطوب الأحمر، خالية من الحياة، كأنها عاشت في غياهب النسيان. أما الطابق الأخير، فكان السطح الذي يعلو البناء، يحتفظ بأسرار القرية تحت سماءٍ واسعة. بينما كان "حسين" يحيط المعلم حنفي برعايته، قال له بابتسامة طفيفة تعكس إشراقة الأمل:

_ياما دقت على الراس طبول وانت ياما استحملت، ده انت كنت جبل يا راجل، طب مش بذمتك كل اللي يشوفك يقولك انت تستاهل تمثال على صبرك ده؟ كل الناس عارفة انت استحملت قد إيه! وبعدين مين عالم؟ مش يمكن ربنا يهديها وتعرف غلطها؟

المعلم حنفي بتبرُّم:آني اتغلط فيا كتير منها، كانت بتهيني وآني ساكت وحاطط في بوقي بُلغة قديمة، لما راجل يتضرب ويتشتم من مراته يبقى الدنيا فيها إيه تاني يحصل؟ أنا مش راجل يا حسين، مش راجل!
حسين بحدة:إياك تقول كده تاني على نفسك! أوعى، فاهم؟ انت راجل وسيد الرجالة، هي اللي مش عايزة تصدق إنها ست ومصممة تكون راجل البيت، عارف ليه؟ لأن؛ مراتك متسلطة وعايزة تمشي كلمتها على الكل وتكون هي الآمر الناهي... فوق لنفسك يا حنفي! أنا عايزك تقف في وشها أسد! أوعى تديها فرصة تقل أدبها عليك تاني!

أم الديب الجزء الثالث

المعلم حنفي بحسرة:بعد إيه؟ بعد ما اتجرأت عليا؟ بعد تلاتين سنة هغير إيه؟ ما خلاص.
حسين بتضايق:بلاش الطريقة دي، متخافش منها وأنا في ضهرك! الست دي لازم حد يوقفها عند حدها! أوعى تضعف يا حنفي، خليك شجاع!
المعلم حنفي بغيظ:حسبنا الله ونعم الوكيل فيكي يا بسمة، حسبنا الله ونعم الوكيل فيكي.
حسين بابتسامة:روق كده يا راجل! طب ده أنا عاملك أكلة بتحبها! طاجن البطاطس بالفراخ مع شوية رز، أعملك سلطة ولا كفاية كده؟
المعلم حنفي باستياء:وهو الواحد يجيله نفس ياكل ازاي بعد كل اللي بيجراله؟
حسين:مانا قولتلك انسى اللي حصل ده وارميه ورا ضهرك! ولو هي جات واتكلمت في حاجة أنا اللي هقفلها... يلا يا حنفي روق أعصابك الله يهديك.
المعلم حنفي بنحيب:وأفوض أمري إلى الله في بسمة مراتي.

دخل حسين إلى المطبخ المغمور بروائح الطعام الزكية التي تتراقص في الأجواء، وفتح باب الفرن بحذر، متابعًا بشغف ما آلت إليه وجبة الطعام التي كانت تكتسب نضارتها على نارٍ هادئة. في الخارج، كان المعلم حنفي يعبّر عن نقمته بعباراتٍ غاضبة تدور حول أم الديب، مستدعيًا كل ما في قلبه من غيظٍ تجاهها، وكأنما كان يبحث عن متنفسٍ لآلامه. أما في شقة "نعمة"، فقد كانت غارقةً في نومٍ غائر في الظلام، ولكن طرقات الباب المتكررة أيقظتها من سباتها، لتستعيد وعيها شيئًا فشيئًا. وبينما كانت تحاول العودة إلى عالم اليقظة، راودتها أفكارٌ مُضطربة، فسألت نفسها في تأمل:ٍ
_مين اللي جاي الساعة دي؟
خرجت "نعمة" كما هي، تاركةً طفلها عمر مستغرقًا في نومٍ هادئ على سريرها، وكأنّها تودّعه للحظاتٍ قليلة، ثم فتحت الباب بحذر لتجد ليالي تنتظر خلفه. نظرت نعمة إلى وجهها المألوف، فبادرتها بابتسامة تحمل في طياتها مشاعر الدفء، قائلةً لها:
_أدخلي يا ليالي! ده أنا يا دوب نمت ساعتين، كان حمو هنا، شكله نزل شغله... أمال العيال فين؟
دخلت "ليالي" إلى الشقة وقد بدا على وجهها ملامح الضيق العارم، وكأنّ أثقال العالم تتجمع فوق كاهلها. أضاءت نعمة ضوء الصالة بنعومة، لكنها لم تستطع إخفاء شعورها بالريبة تجاه ما يحدث. نظرت إليها ليالي بعينيها المتوترتين، وجاءت إجاباتها متقطعة، فعبّرت عن حالتها المتأزمة قائلة:ً
_العيال تحت في شقتي.

نعمة بنعاس:طب أقعدي، مالك كده مدايقة من إيه؟

جلست ليالي مقابل "نعمة"، وكان واضحًا عليها السخط الذي يعتصر قلبها، كأنما عواصف من الهموم تجتاحها. نظرت إليها نعمة بعينين مليئتين بالقلق، وشعرت بأنَّ الوقت حان لتقديم الدعم، فقالت لها بإصرار:
_ما تتكلمي يا ليالي، مالك؟

ليالي بشجن:جاية أشكيلك همي يا نعمة.

نعمة بشك:همك؟ هم إيه؟ شكلك اتخانقتي انتي وجلال!
ليالي بأسى:لماحة وبتفهمي، ماهو أصل ناس ليهم الفسح والخروجات وناس ليهم الهم والقرف... عارفة يا نعمة! أوحش حاجة إنك تتجوزي واحد مش ماشي معاكي على نفس الخط، لا بيسمع كلامك ولا مطاوعك زي باقية الرجالة اللي مريحة حريمهم!
نعمة باستغراب:انتي بتتكلمي عن إيه؟ أنا مش فاهمة حاجة!
ليالي:دلوقتي هتفهمي.

استخرجت ليالي هاتفها من جيب عباءتها، وكأنها تبحث عن شيءٍ يخفف عنها وطأة الضغوط التي تعانيها، ثم عرضت صورة جميلة وهي تحتضن هايدي في المصيف، لحظةٌ عفويةٌ تنبض بالسعادة.
حدقت "نعمة" النظر في الصورة باهتمام، متأملةً جمال الصورة، ثم قالت لليالي:
_دي جميلة وهايدي، هما متصورين فين؟ ده شكلهم يا بت متصورين في العربية بتاعتهم.

ليالي بغيظ:مانا عارفة إنهم متصورين في العربية، ومش دي المشكلة.
نعمة باستعلام:أمال المشكلة فين؟
ليالي بغيرة:الأخت جميلة رايحة تتسرمح في الغردقة مع العرسان الجداد، أصل اللي زي دي بتستغلها فرصة علشان تمشي على حل شعرها... وإيه ياختي القرف اللي عاملاه في نفسها ده؟ وحاطالك مكياج فاكرة نفسها عروسة جديدة... بصي على شفايفها طب والله منفوخة عند الداكتور ولا مناخيرها كأنها عاملة فيها عملية تجميل، ماهو أصل الناس اللي زي دول فلوسهم كتير ويقدروا يغيروا ملامحهم عند أكبر دكتور فيكي يا مصر.

ضحكت "نعمة" برقة، وكأن ضحكتها كانت تنثر أجواءً من الفكاهة حولهما، ثم التفتت إلى ليالي المنزعجة قائلةً لها:
_خلصتي كلامك يا ليالي؟

ليالي بتعجب:أه، في إيه؟
نعمة بمُحاماة:جميلة معملتش عمليات تجميل قبل كده، البت حلوة لواحدها يا ليالي!
ليالي باستشاطة:وانتي مين قالك الكلام ده؟ كنتي عايشة معاها وعارفة إذا كان عملت ولا معملتش؟
نعمة بيقين:عندي دليلين.
ليالي باستهزاء:وإيه هما بقى ياختي؟
نعمة:جميلة احنا شايفين صورها وهي صغيرة، كل حاجة فيها هي هي متغيرتش... إن كان على شفايفها اللي بتقولي منفوخة عند الداكتور ولا مناخيرها اللي بتقولي إنها مصغراها، وعلفكرة عينيها زرقا طبيعي مش عدسات.
ليالي بحفيظة:وإيه هو تاني دليل يا نعمة؟
نعمة:بتها أسيل نسخة منها! والمفروض إنها لو عاملة عمليات تجميل عيالها يطلعوا بشكلها الحقيقي بقى.

أم الديب الجزء الثالث

تلفظت "ليالي" بعصبية جلية، وكأن كل ما يعتمل في صدرها قد انفجر في تلك اللحظة، فقالت لنعمة بحدة:
_وهو أنا جايالك علشان تواسيني ولا علشان تدافعي عنها؟ أنا مالي بيها؟ تجيبيلي سيرتها ليه؟ أنا دلوقتي بكلمك في سكة بتدخلينا في سكة تانية ليه؟

نعمة بسخرية:أنا برضة؟
ليالي بصياح:أه انتي! هو انتي يا بت مش نفسك كده نروح نغير جو بدل السفرية الزبالة بتاعة السنة قبل اللي فاتت؟عاجبك أمك واللي عملته فينا؟
نعمة:هنعمل إيه طيب يا ليالي؟ هنسيبها في البيت لواحدها؟
ليالي ببغضاء:أه سيبيها، هتخافي عليها ولا إيه؟ دي ميتخافش عليها، دي يتخاف منها ومن شرها!
نعمة باستياء:الله يسامحك يا ليالي.

ظهر صوت عمر الرضيع، متجاوزًا حدود البراءة ليملأ المكان بالبكاء المتواصل، فالتفتت "ليالي" إلى نعمة، وبدت على شفتيها ابتسامةٌ مشوبة بالسخرية، قائلةً بانزعاج:
_قومي ياختي رضعيه، قومي!
نهضت نعمة بسرعة، كأنها تستجيب لنداء الأمومة الذي لا يُقاوم، ودخلت الغرفة لترضع طفلها بكل حنان، بينما خيم الصمت على الأجواء بعد مغادرتها. وحينما انفردت "ليالي" في الصالة، عبَّرت عن غيظها برفع صوتها، فقالت باستهزاء:
=قال إيه جمالها طبيعي قال.
بعد أن أتم أحمد وجميلة وهايدي وزياد تسوقهم لثياب البحر، وقد دفعوا مبلغًا كبيرًا في متاجر الشاطئ، عادوا إلى الفندق بنفوس مليئة بالحماسة. ارتدوا ثيابهم الجديدة، ثم اتجهوا إلى الشاطئ حيث كانت الساعة الخامسة قبل المغرب، وقتٌ مثالي لمغامرات الصيف، إذ لا يزال النهار طويلًا، والشمس ساطعة في السماء، تضفي إشراقًا على الأفق. استقر أحمد وزياد بجوار بعضهما على الشازلونج، حيث كانا يتأملان أمواج البحر الهادئة، بينما انغمست سيليا في لعبها بالرمال، تبني بيتًا من الرمال بتفانٍ يُظهر براءتها. أما جميلة، فكانت جالسة على شازلونج بعيد، تُطبق الصن بلوك على ذراعيها بحذر، تحمي بشرتها البيضاء من أشعة الشمس الحارقة، حريصة على عدم فقدان لونها الناصع.

بينما كانت هايدي تُلتقط الصور لنفسها بعيدًا على الشاطئ، محاطة بألوان الطبيعة، كان هناك حديثٌ خافت بين أحمد وزياد. كان "أحمد" مُصرًا على معرفة ما الذي غيّر معالم وجه زياد، خاصةً عندما أبدى أمنيته بأن يرى أبناءه في المستقبل، وعندما استشعر زياد إلحاحه، أخذ نفسًا عميقًا، وبدأ يحكي له ما حدث منذ أول ليلة زواج. استمع أحمد بانتباه، واستشعر ثقل كلمات ابن عمه، ثم همس له بصوت خافت، وغير مسموع، محاولًا تقديم الدعم له في محنته:
_ازاي يعني يا زياد؟ انتوا متجوزين بقالكم يومين!

أم الديب الجزء الثالث

زياد بتضايق:زي ما بقولك كده ومصممة إن أنا أنام في أوضة وهي تنام في أوضة لواحدها! وكل ما أتكلم معاها تعيط، فبضطر أسكت!
أحمد بإنصاف:لا طبعًا مينفعش الكلام ده! أنا ممكن أخلي جميلة تتكلم معاها، ماهو أصل لو أنا اتكلمت معاها هتتحرج مني.
زياد برفض:لا لا لا أوعى تتكلم مع جميلة في حاجة! أنا بحكيلك انت بس خصوصًا انت اللي أصريت تعرف!

أحمد بشك:هي بس ممكن تكون أعصابها مشدودة لحد دلوقتي خصوصًا إنها طول عمرها بتنام جنب نعمة ولما نعمة اتجوزت بقيت تنام لواحدها.
زياد بضيق:أنا سايبها على راحتها وهي حرة بقى.
أحمد بتبسم:متقلقش، ان شاء الله ليها حل، المهم انت متدايقش نفسك!
زياد بفضول:إن شاء الله، طيب مش هننزل البحر؟
أحمد:أه طبعًا، يلا بينا.

نهض أحمد وزياد بحماس، عازمين على الانطلاق نحو البحر قبل أن يحل الظلام، وكأن قلبهما ينادي بشغف المغامرة. فجأة، تقدمت هايدي نحوهم بخطواتٍ واثقة، وكان بريق عينيها يعكس روح الحياة.
سألهم "زياد" باهتمام، كمن يبحث عن فرصة لمشاركة لحظات السعادة:
_إيه مش هتنزلوا معانا؟
أجابت "جميلة" برفضٍ، بينما كانت تُوزع الكريم الواقي من الشمس على ساقيها بنعومة:
=لا أنا مبنزلش أنا بقعد أشوف البحر من بعيد.
ردت "هايدي" بموافقة حماسية، حيث برقت عيناها بشغف المغامرة، وقالت:
_أنا جاية.
تركت "سيليا" منزل الرمال الذي بنته بعناية، وجاءت إلي أحمد، وعبر وجهها ملامح براءة الطفولة، وقالت له بحماس:
_بابي خدني معاك!

أحمد ببشاشة:ماشي تعالي!

تشبث أحمد بيد طفلته بفرح، ودخل معها إلى البحر برفقة زياد وهايدي، فبمجرد أن لامست أقدامهم المياه، انتابهم شعورٌ بالبرودة المنعشة التي تبعث الحياة في أجسادهم. كانت الأجواء مليئة بالأهازيج، بينما جذب زياد هايدي من يدها إلى الداخل، رغم ترددها وخوفها من اللامس الأول للمياه، لكنها سرعان ما تأقلمت بعد دقائق قليلة. أما "جميلة"، فاستغلت الفرصة للابتعاد قليلًا عن الضجة، حيث اتصلت بأختها سامية، وفي صوتها كان هناك شوقٌ متجدد، فقالت لها:
_ألو يا سامية، وحشتيني موت، عاملة إيه يا حياتي انتي وجوزك ولارا بنوتك؟

أم الديب الجزء الثالث

سامية بلُطف:كلنا بخير يا جميلة يا حبيبتي، انتي اللي طمنيني عليكي! عاملة إيه انتي وأحمد وسيليا وأسيل؟
جميلة بود:الحمدلله كلنا بخير يا عمري.

كان زياد وهايدي يتراشقان بالماء في جو من المرح والضحك، بينما كان أحمد يُعلم سيليا السباحة برفق، محاولًا منحها الثقة في هذا العالم المائي، وبينما كانت الأمواج تتلاطم من حولهم، نظرت "سيليا" إلى والدها بعينيها الواسعتين، وعبرت عن خوفها بقولها:
_لا متسيبنيش، أنا كده هغرق!

أحمد بمعاونة:لا بعد الشر عليكي، متخافيش! بُصي اعملي زيي!
سيليا:أوكي.

قهقهت "هايدي" بقوة، وكأن ضحكتها كانت تُضيء أرجاء البحر، ثم قالت لزياد بغبطة كبيرة:
_الله، أول مرة أستمتع أوي كده.

زياد بفرح:وأنا كمان والله، إيه رأيك نركب البانانا؟ ولا نركب الجيت سكي؟
هايدي بتَطَلُّع:أنا عايزة أركب الباراشوت.
زياد بضحك:مش هتخافي؟
هايدي بثقة:لا مش هخاف، شكلك انت اللي هتخاف.
زياد بشجاعة:عيب عليكي، يلا بينا!

شبك زياد أصابعه بأصابع هايدي، وخرجا من البحر مُتجهين نحو موقع ركوب الباراشوت، حيث كانت الأجواء تنبض بالحماس. نظر "أحمد" لهما باستغراب، محاولًا فهم ما يجري، ثم سألهما بفضول:
_رايحين فين؟
أجاب "زياد" ببشاشة، بينما كان شعاع الشمس يضيء وجهه:
=هنركب الباراشوت، عايزك بقى تظبطنا من تحت، صورنا كام صورة حلوة كده.

أحمد بسعادة:ماشي يا سيدي، ربنا يفرحكم كمان وكمان.

قالت "هايدي" بسرور، وابتسامتها تُنير عينيها:
=يارب.
خرج زياد وهايدي من الماء مُتجهين نحو الباراشوت، بينما خرج أحمد بسيليا من الماء، رافعًا هاتفه ليصورهم من أسفل، ومع أول صعود لهايدي على منصة الركوب، بدا عليها الخرع والتردد قبل أن تتجرأ على الصعود، مما جعل "زياد" يضحك، ثم قال لها بسخرية:
_هو ده اللي مش هتخافي؟

هايدي بخرع:زياد أنا عايزة أنزل، شكلي طلعت غلطانة!
زياد ببسالة:سيبك من الخوف ده واستمتعي! ده هيكون أحلى شهر عسل في حياتنا!

تحرك القارب بشغف، ومع كل زيادة في سرعته، ارتفع الباراشوت بزياد وهايدي نحو السماء، وكأنهما يلامسان الغيوم. كانت هايدي تُغلق عينيها بإحكام، وجسدها يرتجف من الخوف، بينما كانت قهقهة زياد تتعالى في الأجواء، كلما نظر إلى وجهها المذعور، ليجمع بين الفرح والخور في لحظةٍ واحدة. بينما أحمد، الذي كان واقفًا في الأسفل، يسجل هذا الحدث الرائع بعدسة هاتفه، يحاول توثيق كل تعبير وكل إحساس. بينما كان منهمكًا في التصوير، التفتت "جميلة" نحوه، وكأنها تبحث عن لمحة من المُتعة، ثم قالت له:
_بقولك يا حبيبي! عايزين نركب الجيت سكي بعد ما ينزلوا عشان نخلي سيليا معاهم.

أحمد بانقياد:حاضر كل اللي انتي عايزاه.

نظر "أحمد" إلى سيليا، التي كانت تجري نحوهم من بعيد، وعبر وجهه شعورٌ من الحنان لرؤية طفلته تقترب بحماس. فابتسم لها وسألها:
_وانتي يا سيليا مش عايزة حاجة؟

سيليا:أنا عايزة أكمل الهاوس بتاعي .

حينما اقتربت "سيليا" من منزلها الرملي، أدركت بصدمة أن أحدهم قد خَطى فوقه، مُحطِّمًا إياه بقدميه دون أدنى اعتبار لجهودها. نظرت إلى والدتها بحسرة تُثقل قلبها، ثم قالت لها باستياء يتلألأ في عينيها، كأنها تسعى للبحث عن العزاء:
_إيه ده؟ مامي! مين مشى علىMy house ؟ ده اتهد!

جميلة بدعم:هنعمل بيت تاني أحسن منه، بس متزعليش!
سيليا بحماس:أوكي يا مامي، يلا بينا!

نهضت جميلة من فوق الشازلونج، وقبلت وجنتي ابنتها بحنانٍ أمومي، محاولةً تواسيها على ما حدث لمنزلها الرملي الذي تعبّت في صنعه. ثم جلست بجانبها، وبدأت تصنع لها منزلًا جديدًا باستخدام الجردل البلاستيكي والجاروف، بينما كانت الرمال تتناثر حولهما كومةً. في السماء، كانت هايدي تصرخ خوفًا من ارتفاع الباراشوت، وزياد يتضاحك بأعلى صوت. أما في شقة "نعمة"، وبعدما هدأ طفلها من بكائه، خرجت به من الغرفة حاملةً الببرونة في يدها، وجلسَت بجانب ليالي على الأريكة، وهي ترضع طفلها فوق ساقيها برفق، ثم نظرت إلى ليالي وقالت لها:
_طب عارفة! لولا إن جرحي لسه بيلم كان زمانا طلعنا سفرية لراس البر.

ليالي بسخرية:هو انتوا ليه كلكم ماسكينلي في راس البر؟ يعني هما يروحوا الغردقة واحنا نروح راس البر؟ لا يا نعمة هما مش أزيد مننا في حاجة، احنا نروح الغردقة زيهم.
نعمة باستغراب:وهتجيبي فلوسها منين بقى يا ليالي؟
ليالي بتردد:عادي ربنا يسهل.
نعمة:طيب أنا هقوم أعملك عصير.
ليالي باعتراض:لا لا متقوميش أنا نازلة تاني! خدي بالك من ابنك! أنا نازلة أجهز الغدا، هبقى أطلعلك غداكم مع حمود.
نعمة برفض:ليه كده بس يا ليالي؟ مش عاوزة أتعبك!

نهضت "ليالي" بجدية، واتجهت نحو الباب بخطواتٍ حازمة، قائلةً لنعمة:
=ولا تعب ولا حاجة، أنا نازلة بقى.

نعمة:ماشي يا ليالي.

خرجت "ليالي" من الشقة وأوصدت الباب خلفها، وعندما نزلت، فوجئت بلقاء أم الديب في طريقها، إذ بدت وكأنها كانت في طريقها لزيارة ابنتها نعمة. نظرت ليالي إليها بمكرٍ واضح، وكأنها تستغرب رؤيتها في هذا الوقت، ثم قالت لها بودٍ غير معتاد، وكأنها تحاول أن تخفي مشاعرها الحقيقية:
_ازيك يا حماتي؟ منورة الدنيا كلها، كنتي فين كل ده؟ ده أنا خوفت عليكي، أسكتي بقى ده أنا النهارده هجهزلك أكلك انتي وحمايا وأنزلهولك لحد عندك، أمال إيه؟ هو أنا عندي أغلى منك؟

أم الديب بارتياب:ايهي انتي بتقولي إيه يا مخفية؟
ليالي بدسيسة:بقول اللي سمعتيه! طب تعرفي؟ ده أنا زعلانة من نفسي أوي وبقول حماتي مكنتش تستاهل مننا كل ده، ده انتي تستاهلي كل خير يا غالية.

اقتربت "ليالي" من أم الديب واحتضنتها بحميمية، ولكن من وراء ظهرها، كانت مشاعر البغضاء تتسلل إلى قلبها. نظرت إلى حماتها، التي بدت متعجبة من هذا التغير الإيجابي في سلوك ليالي، ثم قالت ليالي لها بابتسامة مدروسة:
_حمدالله على السلامة يا غالية يا أم الغالي، تعالي ارتاحي عندنا! أما قوليلي الكنافة عجبتك؟

أم الديب بريبة:انتي مين يا بت؟ ومين اللي مسلطك عليا؟
ليالي بضحك:يوه، انتي لحقتي تنسيني ولا إيه؟ أنا مرات ابنك حبيبتك! طب تصدقي احنا ملناش غير بعض وانتي من النهارده تؤمري واحنا ننفذ.
أم الديب بشك:مش مرتاحالك يا بت وحاسة إن وراكي مصيبة كبيرة مستخبية!

أم الديب الجزء الثالث

ليالي بتدليس:ودي تيجي برضة يا حبيبتي؟ هو احنا حد فينا يقدر على زعلك؟ طب عارفة! جلال طول اليوم ضميره يأنبه، بيقولي حاسس إن أنا جيت على أمي كتير أوي، أمي دي طيبة وقلبها أبيض، قولتله أه والله عندك حق احنا لازم نصالحها... انتي بس شوفي عاوزة إيه واحنا نجيبهولك لحد عندك.

أم الديب بدهشة:انتي مالك متبدلة كدهو ليه؟ شوفي بقالك كام سنة في دارنا وعمرك ما عملتي اللي بتعمليه دهو! ناوية على إيه يا ليالي؟
ليالي بابتسامة:كل خير والله يا حماتي، أنا نفسي إننا نصلح علاقتنا ببعض وننسى اللي فات كله بالوحش اللي فيه ونفتح صفحة جديدة مع بعض، عايزين نلم شملنا من تاني يا حماتي.
أم الديب بتهكم:وإيه اللي خلى جلال ضميره يأنبه يا بت؟ ماهو طول عمره واطي ويبيع أبوه عشان الفلوس، جه دلوقتي وضميره أنبه؟
ليالي بحنان:ساعات يا حماتي الواحد بيكون غافل عن الناس الحلوة اللي حواليه ومش شايفهم، أه والله مش شايفهم، وفجأة ضميره يصحى ويقوله لا فوق لنفسك مش دول اللي ينفع تيجي عليهم وتظلمهم! اللي زي دول يتشالوا على الراس.

أم الديب بشجن:ده آني وجلال مفيش حسنة واحدة ما بينا، ذكرياتنا كلها مهببة مع بعض يا بت! إيه يا ترى اللي هو افتكرهولي خلاه رجع عن تفكيره؟
ليالي بحدب:ده كفاية بس يا حماتي يا غالية إنك شيلتيه في بطنك تسع شهور، وجيبتيه للدنيا، وأكلتيه، وشربتيه، ولبستيه لحد ما كبر وبقى راجل ملو هدومه.
أم الديب بغيظ:ده آني ياما طفحته وأهو مطمرش فيه الطفح لا هو ولا أبوه، دهو كان بيتعوج على الأكل يا بت! ده آني كتفي اتخلع من كُتر ما كنت بشيله! هو أبوه كان يرضى يشيله؟ ده كان رامي طوبته، طب عارفة يا بت يا ليالي؟ حماكي الواطي اللي تحت دهو لما عرف إني حبلة في جلال وقفلي وقالي نزلي الواد دهو آني مش عاوز أخلف منك.

منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، في زمنٍ ماضٍ بملامحه القديمة، بدأ زواج أم الديب من المعلم حنفي، الذي لم يكن يتمنى في أعماق قلبه أن ينجب منها، إذ ارتبط بها بالإكراه كما لو أنه يُجبر على تجرع ثمار فواكه فاسدة من بائعٍ لا يرحم. وقد عزم في نفسه أن لا يربط بينهما طفلٌ، حتى يتمكن من الفرار بسهولة من هذا الزواج المقيت، فكان دائمًا يتباعد عن أم الديب ويتقزز منها، غير متقبلٍ لكونها زوجته، حتى إن حياتهما كانت تشبه حياة الأخوات أكثر من كونها حياة زوجية. ومع ذلك، كانت أم الديب تجبره على القيام بكل ما يخص حياتهما المشتركة، ولم يكن زواجهما هو الإكراه الأول والأخير الذي عاشه. فقد كان المعلم حنفي يضع لها حبوب منع الحمل في طعامها دون أن تدري، لكن شاء القدر أن تحمل في جلال، وكانت قبل فترة تشعر بتقلبات غريبة في جسدها، الأمر الذي دفعها للذهاب إلى حكيمة القرية، التي أخبرتها بأن في أحشائها جنين ذكر. لذا، انطلقت إلى المعلم حنفي، وفتحت الباب بعنف وكأنها تدق ناقوسًا لتبليغه بحدثٍ غير متوقع، ويدها مثبَّتة على بطنها كأنها تحمل سرًا لا يمكن تجاهله، وعندما نظر إليها "المعلم حنفي" بفزع، سألها بكراهية:ٍ

أم الديب الجزء الثالث

_إيه الدخلة السواد دي، مالك يا بسمة؟

أم الديب بفرح:آني حبلة في الواد يا حنفي!

نهض "المعلم حنفي" بسرعة، وعيناه متسعتان من الصدمة، إذ أدرك أن ما هرب منه لعدة شهور قد جاء إليه رغمًا عن إرادته، كالسهم الذي يُطلق بلا رحمة. صرخ في أم الديب، موجهًا لها اعتراضه بلهجة تفيض بالاستنكار:
_أنتي بتقولي إيه يا ولية؟ آني مش عاوز عيال منك! مش كفاية اتدبست فيكي؟ وكمان عاوزة يبقى بينا عيال؟ العيل ده لازم ينزل!

أم الديب بصخب:لا كله إلا ابني! آني ابني الجاي هسميه جلال! هيكبر ويبقى سندي، هيرجعلي حقي منك يا حنفي!
المعلم حنفي بعجيج:جاكي كسر حقك، ده آني اللي ليا حقوق كتير عندك انتي وأخوكي ضايع اللي دبسني فيكي، مش كفاية حرمتوني من الفرحة اللي عيشت سنين مستنيها؟
أم الديب بحدة:اسمع يا حنفي! ابني هيفضل جوايا لحد ما يجي الدنيا ويشرف ويكبر ويبقى راجل ملو هدومه! يقف ورا أمه ويساعدها، وإن كان ليك كلام تاني فأشرب من الترعة.

بعد صياح حار بين الطرفين، دخلت أم الديب الغرفة وصكت الباب بعنف في وجهه، مما زاد من نيران الغضب المتأججة في صدره. وكان هو، إذ استحال إلى بركان يثور، يطرق الباب بجبروت وكأنما يحاول أن يكسر القيود التي تمنعه من الوصول إليها، ويصيح بصوتٍ عالٍ يجلجل أركان مسكنهم الريفي الصغير، قائلًا بعجيجٍ يفيض بالكراهية:
_هضربك بالنبوت في بطنك يا بسمة! ولا أقولك هأجرلك عربية تدوسك وأرتاح من همك! مش كفاية ظلمتوني؟ كمان هتجيبي عيل وتظلميه هو التاني؟

بعد العودة من ذكريات الماضي الأليم، حيث تجسدت مآسي الحياة في خبايا تلك الحكايات، قالت "ليالي" لأم الديب بتأثر، وهي تسترجع ما عاشته حماتها من معاناة مع المعلم حنفي:
_ياه يا حماتي، ده حمايا طلع ظالم ومفتري، حد يعرف إن مراته حامل ويطلب منها طلب زي ده؟ طب والنبي لو كان جلال مجاش الدنيا كنت أنا هحب مين وأتجوز مين؟

أم الديب بدموع:أمال انتوا فاكرين إيه؟ الراجل دهو ياما ظلمني وجه عليا وجه اليوم اللي أطلع على جتته القديم والجديد كله، دهو راجل ناقص رباية!

فجأة، غلت الدماء في عروق أم الديب كأنما استثارت رياح ساخطة عاصفة في قلبها، فتفاقمت الأمور في رأسها كعاصفةٍ في بحر هائج، وقررت النزول لتتشاجر معه، لتخرج ما كبتته في روحها طيلة

أم الديب الجزء الثالث

السنين الماضية وكأن تلك اللحظة قد آن أوانها بعد طول انتظار. بينما كانت "ليالي" تهرول وراءها، تسعى جاهدة لتهدئتها وكأنها تحاول إطفاء نار الحنق المتأججة في صدرها، قالت ليالي لها بفزع:
_اصطبري بس يا حماتي! هو أنا بتكلم معاكي عشان تنزلي تتخانقي معاه تاني؟ اهدي عشان أعصابك ده، احنا عاوزينك!

أم الديب بصراخ:بسمة متسيبش حقها ولو على جثتها، بقى آني أستحملك كل السنين دهي على الفاضي؟
ليالي بقلق:علشان خاطر أغلى حاجة عندك متعمليش في نفسك كده! ده انتي صحتك عندنا بالدنيا.

دخلت "أم الديب" الشقة بجبروت، كأنها تعبر عتبة بوابة القدر، لكن لم تجد المعلم حنفي كما اعتادت دائمًا، مما أثار فيها شعورًا من الاستياء. فتجولت في أرجاء الشقة، تبحث عنه في كل زاوية وكأنها تسعى لاستعادة شيء فقدته، وفي خضم تلك الفوضى العاطفية، صاحت قائلة له بصياحٍ عالٍ يعكس قهرها:
_انت روحت فين يا عرة الرجالة؟ اظهر وبان! متفكرش إنك كدهو هربت مني! لا ياخويا ده آني أجيبك من تحت سابع أرض.
دخلت "ليالي" خلفها إلى الشقة، ورغم الأجواء الساخطة، قالت لها بروح التسامح، محاولة زرع بذور الرحمة في قلب أم الديب:
=خلاص يا حماتي بقى! ماهو طلع مش موجود أهو!

أم الديب بيقين:آني عارفة هو راح فين.

انقضت أم الديب متجهة نحو منزل حسين، المكان الذي يتردد عليه المعلم حنفي هاربًا من آلامه وذكرياته المثقلة بالمعاناة. كانت ليالي تنادي حماتها بصوتٍ يفسر قلقها، لكن شعور اليأس تسرب إلى قلبها، مما جعلها تصعد إلى شقتها، تاركةً إياها تفعل كما تشاء في زوبعة مشاعرها. أما في شقة حسين، وبعدما أنهى إعداد الطعام بعناية، أفرغ المحتويات في الأطباق، ووضعها فوق الطاولة في الصالة وكأنها لوحة فنية متكاملة، ثم جلس مع المعلم حنفي، الذي بدا عليه علامات الاسترخاء في تلك اللحظة.
سأل "حسين" المعلم حنفي باهتمام، محاولًا اختراق جدار الصمت الذي كان يحيط بهما:
_الأكل ناقصه حاجة يا حنفي؟

المعلم حنفي برضى:لا كله زي الفل، تسلم إيديك ياخويا.

بدأ المعلم حنفي في وضع الخضار فوق الأرز باستخدام الملعقة، حيث كانت رائحة الطعام الشهي تتسلل إلى أنفه، مما جعله يشعر بلذة الطعم قبل حتى أن يضعه في فمه. تناول الطعام بإقبال، وكأنه يبحث عن ملاذ من آلامه، بينما كان حسين يتأمل في أخيه، وابتسامة دافئة تتسلل إلى وجهه. ثم قال "حسين" للمعلم حنفي بابتسامةٍ، وهو يشاركه في تناول الطعام:

أم الديب الجزء الثالث

_بألف هنا وشفا، كُل كويس، كُل يا راجل ورم عضمك !

المعلم حنفي:أديني باكل أهو، مكلمتش زياد تطمن عليه؟
حسين:الراجل في شهر العسل، مش عايز أدايقه.
المعلم حنفي بصدمة:شهر عسل؟ هما سافروا؟
حسين بتأكيد:أمال؟ سافروا النهارده.
المعلم حنفي باستياء:ومقولتليش يعني!

حسين:كنت هقولك والله، بس الكلام عن مراتك جاب بعضه واتلهينا، على العموم زياد وهايدي في شهر العسل مع أحمد ومراته.
المعلم حنفي بغضب:في إيه؟ انتوا كلكم بتداروا ليه؟ هو سر؟
حسين بمزاح:يا سيدي ولا سر ولا حاجة، أنا زي ما قولتلك! لكن تلاقي أحمد وهايدي اتشغلوا في تجهيزات السفر لكن أكيد هيقولولك، ولا يمكن خايفين الخبر يوصل لمراتك إكمنها عدوة الفرحة.
المعلم حنفي بسخرية:ده على أساس إن العلاقة ما بينا حلوة وبنقعد نحكي ونتحاكى زي أي اتنين؟ علاقتي ببسمة فيها شرخ كبير، مهما عملنا مش هيتصلح!
حسين ببشاشة:سيبك منها! هي كده وهتفضل كده مش هتتغير، المهم احنا! خليك معايا، احنا مابقاش لينا غير بعض بعد ما عيالنا اتجوزوا.
المعلم حنفي:عندك حق.

دق الباب فجأة، فنهض "حسين" ليفتح الباب بحماس، وهو يقول للمعلم حنفي، مُعبرًا عن توقعه:
_تلاقيه المعلم شوقي، أصل أنا قايله يعدي عليا...
قبل أن يُنهي "حسين" كلمته، وهو يفتح الباب، تفاجأ بظهور أم الديب قباله، مما جعله يرفع حاجبيه في تعبير عن الاستغراب، فقال لها بترقب:
_يا أهلًا، في حاجة ولا إيه؟

أم الديب بصياح:قاعدين تحشوا ولا على بالكم؟

ثم أردفت "أم الديب" للمعلم حنفي بصياحٍ مدوٍ، يعبّر عن انفعالاتها الجياشة، واحتدام المشاعر في قلبها:
_بتعمل إيه هناهو يا حنفي؟

يتبع....

الفصل الرابع والثلاثون

بعد أن أفرغت أم الديب كلماتها القاسية، لم يستطع "حسين" السكوت على ما رأى فيه من انتقاص لكرامته، فتقدم نحوها بخطى واثقة، وصوتٌ يعلو تدريجيًا بحدّة تنبض من أعماق حنجرته، قائلًا بحزمٍ لا يقبل الرد:

_التزمي حدودك! جو زمان ده تنسيه! من النهارده تعاملنا معاكي هيكون في حدود، ولو تعديتي حدودك مش هيحصلك كويس!

اندفعت "أم الديب" بصوتٍ جارف يمزّق سكون المنزل، متوعدة حسين بلهيبٍ من الكلمات الغاضبة، كأنما نيران الانتقام تستعر في نبراتها، قائلة:

=ماشي يا حسين يا أخو جوزي ياللي بتقويه عليا وبتلعبله في دماغه، آني هوريكم اللي عمركم ما شوفتوه ولا هتشوفوه غير على يدي!

حسين بجلبة:يلا من هنا بلا كلام فاضي، يلا !

أغلق حسين الباب بعزمٍ يشي بانقطاع الوصال مع أم الديب، ووقف برهةً يتأمل الشقة وكأنه يُسقط من وجدانه كل تهديداتها الجوفاء. مضت هي في طريقها وقد أثقل كاهلها الغيظ، متوعدةً بكلماتٍ تطفح بسموم الانتقام، غير أن حسين لم يلتفت وراءه، بل جلس على الكرسي أمام المعلم حنفي، بوجهٍ تكسوه سكينةٌ لا تنكسر، ثم نطق بعباراتٍ هادئة حملت ثباتًا غريبًا، قائلًا ببرود:

_أوعى تتأثر باللي حصل ده! مراتك ثرثارة وبتهبل بأي كلام مالوش لازمة، كمل أكلك وسيبك منها!

ربّت حسين على كتف المعلم حنفي بودٍ أخوي، وتابع الاثنان تناول الطعام، وإن بقيت تساؤلات غامضة تلّوح في ذهنيهما عن نوايا أم الديب التي تبدو كخفافيش تختفي خلف الظلال، وتستعد لانقضاضٍ محتمل. أما في أفق الغردقة الزاهي، حيث كانت الفرحة تُظلل كل زاوية على الشاطئ ببهجة صيفية، فقد انحدر زياد وهايدي بهدوء من الباراشوت، وهبطا مجددًا إلى الأرض بعد تجربة سماوية أضفت عليهما نشوة عابرة، عائدين إلى الشازلونج ليكملا لحظات السعادة. بينما في عمق البحر، كان أحمد يقود الجيت سكي بسرعةٍ تتحدى الأمواج، وعلى متنه جميلة، التي تشبثت بخصره بإحكام، مستمتعةً بنسمات الهواء التي تندفع حولها وتقطر من وجهها قطرات البحر المالحة. كانت الضحكات تتعالى من أعماقهما، ترتفع كأغنيةٍ طافحة بالحرية، حينما صاح "أحمد" عاليًا وسط صخب الموج، متوجهًا إلى جميلة بابتسامة مفعمة بالحياة، قائلًا لها:

_مبسوطة؟

جميلة ببهجة:جدًا.

رفعت جميلة هاتفها الذي تحميه عناية الجراب المانع للماء، وأخذت تلتقط مشاهدَ تفيض بالفرح، وكأنما أرادت أن تحبس الزمن في لقطات، تخلّد بها ذكريات لن تتكرر، بينما تتعالى ضحكاتها المفعمة بالحياة كأنها موسيقى للبحر ذاته. وفي مكانٍ آخر على الشاطئ، كانت "سيليا" تراقب منزلها الرملي الصغير

الذي بنته بكل عناية، ثم رفعت عينيها نحو هايدي بخطوات متلهفة، وسألتها بفضولٍ ينبع من براءة الأطفال:
_عمتو هايدى، بصي على الهاوس الجديد! إيه رأيك؟

هايدي بدهشة:تحفة، انتي اللي عملتيه؟
سيليا بفخر:أيوه طبعًا.
هايدي بشك:ولا باباكي ومامتك ساعدوكي؟
سيليا بمرح:هقولك سر!
هايدي بضحك:ماشي.

اقتربت "سيليا" بخطوات طفولية مُشبعة بالفرح نحو هايدي، بينما كانت الضحكة ترتسم على شفتيها كأنها تعزف لحنًا خفيًا للسرور. مالت برأسها لتقترب من أذن هايدي، وهمست بصوت خافتٍ، لكن بملامحٍ جادة، كأنما تكشف سرًّا ثمينًا لا يُقال إلا في لحظة صفاء، قائلة لهايدي:
_مامي ساعدتني بس مش كتير! أنا بنيت أكتر منها، أوعي تقولي لحد!

هايدي بقهقهة:حاضر متخافيش !

احتضنت هايدي سيليا بعمق، وقبّلتها على جبينها بحنانٍ يشع من قلبها، كأنما تمنحها دفئًا يمتد في روحها الصغيرة. عادت سيليا بعدها إلى الرمل باندفاع البراءة، وبدأت تشيّد منزلًا جديدًا بجانب المنزل الرملي السابق، يدفعها خيالها الطفولي لصنع عالمٍ لا يعرفه سواها. أدار "زياد" نظره نحو سيليا، وعيناه تلمعان بمزيج من الحنان والمزاح، ثم قال لها بضحكةٍ خفيفة وهو يمازحها:
_مش عايزة مساعدة يا سيليا؟

سيليا:لا ميرسي.I Know How To Behave
زياد:خلاص ماشي، يارب أوعدنا ببنت حلوة زيها كده.

توردت وجنتا "هايدي" بخجل، وغابت نظرتها نحو الرمال، كأنها تبحث فيها عن كلمات لا تزال تحاول ترتيبها. لحظاتٌ مرّت ثقيلة بنبضها المتردد، قبل أن ترفع عينيها قليلًا نحو زياد، وتهمس بصوتٍ متهدج تغلفه مسحة من الحياء:
_إن شاء الله، احنا صحيح متفقناش هناكل إيه النهارده؟

زياد:لما أحمد يجي هنتفق كلنا سوا ونقرر.
هايدي بقلق:يا ترى بابا عامل إيه دلوقتي مع ماما؟ قلبي حاسس إنهم بيتخانقوا.
زياد بلين:هايدي يا حبيبتي! أنا مش عايزك تفكري في أي حاجة تانية! احنا جايين هنا نستجم يومين، عايزين نفرح، ننبسط، ننسى كل اللي فات، مش عايزين أي حاجة تانية تعطلنا.

هايدي باقتناع:على رأيك ده المفروض اللي احنا نعمله فعلًا، ما تيجي ننزل البحر تاني، هو احنا لحقنا نقعد؟
زياد بغزل:علفكرة أنا لسه كنت هقولك كده بس انتي سبقتيني! بس قوليلي إيه الحلاوة دي كلها؟ بقى الحلاوة دي كلها ليا لواحدي؟
هايدي باستياء:أه ليك لواحدك، بس للأسف مش كل حاجة كاملة.
زياد بهاجس:ازاي يا هايدي؟ مش كل حاجة كاملة ازاي؟
هايدي بابتسامة:لا خلاص بقى انت لسه قايلي إيه؟ إننا جايين يومين نستجم، ونفرح، ومنفكرش في أي حاجة تانية.
زياد بتحمُّس:بالظبط يا حبيبتي، يلا بينا!

جذب "زياد" زوجته هايدي برفق من يديها، كأنما يُطمئنها على حبل المودة الذي يربط بينهما، ثم استدار نحو سيليا بنظرة جادة، ولكنها تحمل في طياتها دعابةٌ خفيفة، وقال بتأكيدٍ يشع بالثقة:
_خليكي هنا يا سيليا متتحركيش من مكانك، احنا قدامك أهو !

سيليا:أوكي.

دخل زياد وهايدي إلى مياه البحر، عيونهم لا تغيب عن سيليا ولو لبرهة، وكأنهم يحرصون على ربط لحظاتهم السعيدة ببراءة طفولتها. كان زياد يرش المياه على وجه هايدي، مستفزًا ضحكاتها المتعالية التي تنبعث من أعماق قلبها، في حين كان يدور بها بين الأمواج وكأنه يرقص بها على أنغام البحر المتلاطمة، فتغمرهما الفرحة وتكتسي ملامحهما بسمات من البهجة. وفي تلك الأثناء، في قصر أم قمر الدين، كان البكاء الصادر عن أسيل يتردد في أرجاء المنزل كنداءٍ استغاثة. شعرت منى بقلقها يزداد، فتوجهت إلى غرفة منى، حيث وجدت منى تحتضنها بيديها، وتحاول تهدئتها بصوتٍ مليء بالعاطفة، فقالت "منى" بأسلوبٍ يحمل الطمأنينة:
_خلاص يا سيلو، خلاص خلاص، اهدي!
دخلت "نالا" الغرفة بخطواتٍ خفيفة، وفور أن رأت أسيل تتقلب في أحضان منى، ارتسمت على وجهها ملامح الاستغراب، وكأنها استشعرت وجود شيء غير معتاد. توجهت بنظرها نحو والدتها أم قمر الدين، وسألتها بفضول:ٍ
_إيه ده؟ أسيل؟ هي جات امتى؟

أم قمر الدين:أحمد جابها الصبح لإنهم مسافرين ومش هينفع ياخدوها، بجد أنا حزينة جدًا على البنت .

ثم أردفت "أم قمر الدين" لابنتها "منى:"
_بليز هاتيها يا منى!

أم الديب الجزء الثالث

منى:أوكي يا مامي، اتفضلي!

حملت أم قمر الدين حفيدتها أسيل بين ذراعيها، تسعى جاهدة لتغمرها بدفء شعور الأمومة، في وقتٍ تغيب فيه والدتها المسافرة، لكن أسيل ظلت تنتحب بحرقة، كأنها تتوق لحضور والدتها وحنانها.
اقترحت "نالا" فكرة، وابتسمت بفكرةٍ قد تكون بمثابة البلسم لقلوبهم، فقالت لوالدتها:
_طيب يا مامي اطلبيلها البيبي سيتر.

أم قمر الدين بعجب:معقول أربعة موجودين ومحدش فينا قادر يسكتها؟ لدرجة إن أنا أطلبلها الناني؟ ماحنا موجودين أهو يا حبيبتي، مش محتاجين بيبي سيتر في حاجة!

خرجت أم قمر الدين من الغرفة، تحمل حفيدتها أسيل بين ذراعيها، تليها ابنتاها، كل منهن تحمل همومها الخاصة، وعندما وصلت إلى الردهة، رأت "باسم" يقف في انتظارهن، وكانت على وجهه ملامح جدية يعتريها شغف الأبوة. توجه إليهما، وقال لبناته:
_والدتكم عندها حق .
ثم تابع لأم قمر الدين باكتراث:
_هاتيهالي يا بسملة، أنا هقدر أتصرف!
التفتت "نالا" إلى والدها، وعلت ملامح الشك في عينيها، وكأنها تعبر عن تساؤلات كانت تدور في خاطرها. ثم قالت له بنبرةٍ تحمل قلقًا مستترًا بشأن قدراته على التعامل مع الأطفال الرضع:
=بس يا بابي حضرتك مش هتقدر تتعامل معاها!

باسم بدِراية:لا هقدر، من الواضح إن والدتكم محكيتلكمش أنا ازاي كنت بتعامل معاكم وانتوا صغيرين.

مدّ "باسم" ذراعيه نحو أم قمر الدين، ثم قال لها بصوتٍ يتسم بالثقة رغم مشاعر القلق التي تعتريه:
_هاتيها يا بسملة من فضلك!

أم قمر الدين:اتفضل يا باسم.

بعدما حمل "باسم" حفيدته بين ذراعيه بحذرٍ، انبثقت منه كلماتٌ تجلّت فيها ثقة الجد المحب، فقال لأسرته بحماس:ٍ
_أنا هنزل أحضرلها الببرونة بنفسي .
ثم تابع لمنى:
_تعالي معايا يا منى!
قالت "أم قمر الدين" باعتراض، وقد بدت علامات القلق تعلو وجهها:
=لا منى إيه؟
وواصلت لمنى برفضٍ، وعيونها تومض بالحذر، قائلة:

=خليكي انتي يا منى !

قالت "أم قمر الدين" لباسم باستعدادٍ، وهي تضع يدها على كتفه لتؤكد له دعمها:
=أنا اللي هاجي معاك يا باسم!
نزل "باسم" بأسيل بين ذراعيه، وتبعته بسملة بخطوات واثقة حتى دخلا المطبخ، حيث كانت رائحة الطعام تعبق في الأجواء. هناك، طلب باسم من أم قمر الدين بجدية تعكس حرصه على توفير الحليب لحفيدته، قائلًا لها:
_ممكن الحليب يا بسملة؟

أم قمر الدين:لا ماهو يا روحي أسيل مبتشربش اللبن اللي احنا بنشربه، أسيل بتاخد لبن باودر.
باسم باستغراب:غريبة! مع إن على أيامنا كان الأولاد بيشربوا من نفس الحليب اللي احنا بنشربه، ومع ذلك كنتي تلاقي الطفل متغذي جدًا ووزنه هايل.
أم قمر الدين بلُطف:طبعًا يا حبيبي بس الزمن اتغير، أنا هجيبلك اللبن الباودر.

بحثت أم قمر الدين في الخزانة عن الحليب البودرة، وكأنما كانت تبحث عن كنزٍ ثمين، حتى عثرت عليه أخيرًا. بدأت بتجهيزه بيدين حانيتين، بينما كان "باسم" يراقبها عن كثب، قال لها بحرص، وهو يشعر بواجب الأجداد يتعاظم:
_من فضلك يا بسملة، خدي بالك مش عايز اللبن يلسع البنت أو يتسببلها في أي ألم!

أم قمر الدين:لا يا باسم متقلقش! أنا هدفيه بس.

في غرفة الفتيات، كانت منى ونالا جالستين جنبًا إلى جنب على السرير، تتبادلان الأحاديث كعصفورين يتغنيان بأجمل الألحان. كل واحدة منهما كانت تعكس جمالها الفريد في ملامحها، حيث تتلألأ عيونهما بنور الحياة، وتفوح من نبرة صوتيهما أصداءً من الدلال. بينما كانت نالا تتأمل الوضع من حولها، شعرت بالاستغراب من غياب والدهم من العمل اليوم، وفكرت في عدم وجود سببٍ مقنع لإنجاب جميلة، أختهما الكبرى، لأسيل، وهي تتركها هنا في كل مرة تذهب فيها مع زوجها إلى أي مكان، كأنها تتجاهل تمامًا المسؤولية التي ينبغي أن تتحملها. كانت مشاعرها تتراءى في عينيها، بينما تتساءل كيف يمكن لأم أن تتخلى عن طفلتها بهذه السهولة، لكن "نالا" سألت منى أولًا قائلة:
_هو بابي منزلش شغله النهارده ليه؟

منى بتفكير:مش عارفة، بس يمكن علشان أسيل قاعدة معانا النهارده.
نالا باستنكار:هي جميلة عالطول كده كل ما تسافر تسيبها مع مامي؟ I Think إن مكنش ليها لازمة تخلف أسيل، كان كفاية عليها سيليا وخلاص.
منى بحصافة:ازاي بس؟ ده نصيب إنها تيجي الدنيا، هتموتها يعني؟ وبعدين What's This Crazy Talk؟ اللي انتي بتقوليه ده؟

أم الديب الجزء الثالث

نالا بامتعاضCrazy Talk:؟ انتي مجنونة يا منى؟ انتي ازاي تتكلمي معايا بالطريقة دي؟

نهضت نالا بسرعة من فوق السرير، وقد بدت منفعلة كأنما رياح السخط تعصف بها، مما جعل الأجواء تتغير بشكلٍ دراماتيكي. ارتفعت نبراتها بين الحين والآخر، وكأن كل واحدة منهن تعبر عن قسوة مشاعرها. حينها، نظرت "منى" إلى نالا بعصبية، مُعبرةً عن استيائها من تصرفاتها، وقالت لها:
_وطي صوتك يا نالا وبطلي الكلام المتخلف اللي دايمًا بتقوليه ده!

نالا بصياح:لا ده انتي زودتيها أوي وبجد أسلوبك!Very Despicable
منى بصدمة:أوه ماي جاد، مش مصدقة !

نادت "منى" والدتها، التي كانت مشغولة في صنع الحليب لأسيل، بصوتٍ عالٍ يعبّر عن الحاجة الملحة لاهتمامها، كأنها تحاول استدعاءها من عالمها المزدحم بالواجبات. قائلة:
_يا مامي يا مامي شوفي بنتك بتقول إيه!
نزلت منى نحو أم قمر الدين، وتبعتها نالا بخطواتٍ سريعة، كأنما تشعر بأن هناك شيئًا ملحًا يجب قوله.
ثم، في لحظةٍ من الانفعال، قالت "نالا" بصياح يجذب الأنظار:
=أنا برضة اللي بقول إيه؟ ولا انتي من الواضح اللي مابقتيش شايفة أسلوبك ده!
وضعت "أم قمر الدين" ما في يدها جانبًا، وكأنما تعبر عن انزعاجها مما يحدث، ثم التفّت إليهما، ملامح الفزع ترتسم على وجهها بسبب شجارهما المفاجئ. كان القلق يتسلل إلى عينيها، مما جعلها تسأل بحيرة عن سبب هذا النزاع الذي يبدو غير مبرر:
_إيه يا بنات بتتخانقوا مع بعض ليه؟
سأل "باسم" فتياته بقلقٍ، بينما كان لا يزال يحمل أسيل بحذر بين ذراعيه، وكأنما يسعى لخلق أجواء من الأمان:
=في إيه؟

أجابته "منى" بانفعال، وقد ارتفعت نبرتها بشكل ملحوظ:
_لازم بنتك تعرف إنها بتتعامل مع أختها الكبيرة، ولازم تتكلم معايا بإحترام ومتتعداش حدودها!
تلفظت "نالا" بعجيج مع منى، وكأنما كانت أصواتهما تتداخل في تعبيرٍ عن السخط المتزايد. كانت كل واحدة منهما تعبر عن آرائها بطريقة شديدة:
=لا انتي بجد اللي لازم تخافي على مشاعري أكتر من كده وتبطلي إستفزاز! أنا مابقتش قادرة أستحملك!
قال "باسم" بنبرة حازمة، تحمل في طياتها اعتراضًا واضحًا على هذا النزاع الذي يبدو بلا جدوى، وكأنما يعكس سلطته كأب يسعى لتهدئة الأوضاع:
_وطوا صوتكم، مش عايز أسمع نص كلمة! عيب أوي اللي بيحصل ده، من امتى وانتوا بتتخانقوا مع بعض كده؟

أم الديب الجزء الثالث

وسط هذا النزاع المحتدم، دخلت سامية من بوابة القصر، حاملةً طفلتها لارا بين ذراعيها، وكأنها شعاع أملٍ يضيء ظلمات التوتر. بدت وكأنها جاءت في الوقت المناسب لتكون صوت الحكمة، فالتفت "باسم" نحوها، وعينيه تتلألأ بالامتنان لوجودها، ثم قال لها:
_أهي سامية جات، تعالي احضري المشكلة اللي بتحصل وأحكمي بنفسك!

سامية بفضول:مشكلة إيه يا بابا؟

سردت الفتيات مشكلاتهما، لتبدأ الأخت الكبرى سامية في تناولها بحكمةٍ وعقلانية، مُعتمدةً على أسلوبها الرصين في حل النزاعات، حيث عكست خبرتها في الحياة وقدرتها على فهم المواقف المعقدة. بينما في منزل أم الديب، كانت تجلس تفكر في سُبل الحلول، حتى انبثقت في ذهنها فكرة لم تكن لتخطر على بال أحد، فنهضت لتذهب إلى أخيها ضايع، الذي كان يستمع إليها باهتمام بالغ، وقد أضافت إليه تفاصيل وأحداثًا غير حقيقية، مُخبِرةً إياه بأن حسين وأخيه قد قاموا بسبّه وإهانته، وهو ما جعله يصدقها تمامًا، مما زاد من النيران المشتعلة في قلبه، فاتجه معها بخطى حثيثة نحو منزل حسين. في الوقت ذاته، كان المعلم حنفي وأخوه حسين يجلسان في البلكونة، يتناولان كوبين من الشاي، مُستمتعَين برؤية الأراضي الزراعية الخضراء التي تمتد أمام أعينهم، حيث كانت أجواء الحي هادئة بشكل عام، إلا أن هذا الهدوء لم يستمر طويلًا، إذ فجأةً انتشرت أصداء طرق الباب بطريقةٍ مخيفة تدل على كارثة قادمة، مما جعل "حسين" يستدير إلى المعلم حنفي، مستغربًا ما يحدث، فقال له:
_إيه التخبيط ده كله؟

المعلم حنفي بارتياع:شكل الولية جات، مانا قولتلك إنها مش هتعدي بالساهل مسمعتش كلامي!

ذهب حسين نحو الباب، ليجده مفتوحًا على مصراعيه ليكشف عن ضايع الذي اقتحم المكان بشراسة، حيث قام ضايع بدفع حسين إلى الداخل، ورفعه فوق الأرض قبل أن يطرحه بعيدًا بكل قوة، وفي خضم الفوضى، لم يتردد المعلم حنفي في التفاعل مع الموقف، فاندفع نحو ضايع الذي انهال عليه بالطحن، وكأنما يحاول استعادة كرامته المهدورة. وفي تلك الأثناء، دخلت "أم الديب" إلى البلاكونة، وقد التقطت كوب الشاي في يدها، ثم عادت لتجلس على الكراسي، تراقب الموقف وكأنما هي مشهد في مسرحية، تفتقر إلى عواطفها الخاصة، ومع كل ضربة يتلقاها المعلم حنفي، وحسين، كانت تراقب بتلك اللامبالاة التي تعكس شخصيتها، ثم أطلقت تعليقًا بلا اكتراث، معبرة عن عدم اهتمامها بالحرب التي تجري أمامها، فتقول:
_كوباية شاي ماسخة ومالهاش طعم شبه وش اللي عاملها.
حينما كان "حسين" يتلقى وطأة ضربات ضايع، التي كسرت له أسنانه ونزفت دماء جسده، سقط على الأرض كمن يواجه مصيره المحتوم، يردد بألم عارم، وكأن كلماته هي صدى لوجعه الممزوج بالخيبة. كانت أنفاسه تتعثر في صدره، وصوته يخرج مكتومًا بين آهات الألم، وهو يعبر عن معاناته، قائلًا:
_آه... آه، اللي بيحصل ده ميرضيش ربنا !

أم الديب الجزء الثالث

وطأ ضايع "المعلم حنفي" بقبضته العنيفة فوق رأسه بقسوة لا يمكن تخيلها، وكأنما كانت الضربة تجسد كل مشاعر السخط المتراكمة. انحنى المعلم حنفي نحو الباب المكسور، إذ تصاعدت أنفاسه بصعوبة، وهو يستغيث بصوتٍ مُختنق لا يستطيع الخروج من جسده، وكأن الألم قد اختطف منه كل وسائل التعبير، قائلًا:

_آه الحقوني! آني راجل كبير وعلى قدي!

قال "ضايع" بعجيج، وكأنما كلماته كانت صادرة عن بركانٍ ثائر من الحنق:

=وانتوا لسه شوفتوا حاجة؟ أنا اللي يجي على سكة بسمة أختي ميكسبش!

ظل "ضايع" يوطأهم لمدة ربع ساعة كاملة، حتى تمكن من مسح عرقه بيده، نهض بعد معركة حادة كان هو الطرف الفائز فيها، حيث ترك المعلم حنفي وحسين مغمورين في دمائهم، غير قادرين على الحركة، وكأنما أدركا أن النهاية قد حانت. بينما كانت الشقة تعكس الفوضى التامة، لم يتبقَّ فيها ركن واحد سليم، فقد كسر ضايع الأثاث كله، حتى ملابسهم تمزقت، وأجسادهم انجرحت جراء العنف الذي جابهوا به. ثم نظر ضايع إلى أم الديب، مُتسائلًا بجدية:

_مرضية يا بسمة ياختي؟

أم الديب برضى:وقلبي مرتاح كمان، يخليك لينا يارب وميحرمناش منك.

ضايع بشؤم:لو حد فكر يكلمك نص كلمة رني عليا هتلاقيني قصادك في ثانية! أنا مرضتش أقتلهم عشان خاطر جلال لكن المرة الجاية مش هعمل حساب لا لجلال ولا لحد، أمين؟

أم الديب بسعادة:يا سندي يا ضهري في الدنيا، تعيش وتتهنى وتفرح يا ضايع يا حبيب قلب أختك.

خرج ضايع من المنزل بعد أن ترك وراءه آثار التدمير، بينما كانت أم الديب تطلق الزغاريد، تعبيرًا عن فرحتها الغامرة، وكأنما تشعر بأن أخاها ضايع قد استعاد لها حقها المهدور من المعلم حنفي وأخيه.

في شقة جلال، كانت ليالي مشغولة في المطبخ، تُجهز الغداء، حيث كانت الروائح الطازجة تتصاعد من القدر، وجلال يجلس في الصالة يدخن النارجيلة، يتحدث معها بصوتٍ عالٍ، كأنه يستمتع بكل لحظة.

بينما كانت "ليالي" تحمر البصل المقطع على النار، نظرت إليه وابتسمت، ثم قالت له:

_أنا عملت زي مانت طلبت بالظبط، بس مش عارفة ليه حاسة أمك مش مصدقاني كأنها كده بتجاريني في الكلام وخلاص!

جلال:انشالله عنها ما صدقتك، انتي تعملي اللي أقولك عليه وبس! أنا لازم ألاقي عقد البيت واحنا مش هنلاقيه إلا بالطريقة دي.

ليالي:وانت فكرك يا جلال إننا لما نضحك في وش أمك كام ضحكة هتجيلنا تاني يوم وتحكيلنا عن كل البلاوي اللي مخبياها؟ أمك حويطة وصعب حد يضحك عليها.

جلال بخُبث:بشويش يا ليالي، كله على الهادي وواحدة واحدة أمي مصيرها تعترف... أدينا بنجرب، احنا خسرانين إيه؟

ليالي:صح يا جلال عندك حق، يلا أدينا وراها للآخر، واحنا يا هي.

أم الديب الجزء الثالث

جاءت تقى وهي تسعل، مما دفع ليالي للاهتمام بها، فسألتها عن حالها، متذكرةً أنها أعطتها دواء السعال في الصباح. أخبرتها تقى بأنها شعرت بالتعب مرة أخرى، مما جعل ليالي تشعر بالقلق حيال فعاليات الدواء الذي وصفه الطبيب. ثم تطرقت ليالي إلى جلال، طالبةً منه أن يغير الروشتة التي كتبها الطبيب لابنته، مُشيرةً إلى أن الدواء يبدو أنه لم يُحقق النتائج المرجوة. في تلك اللحظة، طلب جلال منها أن تعطي تقى الدواء الذي لديهم، فاستفسرت ليالي عن الوقت الحالي، وهو ما جعلها تطلب من ابنتها أن تحضر لها هاتفها. امتثلت تقى لطلب والدتها، وعادت بعد قليل حاملةً الهاتف. أثناء ذلك، ظهر إشعار على شاشة الهاتف يفيد بأن جميلة قد نشرت فيديو، مما جعل ليالي تفتح الإنترنت لتكتشف فيديو لأحمد وجميلة أثناء قيادتهما للجيت سكي، حيث كانت تلك اللحظات مفعمة بالمرح. عندما شاهدت ليالي الفيديو، استشعرت بغيظٍ داخلها، فتوجهت لجلال لتشاركه ما شاهدته، معبرةً عن غيرتها من الوضع، بينما "جلال" أبدى فضوله لمعرفة المزيد. بعد أن رأى الفيديو، بدأ يدرك ما كان يثير قلق ليالي، فقال لليالي بتخمين:

_مش ده موتوسيكل؟ هو إيه اللي نزل الموتوسيكل في المياة؟

ليالي باحتدام:هو ده كل اللي همك؟ شوف أنا بتكلم في إيه وانت بتتكلم في إيه ؟ شايف يا جلال؟ رايحين يتفسحوا وعايشين حياتهم بالطول والعرض واحنا يا عيني علينا وعلى بختنا المايل.

تلفظ "جلال" بصخب:

_انتي مش هتبطلي قرف على دماغك؟ هتفضلي تولولي ليل نهار يا ليالي؟ هو انتي كل ما تشوفي صورة ليهم تيجي توجعيلي دماغي؟ يا بت أنا ممعايش فلوس وزفت على دماغك زي أخويا! هو حظه من دهب وأنا حظي من طين.

ليالي بغضب:عشان هو دماغه نضيفة وانت دماغك مليسة.

أول أن استمع "جلال" حديث ليالي، نهض في الحال وكأنما انتابته نوبة احتدام مفاجئة، حيث ألقى النارجيلة جانبًا بكل عصبية، وكأنما أراد أن يتخلص من كل ما يعكر صفو مزاجه. نشب ذراع ليالي بقسوة، ملوّحًا به للخلف، مما جعلها تتألم، وتخرج آهات متألمة من أعماق قلبها. استشعر جلال أن ليالي معجبة بأخيه أحمد، وبنظام حياته المُفعم بالمغامرة، مما جعله يشعر بعدم الرضا عن نفسه، وكأنما تتصاعد بداخله مشاعر الغيرة من احتمالية فقدان حب زوجته له. فصرخ بصوتٍ عالٍ، يجعل الأطفال يهرولون نحوهم بعيونٍ متسائلة، وقال لها:

_إيه اللي انتي قولتيه ده؟ انتي حاطة أخويا في دماغك يا ليالي؟ ده أنا أدفنك صاحية! وربنا لأخلي حياتك سواد إن ما اتعدلتي معايا! بتقارنيني بأخويا يا بت؟ وأنا دماغي مليسة وهو دماغه نضيفة؟ لا ده انتي زودتيها واتماديتي فيها.

قالت "تقى" بخوف، وهي تنظر لوالدتها، حيث تجمعت الدموع في عينيها:

=ماما.

تلفظ "حمود" بقلق، وهو يحاول إبعاد والده عن والدته، حيث كانت ملامح وجهه تنطق بالارتباك، وكأن قلبه الصغير يئن تحت وطأة المشهد العنيف الذي يراه أمامه. اقترب بحذر، ممسكًا بذراع جلال، محاولًا أن يُقنعه بالتراجع عن تصرفاته الغاضبة، قائلًا لجلال:
_سيب أمي!

جلال بصياح:أوعوا من وشي !

صرخ "جلال" في ليالي، قائلًا لها بقسوة، كأنما كانت كلماته تُخرج كل ما في جعبته من مشاعر مدفونة:
_غوري، لمي هدومك وعلى بيت أبوكي مش عاوز أشوفك هنا!

ليالي بتألم:آه.
جلال بصخب:يلا!
ليالي بإعوال:طب وربنا ما قعدالك فيها يا جلال، أنا هسيب البيت وهاخد عيالي ومش هتعرفلنا طريق!

طوال الوقت الذي كانت فيه "ليالي" تتحدث، بدت منهارة، وظلت تضرب جلال بيديها دون أن يتفوه بكلمة، كأنما كانت تعبر عن إحباطها بطريقة جسدية، وهي تشعر بقهر ينهش روحها. كلما تذكرت الطريقة التي يعاملها بها جلال، التي لا تليق بتضحياتها ومشاعرها، كانت موجات من الشجن تتلاطم في داخلها، كالأمواج العاتية التي تصطدم بالصخور. توجهت إليها ذكريات مؤلمة عن المواقف التي شعرت فيها بعدم الاحترام، قائلة له بنواح:
_طول عمرك جاي عليا أنا مانا الحيطة المايلة! عمرك ما نصفتني ولا وقفت في ضهري، مش فالح غير إنك تتشطر عليا أنا وتيجي عليا عشان الغريب، عايزني أكرهك يا جلال بعد كل اللي بينا؟ انطق ورد!

عانق "جلال" ليالي تحت ذراعه، محاولًا أن يُهدئ من روعها، ومرر يده على كتفها بلُطف، حيث كانت تعكس حركاته كأنها تعبير عن أسفه. انحنى قليلًا نحوها، وعينيه تتلألأ بالحنان، وقال لها:
=خلاص يا بت! طب وربنا ما قصدي، مانتي عارفاني يا ليالي طول عمري مبعرفش أعبر عن اللي جوايا! وبعدين يا بت هو أنا هلاقي أحسن منك؟ ده انتي اللي عالطول واقفة في ضهري... ده انتي بمية راجل في غيابي يا ليالي.

ليالي بنواح:بقيت أحس إنك بتكرهني يا جلال، مابقتش أشوف الحب في عينيك زي الأول، انت جلال اللي كان يستقوى على خلق الله ويجي عندي أنا ويضعف؟ كل ده راح؟
جلال بحنو:لا يا ليالي مراحش! بس أمي تعبتلي دماغي من حواراتها، انتي نسيتي إن بقالنا مدة عايشين في مشاكل؟ ومش عاوزة ده كله يأثر على إحساسي؟
ليالي بنشيج:حقك تدايق يا جلال ومحدش يقدر يقول غير كده، بس اللي مش من حقك تيجي على اللي واقفة جنبك ومش شايفة غيرك!

أم الديب الجزء الثالث

جلال بقساوة:انتي متقدريش تشوفي غيري، ده أنا أخزقلك عينك قبل ما تفكري!

ليالي باستياء:وههون عليك يا جلال؟
جلال بهدوء:لا مش هتهوني، شوفي يا ليالي عاوزة تسافري امتى !
ليالي بلهفة:يعني هتسفرنا بجد؟
جلال بتردد:أمال، بس...
ليالي بفضول:بس إيه؟
جلال بتعسُّر:حوار الغردقة ده مش هقدر عليه يا ليالي، هسفرك راس البر يإما إسكندرية، انتي وشوقك بقى.
ليالي بترح:برضة يا جلال؟
جلال باعتياص:العيشة هناك صعبة أوي، ده اليوم الواحد بتمن سفرية أسبوع في راس البر.
ليالي بتِيه:طيب يا جلال، سيبني أفكر !
جلال:طيب خلصي الغدا!

دخلت ليالي إلى المطبخ، وقد بدت مستغرقة في أفكارها، بينما واصلت تحضير الغداء، محاولةً ترك ما حدث خلفها والتركيز على واجباتها اليومية. أما في المساء، بعد أن عاد هايدي وزياد من البحر واستحما وارتديا أجمل ملابسهما، نزل الزوجان من الفندق، متوجهين إلى مطعم فاخر مع أحمد، وجميلة، وسيليا كانت الأجواء فيه تعكس مزيجًا من الرقي والدفء. كانت الأنوار الخافتة تُضيف لمسة ساحرة، بينما جلسوا في انتظار اختيار الأطباق الشهية. حيث تساءل "أحمد" بفضول عمّا يريده كل منهما في هذا المساء، وكأنه يخطط لجعل ليلتهم لا تُنسى، متسائلًا عن أرائهم:
_إيه رأيكم بقى؟
أجاب "زياد" وهو ينظر حوله بإعجاب، متأملًا تفاصيل المكان التي تعكس الفخامة والذوق الرفيع، حيث أضواء الشموع تتراقص بخفة على الطاولات، والموسيقى الهادئة تملأ الأجواء بنغمات تتناغم مع الهدوء الذي يعم المكان. كانت عيناه تجولان في أرجاء المطعم، وكأنه يحاول احتواء جمال كل زاوية فيه:
=إيه يا عم الحلاوة والجمال ده كله؟ أنا خايف أتعود على الأماكن دي وأرجع لحياتي الطبيعية فأتصدم.
نظرت "هايدي" إلى روعة المطعم وأناقة ديكوراته الفاخرة، وتأملّت تفاصيله بعينٍ لم تخفِ انبهارها، لكن سريعاً ما سيطر عليها قلق عابر، إذ بدأ يتسلل إليها شعور بأن الأسعار قد تكون باهظة بما يتناسب مع فخامة المكان. فالتفتت نحو أحمد، وقالت له:
_بس يا أحمد شكل الأسعار هنا غالية أوي!
ردّت "جميلة" على هايدي بلا اكتراث، وقد ارتسم على وجهها تعبيرٌ يمزج بين اللامبالاة والثقة:
=يا حبيبتي متشغليش بالك بأي حاجة! انتوا في الهاني مون، وعلفكرة ولا مليون خروجة هتعوض اليومين الحلوين دول.

هايدي بفرح:هما يومين حلوين فعلًا بس علشان معاكم!

اقتربت "جميلة" من هايدي، وطبعَت قبلة دافئة على وجنتها، في لمسة حانية تعبر عن مشاعر الألفة، ثم ابتسمت برقة، وقالت لها:
=يا عمري انتي، ربنا يفرحكم يا روحي.

هايدي بسعادة:يارب.

أخذ "أحمد" القائمة بين يديه، وأشار إلى بعض الأصناف ببهجة، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة تنم عن حماسه لتجربة تلك الأطباق. كانت عيناه تتلألآن بلمعة تحفزهم جميعًا على الانغماس في تجربة فريدة، وهو يقول:
_المنيو قصادكم أهو، كل واحد يطلب اللي هو عايزه.
انفجر "زياد" ضاحكًا بنبرة عفوية تعكس فرحه بحديث أحمد، ثم نظر إليه نظرة تحمل في طياتها تقديرًا:
=حلو، نفتحها ولا نمسك على إيدينا؟

أحمد بضحك:اعمل اللي انت عايزه! انتوا عرسان جداد، هو حد يقدر يتكلم معاكم؟
زياد بمعزَّة:حبيب قلبي، ربنا ما يحرمنا منك .

ثم أمسك "زياد" القائمة بين يديه، وأخذ يتنقل بعينيه بين أصناف الأطعمة المعروضة، مستمتعًا بتخيّل مذاق كل طبق. كان يقرأ الوصف بتأنٍ، وكأنه يحاول أن يتذوق الكلمات قبل أن يختار، مسترجعًا ذكريات أطباق مشابهة تذوقها في رحلاته السابقة، فقال لأحمد:
_بص بقى، أنا عايز حمام محشي!

أحمد ببشاشة:حلو.
زياد:وكباب وكفتة مشويين.
أحمد بتبسم:حلو.
زياد:ومحاشي مشكل وديك رومي.
أحمد باكتراث:وإيه تاني؟

نظرت "هايدي" إلى زياد باندهاش، وقد ارتسمت على وجهها ملامح صدمة لم تستطع إخفاءها، وكأن اختياره تجاوز كل توقعاتها. كانت تتأمل اختياره غير المتوقع بعينين واسعتين، حيث أخبرته قائلة:
_ياه يا زياد انت فتحتها أوي! كفاية صنفين وخلاص.
ضحك "أحمد" ضحكة خفيفة، وقد لمعت في عينيه روح المرح، ثم توجه نحو هايدي بنبرة تفيض بالدعابة:
=لا لا اطلعي منها انتي بس ومالكيش دعوة!

أم الديب الجزء الثالث

نظر "زياد" إلى أحمد بتعبير مليء بالاقتناع، وكأن حديث هايدي قد أثار في نفسه شعورًا من التفاهم، ثم قال له:
_لا بس أنا شايف إن هايدي معاها حق.

أحمد بعبوس:علفكرة أنا كده هزعل منكم! الكلام ده مش بينا خليه للناس الغريبة، إنما احنا هنا أهل!

ابتسمت "هايدي" بابتسامة دافئة، مليئة بالتقدير والامتنان لأحمد الذي أضفى على الجلسة جوًا من الألفة، وقالت له:
_حبيب أختك، والله ما عارفة أودي جمايلك علينا فين بس؟

أحمد بوداد:يا حبيبتي أطلبي وأنا تحت أمرك.

بينما كان الجميع مشغولين بالتأمل في القائمة المتنوعة، تفحص "أحمد" وجوههم بفضول، وعندما وقع نظره على جميلة، سألها بصوت يحمل نغمة من الاهتمام الخالص:
_ها يا جميلة عايزة إيه؟

جميلة بثُبُوت:احنا عايزين Shrimp Pasta أنا وسيليا.
أحمد باستفهام:بس؟
جميلة:انت عارف يا حبيبي إننا ملناش في الأكل التقيل ده!
أحمد ببِشر:ماشي انتوا تؤمروا.

نادى "أحمد" النادل بصوت واضح، يعكس حماسه لمتابعة الأمسية، وهو يشير إلى القائمة أمامه:
_لو سمحت!
بعدما أشار أحمد للنادل بلُطف، بدأت الخدمة تتحرك، حيث تَقدّم النادل بابتسامةٍ تُرحب بالحضور، وبدأ أحمد وجميلة بطلب أطباقهم المميزة، مُعبرين عن أذواق متباينة تجمعت على مائدة واحدة. كان الطلب ثريًا بأطباقٍ متنوعة، من الكباب والكفتة إلى المحاشي والحَمام المحشي. لم تخلُ اللحظة من أجواء مرحة، إذ تابع زياد مراجعة القائمة، مقترحًا إضافة الديك الرومي، بينما أضافت جميلة بعض الأطباق الإيطالية التي تفضلها، مكتملةً بذلك تشكيلة الأطعمة التي تتنوع بين النكهات الشرقية والغربية.
مشروبات باردة تُبهج الحواس كانت حاضرة، لتلائم حرارة الجو وتهيئ الجميع لتذوق وجبة استثنائية.
بينما انصرف النادل لترتيب الأطباق، لم يُهدر الجالسين الوقت؛ أخرجت هايدي هاتفها لتوثق اللحظة برفقة أسرتها، ملتقطة صورًا تحمل بين طياتها ذكرياتهم وتوثيقًا لضحكاتهم العفوية. تبادل زياد وأحمد الحديث عن اختيار المطعم، ودار نقاش عن جودة الطعام الذي تنبعث رائحته في الأرجاء.
بعدما انتهت "ليالي" من طهي الدجاج المحمر في السمن البلدي، الذي أضفى على الطبق نكهة غنية، والفاصوليا البيضاء التي تناثرت عليها الصلصة الحمراء الشهية، بالإضافة إلى الأرز المعمر الذي أعدته بحب، وقفت في المطبخ تراقب الصينية التي خرجت منها روائح الطعام الزكية، كأنها تهمس لها

بأن تتوجه إلى مائدة نعمة. نادت ليالي حمود، الذي كان متحمسًا لرؤية الطعام الذي أعدته والدته، وأعطته الصينية المليئة بالأطباق الشهية، وقالت لحمود بينما تسلمه الصينية بين يديه:
_خد يا حمود، طلع الصينية دي لعمتك نعمة!

حمود بطاعة:ماشي.
ليالي بتحذير:خد بالك ألا تقع!
حمود بانفعال:ما قولنا ماشي!
ليالي بصخب:خلاص، انت هتاكلني؟

خرج حمود بالصينية، وهو يشعر بشيء من الفخر لأنه يحمل طعام والدته إلى عمته نعمة، ساعيًا في خطواته نحو شقتها. بينما في الجهة الأخرى، خرجت "ليالي" بالصينية الكبيرة التي تحوي أطباق الطعام الشهية، ووضعتها فوق الطاولة البلدي، ثم جلست إزاء جلال الذي كان يترقب بفارغ الصبر بدء تناول الطعام. كان جلال يجلس بوضوح بين مكونات الوجبة، وعيناه تلمعان بشغف للمذاق الذي ينتظره. ثم ابتسمت له ليالي، قائلة له بأسلوبٍ يشعُّ بالود:
_يلا كُل بالهنا والشفا.
نادت "ليالي" ابنتها تقى، التي كانت تلهو في غرفتها وتستمتع بلعبها كأنها تستكشف عالمًا من الخيال:
_يا تقى... يا تقى تعالي عشان تاكلي !
جاءت تقى، وهي تشرق بابتسامة عريضة على وجهها، وجلسات بجانب والديها على الأرض إزاء الطاولة، حيث كانت تنتظر بفارغ الصبر أن يبدأ وقت الطعام. سألتها "ليالي"، وهي تستخرج الأرز المعمر من الطاجن برفق:
_أحطلك في طبق لواحدك ولا تاكلي معايا؟
بدأت ليالي بتقديم الطعام لابنتها، وكأنها تُغدق عليها برموز الحب البسيطة. جلست ليالي مع ابنتها لتبدأا تناول الطعام سويًا، في لحظة تجمع بين الأم، والأب وابنتهما في صمت دافئ. لم يلبث الأمر طويلًا حتى قطعت ليالي هذا الهدوء، متحدثة عن خطط العطلة الصيفية التي كانت تفكر فيها؛ شاركت جلال ما توصلت إليه بعد بحثها على الإنترنت عن تكلفة الإقامة في الغردقة، مؤكدة له أنها وجدت الأسعار مرتفعة، وأنها اقتنعت بحديثه حول عدم قدرتهم على تحمل التكاليف. وبدلًا من ذلك، اقترحت قضاء بعض الأيام في رأس البر برفقة أهلها، مما يضمن لهم راحةً أقل تكلفة. غير أن جلال لم يتجاوب مع الاقتراح على الفور، مكتفيًا بالصمت واستمرار الأكل، لتعاود ليالي سؤاله، راغبةً في معرفة رأيه، لكنها تفاجأت برده الحاد الذي كشف عن عدم ارتياحه لزوج أختها، أشرف، حيث وصفه بالمتكبر الذي يتصرف وكأنه الأكثر معرفةً وخبرة بين الجميع. استمعت ليالي لرأي "جلال"، محاوِلة تهدئة الحوار بتوضيح وجهة نظرها، مؤكدة أن أشرف لم يُظهر شيئًا من هذه التصرفات أمامهم وأنه ليس أكثر من زوج أختها، ليظل في نظرها شخصًا من العائلة لا يُحتمل أن يكون عائقًا لعطلتهم المشتركة. لكن قال جلال لليالي:
_ما تأجلي الحوار ده شوية تكون نعمة خفت! ونبقى ننزل معاها هي وحامد أحسن من أختك وجوزها.

ليالي:ولنفترض إن نعمة خفت ووقفت على رجليها، هتسيب ابنها لمين؟
جلال:تاخده معاها، أمال هتعمل إيه يعني؟
ليالي:ده هيغلبها أوي يا جلال، دي مش هتستمتع بالسفرية .
جلال باعتراض:مانا مرواح مع هبة وأشرف مش رايح عشان تبقي عارفة!
ليالي بتبسم:طب خلاص بلاش هبة وأشرف وبلاش نعمة وحامد! احنا نسافر لواحدنا مع العيال.
جلال برفض:لا أنا مبحبش الجو ده، أنا أحب لما أسافر نبقى أسرة كبيرة أهو حتى نشجع بعض.
ليالي بدهشة:ما جرا إيه يا جلال هو أنا أجيلك كده تيجيلي كده؟انت عايز إيه بالظبط؟

يتبع....

الفصل الأخير

لقد تجلَّت الأخت الكبرى كروحٍ تمزج بين حنان الأمومة وفطنة الحكمة، مستعينةً بتبصّرها الواسع وذكائها، فاستطاعت أن تُذلِّل عقبةً صغيرة تفرّقت على إثرها قلوب أخواتها الصغار. تارةً تُسدي النصح لمنى، وتارةً أخرى تتوجّه إلى نالا، مؤكدةً لهما برفقٍ أن ما يربط بين قلبيهما محبةٌ لا يتطرق إليها شك ولا يعتريها ضعف، ولمّا انعقدت تلك الجلسة الهادئة في الصالون الفاخر، قالت "سامية" بنبرةٍ تفيض بالابتسامة:

_خلاص بقى يا منى! خلاص يا نالا! احنا ملناش غير بعض، مينفعش نعمل في بعض كده أبدًا!

إلا أن "الأب"، الذي لا يُطيق قلبه أن يرى أبناءه وقد خيّم عليهم ظلّ هذا الشقاء، تقدم إليهما بقلبٍ يفيض حدبًا، وقال لهما بصوتٍ تخنقه الأحاسيس الأبويّة الصادقة:

=أنا مش عايز أزعل حد فيكم مني! ياريت تتصالحوا على بعض واللي حصل ده ميحصلش تاني!

رفعت "سامية" بصرها نحو والدها، وقد ارتسم على وجهها هدوءٌ يبعث على الطمأنينة، وقالت له بصوتٍ يملؤه الثبات:

_لا خلاص يا بابا اطمن، مش هيتكرر تاني، منى ونالا عرفوا غلطهم ومش هيكرروه تاني!

باسم بتمني:ياريت، أتمنى .

نظر "الأب" إلى ابنتيه بعينين تشعّان حزمًا، وقد عزم على وأد الفجوة بينهما، فأمرهما بالصلح بنبرةٍ لا تقبل التردد ولا تحتمل التأجيل، قائلًا بحسمٍ يفيض سلطة:ً

_قوموا يا بنات بوسوا بعض!

رفعت "نالا" بصرها إلى منى بترددٍ يشوبه مزيج من الخجل والتصالح، ثم لم تلبث أن تقدّمت نحوها ببطء، فالتقت ذراعيهما في حضنٍ دافئ أعاد للحظات الودّ دفئها. أمالت نالا رأسها وقبّلت جبين منى بنعومة، وهمست لها بصوتٍ غلب عليه التأثر:

_حقك عليا يا منى، بجد .i'm so sorry

منى بندم:انا اللي أسفة يا نالا، انتي برضة أختي وغالية عليا أوي.

ارتسمت ابتسامة عذبة على وجه "أم قمر الدين"، وقد أثلج صدرها مشهد الصلح الذي أشرق بين فتياتها كفجرٍ بعد ليلٍ طويل. نظرت إليهما بفرحٍ يعكس سكينة قلبها، وقالت لهما بسرورٍ كمن وجد ضالته بعد طول انتظار:

_برافو عليكوا يا بنات، شطورين، ربنا يخليكم لبعض يارب.

ارتسمت البشاشة على شفتي "باسم"، وانعكست فرحته على ملامحه، وكأنه قد وجد في هذا الصلح ما يسرّ قلبه ويثلج صدره. تطلّع إليهم وهو يتساءل بنبرةٍ دافئة تتخللها ابتسامة جسيمة:

_يعني كده خلاص قلوبكم صافية لبعض؟

أم الديب الجزء الثالث

أجابت "منى" والدها بنبرة يملؤها الاطمئنان، وقد شعّت في عينيها بوادر السكينة، مؤكدةً له أن خلافها مع نالا قد ذاب وانصهر، لتبقى بينهما أواصر المودة راسخةً كجذور شجرة قديمة:

Of Course= يا بابي، نالا أختي الصغيرة ومقدرش أزعل منها!

أطلقت "أم قمر الدين" ضحكة دافئة ملأت أرجاء الصالون، وقد غمرتها السعادة برؤية الصفاء يعود إلى قلوب بناتها. نظرت إليهما بعينين يكسوهما الحنان، وقالت ببهجةٍ خالصة تعكس فيض فرحتها:

_يا روحي عليكم، هتتحسدوا.

نهضت سامية، وقد ملأت الضحكات أجواء القصر، فأسدلت شعاعًا من الفرح على وجهها بينما قدّمت ابنتها لارا إلى أم قمر الدين، كأنها تودعها لحظة انطلاقها إلى العمل. نظرت إليها "أم قمر الدين" باستغرابٍ جلي، وقد تداخلت مشاعر الدهشة مع الفضول، فقالت لها:

_إيه يا حبيبتي رايحة فين؟

سامية بابتدار:رايحة ميتينج، هسيب لارا معاكي وساعة كده وهعدي عليكي آخدها.

أم قمر الدين بحنان:أوكي يا حبيبتي خدي بالك من نفسك!

سامية بابتسامة:حاضر .

عانقت "سامية" والدتها بعاطفة جياشة. ثم اتجهت نحو والدها، الذي كان يحمل أسيل بين ذراعيه، وقبّلت وجنته قبلة سريعة تحمل في طياتها كل معاني الحب، وقالت له بنبرة مليئة بالدفء:

_باي يا بابي.

باسم ببشاشة:باي يا حبيبتي.

غادرت سامية المكان بسرعة، تلك الفتاة المعروفة بطولها المهيب، إذ تعد الأطول بين بنات أم قمر الدين وأكثرهن جرأةً وشجاعة، بل إنها تتمتع ببلاغةٍ فذة في الحديث. لديها القدرة الفائقة على كسب القلوب بسحر حديثها، وفي الوقت ذاته، تحمل شخصية واثقة تمامًا من ذاتها، مما يضفي على جاذبيتها هالةً خاصة، رغم أنها تتسم في بعض الأحيان بالغرور. تملك القدرة على إحراج من يتجاوز حدوده عليها بردودٍ حادة، إذ كانت الآن متوجهة إلى اجتماعٍ هام يتعلق بعملها. وبعدما غادرت القصر ورَكبت سيارتها، نظر "باسم" إلى أم قمر الدين بابتسامةٍ تحمل في طياتها نبرة من المرح، وضحك، قائلًا لها:

_خدي بالك يا بسملة كده في روحين في رقبتك!

أم قمر الدين بمرح:لا يا حبيبي انت خلي معاك لارا وأنا هخلي معايا أسيل، دول أمانة في رقبتنا.

ضحكت أم قمر الدين، وبتلك اللحظة، تبادلت الفتيات مع باسم، إذ أعطته لارا لتأخذ هي أسيل، لأن لارا تمتاز بهدوئها ولا تبكي كثيرًا كما تفعل أسيل، التي قد تكون صعبة المراس في تعاملاتها. نظر "باسم" إلى ملامح حفيدته لارا، ليكتشف أنها تتمتع بجمالٍ يأسر الأنظار، يحمل سمات والدتها، مما جعله ينطق بكلمات الإعجاب، قائلًا:

_ما شاءالله، زي القمر.

بعدما انتهى جلال من تناول الغداء، وقد استمتع بوجبة دسمة غنية بالنكهات، ثم احتسى كوب الشاي الذي ساهم في تعديل مزاجه وتحسين حالته النفسية، ركب التوك توك الذي كان بمثابة وسيلته المفضلة للتنقل، متجهًا لملاقاة والده في منزل عمه. جاء ذلك بعد قرار المعلم حنفي بالعيش مع حسين، وذلك للتخفيف من الوحدة التي يعانيان منها بعد زواج أبنائهما. عند وصوله قبال المنزل، صعد جلال على الدرج، وهو يدندن بأغاني تعكس روحه المرحة وتُبدي تفاؤله بالحياة. لكن سرعان ما تغيّر المشهد عندما بلغ الشقة الواقعة في الطابق الأول العلوي. إذ وجد الشقة بلا باب، وكأن إعصارًا هائلًا قد اجتاح المنزل، إذ كان الباب مكسورًا ملقى على الأرض، والأثاث متناثرًا هنا وهناك. تجمدت مشاعر جلال في تلك اللحظة، بينما كانت الصدمة تسري في عروقه. أمامه، كان المعلم حنفي وحسين مغشيًّا عليهما، مضرجين بدمائهما، وقد بدا عليهما آثار الاعتداء العنيف. وجوههما كانت تعكس العديد من التفاصيل المؤلمة، كأنها تروي قصة ذلك الحادث الأليم الذي تعرضا له على يد ضايع. انقض "جلال" نحو والده وعمه، وصرخ بصدمة قائلًا:

_يا ليلة سودة.

جلس "جلال" على ركبتيه، وقد غلبه الفزع، وهو يحرك والده تارة، ثم عمه تارة أخرى، كأنما كان يحاول إيقاظهما من كابوسٍ مرعب. كانت أنفاسه تتعالى في صدره، ويداه ترتعشان، وهو يناديهما بصوتٍ يعتريه الخوف:

_أبويا...اصحى يابا! اصحى يا عمي! فوقوا! جرالكم إيه؟

ظل "جلال" يرجرج المعلم حنفي برفقٍ، عسى أن يستعيد وعيه ويعود إلى الحياة بعد تلك اللحظات الرهيبة، وهو يسأله بصدمةٍ تتسرب إلى صوته:

_مالك يابا إيه اللي عمل فيكم كده؟ ومال الشقة مدغدغة كده ليه؟

المعلم حنفي بتألم:خالك.

جلال بتعجب:خالي مين؟ تقصد خالي ضايع؟ ماله خالي؟

المعلم حنفي بأنين:خالك ضربنا.

كأنما استعاد المعلم حنفي وعيه للحظات، وعينيه تتجهان نحو جلال، ليكشف له عن الحقيقة المروعة التي كان يسعى لسماعها، لكن سرعان ما انتزعت منه تلك اللحظات السريعة، وعاد لفقدان وعيه من جديد. فرجرجه "جلال" مرة أخرى، وهو يقول برجفة تعكس مدى الخوف الذي يتملكه:

_يا نهار أسود ومنيل، فوق يابا!

ثم انتقل "جلال" إلى حسين، الذي كان ملقىً على الأرض، وحركه بقوة، مصارعًا يأسه وهو يصرخ:

_اصحى يا عمي حسين! اصحوا!

لكن للأسف، لم يُجيب عليه أحد، وفي صباح اليوم التالي، وبعد أن نقل جلال المعلم حنفي وحسين بمساعدة الجيران إلى الوحدة الصحية في القرية، استيقظت الأجواء على وقع الحزن. كان كل منهما

مستلقيًا على سريره في عنبرٍ واسع يضم العديد من المرضى، حيث تنبعث من زواياه أصواتٌ خافتة وتفاصيل لا يمكن نسيانها. اجتمعا جلال، وليالي واحتلهما الشجن، وغمرهما الأسى على أصحاب القلوب الطاهرة الذين تعرضوا لأشد أنواع الظلم. نظرت "ليالي" إلى حماها العليل، وهو في سريره، ووجهه قد نضح بألوان مختلفة تعكس وطأة الاعتداء الغاشم الذي تعرض له على يد ضايع. كان التأثر ينعكس في عينيها، وعبارات الأسى تتراقص على شفتيها. ثم قالت لجلال بتأثرٍ:

_لا حول ولا قوة إلا بالله، مين اللي عمل فيهم كده يا جلال؟

جلال بصخب:خالي ضايع اللي عمل كده، طب ده أنا بقول لأمي على اللي حصل سكتت ومردتش عليا، ده ولا كأنه فارق معاها!
ليالي بأسى:ماهو مش فارق معاها فعلًا يا جلال، ولعلمك ده مش بعيد تكون أمك هي اللي حرضت خالك على أبوك وعمك.
جلال بحصافة:يا نهار أسود، يعني ممكن أمي تكون هي السبب؟
ليالي بثقة:أه أمال إيه؟ هي اللي زي دي بيجي من وراها خير أبدًا؟
جلال بعجيج:كله إلا أبويا! أنا أبويا كبر وبقى عضمة كبيرة، يجي علي آخر أيامه يحصل فيه كده؟

كان "المعلم حنفي" يستمع جيدًا لأحاديثهم، وقد بدا على وجهه التعب والإرهاق، لكن في أعماقه، كان يرغب بشدة في إثبات قوته الصحية أمام ابنه وزوجته، وكأنه يسعى لطمأنتهم في ظل تلك الظروف القاسية. برغم الألم الذي كان يجتاح جسده، جمع ما تبقى له من قوة، ثم قال لجلال بصوتٍ متماسك، يختلط فيه الضعف بالعزيمة:

_آني مكبرتش يا جلال، آني لسه فيا أَمل!

جلال باستغراب:وهو انت يابا بعد العجن اللي انت اتعجنته لسه بتفكر في اللي في دماغك؟

قالت "ليالي" للمعلم حنفي بتأثرٍ، وقد امتلأت عينيها بالدموع التي كانت تتأرجح على حافة جفونها:

_تقوملنا بالسلامة يا حمايا .

ثم أردفت لجلال:

_ابنه لازم يعرف اللي حصل يا جلال! ميبقاش هو بيتفسح هناك وأبوه مرمي هنا بين الحياة والموت.

جلال:عندك حق يا ليالي، ده اللي لازم يحصل، أنا هكلمه.

لكن "حسين" رفض بشدة أن يعلم زياد أي شيء عما حدث، مؤكدًا أن تلك الأخبار المفجعة قد تؤثر سلبًا على سعادته، خاصة أن العروسين لا يزالان في شهر العسل، مستمتعان بأوقاتٍ رائعة، تتمايل فيها أحلامهما على ألحان الفرح. كانت فكرة الإبلاغ عن هذه الكارثة كفيلة بقلب نصاب الأمور للأسوأ، وتجعل سعادة زياد تتلاشى كأنها سحابة في يوم مشمس. قال حسين لجلال بنبرة حازمة، مفعمة بالرفض:

أم الديب الجزء الثالث

_أوعى تكلم زياد ابني، متعرفوش حاجة!

جلال برفض:ازاي بس يا عمي؟ يعني إيه مكلموش؟ ده أَول واحد لازم يعرف.
حسين بإصرار:اسمع كلام عمك يا جلال!

كانت ليالي تتأمل حال المعلم حنفي، وحسين في صمت، بينما كان الجميع يتحدث عن زياد، محذرين من أن وصول الخبر قد يفسد كل شيء، لكن في سرها، تمنت أن لا يمر كل شيء بخير، واعدة جميلة في دخيلتها بأن تصبر فقط. بينما دخل عم سلامة وتباهي وهبة وزوجها، بدا على عم سلامة الخوف. سأل بقلق عن المعلم حنفي، متسائلًا عن حاله. تساءل بدهشة، وهو يتابع الأمور، ماذا حدث للحاج حسين، ولماذا كل هذه المشاكل حولهم؟ وفي خضم ذلك، أخبر جلال عم سلامة بأن خاله ضايع قد ضرب والده وعمه، مما زاد من فزع الجميع. أما تباهي، ففور رؤيتها ليالي، أظهرت لها الاهتمام والسؤال عن حالها، متمنية لها السلامة. ردت ليالي على سؤالها، مطمئنة إياها بأنها بخير، وحاولت إظهار القوة رغم كل ما يحدث. ثم تبادلت التحيات مع هبة، أختها، التي كانت بدورها تسأل عن حالها وتطمئن عليها. تجمعوا جميعًا في جو من الخور، حيث بدأ أشرف بالحديث مع جلال، مستفسرًا عن سبب عدم تقديمهم بلاغًا. جاء رد جلال بمزيج من الاستغراب والسخرية، مشيرًا إلى صعوبة إيجاد خاله الضايع، الذي يظهر ويختفي كالأشباح.

لكن أصر عم سلامة على أهمية تقديم بلاغ، مشددًا على أن الصمت لن يحل المشكلة. كان جلال يدافع عن خاله ضايع، وملوحًا بيده، مؤكدًا أن الشرطة نفسها تخاف منه. اقترب عم سلامة من المعلم حنفي، مستفسرًا عن حالته. كان المعلم يبدوا متعبًا، مما زاد من قلقهم جميعًا. علق جلال على حالة المعلم، مشيرًا إلى ضراوة الضرب الذي تعرض له. في تلك الأثناء، عبر حسين عن قلقه من حدوث أي مكروه له، وطلب من الجميع الاعتناء بزياد، ابنه. أشرف، بدوره شجع حسين على التفاؤل بأن الله سيوفر له السعادة في حياته مع ابنه وزوجته. بينما كان عم سلامة يردد دعاءه، مدفوعًا بمشاعر الرهبة، وهم يتجمعون حول المعلم حنفي، عاقدين الأمل في أن تمر هذه الليلة على خير، حيث قال "عم سلامة" لحسين بتأثر:

_اهدى يا حاج حسين، احنا وراك ومحدش هيضيع حقك! حقك هيرجعلك من البلطجي اللي عمل فيك كده!

قالت "ليالي" بدهاء، وبصوت خافت، مشددة على كلماتها:

=أنا هكلم هايدي وأحكيلها وهي لما تعرف هتحكي لجوزها وهو أول ما يعرف هتلاقيه جاي جري هو وكل اللي معاه.

هبة بخُبث:عين العقل، يعجبني تفكيرك يا ليالي، خلي البومة اللي معهم تتبط وتهدى شوية على نفسها! طب انتي عارفة يا ليالي؟ دي كل يوم ألاقيها ظاهرالي في فيديوهات الفيس بوك لواحدها من غير ما أدخل عندها والله، إيه ياختي المياصة والسهوكة اللي هي فيها دي؟

ليالي بكراهية:شوفتي بقى؟ عشان لما أحكيلكم تصدقوا، أصلها فاكرة إنها بت بارم ديله ولسه ماسكة ومتبتة في عيشة أهلها، مادام هي ناسبت اللي مننا يبقى تعيش عيشتنا وكفاياها أنعرة كدابة بقى.
هبة:ده اللي زي دي مصيرها تقع على جدور رقبتها من كتر النفخ اللي هي فيه.
ليالي:أحسن تستاهلها.

هكذا كانت نية ليالي خبيثة تجاه العروسين، وأحمد وجميلة، فهي كانت ترغب في إفساد سعادتهم بشكل مبيت، حيث كانت تأمل أن تؤدي الأخبار السيئة إلى إلغاء رحلتهم التي طالما انتظروها. كانت تخطط بذكاء لتتسبب في عودتهم السريعة إلى القرية، وبذلك يتأزم وضعهم، مما يشعرهم بحجم الخسارة. في تلك الأثناء، كان أحمد وجميلة والعروسين يجلسون في مطعم الفندق، وسط أجواء مبهجة مفعمة بالحيوية. زينت الأضواء الهادئة المكان، بينما كان منظر حوض السباحة اللامع ينعكس على الوجوه بلمسات من البهجة، وتبعث الحياة في قلوبهم. بعيدًا، كان البحر يتلاعب بأمواجه الزرقاء، كأنما يغني لهم أغاني السعادة. الفندق كان يعج بالسياح، وضوضاء المحادثات والضحكات تملأ الأرجاء، بينما كان جميعهم يختار بعناية وجبة الإفطار من البوفيه المليء بالألوان والأطباق متنوعة. كانت "جميلة" تتطلع إلى أحمد، وعيونها تتلألأ بفضول، فسألته:
_قولي يا حبيبي، إيه البروجرام النهارده بقى؟

أحمد ببسمة:إن شاء الله هنروح سفاري وبعد ما نرجع هنركب مركب و VIBكمان.
جميلة بفرح:بجد؟ VIB بجد؟
أحمد بسرور:طبعًا يا حبيبتي، أنا عارف إنك من زمان نفسك تركبي المركب الـ VIB والنهارده قررت أحققلك حلمك على أرض الواقع.

عانقت "جميلة" أحمد بسعادة غامرة، حيث كانت طاقتها الإيجابية تفيض من كيانها كأشعة الشمس التي تدفئ الأرض بعد شتاء قارس، وقالت له بامتنان:
_ميرسي يا روحي، بجد.Thank you very much
قالت "هايدي" لزياد، وهي تتطلع إليه بعينيها المتلألئتين، بينما كانت تنبعث منها لمسات من الألفة:
_زياد ممكن تجيبلي شاي بلبن من هناك؟

زياد:طب مش تاكلي الأول؟ أنا شايف إنك مكلتيش كويس.
هايدي:ماهو أنا متعودة دايمًا جنب الفطار بشرب شاي باللبن.
زياد باكتراث:حاضر، طب أجيبلك كرواسون جنب الشاي باللبن ؟
هايدي بقبول:ماشي يا حبيبي هات.
زياد:حاضر.

توجه زياد نحو البوفيه، حيث بدأ في ملء طبقها بالكرواسون الذهبي المخبوز بإتقان، واختار كوبًا من الشاي بالحليب لرفيقة دربه هايدي، تلبيةً لطلبها، وكان يختار بعناية ما هو الأفضل من بين مجموعة

متنوعة من الخيارات. في تلك الأثناء، جرت مكالمة هاتفية من ليالي إلى هايدي، كما دبرت بذكاء لتعكر صفو رحلتهم، استجابت "هايدي" للمكالمة دون أن تدرك عمق الكارثة التي على وشك أن تطرأ على مسامعها. حيث قالت لليالي بحبور:
_ألو ازيك يا ليالي عاملة إيه؟

ليالي ببكاء:الحقي يا هايدي خالك ضايع ضرب أبوكي وعمك حسين وعدمهم العافية واحنا دلوقتي كلنا ملمومين حواليهم في المستشفى وعلى أعصابنا! هات العواقب سليمة يارب.
هايدي بصراخ:يا نهار أسود وهو يعمل كده ليه أصلًا؟

سأل "أحمد" هايدي بفزع وقلق شديدين، بعد أن أرهبت صرخاتها الأجواء المحيطة، وكأن صوتها كان نداءً استغاثة يعبر عن مشاعر الذعر التي تجتاحها. انتابه شعور عميق بالخرع وهو يتساءل:
_في إيه يا هايدي؟
قالت "ليالي" لهايدي باستياء، وكلماتها كانت صواعق تتساقط في أرجاء قلب هايدي:
_مش عارفة يا هايدي، أنا إيه عرفني بالكلام ده؟ ساعتين وتكونوا هنا، احنا مستنينكم!

هايدي بنشيج:ساعتين إيه؟ احنا مسافرين!
ليالي باستياء:مسافرين؟ أما محدش قال يعني.
هايدي ببكاء:مش وقته، هبقى أفهمك بعدين، طب بابا وعمي حسين كويسين؟
ليالي بنواح:كويسين إيه بس يا هايدي؟ بقولك خالك عجنهم ومسابش فيهم حتة سليمة!
هايدي بصراخ:يا نهار أسود.

قال "أحمد" لهايدي بقلق شديد، حيث كانت ملامح وجهه تعكس مخاوفه المتزايدة، وكأن القلق قد غزاه في لحظات لا تُنسى:
_هاتي الموبايل! في إيه؟
جذب "أحمد" الهاتف من يد هايدي بجرأة، عازمًا على استجلاء خيوط المشكلة التي تُثقل كاهلها، حتى يتمكن من فك طلاسم هذا الموقف المحير، وبنبرة مشوبة بالرهبة، أطلق سؤاله نحو ليالي، فقال:
_ألو، في إيه؟

ليالي بشجن:هايدي هتقولك على كل حاجة، أنا مضطرة أقفل معاكم، الدنيا هنا متلخبطة، ربنا معاك يا حمايا.

أوصدت ليالي الخط بإحكام، في تصرف يُنذر بتصاعد الرعب، وكانت نبرتها تحمل في طياتها ظلالًا من الشكوك، مما زاد من حيرة أحمد وقلقه. وضع "أحمد" الهاتف على الطاولة ببطء، وكأن ثقل ما سمعه قد أثر في جسده، وسأل هايدي بارتياع:
_إيه يا هايدي في إيه؟ ما تفهميني!

هايدي بنحيب:خالك ضايع ضرب بابا وعمي حسين.
أحمد بصدمة:إيه؟ ضربهم؟

كانت ملامح وجه هايدي تتغير بشكل متسارع نحو الأسوأ، وكأنها محاصرة في كابوس مرعب لا فكاك منه، بينما "جميلة"، التي بدت وكأنها أصابتها صدمة حادة، كانت تراقب الموقف بذهول. وبنبرة تحمل كل معاني الاستفسار، سألت هايدي بلهجة متعثرة:
_أوه ماي جاد، وده ليه؟

هايدي بقلق:مش عارفة، وليالي بتقول إنهم في المستشفى حالتهم خطر.

وضع "أحمد" يديه فوق رأسه بقهر شديد، حيث كان يقاوم مشاعر الإحباط التي كانت تجثم على صدره، غير قادر على التصرف أو التفكير فيما سيقوله لزياد في هذه اللحظة الحرجة. تحدث بعصبية، لكن بصوت خافت حرصًا على عدم لفت أنظار من حوله، وكأن كلماته كانت تتسلل من بين شفتيه كحسرة محبوسة، فقال:
_يا نهار أسود، هو وصل بيه الحال إنه يضرب أبويا وعمي؟ ده حقير، طول عمره حقير وزبالة، ربنا ينتقم منك يا شيخ، حسبنا الله ونعم الوكيل فيك.
توجه "زياد"، حاملًا في يده كوب الشاي بالحليب والكرواسون المقرمش، مبتسمًا ببراءة، حيث لم يكن يدري بعد ما الذي حدث لوالده وعمه، وكان يسير بحماس ملحوظ نحو طاولتهم وكأن قلبه مليء بالأمل. وعندما وضع الطبق والكوب فوق الطاولة، أطلق كلماته نحو هايدي ببهجة، كأنما ينشر فرحة غامرة حوله، قائلًا لها:
_جيبتلك بقى أحلى كوباية شاي باللبن، وكرواسون.
ثم جلس "زياد"، مسترسلًا في حديثه المليء بالحماس، حتى وقع بصره على وجوه هايدي وأحمد وجميلة، ليرى ملامحهم وقد تبدلت وانقلبت كأنما انقضت عليهم صاعقة غامضة. في تلك اللحظة، تلاشت سعادته، وتغيرت قسمات وجهه تدريجيًا، وقد أحس بعمق أن كارثة ما تخفى عليه. وبحذر ممزوج بالقلق، نطق سؤاله:
_إيه يا هايدي مالك؟
لكن "زياد" حاول أن يُبدد ذلك الإحساس الثقيل الذي راوده، فضحك بابتسامة خفيفة كمن يريد أن يقنع نفسه أن كل شيء على ما يرام، وأن مشاعره لم تكن سوى وهم عابر. نظر إلى أحمد المصدوم وكأن الضحكة ستحمل في طياتها شيئًا من الطمأنينة، وسأله بلهجة ملؤها الأمل في سماع إجابة تطمئنه، قائلًا:
_في إيه يا أحمد؟ مالكم؟ إيه الوش ده؟

أحمد بتلجلج:أبويا وأبوك يا زياد... خالي ضايع ضربهم، وفي المستشفى دلوقتي بين الحياه والموت.
زياد بفزع:أبويا أنا ؟ مش فاهم إيه العلاقة! إيه علاقة أبويا بخالك أساسًا؟
أحمد بعبوس:ده اللي حصل، لازم نمشي من هنا في أقرب وقت!

نهض "زياد" في الحال، وقد ارتسمت على وجهه الصدمة وكأن الأرض اهتزت تحت قدميه، ثم توجه نحو أحمد بملامح مُضطربة، وسأله بذهول، كأنما يسعى لفهم الحقيقة التي أربكت كيانه وملأت صدره بالأسئلة التي لا تهدأ:
_أبويا أنا يا أحمد؟ ازاي؟

ثم التفت نحو هايدي بصوت مرتفع، وقد بلغ به الانفعال ذروته، وكأن صوته كان يحاول أن يبدد الغموض الذي يكتنف الموقف. كانت كلماته تتفجر بصياح حاد، وانفعاله كان أقوى من أن يُحتوى، وأردف قائلًا لها:
_ازاي يا هايدي؟ ردوا عليا! أنا أبويا جراله إيه؟
نهض أحمد مُسرعًا واقترب من زياد محاولًا تهدئته، واضعًا يده على كتفه بنية تخفيف الصدمة التي بدت جلية على وجهه، لكن زياد كان مأخوذًا بحالة من الذهول الشديد، يصعب على كلمات أحمد أن تُعيد له اتزانه بسهولة. تزايدت صعوبة المشكلة حتى جذبت أنظار من حولهم، بينما "زياد" استمر بصوت عالٍ، موجهًا استفساره إلى أحمد:
_إيه اللي وصل خالك بأبويا؟ ازاي؟

أحمد بتشوش:اهدى يا زياد هنفهم كل حاجة لما نروح!

ما إن وصل الخبر إلى نعمة، حتى أخذت طفليها على عجل وهرعت خارجة من الشقة، محاولةً الفرار إلى المستشفى. وفي تلك اللحظة، وقفت "أم الديب" على عتبة باب شقتها بشماتة جلية، واضعةً يدها على خصرها وجسدها يميل بتفاخر، وكأنما تستمتع بمشهد الألم الذي تشاهده. اقتربت من نعمة بنظرة متشفية، وكلماتها تغمرها فرحة مبطنة، وسألتها بابتسامة لا تخفي حقدها:
_رايحة فين يا بت؟
تجاوزت "نعمة" كلمات أم الديب ولم ترد عليها، فقد كانت غارقة في ألمها، تجرّ أطفالها معها وكأنها تهرب من نارٍ تطاردها. ركضت بقلق لا يعرف الراحة، حتى وصلت إلى المستشفى، حيث وجدت ليالي وجلال ينتظران بوجوه شاحبة. اقتربت منهما، ودموعها تنهمر كأنها شلال لا نهاية له، ثم نظرت إلى ليالي بعينين غارقتين في الحزن وقالت لها بصوت متقطع:
_أبويا ماله يا ليالي؟ أمانة عليكي تقوليلي جراله إيه! طمنيني أحب على ايدك!

ليالي بوجوم:متخافيش، أبوكي هيبقى كويس، متعيطيش يا هبلة! كله هيتحسن وهيبقى أحسن من الأول.
نعمة بنواح:يارب، ده راجل كبير مابقاش حِمل مرمطة، يارب انت العالم بينا.

نظرت "هبة" إلى نعمة بعينين ثابتتين ووجهٍ يحمل ملامح القوة، وكأنها تريد أن تمنحها شيئًا من الصبر الذي استجمعته. اقتربت منها بخطوات واثقة، وتحدثت بصوت يحمل ثباتًا:

أم الديب الجزء الثالث

_متخافيش يا نعمة، أنا بس كل اللي مجنني ازاي خالك ضايع محدش قادر عليه؟ هو للدرجة دي مفتري؟

نعمة بصراخ:هو خالي ضايع اللي عمل كده؟

أجابت "ليالي" بنبرة يملؤها الحنان، محاولة أن تلطف من الألم الذي يتملك نعمة. اقتربت منها بحنو، ومدت يديها لتمسك بيديها المرتعشتين، وقالت لها:
_أيوه هو، بس هدي قلبك وحياة حبيبك النبي!

نعمة باستعبار:عليه الصلاة والسلام، أنا خايفة على أبويا أوي يا ليالي!
ليالي بمواساة:متخافيش هيبقى كويس، تعالي نقعد نرتاح!

رفعت "نعمة" يديها إلى السماء، وكأنها تناجي ربّها، بينما تنتحب بحرقة تملأ صوتها، وكأن الألم قد مزق أعماقها خوفًا على والدها، فقالت، وكأن كل حرف ينضح بالأسى:
_يارب ده احنا مالناش غيره، ده هو القلب الحنين في البيت ده، والنبي يارب ما تحرمنا منه ولا توجع قلبنا عليه! ده أنا بحبه أوي وانت عارف كده كويس، يارب والنبي أسترها معاه احنا محيلتناش غيره!
قالت "ليالي" بشفقة، وقد ظهر على وجهها تأثرها الشديد بحالة نعمة، كأنما هي تُشاركها آلامها وتخفف عنها ما استطاعت:
_ياه على دي دنيا، القوي فيها بيدوس على الضعيف، والضعيف بيتمنى فرصة من القوي عشان بس يرحمه، وفي الآخر الإتنين نسوا إن في الأكبر منهم، وهو العدل! أنا من زمان وأنا مبرتاحش لخالك ضايع، وشه عليه غضب ربنا، دخلته علينا كانت بتقبض قلبي، أنا مش عارفة ازاي جلال مرافقه في كل حتة زي ضله!
ردت "هبة" على ليالي بسخرية، ونبرتها كانت تحمل في طياتها سخرية مريرة تتجاوز حدود التعاطف:
=بيحبه بقى، هنقول ايه؟ ماهو خاله.

ليالي:لا يا هبة ياختي، ما عندك هايدي وأحمد مبيحبهوش! هو شرط عشان قريبي يبقي أحبه؟ طب ده ياختي في مثل بيقول الأقارب عقارب.
هبة:أه والله، طب والنبي دول أكتر ناس أذينا في حياتنا وفي الآخر يقولولك صلة الرحم.

وجدت العائلة حامد ووالده عبد الغني قادمين نحوهم، حيث كان الرجل البسيط الريفي، الذي يرتدي جلبابًا يحمل عبق الأرض، يبدو عليه القلق. تشبث "حامد" بذراعي نعمة، التي كانت دموعها تفيض كغيثٍ هاطل، وسألتها بقلق جلي يفسر مدى التوتر الذي يعتريه، قائلًا لها:
_إيه يا نعمة؟ متعمليش في نفسك كده!

أم الديب الجزء الثالث

نعمة ببكاء:خايفة عليه أوي يا حامد، بقولك إيه خدني معاك جوا، يارب طمني عليه!

قال "عبد الغني" بقلق، حيث كان صوته يخرج من بين شفتيه حامل الهموم التي تشغل باله:
_إن شاء الله خير.
دخل الجميع إلى العنبر حيث يوجد المعلم حنفي، وحسين. كان جلال وعم سلامة وأشرف يجلسون على الكراسي، ويتبادلون الأحاديث. دخل عليهم عبد الغني بعبارات تحمل في طياتها الطمأنينة، متمنيًا السلامة للجميع، مبديًا حرصه على عدم حدوث أي مكروه مرة أخرى. كان الجو مفعمًا بالقلق، حيث بدأ عم سلامة في التعبير عن مدى افتقاده لعبد الغني، متسائلًا عن غيبته الطويلة، فاجاب الأخير بأن الأعمال هي السبب، وأشار إلى أنهم حضروا هذه المرة، رغم الظروف القاسية. بينما سأل عبد الغني المعلم حنفي عن حالته، ليُفاجأ بالإجابة السلبية التي جاءت متجهة نحو اليأس. ثم، في لحظةٍ عاطفية، وصفت نعمة ألمها تجاه والدها، مظهرةً حبها الشديد له، وقلقها من الأخبار السيئة التي سمعتها. في حين كان جلال ينظر إليها بقلق، حاول أن يُخفف من الحالة التي تعيشها، مشيرًا إلى أن الصدمة قد أثرت على عقلها، ولكن نعمة لم تكن قادرة على استيعاب ما يحدث، فسألت بلهفة عن سبب الأذى الذي تعرض له والدها وعما حدث بالفعل. ثم جاء الرد مُبهمًا، حيث أشار الجميع إلى أن السبب يعود إلى أم الديب. حينها، استشعرت "نعمة" أن الموقف أصبح أكثر تعقيدًا، فأخذت قرارها بالعودة إلى منزل أم الديب، تاركةً أطفالها مع ليالي، وعينيها تشتعل بالاحتدام والتصميم، وكأنها تتجه نحو مواجهة حتمية مع والدته، حيث صرخت فيها، قائلة لها بنواح:
_بقى بتبعتي خالي ضايع عشان يضرب أبويا وعمي؟ انتي ليه كده؟ وبيفيدك بإيه؟ ليه ياما؟ حرام عليكي.
نهضت "أم الديب" من فوق الحصير، وبدلًا من أن تتخذ خطوة تعترف بخطأها أو تعبر عن ندمها، أنكرت كل ما فعلته كأنما تعيش في عالم من الأوهام. كان صوتها يعلو، وصياحها يتردد في الأرجاء، مُدافعة عن نفسها بكل عناد، قائلة لنعمة بصخبٍ عال:ٍ
=حرمت عليكي عيشتك يا بت الكلب، آني مبعتش حد يضرب أبوكي وعمك! اللي قالك كدهو نصاب وعاوز يجيبلي المشاكل، هي كدهو الشجرة المثمرة تلاقي الخلق بيحدفوها بالطوب من كل ناحية.

نعمة بصياح:بطلي كدب ياما! محدش فينا مصدقك ولا هيصدقك! انتي كل كلمة بتقوليها كدب، عاوزة إيه من أبويا؟ ومطلعة عينه ليه؟ عاجبك منظره وهو مرمي في المستشفى وكل الناس صعبان عليهم حاله؟
أم الديب بسخرية:ميصعبش عليكم غالي يا روح أمك، اللي زي حنفي دهو عاوز كسر رقبته.
نعمة بصراخ:يعني بتعترفي أهو! بتعترفي إنك انتي اللي عملتي فيه كل ده!
أم الديب بلا مبالاة:أيوه آني اللي عملت كدهو واللي مش عاجبه يشرب من البحر!
نعمة بعجيج:ربنا ياخدك بقي يا شيخة ويريحنا منك، انتي إيه؟ شيطان ماشي على الأرض؟ امتى نرتاح منك؟

أم الديب الجزء الثالث

وطأت أم الديب نعمة بالقلم على وجهها بكل قوة، مما ترك أثرًا عميقًا في نفس نعمة قبل أن تنطلق هاربة، مُسرعة نحو المستشفى، ودموعها تنهمر من عينيها وكأنها سيل لا يُحجب. كانت تتخبط في مشاعر الانهيار، مُنهارة في أحضان ليالي، بحثًا عن ملاذ يخفف عنها أوجاعها القاسية. نظرت إليها "ليالي" بفزع، مستشعرة عمق ما تمر به صديقتها، وسألتها بقلق:

_مالك يا نعمة؟

ازداد نواح نعمة لدرجة أن جسدها بدأ يرتجف من شدة الحزن، وكأن الألم قد غمر كل خلية في كيانها. شعرت ليالي بعميق المأساة التي تعانيها صديقتها، فتوجهت إليها بمشاعر ملؤها الحنان، وبدأت تمرر يديها برفق على ظهرها كمن يحاول أن يمسح آثار العواصف التي هزت روحها. وفي تلك اللحظة، قالت لها "ليالي" بمواساة:

_براحة يا نعمة براحة! مالك؟ شكلك اتخانقتي انتي وحماتي، اهدي طيب!

بعدما علم زياد بما حدث لحسين والمعلم حنفي، تجلى في عينيه قلقٌ ووجعٌ خفي، فبدأ هو وأحمد يجمعان أشيائهم في الحقيبة من جديد، يتلمسان الأغراض بعناية. كانا يبحثان عن أمتعتهم بلهفة وخوفٍ من نسيان شيءٍ قد يكون له أثر في تلك الرحلة المأساوية. كان واضحًا الفارق الشاسع بين قدومهم بقلوب ملؤها السرور ومغادرتهم بثقل الحزن. طيلة الطريق، كان زياد وأحمد يصرخان في السيارة، يعبّران عن غضبهما وحيرتهما في محاولة لتحمل المشاعر القاسية التي تجتاحهما. بينما هايدي، التي غمرتها دموع الحزن، كانت تنتحب على والدها وعمها، كل دمعة تسقط كانت تعبر عن قلبها المكسور. أما جميلة، فلم تستطع كبح جماح أعصابها من ارتفاع أصواتهم المتزايدة. بعد ساعات طويلة على الطريق، التي بدت وكأنها أبدية، وصلت الأسرة أخيرًا إلى القرية، ولكن عند اقترابهم من المستشفى، شعروا بارتباكٍ عارم، وكانت أقدامهم تتقدم وتؤخر كأنهم يستعدون لمواجهة مصيرٍ مخيف. ما أن وصلوا أمام المستشفى، حتى تملكتهم قشعريرة من الخوف، وبدأت قلوبهم تخفق بسرعة، خاصةً عندما اقتربوا من غرفة حسين والمعلم حنفي. عندما دخلوا الغرفة، استقبلتهم مشاهد مؤلمة، وكأنها كانت بركانًا يثور فوق رأس زياد، الذي ذاب عقله من هول ما رأى. كان والده، حسين، ملقى على سرير المرض في حالة يرثى لها، جسده ذليلٌ، لا يتحرك له ساكن. كانت أسنانه مهشمة، وملامح وجهه مشوهة من آثار الضرب، بينما كانت البقع الملونة تغمر جسده. اقترب "زياد" منه بقلب مفعم بالخوف، وبدون وعي منه، انحنى ليقبل يديه، كما لو كان يريد أن يلامس تلك الأيادي التي لطالما كانت مصدر الأمان في حياته. في تلك اللحظة، كان صوته يتقطع، وسأله بفزعٍ يملؤه الخور:

_بابا، مالك يا حبيبي حصلّك إيه؟

حسين بمصرع:وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.
زياد باضطراب:أنا حاسس إنك مش كويس، ازاي الكلب ده يعمل كده؟

قال "جلال" لزياد بصياح، وكلماته كانت صرخة تخرج من أعماق قلبه المُتسلط:

_لاحظ إنك بتتكلم على خالي ياض!

تلفظ "أحمد" بعجيجٍ مع جلال، حيث كان صوته يعلو بحدة تعبر عن اضطراب نفسي كبير:

أم الديب الجزء الثالث

_انت كل اللي يهمك خالك؟ ومش همك اللي حصل لبابا وعمي؟ خدوا بالكم أنا مش هسكت على اللي حصلهم ده وهرجع حقهم من خالي الوسخ! أنا أبويا يتضرب ويتهان؟ ازاي بس؟ ازاي؟

جلال باستهزاء:كان اللي قبلك عرفوا يعملوها، هتروح وهتعمل بلاغ طب وبعدين؟ حد هيرد عليك؟ ولا أي حاجة، هتتعبوا نفسكم على الفاضي.
أحمد بتحدي:وأنا بحب أتعب نفسي على الفاضي! ليه يا جلال هو انت فكرك هروح أقدم بلاغ هنا؟ مانا عارف هنا مش هيعملوا أي حاجة! أنا هكلم الجهات المختصة وهما يتصرفوا بنفسهم، ضايع بقى خطر علينا كلنا!

قال "زياد" لأحمد بصياح، وكانت نبرة صوته يتردد فيها السخط، مستميتًا في إرجاع حق والده من ذلك البلطجي الذي دمر حياته وأدخله في دوامة من العجز:
_يلا يا أحمد! أنا مش هسيب حق أبويا ولو على جثتي!

أحمد باحتدام:يلا بينا.

خرج زياد وأحمد بخطوات قوية، كأنما تسير قلوبهما نحو هدفٍ لا يحتمل التأجيل، تاركين خلفهما جميلة وهايدي وسيليا مع باقي العائلة في العنبر المكتظ بالمرضى وأسرهم الذين يعبّرون عن أوجاعهم بنظرات يائسة. في الخارج، استجمع أحمد قواه، واتصل ببعض المعارف الذين قد يساعدونه في استرجاع حق عمه ووالده، وعندما انتهى من المكالمة، ركب السيارة مع زياد، مُتجهين نحو نقطة الشرطة في القرية، حيث كانت محركاتهما تتعالى بأقصى سرعة، وكأن الوقت قد أصبح عدوًّا يتسابق معهما. بينما كان أحمد يقود السيارة باندفاع، كان زياد يجلس بجانبه، صوت صراخه يملأ الأجواء بعبارات قهرٍ تعبر عن ألمه وحسرته على حال والده، متوعدًا كل من كان له دور في إحداث هذا الدمار.
في العنبر، وبينما كان الفزع يسيطر على الغرفة، نظرت "ليالي" إلى هايدي وجميلة بنظرة تحمل شماتة داخلية، وكأنها تراقب الموقف عن كثب، ولكنها تظاهرت بالحزن، وتوجهت إلى هايدي بكلمات تمثل مزيجًا من التهكم والشفقة، قائلة وهي تمسح دموعها التي لم تكن إلا مُصطنعة:
_شكلكم لسه راجعين من السفر، ده يا عيني تلاقيكم ملحقتوش تتهنوا.

هايدي ببكاء:ده أنا قولت إن ماما مش هتعرف والموضوع هيكمل! طلعلي تعب بابا وعمي من تحت الأرض، ازاي؟ معرفش.
ليالي بتجهُّم:معلش بقى المؤمن دايمًا مصاب، ده المؤمن مش أي حد من الناس بتوع بابي ومامي.
هايدي بتعجب:انتي بتتكلمي عن إيه؟
ليالي بدهاء:ولا أي حاجة، ربنا يشفي كل مريض، ربنا يزيح عنك يا حمايا.

كانت ليالي تنظر إلى جميلة بغلٍ، مشاعرها مشتعلة بالضغينة، وكأنها كانت تخفي سعادتها السرية بما يحدث. بينما كان أحمد يتصل بقمر الدين، ويخبره عما حدث، كان ضايع هو اسم الحديث، حيث قبضت

أم الديب الجزء الثالث

عليه السلطات بعد جهود مكثفة من قبل الجهات المختصة بوزارة الداخلية التي قامت بتعقب خطواته إلى أن ألقت القبض عليه، مما جعل شعور الانتصار يتأجج في قلب زياد. في تلك الأثناء، كان ضايع يجلس في الزنزانة، عينيه تائهتين في الظلام، محاطًا بجدرانٍ تتقارب عليه وكأنها تخنقه. بينما كانت "زوجته"، التي تنضح عيناها بالدموع، منهارة في صالة منزلها المرعبة، حيث كانت تصرخ من شدة الخوف على زوجها الملقى في قبضة الشرطة، وأبناؤها يحاوطونها من كل جانب، وقد قالت بنشيج:

_ازاي بس؟ دي عمرها ما حصلت في تاريخك يا ضايع يا حبيبي يا قلبي، كده تتحبس؟ تتحبس وتسيبني للدنيا لواحدي؟ طب ازاي؟ يا عيني عليك يا حبيبي.

تسلل الخبر إلى مسامع "أم الديب"، فتملّكها الحنق، مما جعلها تتصل بأحمد على الفور، معبرةً عن استيائها المتزايد، مهددةً إياه بضرورة التنازل عن المحضر وإلا فإن غضبها سيلاحقه إلى يوم الدين.

كان صوتها يرتفع بحدة، وكأنها تريد أن تُسمع جميع من حولها، فقالت له بصياحٍ يتخلله نبرة من التهديد:

_اسمع يالا! إن خالك مطلعش من السجن يبقى لا انت ابني ولا أعرفك!

أجابها "أحمد" بصخب، وعروقه تبرز لشدة الامتعاض، كأن الغضب يتفجر في داخله، مما جعله يتحدث بنبرة مشبعة بالتحدي:

=وأنا مش هتنازل عن قراري، اللي يضرب أبويا ويهينه مالوش عندي إلا الجزمة!

أم الديب بوعيد:خالك يطلع من السجن! لو خالك مطلعش يا أحمد آني هوريك اللي عمرك ما شوفته ويا تطلع خالك وقلبي يرضى عليك، يإما قلبي غضبان عليك ليوم الدين!

أحمد برفض:وأنا مش هسيب حق أبويا وعمي، سلام.

أغلق أحمد المكالمة في وجه أم الديب، فهو لن يترك حق والده وعمه مهما حدث، تاركًا إياها تغرق في دوامة من التهديد، بينما ظلت تصرخ في الصالة بمفردها، مهددة كل من حولها بأنها ستفعل الكثير من أجل أخيها ضايع. تفاقم الوضع حتى تحول من مجرد محضر إلى قضية اعتداء جسيم، حيث تدخل أهل جميلة من أجل مساعدة أحمد، مظهرين تضامنهم ودعمهم له في هذه المحنة. وبذلك، أصبح ضايع في قبضة الشرطة المصرية مرتديًا الزي الأزرق، متجسدًا في نهاية مأساوية لم تسر على بال أحد. وبعدما فشلت الشرطة في اللحاق به كل هذه السنوات، وافتعل مصائب لا حصر لها، من قتل وسرقة ونهب، جاء اليوم الذي سُدّت فيه كل الأبواب أمامه. هكذا تكون نهاية المعتدين، راقدين بين حديد السجن، يحاولون الفرار من المصير الذي حصدوه بيدهم. تجلت العبر، حيث أثبتت أن العدالة في النهاية تأخذ مجراها، وأن الحق لا بد أن يعود لأصحابه، مهما طال الزمن. ورغم الألم الذي عاشته العائلات بسبب هذه الأحداث المأساوية، إلا أن الأمل بدأ يظهر في الأفق، حيث عادت الحياة إلى طبيعتها تدريجيًا، والقلوب بدأت تشفى من جراحها. ها هي دروس الحياة تعلّمنا أن لكل فعل عاقبة، وأن الضحايا لن ينسوا ما حدث، بل سيسعون جاهدين إلى إعادة بناء ما تحطم. **يتبع في الجزء الرابع.....**